

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كما علمنا أنه محمد ، وعلى الله وسلام على رحمته
وفاؤهم زسله سيدنا محمد قديراً ..

فهذا جهاد عمرى العلى ، ومجسلة جهادى الاجتهادى
سرى فيه أنى عتق كتاب الله ما وتفا عنت الاستقبال فيعلمه الله
ولعل الكوب قد وفيت معه ايماناً وأدبت وأجيب عرغاني
وأساك الله سبحانه أنه تكونه خواطرس هذه مفتاح
خواطرسه يأتى بدس ، وكتاب الله لا تنفق عجايبه
حتى يرث الله الأرض ومنه عليها ، وحيفت نعلم
به الله ما العزة له هذه .

وحسبنا الله ونصر الوكيل ما

محمد بن عبد الله



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل ..

بسم الله الرحمن الرحيم .. والحمد لله رب العالمين ..
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ..

خواطري حول القرآن الكريم لا تعنى تفسيراً للقرآن .. وإنما هي هبات صفائية .. تنظر على قلب مؤمن في آية أو يضع آيات .. ولو أن القرآن من الممكن أن يفسر .. لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى الناس بتفسيره .. لأنه عليه نزل وبه اتفعل وله بلغ وبه علم وعمل .. وله ظهرت معجزاته . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اكتفى أن يبين للناس على قدر حاجتهم من العبادة التي تبين لهم أحكام التكليف في القرآن الكريم وهي افعل ولا تفعل .. تلك الأحكام التي يثاب عليها الإنسان ان فعلها ، ويعاقب ان تركها .. هذه هي أسس العبادة لله سبحانه وتعالى .. التي أنزلها في القرآن الكريم كمنهج لحياة البشر على الأرض .. أما الاسرار المكتنزة في القرآن حول الوجود ، فقد اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما علم منها .. لأنها بمقياس العقل في هذا الوقت لم تكن العقول تستطيع أن تتقبلها ، وكان طرح هذه الموضوعات سيثير جدلاً يفسد قضية الدين ، ويجعل الناس يتصرفون عن فهم منهج الله في العبادة الى جدل حول قضايا لن يصلوا فيها الى شيء .

والقرآن لم يأت ليعلمنا أسرار الكون ، ولكنه جاء بأحكام التكليف واضحة وأسرار الوجود مكتنزة .. حتى تتقدم الحضارات ويتسع فهم العقل البشري .. فيكشف الله سبحانه وتعالى من أسرار الكون ما يجعلنا أكثر فهماً ل إعطاءات القرآن

لأسرار الوجود ، فكلمنا تقدم الزمن وكشف الله للإنسان عن سر جديد في الكون ظهر اعجاز في القرآن .. لأن الله سبحانه وتعالى قد أشار الى هذه الآيات الكونية في كتابه العزيز .. وقد تكون الإشارة الى آية واحدة أو بضع آيات .. ولكن هذه الآية أو الآيات تعطينا اعجازا لا يستطيع العلم أن يصل الى ذقته .

والقرآن الكريم حمل معه وقت نزوله معجزات .. تدل على صدق البلاغ عن الله سبحانه وتعالى .. وعن صدق رسالة رسول الله صل الله عليه وسلم .. وكانت أول معجزة أن القرآن كلام الله .. فيه من عطاء الله ما تحبه النفس البشرية ويستميلها ..

انه يخاطب ملكات خفية في النفس لا نعرفها نحن ولكن يعرفها الله سبحانه وتعالى خالق الانسان وهو أعلم به .. هذه الملكات تفعل حين تسمع القرآن فتلين القلوب ويدخل الايمان اليها .. ولقد تنبه الكفار الى تأثير القرآن الكريم في النفس البشرية .. تأثرا لا يستطيع أن يفسره أحد .. ولكنه يجذب النفس الى طريق الايمان ويدخل الرحمة في القلوب .

لذلك كان أئمة الكفر يخافون أكثر ما يخافون .. من سماع الكفار للقرآن .. ويحاولون منع ذلك بأي وسيلة .. ويعتدون على من يتلو القرآن .. ولو أن هذا القرآن لم يكن كلام الله الذي وضع فيه من الأسرار ما يخاطب ملكات خفية في النفس البشرية .. ما اهتم أئمة الكفر أن يستمع أحد للقرآن أو لا يستمع .. ولكن شعورهم بما يفعله كلام الله .. جعلهم لا يمنعون سماع القرآن فقط .. بل قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالنُّزُوءَ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَبُونَ ١٦﴾

(سورة فصلت)

وهكذا نعرف أنه حتى أهل الكفر كانوا لا يمنعون سماع القرآن فقط .. بل يطلبون من أنصارهم أن يلغوا فيه ، ومنعاهما (يشوشرون عليه) . ولا يمكن أن يكون هذا هو مسلكتهم وتلك هي طريقتهم الا خوفا مما يفعله القرآن في كسب النفس البشرية الى الايمان .. إن مجرد تلاوته تجذب النفس الكافرة الى منبج الله .



ولو تأخذ مثلاً قصة اسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه .. نجد أنه علم أن اخته فاطمة وزوجها ابن عمه سعيد بن زيد قد أسلموا .. فأسرع اليهما ليطلبهما وحاول أن يفتك بسعيد بن زيد .. فلما تدخلت زوجته فاطمة لحمايته .. ضربها حتى سال منها الدم .. وعندما رأى عمر الدم يسيل من وجه أخته فاطمة .. رق قلبه وحدث في قلبه انفعال بالرحمة بدلاً من انفعال الايذاء .. فخرج العناد من قلبه وملاه الصفاء .. فطلب من أخته صحيفة القرآن التي كانتا يقرآن منها .. وقرأ من أول سورة طه ثم قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه .. ثم أسرع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن اسلامه .. ولذلك فإنه اذا خرج العناد والكفر من القلب .. واستمع الإنسان بصفاء الى القرآن دخل الايمان الى قلبه .

لقد سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه القرآن قبل ذلك ولم يسلم .. ولكنه عندما رأى الدم يسيل على وجه أخته وتبدل انفعال الايذاء في قلبه بانفعال الرحمة .. استقبل القرآن بنفس صافية فامتلاً قلبه بالايمان وأسرع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن اسلامه .

ولذلك كان الكفار يحاولون إهاجة مشاعر الكفر في القلوب حتى لا يدخلها القرآن .. لانه لكي تستقبل الايمان يجب ان تخلص قلبك من الكفر أولاً .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم لأنه كلام الله .. فإن له تأثيراً خاصاً في النفس البشرية .. حتى ان الكفار كانوا يسترقون سماع القرآن من وراء بعضهم البعض .. وكانوا يقولون إن له خلابة وإن عليه لطلاوة .. وإن أعلاه لشمس .. وإن أسفله لمغنى .. وأنه يعلو ولا يعلى عليه .. وكان هذا أول اعجاز لان القرآن الكريم هو كلام الله تبارك وتعالى .

ولقد وقف الصحابة والمؤمنون الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند عطاء القرآن وقت نزوله فيما استطاعت عقولهم أن تطيقه من اسرار الكون .. ومن اسرار القرآن الكريم .. فلم نجد صحابياً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى آيات الكون في القرآن .. أو عن عطاءات القرآن في اللغة .. فمثلاً لم يسأل أحد عن معنى « ألم » .. أو « عسق » .. أو « حم » .. مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستقبل كثيرين يؤمنون بكتاب الله .. وكثيرين يكفرون بما أنزل الله .. وكان هؤلاء الكفار يريدون أن يقيموا الحجة ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسلم وضد القرآن الكريم .. لم نسمع أن أحدا منهم .. وهم قوم بلغاء فصحاء
عندهم اللغة ملكة وموهبة وليست صناعة .. لم نسمع أحدا من الكفار قال ماذا
تعني « ألم » .. أو « حم » .. أو « عسق » .

كيف يمر الكافر على فواتح السور هذه ولا يجد فيها ما يستطيع أن يواجه به رسول
الله صلى الله عليه وسلم ويحاده .. لقد كانت هذه هي فرصتهم في المجادلة ..
ولاشك أن عدم استخدام الكفار لفواتح السور هذه .. دليل على أنهم انغلغوا بها
وان لم يؤمنوا بها .. ولم يجدوا فيها ما يمكن أن يستخدموه لحدم القرآن أو التشكيك
فيه .. ولو أن هذه الحروف في فواتح السور كانت تحدم هدفهم .. لقالوا للناس
وجاهروا بذلك .

رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو الذي عليه القرآن نزل - فبر وبين كل
ما يتعلق بالتكليف الايمان .. وترك ما يتعلق بغير التكليف للأجيال القادمة .. وجر
الزمن وشيخ الله لعباده من أسرار آياته في الأرض ما يشاء .. فيكون عطاء القرآن
متساويا مع قدرة العقول .. لماذا ؟ لأن الرسائل التي سبقت الاسلام كانت محدودة
الزمان والمكان .. أما القرآن الكريم فزمته حتى يوم القيامة .. ولذلك فلا بد أن
يقدم إعجازا لكل جيل .. ليظل القرآن معجزة في كل عصر .

والقرآن نزل يتحدى العرب في اللغة والبلاغة .. ولكن لأنه دين للناس
جميعا .. فلا بد أن يتحدى غير العرب فيها أيضا .. ولذلك نزل متحديا لغير
العرب وقت نزوله .. فقد حدثت حرب بين الروم والفرس وقت نزول القرآن ..
وكانت الروم والفرس تمثلان في عصرنا الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد
السوفيتي .. كانا أعظم وأقوى دولتين في ذلك العصر .. وحدثت الحرب بينهما
وانهزم الروم .. وإذا بالقرآن ينزل بقوله تعالى :

﴿ اِنَّ عِلَّةَ الْروُمِ ۚ فِيْ اَذْنِ الْاَرْضِ وَهُمْ مِنْۢ بَعْدِ قَلِيلٍۭ سَيَظِلُّوْنَ ۝ۚ فِيْ
مَضْجِ سِنِيْنٍ ۚ لِلّٰهِ الْاَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُ الْمُؤْمِنُوْنَ ۝ۚ ﴾

مبسوطة .. وعند خط الاستواء تراها مبسوطة .. وإذا سرت من نقطة على الأرض وظللت تسير الى هذه النقطة فالأرض أمامك دائيا مبسوطة .. ولا يمكن أن يحدث هذا أبدا الا اذا كانت الأرض كروية .. فلو أن الأرض مثلثة أو مربعة أو مسدسة .. أو على أى شكل هندسى آخر .. لوصلت فيها الى حافة ليس بعدها شيء .. ولكن لكى تكون الأرض مبسوطة أمامك فى أى مكان تسير فيه لابد أن تكون على هيئة كرة .

هذا الاعجاز الذى يتفق مع قدرات العقول .. وقت نزول القرآن الكريم .. فإذا تقدم العلم ووصل الى حقيقة لما كان يعتقد الناس .. نجد أن آيات القرآن تتفق مع الحقيقة العلمية اتفاقا مذهلا .. ولا يقدر على ذلك الا الله سبحانه وتعالى .

ولو أن النبى صلى الله عليه وسلم تعرض لهذه الآيات الكونية تعرضا لا يتناسب مع استعدادات العقول وقت نزول القرآن .. فانه ربما صرف العقول عن أساسيات الدين الى جدل فى أسرار كون لا يستطيع العقل أن يستوعبها أو يفهمها .. ولكن الحق تبارك وتعالى ترك فى الكون أشياء لوثبتت العقول فى العلم .. بحيث كلما تقدم العلم وجد خيطا يربط بين آيات الله فى الكون وآياته فى القرآن الكريم .. ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر كونييات القرآن وقت نزوله لجمد القرآن .. لأنه لا أحد منا يستطيع أن يفسر بعد تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وبذلك يكون عطاء القرآن قد جمد .. ولكن ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم للتفسير أتاح الفرصة لعطاءات متجددة للقرآن الكريم الى قيام الساعة .. وهكذا كان المنع هو عين العطاء .. وهذه معجزة أخرى من اعجاز القرآن الكريم .

كلمة قرآن ساعة تسمعها تفهم أنه يقرأ .. قرآن مصدر قرأ مثل غفر غفرانا .. ولكن بعد نزول القرآن الكريم أصبح لفظ قرآن اسما بكلام موحى به من الله سبحانه وتعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقصد التحدى .. ويسميه الله تبارك وتعالى كتابا .. اذن هو قرآن اذا اخذنا أنه يقرأ .. وهو كتاب اذا اخذنا أنه يكتب .. والقراءة تستلزم حافظا والكتابة لا تستلزم حافظا .. فالانسان حين يقرأ من كتاب ليس محتاجا الى الحفظ ، ولذلك فالقرآن وسيلتان من وسائل التلاوة . يحفظ فى الصدور ويسجل فى السطور .. بحيث تستطيع فى أى وقت أن تقرأ من الكتاب .



وحين بدأ تدوين القرآن الكريم كتابة كان لا يكتب منه آية إلا إذا كانت مكتوبة على جلود النخل أو الجلود .. أو أى وسيلة أخرى من وسائل الكتابة في عصر نزول القرآن .. وزيادة على أن الآية تكون مكتوبة .. كان لابد أن يكون هناك اثنان على الأقل من الصحابة الحافظين لها .. إلا آية واحدة لم توجد مكتوبة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عند حافظ واحد فقط وكان القياس يقتضى ألا تكتب هذه الآية .. وهى قوله سبحانه وتعالى :

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ٥٨﴾

(سورة الأحزاب)

ولكن أنظر الى الخواطر الایمانية يقدفها الحق سبحانه وتعالى في قلوب المؤمنين ليكمل منهجه .. هذه الآية لم يوجد من يحفظها الا خزيمة بن ثابت ، وعندما ناز الجدل حول تدوينها ، ذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من شهد له خزيمة فحبه) (١) .

عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت اسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها لم أجدها مع أحد الا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري رضى الله عنه الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادة رجلين (من المؤمنين رجال ..) .

وكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قد أعطى خزيمة بن ثابت وحده نصاب شهادة رجلين .. وهذه لها قصة .. ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسا من أعرابي .. فاستبغه النبی صلى الله عليه وسلم ليقتضيه ثمن فرسه أى ليعطيه ثمن الفرس .. فأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشى .. وأبطأ الأعرابي .. فطلق رجال (أى أخذ رجال) يعترضون الأعرابي ليسأموه في الفرس دون أن يعرفوا

أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ابتاعه .. فتأدى الأعرابي الرسول عليه الصلاة والسلام فقال : ان كنت مبتاعا هذا الفرس والا بعت .. أى هل تريد شراء الفرس أو أبيع ؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أوليس ابتعت منك ؟ .. فقال الأعرابي ما بعتك (أى ما بعت لك) .. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بلى قد ابتعت منك .. فقال الأعرابي هلم شهيدا .. أى اتنى يشاهد .. فقال خزيمه بن ثابت أنا أشهد أنك بايعته (أى بعت له) .

ويعد أن انصرف الناس .. أقبل النبي صلى الله عليه وسلم على خزيمه .. فقال : بم تشهد ؟ .. (أى كيف شهدت على هذا) .. ولم تكن موجودا وقت المبايعه بيني وبين الأعرابي . فقال خزيمه : بتصدقك يا رسول الله .. (أى هل تصدقك في كل ما تأتي به من خبر السماء وتكذبك في هذه) .. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شهادة خزيمه بشهادة رجلين .. فأخذت شهادته بشهادة رجلين وتم تدوين الآية .. وكان خزيمه يدعى ذو الشهادتين .. لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أجاز شهادته بشهادتين (١)

وإذا أردنا أن نعرف القرآن .. فانه لا بد أن نخرج عن مقاييس البشر .. فالتناس حين يُعرفون الأشياء يقولون : حله كذا .. ورسمه كذا .. الى آخره .. ولكننا كي نعرف القرآن الكريم نقول ان القرآن هو ابتداء من قوله تعالى :

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢﴾

(فاتحة الكتاب)

الى أن نصل الى قوله جل جلاله :

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ١ مَلِكِ النَّاسِ ٢ إِلَهِ النَّاسِ ٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ٥ مِنَ الْخَفِيِّ وَالنَّاسِ ٦﴾

(سورة الناس)

أى أنه من أول سورة الفاتحة . . الى آخر سورة الناس . . على أن نستعيد بالله من الشيطان الرجيم . . قبل أن نقرأ أى آية من القرآن . . كما علمنا الحق سبحانه وتعالى في قوله :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾

(سورة النحل)

لكن العلماء اريدوا التخفيف على الناس في تعريف القرآن الكريم . . فقالوا هو كلام الله . . نَزَّلَهُ على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقصد التحدى والاعجاز ليبين للناس منبج الله . . والقرآن يتفق مع المناهج التى سبقته ، ولكنه يضيف عليها ويصحح ما حذف منها لأنه موحى به من الله . . فالتوراة والانجيل والزيور من الله . . ولكنها تحمل المنهج فقط . . اما القرآن الكريم . . فهو المنهج والمعجزة الدالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

التوراة كانت منبج موسى وكانت معجزته العصا . . والانجيل منبج عيسى ومعجزته ابراء الاكمه والابرص باذن الله . . اذن بالنسبة للرسل السابقين . . كانت المعجزة شيئا والمنبج شيئا آخر ، ولكن القرآن تميز أنه المنبج والمعجزة معا . . ذلك ان المناهج التى ارسلها الله على الرسل السابقين انزلها على نية تغييرها . .

ولكن القرآن الكريم . . نزل على نية الثبات الى يوم القيامة . . ولذلك كان لايد ان يؤيد المنبج بالمعجزة حتى يستطيع اى واحد من اتباع محمد عليه الصلاة والسلام ان يقول محمد رسول الله وتلك معجزته . . ولكن معجزات الرسل السابقين حدثت وانتهت . . لأنها معجزات حسية . . من رآها آمن بها . . ومن لم يرها فهو غير مقصود بها . . لأنها حدثت لتثبت المؤمنين . . الذين يتبعون الرسول . . فمعجزة عيسى عليه السلام لا يمكن ان تعود الآن من جديد . . وعصا موسى التى شقت البحر لا يستطيع اتباع موسى ان يأتوا بها الآن ليقولوا هذه معجزته . .

اذن فالرسل السابقون لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان لكل منهم منبج ومعجزة . . ولكن كليهما منفصل عن الآخر . . فالمنبج عين المعجزة حالة مفقودة في الرسالات كلها . . ولكنها في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم امر موجود يمكن ان

بشار إليه في أى وقت من الاوقات ..

ونظرة واحدة فيما قال الله سبحانه وتعالى في كونيات الحياة التى اتبعت للبشرى فى القرن العشرين .. نجد أن القرآن الكريم يشير إليها لأن العمر فى الرسالة القرآنية الى ان تقوم الساعة .. ومادام الى ان تقوم الساعة .. يظل القرآن معجزة حتى قيام الساعة .. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ سَتَرْنَاهُ بِابْنِنَا فِي الْأَفَاقِ وَكَانَ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة فصلت)

أى أن القرآن له عطاءان فى الاعجاز .. العطاء الاول آيات فى الافلاك ، وهذه هى الآيات الكونية .. والعطاء الثانى وآيات فى أنفسهم ، وهذه هى الآيات التى تتعلق بأسرار الجسد البشرى .. وقول الحق : «حتى يتبين لهم انه الحق » أى أن القرآن هو الحق .. ولذلك يمكن ان نقول ان آيات الكون مستأن موافقة لآيات القرآن الكريم .. أى ان الله سبحانه وتعالى وضع فى القرآن الكريم من آيات الكون وأسواره وعن الجسد البشرى وتكوينه آيات يمكن أن يعطيها المؤمنين وغير المؤمنين ..

ولقد اعطى الله تبارك وتعالى من آيات الكون المؤمنين .. فبرع المسلمون الاوائل فى العلوم .. مثل جابر بن حيان الذى وضع اساس علم الكيمياء .. وابن سينا الذى وضع اساس علم الطب والفلك والرياضيات .. وابن النفيس الذى اكتشف الدورة الدموية ووصفها وصفا علميا دقيقا .. وابن الهيثم الذى برع فى الرياضيات والطبيعات والطب .. وكان اول من شرح تركيب العين وكيف تعمل وأبو القاسم الذى نبغ فى العمليات الجراحية وغيرها .

ثم أعطى الله سبحانه من آيات الكون غير المؤمنين مما نشهده الآن من بحصة علمية فى دول الغرب .. وذلك يفسر قوله تبارك وتعالى :

« حتى يتبين لهم انه الحق » أى أن آيات الكون .. مستجمل المنكرين للقرآن

الكريم يعترفون انه الحق . . ذلك ان المؤمن يعرف ان القرآن هو الحق . . ولكن المنكر للإسلام يكشف الله له آية في امر معجز . . بين له ان هذا الدين حق . . ولقد حدث اخيرا في مؤتمرات الاعجاز العلمي للقرآن الكريم ان اعلن عدد من العلماء اعتناقهم للدين الاسلامي .

واذا أردنا ان نعرف شيئا عن معجزة القرآن فانظر ماذا قال عن الكون وكروية الارض ودورانها حول نفسها . . وما يحدث في اعماق البحار وغير ذلك مما لم يكشف الا في القرن العشرين . . واذا اردنا ان نعرف الاعجاز في القرآن في قوله «وفي انفسهم» فلننظر الى مراحل تكوين الجنين ومراكز الاعصاب في الجسد البشري وتكوين الاذن والعين وغير ذلك من اعجاز لا يمكن ان يتحدث عنه بهذه الدقة إلا خالفه . . وهذا ما شهد به علماء نبخوا في علومهم بينما هم متكرون للإسلام وللقرآن ! وهذه الحقائق العلمية التي أشار اليها القرآن الكريم لا يستطيع أحد أن ينكرها الآن لانها أصبحت ثابتة الوجود .

والقرآن حين يتحدى فإنه لا يمكن أن يأتي بمعجزة لا يعرف عنها الخلق شيئا . . فأتت لا تتحدى كسيحا في سرعة المشي . . ولا شيخا كبيرا ضعيفا في حمل الاثقال . . ولكنتك اذا تحدت فلا بد ان تتحدى مجموعة من الناس فيها نبخوا فيه . .

ولذلك اذا قلنا ان القرآن جاء يتحدى العرب في اعجاز الاسلوب واللغة . . فهذه شهادة للعرب اهم نبخوا في دنيا الكلمة . . وهنا عندما يغلبهم القرآن ويعجزهم يكون هذا هو التحدي . . تحد فيها نبخوا وتفوقوا فيه . . ولذلك كان لا بد ان يكون العرب عندهم نبوغ فطري في الكلمة . . ويكون الاداء الجيد المميز للكلمة مألوفاً لديهم شعرا ونثرا وخطابة .

وحين جاء القرآن الكريم يتحدى غير العرب . . تحداهم في آيات الكون والخلق ولذلك نجد مثلا قول الحق سبحانه وتعالى عن اصحاب النار :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَثِيرًا نَاصِبًا ۖ وَلَهُمْ جُودُومٌ بِدَلْسِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا يَبْدُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٦١﴾

هذه الآية الكريمة عندما نزلت فهمت بأنه كلما احترقت الجلود تجددت ، وعندما توصل العلم الحديث الى ان مراكز الاعصاب موجودة تحت الجلد مباشرة بحيث انه اذا احترق الجلد ضاع الاحساس بالألم ، كانت هذه معجزة جديدة للعالم كلها في عصرنا . . يريد بعض الناس ان يتخذ العلم إلها من دون الله . وهكذا كان الاعجاز المتجدد الذي يجعل القرآن معجزة خالدة . . وهذا دليل جديد على ان القرآن من عند الله وأنه كلام الله .

نأتي بعد ذلك الى معجزة اخرى في اختيار رسول الله عليه الصلاة والسلام واعداً للرسالة . . اننا إذا تتبعنا حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم نجد ان الله تبارك وتعالى اختاره أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك أجرى عليه معجزات كلها تنطق بصديق رسالته صلى الله عليه وسلم . . أولها انه لم يشتهر عليه الصلاة والسلام انه نبغ في شعر أو نثر مثل قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي . . ومن هنا كان حظ رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاغة حفظاً عادياً دون نبوغ .

ومع ذلك فقد جاءت رسالته عليه الصلاة والسلام تتحدى قومه في البلاغة وفي اللغة . ولو انه صلى الله عليه وسلم كان مشهوراً بالشعر أو النثر أو الخطابة لقالوا ان القرآن عبقرية ادائية لمواهب كانت موجودة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ الصغر . . ومواهب الناس عادة تظهر قبل سن العشرين أو الثلاثين اذا كانت الموهبة متأخرة ، ولكنها لا تظهر فجأة على الانسان في سن الأربعين ، ولا توجد عبقرية تتأخر أبداً حتى الأربعين . . ولكن الناس فوجئوا بان محمداً عليه الصلاة والسلام الذي ما خطب وما كتب وما قال شعراً بأن يقرآن يعجز عنه أشهر البلغاء . . واكثرهم موهبة في فن الكلام . . من اين ان بهذا الكلام المعجز الذي تحدى به الانس والجن وهو في هذه السن ؟!

بعض الناس يدعون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عنده الاعجاز اللغوي . . وأخفاه عن الناس حتى سن الأربعين وبعد ذلك اظهره . . نقول ان هذا الكلام لا يتفق مع العقل . . لأننا نعيش في عالم اغيار يموت الناس فيه قبل سن العشرين وقبل سن الثلاثين وقبل سن الأربعين . . فمن الذي اخبر محمداً عليه الصلاة والسلام انه لن يموت قبل سن الأربعين حتى يكتب هذه العبقرية الى هذه السن . . لقد مات أبوه وهو في بطن امه . . وماتت امه وهو طفل صغير . . هذه

المقدمات لا يمكن أن توحى إلى محمد عليه الصلاة والسلام أن يكتم عبقرته عن الناس حتى يصل إلى هذه السن ، لأن أباه وأمه قد ماتا وهو طفل صغير .

ولذلك عندما جاء الكفار وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغير القرآن كما يروى لنا القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْجُؤْ لِقَاءَنَا أَنتِ بِرُءُوسِنَا غَيْرَ هَذَا أَوْ يَدُلُّهُ قُلٌّ مَّا يَكُونُ لَكَ أَنْ أُنْذِرَهُمْ مِنْ تَقْصَاتِي تَقْصَىٰ إِلَّا يُأْوِسُوكَ إِنْ آتَاكَ إِنْ آتَاكَ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ ٥٥ ﴾

(سورة يونس)

ولو أن هذا القرآن من عند محمد عليه الصلاة والسلام ربما بدله حتى يؤمن من كفر ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يعلم رسوله صلى الله عليه وسلم ليرد عليهم بالحجة البالغة :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ قُرْآنًا وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَهُ ٥٦ ﴾

(سورة يونس)

الله سبحانه وتعالى يعلم رسوله الكريم أن يرد على الكفار أنه عاش معهم أو بعين سنة قبل الرسالة .. لم يشتهر بينهم بالحظابة والشعر أو البلاغة .. فلو أنهم فكروا بعقولهم لعرفوا أن هذا القرآن ليس من عند رسول الله ، بل من عند الله . ثم من هذا الذي ينسب إليه الكهال فيرفضه ؟ .. ويقول هذا ليس من عندي .. مع أن الناس تدعى كمالات الغير .. فكم من إنسان رأى إعجاب الناس بعمل من الأعمال .. لم يعرف صاحبه فنسب إلى نفسه .. بل إن الناس تتصارع على نسب

الأشياء الجيدة لنفسها .. وكم رأينا نزاعا أمام القضاء بين أشخاص مختلفين كل منهم يدعى ملكيته لعمل جيد .

ثم تأن لفئة أخرى : رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لم يقرأ ولم يكتب .. هل يمكن أن تكون له ثلاثة أساليب متميزة تختلف بعضها عن بعض تماما .. وهي أسلوب القرآن الكريم وأسلوب الأحاديث القدسية وأسلوب الأحاديث النبوية .. لا توجد صغرية في الدنيا من يوم أن خلقت إلى يومنا هذا لها ثلاثة أساليب لكل منها طابع مميز لا يتشابه مع الآخر .. كيف يمكن أن يفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتكلم بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي .. بحيث يعطى كلا منها طابعا وأسلوبا يميزه عن الآخر ..

إن لكل شخص أسلوبه الذي يتميز به ... وأنت إذا كنت مطلعا في علوم اللغة والأدب .. فبمجرد أن تقرأ الكلام تقول هذا كلام فلان ، لأن لكل شخص منا أسلوبا يميزه .. فكيف استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقيم كلامه .. فيقول هذا قرآن وهذا حديث قدسي وهذا حديث نبوي .

إذن فاختلاف القرآن الكريم والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية .. أكبر دليل على أن القرآن والأحاديث القدسية ليست من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأن الشخصية الأسلوبية لأي إنسان هي شخصية مميزة .. ولا يمكن أن يتفعل أحد بأحداث الحياة .. فيكتب كل مرة بأسلوب مختلف تماما عن الأسلوب الآخر .. أو يكتب اليوم بأسلوب وغدا بأسلوب وبعد غد بأسلوب .. ثم يعود بعد ذلك إلى الأسلوب الأول .. أنه إذا قرأ أحدهم القرآن تقول هذا قرآن ، وإن تلا أحدهم حديثا قدسيا تقول هذا حديث قدسي .. وإذا قال أحدهم حديثا نبويا قلنا حديث نبوي .. ولكل إنسان منا شخصية أسلوبية واحدة .. إذا حاول أن يخرج منها فأنها تغلبه .. والفروق الهائلة في الأساليب بين القرآن والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية أكبر دليل على صدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .

واحتار الكفار ماذا يفعلون .. ولم يجدوا ثغرة من منطق ينفلون منها .. فإذا

قالوا ؟ .. قالوا ساحرا !! وكان الرد ببساطة ان المسحور ليست له ارادة مع الساحر .. بحيث يستطيع دفع السحر عن نفسه ، وأن الساحر يسحر من أمامه رغما عن إرادتهم .. فإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم ساحرا فلماذا لم يسحركم انتم حتى تؤمنوا به .. وبأى شيء رددتم السحر عن انفسكم ؟ .

ان ادعاءكم هذا يكذب حجتكم لأن كونكم الآن جالسين تقولون ساحر .. فمعنى ذلك انه لم يسحركم .. ولو كان ساحرا حقيقيا لأجبركم بسحره على أن تتبعوه . وقالوا مجنون .. نقول لهم ان المجنون عمل بغير رغبة . بمعنى أنك لا تستطيع أن تتنبأ بما يفعله المجنون في اللحظة القادمة . فقد يجلس يتحدث معك وبعد دقيقة واحدة يضربك .. ونجده يبكى وبعد ثوان قليلة يضحك .. ورد الله تبارك وتعالى عليهم :

﴿ تَٰٓءَاوٰٓا۟ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۚ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۚ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَحْمُودٍ ۚ ۝٣ وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خَلْقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾

(سورة القلم)

والشهادة من الله بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم على خلق عظيم .. لا تتصادم مع ما يعرفه الكفار عنه قبل الرسالة .. فهو شهادتهم كان معروفا بالصدق والأمانة والخلق الحسن وكانوا يلقبونه بالأمين .. وكانوا يأمنونه على أموالهم وكل شيء له قيمة .. ولتعرف كيف يتناقض الكفار مع انفسهم نقول لهم كيف تأمنون انسانا مجنونا على أغلى ما تمتلكون .. هل هذا يتمشى مع العقل .. أبذهب الانسان بأغلى ما عنده ويضعه عند رجل مجنون ؟ .. طبعا مستحيل لا يمكن ان يكون المجنون على خلق عظيم .

وقالوا شاعر وكاهن .. فرد القرآن الكريم بقوله تبارك تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَقُولُ رَسُولٌ ذَكِيٌّ ۚ ۝١ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۚ ۝٢ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۚ ۝٣ ﴾

(سورة الحاقة)

وقولهم شاعر مردود عليه .. بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل شعرا في حياته .. والمواهب لا تأتي فجأة بل لابد أن تصقلها التجربة والخطأ .. تماما كالذي يقود السيارة .. عندما يبدأ لابد أن يكون معه انسان يعرف قيادة السيارة .. ويعلمه فيخطئ ويصيب .. ثم بعد ذلك يقود السيارة آليا ..

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانت عنده ملكة الشعر ولا دربه أحد عليه .. أما قولهم كاهن فالانسان ينسى بمرور الوقت ، لذلك قيل اذا كنت كذوباً فكن ذكورا .

واذا أردنا أن نعرف الحقيقة فأنا نسأل الانسان على فترات .. فإن كان كاذبا فإنه يتخبط في أقواله .. ورسول الله صلى الله عليه وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب .. كان ينزل عليه الوحي بالآيات فيتلوها على أصحابه .. ثم يؤذن للصلاة بعد ذلك بساعات .. فيتلو رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة .. الآيات التي نزلت عليه دون أن يتغير منها حرف واحد .. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

« قليلا ما تذكرون » .. لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كان يأتي بالقرآن من عنده لنسى ولغير ويدل .. لأن الذاكرة لا يمكن أن تستوعب بنفس الالفاظ ما قاله . ولو أنك جئت بانسان وطلبت منه أن يتحدث في موضوع معين وسجلته له .. ثم طلبت منه أن يعيد بعد نصف ساعة ما قاله .. لا يمكن أن يأتي بنفس الكلام أو بنفس الالفاظ أو بنفس الترتيب .

والحق سبحانه وتعالى يعطى رسله منهجه بالوحي .. ويكون عطاؤه غيبا لأن الله غيب .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَ إِلَهَ إِلَّا وَجْهًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسَلْ رَسُولًا قَبْرِي بِإِذْنِهِ مَا يَنْسَأُ^١ إِنْهُمْ عَلَى حَكِيمٍ ۝١١﴾

(سورة الشورى)

ذلك لأن التكوين البشرى لا يمكن أن يستقبل من الله مباشرة .. والوحي اعلام

بخفاء ، ولكي تقرب المعنى من الأذهان .. تقول أنك لو كنت لا تريد ان تقابل ضيفا ثقيلا فأنك تتفق مع خادمك على اشارة معينة .. فإذا جاء وأخبرك أمام الحاضرين بأن فلانا وصل .. تعطيه اشارة فلا يدخله الى المنزل .. هذه الاشارة المتفق عليها .. لا يفهمها أحد من الحاضرين ولا يعرف معناها ..

هذا هو معنى الوحي اعلام بخفاء .. لا يفهمه أحد الا الموحى ومن يوحى اليه .. والوحي مادام اعلاما بخفاء فانه يقتضى موجه .. وموحى اليه وموحى به ..

ولقد أوحى الله للرسول وأوحى الى غير الرسل .. فأوحى للملائكة وإلى أم موسى وإلى الخواريين وللنحل وللأرض .. وهناك وحى من الشيطان لأوليائه هذا هو الوحي اللغوي .. أما الوحي الشرعي فيكون وحيا من الله لرسوله . وكان وحى الله لموسى عليه السلام ان كلمه من وراء حجاب .. وكان وحى الحق جلي جلاله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بأن أرسل له جبريل عليه السلام .. ويحيى الملك بالوحي فيسمع رسول الله عليه الصلاة والسلام صلصلة الجرس تنبئها ويتم اللقاء بين جبريل والرسول فتتغير كياويات جسد الرسول .. حتى انه حينما جاءه الوحي لامست ركبته الشريفة ركية صحابه كان يجلس بجواره فأحس كأنها جبل .. واذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم راكبا الناقة .. فتنام أو تبرك الناقة على الأرض ولا تستطيع السير .. وكانت لفظة أخرى من الله تبارك وتعالى .. انه لا تناقض مطلقا بين القرآن وبين العلم .. فاذا جاءت نظرية علمية تناقض القرآن الكريم .. فالقرآن على حق والنظرية باطلة .. وهناك نظريات أخفاها الله سبحانه وتعالى عنا .. ولكن أخفاهما لها لا يظهر شيئا .

فالشمس ينتفع بها كل الناس ولا يعلم حقيقتها أحد .. وكذلك بعض الظواهر الكونية الأخرى .. فكل ما أخفاه الله عنا هو جهل لا بضر ولا يقلل انتفاعنا بالكون ..

والقرآن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .. ولقد حمل منيع الله للبشر ليحمي حركة الانسان الاختيارية في الكون .. ومادام الانسان يلتزم في حياته بالقرآن الكريم فانه يستمتع بالجمال في الكون .. اما اذا خالفه فيكون الانسان قد سعى الى شقائه . ولقد ظهرت الداءات والأمراض في المجتمعات عندما خالف

الانسان منبج السماء ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَاءً مَوْشِقًا وَرَحْمَةً ۝٢٦﴾

(سورة الاسراء)

لماذا قدم الله سبحانه وتعالى الشفاء على الرحمة .. لأن الرحمة تقى الناس من أى شر قادم .. ولكن لا بد من الشفاء أولاً .. وعندما نزل القرآن كانت الامراض والداءات تملأ المجتمعات .. الظلم وأكل حقوق الناس واستعباد الانسان للانسان وغير ذلك من أمراض المجتمع .. فجاء الاسلام أولاً ليشفى هذه الامراض اذا اتبع منهجه .. ثم بعد ذلك أتى الرحمة وتمنع عودة هذه الداءات . فاذا حدثت غفلة عن منبج الله .. جاءت الداءات والامراض .. فاذا عدت الى صيدلية القرآن تأخذ منها الدواء يتم الشفاء .



﴿ اَعُوْذُ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ ﴾

طلب الله سبحانه وتعالى من كل مؤمن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . .
قبل أن يقرأ القرآن . . إذن فالاستعاذة هي أول التفاء . . بين المؤمن وبين بداية
قراءته للقرآن الكريم والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ ﴾ (١)

(سورة النحل)

وواضح أن الآية الكريمة . . تطلب منا الاستعاذة بالله من الشيطان قبل أن نقرأ
القرآن . . ذلك أن كل مخلوق إذا اتجه إلى خالفه واستعاذ به يكون هو الأقوى برغم
ضعفه وهو الغالب برغم عدم قدرته . . لأن الله عندما يكون معك . تكون قدرتك
وقوتك فوق كل قدرة وأعلى من كل قوة . . لأنك جعلت الله سبحانه وتعالى في
جانبك . ونحن حين نقرأ القرآن لابد أن نصفى جهاز استقبالنا لحسن استقبال
كلام الله . وفي هذه الحالة لا نفعل ذلك بقدرتنا نحن ولا بقوتنا . . ولكن بالاستعاذة
بقوة وقدره الله . . لماذا ؟ لأن معوقات المنهج عند الإنسان المؤمن إنما هي من عمل
الشيطان .

وإليس يأتي دائما من الباب الذي يرمى فيه المنهج ضعيفا . . فإذا وجد انسانا
متشددا في ناحية يأتي له من ناحية أخرى . فلو أن العبد المؤمن متشدد في الصلاة . .
يحافظ عليها ويؤديها في أوقاتها ، جاءه إبليس من ناحية المال . يؤسوس له بألا
يخرج الزكاة لأنها ستؤدى به إلى الفقر . ويؤسوس له أن يأكل حقوق الناس . .
مدخلا السرور إلى نفسه بالوهم بأنه سيصبح غنيا أننا مطمئنا على غده . . وهذا
كذب .

والحقيقة هي التي رواها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : (ما نقص مال من صدقة)^(١) والصدقة هي التي تكثر المال وتضع فيه البركة فيزداد وينمو .. والمال هو مال الله يتقل من يد الى يد في الدنيا .. ثم يموت الانسان ويتركه .. ولكن ابليس يستغل غفلة الناس عن هذه الحقيقة ليدفعهم الى المال الحرام .. فاذا كان الانسان متشددا من ناحية المال .. جاءه من ناحية المرأة فيظل يزين له امرأة خليعة .. يوسوس له حتى يسقط في الزنا .. وإن كان قويا في هذه التواحي كلها .. زين له ابليس الخمر أو مجلس السوء أو التهمة .. المهم أن ابليس يظل يدور حول نقاط الضعف في الانسان ليسقطه في المعصية .

ولذلك فإن الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، إنما تجعل الله سبحانه وتعالى يقرى نقاط الضعف فيك . فلا يستطيع الشيطان أن ينفذ اليك وأنت تقرأ القرآن ليضع في رأسك هواجس تلهيك عن هذه القراءة .. ذلك أن عطاء الله في القرآن الكريم يساوي بين جميع الخلق .. فعطاء القرآن متساو ولكن كل انسان يأخذ عل قدر إيمانه .. فالقرآن يقرأ والناس تسمع . ولكن هل يتقبل الجميع القرآن تقبلا متساويا ؟ نقول لا .. فقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنِذَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ ﴾^(٢)

(سورة محمد)

أي أن القرآن لم يؤثر فيهم .. ولكنه أثر في المؤمنين الذين استمعوا اليه مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ ءَأَعْجَبٌ وَعَرَبِيٌّ مُّسْتَلَوٍّ ۚ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَآءَ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ءِذَا قِيلَ لَهُمْ وَرَوْعٌ عَلَيْهِمْ أَمْرٌ أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ ﴾^(٣)

(سورة فصلت)

(١) رواه احمد وسلم والترمذي عن أبي هريرة ، وثمة الحديث : وما زاد الله عبدا بعوا إلا هزا ، ومترواح أحد لله إلا رفعا .

﴿يَقِيْنُ ءَادَمَ لَا يَفْتِنُكَ الشَّيْطَانُ كَمَا اُتْرَجَ اٰوِيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسًا
لِّرِيْهِمَا سَوَآءًا ؕ اِنَّ رِيْكَ هُوَ رَقِيْبُهُمْ ۚ مِنْ حَيْثُ لَا تَوْنُهُمْ ؕ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِيْنَ
اَوْلِيَآءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ ۝﴾

فلابد من أن نستعيد بقوة تستطيع أن تقهر الشيطان وتدمره . الله سبحانه وتعالى طلب منا أن نستعيد به وأن نلجأ إليه . لأنه هو القادر على أن يحمينا . . ويصفي قلوبنا ونفوسنا من همزات الشياطين . فيحسن استقبالنا للقرآن الكريم . . لأنه إذا صفت أنفسنا لاستقبال القرآن . . فإن آياته الكرمة تحس قلبك ونفسك وتكون لك هدى ونورا .

والشيطان قد قضى الله سبحانه وتعالى في أمره . فطردوه من رحمة وجعله رجيا مبعدا . . والشيطان يعرف أن مصيره النار . ويعتقد أن آدم هو السبب . . لأن بداية المعصية كانت رفض إبليس طاعة أمر الله في السجود لآدم . . وقال كما يروى لنا القرآن الكريم .

﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا أَنَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالُوا أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (١٦)

وكانت معصية ابليس في القصة . . لانه رد الأمر على الأمر . . وقال لن اطيع ولن

اسجد لآدم لأن خبر منه .. هو من طين وأنا من نار .. فكانه لم يرض بحكم الله سبحانه وتعالى وأراد أن يعدله . وهذه معصية في القصة .. جعلت الله تبارك وتعالى يطرد إبليس من رحمته .. ويصفه بأنه رجيم .. وذلك حتى نعرف أن مصيره النار وأن الله لن يغفر له .

وبدا إبليس بغواية آدم عليه السلام .. فأدم عاش في جنة تعطيه مقومات حياته بلا تعب ولا عمل .. وكان في الجنة ألوف الأشجار تعطى كل الثمرات وهي حلال لآدم وحواء يأكلان منها مايشاءان .. ماعدا شجرة واحدة حرمها الله عليها .. وكانت هذه الشجرة هي بداية الخطيئة .. بدأ إبليس يفرى آدم وحواء على المعصية .. كيف ؟ .. حاول اقناعهما بأن عدم الأكل من هذه الشجرة .. سيحرمهما من خير كبير .. وقرأ قول القرآن الكريم :

﴿ فَرَسَسَ لِمَا أَشْطَبْنُ لِيَدِي لِمَا مَلُؤَرَى عَنْهَا مِنْ سَوْءِ تَبَاهَا وَقَالَ مَا نَهَاكَ رَبُّكَ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝١٥﴾

(سورة الأعراف)

وفي إغواء آخر :

﴿ فَرَسَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُ هَلْ أَذْكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لَابِئِلَ ۝١٦﴾

(سورة طه)

وهكذا نعرف أن إبليس يأتي للإنسان من أكثر من زاوية .. لذلك كانت الزاوية الأولى هي أن هذه الشجرة من يأكل منها .. يكون ملكاً أو يكون خالداً .. وكان الاغواء الثاني أن هذه الشجرة تعطى لمن يأكل منها بجانب الخلود ملكاً لا ينتهى .

إذاً فإبليس يصور للإنسان .. أن ما منعه الله عنه هو الخير .. وأنه لو عصى فسيحصل على المال والثروة .. لقد أكل آدم وحواء من الشجرة .. فلم يخلدا ولم يأت لهما ملك لا ينتهى . بل ظهرت عورتهما وعرفا أن إبليس كان كاذباً .. وأن الله

سبحانه وتعالى بمنهجه وما ينهانا عنه إنما كان يريد لها الخير .

ولكن الشيطان يأبى ويزين للأنسان طريق الباطل . . ولو أن آدم كان قد حكم عقله لعرف كذب وسوسة ابليس . . فأبليس كما يدعى كان يدل آدم على شجرة الخلد . . ولو أن هذه الشجرة كانت تعطى الخلد فعلا . . لما طلب ابليس من الله تبارك وتعالى أن يبقى على حياته الى يوم القيامة . . بل لأكل من الشجرة ونال الخلد .

ولكن ابليس دخل من ناحية الغفلة في النفس البشرية ليوقع آدم في المعصية . . وهو يدخل الى أبناء آدم من ناحية الغفلة أيضا . ولو أن أبناء آدم حكموا عقولهم وهم يعرفون أن هناك عداوة مسبقة بين آدم وابليس . . وأن ابليس طلب من الله سبحانه وتعالى أن يقيه الى يوم القيامة ليستقم من آدم وأولاده بإغوائهم على المعصية . . لو تنبهنا الى ذلك لأخذنا حذرنا . . وعندما نتكشف وسوسة الشيطان فانه يهرب .

ابليس دخل الى ناحية الغواية بأن أقسم بعزة الله . . وأن الله عزيز لا يحتاج لحلقه . ولا يضره سبحانه وتعالى من كفر . ولا يزيد شيئا في ملكه من آمن . . استغل عزة الله في استغاثته عن خلقه . فقال كما يروى لنا القرآن الكريم .

﴿ قَالَ قَرِّبْنِيْكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ ۝۱۵ ﴾

(سورة ص)

ولكن الحق تبارك وتعالى . أخبرنا أنه طرد ابليس من رحمته وساء رجيا . حتى نعرف جميعا أنه لن يدخل في رحمة الله أبدا .

ابليس دخل الى غواية بنى آدم بعزة الله سبحانه وتعالى عن خلقه . . فلو أن الله أراد خلقه جميعا مهدين . . ما استطاع ابليس أن يتقدم ناحية واحد منهم . . وقرأ قوله سبحانه :

﴿ إِنْ لَّمْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝۱۶ ﴾

(سورة الشعراء)

إذن الله سبحانه وتعالى .. هو الذى أعطى للإنسان حق الاختيار ولو شاء لجعله مقهوراً على الطاعة كباقي الخلق .. من نقطة الاختيار هذه . وقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ قَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَفِيضُوا يَغْتَابُوا بِمَا كَانُوا يَشْأَوِ الْيَوْمَ يُنَسَّفُ الْأَشْرَابُ وَنَسَاءٌ مَرَّتَقًا ۝١٦﴾

(سورة الكهف)

إذن فالله سبحانه وتعالى . يَبِيْنُ لنا طريق الهدى وطريق المعصية .. ثم ترك لنا ان نختار طاعة الله ورحمته .. أو معصية الله وعذابه .. ولم يعطنا الحق تبارك وتعالى هذا الاختيار الا في فترة محدودة هي حياتنا في الدنيا .. فعندما يختصر الانسان نمحده بشريته .. ويصبح لا اختيار له . كما ان الله جل جلاله لم يعطنا الاختيار في كل أحداث الدنيا .. بل أعطاه لنا في المنهج فقط في الطاعة أو المعصية .

ولكى ننقذ الشيطان في حياتنا . شرح لنا القرآن الكريم كيف سيفوز ابليس بى آدم .. واقرأ القرآن الكريم :

﴿ قَالَ فِيمَا اغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾

(سورة الأعراف)

أى أن ابليس لا يجتهد في اغواء من باع نفسه للمعصية .. وانطلق بخالف كل ما أمر به الله .. فالتفلسف بالأمارة بالسوء لها شيطانها .. وهى ليست محتاجة الى اغواء لأنها تأمر صاحبها بالسوء .. ولذلك فإن ابليس لا يذهب الى الخبازات وبيوت الدعارة . ويبدل جهداً في اغواء من يجلسون فيها .. لأن كل من ذهب الى هذه الأماكن .. هو من شياطين الانس .. ولكن ابليس يذهب الى مهايضة الطاعة وأماكن العبادة .. هؤلاء يبدل معهم كل جهده وكل حيله ليصرفهم عن عبادة الله ، ولذلك لا بد أن تنبه الى أن ابليس لم يقل لأقعدن لهم على الطريق المعوج ..

فالتريق المعوج بطبعته يتبع الشيطان .. فإبليس يريد أهل الطاعة .. يزين لهم
المعصية ويفريهم بالمال الحرام .
القرآن الكريم يقول :

﴿ ثُمَّ لَا يَخِيبُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ
شَاكِرِينَ ۝ ١٧ ﴾

(سورة الاحراف)

هذه هي جهات الفجأة التي يأتي منها إبليس .. من بين أيديهم أى من أمامهم
وهذه هي الجهة الاولى . ومن خلفهم أى من ورائهم وهذه هي الجهة الثانية ..
وعن أيمنهم أى من اليمين وهذه هي الجهة الثالثة .. وعن شمالكهم أى من الشمال
وهذه هي الجهة الرابعة .. وكلنا نعلم أن الجهات ست وليست أربعا .. فما هما
الجهتان اللتان لا يأتي منهما الشيطان ؟ .. هما فوق وتحت .. حرب إبليس من هاتين
الجهتين بالذات .. ولم يقل سأتى لهم من فوقهم أو من تحتهم ، لأنه يعلم أن الجهة
العليا تمثل الفوقية الالهية .. وأن الجهة السفلى تمثل العبودية البشرية حينما يسجد
الانسان لله .. ولذلك ابتعد إبليس عن هاتين الجهتين تماما .

ومن العجيب أنك اذا نظرت الى أبواب الاتحاد في كل عصر .. تجدنا نأتى من
الجهات التي يأتي منها الشيطان .. يقولون تقدمى جهة الامام .. ورجعى جهة
الخلف ويميني جهة اليمين ويساري جهة اليسار .. نقول لهم نحن لسنا في أى جهة
من هذه الجهات . لا تقدميين ندعو الى التحلل والفجور .. ولا رجعيين نقول هذا
ما وجدنا عليه آباءنا . ولا يساريين ننكر الدين ونناصر الكفر .. ولا يمينيين نؤمن
بالرأسمالية واستغلال الانسان .. ولكننا أمة محمدية فوقية . كل أمورنا من الله .
ومادامت أمورنا من الله سبحانه وتعالى .. فنحن لا نخضع لمساوينا . ولكننا نخضع
لله العمل القدير .. ومادامت نخضع لأهل منك . فلا ذلة أبدا بل عزة ورفعة .
مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ يَقُولُونَ لِمَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَلِئِكَةِ لَمَّا كُنَّا فِي الْأَعْنَاقِبَةِ الْأُذُلُ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ
وَلَكِنْ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ١٨ ﴾

(سورة المنافقون)

ونحن أمة محمدية فوقية .. نعلن عبوديتنا وخضوعنا لله .. ونتبع منهج السبأ .. ولذلك فقد تميزنا عن البشر جميعا لأن كل إنسان في الدنيا لا يخضع لله سبحانه وتعالى ولا يأخذ منهجه عنه فهو خاضع لمنهج بشرى وضعه مساو له من البشر .. والنفس البشرية لما هوى تريد أن تحققه . لذلك فهي تضع المنهج الذي يمكنها من أن تتميز به على الناس .. المنهج الذي تستفيد منه هي وحدها .. وقد يكون المنهج من وضع مجموعة أفراد أو طبقة .. نقول أن مناهجهم لفائدتهم .. ولكن الله سبحانه وتعالى يضع منهجه ليعطيك خيرا .. لا يأخذ منك الخير ، لأنه جل جلاله مصدر الخير كله . وهو ليس محتاجا لما تملك ولا ما يملك كل البشر . إذن العدل والخير والعزة هي منهج السبأ .. فאלله لا يأخذ منك ولكن يعطيك . ولا بذلك ولكن بعزك .

على أن هناك لفظة .. لا بد أن نتبها إليها . لهذه الفوقية هي التي جعلت الله سبحانه وتعالى يختار أمة أمية .. ليكمل فيها آخر صلة للسبأ بالأرض . ويختار من هذه الأمة رسولا أميا .. أى كبا ولدته أمه . لم يأخذ ثقافة من مساويه .. لم يتشقق على الشرق أو على الغرب . ولم يقرأ لفلان فيتأثر به .. أو لفيلسوف فيتبعه . ولكن الذى علمه هو الله جل جلاله .

إذن فالأمية شرف لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأنها تؤكد أن كل ما جاء به هو من الله سبحانه وتعالى . ولذلك فكل ما يأتي به معجزة لأنه من وحى السبأ .. فلو أن القرآن نزل على أمة متحضرة كالفرس أو الروم .. أو على نبي غير أمي .. قد قرأ كتب الفلاسفة والعلماء من الشرق والغرب .. لقليل أن القرآن النقاء حضارات وهبات عقل وإصلاحات ليقود الناس حركة حياتهم .. ولكن لا . هي أمة أمية - ورسول أمي .. تأكيداً لصلتها بالسبأ .. وأن ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام . لا يدخل بشر ولا ثقافة ولا حضارة به . وهو ليس من معطيات عقول البشر .. ولكنه من الحق تبارك وتعالى .. ليصبح محمد صلى الله عليه وسلم وهو الرسول الأمي معلما للبشرية كلها . وهكذا نعرف أن الشيطان لا يستطيع أن يقترب من مكان صعود الصلاة وصالح الاعمال إلى السبأ ومن مكان الخضوع والعبودية لله سبحانه وتعالى .

وقد أصر الشيطان على غواية الإنسان .. حتى لا يكون هو العاصي الوحيد .

فإدّام عصى وطرد من رحمة الله لماذا يكون هو العاصي الوحيد ؟ .. لماذا لا يكون الكل عاصيا ؟ .. وإذا كانت معصية الشيطان بسبب عدم السجود لأدم .. فلماذا لا يأخذ أولاد آدم معه إلى النار ؟ انتقاما منهم ومن أبيهم . بعض الناس يقول .. إبليس عصى وأدم عصى . والله سبحانه وتعالى طرد إبليس من رحمته وغفر لأدم .. نقول إن هناك فرقا بين معصية ومعصية . معصية إبليس كانت معصية في القصة .. تزد الأمر على الأمر . تقول لا .. لن أسجد ولن أطيع لأنني من نار وهو من طين .. فكان رد الأمر على الأمر .. أما آدم فقال : يارب أمرك الحق .. وقولك الحق ومنهجك الحق .. ولكنني ضعيف لم استطع أن أحمل نفسي على الطاعة .. فسامح ضعفي يارب ، ولذلك شرع له الله سبحانه وتعالى التوبة . وعلمه كلمات ليتوب عليه .

إذن فهناك فرق بين معصيتين . معصية تقول لن أطيع لأنني خير منه .. ومعصية يعترف فيها العبد بالخطأ والضعف ويتوجه إلى الله طالبا التوبة والغفران . ويرغم أن الله سبحانه وتعالى قد أبلغنا في القرآن الكريم أن الشيطان عدو لنا .. في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُذَّوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ١٦ ﴾

(سورة فاطر)

فإن الإنسان لا يمتنع .. ولذلك في كل مرة نقرأ فيها القرآن .. يريد الله سبحانه وتعالى .. أن نستعبد به من الشيطان الرجيم .. حتى إذا كان الشيطان قد مسنا أو غلبنا في حدث من أحداث الحياة .. فإن الله سبحانه وتعالى يبعده عنا ونحن نقرأ القرآن .. حتى تصفو قلوبنا ونكون قد أبعدنا الشيطان .. وما حاول أن يوسوسه لنا ليعبدنا عن المنهج .

عندما نستعبد بالله من الشيطان الرجيم .. فهناك مستعاذ به وهو الله تبارك وتعالى من الشيطان .. والشيطان من خلق الله وأنت من خلق الله . فمن الممكن أن ينفرد خلق الله بخلق الله ، ويكون القوى بقوته . أما إذا اتحمت أحدهما بخالفه فالثاني لا يقدر عليه . وأنت إذا تركت تفكيرك للشيطان .. انفرد بك . ولذلك تستعبد بالله الذي خلقك وخلق الشيطان .. فيعينك عليه .. ولذلك حين نهد قوما مؤمنين وقوما كافرين .. إن ظل المؤمنون موصولين برهم . لا يهزمهم الكفار

أبدا .. فإذا بعدوا عن منبج الله .. يهزمهم الكفار .. لانه في هذه الحالة يكون القتال بين فئتين ابتعدتا عن الله .. اذن فعندما يفرد خلق بخلق .. فالقوى هو الذى يغلب . أما إذا احتسى خلق بخلقهم . فلا يقدر عليهم أحد . البشر يقدر على البشر إذا بعدت الفئتان عن الله .. فإن كانت الفئتان معتمدين بالله .. فلن يتقاتلا .

والحق تبارك وتعالى .. يريدك حين تقرأ القرآن . أن تصفى جهاز استقبالك تصفية تضمن حسن استقبالك للقرآن .. بأن تبعد عنك نزع الشيطان .. حينئذ تستقبل القرآن بصفاء .. وتأخذ منه كل عطاء . فإذا استعدت بالله من الشيطان الرجيم . تكون في جانب الله فلا يأتيك الشيطان أبدا .. ولذلك ساقى الشيطان يوم القيامة ليقول لمن اغواهم كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

(سورة ابراهيم)

اذن فالشيطان ليس له سلطان على الانسان أن يفهره على فعل لا يريد .. أى ليس له سلطان القهر . وليس له سلطان على أن يقنع الانسان بالمعصية .. وهذا اسمه سلطان الحجة .. فالسلطان نوعان .. قهر لمن لا يريد الفعل . وإقناع يجعلك تقبل الفعل وأنت راض .. الشيطان ليس له سلطان القهر على عمل لا يريد . وليس له سلطان الحجة .. ليقنعا بأن نفعل ما لا نريد أن نفعله .. ولكن المسألة ان وسوسة الشيطان .. وجدت هوى في نفوسنا فتبعناه .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يمنع عنا هذه الوسوسة .. ونحن نقرأ القرآن .. ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذى خلق الشيطان .. وهو الذى أعطاه القدرة على أن يوسوس للإنسان .. لماذا ؟ .. لانه لو أن الطاعة وجدت بدون مقاوم ..

لا تظهر حرارة الايمان .. ولا قوة الاقبال على التكليف .. وانما عندما يوجد إغراء والخاص في الاغراء .. وأنت متمسك بالطاعة . فذلك دليل على قوة الايمان .. فاما كما أنك لا تعرف قوة امانة موظف إلا إذا أغريته برشوة . فلو أنه لو لم يتعرض لهذا الاغراء .. فلن تختبر امانته أبدا .. ولكن إذا تعرض للاغراء .. وتمسك بأمانته ونزاهته فهذه هي الامانة ..

والله سبحانه وتعالى أعطانا الاختيار لأنه يريد من خلقه من يطيعه وهو قادر على معصيته .. ويؤمن به وهو قادر على عدم الايمان .. لأن هذه تثبت صفة المحبوبة لله . الخلق المقهور لله يأتي له قهرا .. لا يقدر على المعصية .. وهذا يثبت القهر والجبروت لله .. ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد خلقا يأتيه عن حب .. وقد يكون هذا الحب من أجل عطاء الله في الآخرة ونعيمه وجنته . فلا يضمن الله تعالى عباده بها .. وقد يكون عن حب لذات الله . لذلك يقول بعض اهل الصفاء في معنى الآية الكريمة :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ الْكَوْكَبُ ۚ قَدْ كَانَ رَجُؤُا لِقَاءِ رَبِّهِ ۚ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ۝۱۱۶﴾

(سورة الكهف)

يقولون إن الجنة أحد .. لأن الحق سبحانه وتعالى قال ومن كان يريد لقاء ربه .. أي الأئس بقاء الله .. فان كنت تعمل للذات وليس للعطاءات .. فانك تكون في أئس الله يوم القيامة .. والذي عمل للجنة سيأخذها .. والذي عمل لما هو فوق الجنة يأخذه .

أو لم يخلق الله تعالى جنة ونارا ، أما كان اهلا لأن يعبد ؟! ولقد قالت رابعة العدوية : واللهم إن كنت تعلم أن أعبدك طمعا في جنتك فاحرمني منها ، وإن كنت تعلم أن أعبدك خوفا من نارك فارسلني فيها ، أنا أعبدك لأنك تستحق أن تعبد .

والحق سبحانه وتعالى : يريدك عندما تقرأ القرآن .. أن تصفى نفسك له سبحانه وتعالى . وهو جل جلاله يعلم مكائد الشيطان ومدخله الى النفس البشرية . وأنه سيوسوس لك ما يفسد عليك فطرتك الايمانية .. فيأخذ القرآن على فطرة

فسلئت . فلا يحدث استقبال لفيوضاته على النفس البشرية . . ولكن اذا استعدت بالله ، فقد استعدت بخالق . . فلا يجرؤ الخلق على الاقتراب منك . ولذلك إن أردت من جهاز استقبالك أن يكون صالحا لصفاءات الارسل ، سامعا لكلام الله . . لأن الله هو الذى يتكلم . . فالقرآن ليس كلام القارئ له . ولكنه كلام الله سبحانه وتعالى . . ولذلك قال سيدنا جعفر الصادق رضى الله عنه . . وكان أكثر آل بيت رسول الله معرفة بأسرار القرآن الكريم . . ان مفزعات الحياة عند الانسان . . اخوف والغم والهم والضر وزوال النعمة . . قال عجبت لمن خاف ولم يفزع الى قول الله سبحانه وتعالى : حسينا الله ونعم الوكيل . فقد سمعت الله بعدها يقول : «فانقلبوا نعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء» وعجبت لمن ابتلى بالضر ولم يفزع الى قول الله سبحانه وتعالى «إني مسى الضر وانت ارحم الراحمين» فقد سمعت الله بعدها يقول : «فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر» . وعجبت لمن ابتلى بالغم كيف لم يفزع الى قول الله تعالى «لا إله إلا أنت سبحانك ان كنت من الظالمين» فقد سمعت الله بعدها يقول : «فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين» . وعجبت لمن أضر . . ولم يفزع لقول الله سبحانه وتعالى : «وأفوض أمري الى الله إن الله بصير بالعباد» . . فقد سمعت الله تعالى بعدها يقول : «فوقاه الله سيئات ما مكروا» .

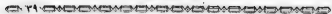
وأنت مادمت في معية خالفك لا يجرؤ الشيطان أن يذهب إليك أبدا . .
وحين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في غار ثور ومعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم الهجرة . . والكفار عند مدخل الغار بسلاحهم . . ماذا قال أبو بكر رضى الله عنه ؟ قال لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأنا . . وهذا واقع لا يكذب إلا بصفاء إيمان . . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحبه : ما ظنك بآئين الله ثالثهما . . وهو ماتشير اليه الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ١٥

(سورة التوبة)

اذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم . . ومعه أبو بكر رضى الله عنه كلاهما في معية الله . . ولكن هل كونها في معية الله . رد على قول أبي بكر : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرأنا . . فنقول نعم . . لأنها في معية الله . والله لا تدركه الأبصار - فلا تدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الأبصار كذلك ماداما في معية الله .

المراجع



سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

القرآن الكريم منذ اللحظة التي نزل فيها نزل مقرونا بسم الله سبحانه وتعالى - ولذلك حينما نتلوه فإننا نبدأ البداية نفسها التي أرادها الله تبارك وتعالى - وهي أن تكون البداية بسم الله . وأول الكلمات التي نطق بها الوحي لمحمد صلى الله عليه وسلم كانت «اقرأ باسم ربك الذي خلق» . وهكذا كانت بداية نزول القرآن الكريم ليبارس مهمته في الكون .. هي بسم الله . ونحن الآن حينما نقرأ القرآن نبدأ نفس البداية .

ولقد كان محمد عليه الصلاة والسلام في غار حراء حينما جاءه جبريل وكان أول لقاء بين الملك الذي يجعل الوحي بالقرآن .. وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قول الحق تبارك وتعالى : «اقرأ» .

واقرا تتطلب ان يكون الانسان .. إما حافظا لشيء يحفظه ، أو أمامه شيء مكتوب ليقرأه .. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان حافظا لشيء يقرؤه .. وما كان أمامه كتاب ليقرأ منه .. وحتى لو كان أمامه كتاب فهو أمي لا يقرأ ولا يكتب .

وعندما قال جبريل : «اقرأ» .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أنا بقارىء .. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام منطقيا مع قدراته . وتردد القول ثلاث مرات .. جبريل عليه السلام يوحى من الله سبحانه وتعالى يقول للرسول : «اقرأ» ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أنا بقارىء .. ولقد أخذ خصوم الاسلام هذه النقطة .. وقالوا كيف يقول الله لرسوله اقرا ويرد الرسول ما أنا بقارىء .

نقول إن الله تبارك وتعالى .. كان يتحدث بقدراته التي تقول للشيء كن فيكون ،

بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحدث بشرته التي تقول أنه لا يستطيع أن يقرأ كلمة واحدة، ولكن قدرة الله هي التي ساعد هذا النبي الذي لا يقرأ ولا يكتب لتجعله معلماً للبشرية كلها إلى يوم القيامة .. لأن كل البشر يعلمهم بشر .. ولكن محمداً صلى الله عليه وسلم سيعلّمه الله سبحانه وتعالى . ليكون معلماً لأكثر علماء البشر .. يأخذون عنه العلم والمعرفة . لذلك جاء الجواب من الله سبحانه وتعالى :

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ﴾

(سورة العلق)

أي أن الله سبحانه وتعالى . الذي خلق من عدم . سيجهلك تقرأ على الناس ما يعجز علماء الدنيا وحضارات الدنيا على أن يأتوا بمثله .. وسيكون ما تقرؤه وأنت النبي الأمي أعجازاً .. ليس لهؤلاء الذين سيسمعونه منك فقط لحظة نزوله . ولكن للدنيا كلها وليس في الوقت الذي ينزل فيه فقط ، ولكن حتى قيام الساعة ، ولذلك قال جل جلاله :

﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ ﴾

(سورة العلق)

أي أن الذي ستقرؤه يا محمد .. سيظل معلماً للإنسانية كلها إلى نهاية الدنيا على الأرض .. ولأن المعلم هو الله سبحانه وتعالى قال : «اقرأ وربك الأكرم» مستخدماً صيغة المبالغة . فهناك كريم وأكرم .. فأنت حين تتعلم من بشر فهذا دليل على كرم الله جل جلاله .. لأنه يسهل لك العلم على يد بشر مثلك .. أما إذا كان الله هو الذي سيعلّمك .. يكون «أكرم» .. لأن ربك قد رفعك درجة عالية ليعلّمك هو سبحانه وتعالى ..

والحق يريد أن يلفتنا إلى أن محمداً عليه الصلاة والسلام لا يقرأ القرآن لأنه تعلم القراءة، ولكنه يقرؤه باسم الله ، ومادام بسم الله .. فلا يهيم أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلم من بشر أولم يتعلم . لأن الذي علّمه هو الله .. وعلمه

فوق مستوى البشرية كلها .

على أننا نبدأ أيضاً تلاوة القرآن باسم الله . . لأن الله تبارك وتعالى هو الذى أنزله لنا . . ويسر لنا أن نعرفه ونطوئه . . فالأمر لله علماً وقدره ومعرفة . . وأقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ قُرْآنًا وَلَا أَدْرَأْتُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ ١٢ ﴾

(سورة يونس)

لذلك أنت تقرأ القرآن باسم الله لأنه جل جلاله هو الذى يسره لك كلاماً وتنزيلاً وقرآناً . . ولكن هل نحن مطالبون أن نبدأ فقط تلاوة القرآن باسم الله ؟ . . إنا معطايون أن نبدأ كل عمل باسم الله . لأننا لا بد أن نحترم عطاء الله فى كونه . فعين نزرع الأرض مثلاً . . لا بد أن نبدأ باسم الله . . لأننا لم نخلق الأرض التى نحراثها . . ولا خلقنا البذرة التى نبلرها . ولا أنزلنا الماء من السماء لينمو الزرع .

إن الفلاح الذى يمسك الفأس ويرمى البذرة قد يكون أجهل الناس بعناصر الأرض ومحتويات البذرة وما يفعله الماء فى التربة لينمو الزرع . . إن كل ما يفعله الإنسان هو أنه يعمل فكره المخلوق من الله فى المادة المخلوقة من الله . . بالطاقة التى أوجدها الله فى أجسادنا ليتم الزرع .

والإنسان لا قدرة له على إرغام الأرض لتعطيه الثمار . . ولا قدرة له على خلق الحية لتنمو وتصبح شجرة . ولا سلطان له على إنزال الماء من السماء . . فكانه حين يبدأ العمل باسم الله ، يبدؤه باسم الله الذى سخر له الأرض . . وسخر له الحب ، وسخر له الماء ، وكلها لا قدرة له عليها . . ولا تدخل فى طاقته ولا فى استنطاقه . . فكانه يعلم أنه يدعى على هذه الأشياء جميعاً باسم من سخرها له . .

والله تبارك وتعالى سخر لنا الكون جميعاً وأعطانا الدليل على ذلك . فلا تعتقد أن لك قدرة أو ذاتية فى هذا الكون . . ولا تعتقد أن الأسباب والقوانين فى الكون لها ذاتية . بل هى تعمل بقدرة خالقها . الذى إن شاء أجراها وإن شاء أوقفها .

الحمل الضخم والليل المائل المستأنس قد يقودها طفل صغير فيطيعانه . ولكن الحية صغيرة الحجم لا يقوى أى إنسان على أن يستأنسها . ولو كنا نفعل ذلك بقدرتنا .. لكان استئناس الحية أو الثعبان سهلا لصغر حجمها .. ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يجعلها مثلا لنعلم أنه بقدراته هو قد أخضع لنا ما شاء ، ولم يخضع لنا ما شاء . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَمْلُوكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة يس)

وهكذا نعرف أن خضوع هذه الأنعام لنا هو بتسخير الله لها وليس بقدرتنا .

يأتى الله سبحانه وتعالى الى أرض ينزل عليها المطر بغزارة . والعلماء يقولون إن هذا يحدث بقوانين الكون . فيلفتنا الله تبارك وتعالى الى خطأ هذا الكلام . بأن تأتى مواسم جفاف لا تسقط فيها حبة مطر واحدة لنعلم أن المطر لا يسقط بقوانين الكون ولكن بإرادة خالق الكون .. فإذا كانت القوانين وحدها تعمل فمن الذى عطّلها ؟ ولكن إرادة الخالق فوق القوانين ان شاءت جعلتها تعمل وإن شاءت جعلتها لا تعمل .. اذن فكل شيء فى الكون باسم الله . هو الذى سخر وأعطى .. وهو الذى يمنح ويمنع . حتى فى الأمور التى للإنسان فيها نوع من الاختيار .. وأقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسَّاءُ لَكَ السَّحَابُ وَالْأَرْضُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَبْهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا ذَوِي قُوَّةٍ ﴿٧٣﴾ أَوْزِرُوهُمْ ذُرَّاءَ زُرَّاءَ وَتَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَزِيزٌ قَدِيرٌ ﴿٧٤﴾ ﴾

(سورة الشورى)

والأصل فى الذرية أنها تأتى من اجتماع الذكر والأنثى .. هذا هو القانون .. ولكن القوانين لا تعمل الا بأمر الله .. لذلك يتزوج الرجل والمرأة ولا تأتى الذرية لانه ليس القانون هو الذى يخلق .. ولكنها إرادة خالق القانون .. ان شاء جعله

يعمل .. وان شاء يطل عمله .. والله سبحانه وتعالى لا تحكمه القوانين ولكنه هو الذي يحكمها .

وكما أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل القوانين تفعل أو لا تفعل .. فهو قادر على أن يخرق القوانين .. خذ مثلاً قصة زكريا عليه السلام .. كان يكفل مريم وبانيها بكل ما تحتاج إليه .. ودخل عليها ليجد عندها مالم يحضره لها ..
وسألها وهي القديسة العابدة للملازمة لمحراها ..

﴿ قَالَ يَسْمِعُكَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُ ۖ إِنَّكَ عَلَيْنَا مِنْ ذَلِكُمْ عَظِيمٌ ۚ ﴾

(سورة آل عمران)

الحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة .. مع أن مريم يسلوها وعبادتها وتقواها فوق كل الشبهات .. ولكن لنعرف أن الذي يفسد الكون .. هو عدم السؤال عن مصدر الأشياء التي تتناسب مع قدرات من يحصل عليها ..
الأم ترى الأب يتفق ما لا يتناسب مع مرتبه .. وترى الابنة ترتدى ما هو أكبر كثيراً من مرتبتها أو مصروفها .. ولو سألت الأم الأب أو الابنة من أين لك هذا ؟ لما قدس المجتمع .. ولكن الفساد يأتي من أننا نغمض أعيننا عن المال الحرام .
بماذا ردت مريم عليها السلام ؟

﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۖ ﴾

(سورة آل عمران)

اذن فطلاقة قدرة الله لا يحكمها قانون .. لقد لفتت مريم زكريا عليها السلام إلى طلاقة القدرة .. فدعا زكريا ربه في قضية لا تنفع فيها الا طلاقة القدرة .. فهو رجل عجوز وامرأته عجوز وعاقرة ويريد ولدا .. هذه قضية ضد قوانين الكون .. لأن الانجاب لا يتم الا وقت الشباب ، فإذا كبر الرجل وكبرت المرأة لا ينجبان ..
فها باللك اذا كانت الزوجة أساساً عاقراً .. لم تنجب وهي شابة وزوجها شاب ..

فكيف تنجب وهي عجوز وزوجها عجوز .. هذه مسألة ضد القوانين التي تحكم البشر .. ولكن الله وحده القادر على أن يأتى بالقانون وضده .. ولذلك شاء أن يرزق زكريا بالولد وكان .. ورزق زكريا بابنه يحيى :

اذن كل شيء في هذا الكون باسم الله .. يتم باسم الله ويأذن من الله .. الكون تحكمه الأسباب نعم ولكن إرادة الله فوق كل الأسباب .

أنت حين تبدأ كل شيء باسم الله .. كأنك تجعل الله في جانبك يعينك .. ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا أن نبدأ كل شيء باسم الله .. لأن الله هو الاسم الجامع لصفات الكمال سبحانه وتعالى .. والفعل عادة يحتاج الى صفات متعددة .. فأنت حين تبدأ عملاً تحتاج الى قدرة الله والى قوته والى عونه والى رحمته .. فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يجربنا بالاسم الجامع لكل الصفات .. كان علينا أن نحدد الصفات التي نحتاج إليها .. كأن نقول باسم الله القوي وباسم الله المرازق وباسم الله المجيب وباسم الله القادر وباسم الله النافع .. إلى غير ذلك من الأسماء والصفات التي نريد أن نستعين بها .. ولكن الله تبارك وتعالى جعلنا نقول : بسم الله بسم الله بسم الله الجامع لكل هذه الصفات .

على أننا لا بد أن نقف هنا عند الذين لا يبدأون أعمالهم بسم الله وإنما يريدون الجزاء المادى وحده .. إنسان غير مؤمن لا يبدأ عمله باسم الله .. وإنسان مؤمن يبدأ كل عمل وفى باله الله .. كلاهما يأخذ من الدنيا لأن الله رب للجميع .. له عطاء وبرية لكل خلقه الذين استدعاهم للحياة .. ولكن الدنيا ليست هى الحياة الحقيقية للإنسان .. بل الحياة الحقيقية هى الآخرة .. الذى فى باله الدنيا وحدها يأخذ بقدر عطاء الربوبية .. بقدر عطاء الله فى الدنيا .. والذى فى باله الله يأخذ بقدر عطاء الله فى الدنيا والآخرة .. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝ ﴾

لأن المؤمن يحمده الله على نعمه في الدنيا .. ثم يحمده عندما ينجيهِ من النار والعذاب ويدخله الجنة في الآخرة .. فله الحمد في الدنيا والآخرة .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله الرحمن الرحيم أفطع »^(١)

ومعنى أفطع أى مقطوع الذنب أو الذليل .. أى عمل ناقص فيه شيء ضائع ..
لأنك حين لا تبدأ العمل باسم الله قد يصادفك القرور والظنيان بأنك أنت الذى
سخرت ما فى الكون ليخدمك وينفعل لك .. وحين لا تبدأ العمل باسم الله ..
فليس لك عليه جزاء فى الآخرة فتكون قد أخذت عطاءه فى الدنيا .. وبترت أو
قطعت عطاءه فى الآخرة .. فإذا كنت تريد عطاء الدنيا والآخرة .. فأقبل على كل
عمل باسم الله .. قبل أن تأكل قل باسم الله لأنه هو الذى خلق لك هذا الطعام
ورزقك به .. عندما تدخل الامتحان قل بسم الله فيميتك على النجاح .. عندما
تدخل الى بيتك قل باسم الله لأنه هو الذى يسر لك هذا البيت .. عندما تزوج قل
باسم الله لأنه هو الذى خلق هذه الزوجة وأباحها لك .. فى كل عمل تفعله ابداه
باسم الله .. لأنها تمنعك من أى عمل يغضب الله سبحانه وتعالى .. فانت
لا تستطيع أن تبدأ عملاً يغضب الله باسم الله .. إذا أردت أن تسرق أو أن تشرب
الخمر .. أو أن تفعل عملاً يغضب الله .. وتذكرت بسم الله .. فإنتك ستمتنع
عنه .. ستستحي أن تبدأ عملاً باسم الله يغضب الله .. وهكذا ستكون أعمالك
كلها فيها أباحه الله .

الله تبارك وتعالى حين يبدأ قراءة كلامه باسم الله .. فنحن نقرأ هذا الكلام لأنه
من الله .. والله هو الإله المعبود فى كونه .. ومعنى معبود أنه يطاع فيما يأمر به ..
ولا تقدم على ما يحى عنه .. فكأنك تستقبل القرآن الكريم بعطاء الله فى العبادة ..
وبطاعته فى الفعل ولا تفعل .. وهذا هو المقصود أن تبدأ قراءة القرآن باسم الله الذى
أمنت به ربا وإله .. والذى عاهدته على أن تطيعه فيما أمر وفيما نهى .. والذى
بموجب عبادتك لله سبحانه وتعالى تقرأ كتابه لتعمل بما فيه .. والذى خلق وأوجد
ويحيى ويميت وله الأمر فى الدنيا والآخرة .. والذى ستقف أمامه يوم القيامة

ليحاسبك أحسن أم أسأت .. فالبداية من الله والنهاية الى الله سبحانه وتعالى .

بعض الناس يتساءل كيف أبداً بسم الله .. وقد عصيت وقد خالفت .. نقول اياك أن تستحي أن تقرأ القرآن .. وأن تبدأ بسم الله اذا كنت قد عصيت .. ولذلك أعطانا الله سبحانه وتعالى الحثيثة التي نبدأ بها قراءة القرآن فجعلنا نبدأ باسم الله الرحمن الرحيم .. قاله سبحانه وتعالى لا يتخلل عن العاصي .. بل يفتح له باب التوبة ويحبه عليها .. ويطلب منه أن يتوب وأن يعود الى الله .. فيغفر له ذنبه ، لأن الله رحيم رحيم .. فلا تقل أنني استحي أن أبداً باسم الله لأنني عصيته .. قاله سبحانه وتعالى يطلب من كل عاص أن يعود الى حظيرة الايمان وهو رحيم رحيم .. فاذا قلت كيف أقول باسم الله وقد وقعت في معصية أسأ .. نقول لك قل باسم الله الرحمن الرحيم .. فرحمه الله تسع كل ذنوب خلقة .. وهو سبحانه وتعالى الذي يغفر الذنوب جميعا .

والرحمة والرحمن والرحيم .. مشتق منها الرحم الذي هو مكان الجنين في بطن أمه .. هذا المكان الذي يأتيه فيه الرزق .. بلا حول ولا قوة .. ويجد فيه كل ما يحتاج إليه ثموه ميسرا .. رزقا من الله سبحانه وتعالى بلا تعب ولا مقابل .. انظر الى حنوالام على ابنا وحنانها عليه .. ونجاوزها عن سيئاته وفرحته بعودته اليها .. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى في حديث قدسي .

« أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته »^(١)

الله سبحانه وتعالى يريد أن نتذكر دائما أنه يحنو علينا ويرزقنا .. ويفتح لنا أبواب التوبة بابا بعد آخر .. ونعصى فلا يأخذنا بذنوبنا ولا يجرنا من نعمه .. ولا يهلكنا بما فعلنا . ولذلك فنحن نبدأ تلاوة القرآن الكريم بسم الله الرحمن الرحيم .. لتتذكر دائما أبواب الرحمة المفتوحة لنا .. نرفع أيدينا الى السماء .. ونقول يارب رحمتك .. تجاوز عن ذنوبنا وسيئاتنا . وبذلك يظل قارئ القرآن متصلا بأبواب رحمة الله .. كلما ابتعد عن المنهج أسرع ليعود اليه .. فإدام الله رحمانا ورحميا لا تغلق أبواب الرحمة أبدا ..

على أننا نلاحظ أن الرحمن والرحيم من صيغ المبالغة .. يقال راحم ورحمن ورحيم .. إذا قيل راحم فيه صفة الرحمة .. وإذا قيل رحمن تكون مبالغة في الصفة .. وإذا قيل رحيم تكون مبالغة في الصفة .. والله سبحانه وتعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ..

صفات الله سبحانه وتعالى لا تتأرجح بين القوة والضعف .. وإياكم أن تفهموا أن الله تأتبه الصفات مرة قليلة ومرة كثيرة .. بل هي صفات الكمال المطلق .. ولكن الذي يتغير هو متعلقات هذه الصفات .. اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ﴾

(سورة النساء)

هذه الآية الكريمة .. نفت الظلم عن الله سبحانه وتعالى ، ثم تأتي الآية الكريمة بقول الله جل جلاله :

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۖ﴾

(سورة فصلت)

نلاحظ هنا استخدام صيغة المبالغة .. «ظلام» .. أى شديد الظلم .. وقول الحق سبحانه وتعالى : «ليس بظلام» .. لا تنفى الظلم ولكنها تنفى المبالغة في الظلم ، تنفى أن يظلم ولو مثقال ذرة .. نقول أنك لم تفهم المعنى .. أن الله لا يظلم أحدا .. الآية الأولى نفت الظلم عن الحق تبارك وتعالى ولو مثقال ذرة بالنسبة للعبيد .. والآية الثانية لم تغل للعبيد ولكنها قالت للعبيد .. والعبيد هم كل خلق الله .. فلو أصاب كل واحد منهم أقل من ذرة من الظلم مع هذه الأعداد الهائلة .. فإن الظلم يكون كثيراً جداً ، ولو أنه قليل في كميته لأن عدد من سيصاب به هائل .. ولذلك فإن الآية الأولى نفت الظلم عن الله سبحانه وتعالى . والآية الثانية نفت الظلم أيضاً عن الله تبارك وتعالى .. ولكن صيغة المبالغة استخدمت لكثرة عدد الذين تتعلق عليهم الآية الكريمة .

تأتى بعد ذلك الى رحمن ورحيم . . رحمن في الدنيا لكثرة عدد الذين يشملهم الله سبحانه وتعالى برحمته . . فرحة الله في الدنيا تشمل المؤمن والعاصي والكافر . . يعطيهم الله مقومات حياتهم ولا يؤاخذهم بذنوبهم ، يرزق من آمن به ومن لم يؤمن به ، ويعفو عن كثير . . إذن عدد الذين تشملهم رحمة الله في الدنيا هم كل خلقه . بصرف النظر عن إيمانهم أو عدم إيمانهم .

ولكن في الآخرة الله رحيم بالمؤمنين فقط . . فالكفار والمشركون مطرودون من رحمة الله . . إذن الذين تشملهم رحمة الله في الآخرة . . أقل عددا من الذين تشملهم رحمة الله في الدنيا . . فمن أتى المبالغة ؟ . . تأتي المبالغة في العطاء وفي الخلود في المعطاء . . فنعم الله في الآخرة أكبر كثيراً منها في الدنيا . . المبالغة هنا بكثرة النعم وخلودها . . فكان المبالغة في الدنيا بعمومية المعطاء ، والمبالغة في الآخرة بخصوصية المعطاء للمؤمن وكثرة النعم والخلود فيها .

ولقد اختلف عدد العلماء حول اسم الله الرحمن الرحيم . . وهي موجودة في ١١٣ سورة من القرآن الكريم هل هي من آيات السور نفسها . . بمعنى أن كل سورة تبدأ باسم الله الرحمن الرحيم « تحسب البداية على أنها الآية الأولى من السورة ، أم أنها حسبت فقط في فاتحة الكتاب ، ثم بعد ذلك تعتبر فواصل بين السور . .

وقال العلماء أن «بسم الله الرحمن الرحيم» آية من آيات القرآن الكريم . . ولكنها ليست آية من كل سورة ماعدا فاتحة الكتاب فهي آية من الفاتحة . . وهناك سورة واحدة في القرآن الكريم لا تبدأ بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» وهي سورة التوبة وتكررت بسم الله الرحمن الرحيم في الآية ٣٠ من سورة النمل في قوله تعالى :

﴿إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾



﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾

فاتحة الكتاب هي أم الكتاب ، لا تصلح الصلاة بدونها ، فأنث في كل ركعة تستطيع ان تقرأ آية من القرآن الكريم ، تختلف عن الآية التي قرأتها في الركعة السابقة ، وتختلف عن الآيات التي قرأتها في صلواتك . . ولكن إذا لم تقرأ الفاتحة فسدت الصلاة ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن صل صلاة لم يقرأ فيها أم القرآن فهي خداج ثلاثا غير تام^(١) أي غير صالحة .

فاتحة الكتاب التي لا تصلح الصلاة بدونها ، والله سبحانه وتعالى يقول في حديث قدسي : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدى ما سأل . . فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله عز وجل حمدى عبدي . فإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله عز وجل : أتى على عبدي . فإذا قال مالك يوم الدين ، قال الله عز وجل : حمدى عبدي . . فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين ، قال الله عز وجل هذا بينى وبين عبدي ولعبدى ما سأل . . وإذا قال : « أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » قال الله عز وجل : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل^(٢) .

وعلينا أن نتنبه ونحن نقرأ هذا الحديث القدسي ان الله تعالى يقول : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي ، ولم يقل قسمت الفاتحة بيني وبين عبدي ، فاتحة الكتاب هي أساس الصلاة ، وهي أم الكتاب .

نلاحظ ان هناك ثلاثة أسماء لله قد تكررت في بسم الله الرحمن الرحيم ، وفي فاتحة الكتاب ، وهذه الأسماء هي : الله . والرحمن الرحيم . نقول انه ليس هناك تكرار

(١) رواه مسلم في صحيحه يستفاد من أبي هريرة

(٢) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أبي هريرة

في القرآن الكريم ، وإذا تكرر اللفظ يكون معناه في كل مرة مختلفا عن معناه في المرة السابقة ، لأن المتكلم هو الله سبحانه وتعالى . . ولذلك فهو يضع اللفظ في مكانه الصحيح ، وفي معناه الصحيح . .

قولنا : «بسم الله الرحمن الرحيم» هو استعانة بقدرة الله حين نبداً فعل الأشياء . . إذن فلفظ الجلالة «الله» في بسم الله ، معناه الاستعانة بقدرات الله سبحانه وتعالى وصفاته . لتكون عوناً لنا على ما نفعل . ولكن إذا قلنا : الحمد لله . . فهي شكر لله على ما فعل لنا . ذلك أننا لا نستطيع ان نقدم الشكر لله إلا إذا استخدمنا لفظ الجلالة . الجامع لكل صفات الله تعالى . لأننا نحمده على كل صفاته ورحمته بنا حتى لا نقول باسم القهار وباسم الوهاب وباسم الكريم ، وباسم الرحمن . . نقول الحمد لله على كمال صفاته ، فيشمل الحمد كمال الصفات كلها .

وهناك فرق بين «بسم الله» الذي نستعين به على ما لا قدرة لنا عليه . . لأن الله هو الذي سخر كل ما في هذا الكون ، وجعله يخدمنا ، وبين «الحمد لله» فإن لفظ الجلالة إنما جاء هنا لنحمد الله على ما فعل لنا . فكان «بسم الله في البسملة» طلب العون من الله بكل كمال صفاته . . وكان الحمد لله في الفاتحة تقديم الشكر لله بكل كمال صفاته .

والرحمن الرحيم» في البسملة لها معنى غير «الرحمن الرحيم» في الفاتحة ، ففي البسملة هي تذكرونا برحمة الله سبحانه وتعالى وغفرانه حتى لا نستحي ولا نهاب الله نستعين باسم الله ان كنا قد فعلنا معصية . . فإله سبحانه وتعالى يريدنا أن نستعين باسمه دائماً في كل أعمالنا . فإذا سقط واحد منا في معصية ، قال كيف استعين باسم الله ، وقد عصيته ؟ نقول له ادخل عليه سبحانه وتعالى من باب الرحمة . . فيغفر لك وتستعين به فيجيبك .

وانب حين تسقط في معصية تستعيز برحمة الله من عدله ، لأن عدل الله لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها .

واقراً قول الله تعالى :

﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابُ فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُرَبِّلَنَا مَاذَا هَذَا الْكِتَابُ

لَا يُفَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۚ وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾

(سورة الكهف)

ولولا رحمة الله التي سبقت عدله . ما بقي للناس نعمة وما عاش أحد على ظهر الأرض . . فآله جل جلاله يقول :

﴿ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَآئِبَةٍ وَلَٰكِنْ يُوَخَّرُهُمْ إِنَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى فَإِذَا

جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴿٦٧﴾

(سورة النحل)

فَلَا تَسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يَقُولَ اللَّهُ تَعَالَىٰ «مَنْ سَأَلَ عَنِّي شَيْئًا قَدِ اسْتَفْتَيْتُهُ بِهِ النَّاسَ» فَأَن يَسْأَلَ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ فَلَا يَتَزَكَّىٰ لَهَا إِلَّا أَنْ يَتَمَنَّاهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ إِنَّهُ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ أَلْفَ مَرَّةٍ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً . وَبَشِّرِ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ إِذَا أُذِنُوا لِلْعَزْمَةِ جَاهُوا لَهَا وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ امْكُثُوا فِي مَقَامِكُمْ إِذَا قُلْتُمْ لَهُمْ امْكُثُوا فِي مَقَامِكُمْ إِذَا قُلْتُمْ لَهُمْ امْكُثُوا فِي مَقَامِكُمْ إِذَا قُلْتُمْ لَهُمْ امْكُثُوا فِي مَقَامِكُمْ إِذَا قُلْتُمْ لَهُمْ امْكُثُوا فِي مَقَامِكُمْ . وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَثِيرًا . وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَثْرَتُ ثَوْبِهِمْ وَلَا مَسْأَلَتُهُمْ فِي أَجْرِ رَبِّهِمْ . إِنَّهُمْ بِكُرْبَانِ اللَّهِ كَانُوا .

فذنوب الانسان في الدنيا كثيرة .. إذا حكم فقد بظلم . وإذا ظن فقد يسيء ..
وإذا تحدث فقد يكذب .. وإذا شهد فقد يتعد عن الحق .. وإذا تكلم فقد
يغتاب .

هذه ذنوب ترتبها بمرجات متفاوتة . ولا يمكن لأحد منا ان ينسب الكيال لنفسه حتى الذين يبدلون اقصى جهدهم في الطاعة لا يصلون الى الكيال ، فالكيال لله وحده . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» (١) .

(١) رواه أحمد في مسنده والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أنس رضي الله عنه .

ويصف الله سبحانه وتعالى الانسان في القرآن الكريم :

﴿وَأَنشَأْكُمْ مِنْ كُلِّ مَآسَلَةٍ ۖ وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَلْظُومٌ كَفَّارٌ ﴿٢٤﴾﴾

(سورة ابراهيم)

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى ألا نغتنا المعصية عن ان ندخل الى كل عمل باسم الله .. فعلما ان نقول : «بسم الله الرحمن الرحيم» لكي نعرف أن الباب مفتوح للاستعانة بالله . وأن المعصية لا نغتنا من الاستعانة في كل عمل باسم الله .. لأنه «رحمن رحيم» فيكون الله قد أزال وحشتك من المعصية في الاستعانة به سبحانه وتعالى .

ولكن الرحمن الرحيم في الفاتحة مقترنة برب العالمين ، الذي أوجدك من عدم .. وأمدك بنعم لا تعد ولا تحصى . انت تحمده على هذه النعم التي أخذتها برحمة الله سبحانه وتعالى في ربوبيته ، ذلك أن الربوبية ليس فيها من القسوة بقدر مافيها من رحمة .

والله سبحانه وتعالى رب للمؤمن والكافر ، فهو الذي استدعاهم جميعا الى الوجود . ولذلك فإنه يعطيهم من النعم برحمته .. وليس بما يستحقون .. فالشمس تشرق على المؤمن والكافر .. ولا تحجب أشعتها عن الكافر وتعطيها للمؤمن فقط ،

والمطر ينزل على من يعبدون الله . ومن يعبدون أولئنا من دون الله . والهواء بنفسه من قال لا إله إلا الله ومن لم يقلها .

وكل النعم التي هي من عطاء الربوبية لله هي في الدنيا خلقه جميعا ، وهذه رحمة .. فالله رب الجميع من أطاعه ومن عصاه . وهذه رحمة ، والله قائل للتوبة ، وهذه رحمة ..

إذن ففى الفاتحة تأتى «الرحمن الرحيم» بمعنى رحمة الله في ربوبيته خلقه ، فهو يهمل العاصي ويفتح أبواب التوبة لكل من يلجأ اليه .

وقد جعل الله رحمته تسبق غضبه . وهذه رحمة تستوجب الشكر . فمعنى «الرحمن

الرحيم» في البسمة يختلف عنها في الفاعلة . فإذا انتقلنا بعد ذلك الى قوله تعالى :

«الحمد لله رب العالمين» فالله محمود لذاته ومحمود لصفاته ، ومحمود لنعمه ، ومحمود لرحمته ، ومحمود لمنهجه ، ومحمود لقضائه ، الله محمود قبل ان يخلق من يحمده . ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الشكر له في كلمتين اثنتين هما : الحمد لله .

والعجيب أنك حين تشكر بشرا على جميل فقله تغفل ساعات وساعات . . تعد كلمات الشكر والثناء ، وتحذف وتضيف وتأخذ رأي الناس . حتى تصل الى قصيدة أو خطاب مليء بالثناء والشكر . ولكن الله سبحانه وتعالى جعل قدرته وعظمته ونعمه لا تعد ولا تحصى ، علمنا ان نشكره في كلمتين اثنتين هما : الحمد لله . .

ولعلنا نفهم ان المبالغة في الشكر للبشر مكروهة لأنها نصيب الانسان بالفروغ والتفائق وتزويد العاصي في معاصيه . . فنقلل من الشكر والثناء للبشر . . لأننا نشكر الله لعظيم نعمه علينا بكلمتين هما : الحمد لله ، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أنه علمنا صيغة الحمد . فلو أنه تركها دون أن يحددها بكلمتين . . لكان من الصعب على البشر أن يحدوا الصيغة المناسبة ليحمدوا الله على هذا الكمال الالهي . . فمعها أوى الناس من بلاغة وقدرة على التعبير . فهم عاجزون عن أن يصلوا الى صيغة الحمد التي تليق بجلال النعم . . فكيف نحمد الله والعقل عاجز أن يدرك قدرته أو يحصى نعمه أو يحيط برحمته ؟ ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانا صورة العجز البشري عن حمد كمال الالهية لله ، فقال : «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» .

وكلمتا الحمد لله ، ساوى الله بها بين البشر جميعا ، فلو أنه ترك الحمد بلا تحديد ، لتفاوتت درجات الحمد بين الناس بتفاوت قدراتهم على التعبير . فهذا أسمى لا يقرأ ولا يكتب لا يستطيع أن يحد الكلمات التي يحمد بها الله . وهذا عالم له قدرة على التعبير يستطيع ان يأن بصيغة الحمد بما أوى من علم وبلاغة . وهكذا تتفاوت درجات البشر في الحمد . . طبقا لقدرتهم في منازل الدنيا .

ولكن الحق تبارك وتعالى شاء عدله أن يسوى بين عباده جميعا في صيغة الحمد له . . فيعلمنا في أول كلماته في القرآن الكريم . . أن نقول «الحمد لله» ليعطى

الفرصة المتساوية لكل عبيده بحيث يستوى المتعلم وغير المتعلم في عطاء الحمد ومن أول البلاغة ومن لا يحسن الكلام .

ولذلك فإننا نحمد الله سبحانه وتعالى على أنه علمنا كيف نحمده ولينظر العبد دائماً حامداً . وينظر الله دائماً محموداً . . قاله سبحانه وتعالى قبل أن يخلقنا خلق لنا موجبات الحمد من النعم ، فخلق لنا السموات والأرض وأوجد لنا الماء والهواء . ووضع في الأرض أقواتها إلى يوم القيامة . . وهذه نعمة يستحق الحمد عليها لأنه جل جلاله جعل النعمة تسبق الوجود الإنساني ، فعندما خلق الإنسان كانت النعمة موجودة تستقبله . بل إن الله جل جلاله قبل أن يخلق آدم أباً البشر جميعاً سبقته الجنة التي عاش فيها لا يتعب ولا يشقى . فقد خلق فوجد ما يأكله وما يشربه وما يقيم حياته وما يتمتع به موجوداً وجاهزاً ومعداً قبل الخلق . . وحينما نزل آدم وحواه إلى الأرض كانت النعمة قد سبقتهما . فوجد ما يأكله وما يشربه ، وما يقيم حياته . . ولو أن النعمة لم تسبق الوجود الإنساني وخلقت بعده لهلك الإنسان وهو يتظر مجيء النعمة .

بل إن العطاء الإلهي للإنسان يعطيه النعمة بمجرد أن يخلق في رحم أمه فيجد رحماً مستعداً لاستقباله وغذاء يكفيه طول مدة الحمل . فإذا خرج إلى الدنيا يضع الله في صدر أمه لبناً يتزول وقت أن يجوع ويمتنع وقت أن يشبع . وينتهي تماماً عندما تتوقف فترة الرضاعة . ويجد أباً وأماً يوفران له مقومات حياته حتى يستطيع

أن يعمل نفسه . . وكل هذا يحدث قبل أن يصل الإنسان إلى مرحلة التكليف وقبل أن يستطيع أن ينطق : «الحمد لله» .

وهكذا نرى أن النعمة تسبق المُنعم عليه دائماً . . فالإنسان حيث يقول «الحمد لله» فلأن موجبات الحمد - وهي النعمة - موجودة في الكون قبل الوجود الإنساني .

والله سبحانه وتعالى خلق لنا في هذا الكون أشياء تعطي الإنسان بغير قدرة منه ودون خضوع له ، والإنسان عاجز عن أن يقدم لنفسه هذه النعم التي يقدمها الحق تبارك وتعالى له بلا جهد . فالشمس تعطي الدفء والحياة للأرض بلا مقابل وبلا

فعل من البشر ، والمطر ينزل من السماء دون ان يكون لك جهد فيه أو قدرة على إنزاله . والهواء موجود حولك في كل مكان تنفس منه دون جهد منك ولا قدرة . والأرض تعطيك الثمر بمجرد أن تبتز فيها الحب وتسقيه . فالزروع ينبت بقدرة الله . . والليل والنهار يتعاقبان حتى تستطيع أن تنام لترتاح ، وأن تسمى لحياتك . . لا أنت أنتيت بضوء النهار . . ولا أنت الذي صنعت ظلمة الليل ، ولكنك تأخذ الراحة في الليل والعمل في النهار بقدرة الله دون ان تفعل شيئا .

كل هذه الاشياء لم يخلقها الانسان ، ولكنه خلق ليحدها في الكون تعطيه بلا مقابل ولا جهد منه . ألا تستحق أن نقول الحمد لله على نعمة تسخير الكون لخدمة الانسان ؟ إنها تقتضى وجوب الحمد .

وآيات الله سبحانه وتعالى في كونه تستوجب الحمد . . فالحياة التي وهبها الله لنا ، والآيات التي أودعها في كونه لندلنا على أن لهذا الكون خالقاً عظيماً . فالكون بشمس وقمر ونجوم وأرض وكل ما فيه مما يفوق قدرة الانسان . . ولا يستطيع أحد أن يدعي نفسه . فلا أحد مهما بلغ علمه يستطيع أن يدعي أنه خلق الشمس أو أوجد النجوم أو وضع الأرض أو وضع قوانين الكون أو أعطى الأرض غلافها الجوى . . أو خلق نفسه أو خلق غيره .

هذه الآيات كلها أعطتنا الدليل على وجود قوة عظمى . هي التي أوجدت وهي التي خلقت . . وهذه الآيات ليست ساكنة ، لتجعلنا في سكوتها ننساها ، بل هي متحركة لتلفتنا الى خالق هذا الكون العظيم .

فالشمس تشرق في الصباح فتذكرنا بأعجاز الخلق ، وتغيب في المساء لتذكرنا بعظمة الخالق . . وتعاقب الليل والنهار يحدث أماناً كل يوم علنا نلتفت ونفكر . والمطر ينزل من السماء ليذكرنا بالوهية من أنزله . . والزرع يخرج من الأرض يسقى بماء واحد . ومع ذلك فإن كل نوع له لون وله شكل وله مذاق وله رائحة . . وله تكوين يختلف عن الآخر ، ويأتي الحصاد فيختص الثمر والزرع . . ويأتي موسم الزراعة فيعود من جديد .

كل شيء في هذا الكون متحرك ليذكرنا اذا نسينا . ويعلمنا أن هناك خالقاً عظيماً .

ونستطيع أن نقضى في ذلك بلا نهاية فنعم الله لامتد ولا تحصى .. وكل واحدة منها تدلنا على وجود الحق سبحانه وتعالى وتمطينا الدليل الايماني على ان لهذا الكون خالقاً مبدعاً .. وانه لا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق الكون أو خلق ما فيه .. فالحقضية محسومة لله .. والحمد لله لأنه وضع في نفوسنا الإيمان الفطري ثم أيد به إيمان عقلي بأياته في كونه .

بل إن كل شيء في هذا الكون يقتضى الحمد ، ومع ذلك فإن الانسان يمتدح الوجود وينسى الموجود !! انت حين ترى جوهرة جميلة مثلاً أو زهرة غاية في الإبداع .. أو أى خلق من خلق الله يشيع في نفسك الجمال تمتدح هذا المخلوق .. فتقول ما أجمل هذه الزهرة أو هذه الجوهرة أو هذا المخلوق .. ولكن المخلوق الذى امتدحته ، لم يعط صفة الجمال لنفسه .. فالزهرة لا دخل لها أن تكون جميلة أو غير جميلة ، والجوهرة لا دخل لها في عظمة خلقها .. وكل شيء في هذا الكون لم يضع الجمال لنفسه وإنما الذى وضع الجمال فيه هو الله سبحانه وتعالى ، فلا نخلط ونمدح المخلوق وننسى الخالق .. بل قل الحمد لله الذى أوجد في الكون ما يذكرنا بعظمة الخالق ودقة الخلق .

ومنهج الله سبحانه وتعالى يقتضى منا الحمد .. لأن الله أنزل منهجه ليرينا طريق الخير ويبعدنا عن طريق الشر .

فمنهج الله الذى أنزله على رسله قد عرفنا ان الله تبارك وتعالى هو الذى خلق لنا هذا الكون وخلقنا .. فدقة الخلق وعظمته تدلنا على أن هناك خالقاً عظيماً .. ولكنها لا تستطيع أن تقول لنا من هو ، ولا ماذا يريد منا . ولذلك أرسل الله رسله ، ليقولوا لنا إن الذى خلق هذا الكون وخلقنا هو الله تبارك وتعالى وهذا يستوجب الحمد .

ومنهج الله بين لنا ماذا يريد الحق منا وكيف نعبده .. وهذا يستوجب الحمد . ومنهج الله جل جلاله أعطانا الطريق وشرع لنا اسلوب حياتنا تشريعاً حقاً .. قاله تبارك وتعالى لا يفرق بين أحد منا .. ولا يفضل أحداً على أحد إلا بالتقوى ، فكلنا خلق متساوون أمام الله جل جلاله ..

• إذن فشرعية الحق وقول الحق ، وقضاء الحق ، هو من الله ، أما تشريعات

الناس فلها هوى تميز بعضها عن بعض .. وتأخذ حقوق بعض لتمطيها للآخرين ،
لذلك نجد في كل منهج بشرى ظلما بشريا .

فالدول الشيوعية أعضاء اللجنة المركزية فيها هم أصحاب النعمة والثرف .
بينما الشعب كله في شقاء .. لأن هؤلاء الذين شرعوا اتبعوا هواهم . ووضعوا
مصالحهم فوق كل مصلحة ..

وكذلك في الدول الرأسمالية . أصحاب رأس المال يأخذون كل الخير . ولكن
الله سبحانه وتعالى حين نزل لنا المنهج قضى بالعدل بين الناس .. وأعطى كل
شئ حق حقه . وعلمنا كيف نستقيم الحياة على الأرض عندما تكون بعيدة عن
الهوى البشري خاضعة لعدل الله ، وهذا يوجب الحمد .

والحق سبحانه وتعالى ، يستحق منا الحمد لأنه لا يأخذ منا ولكنه يعطينا . فالبشر
في كل عصر يحاولون استغلال البشر .. لأنهم يطمعون لما في أيديهم من ثروات
وأموال ، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى ما في أيدينا ، إنه يعطينا ولا يأخذ
منا ، عنده خزائن كل شئ مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٦٦﴾﴾

(سورة الحجر)

فالله سبحانه وتعالى دائم العطاء لخلقه ، والخلق يأخذون دائما من نعم الله ،
فكان العبودية لله تعطيكم ولا تأخذ منكم وهذا يستوجب الحمد ..

والله سبحانه وتعالى في عطائه يحب أن يطلب منه الانسان ، وأن يدعوه وان
يستعين به ، وهذا يوجب الحمد لأنه يفينا الذل في الدنيا . فأنت إن طلبت شيئا من
صاحب نفوذ ، فلا بد ان يمدد لك موعدا أو وقت الحديث ومدة المقابلة وقد يضيق
بك فيقف لينهي اللقاء .. ولكن الله سبحانه وتعالى بابه مفتوح دائما .. فأنت بين
يديه عندما تريد وترفع يديك إلى السماء وتدعوه وقتا تحب وتسال الله ما تشاء فيعطيك
ما تريده إن كان خيرا لك .. ويمنع عنك ما تريده إن كان شرا لك .

والله سبحانه وتعالى يطلب منك ان تدعوه وان تسأله فيقول :

﴿وَقَالَ رَبُّكَ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَبِّحُوا عَلٰٓوَنَ جَهَنَّمَ
فَآخِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

(سورة غافر)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيَسْتَنَازِلِي
لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٥١﴾﴾

(سورة البقرة)

والله سبحانه وتعالى يعرف ما في نفسك ، ولذلك فإنه يعطيك دون ان تسأل .
واقرا الحديث القدسي :
يقول رب العزة :

(من شغله ذكرى عن مسألي أعطته أفضل ما أعطى السائلين)^(١)

والله سبحانه وتعالى عطاؤه لا ينفد وخزائنه لا تنفخ ، فكلما سأله جل جلاله كان
لديه المزيد ، ومهما سأله فإنه لا شيء عزيز على الله سبحانه وتعالى ، إذا أراد أن
يحققه لك ..
واقرا قول الشاعر :

حب نفسي عزا بأنني عبد
يحنني بـ بـلامـواعـبد رب
هو في قدسه الأعز ولكن
أنسا الفى متى وأين أحب

اذن عطاء الله سبحانه وتعالى يستوجب الحمد .. ومنعه العطاء يستوجب الحمد .

وجود الله سبحانه وتعالى الواجب الوجود يستوجب الحمد .. فانه يستحق الحمد لذاته ، ولولا عدل الله ليعي الناس في الارض وظلموا ، ولكن يد الله تبارك وتعالى حين تبطش بالظالم تجعله عبرة .. فيخاف الناس الظلم .. وكل من أفلت من عقاب الدنيا على معاصيه وظلمه واستبداده سيلقى الله في الآخرة ليوفيه حسابه .. وهذا يوجب الحمد .. أن يعرف المظلوم أنه سينال جزاء فتهدا نفسه ويطمئن قلبه ان هناك يوما سيرى فيه ظلمه وهو يعذب في النار .. فلا تصيبه الحسرة ، ويخف احساسه بمراة الظلم حين يعرف ان الله قائم على كونه لن يفلت من عدله أحد .

وعندما نقول « الحمد لله » فنحن نعبّر عن انفعالات متعددة .. هي في مجموعها تحمل العبودية والحب والثناء والشكر والعرفان .. وكثير من الانفعالات التي تملأ النفس عندما نقول « الحمد لله » كلها تحمل الثناء العاجز عن الشكر لكيال الله وعطائه .. هذه الانفعالات تأتي من النفس وتستقر في القلب .. ثم تفيض من الجوارح على الكون كله ..

فالحمد ليس ألفاظا تردّد باللسان ولكنها تمر أولا على العقل ليعي معنى النعم .. ثم بعد ذلك تستقر في القلب فينبعث بها .. وتتغلل الى الجوارح فأقوم وأصل لله شاكرا ويترجسدى كله وتفيض الدفعة من عيني .. ويتغلل هذا الانفعال كله الى من حولي .

ونفسر ذلك قليلا .. هب انني في أزمة أو كرب أو شيء سيؤدى الى فضيحة .. وجاءني من يفرج كربى فيعطيني مالا أو يفتح لي طريقا .. أول شيء انني سأعقل هذا الجميل فأقول انه يستحق الشكر .. ثم ينزل هذا المعنى الى قلبي فيهبز القلب الى

صانع هذا الجميل .. ثم تتفعل جوارحي لأترجم هذه العاطفة إلى عمل يرضيه على جميل صنعه . ثم أحدث الناس عن جميله وكرمه فيسارعون إلى الالتجاء اليه .. فتتسع دائرة الحمد وتنزل النعم على الناس .. فيمرون بنفس ماحدث لي فتتسع دائرة الشكر والحمد ..

والحمد لله تعطينا المزيد من نعم الله مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٧﴾

(سورة ابراهيم)

وهكذا نعرف ان الشكر على النعمة يعطينا مزيدا من النعمة . فنشكر عليها فتعطينا المزيد وهكذا يظل الحمد دائما والنعمة دائمة . . . اننا لو استعرضنا حياتنا كلها فكل حركة فيها تقتضى الحمد ، عندما ننام وباعوذ الله سبحانه وتعالى ارواحنا ، ثم بردها اليها عندما نستيقظ ، فإن هذا يوجب الحمد ، فالحمد سبحانه وتعالى يقول :

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَبِئْسَ الْكَاذِبُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتُ وَرَسُولُ الْأَنْفُسِ إِلَى أَهْلِ مَسْئُومٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١٤﴾

(سورة الزمر)

وهكذا فإن مجرد استيقاظنا من النوم ، وان الله سبحانه وتعالى رد علينا ارواحنا ، وهذا الرد يستوجب الحمد ، فإذا قمنا من السرير فالحمد سبحانه وتعالى هو الذى يعطينا القدرة على الحركة ، ولولا عطاؤه ما استطعنا ان نقوم . . وهذا يستوجب الحمد . . فإذا تناولنا افطارنا فالحمد هيا لنا طعاما من فضله ، فهو الذى خلقه ، وهو الذى انبته ، وهو الذى ورزقنا به ، وهذا يستوجب الحمد . .

فإذا نزلنا الى الطريق يسر الله لنا ما ينقلنا الى مقر اعمالنا وسخره لنا ، سواء كنا تلك سيارة او نستخدم وسائل المواصلات ، فله الحمد ، واذا تحدثنا مع الناس فالحمد سبحانه وتعالى هو الذى اعطى السنتنا القدرة على النطق ولو شاء لجعلها خرساء لا تتنطق . . وهذا يستوجب الحمد ، فإذا ذهبنا الى اعمالنا ، فالحمد يسر لنا عملا نرتزق منه لناكل حلالا . . وهذا يستوجب الحمد . .

واذا عدنا الى بيوتنا فالحمد يسر لنا زوجاتنا ورزقنا بأولادنا وهذا يستوجب الحمد .

اذن فكل حركة حياة في الدنيا من الانسان تستوجب الحمد .. ولهذا لا بد ان يكون الانسان خلعدا دائما .. بل ان الانسان يجب ان يحمد الله على اى مكروه أصابه ؛ لأنه قد يكون الشيء الذى يعتبره شرا هو عينه الخير . فالحمد تعالى يقول :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرُؤُوا النِّسَاءَ كَرِهَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَذْهَبْنَ بِمَعْشَرٍ مِمَّا تَحِبُّهُنَّ إِنْ أَلَا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِغَيْرِ مَبْنِيَّةٍ وَاعْلَمُوا أَنَّهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكُونُوا سِفَا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝﴾

(سورة النساء)

اذن فانت تحمد الله لان قضاءه خير .. سواء أحببت القضاء أو كرهته فإنه خير لك .. لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلم .

وهكذا من موجبات الحمد ان تقول الحمد لله على كل ما يحدث لك في دنياك . فانت بذلك ترد الامر الى الله الذى خلقك .. فهو أعلم بما هو خير لك .

فاتحة الكتاب تبدأ بالحمد لله رب العالمين .. لماذا قال الله سبحانه وتعالى رب العالمين ؟ نقول إن «الحمد لله» تعنى حمد الألوهية . فكلمة الله تعنى المعبود بحق .. فالعبادة تكليف والتكليف يأتي من الله لعبيده .. فكان الحمد أولا لله .. ثم يقتضى بعد ذلك أن يكون الحمد لربوبية الله على إيجادنا من عدم وإمدادنا من عدم .. لأن المتفضل بالنعمة قد يكون محمودا عند كل الناس .. لكن التكليف يكون شاقا على بعض الناس .. ولو علم الناس قيمة التكليف في الحياة .. لحمدوا الله أن كلفهم بالفعل ولا تفعل .. لأنه ضمن عدم تصادم حركة حياتهم .. فتمضى حركة الحياة متساندة منسجمة . اذن فالنعمة الاولى هي أن المعبود ابلغنا منهج عبادته ، والنعمة الثانية أنه رب العالمين .

في الحياة الدنيا هناك المطيع والمعاصي ، والمؤمن وغير المؤمن .. والذين يدخلون في عطاء الألوهية هم المؤمنون .. أما عطاء الربوبية فيشمل الجميع . ونحن نحمد الله على عطاء ألوهيته ، ونحمد الله على عطاء ربوبيته ، لأنه الذى خلق ، ولأنه رب العالمين .. الكون كله لا يخرج عن حكمه .. فليطمئن الناس في الدنيا ان

النعم مستمرة لهم بعباء ربوبيته .. فلا الشمس تستطيع أن تغيب وتقول لن
أشرق ، ولا النجوم تستطيع أن تصطبم بعضها ببعض في الكون ، ولا الأرض
تستطيع أن تمنع إنبات الزرع .. ولا الغلاف الجوي يستطيع أن يعتمد عن الأرض
فيختنق الناس جميعا ..

اذن فالله سبحانه وتعالى يريد ان يطمئن عباده انه رب لكل مافي الكون فلا
تستطيع اى قوى تخدع الانسان ان تمتنع عن خدمته .. لأن الله سبحانه وتعالى
مسيطر على كونه وعمل كل ماخلق .. انه رب العالمين وهذه توجب الحمد .. ان
يحيى الله سبحانه وتعالى للانسان ماينجده ، بل جعله سيدا في كونه .. ولذلك فإن
الانسان المؤمن لا يخاف الغد .. وكيف يخافه والله رب العالمين . اذا لم يكن عنده
طعام فهو واثق ان الله سيرزقه لأنه رب العالمين .. واذا صادفته ازمة فقلبه مطمئن

الى ان الله سيفرج الازمة ويزيل الكرب لأنه رب العالمين .. واذا اصابته نعمة ذكر
الله فشكره عليها لانه رب العالمين الذى انعم عليه .

فالخلق سبحانه وتعالى يحمد على انه رب العالمين .. لا شيء في كونه يخرج عن
مراده القفل .. اما عطاء الالوهية فجزاؤه في الآخرة .. فالدنيا دار اختبار للايمان ،
والآخرة دار الجزاء .. ومن الناس من لايعبد الله .. هؤلاء متساوون في عطاء
الربوبية مع المؤمنين في الدنيا .. ولكن في الآخرة يكون عطاء الالوهية للمؤمنين
وحدهم .. فنعلم الله لأصحاب الجنة ، وعطاءات الله لمن آمن .. واقرأ قوله تبارك
وتعالى .

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ أَهْلِ الْبَيْتِ لِيُخْرِجَ لِيَبَادِيَهُ ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٥)

(سورة الأعراف)

على ان الحمد لله ليس في الدنيا فقط .. بل هو في الدنيا والآخرة .. الله محمود
دائما .. في الدنيا بعباء ربوبيته لكل خلقه .. وعطاء الوهية لمن آمن بو فى الآخرة
بعباءة للمؤمنين من عباده .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٦٥)

(سورة الفرقان)

وقوله تعالى :

﴿دَعْوُهُمْ فِيمَا سَبَّحْتَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيمَا سَلَّمُ^٥ وَآخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٥)

(سورة يونس)

فاذا انتقلنا الى قوله تعالى : «الرحمن الرحيم» فمن موجبات الحمد أن الله سبحانه وتعالى رحيم رحيم .. يعطي نعمه في الدنيا لكل عباده عطاء ربوبيه ، وعطاء الربوبيه للمؤمن والكافر .. وعطاء الربوبية لا ينقطع الا عندما يموت الانسان ..

والله لا يجيب نعمه عن عباده في الدنيا .. ونعم الله لاتعد ولا تحصى ومع كل التقدم في الآلات الحاسبة والعقول الالكترونية وغير ذلك فإننا لم نجد أحدا يتقدم ويقول اتا سأحصى نعم الله .. لأن موجبات الاحصاء ان تكون قادرا عليه .. فانت لا تقبل على عد شيء الا اذا كان في قدرتك ان تحصىه .. ولكن مادام ذلك خارج قدرتك وطاقتك فانت لا تقبل عليه .. ولذلك لن يقبل احد حق يوم القيامة على احصاء نعم الله تبارك وتعالى لان احدا لا يمكن ان يحصىها .

ولا بد ان نلفت الى ان الكون كله يضيئ بالانسان ، وان العالم المقهور الذي يخضعنا بحكم القهر والتسخير يضيئ حين يرى المعاصرين .. لان المقهور مستقيم على منج الله قهرا .. فعين يرى كل مقهور الانسان الذي هو في خدمته عاصيا يضيئ .

واقرا الحديث القدسي لتعرف شيئا عن رحمة الله بعباده .. يقول الله عز وجل : ما من يوم تطلع شمس الا وتنادى السماء تقول يارب ائذن لي أن أسقط كسفا على ابن آدم ، فقد طعم خيرك ومنع شكرك وتقول البحار يارب ائذن لي أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . وتقول الجبال يارب ائذن لي أن أطبق على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك . فيقول الله تعالى : دعوهم دعوهم لو خلقتموهم

لرحمتهم انهم عبادي فإن تابوا إلى فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طيبهم » رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده .

تلك تجليات صفة الرحمن وصفة الرحيم .. وكيف ضمنت لنا بقاء كل مايتجددنا في هذا الكون مع معصية الانسان .. انها كلها نتجددنا بعباء الربوبية وتبقى في خدمتنا بتسخير الله لها لانه رحمن رحيم ..

بعض الناس قد يتساءل هل تتكلم الارض والسماء وغيرها من المخلوقات في عالم الجهاد والنبات والحيوان ؟ نقول نعم ان لها لغة لا نعرفها نحن وانما يعرفها خالقها .. بدليل انه منذ الخلق الاول ابلغنا الحق تبارك وتعالى ان هناك لغة لكل هذه المخلوقات .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿لَمْ يَسْمَعْ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَآئِفِينَ ۝﴾

(سورة فصلت)

إذن فالأرض والسماء فهمت كلتاهما عن الله .. وقالت له سبحانه وتعالى ه آتينا طائعين ه ألم يعلم الله سليمان منطلق الطير ولغة النمل ؟ ألم تسبح الجبال مع داود ؟ إذن كل خلق الله له إدراكات مناسبة .. بل له عواطف .. فعندما تكلم الله سبحانه وتعالى عن قوم فرعون .. قال :

﴿كَرَّسُوكُم مِّن بَيْنَتَيْنِ ۝١٥ وَزُرُوكَ ۝١٦ وَمَقَامِكُمْ كَرِيمٌ ۝١٧ وَنَعْنَعُ كَانُوا فِيهَا لَنُكَيْهِنَ ۝١٨ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاثِرِينَ ۝١٩ قَالَتْ طَيْفِمُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ۝٢٠﴾

(سورة الشعراء)

اذن فالسماوات والارض لما انفعال .. انفعال يصل الى مرحلة البكاء .. فيها لم تكيأ على فرعون وقومه .. ولكنها تكيأ حزننا عندما يفارقها الانسان المؤمن المفضل المطبق لمشيى الله .. ولقد قال على بن ابي طالب رضى الله عنه : (اذا مات المؤمن

بكى عليه موضحان موضع في الارض وموضع في السماء .. اما الموضع في الارض فهو مكان مصلاه الذي اسعده وهو يصل فيه . واما الموضع في السماء فهو مصعد عمله الطيب .



﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

إذا كانت كل نعم الله تستحق الحمد.. فإن «مالك يوم الدين» تستحق الحمد الكبير.. لأنه لو لم يوجد يوم للحساب، لنجا الذي ملأ الدنيا شروراً.. دون أن يجازى على ما فعل.. ولكن الذي ألزم بالتكليف والعبادة وحرّم نفسه من منع دينية كثيرة أرضاء لله قد شفى في الحياة الدنيا.. ولكن لأن الله تبارك وتعالى هو «مالك يوم الدين».. أعطى الاتزان للوجود كله.. هذه الملكية ليوم الدين هي التي حث الضعيف والمظلوم وأبقت الحق في كون الله.. إن الذي منع الدنيا أن تتحول إلى غابة يفتك فيها القوى بالضعيف والظالم بالمظلوم هو أن هناك آخرة وحساباً، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي سيحاسب خلقه.

والإنسان المستقيم استقامته تنفع غيره، لأنه يخشى الله ويعطى كل ذي حق حقه ويعلم ويسامع.. إذن كل من حوله قد استفاد من خلقه الكريم ومن وقوفه مع الحق والعدل.

أما الإنسان العاصي فيشقى به المجتمع لأنه لا أحد يسلم من شره ولا أحد إلا يصيبه ظلمه.. ولذلك فإن «مالك يوم الدين» هي الميزان.. تعرف أنت أن الذي يفسد في الأرض تنتظره الآخرة.. لن يفلت منها كانت قوته ونفوذه، فتطمئن أطمئناناً كاملاً إلى أن عدل الله سيثال كل ظالم.

عل أن «مالك يوم الدين» لها قراءتان.. «مالك يوم الدين».. ومالك يوم الدين.. والقراءتان صحيحتان.. والله تبارك وتعالى وصف نفسه في القرآن الكريم بأنه: «مالك يوم الدين».. ومالك الشيء هو المتصرف فيه وحده.. ليس هناك دخل لأي فرد آخر.. أنا أملك عيانت.. وأملك متاعى، وأملك منزلى، وأنا المتصرف في هذا كله أحكم فيه بما أراه..

فمالك يوم الدين.. معناها أن الله سبحانه وتعالى سيصرف أمور العباد في ذلك اليوم بدون أسباب.. وأن كل شيء سيأتى من الله مباشرة.. دون أن يستطيع أحد أن يتدخل ولو ظاهراً..

ففى الدنيا يعطى الله الملك ظاهرا لبعض الناس .. ولكن فى يوم القيامة ليس هناك ظاهر .. فالامر مباشر من الله سبحانه وتعالى .. ولذلك يقول الله فى وصف يوم الدين:

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ① ﴾

(سورة الانشقاق)

فكان الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان فى الدنيا لتمضى به الحياة .. ولكن فى الآخرة لا توجد أسباب الملك فى ظاهر الدنيا من الله به لمن يشاء .. وقرأ قوله تعالى:

﴿ قُلِ أَنتُمْ مِلْكُ الْمَلِكِ تُؤْتَى الْمُلْكُ مَنْ شَاءَ وَتَنْزِعُ الْمُلْكُ مِنْ شَاءَ وَتُعْزِزُ شَاءَ وَتُزِيلُ مَنْ شَاءَ بِإِذْنِ اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ② ﴾

(سورة آل عمران)

ولعل قوله تعالى: «تتزع» تلفتتا إلى أن أحدا فى الدنيا لا يريد أن يترك الملك .. ولكن الملك يجب أن ينتزع منه انتزاعا ليرغم عن إرادته .. والله هو الذى ينتزع الملك ممن يشاء ..

وهنا تتساءل هل الملك فى الدنيا والآخرة ليس لله ؟ .. نقول الأمر فى كل وقت لله .. ولكن الله تبارك وتعالى استخلف بعض خلقه أو مكثهم من الملك فى الأرض .. ولذلك نجد فى القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ سَاحَ إِزْمَعُ فِي رِيَّةِ أَنْ ءَاسَهُ اللَّهُ الْمُلْكُ إِذْ قَالَ إِزْمَعُ رَبِّىَ الَّذِي يُجْهِى وَيُمْيْتُ قَالَ أَنَا أَحْمِى وَأَبِيتُ قَالَ إِزْمَعُ قَالَ إِنَّ اللَّهَ بِأَيْمِى وَالتَّحْسِينِ مِنَ الْمُشْرِقِ قُلْتُ يَا مَعْزُورُ قُبِيتُ الَّذِي كَفَرْتُ وَأَكْفَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ③ ﴾

(سورة البقرة)

والذى حاج ابراهيم في ربه كافر منكر للألوهية .. ومع ذلك فإنه لم يأخذ الملك بذاته .. بل الله جل جلاله هو الذى اتاه الملك .. اذن الله تبارك وتعالى هو الذى استخلف بعض خلقه ومكنهم من ملك في الأرض ظاهريا .. ومعنى ذلك انه ملك ظاهر للناس فقط .. أن بشرا أصبح ملكا .. ولكن الملك ليس نابعا من ذات من يملك .. ولكنه نابع من أمر الله .. ولو كان نابعا من ذاتية من يملك لبقى له ولم ينزع منه .. والملك الظاهر يمتحن فيه العباد ، فيحاسبهم الله يوم القيامة .. كيف تصرفوا؟ وماذا فعلوا؟ .. ويمتنح فيه الناس هل سكتوا على الحاكم الظالم؟ .. وهل

استحبوا المعصية ؟ أو أنهم وقفوا مع الحق ضد الظلم ؟ .. والله سبحانه وتعالى لا يمتحن الناس ليعلم المصلح من المفسد .. ولكنه يمتحنهم ليكونوا شهداء على أنفسهم .. حتى لا يأتى واحد منهم يوم القيامة ويقول : يارب لو أنك أعطيتنى الملك لاتبعت طريق الحق وطبقت منهجك .

وهنا يأتي سؤال .. اذا كان الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء فلماذا الامتحان؟ .. نقول اننا اذا أردنا ان نضرب مثلا يقرب ذلك الى الأذهان .. ولله المثل الأعلى .. نجد ان الجامعات في كل انحاء الدنيا تقيم الامتحانات للطلاب .. فهل اساتذة الجامعة الذين علموا هؤلاء الطلاب يجهلون ما يعرفه الطالب ويريدون ان يحصلوا منه على العلم ؟ .. طبعاً لا .. ولكن ذلك يحدث حتى اذا راسب الطالب في الامتحان .. وجاء يجادل واجهوه بإجابته فيسكت .. ولو لم يعقد الامتحان لادعى كل طالب انه يستحق مرتبة الشرف .

اذا قال الحق تبارك وتعالى : «مالك يوم الدين» .. أى الذى يملك هذا اليوم وحده يتصرف فيه كما يشاء .. واذا قيل : «مالك يوم الدين» .. فتصرفه أعلى من المالك لأن المالك لا يتصرف إلا في ملكه .. ولكن الملك يتصرف في ملكه وملك غيره .. فيستطيع أن يصدر قوانين بمصادرة أو تأميم ما يملكه غيره .

الذين قالوا : «مالك يوم الدين» اثبتوا لله سبحانه وتعالى انه مالك هذا اليوم يتصرف فيه كما يشاء دون تدخل من احد ولو ظاهرا : والذين يقرأون ملك .. يقولون ان الله سبحانه وتعالى في ذلك اليوم يقضى في امر خلقه حتى الذين منكم في الدنيا ظاهرا .. ونحن نقول عندما يأتي يوم القيامة لا مالك ولا ملك الا الله .

الله تبارك وتعالى يريد ان يطمئن عباده . . انهم اذا كانوا قد ابتلوا بمالك او ملك
يطغى عليهم فيوم القيامة لا مالك ولا ملك الا الله جل جلاله . . عندما تقول مالك
او ملك يوم الدين . . هناك يوم وهناك الدين . . اليوم عندما من شروق الشمس الى
شروق الشمس . . هذا مانسميه فلكيا يوما . . واليوم في معناه ظرف زمان تقع فيه
الاحداث . . والمفسرون يقولون : ومالك يوم الدين اى مالك امور الدين لان
ظرف الزمان لا يملك . . نقول ان هذا بمقاييس ملكية البشر ، فنحن لانملك
الزمان . . الماضي لانستطيع ان نعيده ، والمستقبل لانستطيع ان نأتي به . . ولكن الله
تبارك وتعالى هو خالق الزمان . . والله جل جلاله لا يحده زمان ولا مكان . . كذلك
قوله تعالى : ومالك يوم الدين لا يحده زمان ولا مكان . . واقرأ قوله سبحانه :

﴿وَسَنُعِمْهُنَاكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يَخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝١٧﴾

(سورة الحج)

وقوله تعالى :

﴿تَخْرُجُ الْمَلَكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ مِائَتِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝١٨﴾

(سورة النارج)

واذا تأملنا هاتين الايتين نعرف معنى اليوم عند الله تبارك وتعالى . . ذلك ان الله
جل جلاله هو خالق الزمن . . ولذلك فانه يستطيع ان يخلق يوما مقداره ساعة . .
ويوما كايام الدنيا مقداره اربع وعشرون ساعة . . ويوما مقداره الف سنة . . ويوما
مقداره خمسون الف سنة ويوما مقداره مليون سنة . . فذلك خاضع لمشية الله .

ويوم الدين موجود في علم الله سبحانه وتعالى . باحداثه كلها بجنته وناره . . وكل
الخلق الذين سيحاسبون فيه . . وعندما يريد ان يكون ذلك اليوم ويخرج من علمه
جل جلاله الى علم خلقه . . سواء كانوا من الملائكة او من البشر او الجن يقول :
كن . . فالله وحده هو خالق هذا اليوم . . وهو وحده الذى يحدد كل ابعاده . . واليوم
نحن نحدده ظاهرا بانه اربع وعشرون ساعة . . ونحدده بانه الليل والنهار . . ولكن
الحقيقة ان الليل والنهار موجودان دائما على الارض . . فعندما تتحرك الارض ، كل

حركة هي نهاية نهار في منطقة وبداية نهار في منطقة أخرى.. وبداية ليل في منطقة ونهاية ليل في منطقة أخرى.. ولذلك في كل لحظة ينتهي يوم وبدأ يوم.. وهكذا فإن الكرة الأرضية لو أخذتها بنظرة شاملة لا ينتهي عليها نهار أبدا.. ولا ينتهي عنها ليل أبدا.. إذن فالיום نسي بالنسبة لكل بقعة في الأرض.. ولكنه في الحقيقة دائم الوجود على كل الكرة الأرضية.

والله سبحانه وتعالى يريد أن يطعمن عباده.. أنهم إذا أصابهم ظلم في الدنيا.. فإن هناك يوما لا ظلم فيه.. وهذا اليوم الأمر فيه لله وحده بدون أسباب.. فكل إنسان لو لم يذكره العدل والقصاص في الدنيا فإن الآخرة تنتظره.. والذي أتبع منهج الله وقيد حركته في الحياة يغيره الله سبحانه وتعالى إن هناك يوما سيأخذ فيه أجره.. وعظمة الآخرة أنها تعطيك الجنة.. نعيم لا يفوتك ولا تفوته.

ولقد دخل أحد الأشخاص على رجل من الصالحين.. وقال له: أريد أن أعرف.. أنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة؟.. فقال له الرجل الصالح.. إن الله أرحم بعباده، فلم يجعل موازينهم في أبهى أمثالهم.. فميزان كل إنسان في يد نفسه.. لماذا؟.. لأنك تستطيع أن تغش الناس ولكنك لا تغش نفسك.. ميزانك في يديك.. تستطيع أن تعرف أنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة..

قال الرجل كيف ذلك؟.. فرد العبد الصالح: إذا دخل عليك من يعطيك مالا.. ودخل عليك من يأخذ منك صدقة.. فبأيها تفرح؟.. فسكت الرجل.. فقال العبد الصالح: إذا كنت تفرح بمن يعطيك مالا فأنت من أهل الدنيا.. وإذا كنت تفرح بمن يأخذ منك صدقة فأنت من أهل الآخرة.. فإن الإنسان يفرح بمن يقدم له ما يجه.. فالذي يعطيك مالا يعطيك الدنيا.. والذي يأخذ منك صدقة يعطيك الآخرة.. فإن كنت من أهل الآخرة.. فافرح بمن يأخذ منك صدقة.. أكثر من فرحك بمن يعطيك مالا..

ولذلك كان بعض الصالحين إذا دخل عليه من يريد صدقة يقول مرحبا بمن جاء بحمل حسنة إلى الآخرة بغير أجر.. ويستقبله بالفرحة والترحاب..

قول الحق سبحانه وتعالى : « مالك يوم الدين » .. هي قضية ضخمة من قضايا العقائد .. لأنها تعطينا أن البداية من الله ، والنهاية إلى الله جل جلاله .. وبما أننا جميعا سنلقى الله ، فلا بد أن نعمل لهذا اليوم .. ولذلك فإن المؤمن لا يفعل شيئا في حياته إلا وفي بآله الله .. وأنه سيحاسبه يوم القيامة .. ولكن غير المؤمن يفعل ما يفعل وليس في بآله الله .. وعن هؤلاء يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ كِسْفٍ مِّنْ نَّارٍ يَمْشُونَ فِيهَا وَيَصْلَوْنَ فِيهَا كَمَا يُصْلَوْنَ فِيهَا فِي يَوْمٍ ذُو نَجْوٍ لِلنَّاسِ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَرُونَ ١٥٠ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْكِبَابِ ١٥١ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ السَّيْرِ ١٥٢ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْطَا ١٥٣ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْغِيَاثِ ١٥٤ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ١٥٥ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْشِّمَالِ ١٥٦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٥٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٥٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٥٩ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٦٠ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٦١ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٦٢ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٦٣ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٦٤ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٦٥ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٦٦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٦٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٦٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٦٩ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٧٠ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٧١ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٧٢ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٧٣ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٧٤ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٧٥ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٧٦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٧٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٧٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٧٩ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٨٠ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٨١ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٨٢ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٨٣ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٨٤ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٨٥ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٨٦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٨٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٨٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٨٩ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٩٠ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٩١ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٩٢ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٩٣ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٩٤ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٩٥ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٩٦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٩٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ١٩٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَشْرِ ١٩٩ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْمَغْرِبِ ٢٠٠ ﴾

(سورة النور)

وهكذا من يفعل شيئا وليس في بآله الله .. فسيُفاجأ يوم القيامة بأن الله تبارك وتعالى الذي لم يكن في بآله موجود وأنه جل جلاله هو الذي سيحاسبه .

وقوله تعالى : « مالك يوم الدين » هي أساس الدين .. لأن الذي لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء .. فيأدام يعتقد أنه ليس هناك آخره وليس هناك حساب .. فعم بخاف ؟ .. ومن أجل من يقيد حركته في الحياة ..

إن الدين كله بكل طاعته وكل منهجه قائم على أن هناك حسابا في الآخرة .. وأن هناك يوما نقف فيه جميعا أمام الله سبحانه وتعالى .. ليحاسب المخطئ ويثيب الطائع .. هذا هو الحكم في كل تصرفاتنا الإيمانية .. فلو لم يكن هناك يوم نحاسب فيه .. فلماذا نصل ؟ .. ولماذا نصوم ؟ .. ولماذا نتصدق ؟ ..



ان كل حركة من حركات منج الساء قائمة على اساس ذلك اليوم الذى لن يفلت منه أحد . . . والذى يجب علينا جميعا أن نستعد له . . . ان الله سبحانه وتعالى سمى هذا اليوم بالنسبة للمؤمنين يوم الفوز العظيم . . . والذى يجعلنا نتحمل كل ما نكره ونجاهد في سبيل الله لنشهد . . . وننقذ اموالنا لنعين الفقراء والمساكين . . . كل هذا أساسه أن هناك يوما سنقف فيه بين يدي الله . . . والله تبارك وتعالى سياه يوم الدين . . . لانه اليوم الذى سيحاسب فيه كل انسان على دينه عمل به أم ضيعه . . . فمن آمن واتبع الدين سيكافأ بالخلود في الجنة . . . ومن أنكر الدين وأنكر منج الله سيجازى بالخلود في النار . . .

ومن عدل الله سبحانه وتعالى ان هناك يوما للحساب . . . لأن بعض الناس الذين ظلموا وبغوا في الأرض ربما يفلتون من عقاب الدنيا . . . هل هؤلاء الذين أفلتوا في الدنيا من العقاب هل يفلتون من عدل الله ؟ أبدا لن يفلتوا . بل إنهم انتقلوا من عقاب محدود الى عقاب خالد . . . وأفلتوا من العقاب بقدرة البشر في الدنيا . . . الى عقاب بقدرة الله تبارك وتعالى في الآخرة . . . ولذلك لابد من وجود يوم يعيد الميزان . . . فيعاقب فيه كل من أفسد في الأرض وأفلت من العقاب . . . بل إن الله سبحانه وتعالى يجعل انسانا يفلت من عقاب الدنيا . . . فلا تعتقد أن هذا خير له بل انه شر له . . . لانه أفلت من عقاب محدود الى عقاب أبدي .

والحمد الكبير لله بأنه «مالك يوم الدين» . . . وهو وحده الذى سيقضي بين خلقه . فאלله سبحانه وتعالى يعامل خلقه جميعا معاملة متساوية . . . وأساس التقوى هو يوم الدين .

وقبل ان نتكلم عن قول الحق تبارك وتعالى : «إياك نعبد وإياك نستعين» . . . لابد ان نتحدث عن قضية مهمة . . . فهناك نوعان من الرؤية . . . الرؤية العينية أى بالعين . . . والرؤية الايمانية أى بالقلب . . . وكلاهما مختلف عن الآخر . . . رؤية العين هي أن يكون الشيء أمامك تراه بعينيك ، وهذه ليس فيها قضية إيمان . . . فلا نقول أنني أؤمن أنني أراك أمامي لأنك تراه فعلا . . . مادمت تراه فهذا يقين . . . ولكن الرؤية الايمانية هي أن تؤمن كأنك ترى ما هو غيب أمامك . . . وتكون هذه الرؤية أكثر يقينا من رؤية العين . . . لأنها رؤية إيمان ورؤية بصيرة . . . وهذه قضية مهمة جدا . . .

وقد روى عمر بن الخطاب قال :

بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر . لا يرى عليه أثر السفر . ولا يعرفه منا أحد . حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم . فأسند ركبته الى ركبته . ووضع كفيه على فخذيه قال : يا محمد أخبرني عن الاسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله . وأن محمدا رسول الله . وتقيم الصلاة . وتؤتي الزكاة . وتصوم رمضان . وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا قال : صدقت . فجعنا له يسأله ويصدقه .

قال : فأخبرني عن الايمان

قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وتؤمن بالقدر خيره وشره

قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الاحسان ، قال :

أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك

قال : فأخبرني عن الساعة

قال : ما المسئول عنها يأعلم من السائل

قال : فأخبرني عن أماراتها

قال : أن تلد الأمة ربعتها . وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان .

قال : ثم انطلق فليت مليا . . ثم قال لي النبي صلى الله عليه وسلم :

يا عمر أتدري من السائل ؟

قلت : الله ورسوله أعلم

قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم (١)

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . . هو بيان للرؤية الالهية في النفس المؤمنة . . فالإنسان حينما يؤمن ، لا يد أن يأخذ كل قضاياء برؤية إلهية . . حتى اذا قرأ آية عن الجنة فكأنه يرى أهل الجنة وهم يتمتعون . . واذا قرأ آية عن أهل النار اقتشعر بدنه . . وكأنه يرى أهل النار وهم يعذبون .

ذات يوم شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد صحابته وكان اسمه الحارث .. فقال له :
كيف أصبحت يا حارث ؟
فقال : أصبحت مؤمناً حقاً

قال الرسول : فانظر ما نقول . فإن لكل قول حقيقة . فما حقيقة إيمانك ؟
قال الحارث : عزفت نفسي عن الدنيا . فأسهرت ليل . وأظلمات نهاري . وكان
أنظر إلى عرش ربى بارزاً . وكان أنظر إلى أهل الجنة يتزاوون فيها . وكان أنظر إلى
أهل النار يتصاغفون فيها . (يتصاغفون فيها) .
قال النبي « يا حارث عرفت فالزم » (١)

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى وهو يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم ..
يقول :

﴿الَّذِي كَفَّ فَعَلَّ رَبُّكَ أَنْ تُنْبِتَ الْفِيلَ﴾ (١)

(سورة الفيل)

ياخذ بعض المستشرقين هذه الآية في محاولة للطعن في القرآن الكريم .. فقولوه
تعالى : « ألم تر » .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم ولد في عام الفيل .. انه لم ير
لانه كان طفلاً عمره أيام أو شهور ، لو قال الله سبحانه وتعالى ألم تعلم لقلنا
علم من غيره .. فالتعلم يحصل عليه انت او يعطيه لك من عَلِمَهُ .. اى يملكك

(١) رواه الطبراني في الكبير ، وأبو نعيم في الحلية ، ورواه بنحوه : البيهقي وأبو علال العسكري في
الامتثال ، وابن الجوزي في التاريخ . وللمحدثين شواهد تزيى به الى درجة الحسن ، وقد رواه البيهقي في
الزهد عن الحارث بن مالك قال : أتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذ رداءه فلبى فوضعه تحت
رأسه فسلمت عليه فقال لي : كيف أنت يا حارث ؟ فقلت : رجول من المؤمنين ، فقال : انظر ماذا نقول ؟
قال : قلت نعم رجول من المؤمنين حقاً .

فاستوى صلى الله عليه وسلم حالاً ثم قال : لكل شيء حقيقة .. فما حقيقة ذلك ؟ قال : قلت :
عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليل ، واشغصت نهاري وكان أنظر إلى عرش ربى كأنى أريت أهل الجنة
يتزاوون فيها ، وكان اسمع عواء أهل النار فيها .. فقال : عرفت فالزم ، عبداً نور الله قلبه بالأيمان .

غيرك من البشر .. ولكن الله سبحانه وتعالى قال : « ألم تر » ..

نقول ان هذه قضية من قضايا الايمان .. فإ يقول الله سبحانه وتعالى هو رؤية صادقة بالنسبة للانسان المؤمن .. فالقرآن هو كلام متعبد بتلاوته حتى قيام الساعة .. وقول الله : « ألم تر » .. معناها ان الرؤية مستمرة لكل مؤمن بالله بقراء هذه الآية .. فإ دام الله تبارك وتعالى قال : « ألم تر » .. فأنت ترى بإيمانك ما تعجز عينك عن أن تراه .. هذه هي الرؤية الايمانية ، وهي أصدق من رؤية العين .. لان العين قد تخدع صاحبها ولكن القلب المؤمن لا يخدع صاحبه أبدا ..

عل أن هناك ما يسمونه ضمير الغائب .. اذا قلت زيد حضر .. فهو موجود أمامك .. ولكن إذا قلت قابلت زيدا .. فكأن زيدا غائب عنك ساعة قلت هذه الجملة .. قابلته ولكنه ليس موجوداً معك ساعة الحديث ..

اذن فهناك حاضِر وغائب ومتكلم .. الغائب هو من ليس موجوداً أو لا تراه وقت الحديث .. والحاضر هو الموجود وقت الحديث .. والمتكلم هو الذى يتحدث . وقضايا المعيدة كلها ليس فيها مشاهدة ، ولكن الايمان بما هو غيب عنا يعطينا الرؤية الايمانية التى هي كما قلنا أقوى من رؤية البصر .

فالله سبحانه وتعالى حين يقول « الحمد لله رب العالمين » .. « الله » غيب « ورب العالمين » غيب .. « والرحمن الرحيم » .. « غيب » .. « وأمالك يوم الدين » غيب .. وكان السياق اللغوى يقتضى أن يقال إياه نعبد . ولكن الله سبحانه وتعالى غير السياق ونقله من الغائب الى الحاضر .. وقال : « إياك نعبد » فانتقل الغيب الى حضور المخاطب .. فلم يقل إياه نعبد .. ولكنه قال : « إياك نعبد » .. فأصبحت رؤية يقين ايمانى .

فأنت فى حضرة الله سبحانه وتعالى الذى غمرك بالنعيم ، وهذه تراها وتحيط بك لأنه « رب العالمين » .. وجعلك تطمئن الى قضائه لأنه « الرحمن الرحيم » أى أن ربوبيته جل جلاله ليست ربوبية جبروت بل هي ربوبية « الرحمن الرحيم » فإذا لم

تحمده وتؤمن به بفضل نعمه التي تحسها وتعيش فيها . فاحذر من مخالفة منهجه لأنه «مالك يوم الدين» .

حين يستحضر الحق سبحانه وتعالى ذاته بكل هذه الصفات .. التي فيها فضائل الألوهية ، ونعم الربوبية .. والرحمة التي تحو الذنوب والرهبة من لقائه يوم القيامة تكون قد انتقلت من صفات الغيب الى محضر الشهود .. استحضرت جلال الألوهية لله وفيوضات رحمته .. ونعمه التي لا تحصى وقبوميته يوم القيامة ..

عندما تقرأ قوله تعالى : «إياك نعبد» فالعبارة هنا تفيد الخصوصية .. بمعنى أنني اذا قلت لآسان أنني سأقابلك ، قد أقابله وحده ، وقد أقابله مع جمع من الناس . ولكن اذا قلت إياك سأقابل .. فمعنى ذلك ان المقابلة ستكون خاصة ..

الحق سبحانه وتعالى حين قال : «إياك نعبد» قصر العبادة على ذاته الكريمة .. لأنه لو قال نعبدك وحدك فهي لا تؤدي المعنى نفسه ، لأنك قد تقول نعبدك وحدك ومعك كذا وكذا . ولكن اذا قلت «إياك نعبد» وقدمت إياك .. تكون قد حسمت الأمر بأن العبادة لله وحده فلا يجوز العطف عليها .. فالعبادة خضوع لله سبحانه وتعالى بمنهجه الفعل ولا تفعل .. ولذلك جعل الصلاة أساس العبادة ، والسجود هو منتهى الخضوع لله .. لأنك تأتي بوجهك الذي هو أكرم شيء فيك وتضعه على الأرض عند موضع القدم . فيكون هذا هو منتهى الخضوع لله .. ويتم هذا امام الناس جميعا في الصلاة . لإعلان خضوعك لله امام البشر جميعا .

ويستوى في العبودية الغني والفقر والكبير والصغير .. حتى يطرد كل منا الكبر والاستعلاء من قلبه امام الناس جميعا فيساوى الحق جل جلاله بين عباده في الخضوع له وفي اعلان هذا الخضوع .

وقول الحق سبحانه وتعالى : «إياك نعبد» تنفي العبودية لغير الله .. أي لا نعبد غير الله ولا يعطف عليها أبدا .. اذن «إياك نعبد» أعطت تخصيص العبادة لله وحده لا إله غيره ولا معبود سواه .. وعلينا أن نلتفت الى قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيمَا ءَالِهَةٍ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٢٢)

وهكذا فإننا عندما نقول «الحمد لله» فإننا نستحضر موجبات الحمد وهي نعم الله ظاهرة وباطنة .. ونحن نقول «رب العالمين» نستحضر نعم الربوبية في خلقه وإعضاع كونه .. ونحن نستحضر «الرحمن الرحيم» فإننا نستحضر الرحمة والمغفرة ومقابلة الاساءة بالأحسان وفتح باب التوبة .. ونحن نستحضر : «مالك يوم الدين» نستحضر يوم الحساب وكيف أن الله تبارك وتعالى سيجازيك على أعمالك .. فإذا استحضرتنا هذا كله نقول : «إياك نعبد» أي أننا نعبد الله وحده .. إذن عرفنا المطلوب منا وهو العبادة :

وهنا نتوقف قليلا لتحدث عما يطلقون عليه في اللغة «العلة والمعلول» إذا أراد ابنك ان ينجح في الامتحان فإنه لا بد ان يذاكر .. وعلة المذاكرة هي النجاح .. فكان النجاح ولد في ذهني أولا بكل ما يحققه لي من ميزات ومستقبل مضمون وغير ذلك مما أريده وأسعى اليه .

إذن فالدافع قبل الواقع .. أي أنك استحضرت النجاح في ذهنك .. ثم بعد ذلك ذاكرت لتجعل النجاح حقيقة واقعة . وأنت إذا أردت مثلا أن تسافر الى مكان ما فالسيارة سبب يحقق لك ماتريد وقطع الطريق سبب آخر . ولكن الدافع الذي جعلني أنزل من بيتي واركب السيارة وأقطع الطريق هو اني أريد أن أسافر الى الاسكندرية مثلا .. الدافع هنا وهو الوصول الى الاسكندرية .. هو الذي وجد في ذهني أولا ثم بعد ذلك فعلت كل ما فعلته لتحقيقه .

والله سبحانه وتعالى خلقنا في الحياة لنعبده .. مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُنِي﴾ (١)

(سورة الذاريات)

إذن فعلة الخلق هي العبادة .. ولقد تم الخلق لتحقيق العبادة وتصحيح واقعا .. ولكن «العلة والمعلول» لا تنطبق على أفعال الله سبحانه وتعالى .. نقول ليس هناك علة تعود على الله جل جلاله بالفائدة . لأن الله تبارك وتعالى غني عن العالمين .. ولكن العلة تعود على الخلق بالفائدة ؛ فالله سبحانه وتعالى خلقنا لنعبده . ولكن علة الخلق ليس لأن هذه العبادة ستزيد شيئا في ملكه .. وإنما عبادتنا تعود علينا

نحن بالخير في الدنيا والآخرة ..

إن أفعال الله لا تعمل ، والمأمور بالعبادة هو الذي يستبغ بها .

ولكن هل العبادة هي الجلوس في المساجد والتسبيح أو أنها منتج يشمل الحياة كلها .. في بيتك وفي عملك وفي السعي في الأرض ؟ .. ولو أراد الله سبحانه وتعالى من عباده الصلاة والتسبيح فقط لما خلقهم مختارين بل خلقهم مقهورين لعبادته ككل ما خلق ما عدا الانس والجن .. والله تبارك وتعالى له صفة القهر .. من هنا فإنه يستطيع أن يجعل من يشاء مقهوراً على عبادته .. مصداقاً لقوله جل جلاله :

﴿ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَقَمْتَ الْآيَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٤٠ إِنَّنَا نُنَزِّلُ طِهِم مِّنَ السَّمَاءِ عَآبَةً ۝٤١ فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَمَّا خَصَّيْنَ ۝٤٢﴾

(سورة الشعراء)

فلو أراد الله أن يخضعنا لمجهجه قهراً . لا يستطيع أحد أن يشذ عن طاعته .. وقد أعطانا الله الدليل على ذلك بأن في أجسادنا وفي أحداث الدنيا ما نحن مقهورون عليه .. فالجسد مقهور لله في أشياء كثيرة . القلب ينضض ويتوقف بأمر الله دون إرادة منا .. والمعدة تهضم الطعام ونحن لا ندرى عنها شيئاً .. والدورة الدموية في أجسادنا لا إرادة لنا فيها .. وأشياء كثيرة في الجسد البشري كلها مقهورة لله سبحانه وتعالى .. وليس لإرادتنا دخل في عملها .. وما يقع على في الحياة الدنيا من أحداث أنا مقهور فيه .. لا أستطيع أن أمنعه من الحدوث .. فلا أستطيع أن أمنع مباراة أن تصدمني .. ولا طائرة أن تحترق بي .. ولا كل ما يقع على من أقدار الله في الدنيا ..

أذن فمتنطقة الاختيار في حيات محددة .. لا أستطيع أن أتحكم في يوم مولدى .. ولا فيمن هو أبى ومن هي أمى .. ولا في شكلى هل أنا طويل أو قصير ؟ جميل أو قبيح أو غير ذلك . إذن فمتنطقة الاختيار في الحياة هي المنتج أن أفعل أو لا أفعل . الله سبحانه وتعالى له من كل خلقه عبادة القهر .. ولكنه يريد من الانس والجن عبادة المحبوبة .. ولذلك خلقنا ولنا اختيار في أن نأتيه أو لا نأتيه .. في أن نطيعه أو نعهيه . في أن نؤمن به أو لا نؤمن .

فإذا كنت تحب الله فأنت تأتيه عن اختيار . تتنازل عما يغضبه حبا فيه ، وتفعل ما يطلبه حبا فيه وليس قهرا . . فإذا تخلت عن اختيارك إلى مرادات الله في منهجه . . تكون قد حققت عبادة المحبوبة لله تبارك وتعالى . . وتكون قد أصبحت من عباد الله وليس من عبيد الله . . فكلنا عبيد لله سبحانه وتعالى ، والعبيد متساوون فيها يقهرون عليه . ولكن العباد الذين يتنازلون عن منطقة الاختيار لمрад الله في التكليف . . ولذلك فإن الحق جل جلاله . . يفرق في القرآن الكريم بين العباد والعبيد . . يقول تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦ ﴾

(سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَرَبِّعَادِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۖ ﴾

(سورة الفرقان)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أعطى أوصاف المؤمنين وسماهم عبادا . . ولكن عندما يتحدث عن البشر جميعا يقول عبيد . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكَ وَأَنَّكَ لَتَيسُّ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ١٨٧ ﴾

(سورة آل عمران)

ولكن قد يقول قائل : ان الله تبارك وتعالى يقول في كتابه العزيز :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُوا أَأَنزَلْنَاهُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُم ضَلُّوا ۖ ﴾

(سورة الفرقان)

الْبَيْتِ ١٩٠ ﴿

الحديث هنا عن العاصين والضالين . ولكن الله سبحانه وتعالى قال عنهم عباد . نقول إن هذا في الآخرة . . وفي الآخرة كلنا عباد لأننا مقهورون لطاعة الله الواحد العبود تبارك وتعالى . . لأن الاختيار البشري ينتهي ساعة الاحتضار . . ونصبح جميعا عباداً لله مقهورين على طاعته لا اختيار لنا في شيء .

والله سبحانه وتعالى قد أعطى الإنسان اختياره في الحياة الدنيا في العبودية فلم يقهره في شيء ولا يلزم غير المؤمن به بأى تكليف . . بل إن المؤمن هو الذى يلزم نفسه بالتكليف ويمتنع الله فيدخل في عقد ايمان مع الله تبارك وتعالى . . ولذلك نجد أن الله جل جلاله لا يخاطب الناس جميعاً في التكليف . . وإنما يخاطب الذين آمنوا فقط فيقول :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٩٠)

(سورة البقرة)

ويقول سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٩١)

(سورة البقرة)

أى أن الله جل جلاله لا يكلف إلا المؤمن الذى يدخل في عقد ايمان مع الله . وسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم عندما نضمه في معيار العبادية يكون القصة فهو صلى الله عليه وسلم الذى حقق العبادية المرادة لله من خلق الله كما يحبها الله . .

اذن فالذى يقول غاية الخلق كله محمد عليه الصلاة والسلام نقول ان هذا صحيح ، لأنه صلى الله عليه وسلم حقق العبادية المثل المطلوبة من الله تبارك وتعالى . . والتي هي علة الخلق . . وهكذا نعرف المقامات العالية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند خالقه .

والله تبارك وتعالى قرن العبادة له وحده بالاستعانة به سبحانه .. فقال جل جلاله : «إياك نعبد وإياك نستعين» أى لا نعبد سواك ولا نستعين إلا بك . والاستعانة بالله سبحانه وتعالى تخرجك عن ظلم الدنيا . فانت حين تستعين بغير الله فأنت تستعين بغير ما يبلغ تقوه وقوته فكلها فى حدود بشرية ..

ولأننا نعيش فى عالم أغيار . فإن القوى يمكن أن يصبح ضعيفا .. وصاحب النفوذ يمكن أن يصبح فى لحظة واحدة طريدا شريدا لا نفوذ له .. ولو لم يحدث هذا . فقد يموت ذلك الذى تستعين به . فلا تجد احدا يعينك .

ويريد الله تبارك وتعالى أن يمرر المؤمن من ذل الدنيا .. فيطلب منه أن يستعين بالحقى الذى لا يموت .. وبالقوى الذى لا يضعف ، وبالقاهر الذى لا يخرج عن أمره أحد .. وإذا استعنت بالله سبحانه وتعالى . كان الله جل جلاله بجانبك . وهو وحده الذى يستطيع أن يحول ضعفك الى قوة وذلك الى عز .. والمؤمن دائما يواجه قوى أكبر منه . ذلك أن الذين يحاربون منج الله يكونون من الأقوياء ذوى النفوذ الذين يمحون أن يستعيدوا غيرهم .. فالمؤمن سيدخل معهم فى صراع .. ولذلك فإن الحق يحض عباده المؤمنين بأنه معهم فى الصراع بين الحق والباطل .. وقوله تعالى : «إياك نستعين» مثل : «إياك نعبد» .. أى نستعين بك وحدك وهى دستور الحركة فى الحياة .. لأن استعان معناها طلب المعونة ، أى أن الانسان استغنى أسبابه ولكنها أخذته .. حينئذ لا يد أن يتذكر أن له ربا لا يعبد سواه . لن يتخل عنه بل يستعين به .. وحين تتخل الأسباب فهناك رب الأسباب وهو موجود دائما .. لا يقل عن شيء ولا تقوته همسة فى الكون .. ولذلك فإن المؤمن يتجه دائما الى السماء .. والله سبحانه وتعالى يكون معه .



﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمُتَّصِبِينَ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

بعد أن أمنت بالله سبحانه وتعالى وإلهاً ورباً .. واستحضرت عطاء الألوهية ونعم الربوبية وفيرضات رحمة الله على خلقه . وأعلنت أنه لا إله إلا الله . وقولك : «إياك نعبد» أى أن العبادة لله تبارك وتعالى لا نشرك به شيئاً ولا نعبد إلا إياه . . وأعلنت أنك مستعين بالله وحده بقولك : «إياك نستعين» . فأنك قد أصبحت من عباد الله . ويعلمك الله سبحانه وتعالى الدعاء الذى يتمناه كل مؤمن . . ومادمت من عباد الله ، فإن الله جل جلاله سيستجيب لك . . مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

(سورة البقرة)

والمؤمن لا يطلب الدنيا أبداً .. لماذا ؟ .. لأن الحياة الحقيقية للانسان فى الآخرة . فيها الحياة الأبدية والنعيم الذى لا يفارقه ولا تفارقه . فالمؤمن لا يطلب مثلاً أن يرزقه الله مالاً كثيراً ولا أن يمتلك عمارة مثلاً .. لأنه يعلم أن كل هذا وقفى وزائل .. ولكنه يطلب ما ينتج من النار ويوصله الى الجنة .. ومن رحمة الله تبارك وتعالى أنه علمنا ما نطلب .. وهذا يستوجب الحمد لله . . وأول ما يطلب المؤمن هو الهداية والصراط المستقيم : «إهدنا الصراط المستقيم» والهداية نوعان : هداية دلالة وهداية معونة . هداية الدلالة هى للناس جميعاً . . وهداية المعونة هى للمؤمنين فقط المتبينين لمنهج الله . والله سبحانه وتعالى هدى كل عباده هداية دلالة أى دلهم على طريق الخير وبينه لهم . . فمن أراد أن يتبع طريق الخير اتبعه . . ومن أراد ألا يتبعه تركه الله لما أراد . .

هذه الهداية العامة هي أساس البلاغ عن الله . فقد بين لنا الله تبارك وتعالى في منهجه بالفعل ولا تفعل ما يرضيه وما يفضيه .. وأوضح لنا الطريق الذي نتبعه لننتهي . والطريق الذي لو سلكناه حتى علينا غضب الله وسخطه .. ولكن هل كل من بين له الله سبحانه وتعالى طريق الهداية اهتدى ؟ .. نقول لا .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَأَمَّا نُمُودُ فَمَهْدِيَّتُهُمْ فَاسْتَجَبُوا أَلْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ مَشِيعَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾﴾

(سورة فصلت)

اذن هناك من لا يأخذ طريق الهداية بالاختيار الذي أعطاه الله له .. فلو أن الله سبحانه وتعالى أرادنا جميعا مهدين .. ما استطاع واحد من خلقه أن يخرج على مشيئته . ولكنه جل جلاله خلقنا مختارين لأنثيه عن حب وروية بدلا من أن يقهرنا على الطاعة .. ما الذي يحدث للذين اتبعوا طريق الهداية والذين لم يتبعوه وخالفوا مراد الله الشرعى في كونه ؟

الذين اتبعوا طريق الهداية يعينهم الله سبحانه وتعالى عليه ويحببهم في الإيمان والتقوى ويحببهم في طاعته .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآانَهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾

(سورة محمد)

أى أن كل من يتخذ طريق الهداية يعينه الله عليه .. ويزيده تقوى وحبا في الدين .. أما الذين إذا جاءهم الهدى ابتعدوا عن متبع الله وخالفوه .. فإن الله تبارك وتعالى يتخذ عنهم ويتركهم في ضلالهم . واقرأ قوله تعالى :

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿١٨﴾﴾

(سورة الزعفر)

والله سبحانه وتعالى قد بين لنا المحرومين من هداية المعونة على الايمان وهم ثلاثة
كما بيَّتهم لنا في القرآن الكريم:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٣٧)

(سورة النحل)

﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالْحَبْلِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا لِيُخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَتَّقُونَ اللَّهَ وَلَا يَتَّقُونَ اللَّهَ وَلَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (١٣٨)

(سورة الشورى)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُبْعِدُ قَالَ أَنَا أَخِي وَأُوتِيَتْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَهَنَّ اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾ (١٣٩)

(سورة البقرة)

اذن فالمطرودون من هداية الله في المعونة على الايمان هم الكافرون والفاقدون
والظالمون .. الحق سبحانه وتعالى يقول : «اهدنا الصراط المستقيم» ما هو
الصراط ؟ .. إنه الطريق الموصلة الى الغاية . ولماذا نص على أنه الصراط المستقيم .
لان الله سبحانه وتعالى وضع لنا في منهجه الطريق المستقيم .. وهو أقصر الطرق الى
تحقيق الغاية .. فأقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم . ولذلك إذا كنت
تقصد مكانا فأقصر طريق تسلكه هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه ولكنه مستقيم
تماما ..

ولا نحسب ان البعد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير . بل باعوجاج صغير
جدا ولكنه ينتهي الى بُعد كبير ..

ويكفى أن تراقب قضبان السكة الحديد .. عندما يبدأ القطار في اتخاذ طريق غير الذى كان يسلكه فهو لا يتحرف في أول الأمر إلا بضعة ملليمترات .. أى أن أول التحويلة ضيق جدا وكلما مشيت اتسع الفرق وازداد اتساعا . بحيث عند النهاية تجد أن الطريق الذى مشيت فيه .. يبعد عن الطريق الأول عشرات الكيلو مترات وربما مئات الكيلو مترات .. إذن فأى انحراف مهما كان بسيطا يبعدك عن الطريق المستقيم بعدا كبيرا .. ولذلك فإن الدعاء : «اهدنا الصراط المستقيم» أى الطريق الذى ليس فيه اعوجاج ولو بضعة ملليمترات .. الطريق الذى ليس فيه مخالفة تبعثنا عن طريق الله المستقيم .

لذلك فإن الانسان المؤمن يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يهديه الى أقصر الطرق للوصول الى الغاية .. وماهى الغاية ؟ انها الجنة والنعم في الآخرة .. ولذلك نقول بارب اهدنا وأعتنا عل أن نسلك الطريق المستقيم وهو طريق المنهج ليوصلنا الى الجنة دون أن يكون فيه أى اعوجاج يبعدنا عنها .
ولقد قال الله سبحانه وتعالى في حديث قيسى . انه اذا قال العبد : «اهدنا الصراط المستقيم» يقول جل جلاله : «هذا لعبدى ولعبدى ما سأل .
يقول الحق تبارك وتعالى : «صراط الذين أنعمت عليهم» ما معنى «الذين أنعمت عليهم» ؟ .. اقرأ الآية الكريمة :

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ٥١﴾

(سورة النساء)

وأنت حين تقرأ الآية الكريمة فانت تطلب من الله تبارك وتعالى أن تكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .. أى أنك تطلب من الله جل جلاله أن يجعلك تسلك نفس الطريق الذى سلكه هؤلاء لتكون معهم في الآخرة .. فكأنك تطلب الدرجة العالية في الجنة .. لأن كل من ذكرناهم لهم مقام عال في جنة النعم .. وهكذا فإن الطلب من الله سبحانه وتعالى هو أن يجعلك تسلك الطريق الذى لا اعوجاج فيه . والذى يوصلك في أسرع وقت الى الدرجة العالية في الآخرة .

وعندما نعرف ان الله سبحانه وتعالى قال : (هذا لعبدى ولعبدى ما سأل) . .
تعرف أن الاستجابة تعطيك الحياة العالية في الآخرة وتتمتع بنعم الله . ليس
بقدرات البشر كما يحدث في الدنيا . . ولكن بقدرة الله تبارك وتعالى . . وإذا كانت
نعم الدنيا لا تعد ولا تحصى . . فكيف بنعم الآخرة ؟ لقد قال الله سبحانه وتعالى
عنها :

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٢٥)

(سورة ف)

أي أنه ليس كل ما تطلبه فقط ستجده أمامك بمجرد وروده على خاطرك - ولكن
مهما طلبت من النعم ومهما تمنيت قاله جل جلاله عنده مزيد . . ولذلك فإنه يعطيك
كل ما تشاء ويزيد عليه بما لم تطلب ولا تعرف من النعم . . وهذا تشبيه فقط ليقرب
الله تبارك وتعالى صورة النعم الى أذهاننا ، ولكن الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن
سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وبما أن المعاني لا بد أن توجد أولاً في العقل ثم يأتي اللفظ المعبر عنها . . فكل شيء
لا نعرفه لا توجد في لغتنا ألفاظ تعبر عنه . فنحن لم نعرف اسم التليفزيون مثلاً
إلا بعد أن اخترع وصار له مفهوم محدد . تماماً كما لم نعرف اسم الطائرة قبل أن يتم
اختراعها . . قال الشيء يوجد أولاً ثم بعد ذلك يوضع اللفظ المعبر عنه . ولذلك فإن
مجامع اللغات في العالم تجمع بين فترة وأخرى . لتضع أسماء لأشياء جديدة اخترعت
وعرفت مهمتها . .

وبإدراك ذلك هو القاعدة اللغوية ، فإنه لا توجد الفاظ في لغة البشر تعبر عن النعم
الذي سيعيشه أهل الجنة لأنه لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على القلب . .
ولذلك فإن كل ما نقرؤه في القرآن الكريم يقرب لنا الصورة فقط . ولكنه لا يعطينا
حقيقة ما هو موجود . ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى حين يتحدث عن الجنة في

القرآن الكريم يقول :

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ تَعْمُرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كُنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ۝٥٥﴾

(سورة محمد)

أى إن هذا ليس حقيقة الجنة ولكنها مثل فقط يقرب ذلك الى الاذهان .. لانه لا توجد الفاظ في لغات البشر يمكن أن تعطينا حقيقة ما في الجنة .

وقوله تعالى : «غير المغضوب عليهم» .. أى غير الذين غضبت عليهم يارب من الذين عصوا . ومنعت عنهم هداية الاعانة .. الذين عرفوا المنهج فخالفوه وارتكبوا كل ما حرمه الله فاستحقوا غضبه .

ومعنى غير «المغضوب عليهم» أى يارب لا تيسر لنا الطريق الذى نستحق به غضبك . كما استحقه أولئك الذين غيروا وبدلوا في منهج الله ليأخذوا سلطة زمنية في الحياة الدنيا وليأكلوا اموال الناس بالباطل ..

وقد وردت كلمة «المغضوب عليهم» في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِمُرْسِيٍّ مِّنْ ذَلِكَ مُتْرَبَةٍ عِنْدَ أَقْدَمِ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَأَخْلَزَ بَرَّ وَعَبْدَ الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ۝٥٦﴾

(سورة المائدة)

وهذه الآيات نزلت في بنى اسرائيل .

وقول الله تعالى : «ولا الضالين» هناك الضال والمُضِل . . الضال هو الذي ضل الطريق فاتخذ منهجا غير منهج الله . . ومضى في الضلالة بعيدا عن الهدى وعن دين الله . . ويقال ضل الطريق أى مضى فيه وهو لا يعرف السبيل إلى ما يريد أن يصل إليه . . أى أنه تاه في الدنيا فأصبح وليا للشيطان وابتعد عن طريق الله المستقيم . . هذا هو الضال . . ولكن المضل هو من لم يكف بأنه ابتعد عن منهج الله وسار في الحياة على غير هدى . . بل يحاول أن يأخذ غيره إلى الضلالة . . يغري الناس بالكفر وعدم اتباع المنهج واليعد عن طريق الله . . وكل واحد من العاصين بأن يوم القيامة يحمل ذنوبه . . الا المضل فإنه يحمل ذنوبه وذنوب من أضلهم . مصداقا لقوله سبحانه :

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَحِمْلَةِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِيدُونَ﴾ (١٥)

(سورة النحل)

أى أنك وأنت تقرأ الفاتحة تستعجل بالله أن تكون من الذين ضلوا . . ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يأت هنا بالمضلين . نقول انك لكى تكون مضلا لابد أن تكون ضالا أولا . . فالاستعاذه من الضلال هنا تشمل الاثنين . لأنك مادمت قد استعذت من أن تكون ضالا فلن تكون مضلا أبدا .

بقى أن نتكلم عن ختم فاتحة الكتاب . بقولنا آمين أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى علمه جبريل عليه السلام أن يقول بعد قراءة الفاتحة آمين ، فهى من كلام جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليست كلمة من القرآن .

وكلمة آمين معناها استجب يارب فيما دعوناك به من قولنا : واهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم أى أن الدعاء هنا له شيء مطلوب تحقيقه . و آمين دعاء لتحقيق المطلوب . . وكلمة آمين اختلف العلماء فيها . . أهى عربية أم غير عربية .

وهنا يثور سؤال . . كيف تدخل كلمة غير عربية في قرآن حكيم الله بأنه عربى . . ؟ نقول أن ورود كلمة ليست من أصل عربى في القرآن الكريم لاينفى

ان القرآن كله عربى . بمعنى أنه اذا خوطب به العرب فهموه . . وهناك الفاظ دخلت فى لغة العرب قبل أن ينزل القرآن . . ولكنها داوت على اللسان بحيث أصبحت عربية وألفتها الأذان العربية . .

فليس المراد بالعربى هو أصل اللغة العربية وحدها . . وإنما المراد أن القرآن نزل باللغة التى لها شيوخ على ألسنة العرب . ومادام اللفظ قد شاع على اللسان قولاً وفى الأذان سمعاً . فإن الأجيال التى تستقبله لا تفرق بينه وبين غيره من الكلمات التى هى من أصل عربى . . فاللفظ الجليل أصبح عربياً بالاستعمال وعند نزول القرآن كانت الكلمة شائعة شيوخ الكلمة العربية .

واللغة ألفاظ يصطلح على معانيها . بحيث اذا أطلق اللفظ فهم المعنى . واللغة التى تتكلمها لا تخرج عن اسم وفعل وحرف . . الاسم كلمة والفعل كلمة والحرف كلمة . . والكلمة لها معنى فى ذاتها ولكن هل هذا المعنى مستقل فى الفهم أو غير مستقل . . اذا قلت محمداً مثلاً فهمت الشخص الذى سمي بهذا الاسم قصار له معنى مستقل . . واذا قلت كتب فهمت أنه قد جمع الحروف لتقرأ على هيئة كتابة . . ولكن اذا قلت ماذا وهى حرف فليس هناك معنى مستقل . . واذا قلت « فى » دلت على الظرفية ولكنها لم تدلنا على معنى مستقل . بل لا بد ان نقول الماء فى الكوب . . أو فلان على الفرس . . غير المستقل فى الفهم نسميه حرفاً لا يظهر معناه إلا بضم شيء له . . والفعل يحتاج الى زمن ، ولكن الاسم لا يحتاج الى زمن . .

اذن الاسم هو مادل على معنى مستقل بالفهم وليس الزمن جزءاً منه . . والفعل مادل على فعل مستقل بالفهم والزمن جزء منه . . والحرف دل على معنى غير مستقل . . ما هى علامة الفعل هى أنك تستطيع أن تستند اليه تاء الفاعل . . أى تقول كتب والفاعل هو المتكلم . . ولكن الاسم لا يضاف اليه تاء الفاعل فلا تقول محمدت . . اذا رأيت شيئاً يدل على الفعل أى يحتاج الى زمن . . ولكنه لا يقبل تاء الفاعل فانه يكون اسم على فعل .

آمين من هذا النوع ليست فعلاً فهى اسم مدلوله مدلول الفعل . . معناه استجب . . فأنت حين تسمع كلمة «أه» انها اسم لفعل بمعنى اتوجه . . وساعة

تقول «أف» اسم فعل بمعنى اتفجر .. وأمين اسم فعل بمعنى استجب .. ولكنك تقولها مرة وأنت القاريء ، وتقولها مرة وأنت السامع . فساعة تقرأ الفاتحة تقول آمين .. أي أنا دعوت يارب فاستجب دعائي .. لأنك لشدة تعلقك بما دعوت من الهداية فانك لاكتفى بقول اهدنا ولكن تطلب من الله الاستجابة . وإذا كنت تصل في جماعة فانت تسمع الامام وهو يقرأ الفاتحة .. ثم تقول آمين. لأن المأموم أحد الداعين .. الذي دعا هو الامام ، وعندما قلت آمين فانت شريك في الدعاء .. ولذلك فعندما دعا موسى عليه السلام أن يطمس الله على اموال قوم فرعون وملكهم قال الله لموسى :

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكَ فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٩٢)

(سورة يونس)

أي أن الخطاب من الله سبحانه وتعالى موجة الى موسى وهارون . ولكن موسى عليه السلام هو الذي دعا .. وهارون آمن على دعوة موسى فأصبح مشاركا في الدعاء .





سورة البقرة

نأى بعد فاتحة الكتاب إلى سورة البقرة .. وهي التي تل الفاتحة في ترتيب المصحف الشريف .. وإذا نظرنا إلى اسم السورة وجدنا أنه لا بد أن يثير انتباهنا .. لأن القرآن الكريم نزل في بيئة عربية . ولم تكن البقرة وقت نزول القرآن الكريم حيوانا معروفا أو من الأنعام التي يعرفها العرب في ذلك الوقت .

نقول إن اسم السورة قد أخذ من قضية أساسية في الدين وهي الإيمان بالبعث .. والإيمان بالبعث هو أساس الدين .. فمن لا يؤمن بالآخرة والبعث والحساب يفعل ما يشاء في الدنيا دون أى وازع . لأنه مادام ليس هناك بعث تصبح الدنيا غابة .. ويصبح الدين بلا مفهوم .. لأن أساس العبادة هو أن الحياة الحقيقية في الآخرة .. وأن الدنيا هي دار إختبار ودار أخير .. أما الآخرة فهي دار نعيم مقيم . ففى الدنيا إما أن تفارق النعمة وإما تفارقه .. تفارقها بالموت .. أو تفارقه بأن نزول عتك . أما الحياة التي لا تفارقه فيها النعمة ولا تفارقها فهي الآخرة .. لذلك فإن كل عمل المؤمن في الدنيا مقصود به الجزاء في الآخرة .

ومنيح الله في الأرض بقودك الى الجنة إن طيعته ، والى النار والعياذ بالله إن خالفته .. إذن فقضية الايمان كلها مبنية على الايمان بالبعث . وسورة البقرة فيها تجربة حدثت مع بنى اسرائيل .. ورواوا البعث وهم مازالوا في الدنيا ، حين بعث الله سبحانه وتعالى قتيلاً لينطق باسم قاتله .. ثم مات بعد ذلك .

والقصة أن رجلا من بنى اسرائيل .. كان ثريا يملك المال الكثير ولم يكن له ولد يرثه .. فتأمر عليه ابن أخيه فقتله ليلا ثم أخذ الجثة وألقاها في مكان قريب من إحدى القرى المجاورة لبيتهم أهل هذه القرية بقتله .. وصحبا أهل القرية ليجدوا جثة القتيل على باب قريتهم .. واتهموا فيه وقالوا لم نقتله . وقال أقارب القتيل بل أنتم الذين قتلتموه . واحتدم الخلاف وذهبوا الى موسى عليه السلام . وقالوا ان الخلاف قد احتدم .. فاسأل لنا ربك أن يكشف لنا عن القاتل .. وجاءت القصة

في سورة البقرة في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَضِلُّنَا هَذَا قَالَ أَعُودُ بِاللَّهِ أَن أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَيْسَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَكَرُّ عَوْنٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَمْ تَأْتِنَا قَبْلُ بِهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقْعِ لَوْ تَهَا تُسْرُ أَنْتَظِرِينَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَيْسَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَّهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شَرَّ فِيهَا قَالُوا الْفَنَ حِجَّتَ الْخَطِ قَدْ جِئُوا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا قَدْ زُرْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٠﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكَ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أمر بني اسرائيل أن يذبحوا البقرة ، ولو أنهم ذبحوا أية بقرة وأخذوا بعضها منها ليضربوا به القتل . لعادت الحياة اليه ونطق باسم قاتله .. ولكنهم بدلا من أن يستقبلوا أوامر الله سبحانه وتعالى بالتنفيذ .. استقبلوها أولا بعدم التصديق .. و : وقالوا أنتخذنا هزوا وظلوا يشددون على انفسهم يطلب أوصاف البقرة حتى جاء الايضاح من الحق تبارك وتعالى بعمر البقرة ولونها وكل ما يخصها .

وكان لهذا حكمة عند الله سبحانه وتعالى لخطة قضية ايمانية اخرى .. وقد كان هناك رجل صالح من بني اسرائيل .. يتحرى الدقة في كسبه ولا يرضى إلا بالخلال . وكان رجلا يبتغي وجه الله في كل ما يفعل .. وعندما حضرته الوفاة كانت ثروته هي بقرة صغيرة وكان ابنه طفلا .. واحترار الرجل من يوصي على هذه البقرة التي هي كل ثروته التي تركها لابنه وزوجته .. وانجى الى الله سبحانه وتعالى وقال اللهم ان استودعتك هذه البقرة فاحفظها لابني حتى يكبر . لأنه لم يجد امينا على

ابنه إلا يدا الله سبحانه وتعالى . ثم قال لزوجه ابنى لم اجد يدا آمن من يد ربي استودعت البقرة الصغيرة .. وسأله زوجته أين البقرة ؟ قال أطلقتها فى المراعى .. ثم أسلم الروح ..

وكبر الابن فحكى له أمه ما حدث . فقال الابن وأين اجد البقرة لاستردها ؟ قالت الأم لقد استودع ابوك البقرة عند خالق الكون . فقل انى أتوكل على الله وابحث عنها . فقال الابن اللهم رب ابراهيم ويعقوب رد على ما استودعك أبى . ثم انطلق الى الحقل فوجد البقرة .. وكانت هذه هى البقرة التى ذكرت أوصافها لبنى اسرائيل .. فذهبوا ليشتروها فقال الابن لن أبيعها إلا بجلء جلدها ذهباً فدفعوا له ..

وهكذا نجد أن صلاح الأب يجعل الله حفيظاً على اولاده يرعاهم ويسر لهم أمورهم . وقد أوضح الله تعالى هذه الحقيقة فى سورة الكهف . عندما جاء العبد الصالح وبني الجدار ليحفظ كنز يتيمين كان أبوهما صالحاً .. وأقرأ قول الحق سبحانه :

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

(سورة الكهف)

وهكذا كانت الحكمة الإلهية أن الرجل الصالح الذى استودع كل ما كان يملك عند الله .. بارك الله له فيه ووجد ابنه عندما يبلغ من الشباب ثروة كبيرة .

وعندما ذبحوا البقرة . ضربوا ببعضها القليل كما أمرهم الله سبحانه وتعالى فإذا به يبعث وينطق اسم قاتله ثم يموت مرة أخرى .. وهكذا سميت السورة باسم سورة البقرة إثباتاً لقضية أساسية فى الدين وهى قضية الايمان بالبعث .

وأما بداية القرآن بسورة مدنية بدلاً من سورة مكية .. فنقول إنه يجب أن نفهم أولاً ما هو مكي وما هو مدنى . فسكة والمدينة مكانان مقدسان .. الأول شهد بداية

النبوة وبداية نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم . . والثاني كان مهجر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فعندما نقول مكي ومدني في القرآن الكريم ، لابد أن نلاحظ عدة أشياء . . أولا الحدث الذي نزلت من أجله الآية . . وثانيا مكان الحدث وثالثا الزمان الذي نزلت فيه ، فكل فعل له زمن يقع فيه ومكان يحدث فيه . وفاعل . ومن يقع عليه الفعل . . وسبب للحدث وقدرة على الفعل . .

وبالنسبة لنزول القرآن الكريم . . الفاعل هو الله سبحانه وتعالى . . والذي نزل عليه القرآن هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . . والمكان هو إما مكة وإما المدينة . . فنزول القرآن الكريم له زمان ومكان وسبب نزول ، والقرآن هو هداية البشر إلى منهج الله . . والله سبحانه وتعالى وضع في القرآن الكريم دستوراً سيأوي لكل رسالات الله للبشر . . فنزول القرآن الكريم اكتملت الرسالات السيوية . وجاء الدين الخاتم الذي يظل دستوراً للعالم حتى يوم القيامة . . فجاء القرآن الكريم بقصة خلق السموات والأرض وقصة خلق الإنسان . . وجاء يقصص الرسل والأنبياء الذين سبقوا نزول القرآن الكريم وصحح ما زيف منها وعدل ما حُرف منها لتأتي صادقة فيما أبلغ به الرسل عن الله . وثاني ناسخة لكل ما عيشت به أيدي البشر في الرسالات السابقة على نزول القرآن . . وثاني مصححة لكل كلام بشري أضيف إلى منهج الله ونسب إليه زورا وبهتانا . . وثاني بما كتبه أهل الديانات القديمة وأخبار اليهود وربهان النصارى عن الناس . .

إنه يفضح كل تحريف أو كتم أو إخفاء أو تزيف أو إضافة بشرية لدين الله في الرسالات السابقة . ويزيد عليه من منهج الله ليصبح القرآن الكريم المنهج الكامل المتكامل لعبادة الله في الأرض . . ويتضمن منهج السماء منذ عهد آدم إلى قيام الساعة .

ولقد اختلف العلماء حول بعض الآيات وهل هي مكية أو مدنية .

فالذين أخذوا بعنصر الزمان مقياساً قالوا إن كل سورة من القرآن الكريم نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة تعتبر مدنية . . حتى ولو نزلت في مكة . . والذين اتخذوا مقياس المكان قالوا إن كل سورة نزلت في مكة فهي مكية ، وكل سورة نزلت في المدينة فهي مدنية ، وذلك بصرف النظر عن أنها نزلت قبل الهجرة أو بعدها . . ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت عليه سور في مكة بعد الهجرة .

ونحن نقول إنه لأخلاف بين علماء المسلمين كما حاول البعض أن يصوره . بل إن كل فريق أعمد الموضوع من زاوية معينة . . بعضهم نظر الى زاوية المكان ، وبعضهم نظر الى زاوية الزمان . ولم يختلف العلماء في سور القرآن الكريم ذاته أو آياته .

عندما ننظر الى سورة البقرة نجد أنها من أوائل السور التي نزلت بالمدينة . . ففيها الطابع المدني والطابع المكّي . . الطابع المكّي في سور القرآن الكريم هو التركيز على العقيدة . . ذلك أن الآيات والسور المكّية نزلت ورسول الله صل الله عليه وسلم يواجه الوثنيين عبدة الأصنام ، والكفار الذين لا يؤمنون بدين وعدداً من أهل الكتاب الذين ضعفت صلتهم بالسبأ لأنهم نسوا ما قاله رسولهم فحرفوه . . وكان لا بد للقرآن أن يواجه هؤلاء جميعاً ويبين لهم أنهم على باطل وأنهم يعبدون آلهة لا تنفع ولا تضر . . بل آلهة مصنوعة من أذن أجناس الأرض وهي الحجارة . . بينما الله سبحانه وتعالى ميز الإنسان وجعله خليفة في هذا الكون .

وكان لا بد للقرآن أن يخبرهم أن هناك بعثاً بعد الموت . . وأن هناك جنة وناراً وأن الحياة الحقيقية ليست الدنيا ولكنها الآخرة . . وكان لا بد أن يحذرهم من عذاب الله . . ومن يوم سيلقونه فيه ولا يستطيع أحد منهم هرباً من ذلك اليوم العظيم . . وكان لا بد أن يلفتهم الى آيات الله في الكون الدالة على أنه الموجد والمخالق . . وأن يواجه ما يأتى به أحبار اليهود من أسئلة ظاهرها الاستفهام ، وحقيقتها محاولة الطعن في الاسلام .

وكانوا يظنون أنه ربما يأتى محمد عليه الصلاة والسلام بشيء من عنده فيخطئ . . فجاء القرآن ليساوى بين البشرية كلها . . فلا فضل لغنى ثاله ولا قلة لفقر في الأجر . . بل الناس أمام الله سواسية كأسنان المشط .

كان هذا هو اساس الدعوة في مكة . . ايمان بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . . وتثبيت للمؤمنين في الفترة التي كانوا فيها قلة وكانوا فيها ضعفاء وكانوا أدلة .

وتثبيت الايمان كان يقتضى تذكيرهم دائماً بأن الله معهم . . وإن ماتوا شهداء دخلوا الجنة بلا حساب . . وإن ماتوا على دين الاسلام دخلوا الجنة . . ومن يبقى منهم على كفره عُذب في النار ، وأن كل مشقة في سبيل الله لها أجر في الآخرة حتى يتحملوا المشقة والإيذاء وهم صابرون .

وإذا انتقلنا بعد ذلك الى مجتمع المدينة .. فهناك صورة أخرى ووجه فيها الاسلام بالكفار وعبيد الاوثان ومزورى التوراة من اليهود وعدو جديد هم المنافقون .. وقد كانت هناك عداوة جاهلة في مكة ، أما في المدينة فقد ووجه الاسلام بعبادة عائلة .. وهم المنافقون .. فلم يكن هناك تفاق في مكة ، فالضعيف والمضطهد لا يتفارق .. فمتذا الذى كان يدعى في مكة أنه مؤمن وهو كافر .. ليكون عرضة للعذاب والإيذاء والاضطهاد . ولكن في المدينة عندما قوى الاسلام وكانت له دولة ظهر في المجتمع التفاق . وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ الْإِنْفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ خَيْرٌ نَّعْلَمُهُمْ شَعِيرَةً ۚ لَهُمْ مَرْتَبٌ لَّمْ يَرُدُّوا عَنْ عَذَابِ عَظِيمٍ ۝١١٠﴾

(سورة النوبة)

وهكذا واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة عداوة من لون جديد .. ليخوض صراعا مع المنافقين واليهود .. وبجانب التوحيد والرد على المنافقين واليهود كان هناك للمجتمع الاسلامي .. وكانت هناك مهمة تربية هذا المجتمع لكن ينهض بالدعوة ، وكانت هناك دولة وكانت هناك غزوات ، وكان هناك أحكام بالفعل ولا تفعل .

كل هذا لم يكن موجودا في مكة ، فقد اقتضى نزول القرآن الكريم في مكة أن تكون آياته في معظمها عن العقيدة وعن الجنة والنار ، وعن الأجر الذى ينتظر المؤمنين في الآخرة ، وعن العذاب الذى ينتظر الكفار .

وكانت الآيات في المدينة عن الأحكام والمجتمع الاسلامي والمعاملات وكيفية انقاء المنافقين . وان كانت الآيات في المدينة لم تهمل العقيدة بل أكدت .. وعندما جاء جبريل عليه السلام ليترتب المصحف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الترتيب الذى نعرفه الآن .. كان الاسلام قد انتشر واعتقه كثيرون . لذلك كانت المهمة الأولى أن يعرف هؤلاء المسلمون أحكام دينهم .. وما يجب أن يفعلوه وألا يفعلوه .

يريد الله سبحانه وتعالى أن يعلم المسلمين الذين آمنوا بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. يريد أن يعلمهم أحكام دينهم . فالعقيدة موجودة وبقي أن نعمل ونطبق المنهج في إفعال ولا تفعل .

ولقد جاءت سورة البقرة متضمنة التعريف بقوة الاسلام .. وبحكمة القرآن ويعلم الله سبحانه وتعالى الى رسوله صلى الله عليه وسلم ، واشتملت على قصة خلق الانسان الاول آدم عليه السلام . وقصة ابراهيم في بحثه عن الايمان وقصة بناء الكعبة الشريفة .. وركزت على اليهود باعتبارهم أشد الناس عداوة للاسلام ..
واقرا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (١٠١)

(سورة المائدة)

جاءت سورة البقرة ببعض التكاليف الایمانية .. فتحدثت عن الصوم والحج والخمر والربا وأكل أموال الناس والزواج والطلاق والرضاع .. كما حددت صور التعامل بالمال في المجتمع الاسلامی .. وما كان الاسلام ليتعرض لهذه الأحكام في مكة .. لأنه لم يكن هناك المجتمع الاسلامی الذى يتطلبها .



الآية

بدأت سورة البقرة بقوله تعالى : **والم** .. وهذه الحروف حروف مقطعة .. ومعنى مقطعة أن كل حرف ينطق بمفرده . لأن الحروف لها أسماء ولها مسميات .. فالتناس حين يتكلمون ينطقون بمسمى الحرف وليس باسمه .. فعندما تقول كتب تنطق بمسميات الحروف . فإذا أردت أن تنطق بأسمائها . تقول كاف وثاء وباء .. ولا يمكن أن ينطق بأسماء الحروف إلا من تعلم ودرس ، أما ذلك الذي لم يتعلم فقد ينطق بمسميات الحروف ولكنه لا ينطق بأسمائها ، ولعل هذه أول ما يلفتنا . فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولذلك لم يكن يعرف شيئاً عن أسماء الحروف . فإذا جاء ونطق بأسماء الحروف يكون هذا إعجازاً من الله سبحانه وتعالى .. بأن هذا القرآن موحى به إلى محمد صلى الله عليه وسلم .. ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم درس وتعلم لكان شيئاً عادياً أن ينطق بأسماء الحروف . ولكن تعالى إلى أي أم لم يتعلم .. أنه يستطيع أن ينطق بمسميات الحروف .. يقول الكتاب وكوب وغير ذلك .. فإذا طلبت منه أن ينطق بأسماء الحروف فانه لا يستطيع أن يقول لك . ان كلمة كتاب مكونة من الكاف والطاء والألف والباء .. وتكون هذه الحروف دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن ربه . وأن هذا القرآن موحى به من الله سبحانه وتعالى .

ونجد في فواتح السور التي تبدأ بأسماء الحروف . تتعلق الحروف بأسمائها وتجد الكلمة نفسها في آية أخرى تنطق بمسمياتها . فآل في أول سورة البقرة تطفئها بأسماء الحروف الف لام ميم . بينما تنطقها بمسميات الحروف في شرح السورة في قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ صَدَقَ﴾

وفي سورة الفيل في قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَحَبِّ الْأَنْبِلِ ①﴾

(سورة الفيل)

ما الذى جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ينطق «ألم» في سورة البقرة بأسياء الحروف .. وينطقها في سور الشرح والفيل بمسميات الحروف . لابد أن رسول الله عليه الصلاة والسلام سمعها من الله كما نقلها جبريل عليه السلام اليه هكذا . اذن فالقرآن أصله السماع لا يجوز أن تقرأه إلا بعد أن تسمعه . لتعرف أن هذه تقرأ ألف لام ميم والثانية تقرأ ألم .. مع أن الكتابة واحدة في الاثنين .. ولذلك لابد أن تستمع الى فقيه يقرأ القرآن قبل أن تتلوه .. والذي يتعب الناس أنهم لم يجلسوا الى فقيه ولا استمعوا الى قارىء .. ثم يعد ذلك يريدون أن يقرأوا القرآن كأي كتاب . نقول لا .. القرآن له تميز خاص .. انه ليس كأي كتاب تقرأه .. لأنه مرة يأتي باسم الحرف . ومرة يأتي بمسميات الحرف . وانت لا يمكن ان تعرف هذا إلا إذا استمعت لقارىء يقرأ القرآن .

والقرآن مبنى على الوصل دائما وليس على الوقف ، فإذا قرأت في آخر سورة يونس مثلا : «وهو خير الحاكمين» لا تحمد النون عليها سكون بل تحمد عليها فتحة ، موصولة بقول الله سبحانه وتعالى بسم الله الرحمن الرحيم . ولو كانت غير موصولة لوجدت عليها سكونا .

اذن فكل آيات القرآن الكريم مبنية على الوصل .. ما عدا فواتح السور المكونة من حروف فهي مبنية على الوقف .. فلا تقرأ في أول سورة البقرة : «ألم» والميم عليها ضمة . بل تقرأ ألفا عليها سكون ولاما عليها سكون وميما عليها سكون . اذن كل حرف منفرد بوقف . مع أن الوقف لا يوجد في ختام السور ولا في القرآن الكريم كله .

وهناك سور في القرآن الكريم بدأت بحرف واحد مثل قوله تعالى :

﴿مَنْ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ①﴾

(سورة ص)

﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾

(سورة القلم)

ونلاحظ أن الحرف ليس آية مستقلة . بينما «الم» في سورة البقرة آية مستقلة . و : «حم» . و : «سق» آية مستقلة مع أنها كلها حروف مقطعة . وهناك سور تبدأ بآية من خمسة حروف مثل «كهيعص» في سورة مريم .. وهناك سور تبدأ بأربعة حروف . مثل «المص» في سورة «الأعراف» . وهناك سور تبدأ بأربعة حروف وهي ليست آية مستقلة مثل «المز» في سورة «الرعد» متصلة بما بعدها .. بينما نجد سورة تبدأ بحرفين هما آية مستقلة مثل : «يس» في سورة يس . و«حم» في سورة غافر وفصلت .. و : «طس» في سورة النمل . وكلها ليست موصولة بالآية التي بعدها .. وهذا يدلنا على أن الحروف في فواتح السور لا تسير على قاعدة محددة .

«الم» مكونة من ثلاثة حروف تجدها في ست سور مستقلة .. فهي آية في البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم والسجدة ولقمان . و«المز» ثلاثة حروف ولكنها ليست آية مستقلة .. بل جزء من الآية في أربع سور هي : يونس ويوسف وهود وإبراهيم .. و : «المص» من أربعة حروف وهي آية مستقلة في سورة «الأعراف» و«المز» أربعة حروف ، ولكنها ليست آية مستقلة في سورة الرعد إذن فالمسألة ليست قانوناً يعمم ، ولكنها خصوصية في كل حزب من الحروف

وإذا سألت ما هو معنى هذه الحروف ؟ .. نقول أن السؤال في أصله خطأ .. لأن الحرف لا يسأل عن معناه في اللغة إلا إن كان حرف معنى .. والحروف نوعان : حرف مَبْنِيّ وحرف معنى . حرف المبني لا معنى له إلا للدلالة على الصوت فقط .. أما حروف المعاني فهي مثل في . ومن .. وعلى .. (في) تدل على الظرفية .. (بين) تدل على الابتداء (إلى) تدل على الانتهاء .. (على) تدل على الاستعلاء .. هذه كلها حروف معنى .

وإذا كانت الحروف في أوائل السور في القرآن الكريم قد خرجت عن قاعدة الوصل لأنها مبنية على السكون لابد أن يكون لذلك حكمة .. أولاً لتعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة

بعشر أمثالها ، لا أقولُ ألم حرف ولكن ألفٌ حرفٌ ولَّامٌ حرفٌ وميمٌ حرفٌ^(١) .

ولذلك ذكرت في القرآن كحروف استقلالية لتعرف ونحن نتعبد بتلاوة القرآن الكريم أننا نأخذ حسنة على كل حرف . فإذا قرأنا بسم الله الرحمن الرحيم . يكون لنا بالياء حسنة وبالسین حسنة وبالميم حسنة فيكون لنا ثلاث حسنات بكلمة واحدة من القرآن الكريم . والحسنة بعشر أمثالها . وحينما نقرأ ألم ونحن لا نفهم معناها نعرف أن ثواب القرآن على كل حرف نقرأه سواء فهمناه أم لم نفهمه . . وقد يضع الله سبحانه وتعالى من أسرارهِ في هذه الحروف التي لا نفهمها ثواباً وأجرًا لا نعرفه .

ويريدنا بقراءتها أن نحصل على هذا الأجر ..

والقرآن الكريم ليس اعجازاً في البلاغة فقط . ولكنه يحوى اعجازاً في كل ما يمكن للعقل البشري أن يحوم حوله . فكل مفكر متدبر في كلام الله يجد اعجازاً في القرآن الكريم . فالذي درس البلاغة رأى الاعجاز البلاغى ، والذي تعلم الطب وجد إعجازاً طبياً في القرآن الكريم . وعالم النباتات رأى اعجازاً في آيات القرآن الكريم ، وكذلك عالم الفلك ..

وإذا أراد إنسان منا أن يعرف معنى هذه الحروف فلا يأخذها على قدر بشرتنا .. ولكن يأخذها على قدر مراد الله فيها .. وقدراتنا تتفاوت وأفهامنا قاصرة . فكل منا يملك مفتاحاً من مفاتيح الفهم كل على قدر علمه .. هذا مفتاح بسيط يفتح مرة واحدة وآخر يدور مرتين .. وآخر يدور ثلاث مرات وهكذا .. ولكن من عنده العلم يملك كل المفاتيح ، أو يملك المفتاح الذى يفتح كل الأبواب ..

ونحن لا يصح أن نهجد أذهانتنا لفهم هذه الحروف . فحياة البشر تقتضى منا في بعض الأحيان أن نضع كلمات لا معنى لها بالنسبة لغيرنا . . وإن كانت تمثل أشياء ضرورية بالنسبة لنا . تماماً ككلمة السر التى تستخدمها الجيوش لا معنى لها إذا سمعناها . ولكن بالنسبة لمن وضعها يكون ثمنها الحياة أو الموت . فتجد كلمات الله التى نفهمها بمعانيها .. ونجد الحروف التى لا نفهمها بمرادات الله فيها . فאלله سبحانه وتعالى شاء أن يبقى معناها في الغيب عنده .

والقرآن الكريم لا يؤخذ على نسق واحد حتى تنتبه ونحن نتلوه أو نكتبه . لذلك نحمد مثلاً بسم الله الرحمن الرحيم مكتوبة بدون ألف بين الباء والسين . ومرة تمجدها مكتوبة بالألف في قوله تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ ﴾

(سورة العلق)

وكلمة تبارك مرة تكتب بالألف ومرة بغير الألف . . ولأن المسألة رتابة في كتابة القرآن لجاءت كلها على نظام واحد . ولكنها جاءت بهذه الطريقة لتكون كتابة القرآن معجزة والفاظه معجزة .

ونحن نقول للذين يتساءلون عن الحكمة في بداية بعض السور بحروف . . نقول إن لذلك حكمة عند الله فهمناها أو لم نفهمها . . والقرآن نزل على أمة عربية فيها المؤمن والكافر . . ومع ذلك لم نسمع أحداً يظمن في الأحرف التي بدأت بها السور . وهذا دليل على أنهم فهموها بملكاتهم العربية . . ولو أنهم لم يفهموها لظعنوا فيها .

وأنا انصح من يقرأ القرآن الكريم للتعبد . . ألا يشغل نفسه بالتفكير في المعنى . أما الذي يقرأ القرآن ليستببط منه فليقف عند اللفظ والمعنى . . فإذا قرأت القرآن لتتعبد فاقراء بسر الله فيه . . ولو جلست تبحث عن المعنى . . تكون قد حددت معنى القرآن الكريم بمعلوماتك أنت . وتكون قد أخذت المعنى ناقصاً نقص فكر البشر . . ولكن اقرأ القرآن بسر الله فيه .

إننا لو بحثنا معنى كل لفظ في القرآن الكريم فقد أخرجنا الأمل وكل من لم يدرس اللغة العربية دراسة متعمقة من قراءة القرآن . ولكنك تحمد أمياً لم يقرأ كلمة واحدة ومع ذلك يحفظ القرآن كله . فإذا قلت كيف ؟ نقول لك بسر الله فيه .

والكلام وسيلة افهام وفهم بين المتكلم والسامع . المتكلم هو الذي بيده البداية ، والسامع يقابج بالكلام لأنه لا يعلم مقدماً ماذا سيقول المتكلم . . وقد يكون ذهن السامع مشغولاً بشيء آخر . . فلا يستوعب أول الكلمات . . ولذلك قد تنتبه بحروف أو بأصوات لا مهمة لها إلا التنبيه للكلام الذي سيأتى بعدها .

وإذا كنا لانفهم هذه الحروف . فوسائل الفهم والاعجاز في القرآن الكريم
لانتهى ، لأن القرآن كلام الله . والكلام صفة من صفات التكلم . . ولذلك
لاستطيع فهم بشرى أن يصل الى منتهى معاني القرآن الكريم ، إنما يتقرب منها .
لأن كلام الله صفة من صفاته . . وصفة فيها كمال بلا نهاية .

فإذا قلت إنك قد عرفت كل معنى للقرآن الكريم . . فإنك تكون قد حدثت
معنى كلام الله بعلمك . . ولذلك جاءت هذه الحروف إعجازاً لك . حتى تعرف
إنك لاستطيع أن تحدد معاني القرآن بعلمك . .

ان عدم فهم الانسان لاشياء لا يمنع انتفاعه بها . . فالريفي مثلاً ينتفع بالكهرباء
والتليفزيون وما يذاع بالقمر الصناعى وهو لايعرف عن أى منها شيئاً . . فليإذا لا يكون
الله تبارك وتعالى قد أعطانا هذه الحروف نأخذ فائدتها ونستفيد من أسرارها ونتنزل
الله بها علينا بما أودع فيها من فضل سواء أفهم العبد المؤمن معنى هذه الحروف أو لم
يفهمها .

وعطاء الله سبحانه وتعالى وحكمته فوق قدرة فهم البشر . . ولو أراد الانسان أن
يحوم بفكره وخواطره حول معاني هذه الحروف لوجد فيها كل يوم شيئاً جديداً . لقد
خاض العلماء فى البحث كثيراً . . وكل عالم أخذ منها على قدر صفاته ، ولايدعى
أحد العلماء أن ذلك هو الحق المراد من هذه الحروف . . بل كل منهم يقول والله
أعلم بمراده . . ولذلك نجد عالماً يقول (ألم) و(حم) و(إن) وهى حروف من فواتح
السور تكون اسم الرحمن . . نقول إن هذا لايمكن أن يمثل فيها عاماً لحروف بداية
بعض سور القرآن . . ولكن ما الذى يتبعكم أو يرهقكم فى محاولة إيجاد معاني لهذه
الحروف ؟؟ . .

لو أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن يريد أن يفهمنا معانيها . . لأوردها
بمعنى مباشر أو أوضح لنا المعنى . . فمثلاً أحد العلماء يقول إن معنى (الم) هو أنا الله
اسمع وأرى . . نقول لهذا العالم لو أن الله أراد ذلك فما المانع من أن يورده بشكل
مباشر لفهمه جميعاً . . لايد أن يكون هناك سر فى هذه الحروف . . وهذا السر هو
من أسرار الله التى يريدنا أن نتفعل بقرائنها دون أن نفهمها . .

ولايد أن نعرف أنه كما أن للبصر حدوداً . . وللاذن حدوداً وللمس والشم والتفوق
حدوداً ، فكذلك عقل الانسان له حدود يتسع لها فى المعرفة . . وحدود فوق قدرات

العقل لا يصل إليها .

والإنسان حينما يقرأ القرآن والحروف الموجودة في أوائل السور يقول إن هذا امر خارج عن قدرة عقل . . وليس ذلك حجراً أو سدّاً لباب اجتهاد . . لأننا إن لم ندرك فإن علينا أن نعرف بحدود قدراتنا أمام قدرات خالقنا سبحانه وتعالى التي هي بلا حدود .

وفي الإيمان هناك ما يمكن فهمه وما لا يمكن فهمه . . فتحرير أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر لا تنتظر حتى نعرف حكمته لنمتنع عنه . ولكننا تمتع منه بإيمان أنه مبادم الله قد حرمه فقد أصبح حراماً .
وللذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما عرفتم من حكمه فاعملوا به » وما لم تدركوا فامنوا به^(١) .
والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ هُوَ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْكَ أَلْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالْزَاحِفُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ عَلَمًا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَوَّلُ الْأَلْبَابِ ٥ ﴾

(سورة آل عمران)

اذن فعدم فهمنا للمتشابه لا يمنع أن نستفيد من سر وضعه الله في كتابه . . ونحن نستفيد من أسرار الله في كتابه فهمناها أم لم نفهمها .

(١) (الطباقات الكبرى لابن سعد) .

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

في الآية الثانية من سورة البقرة وصف الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم بأنه الكتاب . وكلمة (قرآن) معناها أنه يُقرأ ، وكلمة (كتاب) معناها أنه لا يحفظ فقط في الصدور ، ولكن يُدون في السطور ، ويبقى محفوظاً الى يوم القيامة ، والقول بأنه الكتاب ، تمييز له عن كل كتب الدنيا ، وتمييز له عن كل الكتب الساهوية التي نزلت قبل ذلك ، فالقرآن هو الكتاب الجامع لكل احكام السماء ، منذ بداية الرسالات حتى يوم القيامة ، وهذا تأكيد لارتفاع شأن القرآن وتفرد وسماويته ودليل على وحدانية الخالق ، فمنذ فجر التاريخ ، نزلت على الأمم السابقة كتب تحمل منهج السماء ، ولكن كل كتاب وكل رسالة نزلت موقونة ، في زمانها ومكانها ، تؤدي مهمتها لفترة محددة وتجاه قوم محددين .

فرسالة نوح عليه السلام كانت لقومه ، وكذلك ابراهيم ولوط وشعيب وصالح عليهم السلام . كل هذه رسالات كان لها وقت محدود ، تمارس مهمتها في الحياة ، حتى يأتي الكتاب وهو القرآن الكريم الجامع لمنهج الله سبحانه وتعالى . ولذلك يُشر في الكتب الساهوية التي نزلت قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام بأن هناك رسولا سيأتي ، وأنه يحمل الرسالة الخاتمة للعالم ، وعلى كل الذين يصدقون بمنهج السماء أن يتبعوه . وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَرْسُولَ انَّبِىِّ الْاٰلَمِى الَّذِى يَجِدُوْنَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَةِ وَالْانْجِيلِ ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الاحراف)

والقرآن هو الكتاب ، لانه لن يصل اليه أى تحريف أو تبديل ، فرسالات السماء السابقة ائتمن الله البشر عليها ، فسوا بعضها ، وما لم ينسوه حرفوه ، وأضافوا اليه

من كلام البشر ، مانسبوه الى الله سبحانه وتعالى ظلما وبهتاناً ، ولكن القرآن الكريم محفوظ من الخالق الاعلى ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ زَكَاةُ الذِّكْرِ وَإِنَّا لَهُ لَحَفَظُونَ ① ﴾

(سورة الحجر)

ومعنى ذلك ألا يرتاب انسان في هذا الكتاب ، لأن كل ما فيه من منهج الله محفوظ منذ لحظة نزوله الى قيام الساعة بقدرة الله سبحانه وتعالى .

يقول الحق جل جلاله : « لا ريب فيه هدى للمتقين » .

والإعجاز الموجود في القرآن الكريم هو في الأسلوب وفي حقائق القرآن وفي الآيات وفيما روي لنا من قصص الأنبياء السابقين ، وفيما صحح من التوراة والانجيل ، وفيما أتى به من علم لم تكن تعلمه البشرية ولا زالت حتى الآن لا تعلمه ، كل ذلك يجعل القرآن لا ريب فيه ، لأنه لو اجتمعت الإنس والجن ما استطاعوا أن يأتوا بآية واحدة من آيات القرآن ، ولذلك كلنا نأملنا في القرآن وفي أسلوبه ، وجدنا أنه بحق لا ريب فيه ، لأنه لا أحد يستطيع أن يأتي بآية ، فما بالك بقرآن .

فهذا الكتاب ارتفع فوق كل الكتب ، وفوق مدارك البشر ، يوضح آيات الكون ، وآيات المنهج ، وله في كل عصر معجزات . إن كلمة الكتاب التي وصف الله سبحانه وتعالى بها القرآن تميزا له عن كل الكتب السابقة ، تلفتتا الى معان كثيرة ، تحدد لنا بعض أساسيات المنهج التي جاء هذا الكتاب ليبلغنا بها . وأول هذه الأساسيات ، أن نزول هذا الكتاب ، يستوجب الحمد لله سبحانه وتعالى . وقرأ في سورة الكهف :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ① قَيِّمًا يَنْزِلُ
بِأَسَاسٍ مُّشَدِّدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُنِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى صُلُوحٍ إِنَّهُمْ أَجْرًا
حَسَنًا ② ﴾

(سورة الكهف)

ويلقت الله سبحانه وتعالى عبادة الى أن إنزاله القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم يستوجب الحمد من البشر جميعا ، لأن فيه منيح الساء ، وفيه الرحمة من الله لعباده ، وفيه البشارة بالجنة والطريق اليها ، وفيه التحذير من النار وما يقود اليها ، وهذا التحذير أو الإنذار هو رحمة من الله تعالى لحلقه . لأنه لو لم ينذرهم لفعولوا ما يستوجب العذاب ، ويجعلهم يخلدون في عذاب اليم . ولكن الكتاب الذي جاء ليبلغهم الى ما يقضب الله ، حتى يتجنبوه ، إنما جاء برحمة تستوجب الحمد ، لأنها أرثنا جميعا ، الطريق الى النجاة من النار ، ولو لم ينزل الله سبحانه وتعالى الكتاب ، ما عرف الناس المصيح الذي يقودهم الى الجنة ، وما استحق احد منهم رضا الله ونعيمه في الآخرة .

وفي سورة الكهف ، نجد تأكيدا آخر . . ان كتاب الله ، وهو القرآن الكريم لن يستطيع بشر أن يبدل منه كلمة واحدة ، واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَأَنزَلْنَا مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِن كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنُحْجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝١٧﴾

(سورة الكهف)

ويبين الله سبحانه وتعالى لنا ان هذا الكتاب ، جاء لنفع الناس ، ولنفع العباد ، وأن الله ليس محتاجا لحلقه ، فهو قادر على أن يقهر من يشاء على الطاعة ، ولا يمكن خلق من خلق الله أن يخرج في كون الله عن مرادات الله ، واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿طَسَمَ ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَّفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن لَّنَا نَزْلٌ عَلَيْم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّ عَنْقَهُم مَّا خَصِبِينَ ۝٤﴾

(سورة الشعراء)

ويأتي الله سبحانه وتعالى بالقسم الذي يلفتنا الى أن كل كلمة في القرآن هي من

عند الله ، كما ابلغها جبريل عليه السلام . لحمد صل الله عليه وسلم في قوله سبحانه :

﴿ فَلَا أُقِيمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ٧٧ وَإِنَّهُ لَفَسَّمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٨ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ٧٩ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ٨٠ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ٨١ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٨٢ ﴾

(سورة الواقعة)

ثم بلغتنا الحق سبحانه وتعالى الى ذلك الكتاب الذي هو منبج للانسان على الأرض ، فبعد أن بين لنا جل جلاله ، بما لا يدع مجالاً للشك أن الكتاب منزل من عنده ، وأنه يصحح الكتب السابقة كالنوراة ، والانجيل والقرآن التي أئتمن الله عليها البشر ، فحرفوها وبذلوا ، وهذا التحريف أبطل مهمة المنهج الإلهي بالنسبة لهذه الكتب ، فجاء الكتاب الذي لم يصل اليه تحريف ولا تبديل ، ليبقى منهجاً لله ، الى ان تقوم الساعة . أول ما جاء به هذا الكتاب هو إيمان القصة ، بأنه لا إله إلا الله الواحد الأحد . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَلَمْ يَأْتِ الْفُتُوْرَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوْمُ ١ تَزَلَّ عَلَيْكَ الْأَكْتَبُ بِالْحَقِّ ٢ مَصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَزَلَّ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ٣ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف ان الكتاب نزل ليؤكد لنا ، ان الله واحد أحد ، لا شريك له ، وأن القرآن يشتمل على كل ما تضمنته الشرائع السابقة من تورا وانجيل ، وغيرها من الكتب .

فالقرآن نزل ليفرق بين الحق الذي جاءت به الكتب السابقة ، وبين الباطل الذي أضافه أولئك الذين اتبعوا عليها .

ثم يمدد الحق تبارك وتعالى لنا مهمتنا في أن هذا الكتاب مطلوب أن يبلغه للناس جميعاً ، واقرأ قوله سبحانه :

﴿ اَلَمْص ۝ كِتٰبٌ اُنزِلَ اِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِيْ صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ
وَذِكْرٌ لِّلْمُؤْمِنِيْنَ ۝ ١ ﴾

(سورة الاحزاب)

فالخطاب هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم ، يتضمن خطاباً لأمته جميعاً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم كلف بأن يبلغ الكتاب للناس ، ونحن مكلفون بأن نتبع المنهج نفسه ونبلغ ما جاء في القرآن للناس حتى يكون الحساب عدلاً ، وأنهم قد بلغوا منهج الله ، ثم كفروا به أو تركوه ، إذن فإبلاغ الكتاب من المهمات الأساسية التي حددتها الله سبحانه وتعالى بالنسبة للقرآن .

والكتاب فيه رد على حجج الكفار وأباطيلهم . واقرأ قول الله تبارك وتعالى :

﴿ اَلَا تَلٰمَسُ الْكِتٰبَ الْحَكِيْمَ ۝ اَلَا كَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا اَنْ اَوْحٰنَا
اِلٰكَ رَجُلًا مِّنْهُمْ اَنْ اُنذِرَ النَّاسَ وَبَيِّنَ الَّذِيْنَ ءٰمَنُوْا اَنْ هُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ
رَبِّهِمْ ۚ قَالَ الْكَافِرُوْنَ اِنَّ هٰذَا لَشِعْرٌ مَّيْمِيْنٌ ۝ ١ ﴾

(سورة يونس)

وفي هذه الآيات الكريمة : يلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى حقيقتين . . الحقيقة الأولى هي أن الكفار يتخذون من بشرية الرسول حجة بأن هذا الكتاب ليس من عند الله . وكان الرد هو : أن كل الرسل السابقين كانوا بشرأ ، فإما هو العجب في أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولأ بشراً . واللغة الثانية هي أن هذا القرآن مكتوب بالحروف نفسها التي خلقها الله لنا لنكتب بها ، ومع ذلك فإن القرآن الكريم نزل مستخدماً هذه الحروف التي يعرفها الناس جميعاً ، معجزاً في ألا يستطيع

الله ، وقصة يوسف هي قصة كل اخوة حقدوا على اخ لهم ، وثامروا عليه ، وأهل الكهف هم كل فتية آمنوا بربهم ، فنشر الله لهم من رحمت في الدنيا والآخرة ، ماعدا قصة واحدة هي قصة مريم وعيسى عليهما السلام ، فهي معجزة لن تتكرر ولذلك عرف الله سبحانه وتعالى ابطالها ، فقال عيسى بن مريم وقال مريم ابنة عمران . والكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى فيه لفنة الى آيات الله في كونه . واقرأ قوله تعالى :

﴿ اَلَمْ يَرْثَكَ ءَابَتُ الْكِتٰبِ وَالَّذِي اُنْزِلَ اِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلٰكِنْ اَكْثَرُ اَنْسَاسٍ لَا يُؤْمِنُوْنَ ۝ اَللّٰهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَّرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ وَحَرَّرَ الْاَنۡسَاسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ يَّا۟تِلُ اِلَیۡهِ مُسۡیۡ بِذِیۡرٍ ۚ الْاَمْرُ یُنۡصَلُّ اِلَیۡنَا لَعَلَّكُمْ یُلٰقَیۡهِ رَبَّکُمْ تُؤْمِنُوْنَ ۝ ۱ ﴾

(سورة الرعد)

وهكذا بين لنا الله في الكتاب آياته في الكون ولفتنا اليها ، فالسما مرفوعة بغير عمد نراها ، والشمس والقمر مسخران لخدمة الانسان ، وهذه كلها آيات لا يستطيع أحد من خلق الله أن يدهيها لنفسه أو لغيره ، فلا يوجد حتى يوم القيامة من يستطيع ان يدعي انه رفع السماء بغير عمد ، أو أنه خلق الشمس والقمر وسخرهما لخدمة الانسان . ولو تدبر الناس في آيات الكون لآمنا ولكنهم في غفلة عن هذه الآيات . ثم يمدد الحق سبحانه وتعالى مهمة هذا الكتاب وكيف أنه رحمة للناس جميعاً ، فيقول جل جلاله :

﴿ اَلَمْ يَكْتُبْ اَنۡزَلْنَاهُ اِلَيْكَ لِتُخْرِجَ اَلۡنَاسَ مِنْ الظُّلُمٰتِ اِلَى النُّوْرِ ۚ اَفَا۟تِلَافٍۭ رَّبِّهِمْ اِلَیۡكَ صِرَاطٌ اَلۡعَزِیۡزُ الْحَمِیۡدُ ۝ اَللّٰهُ الَّذِي لَهٗ مَا فِی السَّمٰوٰتِ وَمَا فِی الْاَرۡضِ وَوِیۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِیۡنَ مِنْ عَذَابٍۭ شَدِیۡدٍ ۝ ۱ ﴾

(سورة ابراهيم)

أى أن مهمة هذا الكتاب هي أن يخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والشرك الى نور الايمان ، لأن كل كافر مشرك تحيط به ظلمات ، يرى الآيات فلا يبصرها ، ويعرف أن هناك حساباً وأخرة ولكنه ينكرها ، ولا يرى إلا الحياة الدنيا القصيرة غير المأمونة في كل شيء ، في العمر والرزق والمنعة ، ولو تطلع الى نور الايمان ، لراى الآخرة وما فيها من نعيم أبدي ولعميل من أجلها ، ولكن لأنه تحيط به الظلمات لا يرى . . والطريق لأن يرى هو هذا الكتاب ، القرآن الكريم لأنه يخرج الناس إذا قرأوه من ظلمات الجهل والكفر الى نور الحقيقة واليقين . وبين الحق سبحانه وتعالى أن الذين يلفتون الى الدنيا وحدها ، هم كالأنعام التي تأكل وتشرب ، بل ان الأنعام افضل منهم ، لأن الأنعام تقوم بمهمتها في الحياة ، بينما هم لا يقومون بمهمة العبادة ، فيقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ اَلْاَرْتٰى تَلٰكَ ءَايٰتُ الْكِتٰبِ وَقُرْءٰنٍ مُّبِيْنٍ ۝ رُبَّمَا يَوَدُّ اَلَّذِيْنَ كَفَرُوْا لَوْ كَانُوْا مُسْلِمِيْنَ ۝ ذَرُوْهُمْ يَأْكُلُوْا وَيَشْرَبُوْا وَلَهُمْ اَلْاَمَلُ ۚ سَوْفَ يَعْلَمُوْنَ ۝ ﴾

(سورة الحجر)

هكذا يخرجنا الحق أن آيات كتابه الكريم ومنهجه لا تؤخذ بالتعنى ، ولكن لابد أن يعمل بها ، وأن الذين كفروا في غمغمهم بالحياة الدنيا لا يرتفعون فوق مرتبة الأنعام ، وأنهم يتعلقون بأمل كاذب في أن النعيم في الدنيا فقط ، ولكن الحقيقة غير ذلك وسوف يعلمون .

وهكذا بعد أن تعرضنا بإيجاز لبعض الآيات التي ورد فيها ذكر الكتاب انه كتاب يبصرنا بفضية القمة في العقيدة وهي أنه لا إله إلا الله وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله ، وهو بهذا يخرج الناس من الظلمات الى النور .

وأن يلفتهم الى آيات الكون . . وأن يعرفوا أن هناك آخرة ونعماً أبدياً وشقاء أبدياً ، وأن يقيم الدليل والحجة على الكافرين ، وأن قوله تعالى : « ذلك الكتاب » يحمل معنى التفوق الكامل الشامل على كل ما سبقه من كتب . وأنه سيظل كذلك حتى قيام الساعة ولذلك وصفه الحق تبارك وتعالى بأنه « كتاب » ليكون دليلاً على الكمال .

ولابد أن نعرف أن ذلك ليست كلمة واحدة .. وإنما هي ثلاث كلمات . «وذا» اسم إشارة .. «واللام» تدل على الابتعاد ورفع شأن القرآن الكريم ، «وهـ» مخاطبة الناس جميعا بأن القرآن الكريم له عمومية الرسالة الى يوم القيامة .

ونحن عندما نقرأ سورة البقرة نستطيع أن نقرأ آيتها الثانية بطريقتين .. الطريقة الأولى أن نقول «ألم ذلك الكتاب لأريب فيه» ثم نصمت قليلا ونضيف : «هدى للمتقين» والطريقة الثانية أن نقول : «ألم ذلك الكتاب لأريب» ثم نصمت قليلا ونضيف : فيه هدى للمتقين» وكلتا الطريقتين توضح لنا معنى لأريب أى لاشك .. أو نفى للشك وجزم مطلق أنه كتاب حكيم منزل من الخالق الأعلى . وحتى نفهم المتعلق الذي نأخذ منه قضايا الدين ، والتي سيكون دستورنا في الحياة ، فلا بد أن نعرف ما هو الهدى ومن هم المتقون ؟ الهدى هو الدلالة على طريق يوصلك الى ما تطلبه . فالإشارات التي تدل المسافر على الطريق هي هدى له لئلا يبين له الطريق الذي يوصله الى المكان الذي يقصده .. والهدى يتطلب هاديا ومهديا وغاية تريد أن تحققه . فإذا لم يكن هناك غاية أو هدف فلا معنى لوجود الهدى لأنك لا تريد أن تصل الى شيء .. وبالتالي لا تريد من أحد أن يذكك على طريق .

إذن لابد أن نوجد الغاية أولا ثم نبحث عن يوصلنا إليها .

وهنا نتساءل من الذى يحدد الهدف ويحدد لك الطريق للوصول اليه ؟ إذا اخذنا بواقع حياة الناس فإن الذى يحدد لك الهدف لابد أن تكون واثقا من حكمته .. والذى يحدد لك الطريق لابد أن يكون له من العلم ما يستطيع به أن يذكك على أقصر الطرق لتصل الى ما تريد .

فإذا نظرنا الى الناس في الدنيا نجد أنهم يحددون مطلوبات حياتهم ويحددون الطريق الذى يحقق هذه المطلوبات .. فالذى يريد أن يبني بيتا مثلا يأتى بمهندس يضع له الرسم ، ولكن الرسم قد يكون قاصرا على أن يحقق الغاية المطلوبة فيظل يغير ويبدل فيه . ثم يأتى مهندس على مستوى أعلى فيضع تصورا جديدا للمسألة كلها .. وهكذا يكون الهدف متغيرا وليس ثابتا .

وعند التنفيذ قد لا توجد المواد المطلوبة فتغير وتبدل لئلا يغيرها ثم فوق ذلك كله قد تأتي قوة أعلى فتوقف التنفيذ أو تمعه . إذن فأهداف الناس متغيرة تحكمها ظروف

حياتهم وقدراهم : . والغايات التي يطلبونها لا تتحقق لقصور علم البشر وامكاناته .
اذن فكلمنا محتاجون الى كامل العلم والحكمة لرسم لنا طرق حياتنا . . وأن يكون
قادرا على كل شيء ، ومالكا لكل شيء ، والكون خاضعا لأرادته حتى نعرف يقينا أن
ما نريده سينتج ، وأن الطريق الذي سنسلكه سيوصلنا الى ما نريده . وبيننا الله
سبحانه وتعالى الى هذه القضية فيقول :

﴿ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فِتْنَةً هُوَ أَهْدَىٰ ۖ هُوَ أَهْدَىٰ ۚ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة البقرة)

ان الله يريد أن يلفت خلقه الى انهم إذا أرادوا أن يصلوا الى الهدف الثابت الذي
لا يتغير فليأخذوه عن الله . وإذا أرادوا أن يتبعوا الطريق الذي لا توجد فيه أى
عقبات أو متغيرات . . فليأخذوا طريقهم عن الله تبارك وتعالى . . إنك اذا اردت
باقيا . . فخذ من الباقي ، واذا أردت ثابتا . . فخذ من الثابت . ولذلك كانت
قوانين البشر في تحديد أهدافهم في الحياة وطريقة الوصول اليها قاصرة . . علمت
أشياء وغابت عنها أشياء . . ومن هنا فهي تتغير وتتبدل كل فترة من الزمان .

ذلك أن من وضع القوانين من البشر له هدف يريد أن يحققه ، ولكن الله جل
جلاله لا هوى له . . فإذا أردت أن تحقق سعادة في حياتك ، وأن تعيش آمنا
معطشا . . فخذ الهدف عن الله ، وخذ الطريق عن الله . فإن ذلك ينجيك من قلق
متغيرات الحياة التي تتغير وتتبدل . والله قد حدد لخلقك ولكل ما في كونه أقصر طريق
ليبلغ الكون سعاده . . والذين لا يأخذون هذا الطريق يتعبون أنفسهم ويتعبون
مجتمعاتهم ولا يحققون شيئا .

اذن فالهدف يحققه الله لك ، والطريق يبينه الله لك . . وما عليك إلا أن تجعل
مرادك في الحياة خاضعة لما يريد الله .

ويقول الله سبحانه وتعالى : «هدى للمتقين» . . مامعنى المتقين ؟ متقين جمع .
متق . والانتقاء من الوقاية . . والوقاية هي الاحتراس والبعد عن الشر . . لذلك

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَعْلِبُوا نَارًا وَأَوْمِعُوا النَّاسَ وَالْجِبَارَةَ ﴾

(من الآية ٦ سورة التحريم)

أى اعملوا بينكم وبين النار وقاية . احترسوا من أن تقعوا فيها . ومن عجيب أمر هذه التقوى أنك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم - والقرآن كله كلام الله - «اتقوا الله» ويقول : «اتقوا النار» . كيف نأخذ سلوكا واحدا تجاه الحق سبحانه وتعالى وتجاه النار التي سيعذب فيها الكافرون ؟!

الله تعالى يقول : «اتقوا النار» . أى لاتفعلوا ما يغضب الله حتى لا تعذبوا في النار . . فكانت قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأن تركت المعاصي وفعلت الخير .

وقوله تعالى : «اتقوا الله» كيف نتقيه بينما نحن نطلب من الله كل النعم وكل الخير دائما . كيف يمكن أن يتم هذا ؟ وكيف نتقى من نحب ؟ .

نقول ان لله سبحانه وتعالى صفات جلال وصفات جمال . . صفات الجلال تجدها في القهار والجبار والمذل . . والمتتبع . والضرار . كل هذا من متعلقات صفات الجلال . . بل إن النار من متعلقات صفات الجلال .

أما صفات الجلال فهي الغفار والرحيم وكل الصفات التي تنزل بها رحمت الله وعطاءاته على خلقه . فإذا كنت تقى نفسك من النار - وهي من متعلقات صفات الجلال - لابد أن تقى نفسك من صفات الجلال كلها . لأنه قد يكون من متعلقاتها ما هو أشد عذابا وأيلاما من النار . . فكان الحق سبحانه وتعالى حين يقول : «اتقوا النار» . و : «اتقوا الله» يعنى أن تتقى غضب الله الذي يؤدي بنا الى أن نتقى كل صفات جلاله . . وتجعل بيننا وبينها وقاية . فمن اتقى صفات جلال الله أخذ صفات جماله . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إذا كانت آخر ليلة من رمضان تجل الجبار بالمغفرة)^(١)

وكان المنطق يقتضى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (تجل الرحمن بالمغفرة) ولكن مادامت هناك ذنوب ، فالمقام لصفة الجبار الذى يعذب خلقه بذنوبهم . فكان صفة الغفار تشفع عند صفة الجبار . . وصفة الجبار مقامها للعاصين ، فتأتى صفة الغفار لتشفع عندها ، فيغفر الله للعاصين ذنوبهم ، وجمال المقابلة هنا حينما يتجل الجبار بجبروته بالمغفرة فساعة تأتى كلمة جبار . . يشعر الانسان بالفزع والخوف والرعب . لكن عندما تسمع (تجل الجبار بالمغفرة) فإن السعادة تدخل الى قلبك . لأنك تعرف أن صاحب العقوبة وهو قادر عليها قد غفر لك . وانتار ليست أمرة ولا فاعلة بذاتها ولكنها مأمورة . إذن فاستعد منها بالأمر أو بصفتها الجمال فى الأمر .

يقول الحق سبحانه وتعالى «هدى للمتقين» ولقد قلنا ان الهدى هدى الله . . لانه هو الذى حدد الغاية من الخلق ودلنا على الطريق الموصل اليها . فكون الله هو الذى حدد المطلوب ودلنا على الطريق اليه فهذه قمة النعمة . . لانه لم يترك لنا أن نحدد غايتنا ولا الطريق اليها . فرحنا بذلك مما مستعرض له من شقاء أن نخطئ ونصيب بسبب علمنا القاصر ، فنشقى وندخل فى تجارب ، ونعيش فى طرق ثم نكتشف أننا قد ضللنا الطريق فنتجه الى طريق آخر فيكون اضل واشقى .

وهكذا نتخبط دون أن نصل الى شيء . . وأراد سبحانه أن يبيننا هذا كله فأنزل القرآن الكريم . . كتابا فيه هداية للناس وفيه دلالة على أقصر الطرق لكى نتقى عذاب الله وغضبه .

والله سبحانه وتعالى قال : «هدى للمتقين» أى أن هذا القرآن هدى للجميع . . فالذى يريد أن يتقى عذاب الله وغضبه يجد فيه الطريق الذى يحدد له هذه الغاية . . فالهدى من الحق تبارك وتعالى للناس جميعا . ثم خص من آمن به بهدى آخر ، وهو أن يعينه على الطاعة .

(١) كنز العمال ، وفى حديث آخر : (. . إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم جميعا . . فقال رجل من القوم : أى ليلة القدر ؟ فقال : لا . . ألم تر إلى العيال يحملون فإذا فرغوا من أعمالهم قُلُوا أجورهم) رواه البيهقى .

إذن فهناك هدى من الله لكل خلقه وهو أن يدلهم سبحانه وتعالى وبين لهم الطريق المستقيم . هذا هو هدى الدلالة ، وهو أن يدل الله خلقه جميعا على الطريق إلى طاعته وحبته . وإقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَأَمَّا نَحْنُ فَأَهْدِيْنَهُمْ فَاسْتَجِبُوا أَلْعَمَى عَلَى الْمُدَىٰ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

إذن الحق سبحانه وتعالى دهم على طريق الهداية . . ولكنهم أجبوا طريق الغواية والمعصية واتبعوه . . هذه هداية الدلالة . . أما هداية المعونة ففى قوله سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادْنَاهُمْ هُدًى وَآتَيْنَاهُم تَقْوَاهُمْ ۖ﴾ (١٧)

(سورة محمد)

وهذه هى دلالة المعونة . . وهى لا تحق إلا لمن آمن بالله واتبع منهجه وأقبل على هداية الدلالة وعمل بها . . والله سبحانه وتعالى لا يعين من يرفض هداية الدلالة ، بل يتركه يضل ويشقى . . ونحن حين نقرأ القرآن الكريم نجد أن الله تبارك وتعالى : يقول لتببه ورسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

وهكذا نفى الله سبحانه وتعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون هاديا لمن أحب . . ولكن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿وَأَنَّكَ لَا تَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

فكيف يأتى هذا الاختلاف مع أن القائل هو الله .

نقول : عندما تسمع هذه الايات اعلم ان الجهة منفكة .. يعنى ما نفى غير ما أثبت .. ففى غزوة بدر مثلاً أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى قذفها فى وجه جيش قريش . يأتى القرآن الكريم الى هذه الواقعة فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

نفى للحادث وإثباته فى الآية نفسها . كيف رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أن الله تبارك وتعالى قال : «وما رميت» ؟! نقول إنه فى هذه الآية الجهة منفكة . الذى رمى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الذى أوصل الحصى الى كل جيش قريش لتصيب كل مقاتل فيهم هى قدرة الله سبحانه وتعالى . فما كان لرمية رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصى يمكن أن تصل الى كل جيش الكفار ، ولكن قدرة الله هى التى جعلت هذا الحصى يصيب كل جندي فى الجيش .

أما قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : «وانك لتهدى الى صراط مستقيم» .

فهى هداية دلالة . أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبليغه للقرآن وبيانه لمنهج الله قد دل الناس كل الناس على الطريق المستقيم وبينه لهم . وقوله تبارك وتعالى : «انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء» . . أى انك لا توصل الهداية الى القلوب لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يهدي القلوب ويزيدها هدى وإيماناً . ولذلك أطلقها الله تبارك وتعالى قضية إيمانية عامة فى قوله : «قل ان الهدى هدى الله» فالقرآن الكريم يجعل هداية الدلالة للذين يريدون أن يجعلوا بينهم وبين غضب الله وعذابه وقاية .



﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا أن هذا الكتاب - وهو القرآن الكريم - « هدى للمتقين » .. أى أن فيه المنهج والطريق لكل من يريد أن يعمل بينه وبين غضب الله وقاية .. أراد أن يعرفنا صفات هؤلاء المتقين ومن هم .. وأول صفة هي قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب » ..

ما هو الغيب الذى جعله الله أول مرتبة في الهدى .. وفي الوقاية من النار ومن غضب الله ؟ ..

الغيب هو كل ما غاب عن مدركات الحس . فالأشياء المحسة التى نراها ونلمسها لا يختلف فيها أحد .. ولذلك يقال ليس مع العين أين .. لأن ما تراه لا تريد عليه دليلاً .. ولكن الغيب لا تدركه الحواس .. إنما يدرك بغيرها ..

ومن الدلالة على دقة التعريف أنهم قالوا أن هناك خمس حواس ظاهرة هي : السمع والبصر والشم والذوق واللمس .. ولكن هناك أشياء تدرك بغير هذه الحواس ..

نفرض أن أمامنا حقيبتين .. الشكل نفسه والحجم نفسه . هل تستطيع بحواسك الظاهرة أن تدرك أيهما أثقل من الأخرى ؟ .. هل تستطيع الحواس الخمس أن تقول لك أى الحقيبتين أثقل ؟ .. لا .. لا بد أن تحمل واحدة منها ثم تحمل الأخرى لتعرف أيهما أثقل ..

بأى شيء أدركت هذا الثقل ؟ .. بحاسة العضل .. لأن عضلاتك أجهدت عندما حملت إحدى الحقيبتين ، ولم تجهد عندما حملت الثانية .. فعرفت بالدقة أيهما أثقل ، لأنقل باللمس ؟ لأنك لو لمست أحدهما ثم لمست الأخرى لاتعرف أيهما

انقل .. إذن فهناك حاسة العضل التي تقيس بها ثقل الأشياء ..

ولنفرض أنك دخلت عملا لبيع القماش ، وأمامك نوعان من قماش واحد .. ولكن أحدهما أرق من الآخر .. بمجرد أن تضع القماشين بين أناملك تدرك أن أحدهما رقيق والآخر أكثر سمكا .. بأي حاسة أدركت هذا ؟ ليس بحاسة اللمس ولكن بحاسة البيئة وحكمها لا يخطئ ..

وعندما تشعر بالجوع .. بأي حاسة أدركت أنك جوعان ؟ .. ليس بالحواس الظاهرة .. وكذلك عندما تظلم .. ما هي الحاسة التي أدركت بها أنك محتاج الى الماء .. وعندما تكون نائما .. أي حاسة تلك التي توقظك من النوم .. لا أحد يعرف ..

إذن هناك ملكات في النفس وهي الحواس الظاهرة .. وهناك ادراكات في النفس .. وهي حواس لا يعلمها إلا خالقها .. لذلك عندما يأتي العلماء ليضعوا تعريفا للنفس البشرية نقول لهم : ماذا تعرفون عن هذه النفس ؟! .. انكم لا تعلمون إلا ظاهرها من الحياة الدنيا .. ولكن هناك أشياء داخل النفس لا تعرفونها .. هناك ادراكات لا يعلم عنها الانسان شيئا ، وهي ادراكات كثيرة ومتعددة .. لذلك يخطئ من يقول "إن ما لا يدرك بالحواس البشرية الظاهرة هو غيب .. لأن هناك ملكات وادراكات متعددة تعمل بغير علم منا .

لو أعطى لطالب تمرين هندسي فحله وأن بالجواب .. هل نقول أنه غيب غيبا ؟ .. لأن حل التمرين كان غيبا عنه ثم وصل اليه .. لا .. لأن هناك مقدمات وقوانين أوصلته الى هذا الحل .. والغيب بلا مقدمات ولا قوانين يؤدي اليه ، وهما عندما تعلن الارصاد الجوية أن غدا يوم مطير شديد الرياح .. أتكون قد علمت غيبا ؟ .. لا .. لأنها أخذت المقدمات ووصلت بها الى نتائج وهذا ليس غيبا ..

وإذا جاء أحد من الدجالين وقال لك ان ما سرق منك عند فلان .. أيمكنك قد علم الغيب ؟ .. لا .. لأنه يشترط في الغيب ألا يكون معلوما مثلك .. وما سرق منك معلوم مثلك .. فالسارق والذي بيعت له المسروقات يعرفان من الذي سرق ، وما الذي حدث .. والشرطة تستطيع بالمقدمات والبصيات والبحث أن تصل الى السارق ومن اشترى المسروقات .. وإذا جاءك دجال من الذين يسخرون الجن ..

والمعروف أن الجن مستورعنا يمتاز بخفة الحركة وسرعتها .. والله سبحانه وتعالى يقول عن الشيطان :

﴿إِنَّهُ يَرْتَكِبُ الْوَقْيَةَ مِنَ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۚ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

فقد يكون هذا المستعان به من الجن قد رأى شيئا .. أو انتقل من مكان إلى آخر .. فيعرف شيئا لا تعرفه أنت .. هذا لا يكون غيباً لأنك جهلته ، ولكن غيرك يعلمه بقوانينه التي خلقها الله له .. والعلماء الذين يكتشفون أسرار الكون .. أيقال إنهم أطلعوا على الغيب ؟ .. لا .. لأن هؤلاء العلماء اكتشفوا موجوداً له مقدمات فوصلوا الى هذه النتائج فهو ليس غيباً .

ولكن ماهو الغيب ؟ ..

هو الشيء الذي ليس له مقدمات ولا يمكن أن يصل اليه علم خلق من خلق الله حتى الملائكة .. وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى حينما عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا وعرضهم على الملائكة قال جل جلاله :

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْتَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ إِنْ أَطَعْتُمْ شَيْطَانَ فَتَكُونُوا كَمَا كُنْتُمْ تَكُونُونَ ﴿٦٣﴾﴾

(سورة البقرة)

والجن أيضا لا يعلم الغيب .. ولذلك عندما مات سليمان عليه السلام .. وكان الله سبحانه وتعالى قد سخر له الجن لم تعلم الجن بموته إلا عندما أكلت دابة الأرض

عصاه .. واقرا قوله تبارك وتعالى :

﴿ قَلْبُ نَضِينَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّمْ عَلَى مَرْثِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْ سَعَابِهِ قَلْبًا

نَرْتَابِئَتْ إِلَيْنُ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝ ١٦ ﴾

(سورة سبأ)

إذن فالغيب هو ما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى .. واقرا قول الحق جل جلاله :

﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ قَلَّا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ لُحُودًا ۝ ١٧ ﴾ إِلَّا عَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ

مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَيَمْنُنْ خَلْفَهُ رَحْمَةً ۝ ١٨ ﴾

(سورة الجن)

وهكذا فإن الرسل لا يعلمون الغيب .. ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمهم بما يشاء من الغيب ويكون هذا معجزة لهم ولئن اتبعوهم .

وقمة الغيب هي الايمان بالله سبحانه وتعالى .. والايمان بملائكته وكتبه ورسله والايان باليوم الآخر .. كل هذه أمور غيبية ، وحيتها يخبرنا الله تبارك وتعالى عن ملائكته ونحن لا نراهم .. نقول مادام الله قد أخبرنا بهم فنحن نؤمن بوجودهم .. وإذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر .. لمادام الله قد أخبرنا فنحن نؤمن باليوم الآخر .. لأن الذي أخبرنا به هو الله جل جلاله .. آمنت به أنه اله .. واستخدمت في هذا الايمان الدليل العقل الذي جعلني أؤمن بأن هذا الكون إنما وخالقاً .. وما يأتي عن الله حيشة الايمان به أن الله سبحانه وتعالى هو القائل .

ولا بد أن نعرف أن وجود الشيء يختلف تماما عن ادراك هذا الشيء .. فانت لك روح في جسدك تهيك الحياة .. أرايتها ؟ .. أسمعتها ؟ .. أذقتها ؟ .. أسمعتها ؟ .. ألمستها ؟ .. الجواب طبعاً لا .. فبأي وسيلة من وسائل الادراك تدرك أن لك روحاً في جسدك ؟ بأثرها في إحياء الجسد ..

إذن فقد عرفت الروح بأثرها ، والروح مخلوق لله . فكيف تريد وأنت عاجز أن تدرك مخلوقا في جسدك وذاتك وهو الروح بآثارها . ان تدرك الله سبحانه وتعالى بحواسك .

ونحن اذا آمننا بالقمة الغيبية وهو الله جل جلاله . فلابد أن نؤمن بكل ما يخبرنا عنه وان لم نره . ولقد أراد الله تبارك وتعالى رحمة بعقولنا أن يقرب لنا قضية الغيب فأعطانا من الكون المادى أدلة على أن وجود الشيء ، وادراك هذا الوجود شيان منفصلان تماما .

فالجراثيم مثلا موجودة في الكون تؤدي مهمتها منذ بداية الخلق . وكان الناس يشاهدون آثار الأمراض في أجسادهم من ارتفاع في الحرارة وحى وغير ذلك وهم لا يعرفون السبب . فلما ارتقى العلم وأذن الله لخلقه أن يروا هذا الوجود للجراثيم . جعل الله العقول قادرة على أن تكتشف المجهر . الذى يعطينا الصورة مكبرة . لأن العين قدرتها البصرية أقل من أن تدرك هذه المخلوقات الدقيقة . فلما اكتشف العلم المجهر . استطعت أن نرى هذا الجراثيم . ونعرف أن لها دورة حياة وتكاثر إلى غير مايكشفه الله لنا من علم كلما تقدم الزمن .

إن عدم قدرتنا على رؤية أى شيء لا يعنى أنه غير موجود . ولكن آلة الإدراك -وهى البصر- عاجزة عن أن تراه ، لأنه غاية في الصغر . فإذا جثت بالمجهر كبر لك هذا الميكروب ليدخل في نطاق وسيلة رؤيتك وهى العين . ورؤيتنا للجراثيم والميكروبات ليست دليلا على أنها خلقت ساعة رأيناها . بل هى موجودة تؤدي مهمتها . سواء رأيناها أو لم نرها .

فلو حدثنا أحد عن الميكروبات والجراثيم قبل أن نراها رؤية العين . هل كنا نصدق ؟ . والله سبحانه وتعالى ترك بعض خلقه غير مدرك في زمنه لبعض حقائق الكون ليرتقى الإنسان ويدرك بعد ذلك . وكان المفروض أنه يزداد إيمانا . عندما يدرك وليعرف الخلق بالدليل المادى أن ما هو غيب عنهم موجود وان كنا لا نراه .

والله تبارك وتعالى قد أعطانا من آياته في الكون ما يجعلنا ندرك أن لهذا الكون خالقا . فالشمس والقمر والنجوم والأرض والإنسان والحيوان والجماد لا يستطيع أحد أن يدعى انه خلقهم . ولا أحد يمكن أن يدعى أنه خلق نفسه أو غيره .

ولا يمكن لهذا الكون بهذا النظام الدقيق أن يوجد مصادفة ، لأن المصادفات أحداث غير مرتبة أو غير منظمة .. ولو وجد هذا الكون مصادفة لتصادمت الشمس والقمر والنجوم والأرض ولاختل الليل والنهار ..

ولكن كل ما في الكون من آيات يؤكد لنا أن هناك قوة هائلة هي التي خلقت ونظمت وأبدعت .. فإذا جاءنا رسول يبلغنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذا الكون فلا بد أن نصدقه .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « وقيمون الصلاة » .. والصلاة هي إقامة ولاء العبودية للحق تبارك وتعالى وهي لا تسقط عن الإنسان أبدا .. فالإنسان يصل وهو واقف ، فإن لم يستطع يصل وهو جالس . فإن لم يستطع ، فيصلي وهو راقد .. ولا تسقط الصلاة عن الإنسان من ساعة التكليف إلى ساعة الوفاة كل يوم خمس مرات ..

ويقول الحق تبارك وتعالى : « وما رزقناهم ينفقون » .. ونحن نتكلم عن الرزق يظن كثير من الناس أن الرزق هو المال .. نقول له لا .. الرزق هو ما يتنفع به . فالقوة رزق ، والعلم رزق ، والحكمة رزق ، والتواضع رزق .. وكل ما فيه حركة للحياة رزق .. فإن لم يكن عندك مال لتنفق منه فعندك عافية تعمل بها لتحصل على المال .. وتتصدق بها على العاجز المريض .. وإن كان عندك حلم .. فإنك تنفقه بأن تقى الأحق من تصرفات قد تؤذى المجتمع وتؤذيك .. وإن كان عندك علم انفقته لتعلم الجاهل .. وهكذا نرى : « وما رزقناهم ينفقون » تستوعب جميع حركة الحياة .



﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

وَبِالْآخِرَةِ هُمْ رَاقِبُونَ﴾

الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يعطينا صفات أخرى من صفات المؤمنين .. فبعد أن ابلغنا أن من صفات المؤمنين الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والانفاق بما رزقهم الله .. يأتي بعد ذلك الى صفات أخرى ..

فهؤلاء المؤمنون هم : (الذين يؤمنون بما أنزل اليك) أى بالقرآن الكريم الذى أنزله الله سبحانه وتعالى .. وه بما أنزل من قبلك .. وهذه لم تأت في وصف المؤمنين إلا في القرآن الكريم .. ذلك أن الاسلام عندما جاء كان عليه أن يواجه صنفين من الناس .. الصنف الأول هم الكفار وهم لا يؤمنون بالله ولا برسول مبلغ عن الله .. وكان هناك صنف آخر من الناس .. هم أهل الكتاب يؤمنون بالله ويؤمنون برسول الله عن الله وكتب عن الله ..

والاسلام واجه الصنفين .. لأن أهل الكتاب ربما ظنوا أنهم على صلة بالله .. يؤمنون به ويتلقون منه كتباً ويتبعون رسلاً وهذا في نظرهم كاف .. نقول لا .. فالاسلام جاء ليؤمن به الكافر ، ويؤمن به أهل الكتاب ، ويكون الدين كله لله ..

والله سبحانه وتعالى في كتبه التى أنزلها أخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن اسمه وأوصافه .. وطلب من أهل الكتاب الذين سيدركون رسالته صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به ..

ولقد أعطى الله جل جلاله أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب حتى إنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .. بل كانت معرفتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وزمنه وأوصافه معرفة يقينية .. وكان يهود المدينة يقولون للكفار .. أظن زمن رسول مستؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم .. فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أول من حاربوه وأنكر نبوته .. فأوصاف رسول الله عليه الصلاة

والسلام موجودة في التوراة والانجيل .. ولذلك كان أهل الكتاب يذنبون الكفار بأنهم سيؤمنون بالرسول الجديد ويسودون به العرب .. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْحِقُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يُكْفَرُوا لَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أى أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن مفاجئة لأهل الكتاب بل كانوا يتظنونها .. كانوا يؤكدون أنهم سيؤمنون بها كما تأمرهم به كتبهم .. ولكنهم رفضوا الايمان وانكروا الرسالة عندما جاء زمنها ..

ثم يقول سبحانه وتعالى : « وبالأخرة هم يوقنون » ونلاحظ هنا أن كلمة (وبالأخرة) قد جاءت .. لأنك اذا تصفحت التوراة التى هي كتاب اليهود ، أو قرأت التلمود لا تجد شيئا عن اليوم الآخر .. فقد أخذوا الأمر المادى فقط من كتبهم .. والله تبارك وتعالى أكد الايمان باليوم الآخر حتى عرف الذين يقولون آمنا بالله وكتبه ورسله ولا يلتفتون الى اليوم الآخر أنهم ليسوا بمؤمنين .. فلو لم يجر هذا الوصف في القرآن الكريم ربما قالوا إن الاسلام موافق لما عندنا .. ولكن الله جل جلاله يريد تصوير الايمان تصويرا كماليا بأن الايمان بالله قمة ابتداء والايمان باليوم الآخر قمة انتهاء .. فمن لم يؤمن بالأخرة وأنه سيلقى الله وسيحاسبه .. وأن هناك جنة ينعم فيها المؤمن ، ونارا يعذب فيها الكافر يكون ايمانه ناقصا .. ويكون قد اقترب من الكافر الذى جعل الدنيا غايته وهدفه ..

فالؤمن يتبع منهج الله في الدنيا ليستحق نعيم الله في الآخرة .. فلو أن الآخرة لم تكن موجودة ، لكان الكافر أكثر حظا من المؤمن في الحياة .. لأنه أخذ من الدنيا ما يشتهي ولم يقيّد نفسه بمنهج ، بل أطلق لشهواته العنان .. بينما المؤمن قيّد حركته في الحياة طبقا لمنهج الله وتعب في سبيل ذلك . ثم يموت الاثنان وليس بعد ذلك شيء .. فيكون الكافر هو الفائز بنعم الدنيا وشهواتها : والمؤمن لا يأخذ شيئا . والأمر هنا لا يستقيم بالنسبة لقضية الايمان .. ولذلك كان الايمان بالله قمة الايمان بداية والايمان بالآخرة قمة الايمان نهاية .

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

قوله تعالى : (أولئك) إشارة الى الذين تنطبق عليهم كل الصفات التي بينها الله سبحانه وتعالى في الآيتين السابقتين .. فأولئك الذين تنطبق عليهم هذه الصفات وصلوا الى الهدى أى الى الطريق الموصل للإيمان .. ووصلوا إلى الفلاح ، وهو الهدف من الإيمان ..

وقوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » تشمل الجميع ..

ولكن لماذا استخدم الله تبارك وتعالى « أولئك » مرتين ؟ تلك من بلاغة القرآن الكريم ، ولماذا دمج الخبرين بعضهما مع بعض ؟ حتى نعرف أنه ليس في الاسلام إيمانان بل إيمان واحد يترتب عليه جزاء واحد .. وسيلته الهدى ، وغايته الفلاح .. ولونظر الى التكليفات التي هي الهدى الموصلة الى الغاية نجد أن الله سبحانه وتعالى رفع المهتدى على الهدى .. لنعرف أن الهدى لم يأت ليقيد حركتك في الحياة ويستذلك ، وإنما جاء ليرفعك ..

إن السطحيين يعتقدون أن الهدى يقيد حركة الانسان في الحياة وينمعه من تحقيق شهواته العاجلة .. ولكن الهدى في الحقيقة يرفع الانسان ويحفظه من الضرر ، ومن غضب الله ، ومن افساد المجتمع الذي سيكون هو أول من يعاني منه .. لذلك قال تبارك وتعالى : « على هدى » ..

و (على) تفيد الاستعلاء . فلذا قلت أنت على الجواد فإنك تعلمه .. كأن المهتدى حين يلزم نفسه بالنهج لا يذل .. ولكنه يرتفع الى الهدى ويصبح الهدى يأخذه من خير الى خير .. وذلك بعكس الضلالة التي تأخذ الانسان الى أسفل ..

فألدين يقيد حركتك في الحياة في أن تفعل ولا تفعل . . ومنهج الله جاء ليقول لك
افعل كذا ولا تفعل كذا . وكثير من الناس يظن أن ذلك تقييد لحركة حياة المؤمن
والتقال عليه . . لأنه أخذ منه حرية حركته فقيدها . .

إن الله تبارك وتعالى حين يقول لك لا تفعل . . معناها عند السطحين أنه ضيق
عليك ما تريد أن تفعل . . وحين يقول لك افعل . . معناها يكون قد ضيق عليك
في شيء لا تريد أن تفعله . فمثلا : حين يطلب منك الزكاة . . فالزكاة في ظاهرها
نقص المال ، وإن كانت في حقيقتها بركة وغناء . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : (ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع
أحد لله إلا رفعه) (١) .

فالحق سبحانه وتعالى إذا قيد حركتك في الحياة . . لا تظن أن هذا تضيق
عليك . . بل إن هذا لتأثرتك . . لأنه لم يأمرك وحدا ، ولكن الأمر للناس جميعا
حين يقول جل جلاله : لا تسرق . . فقد قالها للناس جميعا ولذلك تكون أنت
الرايح . . لأنه قيدك وأنت فرد من أن تسرق من غيرك . . ولكنه قيد ملايين الناس
من أن يسرقوا منك . . إذن فانه لم يضيق عليك ، ولكنه حوى مالك من الناس كل
الناس . . قيدك وأنت فرد أن تسرق من مال غيرك ، وقيد ملايين أن يسرقوا من
مالك . . فمن الفائز ؟ . . أنت طبعاً . .

وقوله تعالى : « أولئك هم المفلحون » (المفلحون) من مادة فلع . . فإذا كانت
الأرض صباء فحينها تشقها وتبذر فيها تعطى محصولا عظيما ، العملية أخذناها أبا عن
جد . فالأرض حين تشق وتبذر تعطى محصولا والفرأ . . وإذا كانت هذه العملية
أخذت أبا عن جد . . بأن السواك من الذي علم آدم البذر والزرع ؟ . . نقول علمه
الله سبحانه وتعالى كما علمه الأسماء . . وكما علمه ما يمكنه به أن يباشر مهمته في
الأرض . .

والحق جل جلاله لم يكن يترك آدم في حياته على الأرض دون أن يعلمه ما يضمن
استمرار حياته وحياته أولاده . . يعلمه على الأقل بدايات . . ثم بعد ذلك تتطور هذه
البدايات بما يكشفه الله من علمه لخلقه . . وبعد ذلك جاءت القرون المتقدمة

فاستطعنا أن نستخدم آلات حديثة متطورة تقوم بعملية الحرث والسقي والبذر .. ولكن الحقيقة الثابتة التي لم تتغير منذ بداية الكون ولن تتغير حتى نهايته .. هي أن مهمة الانسان أن يحرث ويضع البذرة في الأرض ويسقيها .. أما غو الزرع نفسه فلا دخل للانسان فيه .. وكذلك الثمر الذي ينتج لا عمل للانسان فيه .. ولقد نبهنا الله تبارك وتعالى الى هذه الحقيقة حتى لا نفتر بحركتنا في الحياة ونقول إننا نحن الذين نزرع .. وقرأ قول الحق جل جلاله في سورة الواقعة :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٣٥﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَزْرَعُونَ ﴿٣٦﴾ لَوْ شَاءَ بَعْضُهُمْ أَكْفَارًا لَوَلَّيْتُمْ مِمَّا تَحْرُثُونَ ﴿٣٧﴾ ءَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ إِنَّا لَمَعْرِضُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ لَحْنٌ عَجُوزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وهكذا ظلت مهمة الفلاحة في الأرض مقصورة على الحرث والسقي والبذر ، وحينما تلقى الحبة في الأرض يخلق الله في داخلها الغذاء الذي يكفيها حتى تستطيع أن تأخذ غذاءها من الأرض .. وإذا جئت بحبة وبللتها تجد أنها قد نبت لها ساق وجذور .. من أين جاء هذا النمو ؟ من تكوين الحبة نفسه ، والله تبارك وتعالى قد قدر في كل حبة من الغذاء ما يكفيها حتى تستطيع أن تتغذى من الأرض .. وعلى قدر كمية الغذاء المطلوبة يكون حجم الحبة .. وحين تضعها في الأرض فإنها تبدأ أولاً بأن تغذى نفسها .. بحيث ينبت لها ساق وجذور وورقتان تنفس منها .. كل هذا لا دخل لك فيه ولا عمل لك فيه .. وتبدأ الحبة تأخذ غذاءها من الأرض والهواء .. لتنمو حتى تصبح شجرة كبيرة تنتج الثمر من نوع البذرة نفسه .

ومن هنا جاءت كلمة (المفلحون) .. ليعطينا الحق جل جلاله من الأمور المادية المشهود ما يعين عقولنا المحدودة على فهم الغيب .. فيشبه التكليف وجزاءه في الآخرة بالبذرة والفلاحة .. أولاً لأنك حين ترمي بذرة في الأرض تعطيك بذوراً كثيرة ..

واقرا قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُبْذَرُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ
سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وإذا كانت الأرض وهي المخلوقة من الله تبارك أضعاف أضعاف ما أعطيتها ..
فكيف بالخالق ؟ .. وكم يضاعف لك من الثواب في الطاعة ؟ .. هذا هو السبب في
أن الحق تبارك وتعالى يقول : « وأولئك هم المفلحون » .. حتى يلتفتا بمادة
الفلاحة .. وهي شيء موجود نراه ونشاهده كل يوم .
وكما أن التكليف يأخذ منك أشياء ليضاعفها لك .. كذلك الأرض أخذت منك
حبة ولم تعطك مثل ما أخذت ، بل أعطتك بالحبة سبعمائة حبة .. وهكذا نستطيع
أن نصل بشيء مشهود يُفَصِّلُ لنا شيئا غيبا .



﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ

تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾

وبعد ان تحدث الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين وصفاتهم .. وجزائهم في الآخرة وما ينتظرهم من خير كبير .. اراد ان يعطينا تبارك وتعالى الصورة المقابلة وهم الكافرون .. وبين لنا ان الايمان جاء ليهيمن على الجميع يحقق لهم الخير في الدنيا والآخرة .. فلا بد ان يكون هناك شر يحاربه الايمان .. ولولا وجود هذا الشر .. أكان هناك ضرورة للايمان .. إن الانسان المؤمن يقى نفسه ويحتمه وعاله من شرور يأتي بها الكفر ..

والكافرون قسبان .. قسم كفر بالله اولا ثم استمع الى كلام الله .. واستقبله بفطرته السليمة فاستجاب وأمن .. وصنف آخر مستفيد من الكفر ومن الطغيان ومن الظلم ومن اكل حقوق الناس وغير ذلك .. وهذا الصنف يعرف ان الايمان اذا جاء فانه سيسلبه جأها دنويا ومكاسب يحققها ظلما وعدوانا ..

اذن الذين يقفون امام الايمان هم المستفيدون من الكفر .. ولكن ماذا عن الذين كانوا كفارا واستقبلوا دين الله استقبالا صحيحا ..

هؤلاء قد تفتح قلوبهم فيؤمنون . والكفر معناه السر .. ومعنى كَفَرَ (أى) سَتَرَ .. وكفر بالله اى ستر وجود الله جل جلاله .. والذي يستر لابد ان يستر موجودا ، لأن السر طارىء على الوجود .. والاصل فى الكون هو الايمان بالله .. وجاء الكفار يحاولون ستر وجود الله .. فكان الاصل هو الايمان ثم طرأت الغفلة على الناس فستروا وجود الله سبحانه وتعالى .. ليبقوا على سلطانهم او سيطرتهم او استغلاتهم او استعلائهم على غيرهم من البشر ..

ولفظ الكفر فى ذاته يدل على ان الايمان سبق ثم بعد ذلك جاء الكفر .. كيف ؟

لأن الخلق الاول وهو آدم الذى خلقه الله بيديه .. ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة .. وعلمه الاسماء كلها ..

سجد الملائكة وتعليم الاسماء أمر مشهدى بالنسبة لآدم .. والكفر ساعته لم يكن موجودا .. وكان المقروض ان آدم بعد ان نزل الى الارض واستقر فيها .. يلقي ابتاءه منيح عبادة الله لأنه نزل ومعه المنهج في (افعل ولا تفعل) وكان على ابتاء آدم ان يلقي ابتاءهم المنهج وهكذا ..

ولكن بمرور الزمن جاءت الغفلة في أن الايمان يقيد حركة الناس في الكون .. فبدأ كل من يريد ان يخضع حياته لشهوة بلاقبود يتخذ طريق الكفر .. والعامل حينئذ يسمع كلمة كفر .. يجب عليه ان يتنبه الى ان معناها ستر لموجود واجب الوجود .. فكيف يكفر الانسان ويشارك في ستر ماهو موجود .. لذلك نجد ان الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَنًا فَأَحْبَبْكُمْ ثُمَّ تُمَيِّزُونَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ آلِهِمْ تَرْجِعُونَ ١٨ ﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٩ ﴿

(سورة البقرة)

وهكذا يأتى هذا السؤال .. ولا يستطيع الكافر له جوابا !! لأن الله هو الذى خلقه وأوجده .. ولا يستطيع احد منا ان يدعى انه خلق نفسه او خلق غيره .. فالوجود بالذات دليل على قضية الايمان .. ولذلك يسألهم الحق تبارك وتعالى كيف تكفرون بالله وتسترون وجود من خلقكم ؟ ..

والخلق قضية محسومة لله سبحانه وتعالى لا يستطيع احد ان يدعيها .. فلا يمكن ان يدعى أحد أنه خلق نفسه .. قضية انك موجود توجب الايمان بالله سبحانه وتعالى الذى اوجدك .. انه عين الاستدلال على الله .. واذا نظر الانسان حوله

فوجد كل مافي الكون مسخرا لخدمته والاشياء تستجيب له فقلن بمرور الزمن ان له سيطرة على هذا الكون .. ولذلك عاش وفي ذهنه قوة الاسباب .. يأخذ الاسباب وهو فاعلها فيجدها قد اعطته واستجابت له .. ولم يلتفت الى خالق الاسباب الذي خلق لها قوانينها فجعلها تستجيب للانسان .. وقد اشار الحق تبارك وتعالى الى ذلك في قوله جل جلاله :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ١ ۝ إِنَّ رُءُوءَهُ اسْتَفْهَى ۚ ٢ ۝ ﴾

(سورة العلق)

ذلك ان الانسان يحرق الارض فتعطيه الثمر .. فيعتقد انه هو الذي اخضع الارض ووضع لها قوانينها لتعطيه ما يريد .. يضمنط على زر الكهرباء فينير المكان فيعتقد انه هو الذي اوجد هذه الكهرباء ! يركب الطائرة .. وتسيره في الجو فيعتقد انه هو الذي جعلها تطير .. وينسى الخصائص التي وضعها الله سبحانه وتعالى في الغلاف الجوي ليستطيع ان يحمل هذه الطائرة .. يفتح التلفزيون ويرى امامه احداث العالم فيعتقد ان ذلك قد حدث بقدرته هو .. وينسى ان الله تبارك وتعالى وضع في الغلاف الجوي خصائص جعلته ينقل الصوت والصورة من اقصى الدنيا الى اقصاها في ثوان معدودة .. وهكذا كل ماحولنا يظن الانسان انه اخضعه بذاته .. بينا كل هذا مسخر من الله سبحانه وتعالى لخدمة الانسان .. وهو الذي خلق ووضع القوانين .. تقول له انك لو فهمت معنى ذاتية الاشياء ماحدثك نفسك بذلك .. الشيء الذاتي هو ما كان بذاتك لا يتغير ولا يتخلف ابدا .. اما الامر الذي ليس بذاتك هو الذي يتغير ..

واذا نظرت الى ذاتيتك تلك التي اغرتك واطغتك .. ستفهم ان كلمة ذاتية هي ألا تكون محتاجا إلى غيرك بل كل شيء من نفسك .. وانت في حياتك كلها ليس لك ذاتية ! لأن كل شيء حولك متغير بدون ارادتك .. وانت طفل محتاج إلى أبك في بدء حياتك .. فاذا كبرت وأصبح لك قوة واستجابت الاحداث لك فزناك لا تستطيع ان تجعل فترة الشباب والفتوة هذه تبقى .. فالزمن يملك ولكن لفترة معدودة .. فاذا وصلت الى مرحلة الشيخوخة فستحتاج الى من يأخذ بيدك ويمسك .. ربما علي ادق حاجاتك وهي الطعام والشراب ..

إذن فأتت تبدأ بالطفولة محتاجا إلى غيرك .. وتنتهي بالشيخوخة محتاجا إلى غيرك .. وحتى عندما تكون في شبابك قد يصيبك مرض يبعدك عن الحركة .. فإذا كانت لك ذات حقيقية فادفع هذا المرض عنك وقل لن امرض .. أنك لا تستطيع ..

الله سبحانه وتعالى اوجد هذه المتغيرات حتى ينتهي الغرور من الانسان نفسه .. ويعرف انه قوى قادر بما اخضع الله له من قوانين الكون .. لنعلم انا جميعا محتاجون الى القادر ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وان الله غنى بذاته عن كل خلقه .. يغير ولا يتغير .. يبيت وهو دائم الوجود .. يجعل من بعد قوة ضعفا وهو القوى دائما .. ماعند الناس ينفد وما عنده تبارك وتعالى لا ينفد أبداً .. هو الله في السموات والارض ..

اذن فليست لك ذاتية حتى تدعى أنك اخضعت الكون بقدراتك .. لانه ليس لك قدرة ان تبقى على حال واحد ونجعله لا يتبدل ولا يتغير .. فكيف تكفر بالله تبارك وتعالى وتستر وجوده .. كل مافى الكون ومافى نفسك شاهد ودليل على وجود الحق سبحانه وتعالى ..

قلنا ان الكافرين صنفان .. صنف كفر بالله وعندما جاء الهدى حكم عقله وعرف الحق فأمن .. والصنف الآخر مستفيد من الكفر .. ولذلك فهو متشبث به مهما جاءه من الايمان والادلة الايمانية فإنه يعاند ويكفر .. لانه يريد ان يحتفظ بسلطانه الدنيوية ونفوذه القائم على الظلم والظلميان .. ولا يقبل ان يجرّد منها ولو بالحق .. هذا الصنف هو الذى قال عنه الله تبارك وتعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون »

إنهم لم يكفروا لأن بلاغا عن الله سبحانه وتعالى لم يصلهم .. ولم يكفروا لأنهم في حاجة الى ان يلتفتهم رسول او نبي الى منيح الله .. هؤلاء اتخذوا الكفر صناعة ومنهج حياة .. فهم مستفيدون من الكفر لأنه جعلهم سادة ولأنهم متميزون عن غيرهم بالباطل .. ولأنهم لو جاء الايمان الذى يساوى بين الناس جميعا ويرفض الظلم ، لأصبحو اشخاصا عاديين غير مميزين في اى شئ ..

هذا الكافر الذى اتخذ الكفر طريقا لجاه الدنيا وزخرفها . . سواء أنذرتة أم لم تنذره فإنه لن يؤمن . . انه يريد الدنيا التى يعيش فيها . . بل ان هؤلاء هم الذين يقاومون الدين ويحاربون كل من آمن . . لأنهم يعرفون ان الايمان سيسلبهم مميزات كثيرة . . ولذلك فإن عدم ايمانهم ليس عن ان منحج الايمان لم يبلغهم . . او ان أحدا لم يلفتهم الى آيات الله فى الارض . . ولكن لان حياتهم قائمة ومبنية على الكفر .



﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

وكما اعطانا الحق سبحانه وتعالى اوصاف المؤمنين يعطينا صفات الكافرين .. وقد يتساءل بعض الناس اذا كان هذا هو حكم الله على الكافرين ؟ فلماذا يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم الايمان منهم وقد ختم الله على قلوبهم ؟! ومعنى الختم على القلب هو حكمه بالآي يخرج من القلب ما فيه من الكفر .. ولا يدخل اليه الايمان ..

نقول ان الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين .. فان استغنى بعض خلقه عن الايمان واختاروا الكفر .. فان الله يساعده على الاستغناء ولا يعينه على العودة الى الايمان .. ولذلك فان الحق سبحانه وتعالى يقول في حديث قديمي :

« انا عند ظن عبدي بي وانا معه حين يذكرني .. فَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِي ، ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَأْ خَيْرٍ مِنْهُ ، وَإِنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ شَيْئًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذُرَاعًا ، وَإِنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذُرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي مِمَّنْ كَتَبَ تَوَلَّيْتُهُ » (١)

وقد وضع الحديث القديسي ان الله تبارك وتعالى يعين المؤمنين على الايمان ، وان الله جل جلاله كما يعين المؤمنين على الايمان .. فانه لايهمه ان يأت العبد الى الايمان أو لا يأت .. ولذلك نجد القرآن دقيقا وحكيما بأن من كفروا قد اختاروا الكفر بإرادتهم. واختارهم للكفر كان أولا قبل ان يختم الله على قلوبهم .. والخلق جل جلاله اغنى الشركاء عن الشرك .. ومن اشرك به فأنه في غنى عنه . ان الذين كفروا .. اى ستروا الايمان بالله ورسوله .. هؤلاء يختم الله بكفرهم على آلات الادراك كلها .. القلب والسمع والبصر . والقلب أداة ادراك غير ظاهرة .. وقد قدم الله القلب على السمع والبصر في تلك الآية لانه يريد ان يعلمنا

منافذ الادراك .. وفي القرآن الكريم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنَّهُ أَتَرَجِّحُكُمْ مِنْ يُطَوَّنُ أَهْمُكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْعًا وَجَعَلَ لَكُمْ أَسْمَعَ وَالْأَبْصَرَ
وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(سورة النحل)

وهكذا يعلمنا الله ان منافذ العلم في الانسان هي السمع والابصار والافئدة ..
ولكن في الآية الكريمة التي نحن بصددها قدم الله القلوب على السمع والابصار ..
ان الله يعلم انهم اختاروا الكفر .. وكان هذا الاختيار قبل ان يفتح الله على
قلوبهم .. والفتح على القلوب .. معناه انه لا يدخلها ادراك جديد ولا يخرج منها
ادراك قديم .. ومهما رأت العين أو سمعت الأذن .. فلا فائدة من ذلك لأن هذه القلوب
مختومة بخاتم الله بعد ان اختار اصحابها الكفر واصرروا عليه .. وفي ذلك يصفهم الحق
جل جلاله :

﴿ صَمٌّ بَكْرٌ عَمَى فَمَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

(سورة البقرة)

ولكن لماذا فقدوا كل ادوات الادراك هذه ؟ .. لأن الغشاوة التفت حول القلوب
الكافرة ، فجعلت العيون عاجزة عن تأمل آيات الله .. والسمع غير قادر على
التلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

اذن فهؤلاء الذين اختاروا الكفر واصرروا عليه وكفروا بالله برغم رسالاته ورساله
وقرآنه .. ماذا يفعل الله بهم ؟ انه يتخل عنهم ، ولأنه سبحانه وتعالى غنى عن العالمين
فإنه يسر لهم الطريق الذى مشوا فيه ويعينهم عليه .. وأقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾

(سورة الزخرف)

ويقول جل جلاله :

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ عَلَىٰ مَا نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ﴿١١٦﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ومن عظمة علم الله تبارك وتعالى أنه يعلم المؤمن ويعلم الكافر . . دون أن يكون جل جلاله تدخل في اختيارهم . . فعندما بعث الله سبحانه وتعالى نوحا عليه السلام . . ودعا نوح إلى منيح الله تسعة مائة وخمسين عاما . . وقيل أن بأن الطوفان علم الله سبحانه وتعالى أنه لن يؤمن بنوح عليه السلام إلا من آمن فعلا . . فطلب الله تبارك وتعالى من نوح أن يبني السفينة لينجو المؤمنون من الطوفان . . وأقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَأَوْحِيَ إِلَٰكَ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ وَأَصْنِعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَحْطِطْ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿١١٩﴾ ﴾

(سورة هود)

وهكذا نرى أنه من عظمة علم الله سبحانه وتعالى . . أنه يعلم من سيصر على الكفر وأنه سيموت كافرا . . وإذا كانت هذه هي الحقيقة فلماذا يطلب الله تبارك وتعالى من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغهم بالمنهج وبالقرآن ؟ . . ليكونوا شهداء على أنفسهم يوم القيامة . . فلا بأن هؤلاء الناس يوم المشهد العظيم ويمجدلون بالباطل . . أنه لو بلغهم الهدى ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لآمنوا . . ولكن لماذا يختم الله جل جلاله على قلوبهم ؟ . . لأن القلب هو مكان العقائد . . ولذلك فإن القضية تناقش في العقل فإذا انتهت مناقشتها واقتنع بها الانسان غاما فانها تستقر في القلب ولا تعود الى الذهن مرة أخرى وتصبح عقيدة واثما . . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الحج)

واذا عمى القلب عن قضية الايمان .. فلا عين ترى آيات الايمان .. ولا أذن
تسمع كلام الله .. وهؤلاء الذين اختاروا الكفر على الايمان لهم في الآخرة عذاب
عظيم .. ولقد وصف الله سبحانه وتعالى العذاب بأنه أليم .. وبأنه مهيئ .. وبأنه
عظيم .. العذاب الأليم هو الذى يسبب ألما شديدا .. والعذاب المهيئ هو الذى
يأتى لأولئك الذين رفعهم الله فى الدنيا .. وأحيانا تكون الاهانة أشد إيلاما للنفس
من ألم العذاب نفسه .. أولئك الذين كانوا أئمة الكفر فى الدنيا .. يأتى بهم الله
تبارك وتعالى يوم القيامة أمام من اتبعوهم فيهمتهم .. أما العذاب العظيم فإنه
منسوب الى قدرة الله سبحانه وتعالى .. لأنه بقدرات البشر تكون القوة محدودة ..
أما بقدرات الله جل جلاله تكون القوة بلا حدود .. لأن كل فعل يتناسب مع
فاعله .. وقدرة الله سبحانه وتعالى عظيمة فى كل فعل .. وبما أن العذاب من الله
جل جلاله فإنه يكون عذابا عظيما .



﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾

الناس في الحياة الدنيا على ثلاثة احوال : إما مؤمن ، وإما كافر ، وإما منافق .
والله سبحانه وتعالى في بداية القرآن الكريم في سورة البقرة . . اراد ان يعطينا وصف
البشر جميعا بالنسبة للمنتج وأهم ثلاث فئات : الفئة الأولى هم المؤمنون ، عَرَفْنَا الله
سبحانه وتعالى صفاتهم في ثلاث آيات ، في قوله تعالى :

«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ
إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُقْبِلُونَ»

والفئة الثانية هم الكفار ، وعرفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم في آيتين في قوله
تعالى :

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَسِمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

وجاء للمنافقين فعرف صفاتهم في ثلاث عشرة آية متتابعة ، لماذا . . ؟ لخطورتهم
على الدين ، فالذي يهدم الدين هو المنافق ، اما الكافر فنحن نتقيه ونحذره ، لانه
يعلم كفره .

إن المنافق ، يظهر امامك بالايمان ، ولكنه يطن الشر والكفر ، وقد تحسبه
مؤمنا ، فتعلمه على اسرارك ، فيخذلها سلاحا لطمع الدين . . وقد خلق الله في
الانسان ملكات متعددة ، ولكي يعيش الانسان في سلام مع نفسه ، لا بد ان تكون
ملكاته منسجمة وغير متناقضة .

فالؤمن ملكاته منسجمة ، لانه اعتقد بقلبه في الايمان ونطق لسانه بما يعتقد ، فلا
تناقض بين ملكاته ابداً . .

والكافر قد يقال انه يعيش في سلام مع نفسه ، فقد رفض الايمان وانكره بقلبه
ولسانه ينطق بذلك ، ولكن الذي فقد السلام مع ملكاته هو المنافق ، انه فقد السلام
مع مجتمعه وفقد السلام مع نفسه ، فهو يقول بلسانه ، ما لا يعتقد بقلبه ، يظهر غير
ما يبطن ، ويقول غير ما يعتقد ، ويخشى ان يكشفه الناس ، فيعيش في خوف
عميق ، وهو يعتقد ان ذلك شيء مؤقت سينتهي .

ولكن هذا التناقض يبقى معه الى آخر يوم له في الدنيا ، ثم ينتقل معه الى
الآخرة ، فينقض عليه ، ليقوده الى النار ، وقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمَا شَهِدَ عَلَيْهِمَ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
﴿٥٥﴾ وَقَالُوا لِمَ جُعِلَ عَلَيْنَا لَبُؤًا فَلَوْأَلَّا نَعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي أَطْلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ
خَلَقَ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِنَّ رَبَّجَعُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾

(سورة فصلت)

إذن كل ملكاتهم انقضت عليهم في الآخرة ، فالسلام الذي كانوا يتمتعونه لم
يحققوه لآل في حياتهم ولا في آخرتهم ، فلسان المنافق يشهد عليه ، ويداء شهدان عليه ،
ورجاله شهدان عليه ، والجلود تشهد عليه ، فهذا بقى له ؟
بينه وبين ربه تناقض ، وبينه وبين نفسه تناقض ، وبينه وبين مجتمعه تناقض ،
وبينه وبين آخرته تناقض . وبينه وبين الكافرين تناقض . يقول لسانه ما ليس في
قلبه ، بماذا وصف الحق سبحانه وتعالى المنافقين ؟ قال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٥٧﴾

(سورة البقرة)

هذه اول صفات المنافقين في القرآن الكريم ، يعلنون الايمان وفي قلوبهم الكفر ،
ولذلك فإن ايمانهم كله نفاخر ، اذا ذهبوا للصلاة لا تكتب لهم ، لانهم يتظاهرون
بها ، ولا يؤدونها عن ايمان ، واذا ادوا الزكاة ، فلانها تكون عليهم حيرة ، لانهم
ينفقونها وهم لها كارهون ، لانها في زعمهم نقص من ماله . لا يأخذون عليها ثوابا

في الآخرة ، وإذا قتل واحد منهم في غزوة ، انتابهم الحزن ، والأسى ، لأنهم اهدروا حياتهم ولم يقدموها في سبيل الله .
وهكذا يكون كل ما يفعلونه شقاء بالنسبة لهم .

أما المؤمن فحين يصل أو يؤدي الزكاة أو يستشهد في سبيل الله فهو يرجو الجنة ، وأما المنافقون فإنهم يفعلون كل هذا ، وهم لا يرجون شيئاً . . فكأنهم بنفاقهم قد حكم عليهم الله سبحانه وتعالى بالشقاء في الدنيا والآخرة ، فلا هم في الدنيا لهم متعة المؤمن فيما يفعل في سبيل الله ، ولا هم في الآخرة لهم ثواب المؤمن فيما يرجو من الله .



يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦﴾

وتأتى الصفة الثانية من صفات المنافقين ، وهى صفة تدل على غفلتهم وحق تكبيرهم ، فإنهم يحسبون انهم بنفاقهم يخدعون الله سبحانه وتعالى ، وهى يستطيع بشر ان يخدع رب العالمين ؟

ان الله عليم بكل شئ ، عليم بما نخفى وما نعلن ، عليم بالسر وما هو اخفى من السر ، وهى يوجد ماهو اخفى من السر ؟ نقول نعم ، السر هو ما اسررت به لغيرك ، فكأنه يعلمه اثنان ، انت ومن اسررت اليه . ولكن ما هو اخفى من السر ، ما تبقى فى نفسك ولا تخبر به احدا ، انه يظل فى قلبك لا تسر به لانسان ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَى ﴾ (٧)

(سورة طه)

فلا يوجد مخلوق ، يستطيع ان يخدع خالقه ، ولكنهم من غفلتهم ، يحسبون انهم يستطيعون خداع الله جل جلاله . وفى تصرفهم هذا لا يكون هناك سلام بينهم وبين الله . بل يكون هناك مقت وغضب .

وهم فى خداعهم يحسبون ايضا انهم يخدعون الذين آمنوا ، بأنهم يقولون امامهم غير ما يعطون ، ولكن هذا الخداع شقاء عليهم ، لأنهم يعيشون فى خوف مستمر ، وهم دائما فى قلق او خوف من ان يكشفهم المؤمنون ، او يستمعوا اليهم فى مجالسهم الخاصة ، وهم يتعدثون بالكفر ويسخرون من الايمان ، ولذلك اذا تحدثوا لابد ان يتأكدوا اولاً من ان احدا من المؤمنين لا يسمعهم ، ويتأكدوا ثانياً من ان احدا من

لِلْمُؤْمِنِينَ لَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ ، وَالْخَوَافُ بِمِلَأِ قُلُوبِهِمْ أَيْضًا ، وَهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَخْشَى أَنْ تَقْلُبَ مِنْهُ كَلِمَةٌ ، تَفْضَحُ نَفَاقَهُ وَكَفْرَهُ . وَهَكَذَا فَلَا سَلَامَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ . . وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُمْ لَا يَتَّخِذُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ . فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، يَعْلَمُ نَفَاقَهُمْ ، وَالْمُؤْمِنُونَ قَدْ يَعْلَمُونَ هَذَا النِّفَاقَ ، فَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُخَبِّرُهُمْ بِهِ ، وَاقْرَأْ قَوْلَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ وَلَوْ تَسَاءَلَرَأَيْتَهُمْ فَلَغَرَّتْهُمْ بِسْمُهُمْ^١ وَلَتَعَرَّيْتَهُمْ^٢ فِي لَحَنِ الْقَوْلِ^٣ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ^٤ ﴾

(سورة محمد)

أَلَمْ يَأْتِ الْمُنَافِقُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِيَشْهَدُوا أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ فَقَضَاهُمْ اللَّهُ إِمَامَ رَسُولِهِ وَأَنْزَلَ قَوْلَهُ تَعَالَى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنِفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِقِينَ لَكَاذِبُونَ^١ ﴾

(سورة المنافقون)

جَاءَ الْمُنَافِقُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْهَدُونَ بِصِدْقِ رِسَالَتِهِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الشَّهَادَةَ حَقٌّ وَصِدْقٌ ، لِأَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ . يَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، صَادِقُ الرِّسَالَةِ ، وَلَكِنَّهُ فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ شَهِيدٌ أَنَّ الْمُنَافِقُونَ كَاذِبُونَ . كَيْفَ ؟

كَيْفَ يَنْفَقُ كَلَامَ اللَّهِ مَعَ مَا قَالَهُ الْمُنَافِقُونَ ثُمَّ يَكُونُونَ كَاذِبِينَ ؟

نَقُولُ : لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ قَالُوا بِالنِّسْبَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَهُمْ شَهِدُوا بِالنِّسْبَةِ فَقَطْ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ وَلَكِنْ قُلُوبُهُمْ مَنكُورَةٌ لِذَلِكَ ، مَكْذِبَةٌ بِهِ ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ مَا قَالَهُ الْمُنَافِقُونَ رَغِمَ أَمُّهُ حَقِيقَةُ إِلَّا أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ ، وَيَقُولُونَ بِالنِّسْبَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، لِأَنَّ الصِّدْقَ هُوَ أَنْ يَوَافِقَ الْكَلَامُ حَقِيقَةَ مَا فِي الْقَلْبِ ،

وهؤلاء كذبوا ، لأنهم في شهادتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يعبرون عن واقع في قلوبهم ، بل قلوبهم تُكذِّبُ ما يقولون .

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم يوضح الله سبحانه وتعالى فيها المنافقين وبينى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يضمرونه في قلوبهم ، اذن فخداعهم للمؤمنين ، رغم انه خداع بشر لبشر ، الا انه أحيانا تفلت الستهم ، فتعرف حقيقتهم ، وإذا لم يفلت اللسان ، جاء البيان من الله سبحانه وتعالى ليفضحهم ، وتكون حصيلة هذا كله ، انهم لا ينجذعون احدا ، فالله يعلم سرهم وجهرهم ، فمرة يعين الله المؤمنين عليهم فيكشفونهم ، ومرة تفلت الستة المنافقين فيكشفون انفسهم .

اذن فسلوك المنافق ، لا ينجذع به الا نفسه ، وهو الخاسر في الدنيا والاخرة ، عندما يؤدي عملا إيمانيا ، فالله يعلم انه نفاق ، وعندما يحاول ان ينجذع المؤمنين ، يتكشف ، والنتيجة انهم يعتقدون بأنهم حققوا لانفسهم نغما ، بينما هم لم يحققوا لانفسهم الا الحشران الميين .



﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾

فإنه سبحانه وتعالى، شبه ماني قلوب المنافقين بأنه مرض ، والمرض أولا بورث السقم ، فكان قلوبهم لا تملك الصحة الايمانية التي تحيي القلب فتجعله قويا شابا ، ولكنها قلوب مريضة ، لماذا كانت مريضة ؟ لقد أتعبها النفاق وأتعبها التناثر مع كل ماحولها ، واحسنت انها تعيش حياة ملؤها الكذب ، فاضطرب القلب ، جعله مريضا ، ولا يمكن ان يشفى الا بإذن الله ، وعلاجه هو الايمان الحقيقي الصادق ، ذلك الذي يعطيه الشفاء ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَاءً مَوْشِجًا وَرَحِمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۚ وَلَا يَزِيدُ الْفَاسِقِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾

(سورة الاسراء)

اذن فالايमान والقرآن هما شفاء القلوب ، كلاهما بعيد عن قلوب هؤلاء المنافقين ، فكان المرض يزداد في قلوبهم مع الزمن ، والله سبحانه وتعالى - بنفاقهم وكفرهم - يزيدهم مرضا . وهذه هي الصفة الثالثة للمنافقين . . انهم اصحاب قلوب مريضة سقيمة ، لا يدخلها نور الايمان ، ولذلك فهي قلوب ضعيفة ، ليس فيها القوة اللازمة لمعرفة الحق . وهي قلوب خائفة من كل ماحولها ، مرتعبة في كل خطواتها ، مضطربة بين ما في القلب وما على اللسان ، والمريض لا يقوى على شيء . وكذلك هذه القلوب لا تقوى على قول الحق ، ولا تقوى على الصدق ، ولا ترى ماحولها ، تلك الرؤية التي تتناسب وتتفق مع فطرة الايمان ، التي وضعها الله تعالى في القلوب ، ولذلك اذا دخل المنافقون في معركة في صفوف جيش المسلمين . . قالوا ما يبحثون عنه هو الحرب من المعركة ، يبحثون عن غبا يخفون فيه ، او مكان لا يراهم فيه

احد ، والله سبحانه وتعالى يصفهم بقوله :

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَخْرَجًا أَوْ مَدْرَجًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٥﴾﴾

(سورة النوبة)

لماذا ؟ لانهم اصحاب قلوب مريضة ، لا تقوى على شيء ، ومرضاها يجعلها تهرب من كل شيء ، وتخفى . وليت الامر يقتصر عند هذا الحد ، ولكن ينتظرهم في الآخرة عذاب أليم ، غير العذاب الذي عانوه من قلوبهم المريضة في الدنيا ، فيها كانوا يكذبون على الله وعلى رسوله ، ينتظرهم في الآخرة عذاب أليم اشد من عذاب الكافرين ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الذَّرِّ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة النساء)



﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا

نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾

الفساد في الأرض هو أن نعد إلى الصالح نفسه ، وأقل ما يطلب منك في الدنيا ، أن تدع الصالح لصلاحه ، ولا تتدخل فيه لنفسه ، فإن شئت أن ترتقي إيمانها ، ثأت للصالح ، وتزد من صلاحه ، فإن جئت للصالح وافسدته فقد افسدت فسادين ، لأن الله سبحانه وتعالى ، اصلى لك مقومات حياتك في الكون ، فلم تتركها على الصالح الذي خلقت به ، وكان تركها في حد ذاته ، بعدا عن الفساد ، بل جئت إليها ، وهي صالحة بخلق الله لها فأفسدتها ، فأنت لم تستقبل النعمة الممنوحة لك من الله ، بأن تتركها تؤدي مهمتها في الحياة ، ولم تزد في مهمتها صلاحا ، ولكنت جئت إلى هذه المهمة فأفسدتها . . فلو أن هناك بشرا يشرب منها الناس ، فهذه نعمة لضرورة حياتهم ، تستطيع أنت بأسباب الله في كون الله أن تأتي وتصلحها ، بأن تبطن جدرانها بالحجارة ، حتى تمنع انهيار الرمال داخلها ، أو أن تأتي بحبل وائاء حتى تعين الناس على الوصول إلى مياهها ، ولكنت إذا جئت ورودمتها تكون قد افسدت الصالح في الحياة .

وهكذا المنافقون . . انزل الله تعالى منهاجاً للحياة الطيبة للإنسان على الأرض ، وهؤلاء المنافقون بذلوا كل ما في جهمهم لإفساد هذا المنهج ، بأن تأمروا ضده وادعوا أنهم مؤمنون به ليضعوا الاسلام من داخله .

ولقد تنبه أعداء الاسلام ، إلى أن هذا الدين القوي الحق ، لا يمكن أن يتأثر بطعنات الكفر ، بل يواجهها ويتغلب عليها . فما قامت معركة بين حق وباطل إلا انتصر الحق ، ولقد حاول أعداء الاسلام أن يواجهوه سنوات طويلة ، ولكنهم عجزوا ، ثم تنهوا إلى أن هذا الدين لا يمكن أن يهزم إلا من داخله ، وإن استخدمت المنافقين في الافساد ، هو الطريقة الحقيقية لتفريق المسلمين ، فانطلقوا إلى المسلمين اسماً ليتخذوا منهم الحربة التي يوجهونها ضد الاسلام ، وظهرت مذاهب

واختلافات ، وما اسموه العلمانية واليسارية وغير ذلك ، كل هذا قام به المنافقون في الاسلام وغلقوه بقلاف اسلامي ، ليفسدوا في الارض ويحاربوا منيخ الله .
 واذا لفت المؤمنون نظرهم الى أنهم يفسدون في الارض ، وطلبوا منهم ان يمتنعوا عن الفساد ، ادعوا أنهم لا يفسدون ولكنهم يصلحون ، واى صلاح في عدم اتباع منيخ الله والخروج عليه باى حجة من الحجج ؟



﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

وهكذا يعطينا الله سبحانه وتعالى حكمه عليهم بأنهم كما أنهم يمدعون أنفسهم ولا يشعرون ويحسبون أنهم يمدعون الله سبحانه وتعالى والمؤمنين . كذلك فإنهم يفسدون في الأرض ويمدعون أنهم مصلحون، ولكنهم في الحقيقة مفسدون، لماذا؟ .. لأن في قلوبهم كفرا وعداء لمنهج الله، فلو قاموا بأى عمل يكون ظاهره الإصلاح، فحقيقته هى الإفساد، غمما كما ينطقون بالسنتهم بما ليس في قلوبهم .

والكون لا يصلح الا بمنهج الله، فالله سبحانه وتعالى هو الذى خلق، وهو الذى أوجد، وهو أدرى بصنعه وبما يفسدها وبما يصلحها، لانه هو الصانع، ولا يوجد من يعلم سر ما يصلح صنعه أكثر من صانعها .

ونحن في المنهج الدينى إذا أردنا إصلاح شيء المنهج لصانعه ؛ فهو الذى يستطيع أن يدلنا على الإصلاح الحقيقى لهذا الشيء ، فإذا لم يكن صانعه موجودا في البلدة نسبها المنهج إلى من دربه الصانع على الإصلاح ، أو إلى مايسمونه «الكتالوج»

الذى بين لنا طريق الإصلاح، وبدون هذا لا نصلح، بل نفسد، والعجيب أننا نتبع هذه الطريقة في حياتنا الدنيوية، ثم نأتى إلى الإنسان والكون، فبدلاً من أن نتجه إلى صانعه وخالفه لتأخذ عنه منهج الإصلاح، وهو أدرى بصنعه، نتجه إلى خلق الله يضعون لنا المناهج التى نفسد، وظاهرها الإصلاح لكنها تزيد الأمور سوءا

والغريب أننا نسمى هذا فلاحا، ونسميه تقدما . ولكن لماذا لا نتجه الى الصانع أو الخالق، الذى أوجد وخلق؟ هو سبحانه وتعالى أدرى بخلقه وبما يصلحهم وما يفسدهم .

ومادام الحق سبحانه وتعالى، قد حكم على المتنافقين، بأنهم هم المفسدون فذلك حكم يقينى ، وكل من يحاول أن يغير من منهج الله ، أو يعطل تطبيقه بحجة الإصلاح، فهو مفسد وإن كان لا يشعر بذلك، لأنه لو أراد إصلاحاً لآتجه الى ما يصلح الكون، وهو المنهج السماوى الذى أنزله خالق هذا الكون وصانعه، وهذا المنهج موجود ومُبلَّغ ولا يخفى على احد.



﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ
السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾

والسفهاء في قصد المنافقين هم الفقراء، ولكن ما معنى السفه في اللغة: السفه معناه الطيش والحمق والخفة في تناول الأمور، فهل تنطبق صفة السفه على المؤمنين، نذيين آمنوا بالله، أو أنها تنطبق على أولئك الذين لم يؤمنوا بالله ؟ إذا كنتم تعتقدون أن الذين آمنوا هم السفهاء فلماذا تدعون الإيمان كذبا، لنكونوا سفهاء؟ لاشك أن هناك تناقضا موجوداً في كل تصرفات المنافقين.

فالرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم للإيمان، والمسلمون يدعونهم للإيمان، ولكنهم يصفون الذين آمنوا بأنهم سفهاء أي فقراء لا يملكون شيئا، لأن سادة قریش لم يؤمنوا. . وهم يدعون أن الذين آمنوا، تصرفوا تصرفا أحمق، طائشا، ولكن الغفلة هي المرض الذي يملأ قلوبهم لايجعلهم يتنبهون إلى حقيقة مهمة، وهي أنهم يتظاهرون بالإيمان، ويدعون الإيمان ثم يصفون المؤمنين بالسفهاء، إذا كان هؤلاء سفهاء كما تدعون. فهل تتظاهرون بالإيمان لتصبحوا سفهاء مثلهم !؟

إن المنطق لا يستقيم ويدل على سفاهة عقول المنافقين، أن هذه العقول. لم تنبه إلى أنها حينها وصفت المسلمين بالسفهاء، قد أدانت نفسها، لأن المنافقين يدعون أنهم مؤمنون، إذن فكل تصرفات المنافقين فيها تناقض. تناقض مع العقل والمنطق، هذا التناقض يأتي من تناقض ملكات النفس بعضها مع بعض. . فاللسان يكذب القلب. والعمل يكذب العقيدة. والتظاهر بالإيمان يحملهم مشقة الإيمان ولا يعطيهم شيئا من ثوابه. ولو كان لهم عقول، لنتبهوا إلى هذا كله، ولكنهم لا يشعرون وهم يمشون في هذا الطريق، طريق النفاق، إنهم يجسدون السفاهة بعينها، بكل ما تحمله من حق واستخفاف، وعدم التنبيه إلى الحقيقة، والرعونة التي يتصرفون بها، والله سبحانه وتعالى حين وصفهم بالسفهاء، كان وصفا دقيقا، لحالتهم وطريقة حياتهم.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٤﴾﴾

وهكذا يرينا الحق سبحانه، أن كل منافق له أكثر من حياة يحرص عليها، والحياة لكي تستقيم يجب أن تكون حياة واحدة منسجمة بعضها مع بعض، ولكن انظر الى هؤلاء... مع المؤمنين يقولون آمنا، ويتخذون حياة الايمان ظاهرا، اى انهم يمثلون حياة الايمان، كما يقوم الممثل على المسرح بتمثيل دور شخصية غير شخصيته تماما. حياتهم كلها افتعال وتناقض، فإذا بعدوا عن الذين آمنوا، يقول الحق تبارك وتعالى: «وإذا خلوا الى شياطينهم».

وانظر الى دقة الأداء القرآن، الشيطان هو الدس الخفى، الحق ظاهر وواضح، اما منهج الشيطان وتأمرة فيحدث في الخفاء لأنه باطل والنفس لا تتجمل من حق أبدا، ولكنها تخشى وتحاف وتحاول أن تخفى الباطل.

ولنضرب لذلك مثلا بسيطا، رجل يجلس مع زوجته في منزله، وطرق الباب طارق، ماذا يحدث؟ يقوم الرجل بكل اطمئنان، ويفتح الباب ليرى من الطارق، فإن وجده صديقا أو قريبا أكرمه ورحب به وأصر على أن يدخل ليضيفه. وتقوم الزوجة بإعداد الطعام أو الشراب الذى سيقدم للضيف، تأخذ هذه الحالة نفسها إذا كان الانسان مع زوجة غيره في شفته وطرق الباب طارق، يحدث ارتباك عنيف، ويبحث الرجل عن مكان يخفى فيه المرأة التى معه، أو يبحث عن باب خفى ليخرجها منه، أو يحاول أن يطفىء الأنوار ويمنع الاصوات لعل الطارق يحس أنه لا يوجد أحد في المكان فينصرف، وقبل أن يخرج تلك المرأة المحرمة عليه، فإنه يفتح الباب بحرص، وينظر يمينا ويسارا ليتأكد هل يراه احد، وعندما لا يجد احدا يسرع بدفع المرأة الى الخارج، لانها لثم يربد أن يتخلص منه، وإذا نزل ليوصلها يمشى بعيدا عنها، ويظل يرقب الطريق، ليتأكد من أن احدا لم يره، وعندما يركبان السيارة ينطلقان بأقصى سرعة.

هذا هو الفرق بين منهج الايمان، ومنهج الشيطان، الحادثة واحدة، ولكن الذي اختلف هو الحلال والحرام. انظر كيف يتصرف الناس في الحلال . . في النور . . في الامان، وكيف يتصرفون في الحرام ومنهج الشيطان في الظلام وفي الخفية ويحرصون على الا يراه أحد، ومن هنا تأتي دقة التعبير القرآني . . «واذا خلوا إلى شياطينهم» .

إن منهج الشيطان يحتاج إلى خلوة، إلى مكان لا يراك فيه أحد، ولا يسمعك فيه أحد، لأن العلن في منهج الشيطان يكون فضيحة، ولذلك نحمد غير المستقيم يحاول جاهدا أن يستر حركته في عدم الاستقامة، ومحاولة أن يستر هي شهادة منه بأن ما يفعله جريمة وقبح، ولا يصح أن يعلمه أحد عنه، ومادام لا يصح أن يراه أحد في مكان ما، فاعلم أنه يحس أن ما يفعله في هذا المكان هو من عمل الشيطان الذي لا يقره الله، ولا يرضى عنه .

ولابد أن تعلم أن القيم، هي القيم، حتى عند المنحرف، وقوله تعالى: «واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، معناها أنهم عندما يتظاهرون بالايمن يأخذون جانب العلن، بل ربما افتعلوه، وكان المفروض أن يكون المقابل عندما يخلون إلى شياطينهم أن يقولوا: لم نؤمن.

وهناك في اللغة جملة اسمية وجملة فعلية، الجملة الفعلية، تدل على التجدد، والجملة الاسمية تدل على الثبوت، فلما نقول مع المؤمنين يقولون آمنا، ايمانهم غير ثابت، متذبذب، وعندما يلقون الكافرين، لو قالوا لم نؤمن، لأخذت صفة الثبات، ولكنهم في الفترة بين لقائهم بالمؤمنين، ولقائهم بالكافرين، الكفر متجدد، لذلك قالوا: «إنا معكم إنما نحن مستهزئون» .



﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ١٥

ان هؤلاء المنافقين قوم لا حول لهم ولا قوة ، ولكن الله سبحانه وتعالى ، وهو القادر القوى حينما يستهزئ بهم يكون الاستهزاء ألياً ، وإذا كان المناق ، قد أظهر بلسانه ما ليس في قلبه ، فإن الله سبحانه وتعالى يعامله بمثل فعله ، فإذا كان له ظاهراً وباطناً ، يعامله في ظاهر الدنيا ، معاملة المسلمين ، وفي الآخرة يوم تبلى السرائر يجعله في الدرك الأسفل من النار ، لا يسويه بالكافر لأن ذنب المنافق أشد .

والله يستهزئ بهم ، والاستهزاء هو السخرية ، فهم يأتون يوم القيامة محاولين أن يتمسكوا بالظاهر ، فيظهر الله سبحانه وتعالى لهم باطنهم . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَيَلِكُلِيْ هَمْزَةً لِّهْمَزَةٍ ١٦ ﴾

(سورة الهمة)

والهمزة هو الذي يسخر من الناس ولو بالإشارة ..

يرى انساناً مصاباً بعاقة في قدمه ، يمشي وهو يعرج فيحاول ان يقلده بطريقة تثير السخرية ، اما بالإشارة وإما بالكلام ، وهناك همز وهمزة .. الهمز الاستهزاء والسخرية من الناس ، علامة عدم الايمان ، لاننا كلنا مخلوقون من إله واحد ، فهذه الصفة التي سخرت فيها من انسان اعرج مثلاً ، لا عمل له فيها ، ولا حول له ولا قوة .. والانسان لم يصنع نفسه ، والحقيقة أنك تسخر من صنع الله ، والذي يسخر من خلق الله انسان غيبي لانه سخر من خلق الله في عيب ، ولم يقدر ما تفضل الله به عليه ، كما انه سخر من عيب ولم يفتن الى ان الحق سبحانه وتعالى قد اعطى ذلك

الانسان خصالا ومميزات ربما لم يعطها له، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿يَتْلُو آيَاتِنَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجر)

ان مجموع كل انسان، يساوى مجموع كل انسان آخر، وذلك هو عدل الله، فإذا كنت احسن من انسان في شيء فابحث عن النقص فيك. فإن استهزأت بمؤمن في شيء، فلاستهزاء غير مفصول عن صنعة الله، إذن فمن المنطق عندما قالوا: «والما نحن مستهزون» أن يرد الله عليهم «الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون» أى يزيدهم في هذا الطغيان، لأن المده هو أن تزيد الشيء، ولكن مرة تزيد في الشيء من ذاته، ومرة تزيد عليه من غيره، قد نأتى بخيط ونفرده إلى آخره، وقد نصله بخيط آخر، فتكون مددته من غيره، فالله يزيدهم في طغيانهم.

وقوله تعالى «يعمهون» العمه يختلف عن العمى، والخلاف في الحرف الآخر، العمى عمى البصر، والعمه عمى البصيرة، ويعمهون أى يتخبطون، لأن العمه ينشأ عنه التخبط سواء التخبط الحسى، من عمى البصر، او التخبط فى القيم ومنهج الحياة من عمى البصيرة. والله تعالى يقول: «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور» فكأنما العمى المادى، قد لا يكون، ولكن يكون هناك عمى البصيرة، وافرأ قوله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ لِحَاشَتِي أَتَمِنُّ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١١﴾﴾

(سورة طه)

فكان عمى البصيرة فى الدنيا، يعنى بصر الانسان، عن رؤية آيات الله فى كونه، ويعميه عن الايمان والمنهج ..

فقوله تعالى وفيما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، يدل على أنهم خسروا كل شيء لانهم لم يربحوا، فكأنهم لم يحققوا شيئاً له فائدة، وخسروا الهدى، أى خسروا الربح ورأس المال. ما ربحت تجارتهم ربما يكونون لم يكسبوا ولم يخسروا، ولكن هم قدموا الهدى ثمناً للضلال فلم يربحوا وضاع منهم الهدى، أى رأس مالهم..

ونفسه المتأفق إذا اردت ان تحدد لها، فهو انسان بلا كرامة، بلا رجولة لا يستطيع المواجهة، بلا قوة، يحاول ان يكثر في الخفاء، ولذلك تكون صورته حقيرة أمام نفسه، حتى لو استطاع ان يخفى عيوبه عن الناس، فيكفى انه كاذب أمام نفسه لتكون صورته حقيرة أمام نفسه، وفي ذلك يقول الشاعر :

إذا أنا لم أت الدنية خيبة

من الناس كان الناس اكرم من نفسى

كفى المرء عاراً ان يرى عيب نفسه

وان كان فى كُنْ عن الجن والانس

فالهم رأيك فى نفسك.. والتمزق الذى عند المتأفق انه يريد ان يخفى عيوبه عن الناس.



﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
ذَهَبَ اللَّهُ سُبُورَهُمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ (١٧)

يريد الحق سبحانه وتعالى ان يقرب صفات التمزق في المنافقين الى فهمنا، ولذلك فهو يضرب لنا الامثال، والامثال جمع مثل وهو الشبه الذي يقرب لنا المعنى ويعطينا الحكمة، والامثال باب من الابواب العريقة في الادب العربي.

فالمثل أن تأتي بالشيء الذي حدث وقيل فيه قولة موجزة ومعبرة، رأى الناس أن يأخذوا هذه المقولة لكل حالة مشابهة.

ولنضرب مثلاً لذلك، ملك من الملوك، اراد ان يجتلب فتاة من فتيات العرب، فأرسل خاتبة اسمها عصام لترى هذه العروس وتسأل عنها وتحفره، فلما عادت قال لها ماوراءك يا عصام ؟ اي بماذا جئت من اخبار، قالت: له ابدى المخض عن الزيد. المخض هو ان تأتي باللين الحليب وتخضه في القربة حتى يتفصل الزيد عن اللين، فصار الاثنان - السؤال والجواب - يضربان مثلاً. تأتي لمن يجيبك تنتظر منه اخباراً فتقول له: ماوراءك يا عصام.

ولا يكون اسمه «عصام» . . ولم ترسله لاستطلاع اخبار، بينما تريد ان تسمع ماعنده من اخبار.

وحينما تريد مثلاً . . أن تصور تنافر القلوب . . وكيف أنها اذا تنافرت لا تلتصم أبداً . . ويريد الشاعر أن يقرب هذا المعنى فيقول:

ان القلوب اذا تنافرت وهما

مثل الزجاجة كرهها لا يشعب (أي لا يجبر)

وساعة تنكسر الزجاجة لا تستطيع اصلاحها .. ولكن يسهل هذا المعنى عليك وتفهمه في سر وسهولة .. فانك لا تستطيع أن تصور أو تشاهد معركة بين قوتين .. لأن هذه مسألة غيبية .. فتأت بشيء مشاهد وتضرب به المثل .. وبذلك يكون المعنى قد قرب .. لأنك شبهته بشيء محسوس .. تستطيع أن تفهمه وتشاهده ..

ولقد استخدم الله سبحانه وتعالى الأمثال في القرآن الكريم في أكثر من موضع .. ليقرب من أذهاننا معنى الغيبيات التي لا نعرفها ولا نشاهدها .. ولذلك ضرب لنا الأمثال في قمة الإيمان .. وحدانية الله سبحانه وتعالى .. وضرب لنا المثل بنوره جل جلاله .. الذي لا نشهده وهو غيب عنا .. وضرب لنا الأمثال بالنسبة للكفار والمتأفكين .. لنعرف فساد عقيدتهم وتنبيهنا لها .. وضرب لنا الأمثال فيما يمكن أن يفعله الكفر بالنعمة .. والطغيان في الحق .. وغير ذلك من الأمثال .. قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝١٦٦﴾

(سورة الاسراء)

وقد ضرب الله جل جلاله لنا الأمثال في الدنيا وفي الآخرة ، وفي دقة الخلق .. وقعة الإيمان .. ومع ذلك فإن الناس منصرفون عن حكمة هذه الأمثال .. كافرون بها .. مع أن الحق تبارك وتعالى .. ضربها لنا لتقرب لنا المعنى .. تشبيها بماديات نراها في حياتنا الدنيا .. وكان المقروض أن تزيد هذه الأمثال الناس إيماناً .. لأنها تقرب لهم معاني غائبة عنهم .. ولكنهم بدلا من ذلك ازدادوا كفرا !!

ولابد قبل أن نتعرض لثلاثة الكريمة : « مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون » .. أن نتحدث عن بعض الأمثال التي ضربت في القرآن الكريم .. لترى كيف أن الله سبحانه وتعالى حدثنا عن قضايا غيبية بمحسبات دنيوية :

ضرب الله تبارك وتعالى لنا مثلا بالقمة الايمانية .. وهي انه لا إله إلا الله .. وكيف أن هذه رحمة من الله سبحانه وتعالى .. يجب أن نسجد له شكرا عليها .. لأن فيها وقاية لنا من شقاء .. ومع ذلك فإن الله تبارك وتعالى يريد بعباده الرحمة ،

ولكن بعض الناس يريد أن يشقى نفسه فيشرك بالله جل جلاله .. وبدلاً من أن يأخذ طريق الإيمان الميسر .. يأخذ طريق الكفر والنفاق والشرك بالله الذى يملك كل شيء فى الدنيا والآخرة .. يقول الحق جل جلاله :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ۖ وَرَجُلًا سَلَبًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الزمر)

هذه الصورة المحسة التى نراها .. ولا يختلف فيها اثنان .. يريد الله تبارك وتعالى أن يقرب الى اذهانتنا صورة العابد لله وحده ، وصورة المشرك بالله .. ويعطينا المثل فى عيد مملوك لشركاء .. رجل مملوك لعشرة مثلاً .. وأيس هؤلاء الشركاء العشرة متفقين .. بل هم متشاكسون أى أنهم مختلفون .. ورجل آخر مملوك لسيد واحد .. أيها يكون مستريحاً يعيش فى رحمة ؟ .. طبعاً المملوك لسيد واحد فى نعمة ورحمة .. لأنه يتبع أمراً واحداً ونهياً واحداً .. ويطيع رباً واحداً .. ويطلب رضا سيد واحد .. أما ذلك الذى يملكه شركاء حتى لو كانوا متفقين .. فسيكون لكل واحد منهم أمر ونهى .. ولكل واحد منهم طلب .. فما بالك اذا كانوا مختلفين ؟ أحد الشركاء يقول له تعالى .. والآخر يقول له لا تأت ، وأحد الشركاء يأمره بأمر ، والآخر يأمره بأمر مناقض .. ويختار أيهما يرضى وأيها يغبى ؟ .. وهكذا تكون حياته شقاءً وتناقضاً ..

إن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقرب لنا الصورة .. فى قضية هى قمة اليقين .. وهى الإيمان بالواحد الأحد .. يريدها أن تلمس هذه الصورة .. يمثل نراه ونشاهده .. وأن نرى فيض الله برحمته على عباده .. ومضى الحق سبحانه ليلفتنا إلى أن نفكر قليلاً فى مثل يضربه لنا فى القرآن الكريم :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكُرُ لَا يَقْنِزُ عَلَىٰ عَيْنٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة النحل)

فالحق تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة .. يطلب منا أن نفكر في مثل مادي محسوس .. أيها خير؟ .. أذلك الصنم الذي يعبد الكفار وهو لا يأتي لهم بخير أبداً .. لأنه لا يستطيع أن ينفع نفسه فكيف يأتي بالخير لغيره .. بل هو عبء على من يتخذونه لها .. فإنهم يجب أن يضعوه وأن يعملوه من مكان إلى آخر إذا أرادوا تغيير المعبود أو الرحيل .. وإذا سقط فتهدمت أجزأه منه .. فإنه يجب أن يصلحوها ..

اذن فزيادة على انه لا يأتي لهم بخير .. فإنه عبء عليهم يكلفهم مشقة .. ويحتاج منهم الى عناية ورعاية ..

أعبادة مثل هذا الصنم خير؟ أم عبادة الله سبحانه الذي منه كل الخير وكل النعم .. والذي يأمر بالعدل .. فلا يفضل أحداً من عباده على أحد .. والذي يعطى لعباده الصراط المستقيم .. الذي لا أعوجاج فيه .. والموصل الى الجنة في الآخرة .. ان الله سبحانه وتعالى يشرح بهذا المثل غباء فكر المشركين الذين يعبدون الأصنام ويتركون عبادة الله تبارك وتعالى ..

وهكذا يعطينا هذان المثالان توضيحاً لقضية الوحدانية والالوهية .. ثم يأتي الله سبحانه وتعالى بمثل آخر .. يضرب لنا مثلاً لنوره .. هذا النور الإلهي الذي يضيء الدنيا والآخرة .. فيضيء القلوب المؤمنة .. إنه يريد أن يضرب لنا مثلاً هذا النور بشئ مادي محسوس .. فيقول جل جلاله :

﴿ أَنَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ مِثْلُ نُورِهِ ۖ كَمِثْلَةِ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۚ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَسْكَدُ زَيْتُهَا ضَوْئُهُ ۖ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ لَّنُورَ ۚ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ ۖ مَنْ نَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۖ وَاللَّهُ يَكُلِّمُ مَن يَشَاءُ ۖ عَزِيزٌ ۝۶۴ ﴾

كان الله سبحانه وتعالى .. يريدنا أن نعرف بنشبهه عرس .. أن مثل نوره
كمشكاة .. والمشكاة هي (الطاقة) .. وهي فجوة في الحائط بالبيت الرفي ..
ونحن نضع المصباح في هذه الطاقة .. اذن المصباح ليس في الحجرة كلها .. ولكن
نوره مركز في هذه الطاقة فيكون قويا في هذا الحيز الضيق .. ولكن المصباح في
زجاجة .. نحفظه من الهواء من كل جانب .. فيكون الضوء أقوى .. صافيا
لا دخان فيه .. كما أن الزجاج يعكس الأشعة فيزيد تركيزه .. والزجاجة غير عادية
ولكنها : « كوكب دري » .. أي هي مضئ بذاتها وكأنها كوكب .. ووقودها من
شجرة مباركة يملؤها النور لا شرقية ولا غربية .. أي يملؤها النور من الوسط ويخرج
صافيا .. والزيت مضئ بذاته دون أن تحس النار .. فهي نور على نور .. أليكون
جزء من هذه المشكاة ذات المساحة الصغيرة مظلما ؟ .. أم تكون كلها ملينة بالنور
القوي ؟

وهذا ليس نور الله تبارك وتعالى عن التشبيه والوصف ، ولكنه مثل فقط للتقريب
إلى الأذهان .. فكان نور الله يضيء كل ركن وكل بقعة : .. ولا يترك مكانا مظلما ..
فهو نور على نور ..

ولقد أراد أحد الشعراء^(١) أن يمدح الخليفة^(٢) وكانت العادة أن يشبه الخليفة ..
بالأشخاص البارزين ذوي الصفات الحسنة .. فقال :

إستدّام عمرو .. في ساحة حاتم .
في حلم أحلف في ذكاء إياس

وكل هؤلاء الذين ضرب بهم الشاعر المثل كانوا مشهورين بهذه الصفات ..
فعمر كان مشهورا بالاقدام والشجاعة .. وحاتم كان مشهورا بالساحة .. وأحلف
يضرب به المثل في الحلم .. وإياس شعلة في الذكاء .. وهنا قام أحد الحاضرين^(٣)
وقال : الأمير أكبر في كل شيء من شبهته بهم .. فقال أبوتمام على الفور :
لا تنكروا ضربي له من دونه
مثلا شروفا في الندى والباس

(٢) هو يعقوب بن اسحاق الكندي .

(١) هو أبو تمام

(٢) هو احمد بن المتصم

قَالَهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلُ لِنُصُورِهِ

مثلا من المشكاة والنبراس^(١)

فأعجب أحد بن المعتصم والحاضرون من ذكائه وأمر بأن تضاعف جائزته .
والله سبحانه وتعالى . . يضرب لنا المثل بما يشهده المؤمنون في الجنة . . فيقول
جل جلاله :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ
طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ تَعَمُّرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾

(من الآية ١٥ سورة محمد)

هذه ليست الجنة . . ولكن هذا مثل يقرب الله سبحانه وتعالى لنا به الصورة
بأشياء موجودة في حياتنا . . لأنه لا يمكن لعقول البشر أن تستوعب أكثر من هذا . .
والجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . . ومن هنا فإنه
لا توجد اسماء في الحياة تعبر عما في الجنة . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُتِيَتْهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٧ ﴾

(سورة السجدة)

فإذا كانت النفس لا تعلم . . فلا توجد ألفاظ تعبر عما يوجد في الجنة . . والمثل
معي شاع استعماله بين الناس سمي مثلا . . فأنت اذا رأيت شخصا مغترا بقوة . .
وتريد ان تفهمه أنك أقوى منه تقول له . . إن كنت ربحا فقد لاقيت إعصارا . .
ولا توجد ربح ولا إعصار فيما يحدث بينكما . . وإنما المراد المعنى دون التنفيذ بمداول
الألفاظ .

فالخلق سبحانه وتعالى . . يريد أن يعطينا صورة . . عما في داخل قلوب
المنافقين . . من اضطراب وذبذبة وتردد في استقبال منيح الله . . وفي الوقت نفسه

(١) من ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي .

ما يجرى في القلوب غيب عنا .. وأراد الله أن يقرب هذا المعنى إلينا .. فقال :
« مثلهم كمثل الذي استوقد نارا » .. أى حاول أن يوقد نارا .. والذي يحاول أن
يوقد نارا .. لا بد أن له هدفا .. والهدف قد يكون الدفء وقد يكون الطهي ..
وقد يكون الضوء وقد يكون غير ذلك .. المهم أن يكون هناك هدف لا يقاد النار ..

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في
ظلمات لا يبصرون » .. ذلك انهم في الخيرة التي تملأ قلوبهم .. كانوا قد سمعوا من
اليهود أن زمن نبي جديد قد أتى .. فقرروا أن يؤمنوا به .. ولكن إيمانهم لم يكن عن
رغبة في الايمان .. ولكنه كان عن محاولة للحصول على أمان دنيوي .. لأن اليهود
كانوا يتوعدونهم ويقولون أن زمن نبي سنؤمن به ونقتلكم به قتل عاد وإرم .. فأراد
هؤلاء المنافقون أن يتفوا هذا القتل الذي يتوعدهم به اليهود .. فتصوروا أنهم اذا
أعلنوا أنهم آمنوا بهذا النبي نفاقا أن يحصلوا على الأمان ..

إن الحق سبحانه وتعالى يعطينا هذه الصورة .. انهم أوقدوا هذه النار ..
لتعطيلهم نورا يريهم طريق الايمان .. وعندما جاء هذا النور بدلا من أن يأخذوا نور
الايمان انصرفوا عنه .. وعندما حدث ذلك ذهب الله بنورهم .. فلم يبق في قلوبهم
شيء من نور الايمان .. فهم الذين طلبوا نور الايمان أولا .. فلما استجاب الله لهم
انصرفوا عنه .. فكان الفساد في ذاتهم .. وكانهم هم الذين بدأوا بالفساد ..
وساعة فعلوا ذلك ذهب الله بنور الايمان من قلوبهم .

ونلاحظ هنا دقة التعبير القرآني .. في قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » ولم يقل
ذهب الله بضوئهم .. مع أنهم أوقدوا النار ليحصلوا على الضوء .. فما هو الفرق
بين الضوء والنور ؟ .. اذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

نجد أن الضوء أقوى من النور .. والضوء لا يأتي إلا من اشعاع ذاتي ..
فالشمس ذاتية الإضاءة .. ولكن القمر يستقبل الضوء ويعكس النور .. وقبل أن

تشرق الشمس تحيد في الكون نورا .. ولكن الضوء يأتي بعد شروق الشمس .. فلو أن الحق تبارك وتعالى قال ذهب الله بضوئهم .. لكان المعنى أنه سبحانه ذهب بما يعكس النور .. ولكنه أبقى لهم النور .. ولكن قوله تعالى : « ذهب الله بنورهم » .. معناها أنه لم يبق لهم ضوء ولا نورا .. فكان قلوبهم يملؤها الظلام .. ولذلك قال الله بعدها : « وتركهم في ظلمات لا يبصرون » .. لتعلم أنه لا يوجد في قلوبهم أى نور ولا ضوء إيمان .. كل هذا حدث بظلمهم هم وانصرافهم عن نور الله ..

وتلاحظ هنا أن الحق سبحانه وتعالى .. لم يقل وتركهم في ظلام .. بل قال : « في ظلمات » .. أى أنها ظلمات متراكمة .. ظلمات مركبة لا يستطيعون الخروج منها أبدا ..

من أين جاءت هذه الظلمات ؟ .. جاءت لأنهم طلبوا الدنيا ولم يطلبوا الآخرة .. وعندما جاءهم نور الإيمان انصرفوا عنه فصرف الله قلوبهم ..

مثلا إذا أخذنا قصة زعيم المنافقين عبدالله بن أبي ، نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المدينة واهلها يستعدون لتبويج عبدالله بن أبي ملكا عليها .. وعندما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف الناس عن عبدالله بن أبي الى استقبال الرسول عليه الصلاة والسلام .. فوصول الرسول عليه الصلاة والسلام ضيع على عبدالله بن أبي الملك .. ولقد كان من الممكن أن يؤمن .. وأن يلتصق النور من رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولو آمن حينئذ ربما أعطى في الآخرة ملكا دائما .. يفوق الملك الذى كان سيحصل عليه في الدنيا .. ولكن لأن في قلبه الدنيا وليس الدين .. ولأنه يريد رفعة في الدنيا .. ولا يريد جنة في الآخرة ، فقد ملأ الحقد قلبه فكان ظلمة .. وملأ الحسد قلبه فكان ظلمة .. وملأت الحسرة قلبه فكانت ظلمة .. وملأت الكراهية والبغضاء قلبه فكانت ظلمة .. إذن هي ظلمات متعددة ..

وهكذا في قلب كل منافق ظلمات متعددة .. ظلمة الحقد على المؤمنين وظلمة الكراهية لهم .. وظلمة تحق هزيمة الإيمان .. وظلمة تحق أن يصيهم سوء وشر .. وظلمة التمزق والألم من الجهد الذى يبذله للتظاهر بالإيمان وفي قلوبهم الكفر .. كل

هذه ظلمات .. ولكن لا تحاول ان تأخذها بمقاييس عقلك .. والمفروض أن المثل هنا لتقريب المعنى .. لأنك اذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآيَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ١٧٣ ﴾

(سورة الاسراء)

كيف يكون الحجاب مستورا ؟ .. مع أن الحجاب هو الساتر الذي يستر شيئا عن شيء .. ولكن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم .. انه برغم أن الحجاب يستر شيئا عن شيء ، فإن الحجاب نفسه مستور لا نراه .. وبعض العلماء يقولون : إن مستورا اسم مفعول .. وهو في معنى اسم الفاعل ساتر .. نقول لا .. وقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّهُمْ كَانَ وَعْدُهُمْ مُّآثٍ ١٧٤ ﴾

(سورة مريم)

مآثيا اسم مفعول واسم الفاعل أي .. ويقول البعض وضع اسم المفعول مكان اسم الفاعل .. نقول انك لم تفهم .. هل وعد الله يلح في طلب العبد .. أم أن العبد يلح في طلبه بعمله فكانه ذاهب إليه .. والموعود هو المستفيد وليس الوعد ..

اذن من دقة القرآن الكريم .. انه يريد أن يبيننا إلى ان الموعود هو الذي يسعى للقاء الوعد .. وليس الوعد هو الذي يطلب لقاء الموعود فيستخدم اسم الفاعل .. فحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « وتركهم في ظلمات لا يبصرون » .. نفى النور عنهم .. والنور لا علاقة له بالسمع ولا بالشم ولا باللمس .. ولكنه قانون البصر ..

وانظر الى دقة التعبير القرآن .. اذا امتنع النور امتنع البصر .. أي ان العين لا تبصر بذاتها .. ولكنها تبصر بانعكاس النور على الأشياء ثم انعكاسه على العين ..

واقراً قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ ۖ فَحَوْنًا آيَةً ۖ وَاللَّيْلَ وَجَعَلْنَا آيَةً أَنشَارِ مَيِّمَةٍ ۖ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الامراء)

فكان الذى يجعل العين تبصر هو الضوء أو النور . . فإذا ضاع النور ضاع الابصار . . ولذلك فانت لا تبصر الاشياء فى الظلام . . وهذه معجزة قرآنية اكتشفها العلم بعد نزول القرآن .



﴿صُمْ بِكُمْ عَنِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿

فالحق سبحانه وتعالى .. بعد أن أخبرنا أنه يظلم هؤلاء المنافقين لأنفسهم ..
ذهب بنور الايمان من قلوبهم فهم لا يبصرون آيات الله .. أراد أن يلفتنا الى أنه
ليس البصر وحده هو الذي ذهب .. ولكن كل حواسهم تعطلت .. فالسمع تعطل
فهم صم .. والنطق تعطل فهم بكم .. والبصر تعطل فهم عمى .. وهذه هي
الات الاذراك في الانسان .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَاللَّهُ أَتَجْرَمُ مِنْ ظُلْمٍ أَهْمَتِكَ لَا تَتْلُونَ شَيْعًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٧٨﴾﴾

(سورة التحمل)

إِذْنُ كِبَرِهِمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ مَعْنَاهَا أَنَّهُ قَدْ تَعَطَّلَتْ وَسَائِلُ الْإِدْرَاكِ الْأُخْرَى ، فَذَاهِبَتْ صِفَتُهَا فَهِيَ لَا تَسْمَعُ مَنَاجِزَ الْحَقِّ ، وَكَاسَتْهُمْ تَعَطُّلٌ عَنْ نَقْلِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ لِأَتَرَى آيَاتَ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ إِذْنُ قَالَتْ إِدْرَاكُهُمْ لِهَدْيِ اللَّهِ مَعْطَلَةٌ عَنْهُمْ ..

وقوله تعالى : « فهم لا يرجعون » .. أى لن تعود إليهم هذه الوسائل ليدركوا نور الله فى كونه .. الإدراك غير موجود عندهم .. ولذلك فلا تطمعوا أن يرجعوا إلى منيح الإيمان أبداً .. لقد فسدت فى قلوبهم العقيدة .. فلم يفرقوا بين خير عاجل وما هو نفع أجل .. نور الهداية كان سيجعلهم يصرون الطريق إلى الله .. حتى يسبوا على بيته ولا يتعشوا .. ولكنهم حينما جاءهم النور وقصوه وانصرفوا عنه .. فكأنهم انصرفوا عن كل ما يهديهم إلى طريق الله !!.

فأله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة . . أعطانا وصفا آخر من صفات المنافقين هو أن أدوات الإدراك التي خلقها الله جل جلاله معطلة عندهم . . ولذلك فإن الأصرار على هدايتهم وبذل الجهد معهم لن يأتي بنتيجة . . لأن الله تبارك وتعالى بنفاقهم وظلمهم عطل وسائل الهداية التي كان من الممكن أن يعودوا بها إلى طريق الحق .



﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبُقُوعٌ يَجْعَلُونَ
أَصْنِعُهُمْ فِيْءَ أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ
بِالْكَافِرِينَ ۝ ١٩ ﴾

وقول الحق سبحانه وتعالى : « أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ » .. الصَّيْبُ هو المطر ..
والله تبارك وتعالى ينزل الماء فتقوم به الحياة .. مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَاءً كَثُفًا ثَقِيًّا ۝ ٢٠ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الانبياء)

ومن البدى أننا نعرف أن إنزال المطر .. هو من قدرة الله سبحانه وتعالى
وحده .. ذلك أن عملية المطر فيها خلق بحساب .. وفيها عمليات تتم كل يوم
بحساب أيضا .. وفيها عوامل لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى .. فمسألة المطر
أعدت الأرض لها حين الخلق .. فكانت ثلاثة أرباع الأرض من الماء والربع من
اليابسة .. لماذا ؟ من جُكِّمَ الله في هذا الخلق أن تكون عملية البحر سهلة
وممكنة .. ذلك أنه كلما اتسع سطح الماء يكون البحر أسهل .. وإذا ضاق السطح
تكون عملية البحر أصعب .. فإذا جثا بكوب مملوء بالماء ووضعناه في حجرة مغلقة ..
يوما .. ثم عدنا اليه نجد أن حجم الماء نقص بمقدار ستيمتر أو أقل .. فإذا أخذنا
الماء الذى في هذا الكوب وقذفناه في الحجرة .. فإنه يحتفى في فترة قصيرة ..
لماذا ؟ .. لأن سطح الماء أصبح واسعا فتمت عملية البحر بسرعة .

والله سبحانه وتعالى حين خلق الأرض .. وضع في الخلق حكمة المطر في أن
تكون مساحة الماء واسعة لتتم عملية البحر بسهولة .. وجعل أشعة الشمس هي
التي تقوم بعملية البحر من سطح الماء .. وتم ذلك بحساب دقيق .. حتى لا تنفرك
الامطار الأرض أو يحدث فيها جفاف .. ثم سخر الريح لتدفع السحاب الى حيث
يريد الله أن ينزل المطر .. وقمم الجبال الباردة ليصطدم بها السحاب فيتزل

المطر .. كل هذا بحساب دقيق في الخلق وفي كل مراحل المطر ..
وامداد الماء هو الذي به الحياة على الأرض .. فقد ضرب الله لنا به المثل كما
ضرب لنا المثل بالنار وضوئها .. فكلها أمثلة مادية لتقرب الى عقولنا ما هو غيب
عنا .. فللألم يعطينا الحياة ..

لكن هؤلاء المنافقين . لم يلتفتوا الى هذا الخير . الذي ينزل عليهم من السماء من
غير تعب او جهد منهم . بل التفتوا الى أشياء ثانوية ، كان من المفروض ان يرحبوا
بها لانها مقدمات خير لهم . فالمطر قبل أن ينزل من السماء لا بد أن يكون هناك شيء
من الظلمة في السحاب الذي يأتي بالمطر . فيجب أشعة الشمس ان كنا نهارا .
ويضيئ نور القمر والنجوم ان كنا ليلا . هذه الظلمة مقدمات الخير والماء ..
إنهم لم يلتفتوا الى الخير الذي ملأ الله به سبحانه وتعالى الأرض . بل التفتوا الى
الظلمة فنفروا من الخير .. كذلك صوت الرعد ونور البرق . الرعد يستقبله الإنسان
بالاذن وهي آلة السمع . والبرق تستقبله العين . وصوت الرعد قوى ، أقوى من
طاقة الاذن . ولذلك عندما يسمعه الإنسان يفرغ ، ويحاول ان يمنع استقبال الاذن
له ، بأن يضع أنامله في أذنيه .

وهؤلاء المنافقون لم يضعوا الأنامل . ولكن كما قال الله سبحانه وتعالى : « يجعلون
أصابعهم في آذانهم » ولم يقل أناملهم . وذلك مبالغة في تصوير تأثير الرعد عليهم .
فكانهم من خوفهم وذعرهم يحاول كل واحد منهم أن يدخل كل أصبعه في أذنه .
ليحميه من هذا الصوت المخيف . فكانهم يبالغون في خوفهم من الرعد .

ونلاحظ هنا أن الحديث ليس عن فرد واحد ، ولكن عن كثيرين .. لأنه سبحانه
وتعالى يقول « أصابعهم » نقول ان الأمر للجماعة بمعنى أمرا لكل فرد فيها ، فإذا قال
المدرس للتلاميذ أخرجوا أقلامكم ، فمعنى ذلك ان كل تلميذ يخرج قلمه .. وإذا
قال رئيس الجماعة اركبوا سياراتكم ، فمعنى ذلك أن كل واحد يركب سيارته ..
لذلك فإن معنى « يجعلون أصابعهم في آذانهم » ان كل واحد منهم يضع أصبعه في
أذنيه ..

لماذا يفعلون ذلك ؟! انهم يفعلونه خوفا من الموت . لان الرعد والبرق يصاحبهما
الصواعق أحيانا ، ولذلك فإنهم من مبالغتهم في الخوف يحس كل واحد منهم ان

صاعقة تقتله .. فكأنهم يستقبلون نعمة الله سبحانه وتعالى بغير حقيقتها .. هم لا يرون النعمة الحقيقية في أن هذا المطر يأتيهم بعوامل استمرار الحياة . ولكنهم يأخذون الظاهر في البرق والرعد . وكذلك المنافقون .. لا يستطيع الواحد منهم أن يصبر على شهوات نفسه ونزواتها .. انه يريد ذلك العاجل ولا ينظر الى الخير الحقيقي الذي وعد الله به عباده المؤمنين في الآخرة .. وهو ينظر الى التكاليف كأنها شدة ومسألة تحمّل النفس بعض المشاق . ويغفل عن حقيقة جزاء التكاليف في الآخرة . وكيف انها ستوفر لهم النعيم الدائم .. فحما كما ينظر الانسان الى المطر على أنه ظلمة ورعد وبرق ، وينسى انه بدون هذا المطر من المستحيل ان تستمر حياته ..

هم يأخذون هذه الظواهر على أنها كل شيء . بينما هي في الحقيقة تأتي لوقت قصير وتختفي ، فهي قصيرة كالحياة الدنيا ، ووقتية . ولكن نظرهم اليها ووقتية ومادية لانهم لا يؤمنون الا بالدنيا وغفلوا عن الآخرة .. غفلوا عن ذلك الماء التي يبقى فترة طويلة ، وتنبهوا الى تلك الظواهر الوقتية التي تأتي مع المطر فخافوا منها وكان خوفهم منها يجعلهم لا يمسسون بما في المطر من خير . والمنافقون يريدون ان يأخذوا خير الاسلام دون ان يقوموا بواجبات هذا الدين !!

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى الى قضية هامة . وهي ان خوفهم من زوال متع الدنيا وتفوذها لن يفعل لهم شيئا . لان الله محيط بالكافرين .. والاحاطة معناها السيطرة التامة على الشيء بحيث لا يكون امامه وسيلة للافلات ، وقدرة الله سبحانه وتعالى محيطة بالكافرين وغير الكافرين ..
اذن عدم التفاهم للنعم الحقيقية ، وهو منح الله ، لا يعطيهم قدرة الافلات من قدرة الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة .



يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ
وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾

ان الله سبحانه وتعالى يريد ان يلفتنا الى ان البرق الذى هو وقنى وزمنه قليل . هو الذى يسترعى انتباههم . ولو آمنوا لأضاء نور الايمان والاسلام طريقهم . ولكن قلوبهم مملوءة بظلمات الكفر فلا يرون طريق النور . . والبرق يخطف ابصارهم ، أى يأخذها دون ارادتهم . فالخطف يعنى أن الذى يخطف لا ينتظر الاذن ، والذى يتم الخطف منه لا يملك القدرة على منع الخاطف . والخطف غير الغصب . فالغصب ان تأخذ الشيء برغم صاحبه .

ولكن . . ما الفرق بين الاخذ والخطف والغصب ؟ . الاخذ ان تطلب الشيء من صاحبه فيعطيه لك . او تستأذنه . اى تأخذ الشيء بإذن صاحبه . والخطف أن تأخذه دون ارادة صاحبه ودون أن يستطيع منعك

والغصب أن تأخذ الشيء رغم ارادة صاحبه باستخدام القوة أو غير ذلك بحيث يصبح عاجزا عن منعك من أخذ هذا الشيء .

ولنضرب لذلك مثلا ولله المثل الاعلى . اذا دخل طفل على عمل للمحلوى وخطف قطعة منها ، يكون صاحب المحل لاقدرته له على الخاطف لان الحدث فوق قدرات المخطوف منه ، فهو بعيد وغير متوقع للشيء ، فلا يستطيع منع الخطف . أما الغصب فهو ان يكون صاحب المحل متنبها ولكنه لا يملك القدرة على منع ما يحدث ، . إذا حاول أن يقاوم فإن الذى سيأخذ الشيء بالرغم عنه لابد أن يكون أقوى منه . أى أن قوة المُغْتَصِب ، تكون أقوى من المُغْتَصَب منه .

وقوله تعالى : « يكاد البرق يخطف ابصارهم » .

لا بد ان تنبه الى قوله تعالى « يكاد » اى يكاد او يقترب البرق من ان يخطف

أبصارهم . وليس للانسان القدرة أن يمنع هذا البرق من أن يأخذ انتباه البصر .

وقوله تعالى « كلما اضاء لهم مشوا فيه » .

أى أنهم يمشون على قدر النور الدنيوى . الذى يعطيه لهم البرق . فلا نور في قلوبهم . ولذلك اذا أظلم عليهم توقفوا ، لأنه لا نور لهم .

وقوله تعالى « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » .

يدعى بعض المستشرقين أن ذلك يتعارض مع الآية الكريمة التى نقول « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » كيف يكونون صما بكمأ عميا . . أى أن منافذ الادراك عندهم لا تعمل ، ونحن هنا نتحدث عن العمى الايمانى ، ثم يقول تبارك وتعالى « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » مع أنهم صم وبكم وعمى ؟ . .

نقول ان قول الحق سبحانه وتعالى : « صم بكم عمى » أى لا يرون آيات الله ويؤمنون الايمان ، ولا يسمعون آيات القرآن ويعقلونها . . اذن فوسائل ادراكهم للمعنويات تتعطل . ولكن وسائل ادراكهم بالنسبة للمحسوسات تبقى كما هى . فالمناقض الذى لا يؤمن بيوم القيامة ، لا يرى ذلك العذاب الذى ينتظره في الآخرة .

ولو شاء الله سبحانه وتعالى ان يذهب بسمعهم وأبصارهم . بالنسبة للأشياء المحسة . لاستطاع لأنه قادر على كل شيء ، ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأ ذلك . حتى لا يأتوا مجادلين في الآخرة ، من أنهم لو كان لهم بصر لرأوا آيات الله . ولو كان لهم سمع لتدبروا القرآن . فأبقى الله لهم أبصارهم وسماعهم . لتكون حجة عليهم ، بأن لهم بصرًا ولكنهم انصرفوا عن آيات الله الى الأشياء التى تأتئهم بفائدة عاجلة في الدنيا معها جاءت بغضب الله . وأن لهم سمعًا يسمعون به كل شيء من خبط المؤامرات على الاسلام . وضرب الايمان وغير ذلك . فاذا تليت عليهم آيات الله فانهم لا يسمعونها . وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ

عَاقِبًا

أى أنهم يسمعون ولا يعقلون ولا يدخل النور الى قلوبهم ، فكأنهم صم عن آيات الله لا يسمعونها.

والحق سبحانه وتعالى يريد ان يعطينا مثل المنافقين بأنهم لا يلتفتون الى القيم الحقيقية في الحياة . ولكنهم يأخذون ظاهرها فقط . يريدون النفع العاجل ، وظلمات قلوبهم . لا تجعلهم يرون نور الايمان . وانما يبهتهم بريق الدنيا مع أنه زائل ووفق . فيحفظ أبصارهم . ولأنه لا نور في قلوبهم ، فاذا ذهبت عنهم الدنيا ، تحيط بهم الظلمات من كل مكان لانهم لا يؤمنون بالآخرة . مع أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لذهب بسمعهم وأبصارهم ، لأنهم لا يستخدمونها الاستخدام الايمان المطلوب . والمقروض ان وسائل الادراك هذه . تزيدنا ايمانا . . ولكن هؤلاء لا يرون الامتناع الدنيا . ولا يسمعون الا وسوسة الشيطان ، فاللهمة الايمانية لوسائل الادراك توقفت ، وكان هذه الوسائل غير موجودة .



يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١١﴾

بعد أن حدثنا الله سبحانه وتعالى عن صفات المنافقين في ثلاث عشرة آية وأعطانا أوصافهم الظاهرة . وأعطانا أمثلة لما يحدث في قلوبهم كي يعرفهم المؤمنون ظاهراً وباطناً . ويحذروهم ولا يأمنوا لهم . بين لنا كيف أن المنافقين لم يكفروا بالله كراه فقط . وسبوا وجوده ، ولكن كفروا به كره . والرب عطاؤه مكفول لكل من خلق مؤمنهم وكافرهم ، فهو سبحانه وتعالى الذي استدعاهم للوجود وخلقهم . ولذلك فانه سبحانه يضمن لهم رزقهم وحياتهم :

والله سبحانه وتعالى لا يحرم خلقاً من خلقه من عطاء ربوبيته في الدنيا . فالشمس تشرق على المؤمن والكافر . والمطر ينزل على من قال لا اله الا الله ومن ستر وجوده تعالى : والاهواء يتنفس به ذلك الذي يقيم الصلاة والذي لم يركع ركعة في حياته . . والطعام يأكله الذي يحب الله والذي يكفر بنعم الله . . ذلك أن هذه عطاءات ربوبية يعطيها الله تعالى لكل خلقه في الدنيا . .

اما عطاءات الألوهية ، فهي للمؤمنين في الدنيا والآخرة .

فالله سبحانه وتعالى بلغت انتباه خلقه الى أن عطاء الربوبية من الله سبحانه وتعالى لهم يكفي ليؤمنوا بالله ويعبدوه .

والحق سبحانه وتعالى حينما يخاطب الناس في القرآن الكريم ، ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلا بد أن يكون الخطاب للناس في كل زمان ومكان . منذ نزول القرآن الكريم الى يوم القيامة .

وخطاب الله سبحانه وتعالى خاص بقضية الإيمان في القمة ، وهي الخضوع لإله واحد لا شريك له .

وقوله تعالى : « الذي خلقكم والذين من قبلكم » معناه أن من مقتضيات العبادة أن الله هو خالق الناس جميعا . وليس في قضية الخلق كما قلنا شبهة ؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يدعى أنه خلق نفسه ، أو خلق هذا الكون ، بل إن الحق سبحانه وتعالى يطلب منا أن نحترم السببية المباشرة في وجودنا ، غالب والأمر هنا سبب في وجود الإنسان . فنجد الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَآلَ تَوْبَتَيْنِ ۖ إِحْسَنًا إِنَّمَا يَلْفَنُ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُ مَا أَوْكَلَهُمْ فَلَا تَقُلْ لِّهَآ آفٌ وَلَا تَنهَرْهُمَا وَقُلْ لِّهَآ قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٧﴾

(سورة الإسراء)

وهكذا نرى أن الحق قد احترم السببية في الموجد ، مع أنه سبحانه وتعالى الموجد الذي خلق كل شيء . ولكن الله يحترم عمل الإنسان . مع أنه سبب فقط ، فلماذا هو مال الله ، يعطيه لمن يشاء . لكننا نجد الحق سبحانه وتعالى وهو يبحث على الصدقة يقول :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ۖ

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

فكانه سبحانه احترم عمل الانسان في الحصول على المال ، رغم أن المال مال الله . فقال وهو الخالق الأعظم : «من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا» وهكذا تتجل رحمة الحق بالخلق .

الله يقول : «ولعلكم تتقون» نفى ماذا ؟ نفى صفات الجلال في الله . فإلهه سبحانه وتعالى له صفات جلال وصفات جمال ، صفات الجلال هي «الجبار والقهار

والشكبر والقوى والفاقر والمقتدر والضار وغيرها من صفات الجلال .

فأله سبحانه وتعالى يريدنا أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال وقاية حتى لانغضب الله ، فيعاملنا بمتعلقات صفات جلاله ، وأن نتمسك بصفات جمال الله : الرحيم الوودود ، الغفار ، التواب ، فإذا نجحنا في ذلك كان لنا نجاة من النار التي هي أحد جنود الله ، ومتعلقات جلاله :

على أننا لا بد أن ننتبه الى أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول «يا أيها الناس» إنما يخاطب كل الناس ، فإذا أراد الحق سبحانه وتعالى مخاطبة المؤمنين قال : «يا أيها الذين آمنوا أي يا أيها الذين آمنتم بالله إلهًا ، ودخلتم معه في عقد إيمان .



﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا
تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٢٢

فبعد أن بين لنا الحق سبحانه وتعالى أن عطاء ربوبيته الذي يعطيه خلقه جميعا ،
المؤمن والكافر ، كان يكفي لكي يؤمن الناس ، كل الناس . . أخذ بين لنا آيات
من عطاء الربوبية . وبلغنا اليها لعل من لم يؤمن عندما يقرأ هذه الآيات يدخل
الايمان في قلبه . 'فبلغنا الله سبحانه وتعالى الى خلق الأرض في قوله تعالى :
والذي جعل لكم الأرض فراشا

والأرض هي المكان الذي يعيش فيه الناس ولايستطيع احد ان يدعى أنه خلق
الأرض أو أوجدها . اذن فهي آية ربوبية لاحتياج لكي نتنبه اليها الى جهد عقلي .
لأنها بديهيات محسومة لله سبحانه وتعالى . وقوله تعالى : وفراشا توحي بأنه أعد
الأرض إعداداً مريحاً للبشر . كما تفرش على الأرض شيئا ، تجلس عليه أو تنام
عليه ، فيكون فراشا يريحك .

ونحن نتوارث الأرض جيلا بعد جيل . وهي تصلح لحياتنا جميعاً .

ومنذ أن خلقت الأرض الى يوم القيامة . مستظل فراشا للانسان .

قد يقول بعض الناس أنك إذا نمت على الأرض فقد تكون غير مريحة نمتك فيها
حصي أو غير ذلك مما يضايقك . نقول ان الانسان الأول كان ينام عليها مستريحاً . .
إذن فضرورة النوم ممكنة على الأرض .

وعندما تقدمت الحضارة وزادت الرفاهية ظلت الأرض فراشاً رغم ماوجد عليها
من أشياء لينة . فكان الله تعالى . قد أعد لها اعداداً يتناسب مع كل جيل . فكل

جبل رفته في العيش بسبب تقدم الحضارة كشف الله سبحانه من العلم ما يطوع له الأرض ويجعلها فراشاً .

ونلاحظ ان الله سبحانه وتعالى في آية أخرى يقول :

﴿ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة الزخرف)

والمهد هو فراش الطفل ، ولابد ان يكون مريحاً لان الطفل إذا وجد في الفراش أي شيء يتعبه فإنه لا يملك الامكانيات التي تجعله يريحه ، ولذلك تمهد الأم لطفلها مكان نومه ، حتى ينام نوماً مريحاً . ولكن الذي يمهّد الأرض لكل خلقه هو الله سبحانه وتعالى . يجعلها فراشاً لعباده . وإذا قرأت قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَاقْسُوا فِي مَوَارِثِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

فإن معنى ذلك أن الحق سبحانه جعل الأرض مطيعة للإنسان ، يعطيه كل ما يحتاج إليه .

ويأتى الحق سبحانه وتعالى الى السماء فيقول : «والسما بناء» والبناء يفيد المتانة والتماسك . أي أن السماء - وهي فوقك - لانرى شيئاً يحملها حتى لا تنسقط عليك . إنها سقف متماسك متين . . ويؤكد الحق هذا المعنى بقوله تعالى :

﴿ وَبِمِثْقَلِ الْأَسْمَةِ أَنْ تَنفَعَنَا عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الحج)

وفي آية أخرى يقول :

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْفًا مَحْمُوقًا ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الانبياء)

والهدف من هذه الآيات كلها . أن تعلمن ونحن نعيش على الأرض أن السماء لن تسقط علينا لأن الله يحفظها .

إذن من آيات الحق سبحانه وتعالى في الأرض أنه جعلها فراشاً أي مهادة ومرجوة لحياة الإنسان . وحفظ السماء بقدرته جل جلاله ، فهي ثابتة في مكانها ، لا تهدد سكان الأرض وتزعزعهم ، بأنها قد تسقط عليهم ، ثم جاء بآية أخرى :

«ونزل من السماء ماء فلخرج به من الثمرات رزقا لكم»

فكان الحق سبحانه وتعالى وضع في الأرض وسائل استبقاء الحياة . فلم يترك الإنسان على الأرض دون أن يوفر له وسائل استمرار حياته . فالطمر ينزل من السماء ، والسماء هي كل ما علاك فأظلك . فينبت به الزرع والشجر ، وهذا رزق لنا ، والناس يختلف في مسألة الرزق . والرزق هو ما ينتفع به ، وليس هو ما تحصل عليه . فقد تربح مالاً وافرأ ولكنك لا تنفقه ولا تستفيد منه فلا يكون هذا رزقك ولكنه رزق غيرك ، وانت تظل حارساً عليه ، لا تنفق منه قرشاً واحداً ، حتى توصله الى صاحبه . والرزق في نظر معظم الناس هو المال ، قال عليه الصلاة والسلام :

«يقول ابن ادم مالي مالي . . وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفريت ، ولبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت»^(١)

هذا هو رزق المال . وهو جزء من الرزق . ولكن هناك رزق الصحة . ورزق الولد . ورزق في الطعام . ورزق في البركة . وكل نعمة من الله سبحانه وتعالى هي رزق وليس المال وحده .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا بهذه الآية الكريمة الى أن نفكر قليلاً ، فيمن خلق هذا الكون . لنعرف أنه قيل أن يخلق الإنسان خلق له عناصر بقائه . ولكن هذا الاعداد لم يتوقف عند الحياة المادية . بل ان الله كما أهد لنا مقومات حياتنا المادية

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ورواه أحمد وهذه رواية مسلم بسنده عن مُطَرِّف عن أبيه .

أعد لنا مقومات حياتنا الروحية ، أو القيم في الوجود . وإذا قرأت في سورة الرحمن قوله تعالى :

﴿ الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

لوجدت القرآن يعطينا قيم الحياة ، التي بدونها تصبح الدنيا كلها لاقيمة لما . لأن الدنيا امتحان أو اختبار لحياة قادمة في الآخرة . فإذا لم تأخذها بجهمتها في أنها الطريق الذي يوصلك الى الجنة . إهدرت قيمتها تماماً .

ولم تعد الدنيا تعطيك شيئاً إلا العذاب في الآخرة .

وقد ربط الحق سبحانه وتعالى الرزق في هذه الآية بالسياء فقال سبحانه :

«فأخرج به من الثمرات رزقا لكم»

ليلفتنا الى أن الرزق ، لا يأتي إلا من أعلى ، وضرب الله سبحانه وتعالى للمثل بالماء لانه رزق مباشر محسوس منا ، والماء ينزل من السحاب في أنقى صورته مقطراً . كل ما يأتينا من السحاب . فيه علو . ينزل ليزيد حياة القيم ارتقاء ، عملية لو أراد البشر أن يقوموا بها ما استطاعوا لأنها كانت مستكلف ملايين الجنينها ، لتعطينا ماء لا يكفي أسرة واحدة . ولكن الله سبحانه وتعالى أنزل من السحاب ماء في أنقى صورته لينبت به الثمرات ، التي تضمن استمرار الحياة في هذا الكون .

ويعد أن نفهم هذه النعم كلها . والاعجاز الذي فيها ونستوعبها بقول الحق تبارك وتعالى : «فلا تحملوا هذه أئدادا وأنتم تعلمون»

«أئداد» جمع نَدَ ، والنَد هو النظير أو الشبيه . وأي عقل فيه ذرة من فكر يتعمد عن مثل هذا ، فلا يجعل لله تعالى شبيهاً ولا نظيراً ولا يُشَبِّهه بالله تعالى أحداً . فالله واحد في قدرته ، واحد في قوته ، واحد في خلقه . واحد في ذاته ، وواحد في صفاته .

ولا توجد مقارنة بين صفات الحق سبحانه وتعالى وصفات الخلق . والله خلق لكل منا عقلاً يفكر به ، لو عرضت هذه المسألة على العقل لرفضها تماماً ، لأنها لا تتفق مع عقل أو منطق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

«وأنتم تعلمون»

أي تعرفون هذا جيداً بعقولكم لأن طبيعة العقل ترفض هذا تماماً .

فمنذا الذى يستطيع أن يدعى أنه خلقكم والذين من قبلكم ؟! ومنذا الذى يستطيع أن يدعى ولو كذباً ، أنه هو الذى جعل الأرض فراشاً ، وجعل السماء سقفاً محفوظاً ، أو أنزل المطر وأنبت الزرع ؟ لا أحد . إذن فأنتم تعلمون أن العقل كله لله وحده ، ومادام لا يوجد معارض ولا يمكن أن يوجد . فالقضية محسومة للحق تبارك وتعالى .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَخُذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنَدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة البقرة)

لماذا اتخذ هؤلاء الناس لله تعالى أنداداً ؟ لأنهم يريدون ديناً بلا منتهى . يريدون أن يرضوا فطرة الإيمان التى خلقها الله فيهم . وفى الوقت نفسه يتبعون شهواتهم . عندما فكروا فى هذا وجدوا أن أحسن طريقة هى أن يختاروا إلهاً بلا منتهى ، لا يطلب منهم شيئاً ، ولذلك كل دعوة منحرفة تجد أنها تبيح ما حرم الله ، وتحل الإنسان من كل التكاليف الإيمانية كالصلاة والزكاة والجهاد وغيرها .

أما الذين آمنوا . فإنهم يعرفون أن الله سبحانه وتعالى إنما وضع منهجه لصالح الإنسان : فإله لا يستفيد من صلاتنا ولا من زكاتنا . ولا من منهج الإيمان شيئاً ، ولكننا نحن الذين نستفيد من رحمة الله . ومن نعم الله ومن جنته فى الآخرة .

ولأن الذين آمنوا يعرفون هذا فإنهم يحبون الله حباً شديداً ، والذين كفروا رغم

كل ما يدعون فلأنهم ساعة العسرة يلجأون الى الله سبحانه وتعالى باعتباره وحده الملجأ والملاذ . وقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِيزِهِ أَوْ قَاعًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَانٌ زَيْدٌ شَاكِرٌ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

لماذا لم يستدع الأنداد ؟ لأن الانسان لا يغش نفسه أبداً في ساعة الخطر ، ولأن هؤلاء يعرفون بعقولهم أنه لا يمكن أن يوجد له أنداد . ولكنه يتخذهم لأغراض دنيوية . فإذا جاء الخطر . يلجأ الى الله سبحانه وتعالى . لأنه يعلم يقيناً أنه وحده الذي يكشف الضر ، فحلاق الصحة الذي يعالج الناس دجلاً . إذا مرض ابنه أسرع به الى الطبيب لأنه يغش الناس . ولكنه لا يمكن أن يغش نفسه .

ولقد كان الأصمى واقفاً عند الكعبة ، فسمع اعرابياً يدعو ويقول :

«يا رب أنت تعلم أني عاصيك وكان من حقك عل ألا أدعوك وأنا عاص . ولكنني أعلم أنه لا إله إلا أنت فلمن أذهب . وقال الأصمى : يا هذا إن الله يغفر لك حسن مسألتك .»



﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

صَدِيقِينَ ﴿٢٣﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى لنا أن هؤلاء الذين يتخلدون من دون الله انداداً لا يعتمدون على منطق ولا عقل . ولكنهم يعتمدون على شهوات ذنوبية عاجلة . أراد أن يأتي بالنحدي بالنسبة للقرآن الكريم - المعجزة الخالدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم - حتى يثبت لهم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد جعل خلق الكون إعجازاً محسناً . فإن القرآن منجز إعجازاً قبيحاً . قال الله جل جلاله :

« وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ، فأتوا بمثل هذا القرآن أو يأتوا بكلمات مشابهة متفرقة ، وإن كنتم صادقين ، بل هم قوم خصمون ، إن أن كان قد جعل خلق الكون إعجازاً محسناً . فإن القرآن منجز إعجازاً قبيحاً . قال الله جل جلاله :

والريب : هو الشك . وقوله تعالى : « إن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ، فأتوا بمثل هذا القرآن أو يأتوا بكلمات مشابهة متفرقة ، إن أن كان قد جعل خلق الكون إعجازاً محسناً . فإن القرآن منجز إعجازاً قبيحاً . قال الله جل جلاله :

الكلام الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القرآن لم يكن احد يستطيع أن يأتي به من فطاحل علماء البلاغة العرب . والعلم الذي نزل في القرآن

الكريم . لم يكن يعرفه بشر في ذلك الوقت . فكيف جاء النبي الأُمى بهذا الكلام المعجز . وبهذا العلم الذي لا يعلمه البشر ؟! لو جلس الى معلم اوقرأ كتب الحضارات القديمة . لقالوا ربما استنبط منها ، ولكنه لم يفعل ذلك .

فمن أين دخل الريب الى قلوبهم ؟ لاشك أنه دخل من باب الباطل . والباطل لا حجة له . وبلاشك لقد فضحوا انفسهم بانهم لا يرتابون في القرآن ولكنهم كانوا يريدونه أن ينزل على سيد من سادة قريش . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ١٥١ ﴾

(سورة الزمر)

وهؤلاء المرتابون لم يجدوا حجة يواجهون بها القرآن ، فقالوا ساحر ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ إذا كان ساحرا فلماذا لم يسحرهم أتم ؟ وقالوا مجنون . والمجنون يتصرف بلا منطق .. يضحك بلا سبب . ويبكى بلا سبب . ويضرب الناس بلا سبب . ولذلك رد الحق سبحانه عليهم بقوله تعالى :

﴿ تَبٰٓتَ وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ ١٥٢ مَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ مِّمَّنْ يَعْبُجُونَ ١٥٣ وَإِن لَّكَ لَآجِرًا غَيْرَ مُنْتَرَنٍ ١٥٤ وَإِنَّكَ لَمَعَٰلِ خَلْقٍ عَظِيمٍ ١٥٥ ﴾

(سورة القلم)

فهل يكون المجنون عل خلق عظيم ؟ إذن فأسباب الريب كلها أو الأسباب التي تثير الشك غير موجودة . وغير متوافرة . ولا يوجد سبب حقيقي واحد يجعلهم يشكون في أن القرآن ليس من عند الله . ولكنهم هم الفاتلون كما يروى لنا الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالُوا اٰلِهٰمُ اِن كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطَرْ عَلَيْنَا جَارًا مِّنَ السَّمَاءِ اَوْ اٰتِنَا رِغْدًا مِّنَ السَّمَاءِ ١٥٦ ﴾

(سورة الانفال)

إذن فكل أسباب الشك غير موجودة وأسباب اليقين هي الموجودة ومع ذلك ارتابوا وشكوا . وقوله سبحانه وتعالى :

«ما نزلنا على عبدنا»

فالقرآن الكريم وجد في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق الانسان ، وعندما جاء وقت مباشرته لمهمته في الكون نزل من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا دفعة واحدة ثم أنزل الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بقدر ما احتاجت اليه المناسبات والأحداث .

إذن فقوله «نزلناه» أي نزل من اللوح المحفوظ الى السماء الدنيا دفعة واحدة . وقوله تعالى «أنزل» أي أنزل آيات على محمد صلى الله عليه وسلم بحسب اقتضاء الأحداث والمناسبات .

الحق سبحانه وتعالى يقول : «على عبدنا» وهذه محتاجة الى وقفة . فإلله جل جلاله . له عبيد وله عباد . كل خلق الله في كونه عبيد لله سبحانه وتعالى . لا يستطيعون الخروج عن مشيئة الله أو إرادته . هؤلاء هم العبيد . ولكن العباد هم الذين اتحدت مرادهم مع ما يريد الله سبحانه وتعالى . . تخلوا عن اختيارهم الدنيوي ، ليصبحوا طائعين لله باختيارهم ، أي أنهم تساوا مع المقهورين في أنهم اختاروا منهج الله وتركوا أي اختيار يخالفه .

هؤلاء هم العباد ، وإذا قرأت القرآن الكريم تجد أن الله سبحانه وتعالى يشير الى العباد بأنهم الصالحون من البشر فيقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

هذا ليس لكل خلق الله ، ولكنه للعباد . الذين إذا قال الله تعالى لهم افعلوا ففعلوا وإذا قال الله لا تفعلوا لم يفعلوا . أى أنهم لا يخالفون . بقدرتهم على الاختيار . منج الله سبحانه وتعالى . ولذلك في الجهاد لا يقول الحق سبحانه وتعالى عن المجاهدين أنهم عبيد . بل يقول جل جلاله :

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَشِّرْ عَلَى كَرِّ عِبَادِنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ بِحَسْرَتٍ لِّمَن لَّا يَدْبَارُ
وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝ ٥٠ ﴾

(سورة الاسراء)

وبعض المستشرقين الذين يحاولون الطعن في القرآن الكريم يقولون ان كلمة عباد قد جاءت في وصف غير المؤمن في قوله تعالى :

﴿ أَنْتُمْ أَضَلُّتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ (من الآية ١٧ سورة الفرقان)

نقول : انكم لم تفهموا أن هذا ساعة الحساب في الآخرة ، وفي الآخرة كلنا عباد لأننا كلنا مقهورون فلا اختيار لأحد في الآخرة وإنما الاختيار البشرى ينتهى ساعة الاحتضار ، ثم يصبح الانسان بعد ذلك مقهوراً .

فنحن جميعاً في الآخرة عباد ولكن الفرق بين العبيد والعباد هو في الحياة الدنيا فقط . والعبودية هي ارقى مراتب القرب من الله تعالى . لأنك تأتى الى الله طائعاً . متغذاً للمنج باختيارك . ولقد عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون ملكاً رسولاً ، أو عبداً رسولاً . فاختار أن يكون عبداً رسولاً . وإذا أردنا أن نعرف معنى العبودية نقرأ في سورة الإسراء :

﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَبِلاً مِّنَ السَّجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي
بَرَكْنَا حَوْلَهُ ۚ ﴾

(من الآية ١ سورة الاسراء)

لنرى أنه في أعلى درجات الانعام من الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم في المعجزة الكبرى التي لم تحدث لبشر قبله صلى الله عليه وسلم سواء كان رسولاً أو غير رسول ، ولن تحدث لبشر بعده . . ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد الى السموات السبع بالروح وبالجسد ثم عاد الى الأرض . وتجاوز رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة جبريل فتجاوز سدرة المنتهى وهي المكان الذي ينتهى اليه علم خلق الله من البشر والملائكة المقربين .

وبشرية الرسول اخذت جدلاً كبيراً منذ بدأت الرسالات السماوية . وحتى عصرنا هذا . واقرأ قوله تعالى :

﴿ قَالِ الْمَلَائِكَةُ لَئِنَّكُمْ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا زَيْنَبُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾

(من الآية ٢٧ سورة هود)

وقوله تعالى :

﴿ قَالُوا أَبَشَرًا مِثْلًا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝ ١١ ﴾

(سورة القمر)

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا مَعَ أَنْتَ أَنْتَ أَنْ يَوْمِنَا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۝ ١١ ﴾

(سورة الاسراء)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَلْعَنُوكُمْ بَشَرًا لَمُتْكُمْ إِنْكُمْ إِذَا نَزَعْتُمْ عَنْكُمْ ۝ ١١ ﴾

(سورة المؤمنون)

إذن فبشرية الرسول اتخذت حجة للذين لا يريدون أن يؤمنوا والرسول مبلغ عن الله . ولا بد أن يكون من جنس القوم الذين أرسل اليهم . ولا بد أن يكون قد عاش

بينهم فترة قبل الرسالة واشتهر بالأمانة والصدق حتى لا يكذبوه . وفي الوقت نفسه هو قدوة . ولذلك لابد أن يكون من جنس قومه . لانه سيطبق المنهج عملياً أمامهم . ولو كان من جنس آخر لقالوا لا نطبق ما كلفتنا به يارب . لأن هذا رسول الله مخلوق من غير مادتنا . ومقهور على الطاعة .

إنذ فبشرية الرسول حتمية . وكل من يحاول أن يعطى الرسول صفة غير البشرية . إنما يحاول أن ينقص من كماله رسالات الله ، والله سبحانه وتعالى ليس عاجزاً ، عن أن يحول البشر الى ملائكة وافرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴾ ٥١

(سورة الزمر)

إنذ فبشرية الرسول هي من تمام الرسالة .

ثم يأتي التحدى من الله سبحانه وتعالى وفأتوا بسورة من مثله والمطلوب أن يأتي العرب بسورة من مثل ما جاء به القرآن الكريم .

الشهود الذين يطلب الله دعوتهم هم شهود ضعفاء . شهود من البشر وليس شهادة من الله بالغيب .

والله سبحانه وتعالى وضع في هذه الآية معظم الشكوك لنفحصها ، ولنصل فيها بعد ذلك الى جوهر الاعجاز القرآني .

والحق سبحانه وتعالى تدرج في التحدى مع الكافرين . فطلب منهم أن يأتيوا بمثل القرآن ، ثم طلب عشر سور من مثله . ثم تدرج في التحدى فطلب سورة واحدة . والنزول في التحدى من القرآن كله الى عشر سور . الى سورة واحدة . دليل ضد من تحدهم . فلا يستطيعون ان يأتيوا بمثل القرآن ، فيقول : إنذ فأتوا بعشر سور . فلا يستطيعون ويصبح موقفهم مدعاة للسخرية . فيقول : فأتوا بسورة . وهذا منتهى الاستهانة بالذين تحدهم الله سبحانه وتعالى وإثباتاً لأنهم لا يقدرّون على شيء .

وكلمة يمثل . معناها أن الحق سبحانه وتعالى يطلب المثيل ولا يطلب نص القرآن وهذا إمعان وزيادة في إظهار عجز القوم الذين لا يؤمنون بالله ويشككون في القرآن . وقوله تعالى : «وادعوا شهداءكم» .

معناه أن الله سبحانه وتعالى زيادة في التحدي يطالبهم بأن يأتوا هم بالشهداء ويعرضوا عليهم الآية ليحكم هؤلاء الشهود إذا كان ما جاءوا به مثل القرآن أم لا . ليس هذا إظهار منتهى القوة لله سبحانه وتعالى لأنه لم يشترط شهداء من الملائكة ولا شهداء من الذين اشتهر عنهم الصلح . وانهم يشهدون بالحق . بل ترك الحق سبحانه هم أن يأتوا بالشهداء وهؤلاء الشهداء لن يستطيعوا أن يشهدوا أن كلام هؤلاء المشككين يمثل سورة من القرآن .

الله سبحانه وتعالى طلب منهم أن يأتوا بأى شهداء متحيزين لهم . وأطلقها سبحانه وتعالى على كل أجناس الأرض فقال : «ومن دون الله إن كنتم صادقين» ولكن إياكم أن تقولوا يشهد الله بأن ما جئنا به مثل القرآن . لأنكم تكونون قد كذبت على الله وادعيت شيئا لم يقله سبحانه وتعالى .

ولكن ما معنى قوله تعالى : «وان كنتم صادقين» صادقين في ماذا ؟ وما هو الصدق ؟ الصديق يقابل الكذب ، والصديق والكذب ، كل منهما نسبي . كلنا يعلم أن هناك كلاماً غير مفيد ، فإذا قلت محمد وسكت فمعنى سكت فمعنى سالك ، ماذا تقصد بقولك محمد ؟ وسؤاله دليل على أنه لم يستند شيئا ، ولكنه لو سالك من عندك ؟ وأجبت محمد فكانك تحب به أن عندك محمداً وهذه كلمة واحدة لكنك فهمتها بالمعنى الذى اخذته من كلام السائل . إذن فلا تقل كلمة واحدة ولكن قل كلاماً مفيداً . إذن فالكلام المفيد هو الذى يسكت السامع عليه .

وكل متكلم قبل أن يتكلم بالكلام يكون عنده نسبة ذهنية لما سيقول ، يعبر عنها بنسبة كلامية . ولكن هناك نسبة خارجية لما يقول تمثل الواقع .

أى أنك لو قلت محمد مجتهد فلا بد أن يكون هناك شخص اسمه محمد . ولا بد أن يكون مجتهداً فعلاً . لتتطابق النسبة الكلامية . مع النسبة الواقعية . فإذا لم يكن هناك شخص اسمه محمد . أو كان هناك شخص اسمه محمد ولكنه ليس مجتهداً ،

فإن النسبة الكلامية تخالف النسبة الواقعية .

والصدق أن تتطابق النسبة الكلامية والنسبة الواقعية . «والكذب» ألا تتطابق النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية . . هذا المفهوم ضرورة لعرض معنى الآية الكريمة .

إذن فقوله تعالى «صادقين» أى أن تتطابق النسب الكلامية التى ستقولونها مع نسبة واقعية تستطيعون أن تدللوا عليها . فإن لم يحدث ذلك فأنتم كاذبون .
فالله سبحانه وتعالى يريد منكم الدليل على صدقكم .



﴿ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١٥)

بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن الأدلة التي يستند اليها المشككون في القرآن الكريم . وهي أدلة لا تستند الى عقل ولا الى منطق . محذاهم بأن يأتيوا بسورة مثل القرآن ، وأن يستعينوا بمن يريدون من دون الله ، لأن القرآن كلام الله ، والله سبحانه هو القائل . وبما أنهم يحاولون التشكيك في أن القرآن كلام الله . وأنه منزل من عند الله ، فليستعينوا بمن يريدون ليأتوا بأية من مثله ، لأن التحدى هنا لا يمكن أن يتم إلا إذا استعانوا بجميع القوى ما عدا الله سبحانه وتعالى .

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بالنتيجة قبل أن يتم التحدى . لأن الله سبحانه وتعالى يعلم أنهم لن يفعلوا ولن يستطيعوا .

إن قوله سبحانه : «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا» معناه أنه حكم عليهم بالفشل وقت نزول القرآن وبعد نزول القرآن الى يوم القيامة . لأن الله لا يخفى عن علمه شيء . فهو بكل شيء عليم . وكلمة «لم تفعلوا» عندما تأتي قد تثير الشك . فنحن نعرف ان يحىء ان الشرطية تثير الشك . . لأن الأمر لكى يتحقق يتعلق بشرط . وابت أن قلت إن ذاكرت تنجح ، ففى المسألة شك . . أما إذا قلت كقول الحق «إذا جاء نصر الله والفتح» فمعنى ذلك أن نصر الله آت لا محالة .

وهإن «حرف و» إذا «ظرف» ، وكل حدث يحتاج إلى مكان وزمن . فإذا جئت باداء الشرط فمعنى ذلك أنك تقربها من عنصر تكوين الفعل والحدث . فإذا أردت ان تعبر عن شيء سيحقق تقول إذا ، وإذا أردت أن تشكك فيه تقول «إن» والله سبحانه وتعالى قال «فإن لم تفعلوا» ولأن الفعل ممكن الحدوث أراد أن يرجع الجانب المانع فقال «ولن تفعلوا» هذا أمر اختياري . فإذا تكلمت عن أمر اختياري ثم حكمت أنه

لن يحدث . فكان قدرتك هي التي منعتك من الفعل . فلا يقال أنك قهرته على
ألا يفعل . لا . علمت أنه لن يفعل . فاستعداداته لا يمكن أن تمكنه من الفعل .

وهذه أمور ضمن اخبارات القرآن الكريم في القضايا الغيبية التي أخبر عنها ،
فنعلمنا يقول الله سبحانه وتعالى «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم» معناه أنهم
مصدقون ولكن السنتهم لا تعترف بذلك . وقوله تعالى «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا»
معناه أن الشك مفتعل في نفوسهم ، هم لا يريدون أن يؤمنوا ولذلك يأتون بسبب
مفتعل لعدم الايمان . لقد استقر فكرهم على أنهم لا يؤمنون ، ومادام هذا هو
ماقرروا . فإنكم ستظلون تبحثون عن أسباب ملفقة لعدم الايمان .

وقوله تعالى : «فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة» .

الحق سبحانه وتعالى يريد هنا ان يلفتنا الى صورة اخرى عن عجز هؤلاء الكفار .
فهم بحثوا عن أعذار ، ليبرروا بها عدم ايمانهم وتظاهروا بأنهم يشكون في القرآن
الكريم . يقول لهم : لو كانت لكم قدرة ذاتية فعلا فامنعوا انفسكم من دخول النار
يوم القيامة . كما منعتكم انفسكم من الايمان في الدنيا .

وهذا وعيد من الله . لقد أعطاهم ذاتية الاختيار في الدنيا ولم يختاروا قهراً بل
اختاروا عدم الايمان بمشيئة الاختيار التي أعطاهها الله لهم . ولكن هناك وقت ليس
فيه اختيار وهو الآخرة فحاولوا ان تنفوا في الآخرة عذاب النار يوم القيامة . ولكن لن
يكون لأحد اختيار . فالله سبحانه وتعالى يقول في ذلك اليوم :

﴿لَيْسَ أَمْرُكَ الْيَوْمَ إِلَّا الْوَحْدُ الْقَهْرُ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ويقول جل جلاله :

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾

(سورة الانطاف)

فإرادتكم التي منعتكم من الإيمان .. لن تفيكم يومئذ من عذاب النار .
واقرا قوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَكْرَهُ أَن تَقْبُدُونَا مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴾ (١٦)

(سورة الأنبياء)

لماذا هم وما يعبدون ؟ لأن العابد يرمى نفع المعبود . فكأنها عندما يرى كل منها الآخر في العذاب . تكون الحسرة أشد . ولذلك فإن الحجارة والأصنام التي يعبدونها ستكون معهم في النار يوم القيامة . وليس هذا عقاباً للأحجار والأصنام . لأنها خلق مقهور لله مسبح له ، ولكن هذه الأصنام والأحجار تكون راضية وهي تحرق الذين كفروا بالله . وتقول : «عبدونا ونحن أعبد لله من المستغفرين بالأسحار» .

وقوله تعالى : «أعدت للكافرين» الله سبحانه وتعالى يجزيهم وهم في الدنيا ، ان النار أعدت للكافرين . وقوله تعالى النار أعدت للكافرين تطمين غاية الاطمئنان للمؤمن . وإرهاب غاية الإرهاب للكافر .. وقوله تعالى «أعدت» معناها أنها موجودة فعلاً وإن لم تكن نراها . وأنها مخلوقة وإن كانت محجوبة عنا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« عرضت على الجنة ولو شئت أن آتيكم منها بقطاف لفعلت » .

وهذا دليل على أنها موجودة فعلاً .

والمؤمن حينما يعلم أن الجنة موجودة فعلاً وأن الإيمان سيقره إليها فإنه يحس بالسعادة ويشتاق للجنة . فإذا سمع قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ (١٧) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٨)

(سورة المؤمنون)

ساعة تفرا هذه الآية الكريمة تعرف أن الله سبحانه وتعالى سيجعلك في الجنة

تأخذ ما كان لغيرك . لأن الميراث يأتيك من غيرك . وقد سبني علم الله سبحانه وتعالى خلق الناس جميعاً . وقبل أن يخلق أعد لكل خلقه مقعداً في النار ومقعداً في الجنة . الذين سيدخلون النار خالدون فيها ، مقاعدهم في الجنة ستكون خالية ، فيأمر الله سبحانه وتعالى يعطيها للمؤمنين ليرثوها فوق مقاعدهم ومنازلهم في الجنة . والحق سبحانه عندما يقول : « أعدت » فهي موجودة فعلاً .



وَيَبْشِرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ
رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا
وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا مصير الكافرين الذين يشككون في القرآن ليتخفوا من ذلك عذراً لعدم الإيمان . قال : إذا كنتم قد اخترتم عدم الإيمان ، بما أعطيتكم من اختيار في الدنيا ، فإنكم في الآخرة لن تستطيعوا أن تتقوا النار . ولن تكون لكم إرادة .

ثم يأتي الحق تبارك وتعالى بالصورة المتقابلة . والقرآن الكريم إذا ذكرت الجنة يأتي الله بعدها بالصورة المتقابلة وهي العذاب بالنار. وإذا ذكرت النار بعدها ولهيها ذكرت بعدها الجنة . وهذه الصورة المتقابلة لها تأثير على دفع الإيمان في النفوس . فإذا قرأ الإنسان سورة للعذاب ثم جاء بعدها النعيم فإنه يعرف أنه قد فاز مرتين . فالذي يزحزح عن النار ولا يدخلها يكون ذلك فوزاً ونعمة ، فإذا دخل الجنة تكون نعمة أخرى . ولذلك فإن الله تعالى يقول :

﴿ قَنُزَحْ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلْ أُمَّتَكَ قَنَازًا ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

ولم يقل سبحانه ومن أدخل الجنة فقد فاز . لأن مجرد أن تزحزح عن النار فوز عظيم . وفي الآخرة . وبعد الحساب يضرب الصراط فوق جهنم ، ويعبر من فوقه المؤمنون والكافرون . فالمؤمنون يجتازون الصراط المستقيم كل حسب عمله منهم من يمر بسرعة البرق . ومنهم من يمر أكثر ببطأ وهكذا ، والكافرون يسقطون في النار .

ولكن لماذا يمر المؤمنون فوق الصراط . والله سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ آلٌ وَارِدُكُمْ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ٧٦ ﴾ ثُمَّ تَتَجَمَّى الَّذِينَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَتَنَزَّلُ الْأَنْجَلِينَ فِيهَا جِيًّا ٧٧ ﴿

(سورة مريم)

لأن مجرد رؤية المؤمنين لجهنم نعمة كبرى ، فحين يرون العذاب الرهيب الذي أنجاهم الايمان منه يحس كل منهم بنعمة الله عليه . أنه أنجاه من هذا العذاب . وأهل النار وأهل الجنة يرى بعضهم بعضاً . فأهل الجنة حينما يرون أهل النار يحسون بعظيم نعمة الله عليهم . إذ أنجاهم منها ، وأهل النار حين يرون أهل الجنة يحسون بعظيم غضب الله عليهم ان حرّمهم من نعيمه ، فكان هذه الرؤية نعيم لأهل الجنة وزيادة في العذاب لأهل النار . . والله سبحانه وتعالى يقول :

«ويُشر» والبشارة هي الاخبار بشيء سار قادم لم يأت وقته بعد . فأت إذا بشرت إنساناً بشيء أعلته بشيء سار قادم . والبشارة هنا جاءت بعد الوعيد للكافرين .

والإنذار هو اخبار بأمر مخيف . لم يأت وقته بعد .

ولكن البشارة تأتي أحياناً في القرآن الكريم ويقصد بها الكفار . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٧٨ ﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصُرُّ مُصْفًى كَانُ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧٩ ﴿

(سورة الجاثية)

البشارة هنا تهكمية من الله سبحانه وتعالى . فالحق تبارك وتعالى يريد أن يزيد عذاب الكفار ، فعندما يسمعون كلمة «فبشرهم» يعتقدون أنهم سيمسعون خيراً ساراً ، فيأتي بعدها العذاب الاليم ليزيدهم غياً على غم .

يقول الحق سبحانه وتعالى : «ويُشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات» .

البشرى هنا إعلام بخير قادم للمؤمنين ، والايان هو الرصيد القلبي للسلوك .
لان من يؤمن بقضية يعمل من أجلها ، التلميذ يذاكر لأنه مؤمن أنه سينجح ، وكل
عمل سلوكي لابد أن يوجد من ينبوع عقيدى . والايان أن تنسجم حركة الحياة مع
ما في القلب وفق مراد الله سبحانه وتعالى : ونظام الحياة لا يقوم إلا على إيمان ..
فكان العمل الصالح ينبوعه الايمان . ولذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ ۝٢ خَسِرَ ۝٣ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝٤ ﴾

(سورة العصر)

وفى آية اخرى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا لِمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٥٧ ﴾

(سورة فصلت)

ولكن هل يكفى الاعلان عن كون من المسلمين ؟ لا بل لابد ان يقرن هذا الاعلان
بالعمل بمرادات الله سبحانه وتعالى

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا .. الى أن قولنا لا اله الا الله محمد رسول
الله .. لابد أن يصاحبه عمل بمنهج الاسلام .. ذلك أن نطقنا بالشهادة لا يزيد في
ملك الله شيئا .. فالحق تبارك وتعالى شهد بوحدانية ألوهيته لنفسه ، وهذه شهادة
الذات للذات .. ثم شهد الملائكة شهادة مشهد لأنهم يرونه سبحانه وتعالى .. ثم
شهد أولو العلم شهادة دليل بما فتح عليهم الله جل جلاله من علم .. وفى ذلك
يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٨ ﴾

(سورة آل عمران)

ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يعملوا بالتمنيح .. لماذا ؟ .. حتى لا تتعاند حركة الحياة بل تتساند .. وما دامت حركة الحياة مستقيمة .. فإنها تصبح حياة متساندة وقوية .. وعندما انتشر الاسلام في بقاع الأرض لم يكن الهدف أن يؤمن الناس فقط لجرد الايمان .. ولكن لابد أن تتسجم حركة الحياة مع منهج الاسلام .. فإذا ابتعدت حركة الحياة عن المنهج .. حيث لا يتقدم قضية الدين أن يؤمن الناس أولا يؤمنوا .. ولذلك لابد أن ينص على الإيمان والعمل الصالح .. والذين آمنوا وعملوا الصالحات .. والصالحات هي جمع صالحة .. والصالحة هي الأمر المستقيم مع المنهج ، وضدها الفساد .. وحين يستقبل الإنسان الوجود .. فإن أقل الصالحات هو أن يترك الصالح على صلاحه أو يزيده صلاحا .

الحق تبارك وتعالى يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بجنات تجري من تحتها الأنهار .. والجنات جمع جنة ، وهي جمع لأنها كثيرة ومتنوعة .. وهناك درجات في كل جنة أكثر من الدنيا .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ أَفْطَرُ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَئِنَّ الْآخِرَةَ الْكُبْرَىٰ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ١٧ ﴾

(سورة الاسراء)

الجنات نفسها متنوعة .. فهناك جنات الفردوس ، وجنات عدن ، وجنات نعيم .. وهناك دار الخلد ، ودار السلام ، وجنة المأوى .. وهناك عِلْيُون الذي هو أعلى وأفضل الجنات .. وأعلى ما فيها التمتع بروية الحق تبارك وتعالى .. وهو نعيم يعلو كثيرا عن أى نعيم في الطعام والشراب في الدنيا ..

والطعام والشراب بالنسبة لأهل الجنة لا يكون عن جوع أو ظمأ .. وإنما عن مجرد الرغبة والتمتع .. والله جل جلاله في هذه الآية يُعَدُّ بأمر غيبي .. ولذلك فإنه لكي يقرب المعنى الى ذهن البشر .. لابد من استخدام ألفاظ مشهودة وموجودة .. أى عن واقع نشهده . واقرأ ، قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٧ ﴾

(سورة السجدة)

إذن ما هو موجود في الجنة لا تعلمه نفس في الدنيا .. ولا يوجد لفظ في اللغة يعبر عنه .. ولا ملكة من ملكات المعرفة كالسمع والنظر قد رآته .. ولذلك استخدم الحق تبارك وتعالى الألفاظ التي تتناسب مع عقولنا وإدراكنا .. فقال تعالى : « جنات تجري من تحتها الأنهار » ..

على أن هناك آيات أخرى تقول : « تجري تحتها الأنهار » ما الفرق بين الاثنين .. تجري تحتها الأنهار .. أى أن نبع الماء من مكان بعيد وهو يمر من تحتها .. أما قوله تعالى : « من تحتها الأنهار » فكان الأنهار تنبع تحتها .. حتى لا يخاف انسان من أن الماء الذى يأتي من بعيد يقطع عنه أو يجف .. وهذه زيادة لأطمئنان المؤمنين أن نعيم الجنة باقى وشالداً ..

وما دام هناك ماء فهناك خضرة ومنظر جميل ولا بُدَّ أن يكون هناك ثمر .. وفي قوله تعالى : « وكلوا رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها » .. حديث عن ثمر الجنة .. وثمر الجنة يختلف عن ثمر الدنيا .. إنك في الدنيا لا بد أن تذهب الى الشجرة وتأخذ منها أو يأتيتك غيرك بها .. ولكن في الجنة الثمر هو الذى يأتى اليك .. بمجرد أن تشتهي ثمرة في يدك .. وتعتقد أن هناك تشابها بين ثمر الدنيا وثمر الجنة .. ولكن الثمر في الجنة ليس كثمر الدنيا لا في طعمه ولا في رائحته .. وإنما يرى أهل الجنة ثمرها ويتحدثون ويقولون ربما تكون هذه الثمرة هي ثمرة المانجو أو اللين الذى أكلناه في الدنيا .. ولكنها في الحقيقة تختلف تماما .. قد يكون الشكل متشابها ولكن الطعم وكل شيء مختلف ..

في الدنيا كل طعام له فضلات يخرجها الانسان .. ولكن في الآخرة لا يوجد لنعام فضلات بل ان الانسان يأكل كما يشاء دون أن يحتاج إلى إخراج فضلات ، وذلك لاختلاف ثمار الدنيا عن الآخرة في التكوين ..

إذن ففي الجنة الأنهار مختلفة والثمار مختلفة .. والجنة يكون الرزق فيها من الله سبحانه وتعالى الذى يقول « للشيء كن فيكون » .. ولا أحد يقوم بعمل ..

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : «ولم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون»

الزوجة هي متعة الإنسان في الدنيا إن كانت صالحة . . والمتنصبة عليه إن كانت غير صالحة . . وهناك متنفصات تستطيع أن تضعها المرأة في حياة زوجها تجعله شقيا في حياته . . كأن تكون سليطة اللسان أو دائمة الشجار . . أولا تعطى اهتماما لزوجها أو تحاول اثارته بأن تجعله يشك فيها . . أما في الآخرة فتزول كل هذه المتنفصات وتزول بأمر الله . فالزوجة في الآخرة مطهرة من كل ما يكرهه الزوج فيها ، وما لم يحبه في الدنيا يختفى . فالأموات في الآخرة مطهرون من كل نقائص الدنيا ومتابعها وأولها الغل والحقد . . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنْ غَيْرِ إِخْرَاقًا عَلَىٰ سُرُورٍ مُّتَقَلِّينَ ۝١٦﴾

(سورة الحجر)

فمقاييس الدنيا ستختفى وكل شيء تكرهه في الدنيا لن تجده في الآخرة . . فإذا كان أي شيء قد نغص حياتك في الدنيا فإنه سيختفى في الآخرة . . والحق تبارك وتعالى ضرب المثل بالزوجات لأن الزوجة هي متعة زوجها في الدنيا . . وهي التي تستطيع أن تحيل حياته الى نعيم أو جحيم . .

وقوله تعالى : «وقم فيها خالدون» . . أي لا موت في الآخرة ولن يكون في الآخرة وجود للموت أبدا ، وإنما فيها الخلود الدائم إما في الجنة وإما في النار .



﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذِهِ مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾﴾

بعد أن تحدث الحق تبارك وتعالى عن الجنة .. وأعطانا مثلاً يقرب لنا صور النعيم المائلة التي سينعم بها الإنسان في الجنة .. أراد أن يوضح لنا المنهج الإيماني الذي يجب أن يسلكه كل مؤمن .. ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يكلف كالراعبادته .. ولكن الإنسان الذي ارتضى دخول الإيمان بالله جل جلاله قد دخل في عقد إيمان مع الله تبارك وتعالى .. وما دام قد دخل العقد الإيماني فإنه يتلقى عن الله منهجه في الفعل ولا تفعل .. وهذا المنهج عليه أن يطبقه دون أن يتساءل عن الحكمة في كل شيء .. ذلك أن الإيمان هو إيمان بالغيب .. فإذا كان الشيء نفسه غائباً عنا فكيف نريد أن نعرف حكمته ..

إن حكمة أي تكليف إيماني هي : أنه صادر من الله سبحانه وتعالى ، وما دام صادراً من الله فهو لم يصدر من مُسأَلِك كى تناقشه ، ولكنه صادر من إله وجبت عليك له الطاعة لأنه إله وأنت له عابد .. فيكفى أن الله سبحانه وتعالى قال افعل حتى تفعل .. ويكفى أنه قال لا تفعل حتى لا تفعل ..

الحكمة غائبة عنك .. ولكن صدور الأمر من الله هو الحكمة ، وهو الموجب للطاعة .. فإنا أصلي لأن الله فرض الصلاة ، ولا أصلي كنوع من الرياضة .. وأنا أتوضأ لأن الله تبارك وتعالى أمرنا بالوضوء قبل الصلاة .. ولكنني لا أتوضأ كنوع من النظافة .. وأنا أصوم لأن الله أمرني بالصوم .. ولا أصوم حتى أشعر بجوع الفقير .. لأنه لو كانت الصلاة رياضة لاستبدلتها بالرياضة في الملاعب .. ولو أن الرضوء كان نظافة لقمنا بالاستحمام قبل كل صلاة .. ولو أن الصوم كان لشعر بالجوع ماوجب على الفقير أن يصوم لأنه يعرف معنى الجوع ..

اذن فكل تكاليف من الله نفعلها لأن الله شرعها ولا نفعلها لأى شيء آخر ..
وكل ما يأتينا من الله من قرآن نستقبله على أنه كلام الله ولا نستقبله بأى صيغة
أخرى .. ذلك هو الايمان الذى يريد الله منا أن نتمسك به ، وأن يكون هو سلوك
حياتنا .

تلك مقدمة كان لابد منها اذا أردنا أن نعرف معنى الآية الكريمة : « إن الله لا
يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » وعندما ضرب الله مثلا بالبعوضة ..
استقبله الكفار بالمعنى الدنيوى دون أن يفطنوا للمعنى الحقيقى .. قالوا كيف يضرب
الله مثلا بالبعوضة ذلك المخلوق الضعيف .. الذى يكفى أن تضربه بأى شيء أو
بكفكف فيموت ؟ لماذا لم يضرب الله تبارك وتعالى مثلا بالليل الذى هو ضخم الجثة
شديدة القوة .. أو بالأسد الذى هو أقوى من الإنسان وضرب لنا مثلا بالبعوضة
فقالوا : « ماذا أراد الله بهذا مثلا » .. ولم يفطنوا الى أن هذه البعوضة دقيقة الحجم
خلقها معجزة .. لأن فى هذا الحجم الدقيق وضع الله سبحانه وتعالى كل الأجهزة
اللازمة لها فى حياتها .. فلها عيان ولها خرطوم دقيق جدا ولكنه يستطيع أن يخرق
جلد الانسان .. ويخرق الأوعية الدموية التى تحت الجلد ليمتص دم الانسان ..

والبعوضة لها أرجل ولها أجنحة ولها دورة تناسلية ولها كل ما يلزم لحياتها .. كل
هذا فى هذا الحجم الدقيق .. كلما دق الشيء احتاج الى دقة خلق أكبر ..

ونحن نشاهد فى حياتنا البشرية أنه مثلا عندما اخترع الانسان الساعة .. كان
حجمها ضخما جدا لدرجة أنها تحتاج الى مكان كبير .. وكلما تقدمت الحضارة
وارتقى الانسان فى صناعته وحضارته وتقدمه ، أصبح الحجم دقيقا وصغيرا ، وهكذا
أحدثت صناعة الساعات تدق .. حتى أصبح من الممكن صنع ساعة فى حجم الخاتم
أو أقل .. وعندما بدأ اختراع المذياع أو الراديو كان حجمه كبيرا .. والآن أصبح فى
غاية الدقة لدرجة أنك تستطيع أن تضعه فى جيبك أو أقل من ذلك .. وفى كل
الصناعات عندما ترتقى .. يصغر حجمها لأن ذلك محتاج الى صناعة ماهر وإلى
تقدم علمى ..

وهكذا حين ضرب الله مثلا بالبعوضة وما فوقها .. أى بما هو أقل منها حجما ..
فإنه تبارك وتعالى أراد أن يلفتنا الى دقة الخلق .. فكلما لطف الشيء وصغر حجمه

احتاج الى دقة الخلق .. ولكن الكفار لم يأخذوا المعنى على هذا النحو وإنما أخذوها بالمعنى الغشوى البسيط الذى لا يمثل الحقيقة .

فالله سبحانه وتعالى حينما ضرب هذا المثل .. استقبله المؤمنون بأنه كلام الله .. واستقبلوه بمنطق الايمان بالله فصدقوا به سواء فهموه أم لم يفهموه .. لأن المؤمن يصدق كل ما يلقى من عند الله سواء عرف الحكمة أو لم يعلمها .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ سُوءُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُعَاعَةٍ فَيَسْخَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدَّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٨﴾﴾

(سورة الاحراف)

إن كل مصدق بالقرآن لا يطلب تأويله أو الحكمة في آياته .. ولذلك قال الكافرون : « ماذا أراد الله بهذا مثلا » ويأتى رد الحق تبارك وتعالى : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين » .. ومن هم الفاسقون ؟ .. هم الذين

ينقضون عهد الله .. أول شيء في الفسق أن ينقضى الفاسق عهده .. ويقال فسقت الرطبة أى بعدت القشرة عن الثمر .. فعندما تكون الثمرة أو البليحة حمراء تكون القشرة ملتصقة بالثمرة بحيث لا تستطيع أن تنزعها منها .. فإذا أصبحت الثمرة

أو البليحة رطبا تسود قشرتها وتبتعد عن الثمرة بحيث تستطيع أن تنزعها عنها بسهولة .. هذا هو الفاسق المبتعد عن منهج الله .. ينسلخ عنه بسهولة ويسر ، لأنه غير ملتصق به .. وعندما تبتعد عن منهج الله فإنك لا ترتبط بأوامره ونواهيه ..

فلا تؤدي الصلاة مثلاً وتفعل ما نهى الله عنه لأنك فسدت عن دينه .. والذي أوجد
النفس هو أن الإنسان خلق مختاراً .. قادراً على أن يفعل أو لا يفعل .. وبهذا
الاختيار أفسد الإنسان نظام الكون .. فكل شيء ليس للإنسان اختيار فيه تراء يؤدي
مهمته بدقة عالية كالشمس والقمر والنجوم والأرض .. كلها تتبع نظاماً دقيقاً
لا يختل لأنها مقهورة .. ولو أن الإنسان لم يخلق مختاراً .. لكان من المستحيل أن
يفسد .. وإن يتعد عن منهج الله ويفسد في الأرض .. ولكن هذا الاختيار هو
أساس الفساد كله .



﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾
أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧﴾

بعد أن شرح الله لنا مفهوم الايمان . في أننا نتلقى عن الله وننفذ الحكم ولو لم نعرف
الحكمة . فكل ما يأتي من الله نأخذه بمنطق الايمان ، وهو أن الله الذي قال . وليس
بمنطق الكفر والنشك . فكل شيء عن الله حكمته أنه صادر عن الحق سبحانه
وتعالى .

وأخبرنا الحق تبارك وتعالى أن الفاسقين هم المتعدون عن منهج الله . وأراد الحق أن
يبين لنا صفات الفاسقين . فحددها في ثلاث صفات .. أولا : الذين ينقضون عهد الله
من بعد ميثاقه . ثانيا الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل . ثالثا : الذين يفسدون
في الأرض . ثم حدد لنا الحق تبارك وتعالى حكمهم فقال : أولئك هم الخاسرون .
والخسران الذي وصلوا اليه هو من عملهم . لأنهم تركوا المنهج وبدأوا يشرعون لأنفسهم
بهوى النفس . ولذلك يقول الحق جل جلاله عنهم :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ قَسَاوَيْتُمْ بِحُرَّتِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ ﴿١٨﴾

(سورة البقرة)

إذن هم الذين اختاروا ، وهم الذين اشتروا الضلالة ودفعوا ثمنها من هدى الله .
فكانهم عقدوا صفقة خاسرة . لأن هدى الله هو الذي يقودنا الى الحياة الخالدة والنعيم
الذي لا يزول .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا الصورة في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْسِمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْسِمُونَ وَيُقْسِمُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي الْتَّوْبَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١١١ ﴾

(سورة التوبة)

إذن فالْمُؤْمِنُونَ باعوا لله سبحانه وتعالى أموالهم وأنفسهم ، وكانوا صادقين في عهدهم . أما الكفار والمتناقضون ، فقد باعوا هدى الله ، واشتروا به ضلال الدنيا . فالحق سبحانه وتعالى ذكر لنا أول صفات الفاسقين أنهم لا عهد لهم . ليس بينهم وبين الناس فقط . ولكن لا عهد لهم مع الله أيضا . وكلما عاهدوا الله عهدا نقضوه . والله يحب الوفاء بالعهد . ولذلك يقول جل جلاله :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ١١٠ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْكُوكًا ١١١ ﴾

(سورة الاسراء)

ويقول تعالى :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاشِقِينَ ١٢١ ﴾

(سورة الاحراف)

ما هو العهد الموثق الذي أخذه الله على عباده فنقضوه ؟ انه الايمان الاول . الايمان

الفطرى الموجود فى كل منا . فإله سبحانه وتعالى أخذ من البشر جميعا عهدا ، فوق به بعضهم ونقضه بعضهم .

والله سبحانه وتعالى ذكر لنا فى القرآن الكريم . أن هناك عهدا موثقا بينه وبين ذرية آدم . فقال جل جلاله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا أخذ الله عهدا على ذرية آدم بأن يؤمنوا به وأشهدهم أنه ربهم . وجاءت الغفلة إلى القلوب بمرور الوقت . فتقضوا العهد وانخلدوا آلهة من دون الله . إذن أول صفات الفاسقين أنهم نقضوا عهد الله . والذي ينقض عهدا مع بشر ، فسلكه هذا لا يقبله الحق سبحانه وتعالى حتى مع الكفار وغير المؤمنين . وقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْعًا وَلَا يُلْظِمُونَكُمْ عَلَيْهِمْ كَيْفَ عَاهَدْتُمْ إِلَى اللَّهِ إِنْ لَمْ يُخَيِّبْ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وهكذا نرى أن الحق تبارك وتعالى حين أعلن براءته وبراءة رسوله صلى الله عليه وسلم وبراءة المؤمنين من كل كافر مشرك فى قضية إيمانية كبرى . حرم الله فيها على الكفار والمنافقين أن يقتربوا من بيته الحرام فى مكة ، احترام جل جلاله العهد . حتى مع المشركين . وطلب من المؤمنين أن يوفوا به . فإذا كان هذا هو المسلك الإيماني مع كل كافر ومشرك إن كنت قد عاهدته عهدا فأوف به إلى مدته . فكيف بالمشركين وقد عاهدوا الخالق الأعظم . ثم ينقضون عهده الموثق . أنهم قد خانوا منيح الله وعهده . وإذا لم يكن لهم عهد مع الله سبحانه وتعالى فهل يكون لهم عهد مع خلق الله ؟

اذن فالفاسقون أول صفاتهم انه لا عهد لهم مع خالقهم ولا عهد لهم مع الناس .
ولذلك لا نأمن لهم أبدا .

ثم تأتى بعد ذلك الصفة الثانية للفاسقين في قوله تعالى :
« ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل » وما أمر الله به أن يوصل هو صلة الرحم . فقد
أمرنا الله تعالى بأن نصل أرحامنا . فنحن كلنا أولاد آدم . والرسول صل الله عليه
وسلم يقول في حجة الوداع « كلكم لأدم وآدم من تراب » .

وهكذا نرى أن هناك روابط انسانية يلفتنا الله سبحانه وتعالى اليها . وهذه الروابط ..
تبدأ بالأسرة ثم تتسع لتشمل القرية أو الحي . ثم تتسع لتشمل الدولة والمجتمع ، ثم
تتسع لتشمل المؤتمنين جميعا ، ثم تتسع لتشمل العالم كله . هذه هي الأخوة الانسانية
التي يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا اليها .

ولكن اللفتة هنا لا تقتصر على الناحية الانسانية ، بل تسجل أن ما فعلوه
معصية . ومخالفة لأمر الله تعالى . فإله أمر بأن نصل الرحم . وجاء هؤلاء ومخالقوا
وعصوا ما أمر الله به . وقطعوا هذه الصلة . اذن فالمسألة فيها مخالفة للنجى ، وعصيان
لأمر من أوامر الله سبحانه وتعالى . فصلة الرحم توجد نوعا من التكافل الاجتماعي بين
البشر . فإذا حدث لشخص معصية .. أسرع أقاربه يقفون معه في محنته . ويحاول كل
منهم أن يخفف عنه . هذا التلاحم بين الأسرة يجعلها قوية في مواجهة الأحداث .
ولا يمس واحد منها بالضياع في هذا الكون ، لأنه متأسك مع أسرته ، متأسك مع حيه
أو قريته . وهكذا يخفى الحقد من المجتمع . ويختفى التفكك الاسرى ..

ولعلنا اذا نظرنا الى المجتمعات الغربية التي يعتبرها تفكك الأسرة . نجد أن كل
واحد منهم قد ضل طريقه وانحرف لأنه أحس بالضياع . فاتحرف الى المخدرات أو الى
الحمر أو الى الزنا وغير ذلك من الرذائل التي نراها . جيل ضائع . من الذي أضاعه ؟
عدم صلة الرحم .

وإذا تحدثنا عن الانحرافات التي نراها بين الشباب اليوم فلا نلوم الشباب ، ولكن
نلوم الأيام والأمهات الذين تركوا أولادهم وبناتهم وأهدروا صلة الرحم . فشب جيل
يعانى من عقد نفسية لا حدود لها ، ان الابن الذى يفقد جو الأسرة . يفقد ميزان

حياته . والله سبحانه وتعالى يريد المؤمنين متضامنين متحابين خالين من كل العقد التي تحطم الحياة . اذن فعدم صلة الرحم تضعح اجيالاً بأكملها .

وناق بعد ذلك الى الصفة الثالثة من صفات الفاسقين بقوله تعالى : « وفسدون في الأرض » . نقول : كل ما في الكون مخلوق على نظام : « قَدَرُ فَهْدَى » أى كل شيء له هدى لا بد أن يتبعه . ولكن الانسان جاء في مجال الاختيار وأفسد قضية الصلاح في الكون .

ومن رحمة الله أنه جعل في كونه خلقاً يعمل مقهوراً . ليعطي حركة الكون الأعلى . فالشمس والنجوم والأرض وكل الكون ماعداً الانس والجآن . يسير وفق نظام دقيق . لماذا ؟ لأنه يسير بلا اختيار له . والحق جل جلاله أخبرنا بأنه لكي يعتدل ميزان حياتنا . فلتحكم أنفسنا بمنهج الله . كما أن الكون المقهور محكوم بمنهج الله . فليس معنى الاختيار الانسان أن يتعد عن منهج الله . لأن الله له صفة القهر . فهو يستطيع أن يخلقنا مقهورين ، ولكنه أعطانا الاختيار حتى نأثبه عن حب . وليس عن قهر . فانت تحب الشهوات ولكنك تحب الله أكثر . فتقيد نفسك بمنهج الله . اذن فالاختيار لم يُعط لنا يُقْبَد في الأرض . ولكنه أُعْطى لنا . لنأق الله سبحانه وتعالى طائعين ولسنا مقهورين .

ولذلك فكل منا مختار في أن يؤمن أولاً يؤمن . وهذا الاختيار يثبت محبوبة الله سبحانه وتعالى في قلوبنا . ولكن الانسان بدلاً من أن يأخذ الاختيار ليأق الله عن حب . فينال الجزاء الأعظم . أخذه ليفسد في الأرض . .

والفساد أن تنقل عيال افعل ولا تفعل . فتضع هذه مكان هذه . فينتقلب الميزان . أى أنك فيها قال الله فيه افعل . لا تفعل ، وفيها قال لا تفعل . تفعل . .

فتكون قد جعلت ميزان حياتك معكوساً . لماذا ؟ لاننا غير محكومين بقاعدة كلية تنظم حياة الناس . فكل واحد يضع قاعدة له . وكل واحد لن يفعل ما عليه . فيحدث تصادم في الحياة . وكل فساد يشكل قبحاً في الوجود . فهب أنك تسير في الطريق . وترى عمارة مبنية حديثاً . قد تسربت المياه من مواسيرها . عندما ترى ذلك تتأذى . لأن هناك قبحاً في الوجود . في عدم امانة انسان في عمله . اذن فحين يفسد

عامل واحد . بعدم الاخلاص في عمله . يفقد الكون نعمة يحياها الله . في أن ترى الشيء الجميل . فتقول : الله ..

فكل انسان غير أمين في عمله . يفسد في الكون . وكل انسان غير أمين في خلقه يفسد في الكون . ويعتدى على حرمت الآخرين وأموالهم . وهذا يجعل الكون قبيحا ، فلا يوجد انسان يأمن على عرضه وماله ...

لقد أراد المعتدي أن يحقق ما ينفع به نفسه عاجلا . ولكنه أحدث فسادا في الكون . كذلك عندما يمش التاجر الناس . وعندما يكتسب الانسان المال بالتهب والسرقة . فيفتح الله عليه أسوأ مصارف المال في الوجود . فهو أخذ الحسرة بالفساد في الأرض .

والفساد في الأرض أن تخرج الشيء عن حد اعتداله . فتسرف في شهواتك وتسرف في أطعامك . وتسرف في عقابك للناس . وتسرف باعتدائك على حقوق الغير . والفساد في الأرض . أن يوجد منيع معطب غير منيع الله .

إن غياب منيع الله معناه أن يصبح كل منا عبد أهوائه . وإذا صارت الأمور حسب أهواء الناس . جاءت لهم حركة الحياة بالشقاء والشر بدلا من السعادة والأمن . ان ما نراه اليوم من شكوى الناس علامة على الفساد .

لأن معناها أن الناس تعاني ولا أحد يتحرك . ليرفع أسباب هذه الشكوى . ولن يستقيم أمر هذا الوجود ، ويتخلص من الفساد الا اذا حكمنا منيع لا هوى له . والذي لا هوى له هو خالق البشر . واضح ميزان الكون .

وأول مظاهر الفساد . أن يوكل الأمر الى غير أهله . لأنه اذا أعطى الأمر الى غير أهله فانتهز الساعة . كما يقول الرسول صل الله عليه وسلم :
« اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة » (١)

لماذا ؟ لأن المجتمع - حيثذ - يكون مبنيًا على النفاق واختلال الأمور ، لا على الاتقان والاخلاص . فالذي يجيد النفاق هو الذي يصل الى الدرجات العلا ، والذي يتقن عمله لا يصل الى شيء . وتكون النتيجة أن مجموعة من المنافقين الجهلة هم الذين يسيرون الأمور بدون علم . والفساد في الأرض هو أن يضيع الحق . ويضيع القيم . ويصبح المجتمع غابة . كل انسان يريد أن يحقق هواه بصرف النظر عن حقوق الآخرين . ويحس من يعمل ولا يصل الى حقه .. أنه لا فائدة من العمل ، فيتحول المجتمع كله الى مجموعة من غير المتجبن .

والفساد في الأرض هو أن نجعل عقولنا هي الحاكمة . فلا نتأمل في ميزان الكون الذي خلقه الله ، وانما نحس بعقولنا نخطط .. فنقطع الأشجار ونرمي غلقات المصانع في الأنهار فنفسدها . ونأثى بالكيمويات السامة نرش بها الزرع أو نجاري المياه والأنهار كما يحدث الآن فنملؤه سُمًا ثم نأكله ثم نجد التلوث قد ملأ الكون . وطبقة الأوزون قد أصابها ضرر واضح يعرض حياة البشر على الأرض لأخطار كبيرة . وتفسد مياه الأنهار . ولا تصبح صالحة للشرب ولا للرى . ويضيع الخير من الدنيا بالتدريج . والفساد في الأرض . هو أن يتشر الظلم . وتصبح الحياة سلسلة لا تنتهي من الشقاء . والفساد في الأرض هو أن تضيع الأمانة . فتفسد المعاملات بين الناس . وتضيع الحقوق .

هذه هي بعض أوجه الفساد في الأرض . والله سبحانه وتعالى قد وضع قاتونا كليًا ، هو منهجه ليتعامل به الناس . ولكن الناس تركوه . ومشوا يتخبطون في ظلام الجهل . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من استعمل رجلا من عصابة ، وفيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » (١)

وهكذا يكون مدى حرص الاسلام على استقامة أمور الناس .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « أولئك هم الخاسرون » خسروا ماذا ؟ خسروا دنياهم وآخرتهم وخسروا أنفسهم . لأن الانسان له حياتان .. حياة قصيرة في الدنيا مليئة بالمتاعب . وحياة طويلة خالدة في الآخرة .

والذى يبيع الحياة الأبدية ونعيمها وتخلوها بحياة الدنيا التى لا يضمن فيها شيئا ، يكون من الحاسرين .. لعمر الانسان قد يكون يوما أو شهرا أو عاما . والحياة الدنيا معها طالت فهو قصيرة . ومهما أعطت فهو قليل . فالذى يبيع آخرته بهذه الدنيا ، أهلك رابعا أم خاسرا ؟ طبعاً يكون خاسرا . لأنه اشترى مالا يساوى بنعيم الله كله ..

وإذا كان الانسان قد نسي الله سبحانه وتعالى وهو لاقية حتما . ثم يبعث يوم القيامة ليجده أمامه . فيوفيه حسابه . أليكون قد كسب أم خسر ؟ .. طبعاً يكون خاسرا . لأنه أوجب على نفسه عذاب الله . وأوجب على نفسه عقاب الله .

ان قوله تعالى : « الحاسرون » تدل على أن الصفقة انتهت وضاع كل شيء لأن نتيجتها كانت الخسران ، وليس الخسران موقوتا ، ولا هو خسران يمكن أن يموض في الصفقة القادمة . بل هو خسران أبدي ، والندم عليها سيكون شديدا . وقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكَ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبَسْنِي كُنتُ رَبًّا ۝ ١٥ ﴾

(سورة النبا)

لماذا يتمنى الكافر أن يكون ترابا ؟ لعل العذاب الذى يراه أمامه . وهو الخسران الذى تعرض له . وهذا دليل على شدة الندم . يوم لا ينفع الندم . على أنه سبحانه وتعالى تحدث في هذه الآية عن الحاسرين . ولكنه جل جلاله . تحدث في آية أخرى عن الأعرسين . فقال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ تَنْبَشُّونَ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ ١٦ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ ١٧ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاقِبَتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا ۝ ١٨ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فهناك خاسر . وهناك من هو أخسر منه . والأخسر هو الذي كفر بالله جل جلاله . ويوم القيامة . واعتقد أن حياته في الدنيا فقط . ولم يكن الله في باله وهو يعمل أن عمل ، بل كانت الدنيا هي التي تشغله . ثم فوجيء بالحق سبحانه وتعالى يوم القيامة . ولم يحسب له أية حسنة ، لأنه كان يقصد بحسناته الحياة الدنيا . فلا يوجد له رصيد في الآخرة .

والمعجب أنك ترى الناس . يعدون للحياة الدنيا اعدادا قويا . فيرسلون أولادهم الى مدارس لغات . ويتحملون في ذلك مالا يطيقون . ثم يدفعونهم الى الجامعات . أو الى الدراسة في الخارج . هم في ذلك يعدونهم لمستقبل مظنون . وليس يقينا . لأن الانسان يمكن أن يموت وهو شاب . فيضيع كل ما أنفقوه من أجله . ويمكن أن ينحرف في آخر مراحل دراسته . فلا يحصل على شيء . ويمكن أن يتم هذا الاعداد كله ، ثم بعد ذلك يرتكب جريمة يفضي فيها بقية عمره في السجن . فيضيع عمره .

ولكن اليقين الذي لاشك فيه هو أننا جميعا سنلاقي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة . ومسيحاسينا على أعمالنا . ومع أن هذا يقين ، فإن كثيرا من الناس لا يلتفتون اليه . يسعون للمستقبل المظنون . ولا يحس واحد منهم بيقين الآخرة . فتجد قليلا من الآباء هم الذين يبذلون جهدا لحمل أبنائهم على الصلاة وعبادة الله والأمانة وكل ما يقرهم الى الله . . انهم ينسون النعيم الحقيقي . ويمرون وراء الزائل فتكون النتيجة عليهم وبالا في الآخرة .



﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

كيف في اللغة للسؤال عن الحال . وخلق سبحانه وتعالى أرودها في هذه الآية الكريمة ليس بغرض الاستفهام ، ولكن لطلب تفسير أمر عجيب ما كان يجب أن يحدث . وبعد كل ما رواه الحق سبحانه وتعالى في آيات سابقة من أدلة دامغة عن خلق السموات والأرض وخلق الناس .. أدلة لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يخطئها .. فكيف بعد هذه الأدلة الواضحة تكفرون بالله ؟ .. كفركم لأحجة لكم فيه ولا منطق .. والسؤال يكون مرة للتوبيخ .. كأن تقول لرجل كيف نسب أباك ؟ أو للمتعب من شيء قد فعله وما كان يجب أن يفعله .. وكلاهما متلاحقان . سواء كان القصد التوبيخ أو التعجب فالقصد واحد .. فهذا ما كان يجب أن يصح منك . ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بأدلة أخرى لا يستطيع أحد أن ينكرها أو يكذب بها .. فيقول جل جلاله : « وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ » .

وهكذا ينتقل الكلام الى اصل الحياة والموت . فبعد ان بين الحق سبحانه وتعالى .. ماذا يفعل الكافرون والفاسقون والمنافقون من افساد في الأرض .. وقطع لما أمر الله سبحانه وتعالى به أن يوصل .. صعد الجدل الى حديث عن الحياة والموت . وقوله تعالى « كنتم أمواتا فأحياكم » قضية لا تحتل الجدل .. ربما استطاعوا المجادلة في مسألة عدم اتباع المنهج ، أو قطع ما أمر الله به أن يوصل ..

ولكن قضية الحياة والموت لا يمكن لأحد أن يجادل فيها . فآله سبحانه وتعالى خلقنا من عدم .. ولم يدع أحد قط أنه خلق الناس أو خلق نفسه .. وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال للناس ان الذي خلقكم هو الله .. لم يستطع أحد أن يكذبه ولن يستطيع .. ذلك أننا كنا فعلا غير موجودين في الدنيا .. والله سبحانه وتعالى هو الذي أوجدنا واعطانا الحياة ..

وقوله تعالى : « ثم يميتكم » . فإن أحدا لا يشك في أنه سيموت .. الموت مقدر على الناس جميعا .. والخلق من العدم واقع بالدليل .. والموت واقع بالحس والملاحظة ..

إن قضية الموت هي سبيلنا لمواجهة أى ملحد .. فإن قالوا إن العقل كاف لإدارة الحياة .. وأنه لا يوجد شيء اسمه غيب .. قلنا : الذى تحكم فى الخلق إيمادا ، هو الذى يتحكم فيه موتا .. والحياة الدنيا هي مرحلة بين قوسين .. القوس الأول هو أن الله يخلقنا ويوجدنا .. ونقضى رحلة الحياة إلى القوس الثانى .. الذى نحمد فيه بشرتنا وتوقف حياتنا وهو الموت . أى أننا فى رحلة الحياة من الله وإلى الله ..

اذن فحركة الحياة الدنيا هي بداية من الله بالخلق ونهاية بالموت ..

إنهم عندما يتحدثون عن أطفال الأنابيب .. وهي عملية لعلاج العقم أكثر من أى شيء آخر .. ولكنهم صوروها تصويرا جاهليا .. وكل ما يحدث أنهم يأخذون بويضة من رحم الأم التى يكون المهبل عندها مسدودا أو لا يسمح بالتلقيح الطبيعى .. يأخذون هذه البويضة من رحم الأم .. ويخصبونها بالحيوانات المنوية للزوج .. ثم يزرعونها فى رحم الأم .

إنهم أخذوا من خلق الله وهي بويضة الأم والحيوان المنوى من الرجل .. وكل ما يفعلونه هو عملية التلقيح ومع ذلك يسمونه أطفال الأنابيب .. كأن الانبوبة يمكن أن تخلق طفلا !! والحقيقة غير ذلك .. فبويضة الأم ، والحيوان المنوى للرجل هما من خلق الله .. وهم لم يخلقوا شيئا .. أننا نقول لهم : إذا كنتم تملكون الموت والحياة فامتعوا إنسانا واحدا أن يموت .. بدلا من اتفاق آلاف الجنين في معالجة عقم قد ينجم أو لا ينتج .. ابقوا واحدا على قيد الحياة .. ولن يستطيعوا ..

إن الموت أمر حسي مشاهد .. ولذلك فمن رحمة الله بالعقل البشرى بالنسبة للأحداث الغيبية أن الله سبحانه وتعالى قربها لنا بشيء مشاهد .. كيف ؟ .. عندما ينظر الإنسان إلى نفسه وهو حي .. لا يعرف كيف أحياه الله وكيف خلقه .. الله سبحانه وتعالى ذكر لنا غيب الخلق فى القرآن الكريم فقال جل جلاله أنه خلق الإنسان من تراب وعن طين وعن حمأ مسنون ثم نفخ فيه من روحه ..

واقراً قول الحق سبحانه :

﴿ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن رَّابٍ ۝۱ ﴾

(من الآية ١ سورة الحج)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝۱۱ ﴾

(سورة المؤمنون)

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا خَلَقْنٰهُمْ مِن طِينٍ لَّازِبٍ ۝۱ ﴾

(من الآية ١١ سورة الصافات)

وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلَاسِلٍ مِّن حَمَلٍ مُّسْنُونٍ ۝۱۵ ﴾

(سورة الحجر)

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا صَوَّبْنَاهُ وَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحٍ فَقَعَا لَهُ سَاجِدِينَ ۝۱۶ ﴾

(سورة ص)

فالحق تبارك وتعالى أخبرنا عن مرحلة في الخلق لم نشهدها .. ولكن الموت شيء مشهود لنا جميعا .. ومادام مشهودا لنا ، يأتي الحق سبحانه وتعالى به كدليل على مراحل الخلق التي لم نشهدها .. فالموت نقض للحياة .. والحياة أخبرنا الله تبارك وتعالى بأطوارها .. ولكنها غيب لم نشهدها ..

ولكن الذي خلق قال أنا خلقتك من تراب .. من طين .. من حمأ مسنون .. من صلصال كالفخار .. فلما وضع على تراب فأصبح طينا .. والطين تركناه ففتير لونه وأصبح صلصالا .. الصلصال .. جف فأصبح حمأ مسنونا ، ثم نحته في صورة انسان ونفخ الحق سبحانه وتعالى فيه الروح فأصبح بشرا .. ثم يأتي الموت وهو نقض للحياة .. ونقض كل شيء يأتي على عكس بنائه ..

بناء العارة يبدأ من أسفل الى أعلى .. وهدمها يبدأ من أعلى الى أسفل .. ولذلك فإن آخر مرحلة من رحلة ما .. هي أول خطوة في طريق العودة .. فإذا كنت مسافرا الى الاسكتلندية .. فأول مكان في طريق العودة هو آخر مكان وصلت اليه .

أول شيء يخرج من الجسد هو الروح وهو آخر ما دخل فيه .. ثم بعد ذلك يتصلب الجسد ويصبح كالخمس المسنون .. ثم يتعفن فيصبح كالصلصال .. ثم يتجرم الماء الذي فيه فيعود ترابا .. وهكذا يكون الموت نقض صورة الحياة .. متفقا مع المراحل التي بينها لنا الحق سبحانه وتعالى ..

وقوله تعالى : « ثم اليه ترجعون » .. أى أن الله تبارك وتعالى يبعثكم ليحاسبكم .. لقد حاول الكفار والملحدون واصحاب الفلسفة المادية ان يتكروا قضية البعث .. وهم في هذا لم يأتوا بجديد .. بل جاءوا بالكلام نفسه الذي قاله اصحاب الجاهلية الأولى .. واقرأ قوله تعالى عما يقوله اصحاب الجاهلية الأولى :

﴿ وَقَالُوا مَتَىٰ الْآيَاتُ الَّتِي أَنْتَ نَذِرُنَا مَوْتًا وَيَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا اللَّهُ مَرَّةً ﴾

(من الآية ٢٤ سورة البقرة)

وامنية الكافر والمسرف على نفسه .. الا يكون هناك بعث أو حساب .. والذين يتعجبون من ذلك نقول لهم : ان الله سبحانه وتعالى الذي أوجدكم من عدم

يستطيع أن يمدكم وقد كنتم موجودين .. يقول جل جلاله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأُولَىٰ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٧﴾

(سورة الروم)

فالإيمان ما كان موجوداً أسهل من الإيمان من عدم حل غير مثال موجود .. والله سبحانه وتعالى يرد على الكفار فيقول سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَسَىٰ خَلَقَهُمْ قَالَ مَنْ يُمَيِّزُ الْعِظَمَ ۚ وَهِيَ رَيْبُكُمْ ۝١٨ قُلْ يُحْيِيهَا
الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝١٩﴾

(سورة يس)

وهكذا فإن البعث أهون على الله من بداية الخلق .. وكل شيء مكتوب عند الله سبحانه وتعالى في كتاب مبين .. وما أخذته الأرض من جسد الإنسان تردده يوم القيامة .. ليعود من جديد .

وخلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان .. واقروا قوله وتعالى :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَئِنْ أَكْثَرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٠﴾

(سورة غافر)

وقول الله سبحانه وتعالى : « ثم إليه ترجعون » .. هو اعطيتان لمن آمن .. ومادعنا إليه ترجع ومنه بدأنا .. فالخليفة بدايتها من الله ونهايتها إلى الله .. فلتجعلها هي نفسها لله .. ولا بد أن نلفت إلى أن الله تبارك وتعالى أغشى عنا الموت زماناً ومكاناً وسبباً وعمراناً .. لم يخفه ليحييه ، ولما أخفاه حتى تنورقه في كل لحظة .. وهذا اعلام واسع بالموت حتى يسرع الناس إلى العمل الصالح .. وإلى المثوبة ، لأنه

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ
إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ عَالِمٌ﴾ ﴿٨﴾

يذكرنا الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أنه هو الذي خلق ما في الأرض جميعا .
وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : « فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه
ترجعون » لتلفتنا الى أن ما في الأرض كله ملك لله جل جلاله ، وأنتا لا تملك شيئا
الا ملكية مؤقته . وأن ما لنا في الدنيا سيصير لغربنا . وهكذا .

والحق سبحانه وتعالى حين خلق الحياة وقال « كنتم أمواتا فأحياكم » كان الحياة
تحتاج الى امداد من الخالق للمخلوق حتى يمكن أن تستمر . فلا بد لكي تستمر الحياة
أن يستمر الإمداد بالنعم . ولكن النعم تظل طوال فترة الحياة ، وعند الموت تنتهي
علاقة الانسان بنعم الدنيا . ولذلك لا بد أن ينتبه الانسان الى أن الأشياء مسخرة له
في الدنيا لتخدمه . وأن هذا التسخير ليس بقدرات أحد . ولكن بقدرة الله سبحانه
وتعالى . والانسان لا يدري كيف تم الخلق . ولا ماهي مراحلها الا أن ينجربنا الله
سبحانه وتعالى بها . فهو جل جلاله يقول :

﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُنْجِذَ الْمُضِلِّينَ
عَصَا ﴾ ﴿٥١﴾

(سورة الكهف)

ومادموا لم يشهدوا خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم . فلا بد أن تأخذ
ذلك عن الله ما ينبتا به الله من خلق السموات والأرض وعن خلقنا هو الحقيقة .
وما يأتيها عن غير الله سبحانه وتعالى فهو ضلال وزيف . ونحن الآن نجد بحوثا

كثيرة عن كيفية السموات والأرض وخلق الإنسان . وكلها لن تصل الى حقيقة . بل ستظل نظريات بلا دليل . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » أى أن هناك من سيأتى ويضل . ويقول هكذا تم خلق السموات والأرض ، وهكذا خلق الإنسان . هؤلاء المضلون الذين جاءوا بأشياء هي من علم الله وحده . جاءوا بتبني لمنهج الايمان . فلولم يأت هؤلاء المضلون ، ولولم يقولوا خلقت الأرض بطريقة كذا والسماء بطريقة كذا . لقلنا ان الله تعالى قد اخبرنا في كتابه العزيز أن هناك من سيأتى ويضل في خلق الكون وخلق الإنسان ولكن كونهم أثروا . فهذا دليل على صدق القرآن الذى أنبأنا بمجيئهم قبل أن يأتوا بقرون .

والاستفادة من الشيء لا تقتضى معرفة أسرارهِ . . فنحن مثلا نستخدم الكهرباء مع أننا لا نعرف ما هي ؟ وكذلك نعيش على الأرض ونستفيد بكل ظواهرها وكل ما مسخره الله لنا . وعلم علمنا بسر الخلق والايحاء لا يحرمانا هذه الغائبة . فهو علم لا يتفق وجهل لا يضُر . والكون مسخر لخدمة الإنسان . والتسخير معناه التذليل ولا تتمرد ظواهر الكون على الإنسان . وإذا كانت هناك ظواهر في الكون تتمرد بقدر الله . مثل الفيضانات والبراكين والكواريث الطبيعية . نقول ان ذلك يحدث ليلفتنا الحق سبحانه وتعالى الى أن كل ما في الكون لا يخدمنا بذاتنا . ولا يسيطرنا عليه ، وإنما يخدمنا بأمر الله له ، والا لو كانت المخلوقات تخدمك بذاتك . فاقدر عليها حينها تتمرد على خدمتك . وكل ما في الكون خاضع لطلاقة قدرة الله . حتى الاسباب والمسببات خاضعة أيضا لطلاقة القدرة الألهية . فالاسباب والمسببات في الكون لا تخرج عن ارادة الله .

لذلك اذا تمرد الماء بالطوفان . وتمردت الرياح بالعاصفة . وتمردت الأرض بالزلازل والبراكين . فما ذلك الا ليعرف الإنسان أنه ليس بقدرته أن يسيطر على الكون الذى يعيش فيه . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٥٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

والانسان عاجز عن أن يخضع حيوانا لا يتذلل الله له . . ومن العجيب انك ترى الحيوانات تدرك ما لا يدركه الانسان في الكون . فهي تحس بالزلازل قبل أن يقع . وتخرج من مكان الزلازل هاربة . بينما الانسان لا يستطيع بعقله أن يفهم ما سيحدث .

والحق سبحانه وتعالى في قوله : « خلق لكم ما في الأرض جميعا » يستوجب كل أجناس الأرض . ولذلك فإن الانسان لا يستطيع أن يوجد شيئا الا من موجود . أي أن الانسان لم يتحدث شيئا في الكون . فانت اذا أخذت حبة القمح . من أين جئت بها ؟ من محصول العام الماضي . . و محصول العام الماضي . من أين جاء ؟ . . من محصول العام الذي قبله . وهكذا يظل تسلسل الأشياء حتى تصل الى حبة القمح الأولى . من أين جاءت ؟ جاءت بالخلق المباشر من الله . وكذلك كل ثمار الأرض اذا أعدتها للشجرة الأولى فهي بالخلق المباشر من الله سبحانه وتعالى . فاذا حاولت أن تصل الى أصل وجود الانسان . ستجد بالمنطق والعقل . . أن بذاية الخلق هي من ذكر وأنثى . خلقا بالخلق المباشر من الله . لأنك أنت من إيبك وأبوك من جدك . وجدك من إيبه . وهكذا تمضي حتى تصل الى خلق الانسان الاول . فتجد انه لا بد أن يكون خلقا مباشرا من الله سبحانه وتعالى . وما ينطبق على الانسان ينطبق على الحيوان وعلى النبات وعلى الجهاد . فكل شيء اذا رددته لأصله تجد أنه لا بد أن يبدأ بخلق مباشر من الله سبحانه وتعالى .

بعض الناس يتساءل عن الرقى والحضارة وهذه الاختراعات الجديدة . أليس للانسان فيها خلق ؟ . . نقول فيها خلق من موجود . والله سبحانه وتعالى كشف من علمه للبشر ما يستطيعون باستخدام المواد التي خلقها الله في الأرض أن يرتقوا ويصنعوا أشياء جديدة . ولكننا لم نجد ولم نسمع عن انسان خلق مادة من عدم .

الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق كل ما في هذا الكون من عدم . ثم بعد ذلك تكاثرت المخلوقات بقوانين سخرها الله سبحانه وتعالى لها . ولكن كل هذا التطور راجع الى أن الله خلق المخلوقات وأعطاهما خاصية التناسل والتزاوج لتستمر الحياة جيلا بعد جيل . وكل خلق الله الذي تراه في الكون الآن قد وضعه الله سبحانه وتعالى فيه من قوانين الأسباب ما يعطيه استمرارية الحياة من جيل الى جيل حتى ينتهي الكون . فاذا قال لك انسان : أنا أزوع يذكائي وعلمي . فقل له : أنت تأني

بالبذرة التي خلقها الله . وتضعها في الأرض المخلوقة لله . وينزل الله سبحانه وتعالى الماء عليها من السماء . وتنبث بقوة الله الذي وضع فيها غذاءها وطريقة انبائها . اذن فكل ما يحدث أنك تحرث الأرض . وترمي البذرة . يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّكُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّ الزَّرْعَ حَبَّ ۖ ﴾

(سورة الزمر)

صحيح أن الانسان يقوم بحرث الأرض ورمى البذرة . وربما تعهد الزرع بالعناية والري . ولكن ليس في كل ما يفعله مهمة خلق . بل ان الله سبحانه وتعالى هو خالق كل شيء . ولو كنت تزرع بقوتك فأت ببذرة من غير خلق الله . وأرض لم يخلقها الله . وماء لم ينزله الله من السماء . وطبعاً لن تستطيع . . ولكن ما هو مصدر الأشياء التي استحدثت ؟

نقول إن هناك فرقا بين وجود الشيء بالقوة . وجوده بالفعل . . فالنخلة مثلاً حبة كانت موجودة بالقوة . كانت نواة . ثم زرعت فأصبحت موجودة بالفعل . وأنت لا عمل لك في الحالتين فلا أنت بقوتك خلقت النواة . التي هي البذرة . ولا أنت بفعلك جعلت النواة تكبر . لتصبح نخلة بالفعل . عل أن هناك أشياء مطمورة في الكون . خلقها الله سبحانه وتعالى مع بداية الخلق . ثم تركها مطمورة في الكون . حتى كشفها الله لمن يبحث عن أسرارهِ في كونه .

وكل كشف له ميلاد . اذا أخذنا مثلاً ما تحت الثرى . أو الكنوز الموجودة تحت سطح الأرض . لقد ظلت مطمورة حتى هدى الله الانسان اليها . وعلمه كيف يستخرجها . فالانسان لم يتخترع مثلاً أو يوجد البترول أو المعادن . ولكنها كلها كانت مطمورة في الكون حتى جاء الوقت الذي يجب أن تؤدي فيه دورها في الحياة . فدلنا الحق عليها ، فليس معنى أن الشيء كان غائياً عنا أنه لم يكن موجوداً . أو أنه وجد لحظة اكتشافنا له . فالشيء الحادث الآن ، والشيء الذي سيحدث بعد سنوات . . خلق الله سبحانه وتعالى كل عناصره . وأودعها في الأرض لحظة الخلق . والانسان بما يكشف الله له من علم يستطيع تركيب هذه العناصر . ولكنه لا يستطيع خلقها أو إيجادها . والحق سبحانه وتعالى يقول : « ثم استوى إلى السماء » .

حينما يقول الله جل جلاله . استوى . يجب ان نفهم كل شيء متعلق بذات الله على أنه سبحانه ليس كمثله شيء . فالله استوى والمثلوك تستوى على عروشها . وانت تستوى على كرسك . ولكن لاننا محكومون بقضية « ليس كمثله شيء » لابد أن نعرف أن استواء الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء . والله حى . وأنت حى . هل حياتك كحياته ؟ والله سبحانه وتعالى يعلم وأنت تعلم . هل علمك كعلمه ؟ والله سبحانه وتعالى يقدر . وأنت تقدر . هل قدرتك كقدرته . طبعاً لا . فحينما تأتى الى « استوى » فلا تحاول أن تفهمها ابداً بالفهم البشرى . . فالله سبحانه وتعالى يعلم ما فى الأرض وما فى السماء . وهو سبحانه يعلم المكان بكل ذراته . والموجودين فى هذا المكان او المكين . بكل ذراته . وأنت ترى ظاهراً الأمر . . والله سبحانه وتعالى يعلم غيب السموات والأرض حتى يوم القيامة . وبعد يوم القيامة اذن فهو جل جلاله . ليس كمثله شيء . ولا يمكن أن نحيط أنت بعقلك بفعل يتعلق بذات الله سبحانه وتعالى . فعقلك قاصر عن أن يدرك ذلك . لذلك قل سبحانه الله . ليس كمثله شيء . فى كل فعل يتصل بذات الله . . « استوى الى السماء » هذا الكلام هو كلام الله . فالتحدث هو الله عز وجل .

بعض الناس يقولون تلقينا القرآن وحفظناه . نقول لهم ان الذي حفظ القرآن هو الله سبحانه وتعالى . ومادام قد حفظ كلامه فهو جل جلاله يعلم أن الوجود كله لن يتعارض مع القرآن الكريم .. والله سبحانه وتعالى حفظ القرآن ليكون حجة له على الناس. ومادام الله جل جلاله هو الخالق . وهو القائل . فلا توجد حقيقة في الوجود كله تتصادم مع القرآن الكريم .. وأقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ قَوْلُكَ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ⑤

(صورة الجهر)

وهذا من عظمة الله أن حفظ كلامه ليكون حجة على الناس . والله سبحانه وتعالى وجدت صفاته قبل أن توجد متعلقات هذه الصفات . فهو جل جلاله . خلق لأنه خالق . كان صفة المخلوق وجدت أولاً . والا كيف خلق أول خلقه . ان لم يكن سبحانه وتعالى خالقاً ؟

والله سبحانه وتعالى رزاق . قبا . أن يوحد من يرزقه . والا فبأي قدرة رزق الله

أول خلقه ؟ والله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون بكمال صفاته . وشهد أنه لا اله الا هو قبل أن يشهد اى من خلق الله أنه لا اله الا الله . واقرأ قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

فالله سبحانه وتعالى شهد أنه لا اله الا هو قبل أن يوجد أحد من خلقه يشهد بوحداية ألوهيته . شهد أنه لا اله الا هو قبل أن يخلق الملائكة . ليشهدوا شهادة مشهد بأنه لا اله الا الله . وأولوا العلم شهادة علم . فكان شهادة الذات للذات . في قوله تعالى « شهد الله أنه لا اله الا هو » هي التي يعتد بها ، وهي أقوى الشهادات ، فانه ليس محتاجا من خلقه إلى امتداد الشهادة .

الله سبحانه وتعالى : بعد أن خلق الأرض وخلق السماء واستتب له الأمر . قال « وهو بكل شيء عليم » أى لا تغيب ذرة من ملكه عن علمه . فهو عليم بكل ذرات الأرض وكل ذرات الناس . وكل ذرات الكون . والكون كله لا يفعل الا بأذنه ومراده . واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَلْقَىٰ فِيهَا إِنَّمَا إِنَّكَ مُثَقَّلَةٌ خَبْرًا مِّنْ نَّحَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَكِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾

(سورة النمل)



﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً
قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾﴾

بعد أن أخبرنا الحق سبحانه وتعالى . أنه خلق جميع ما في الكون . أراد أن يخبرنا
عمن خلقه لمهارة هذا الكون . فكان القصة التي بدأ الله سبحانه وتعالى بها قصص
القرآن كانت هي قصة آدم أول الخلق . ولقد وردت هذه القصة في القرآن
الكريم كثيرا لتدلنا لماذا أخبرنا الحق سبحانه وتعالى بهذه القصة ؟ وجاءت لتدلنا أيضا
على صدق البلاغ عن الله . واقرأ قوله تعالى :

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾

(من الآية ١٣ سورة الكهف)

كلمة الحق التي جاءت هنا لتدلنا على أن هناك قصصا . ولكن بغير حق . والله
سبحانه وتعالى أراد أن يخرج قصصه عن دائرة القصص التي يتداولها الناس أو
قصص التاريخ لإمكان مخالفتها الواقع وتأتي بغير حق . وهناك قصص تروى في
الدنيا ولا واقع لها ، بل هي من قبيل الخيال .

وكلمة قصة . مأخوذة من قص الأثر . بمعنى أن يتبع قصاص الأثر في الصحراء
الأثار التي يشاهدها على الرمال حتى يصل إلى مراده . عندما يصل إلى نهاية الأثر . .
ومادامنا قد عرفنا أن الله يقص الحق . نعرف أن قصص القرآن الكريم كلها
أحداث وقعت فعلا . ولكل قصة في القرآن عبرة . أو شيء مهم يريد الحق سبحانه
وتعالى أن يلفتنا إليه . فمرة تكون القصة لتثبت النبي صل الله عليه وسلم وتثبيت

المؤمنين : واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُمْ بِهِمْ فُؤَادَكَ ۚ ﴾

(عن الآية ١٢٠ سورة هود)

فكل قصة تثبت فؤاد الرسول والمؤمنين في المواقف التي تزلزلهم فيها الأحداث . وقصص القرآن ليست لقتل الوقت . ولكن الهدف الأسمى للقصة هو تثبيت ونفع حركة الحياة الإيمانية . ولو نظرنا إلى قصص القرآن الكريم نجد أنها تتحدث عن أشياء مضت وأصبحت تاريخاً . والتاريخ يربط الأحداث بأزمانها . وقد يكون التاريخ لشخص لا لحدث . ولكن الشخص حدث من أحداث الدنيا . ولو قرأت تاريخ كل حدث لوجدت أنه يعبر عن وجهة نظر راويه . فكل قصص التاريخ كتبت من وجهات نظر من رووها . ولذلك . فالقصة الواحدة تختلف باختلاف الراوى .

ولكن قصص القرآن الكريم . هو القصص الحق . . والعبرة في قصص القرآن الكريم أنها تنقل لنا أحداثاً في التاريخ . تتكرر على مر الزمن . ففرعون مثلاً هو كل حاكم يريد أن يعبد في الأرض . وأهل الكهف مثلاً هي قصة كل فئة مؤمنة هربت من طغيان الكفر وانعزلت لتعبد الله . وقصة يوسف عليه السلام هي قصة كل اخوة نزغ الشيطان بينهم فجعلهم يفتقدون على بعضهم . وقصة ذى القرنين هي قصة كل حاكم مصلح أعطاه الله سيحانه الأسباب في الدنيا ومكنه في الأرض . فعمل بمنهج الله وبما يرضى الله . وقصة صالح هي قصة كل قوم طلبوا معجزة من الله . فحققها لهم فكفروا بها . وقصة شعيب عليه السلام .. هي قصة كل قوم سرقوا في الميزان والمكيال .

وهكذا كل قصص القرآن . قصص تتكرر في كل زمان . حتى في الوقت الذي نعيش فيه تجد فيه أكثر من فرعون . وأكثر من أهل كهف يقرون بدينهم . وأكثر من قارون يعبد المال والذهب . . وبحسب أنه استغنى عن الله . ولذلك جاءت شخصيات قصص القرآن بجملة الافة قصة واحدة هي قصة عيسى بن مريم ومريم ابنة عمران . لماذا ؟ لأنها معجزة لن تتكرر . ولذلك عرفها الله لنا فقال « مريم ابنة عمران » وقال « عيسى بن مريم » حتى لا يلتبس الأمر . وتدعى أى امرأة أنها حملت

يدون رجل . مثل مريم . نقول : لا . معجزة مريم لن تتكرر . ولذلك حثها الله تعالى بالاسم . فقال : عيسى بن مريم . ومريم ابنة عمران . . اما باقى قصص القرآن الكريم فقد جاءت مجملة . فلم يقل لنا الله تعالى من هو فرعون موسى . ولا من هم أهل الكهف ولا من هو ذو القرنين ولا من هو صاحب الجنتين . الى آخر ما جاء فى القرآن الكريم . لانه ليس المقصود بهذه القصص شخصا بعينه . لا تتكرر القصة مع غيره ، وبعض الناس يشغلون أنفسهم بمن هو فرعون موسى ؟ ومن هو ذو القرنين . . . الخ نقول لهم لن تصلوا الى شيء لأن الله سبحانه وتعالى قد روى لنا القصة دون توضيح للأشخاص . لنعرف أنه ليس المقصود شخصا بعينه . ولكن المقصود هو الحكمة من القصة .

والقصص فى القرآن لا ترد مكررة . وقد يأتى بعض منها فى آيات . وبعض منها فى آيات أخرى . ولكن اللقطة مختلفة . تعطيانا فى كل آية معلومة جديدة . بحيث انك اذا جمعت كل الآيات التى ذكرت فى القرآن الكريم . تجد أمامك قصة كاملة متكاملة . كل آية تضيف شيئا جديدا .

وأكبر القصص فى القرآن الكريم . قصة موسى عليه السلام . وذكروا القرآن الكريم بها دائما لأن أحداثها تعالج قصة أسوأ البشر فى التاريخ . وفى كل مناسبة يذكرنا الله بلقطة من حياة هؤلاء . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مُّوسَى أَنْ أَرْضِعِيْهِ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ قَاتِلِيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا نَأْتِيهِ بِآيَاتٍ ۖ وَجَاعِلُوْهُ مِنَ الْمُرْسَلِيْنَ ٥٦ ﴾

(الأنعام ٥٦ سورة القصص)

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مَّا يُوسَىٰ ٥٧ أَنْ أَقْبِلِيْهِ فِي الْغَابِوتِ فَأَقْبَلِيْهِ فِي الْيَمِّ ۖ فَلَبِثَ فِي الْيَمِّ يَلْبَسُ ۖ يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِّهِ وَعَدُوٌّ ۗ ٥٨ ﴾

(الأنعام ٥٧ ، ٥٨ سورة طه)

والفهم السطحي يظن أن هذا تكرار ونقول لا . فقله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم » .

هذه اللفظة تدل على أن الله سبحانه وتعالى يعد أم موسى اعداداً لإيمانها للحدث . ولكن عند وقوع الحدث تتغير القصة على نمط سريع « أن ألقاه في التابوت » فألقاه في اليم فليلقه اليم بالساحل » . كلام يناسب لحظة وقوع الحدث .. فالآية الأولى .. بينت لنا أن أم موسى أرضعته قبل أن تضعه في التابوت . وأنها ستلقيه في اليم عندما يحدث خطر وتخاف عليه من القتل . وفيه تطمين لها . الا تخاف ولا تحزن . لأن الله منجيه . وفيها بشارتان : أن الله سيرده لأمه . وأن الله قد اختاره رسولاً .

نأتى الى الآية الثانية التي تكمل لنا هذه اللفظة فنقول « القاه في التابوت » هنا نعرف ان أم موسى ستلقيه في تابوت ، وهو ما لم يذكر في الآية السابقة . ثم بعد ذلك نعلم أن الله سبحانه وتعالى أصدر أمره الى الماء أن يلقى التابوت الى الساحل . وهذا ما لم يرد في الآية السابقة . ونعرف ايضاً ان الذى سيأخذه وهو فرعون . ستكون بينها عداوة متبادلة .. وهكذا نرى أن آيتي القصة . يكمل بعضهما بعضاً . وليس هناك تكرار . والله سبحانه وتعالى في الآية الثانية يريد أن يثبت أنه ستكون هناك عداوة متبادلة بين موسى وفرعون .. كما أثبت عداوة فرعون لله جل جلاله ولموسى ، فقال : « عدو لى وعدو له » ولكن العداوة لا تستمر الا اذا كانت متبادلة . فتأتى آية ثالثة لتكمل الصورة .. في قوله تعالى :

﴿ فَالتَقَطَهُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرًّا ﴾

(من الآية ٨ سورة القصص)

وهكذا بينت لنا الآية الكريمة كيف أن العداوة بين فرعون وموسى تستمر حتى يقضى على فرعون . لأنه اذا كان انسان عدواً لك . وانت تقابل العداوة بالاحسان . تحمد العداوة بعد قليل . اذن هذه الآيات ليست تكراراً ولكنها آيات تكمل القصة .. وتعطينا الصورة الكاملة المتكاملة .

ولكن لماذا لم تأت قصة موسى متكاملة كقصة يوسف ؟ لأن الله سبحانه وتعالى

يريد أن يثبت بها نبينا عليه الصلاة والسلام والمؤمنين . فتأتى هنا لفظة وهنا لفظة . لتؤدى ما هو مطلوب من التثبيت بما لا ينحل . . لأن الآيات تعطينا القصة متكاملة . وهكذا قصة آدم . جاءت لنا في آيات متعددة ، لتعطينا في مجموعها قصة كاملة . وفى الوقت نفسه كل آية لها حكمة يحتاج إليها التوفيق الذى نزلت فيه . . قاله سبحانه وتعالى يروى لنا بداية الخلق ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب » (١) .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعرفنا كيف بدأ الخلق . وقصة عداوة إبليس لأدم وذريته . . فتكلم الله سبحانه وتعالى عن أول البشر . عرفنا اسمه . وهو آدم عليه السلام . وتكلم عن المادة التى خلق منها . وتكلم عن المنهج الذى وضعه لأدم . وحدثنا عن النقاش الذى دار مع الملائكة . كما أخبرنا بأن آدم سيكون خليفة فى الأرض . وأنه علمه الاسماء كلها ليقود حركة حياته . وعلمنا منطق علم الأشياء . وعلم مصيبتها . وحدثنا عن الحوار الذى حدث بين إبليس أمام ربه حينما أبى السجود . وبين لنا حجة إبليس فى الامتناع عن السجود ، وغطة إبليس ومدخله الى قلوب المؤمنين بالاغواء والوسوسة وغير ذلك .

إذن فهناك أشياء كثيرة . تعرض لها قصة آدم ، ولو أن بشرا يريد أن يؤرخ لأدم ما استطاع أن يأتى بكل هذه اللقطات . ولكن الحق سبحانه وتعالى جعل كل لفظة نائى للتثبيت .

والآية الكريمة التى نحن بصددها لم تأت فى الاعراف ولا فى الحجر ولا فى الاسراء ولا فى الكهف ولا فى طه . وهذا نعرف أنه ليس هناك تكرار . . فالحق سبحانه وتعالى أخبر ملائكته أنه جاعل فى الأرض خليفة . هنا لابد لنا من وقفة . أخلق آدم كفرد . ثم خلقه الله وكل ذريته مطمورة فيه الى يوم القيامة ، اذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكَ ثُمَّ صَوَّرْنَاكَ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

الخطاب هنا للجمع . لآدم وذريته . فكانه سبحانه وتعالى يشير الى أن الأصل الأول للخلق آدم ، وهو مطمور فيه صفات المخلوقين من ذريته الى أن تقوم الساعة ورائة . أى أنه ساعة خلق آدم .. كان فيه الذرات التى سيأخذ منها الخلق كله . هذا عن هذا .. حتى قيام الساعة .

ولقد قلتُ إن كل واحد منا فيه ذرة أو جزىء من آدم ، فأولاد آدم أخذوا منه والجيل الذى بعدهم أخذ من الميكروب الحى الذى أودعه آدم فى أولاده . والذين بعدهم أخذوا أيضاً من الجزىء الحى الذى خلق فى الأصل مع آدم . وكذلك الذين بعدهم . والذين بعدهم . والحياة لابد أن تكون حلقة متصلة . كل منا يأخذ من الذى قبله ويعطى الذى بعده . ولو كان هناك حلقة مفقودة . لتوقفت الحياة . كأن يموت الرجل قبل أن يتزوج . فلا تكون له ذرية من بعده . تتوقف حلقة الحياة . فتكون حلقة الحياة مستمرة . دليل أنها حياة متصلة . لم تتوقف . ومادامت الحياة من عهد آدم الى يومنا هذا متصلة . فلا بد أن يكون فى كل منا ذرة من آدم الذى هو بداية الحياة وأصلها . وانتقلت بعده الحياة فى حلقات متصلة الى يومنا هذا وستظل الى يوم القيامة .

فأنا الآن حى . لاني نشأت من ميكروب حى من أبى . وأبى أخذ حياته من ميكروب حى من أبيه . وهكذا حتى تصل الى آدم ، اذن فأنت مخلوق من جزىء حى فيه الحياة لم تتوقف منذ آدم الى يومنا هذا . ولو توقفت لما كان لك وجود . اذن فحياة الذين يعيشون الآن موصولة بآدم . لم يطرأ عليها موت . والذين سيعيشون وقت قيام الساعة حياتهم أيضاً موصولة بآدم أول الخلق . والحق سبحانه وتعالى . حين أمر الملائكة بالسجود لآدم . فإنهم سجدوا لآدم ولذريته الى أن تقوم الساعة . وذرية آدم كانت مطمورة فى ظهره . وشهدت الخلق الأول . اذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « لقد خلقناكم ثم صورناكم » فيه جزئية جديدة لقصة الخلق .

وقوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة « أى أن الله سبحانه وتعالى يطلب من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يقول انه عند خلق آدم . خلقه خليفة فى الارض . والكلام هنا لا يعنى أن الله سبحانه وتعالى يستشير أحداً فى الخلق . بدليل

انه قال « انى جاعل » إذن فهو أمر مفروغ منه . ولكنه اعلام للملائكة . . والله سبحانه وتعالى . عندما يحدث الملائكة عن ذلك فلان لهم مع آدم مهمة . فهناك المديرات أمرا . والحفظة الكرام . وغيرهم من الملائكة الذين سيكلفهم الحق سبحانه وتعالى مهام متعددة تتصل بحياة هذا المخلوق الجديد . فكان الاعلام . لان للملائكة عملا مع هذا الخليفة .

قد يقول بعض الناس . ان حياة الانسان على الأرض تخضع لقوانين ونواميس . نقول ما يدريك أن وراء كل ناموس ملكا ؟

ولكن هذا الخليفة سيخلف من ؟ قد يخلف بمضيه بعضا . في هذه الحالة يكون هنا اعلام من الله بأن كل انسان سيموت ويخلفه غيره . فلو كانوا جميعا سيعيشون ما خلف بعضهم بعضا . وقد يكون الانسان خليفة لجنس آخر . ولكن الله سبحانه وتعالى .. نفى أن يخلف الانسان جنسا آخر . واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ إِنِّي بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَيَتَوَكَّلْ عَلَيْهِمْ فَأَنِبْ فِيكُمْ بَأْسِيَ أَيُّكُمْ يَرْجِعْ إِلَى اللَّهِ لِمَ أَفْتِنُكُمْ مَّاعْلُومٌ ١٥٠ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ١٥١ ﴾

(سورة ابراهيم)

والخلق الجديد هو من نوع الخلق نفسه الذى أهلكه الله . والله سبحانه وتعالى يخبرنا أن البشر سيخلقون بعضهم الى يوم القيامة . . فيقول جل جلاله :

﴿ نَخْلَقُ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ١٥٢ ﴾

(سورة نهم)

ولكن هذا يطلق عليه خَلْفٌ . ولا يطلق عليه خليفة . والشاعر يقول :

ذهب الذين يعاش في اكنافهم

وبقيت في خلف كجلد الأجر

ولكن الله جعل الملائكة يسجدون لأدم ساعة الخلق وجعل الكون مسخرا له

فكانه خليفة الله في أرضه . أمده بعبء الأسباب . فخضع الكون له بإرادة الله .
وليس بإرادة الإنسان . والله سبحانه وتعالى يقول في حديث قنسي : « يا بن آدم
تفرغ لمبادق أملأ صدرك غنى وأسد فقرك . . وإلا تفعل ملأت بك شغلا ولم أسد
فقرك » (١)

اذن كلمة خليفة . تأخذ عدة معان . .
ماذا قالت الملائكة : « قالوا أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن
نسبح بحمدك ونقدس لك » .

كيف عرف الملائكة ذلك ؟ لا بد أن هناك حالة قبلها قاسوا عليها . أو أنهم ظنوا
أن آدم سيظف في الأرض . ولكن كلمة سفك وكلمة دم . كيف عرفتهما الملائكة
وهي لم تحدث بعد ؟ لا بد أنهم عرفوها من حياة سابقة . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا نَسَخْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ ﴾

(سورة الحجر)

فكان الجن قد خلق قبل الإنسان . وقوله تعالى : « إني أعلم ما لا تعلمون » .
معنى ذلك أن علمك أيها المخلوق مناسب لمخلوقيتك . أما علم الله سبحانه
وتعالى .. فهو أزلي لا نهائي . ولكن هل قال الملائكة حين أخبرهم الله بخلق آدم
ذلك علنا أم أسرره في أنفسهم ؟ سواء قالوه أم أسرره . فقد علمه الله . لأنه يعلم
ما يسرون وما يعلنون . وأنه يعلم السر وأخفى . فما هو السر . وما هو الأخفى من
السر ؟ السر هو ما أسرته الى غيرك . فما أسر به الى غيري . فهو السر . وما أخفيه
في صدري ولا يطلع عليه أحد . هو أخفى من السر . فلا يقال أسررت الا اذا
بحث به لغيري . أما ما أخفيه في صدري . فلا يعلمه أحد الا الله . فهذا هو
ما أخفى من السر .

وعندما يقول الحق سبحانه وتعالى : « إني أعلم ما لا تعلمون » أراد أن يعطى
القضية بعدها الحقيقي . وقد حكى القرآن الكريم قول الملائكة : « ونحن نسبح

(١) (رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة) .

بحمدك ونقدس لك .

والنسيج هو التنزيه عما لا يليق بذات المزه . والتقديس هو التطهير .. مأخوذ من القُدس وهو الدلو الذى كانوا يطهرون به . ولذلك نحن نقول نُسبح قُدوس . نُسبح أى نُبزه عن كل ما لا يليق بجلاله . وقُدوس . أى مُطَهَّر .. النسيج يحتاج الى مُسِّح . والى مانسيحه . والملائكة قالوا : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » .

وهذا نسيج وتنزيه لله سبحانه وتعالى .. والنسيج والتنزيه لا يكونان إلا للكمال المطلق الذى لا تشويه أية شائبة .. والكمال المطلق هو لله سبحانه وتعالى وحده . لذلك صرف الله السنة خلقه عن أن يقولوا كلمة سبحانك لغير الله تعالى . فلا تسمع فى حياتك أن إنسانا قال ليشر سبحانك . وهكذا صرفت السنة الخلق عن أن تسبح لغير الله سبحانه وتعالى . وقول الملائكة : « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » كان نقول سبحان الله وبحمده . ومعناها تنزيه لله سبحانه وتعالى فى ذاته .. فلا تشبه بذات . وفى صفاته . فلا تشبه بصفات وفى أفعاله . فلا تشبه بأفعال .. ولكن ما معنى كلمة وبحمده ؟ معناها أننا ننزهك ونحمدك . أى يارب تنزيها لك نعمة . ولذلك فإني أحمده على أنك أعطيتنى القدرة لأنزهك .. والتقديس هو تطهير الله سبحانه وتعالى من كل الأغيار . ولأنك يارب قُدوس طاهر . لا يليق أن يرفع اليك الا طاهر . ولا يليق أن يصدر عن مخلقه بيدك الا طاهر ..

إنه عزفا معنى نسيج بحمدك، وتقديس لك. ثم أراد الله بحكمته أن يرد على الملائكة فقال : « انى أعلم ما لا تعلمون » ولم يطلقها هكذا . ولكنه سبحانه أن بالقضية التى تؤكد صدق الواقع ..



﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ
فَقَالَ أَنْشِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١)

فالحق سبحانه وتعالى . رد على الملائكة بهذه الآية الكريمة . لأنه علم آدم الاسماء كلها . . وكلمة كلها تفيد الاحاطة . ومعنى الاحاطة معرفة كل شيء عن هذه الاسماء .

هنا يتبادر سؤال : هل عَلَّمَ الله سبحانه وتعالى آدم الاسماء منذ ساعة الخلق الى قيام الساعة مادام الحق سبحانه وتعالى يقول كلها . فما هو حكم تلك الاسماء التي هي لمخترعات ستأتي بعد خلق آدم بقرون طويلة ؟

نقول إن الله سبحانه وتعالى . حين علم آدم الاسماء وميزه على الملائكة يكون قد اعطى ذلك الأدنى عنصراً مميّزاً عن المخلوق من عنصر أعلى . فآدم مخلوق من طين . والملائكة مخلوقون من نور . وقدوات البشر لا تستطيع أن تعطي الأدنى شيئاً أكثر من الأعلى . ولكن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعطي ذلك لذكرنا أن ما نأخذه ليس بقدراتنا ولكن بقدرته هو سبحانه . ولذلك نحمد سليمان وهو ملك ونبي .. اعطاه الله تعالى ملكاً لا ينبئ لأحد من بعده . وميزه عن خلقه . بأن الهدد ليقول لسليمان : « احطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين » .

كيف يحيط الهدد وهو طائر ضعيف محدود بما لم يحط به سليمان وهو الملك النبي الذي حكم الاتس والجن ؟ لأن الله سبحانه وتعالى .. يكره الغرور من خلقه . ولذلك يأتي بأية تميز الأدنى عن الأعلى ليعلموا جميعاً أن كل قدراتهم ليست بذاتهم . وإنما هي من الله . فيأت موسى وهو الرسول والنبي .. فيتعلم من الخضر وهو العبد الصالح ما لم يكن يعلمه .

وقد خلق الله سبحانه المسميات وان كنا لا نعرف وجودها وجعل الملائكة تتلقى أسماء هذه المسميات من آدم . وإن البعض يتساءل عن وسيلة تعليم الخالق الأكرم لآدم عليه السلام . وتعليم الخالق يختلف عن تعليم الخلق . لأن الخالق يعلم الهاما . يقذف في قلب آدم أسماء المسميات كلها لكل مافي الكون من أسماء المخلوقات ..

اذن فللمشهد الأول . لآدم مع الملائكة . كان قد تم ايجاد كل المسميات وأهمها الله لآدم . بدليل أن الملائكة لم تتعرف على هذه المسميات . بينما عرفها آدم . وهنا لا بد لنا من وقفة . ان الكلام هو ناتج السمع . واللغة ناتج البيئة ، والله سبحانه وتعالى علم آدم الأسماء . وهذا العلم لا يمكن أن يأتي الا اذا كان آدم قد سمع من الله سبحانه وتعالى .. ثم نطق . فانت اذا أتيت بطفل عري .. وتركته في لندن مثلا .. فتراه يتكلم الانجليزية بطلاقة .. ولا يفهم كلمة واحدة من اللغة العربية . والعكس صحيح . اذا أتيت بطفل انجليزي . وتركته في بلد عري . يتكلم العربية .. ولا يعلم شيئا عن الانجليزية . اذن فاللغة ليست وراثه ولا جنسا ولا بيئة . ولكنها محاكاة يسمعها الانسان فينطق بها . واذا لم يسمع الانسان شيئا وكان أصم فانه لا يستطيع النطق بحرف واحد . فاذا كان آدم قد نطق بهذه الأسماء . فلا بد أنه سمع من الله سبحانه وتعالى ..

والمعجب ان الطريقة التي علم الله سبحانه وتعالى آدم بها . هي الطريقة نفسها التي تتبعها البشرية الى يومنا هذا . فانت لا تعلم الطفل بأن تقص عليه الأفعال . ولكن لا بد أن يبدأ تعليمه بالأسماء والمسميات . تقول له : هذا كوب . وهذا جبل وهذا بحر . وهذه شمس . وهذا قمر . ويعد أن يتعلم المسميات . يستطيع أن يعرف الأفعال . ويتقدم في التعليم بعد ذلك ..

وهكذا نتعرف على النشأة الاولى للكلام . وطلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى علمت آدم الأسماء .

وهنا نتوقف لنجيب عن سؤالين : الأول : اذا كان الله سبحانه وتعالى قد علم آدم الأسماء كلها . فهل كان فيها أسماء مامستجد من مخترعات في العالم ؟ نقول : إنه حق لو تعلم آدم الأسماء التي يحتاج اليها في أولويات الوجود

ويستخدمها في متطلبات حياته على الأرض . فإذا جد جديد ، فإن أولاد آدم يستخدمون هذه الأسماء من المقدمات والأسماء التي تعلموها . فما يجد في الوجود من أسماء . تدخل على اللغة . لم تأت من فراغ . وإنما جاءت من اللغة التي تنطق بها وتكتب بها .

كذلك كل شيء في هذا الكون . لو أعدته الآن إلى أصله . تجد أن أصله من الله . فلو أعدت البشرية إلى أصلها لأبد أن تصل إلى أن الإنسان الأول خلقه الله سبحانه وتعالى . ولو أعدت العلم إلى أصله . وكل علم يحتاج إلى معلم . نقول لك . من الذي علم المعلم الأول . أليس من الابدى أن العلم بدأ بمعلم علمه الله سبحانه وتعالى . وكان هذا هو المعلم الأول . . إذن فالذي علم الأسماء لأدم هو الله سبحانه وتعالى . وهو علمها لأولاده . وأولاده علموها لأولادهم وهكذا . .

يأتى السؤال الثانى : إذا كان الله هو المعلم للكلام . فلماذا اختلفت اللغات على الأرض وأصبح هناك ألوان من اللغات والألسنة ؟

نقول ان تنوع فترات التاريخ وانتشار الإنسان على الأرض جعل كل مجموعة من البشر تقترب من بعضها لتكون لها لغة واحدة . وكل لغة موجودة مأخوذة من لغة قديمة . فالفرنسية والانجليزية والاطالية . مأخوذة من اللاتينية . والعبرية . السريالية لها علاقة باللغة العربية . واللهجات التي يتكلم بها العالم العربى صاحب اللغة الواحدة ، تختلف . . حتى أن لهجة الجزائر أو المغرب مثلاً . تجدونها مختلفة عن اللهجة المصرية أو السودانية . ولكننا إذا تكلمنا باللغة العربية فهم بعضنا بعضاً ، ونغة هؤلاء جميعاً فى الأصل هى لغة القرآن . وهى العربية . ولكن فى فترات الوهن التاريخى الذى مر على العرب انزلت البلاد العربية بعضها عن بعض ومضى كل مجتمع يأخذ اللغة كمظهر اجتماعى . فيسقط التفاهم بين اللهجات المختلفة .

وهكذا علم الله سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها . ثم عرضهم على الملائكة وقال لهم ه انبشروا بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ؟ أى أن الله سبحانه وتعالى كرم آدم فى العلم . وأعطاه علماً لم يعطه للملائكة . ثم جعل آدم هو الذى يعلمهم أسماء مسميات لم يعرفوها . وهذا دليل على طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى . يفعل

ما يشاء في كونه . وكما قلنا ان تميز الأدنى عن الأعلى . لا يتم الا بفعل الله وحده .

ولكى تقرب هذا الى العقول : هب ان انسانا ضعيفا يريد أن يحمل حملا ثقيلا . . لا يقدر . واذا كان هناك انسان قوى يعينه فانه لا يستطيع أن يعطيه من قوته ليحمل هذا الحمل . ولكن يعينه بأن يحمل عنه . أما الذى يستطيع أن يجعل هذا الضعيف قويا يمكنه أن يجعل هذا الحمل الثقيل فهو الله سبحانه وتعالى . . فالإنسان لا يستطيع أن يعطى انسانا آخر من قوته . ولكن الله وحده هو القادر على أن يجعل الضعيف قويا والقوى ضعيفا .

وقوله تعالى : « ان كنتم صادقين » وهل يكذب الملائكة ؟ ان الملائكة خلق من نور يسبحون الله . ويفعلون ما يؤمرون . . نقول ان قوله تعالى « ان كنتم صادقين » فيها قسم عليه الأحداث . أو فيها قلموه ضربا بالغيب .

ولو أن الملائكة قاسوا حكمهم على حكم جنس آخر كان في الأرض كالجن مثلا الذين خلقوا قبل الإنسان . . يقول الحق تعالى انكم أخطأتم في قياسكم هذا . أو ان كنتم صادقين فيها تتبأتم به من غيب ! فلا يعلم الغيب الا الله تعالى . فالقياسان جانبها التوفيق .

وليس هذا طعنا في الملائكة . ولكنه تصحيح لهم . وتعريف لنا بأن الملائكة لا يعلمون الغيب . ولذلك فهم حينما قاسوا أو حكموا على غيب . . جانبهم التوفيق . لأن الله وحده هو علام الغيوب . والذي دفع الملائكة الى أن يقولوا أو يظنوا هذا الكلام هو جهم الشديد لله تعالى . . وكراهيتهم لإفساد في كونه .



﴿ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

هذه الآية الكريمة . توضح لنا ان الله سبحانه وتعالى هو المعلم الأول في الكون . وإذا كان لكل علم معلم . فإن المعلم الأول لابد أن يكون هو الله سبحانه وتعالى . وإذا كنا نشاهد في عصرنا ألوانا من العلوم . . فهذه العلوم من تفاعل العقل الذى وهبه الله تعالى للإنسان . من المواد التى وضعها الله تعالى في الكون . بالمنطق والعلم الذى علمه الله للإنسان .

ان كل الاختراعات والابتكارات أخذت وجودها من مقدمات كانت سابقة عليها . فالماء مثلا كان موجودا منذ الازل . والشمس كطاقة تبخر الماء لتصنع منه سحباً . فاذا استخدم الانسان الطاقة الحرارية في تبخير الماء واستخدم البخار كطاقة ، فهناك فقرة حضارية في العلوم اسمها عصر البخار ، وهو الذى كانت تسير به القطارات والآلات في المصانع . وغير ذلك .

إن هذا التقدم في العلم ، إنما هو نابع من وجود العلم والطاقة ، وزاد عليها القدرة العقلية للإنسان الممنوحة له من الخالق ، التى جعلته يفكر في استخدام الطاقة الناتجة من البخار ، فاذا توصل الانسان لمراقبة شجرة ساقطة وهى تندرج إلى الأرض لأن جذعها اسطوانى . فانه أخذ من نظام هذه الشجرة ما يصنع منه العجلة التى كانت تطورا هاما في تاريخ العلم . .

اذن فساق الشجرة الاسطوانية هو الذى أعطى للإنسان فكرة العجلة ، فاذا طور الانسان استخدام البخار وصنع قطارا يسير بالبخار . فهذا التطوير هو ابن للعلم

السابق عن قدرة الطاقة الناتجة عن تبخير الماء . وكيفية صناعة العجلة . . فكل علم تابع من علم سابق . . يترابط مع امكانات وهبها الله سبحانه وتعالى للانسان . ولذلك عندما جاء الاسلام ليعرض العلم التجريبي أو المادى . جاء ليلفتنا الى آيات الخالق فى الكون . وطلب منا أن نتأمل فى هذه الآيات . ونعمل فيها العقل والادراك . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكَانَ مِنْ آيَةٍ فِي أَنْسَمَتِ وَالْأَرْضِ يَمْشُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (١١٥)

(سورة يوسف)

وهكذا يلفتنا الله جل جلاله الى آياته التى فى السموات والارض لنعمل فيها العقل والادراك ، لنستبطن منها ما يعطينا الحضارة . . ان القرآن يطالبنا بأن نواصل العلم الذى علمه الله لآدم . واذا كان تاريخ العلوم يجعل لنا أخبارا عن قوم لم يكونوا مؤمنين ومع هذا سبقونا فى العلم والاستنباط ، فكان الواجب علينا نحن المؤمنين أن نتأمل آيات الله تعالى فى الأرض . فنبتون - الذى لاحظ قوة جاذبية الأرض - كان يراقب فحاحة تسقط من أعلى الشجرة وتصطدم بالأرض . فتوصل الى قانون الجاذبية .

واذا أردنا أن نأخذ لمحة من علم الله الذى علمه لنا . فيمكن أن ننظر الى النواة . ففي هذه النواة الصغيرة نخلة كاملة . متى وضعت النواة فى الأرض . نمت النخلة . وأصبح لها وجود .

ولكى نوضح هذا كله نقول إن كل علم مبنى على نظريات . النظرية الاولى تؤدى الى الثانية . والثانية تؤدى الى الثالثة . وهكذا . . ولكن بداية كل هذه العلوم لم تبدأ بنظرية ، ولكنها بدأت بما يسمونه البدييات . أى الأشياء التى لا تحتاج الى دليل . إنها الأشياء التى خلقها الله فى الكون . وعلى هذه البدييات بنيت النظريات الواحدة بعد الأخرى . حتى اذا أردت أن تميدها الى أصلها ، فإنك تصل فى نهاية الأمر الى أن العلم الأول من الله سبحانه وتعالى ، فالعلم الاول علمه الله . والشجرة الأولى خلقها الله . وكل اكتشافات الانسان منذ بداية الحياة وحتى قيام الساعة موجودة بالقوة . مثل النواة التى فيها النخلة . تنتظر التأمل والعمل . لتصبح اكتشافا بالفعل . والله سبحانه وتعالى وهو المعلم الاول .. وضع فى كونه من العلم الكثير .

وبعضرى قول الشاعر احمد شوقي حين قال :

سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرشدا وابن البشور فعلم الانجيلا
وفجرت ينبوع البيان عمدا فسقى الحديث وناول التنزيلا

وكان شوقى يصوغ في ابياته أن كل علم هو منسوب الى الله وحده . . وهكذا يتضح لنا . أن قول الملائكة : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » يتضمن الاعتراف بأن العلم كله مرجعه الى الله . فאלله سبحانه وتعالى هو مصدر العلم والحكمة . وقوله سبحانه وتعالى : « العليم الحكيم » العليم أى الذى يعلم كل شىء خافيا كان أو ظاهرا . والعلم كله منه . وأما الحكمة فتطلق فى الأصل على قطعة الحديد التى توضع فى فم الفرس لتلجمه حتى يمكن للراكب أن يتحكم فيه . ذلك أن الحصان حيوان مدلل شارد . يحتاج الى ترويض . وقطعة الحديد التى توضع فى فمه تجعله أكثر طاعة لصاحبه . وكان إطلاق صفة الحكيم على الخالق سبحانه وتعالى هو أنه جل جلاله يحكم المخلوقات حتى لا تسير بغير هدى . ودون دراية .

والحكمة أن يوضع هدف لكل حركة لتنسجم الحركات بعضها مع بعض ، ويصير الكون محكوما بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والحكيم العليم . هو الذى يضع لكل كائن إطاره وحدوده . والحكمة هى أن يؤدى كل شىء ما هو مطلوب منه ببراعة . والحكمة فى الفقه هى أن تستنبط الحكم السليم . والحكمة فى الشعر أن تزن الكلمات على المقاميل . والحكمة فى الطب أن تعرف تشخيص المرض والدواء الذى يعالجه . والحكمة فى الهندسة أن تصمم المستشفى طبقا لاحتياجات المريض والطبيب وأجهزة العلاج وتخازن الأدوية وغير ذلك . أو فى تصميم المنزل للسكن المريح . وحكمة بناء منزل مثلا تختلف عن حكمة بناء قصر أو مكان للعمل .

والكون كله مخلوق من قبل حكيم عليم . وضع الخالق سبحانه وتعالى فيه كل شىء فى موضعه ليؤدى مهمته . ووصف الله تعالى بأنه حكيم يتطلب أن يكون عليا . لأن علمه هو الذى يجعله يصنع كل شىء بحكمة . وقد أعطى الله سبحانه

وتعالى لكل خلقه من العلم على قدر حاجته ، فليس من طبيعة الملائكة أن يعرفوا ماذا سيفعل ذلك الانسان الذى سيتخلفه الله فى الارض . ولكنهم موجودون لمهمة أخرى .. وميز الله الانسان بالعقل ليكتشف من آيات الله فى الكون على قدر حاجة حياته . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ سَجَّحَ اٰمَمَ رَبِّكَ الْاَعْلٰى ۝ اَلَّذِى خَلَقَ فَسَوٰى ۝ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدٰى ۝ ﴾

(سورة الاعلى)

إذن فكل شيء خلق بقدر . وكل مخلوق ميسر لما هداه الله له ..



﴿ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أُنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ
أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ
مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

فالحق سبحانه وتعالى أراد أن يرد على ملاحظة الملائكة بالنسبة لخلق آدم وخلافته في الأرض ، وأن الله سبحانه وتعالى في حكمته ما يخفى عليهم . ولذلك فهم لم يدركوا هذه الحكمة . وقبل أن يخلق الله آدم ويعمله خليفة في الأرض . . كان على علم بكل ما سيحدث من آدم وذريته حتى قيام الساعة . وبعد قيام الساعة ، أما الملائكة . فهم لم يكونوا على علم بذلك . لأن هذا ليس عملهم . وكما قلنا : كل ميسر لما خلق له . ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطي للملائكة الصورة بأنكم قد حكمتكم على آدم إما من تجربة لجنس آخر عاش في الأرض ، وإما من ضرب بالغيب . والمقياسان غير صحيحين . ولذلك ميز الله سبحانه في هذه اللحظة آدم على الملائكة فعلمه أسماء السموات كلها ، ثم طلب من الملائكة أن يخبروه بهذه الأسماء . ولكنهم قالوا : إن العلم من الله وحده . وبما أن الله تعالى لم يعلمهم الأسماء فإنهم لا يعرفونها . فطلب الله من آدم أن يخبرهم بأسماء هذه السموات فأخبرهم بها . ولكنه لم يخبرهم بها بذاته ولأن قاتونه . ولا يعلم علمه وحده . ولكنه أخبرهم بتعليم الله سبحانه وتعالى له . وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿ رَفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّسَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة يوسف)

إذن فَعَلِمُ آدم للأسماء كان بمشيئة الله سبحانه وتعالى . وهذه المشيئة وحدها هي التي جعلت آدم في ذلك الوقت يعلم ما لا تعلمه الملائكة . . وهنا رد الحق سبحانه وتعالى على قول الملائكة بأن آدم سبفسد في الأرض . فذكرهم الله تعالى بقوله :

« ألم أقل لكم أني أعلم غيب السموات والأرض » أي ان الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يعلم الغيب . والغيب هنا هو الغيب المطلق . فهناك غيب نسبي . قد تسرق حافظة نقودي مثلا وأنا لا أعلم من الذي سرقها فهو غيب عني . ولكنه معلوم للذي سرق ، وللذي سهل له طريقة السرقة بأن حرس له الطريق حتى يسرق دون أن يفاجئه أحد . وقد يكون قد صدر قرار هام بالنسبة لي كترقية أو فصل أو حكم . لم يصلني . فانا لا أعلمه . ولكن الذي وقع القرار أو الحكم يعلمه .

هذا الغيب النسبي . لا يعتبر غيبا . ولكن الغيب المطلق هو الذي ليس له مقدمات تنبئ عما سيحدث .. هذا الغيب الذي يفاجئك . ويفاجئ كل من حولك بلا مقدمات .. هذا الغيب لا يعلمه الا الله وحده . وقوله تعالى : « وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .. تعطينا هنا وقفة . هل الملائكة قالوا لله سبحانه وتعالى : « انجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » هل قالها الملائكة فعلا وجهرا ، أم أنهم قالوها في أنفسهم ولم ينطقوا بها .. قوله تعالى « وما كنتم تكتمون » تعطينا إشارة الى أن الملائكة ربما قالوا هذا سرا . ولم يبدوه ، وعلى أية حال . سواء قالوه جهرا . أو قالوه سرا . فقد علمه الله . لأن الله جل جلاله .. بكل شيء محيط . ولا نريد لهذه النقطة ان تثير جدلا .. لماذا ؟ لأنه في الحالتين .. سواء في الجهر أو في الكتمان .. فإن الموقف يتساوى عند علم الله سبحانه وتعالى .. فلا داعي للجدل لأنه لا اختلاف .



وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلِسَ أَبَىٰ وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ

أصدر الله تعالى أمره للملائكة لیسجدوا لآدم . وهذه القضية أخذت جدلا طويلا . قال بعض الناس : كيف يسجد الملائكة لغير الله ؟ والسجود لله وحده . وقال آخرون : هل معنى سجود الملائكة لآدم أنهم عبده ؟ وقالت فئة أخرى : السجود لغير الله لا يجوز تحت أى ظرف من الظروف . نقول هؤلاء : انكم لم تدركوا المعنى ، قاله سبحانه وتعالى بعد أن ميز آدم على الملائكة بعلم الأسماء . . طلب منهم أن يسجدوا لآدم ، وهنا لا بد أن نعرف أن السجود لآدم . . هو إطاعة لأمر الله . . وليست عبادة لآدم . قاله سبحانه وتعالى هو الذى أمر الملائكة بالسجود . ولم يأمرهم بذلك آدم . ولا يحق له أن يأمرهم . فالأمر بالسجود هنا من الله سبحانه وتعالى ، من أطاعه كان عابدا . ومن لم يطعه كان عاصيا . ومن رد الأمر على الأمر كان كافرا .

ولكى نفهم معنى العبادة نقول : ان العبادة هي طاعة أوامر الله . واجتناب نواهيه . فما قال في الله : افعل . فإني افعل . وما قال : لا تفعل . فإني لا أفعل . . لأن العبادة هي طاعة مخلوق خالقه في أوامره ونواهيه . ولذلك عندما نذهب الى الحج فائنا نقبل الحجر الأسود في الكعبة ، ونرجم الحجر الذى يمثل إبليس في منى . نقبل حجرا ونرجم حجرا . . هذا هو معنى عبادة الله واتباع منهجه . كما أمرنا بفعل . لا شئ مقدس عندنا . الا أمر الله ومنهجه . الملائكة هنا لم يسجدوا لآدم . ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لآدم . وفرق كبير بين السجود لشيء ، وبين السجود لأمر الله . السجود لأمر الله سبحانه وتعالى . لا يعتبر خروجنا على المنهج ، لأن الأساس هو طاعة الله . وهل سجد كل الملائكة لآدم ؟ لا . وإنما

سجد لأدم الملائكة الذين لهم مهمة معه ، وتلك المهمة قد أوضحها الله سبحانه وتعالى في قوله :

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ كَذِبٍ لَّخَفِيفِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينٍ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة النازعات)

وقوله سبحانه :

﴿ مَا يَلْقَئُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة نازعات)

وقوله سبحانه :

﴿ قَالَتُمُذِرَتِ أُمُرًا ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة النازعات)

اذن هناك من الملائكة من سيسجل على الانسان أعماله . وكل قول يقوله وكل فعل يفعله . بل ويكتبون هذه الأفعال . ومنهم من يحفظه من الشياطين ، ومنهم من ينقل أقدار الله في الأرض . هؤلاء جميعا لهم مهمة مع الانسان . ولكن الأمر بالسجود لم يشمل أولئك الملائكة العالين من حملة العرش وحراس السماء وغيرهم ممن ليست لهم مهمة مع الانسان . ولذلك عندما رفض إبليس السجود . قال له الله تعالى :

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَنتَ كَبُرْتَ أَتَمَّ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة ص)

قوله تعالى . . كنت من العالين - أى أنك كنت من الملائكة العالين . . الذين لم يشملهم أمر السجود . إذن فأمر السجود لأدم . . كأمر الله لنا بالسجود الى القبلة في الصلاة . فنحن لا نسجد للقبلة ذاتها . . ولكننا نسجد لأمر الله بالسجود الى القبلة . . سجد الملائكة الذين يشملهم أمر السجود لأمر الله سبحانه وتعالى . . ولكن إبليس رفض أن يسجد . وعصى أمر الله .

بعض الناس يقولون : أن إبليس لم يكن من الذين أمرهم الله تعالى بالسجود . لأن الأمر شمل الملائكة وحدهم . . وإبليس ليس ملكا . ولكنه من الجن . كما يروى لنا القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الكهف)

ونقول : ان كون إبليس من الجن هو الذى جعله يعصى أمر الله بالسجود . فلو أن إبليس كان من الملائكة - وهم مقهورون على الطاعة - كان لابد أن يطيع أمر الله ويسجد . ولكن كونه من الجن الذين لهم اختيار في أن يطيعوا وأن يعصوا فذلك الذى مكّنه أن يعصى أمر السجود . ولذلك فإن الذين يأخذون من الآية الكريمة ان إبليس كان من الجن . بأنه لم يشمله أمر السجود . نقول لهم : ان الحق سبحانه وتعالى قد اخبرنا عن جنس إبليس حتى نفهم من أى باب الى المعصية دخل . . ذلك أنه دخل من باب الاختيار المنوح للانس والجن في الحياة الدنيا وحدها ، ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون إبليس مقهورا على الطاعة ما كان يستطيع أن يعصى . ولكن معصيته جاءت من أنه خلق مختارا . . والاختيار هو الباب الذى دخل منه الى المعصية . هذه حقيقة يجب أن نفهمها . ولذلك يرد الحق سبحانه وتعالى على كل من سيخطر بباله ان أمر السجود لم يشمل إبليس لكونه من الجن لقوله سبحانه وتعالى :

﴿قَالَ مِمَّنْ أَتَيْتُكَ إِلَّا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وكان كفر إبليس وخلوده في النار أنه رد الأمر على الأمر . وقال :

﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾

(من الآية ٦١ سورة الاسراء)

وقد كان وجود إبليس مع الأعلى منه وهم الملائكة . مبررا أكبر للسجود .
فإدراك قد صدر الأمر الى الأعلى بالسجود فإنه ينطبق حل الأدل .

وقد كان إبليس كما جاء في الأثر يسمى طاووس الملائكة . . وكان يزهو بخيلاء
بينهم . . وهذه الخيلاء أو الكبر هو الذى جعله يقع في المعصية ، ولأن إبليس خلق
مختارا . فقد كان مزهوا باختياره لطاعة الله . . قبل أن يقوده غروره الى الكفر
والمعصية . ولذلك لم يكذب بصدور الأمر من الله بالسجود لأدم . حتى امتنع إبليس
تكبرا منه . . ولم يجاهد نفسه على طاعة الله . . فمعصية إبليس هي معصية في
القمة . لأنه رد الأمر على الأمر وظن أنه خير من آدم . . ولم يلتزم بطاعة الله ،
ومضى غروره يقوده من معصية الى أخرى . فطرده الله من رحمته وجعله رجيا . ولما
عرف إبليس أنه طرد من رحمة الله طلب من الله سبحانه وتعالى أن يبقية الى يوم
الدين ، وأقسم إبليس بعزة الله أن يغرى بنى آدم . . حدد الأماكن التي يأتي منها
الاغواء . فقال :

﴿لَمْ يَلْبِسْهُمْ رَبِّيْ اِبْلِيْسَ مِنْ خَلْقِهِمْ وَرَبِّ اِيْمَانِهِمْ وَعَنْ سَمَائِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ
اَكْثَرَهُمْ شَاْكِرِيْنَ ۝١٧﴾

(سورة الاحقاف)

نلاحظ هنا أن الجهات بالنسبة للانسان ستة . اليمين والشمال . والامام والخلف
وأعلى وأسفل ، ولكن إبليس لم يذكر الا أربعة فقط . أما الجهتان الأخيرتان وهما
الأعلى والاسفل . فلا يستطيع إبليس أن يقترب منها . أما الأسفل فهو مكان
السجود والخضوع لله . وأما الأعلى فهو مكان صعود الصلاة والدعاء . وهذان
المكانان لا يستطيع إبليس أن يقترب منهما .

وهكذا نرى أن إبليس لم يمتنع عن السجود فقط . وإنما رد الأمر على الأمر .
وهذا أول الكفر . ثم بعد ذلك مضى في غيه فتوعد آدم وذريته بأن يضلهم عن
سبيل الله

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ٢٥

بعد أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم وأمر الملائكة أن تسجد له وحدث كفر إبليس ومعصيته أراد الله جل جلاله أن يمارس آدم مهمته على الأرض . ولكنه قبل أن يمارس مهمته أدخله الله في تجربة عملية عن المنهج الذي سيبيعه الإنسان في الأرض ، وعن الغواية التي سيتعرض لها من إبليس . فآله سبحانه وتعالى رحمة منه لم يشأ أن يبدأ آدم مهمته في الوجود على أساس نظري ، لأن هناك فرقا بين الكلام النظري والتجربة .

قد يقال لك شيء وتوافق عليه من الناحية النظرية ولكن عندما يأتي الفعل فانك لا تفعل شيئا . إذن فالفترة التي عاش فيها آدم في الجنة كانت تطبيقا عمليا لمنهج العبودية ، حتى إذا ما خرج الى مهمته لم يخرج مبدأ نظري ، بل خرج بمنهج عمل تعرض فيه لا فعل ولا تفعل . والحلال والحرام ، وأغواء الشيطان والمعصية . ثم بعد ذلك يتعلم كيف يتوب ويستغفر ويعود الى الله . وليعرف بنو آدم أن الله لا يخلق بابه في وجه العاصي ، وإنما يفتح له باب التوبة . والله سبحانه وتعالى أسكن آدم الجنة . وبعض الناس يقول : أنها جنة الخلد التي سيدخل فيها المؤمنون في الآخرة . وبعضهم قال : لولا أن آدم عصي لكننا نعيش في الجنة . نقول لهم لا . . جنة الآخرة هي للآخرة ولا يعيش فيها إنسان فترة من الوقت ثم بعد ذلك يطرد منها بل هي كما أخبرنا الله تعالى جنة الخلد . . كل من دخلها عاش في نعيم أبدي .

إذن فما هي الجنة التي عاش فيها آدم وحواء ؟ هذه الجنة هي جنة التجربة أو المكان الذي تمت فيه تجربة تطبيق المنهج . ونحن إذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد أطلق لفظ الجنة على جنات الأرض . والجنة ثائق من لفظ

«جن» وهو السر، ذلك أن فيها أشجارا كثيفة تستر من يعيش فيها فلا يراه أحد . وفيها ثمرات تعطيه استمرار الحياة فلا يحتاج إلى أن يخرج منها . ونجد في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَتَوْا لَبِئْرَهُمْ مُّصِيبِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ۝١٨﴾

(سورة الفلم)

وهذه قصة الاخوة الذين كانوا يملكون جنة من جنات الأرض فمتعوا حق الفقير والمسكين واليتيم ، فذهب الله بثمر الجنة كلها وأحرق أشجارها . وهناك في سورة الكهف قصة صاحب الجنتين : في قوله تعالى :

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۝١٦﴾

(سورة الكهف)

وهي قصة ذلك الرجل الذي أعطاه الله جنتين .. فبدلا من ان يشكر الله تعالى على نعمه .. كفر وأنكر البعث والحساب . وفي سورة سبأ اقرأ قوله تعالى عن أهل سبأ الذين هداهم الله وبين لهم الطريق المستقيم ولكنهم فضلوا الكفر . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلًّا مِنْ رَزْقِ رَبِّكَ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ بِلَدٍّ عَسَىٰ وَرَبُّكَ عَفُورٌ ۝١٧ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَفْطٍ وَاتَّيْلٍ وَشَىٰ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٨ ذَٰلِكَ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْغُفُورُ ۝١٩﴾

(سورة سبأ)

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم قد أطلق لفظ الجنة على جنت الدنيا ، ولم يقصره على جنة الآخرة .

إذن فآدم حين قال له الله سبحانه وتعالى :

﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأعراف)

فهو ليست جنة الخلد وإنما هي جنة سيّارس فيها تجربة تطبيق المنهج . ولذلك لا يقال : كيف دخل إبليس الجنة بعد أن عصي وكفر ، لأن هذه ليست جنة الخلد ولا بد أن تنسب إلى ذلك جيّدا حتى لا يقال إن معصية آدم هي التي أخرجت البشر من الجنة . لأن الله تعالى قبل أن يخلق آدم حدد مهمته فقال :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

فآدم مخلوق للخلافة في الأرض ومن صلح من ذريته يدخل جنة الخلد في الآخرة ، ومن دخل جنة الخلد عاش في النعيم عابداً .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وكلا منها رغدا حيث شئتما » قاله سبحانه وتعالى أمد الجنة التي سكنها آدم وحواء بكل ما يضمن استمرار حياتها ، ثمّما كما خلق كل النعم التي تضمن استمرار حياة آدم وذريته في الأرض قبل أن تبدأ الحياة البشرية على الأرض . قاله سبحانه وتعالى له عطاء ربوبية فهو الذي خلق . وهو الذي أوجد من عدم ، ولذلك فقد ضمن لخلق ما يعطيهم استمرار الحياة على الأرض من ماء وهواء وطعام ونعم لا تعد ولا تحصى فكان الله تعالى قد أمد الجنة التي سكن فيها آدم وزوجته بكل عوامل استمرار حياتها قبل أن يسكنها . كما أمد الأرض بكل وسائل استمرار حياة الإنسان قبل أن ينزل آدم إليها . إذن فقوله تعالى : « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة »

هذه فترة التدريب على تطبيق المنهج . والسكن هو المكان الذي يرتاح فيه الإنسان ويرجع إليه دائماً . فأنّت قد تسافر فترات ، وكل الدول التي تمر بها خلال

مفرك لا تعتبر سكنا الى أن تعود الى بيتك ، فهذا هو السكن والرجل يكذب ويتعبد في الحياة وأينما ذهب فإنه يعود مرة أخرى الى المكان الذي يسكنه ليستريح فيه

وقوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » هو استكمال للمنهج . فهناك أمر ونهي افعلا ولا تفعل : « اسكن أنت وزوجك الجنة » أمر : « وكلا منها رغدا » أمر ، « ولا تقربا هذه الشجرة » نهي وهذا أول منهج يعلم الانسان الطاعة لله سبحانه وتعالى والامتناع عما نهى عنه ، وكل رسائل السماء ومناهج الله في الأرض أمر ونهي.. افعلا كذا ولا تفعل كذا .

وهكذا فإن الحق سبحانه وتعالى ضمن لأدم الحياة ، وليست الحياة فقط ولكن رغدا . أي مباحا وبلا تعب وعن سعة وبدون مشقة. كما أننا نلاحظ هنا أن المباح كبير والمنوع قليل . فكل ما في الجنة من الطعام والشراب مباح لأدم ، ولا قيد إلا على شيء واحد.. شجرة واحدة من بين ألوف الأشجار التي كانت موجودة في الجنة .. شجرة واحدة فقط هي المنوعة .

وإذا نظرت الى منهج السماء الى الأرض تجد أن الله سبحانه وتعالى قد أباح فيه نعمًا لا تحصى ولا تعد وقيد فيه أقل الغليل .. فالذي نهانا الله عنه بالنسبة لنعم الأرض هو أقل الغليل ، كما كان في جنة آدم شجرة واحدة والمباح بعد ذلك كثير. وإذا أخذنا ألقاظ العبارات نجد أن الله سبحانه وتعالى ساعا يقول : « قلنا يا آدم » أن يضمير (نا) ضمير الجميع ، لأن الله واحد أحد ، ولكنهم يسمونها : نون الكبرياء ونون العظمة .

اذن فكل حدث يأتي فيه الحق تبارك وتعالى بنون الكبرياء ونون التعظيم . لأن كل فعل من الأفعال يحتاج الى صفات متعددة حتى يتم . فانت اذا أردت أن تفعل شيئا فإنه يقتضى منك قوة ويقتضى منك علما ويقتضى منك قدرة ويقتضى منك حكمة .. اذن فهناك صفات كثيرة موجودة يقتضيها الفعل .

ولكن حين يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن شهادة التوحيد يقول « إني أنا الله » ولا يقول : إنما نحن الله .. لأنه جل جلاله . يريد توحيداً . ففي موقع التوحيد

يأتى بضمير الافراد واحد أحد . . أما في صدر الاحداث . فيأتى بضمير الكبرياء
والعظمة . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمٍ وَإِنَّا لَمَوْسُونَ ﴾ (١٧)

(سورة الذاريات)

وعندما اراد الحق تبارك وتعالى أن يمتدح ابراهيم قال : « ان ابراهيم كان أمة »
ما معنى أمة ؟ أى جامعا لصفات الخير التى لا تجتمع فى فرد ولكنها تجتمع فى أمة .
فالأمة تجتمع فيها صفات الخير . . هذا متميز بالصدق ، وذلك بالشجاعة . وهذا
بالحلم . فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يقول ان ابراهيم كان أمة أى أنه كان جامعا
لصفات الخير .

وفى قوله « قلنا يا آدم » آدم اسم علم على المسمى الذى هو أول خلق الله من
البشر « واسكن » تحتاج الى عنصرين : الهدوء والأطمئنان . . هذا هو معنى
اسكن . توفير الهدوء والأطمئنان ، ومنه أخذ اسم السكن . وكلمة المسكن وأطلق
على الزوجة . . وإذا فقد المكان الذى تسكن فيه عنصر من هذين العنصرين وهما
الهدوء والطمأنينة لا يقال عليه مسكن . والزوجة سميت سكنا كما جاء فى قوله
تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً
وَرَحْمَةً ﴾

(من الآية ٢١ سورة الروم)

لأن الهدوء والرحمة والبركة تتوافر فى الزوجة الصالحة . والحق سبحانه وتعالى
يقول :

﴿ وَصَلَّى عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة التوبة)

أى راحة واطمئنانا ورحمة . فالإنسان يريد في بيته أن تكون الحياة فيه مريحة له من عناء العمل وصخب الحياة . ويقول الحق سبحانه وتعالى : « اسكن أنت وزوجك » وكان من الممكن أن يقول اسكن وزوجك لأن الفاعل في فعل الأمر دائماً مستتر . ولكنه سبحانه قال : اسكن أنت وزوجك . . وإياك أن تظن أن أنت هو فاعل الفعل اسكن . ولكنه ضمير جاء ليفصل بين اسكن وبين زوجك حتى لا يعطف الاسم على الفعل .

أنا لابد أن نلاحظ أن كلمة زوج تطلق على الفرد ومعه مثله . ولذلك لم يأت بناء التانيث . . اسكن أنت وزوجتك . لأن الأمر التكليفي من الله . سواء فيه الذكر والانثى . وقرأ قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّثِنَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة غافر)

إذن فيها متساويان في هذه الناحية . هذه الجنة ماذا وفر الله سبحانه وتعالى لأدم وزوجه فيها ؟ اقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَقُ ۚ ﴾ (١١٥)

(سورة طه)

هذه عناصر الحياة التي وفرها الله لأدم وزوجه في جنة التجربة الإيمانية العملية على التكليف . وهكذا نرى من الأوصاف التي أعطاهما الله سبحانه وتعالى لنا هله الجنة أنها ليست جنة الآخرة . لأنه أولاً فيها تكليف . في قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » وجنة الآخرة لا تكليف فيها ، والحق تبارك وتعالى أباح لأدم رجوعه أن يأكل ما يشاء من الجنة . والجنة فيها أصناف كثيرة متعددة . ولذلك قال : « حيث شئتم »

وأنت لا تستطيع أن تقدم لإنسان صنفاً أو صنفين وتقول له كل ما شئت . لأنه لا يوجد أمامه الأعمال ضيق للاختيار ، كما أن قلة عدد الأصناف تجعل النفس تميل . ولذلك لابد أن يكون هناك أصناف متعددة وكثيرة .

ثم جاء النسي . في قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » أى لا تقربا من مكانها . ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى ولا تأكلا من هذه الشجرة ؟ لأن الله جل جلاله رحمة بآدم وزوجه كان لا يريدما أن يقعا في غواية المعصية . فلو أنه قال : ولا تأكلا من هذه الشجرة لكان مباحا لهما أن يقتريا منها فتجذبيها بهما منظرها ويقتريا من ثمارها فتفتنها برائحتها العذبة ولونها الجذاب . حينئذ يحدث الاغواء . وتمتد أيديهما تحت هذا الاغراء الى الشجرة ليأكلا منها .

ولكن الله تعالى يعلم أن النفس البشرية اذا حرم عليها شيء ولم تحم حوله كان ذلك ادعى ألا تفعله . فالثمة تعالى حين حرم الخمر لم يقل حرمت عليكم الخمر والا كنا جلوسا في مجالس الخمر ومع الذين يشربونها . أو نتاجر فيها وهذا كله اغراء بشرب الخمر .. ولكنه قال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلُمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٩١ ﴾

(سورة المائدة)

هذا النص الكريم قد جعلنا نبتعد عن الاماكن التي فيها الخمرور . فلا نجلس مع من يشربونها ، ولا نتاجر فيها حتى لا تقع في المعصية . فلما رأيت مكانا فيه خمر فابتعد عنه في الحال . حتى لا يفريك منظر الخمر وشاوبها بأن تفعل مثله . والحق جل جلاله يقول في المحرمات : « لا تقربوا » واجتنبوا .. أى لا تجوموا حولها . لأنها اذا كانت غائبة عنك فلا تحظر على بالك فلا تقع فيها . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(إِنْ الْخَلَالَ بَيْنَ الْحَرَامِ وَبَيْنَ وَبَيْنَهَا أُمُورٌ مُّشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرعى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ - إِلَّا وَإِنْ لَكَ مَلَكٌ جِئَ بِحِمَى اللَّهِ حِمَاهُ) (١)

(١) (رواه البخارى ومسلم عن الثعلباني بن بشر) .

ولقد كان بعض الناس يقبلون على شرب الخمر ويقولون انه لم يرد فيها تحريم صريح .. فلم تأت مسبوقة بكلمة حرمت .. نقول ان كلمة اجتنبوا . أشد من التحريم . فقله تعالى : « اجتنبوا الرّجس من الأوثان » معناه ألا تنظر حتى الى الصنم . واجتنب الخمر ألا تقع عينك عليها ..

وقد اختلف الناس في نوع هذه الشجرة . وهل هي شجرة تفلح أو تين أو عنب أو غير ذلك . ونحن نقول : ليس هذا هو المقصود . ولكن المقصود هو التحريم . لأن منهج الله سبحانه وتعالى يحلل أشياء . ويحرم أشياء .

وقوله تعالى : « فتكونا من الظالمين » الظلم هو الجور والتعدى على حقوق الغير . والظالم هو من أخذ فوق ما يستحقه بغير حق . والظلم يقتضى ظلماً ومظلوماً . وموضوعاً للظلم . فكل حق - سواء كان مادياً أو معنوياً - يمتدّ عليه انسان بدون حق فقد حمل ظلماً . حتى الانسان انه أحياناً يظلم نفسه . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة آل عمران)

كيف يظلم الانسان نفسه ؟ قد يظلم الانسان غيره . ولكنه لا يظلم نفسه أبداً لانه يريد أن يعطيها كل ما تشتهي . وهذا هو عين الظلم للنفس . لانه أعطاه شهوة عاجلة في الدنيا . ربما استمرت ساعات . وحرّمها من نعيم أبدى في الآخرة . فكانه ظلمها بأن أعطاه عذاباً أليماً في الآخرة مقابل متعة زائلة لا تدوم .. وهناك من يبيع دينه بدنياه . ولكن أظلم الناس لنفسه من يبيع دينه . بدنياه غيره . يشهد زوراً . ليرضى رئيساً . أو يتقرب لمستول . أو يرتكب جريمة .. اذن قوله تعالى : « فتكونا من الظالمين » أى من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله .



﴿ فَازْلِهْهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

بعد أن أسكن الله سبحانه وتعالى آدم وزوجه في الجنة . وأخبرهما بما هو حلال وما هو حرام . بدأ الشيطان مهمته . مهمة عداوته الرهيبة لآدم وذريته . والحق سبحانه يقول : « فَازْلِهْهُمَا الشَّيْطَانُ » أي أن الشيطان باشر مهمته . فأوقعهما في الزلّة . وهي العثرة أو الكبوة . كيف حدث ذلك والله تعالى قد نصح آدم وزوجه ألا يتبعوا الشيطان . وأبلغه أنه عدو لهما . في قوله تعالى :

﴿ إِنْ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾

(سورة طه)

اذن فالعداوة معلنة ومسيقة . ولنفرض أنها غير معلنة . ألم يشهد آدم الموقف الذي عصي فيه ابليس أمر الله ولم يسجد لآدم ؟ ألم يعرف مدى تكبر ابليس عليه . في قوله « أنا خير منه » وقوله « أأسجد لمن خلقت طينا » كل هذا كان ينبغى أن ينبه آدم الى أن ابليس لن يأتى له بخير أبدا ..

والحق سبحانه وتعالى لم يكتف بالدلالات الطبيعية التي نشأت عن موقف ابليس في رفضه السجود . بل أخبر آدم أن الشيطان عدو له ولزوجه .. يقول الحق سبحانه وتعالى : « فَازْلِهْهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ » من ماذا أخرجهما ؟ من العيش الرغيد . واسع النعمة في الجنة . ومن الهدوء والاطمئنان في أن رزقهما يأتيهما بلا تعب . ولذلك سياتى الحق في آية أخرى ويقول : « فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى »

وهنا لابد أن نتساءل : لماذا لم يقل فتشقي ؟

ان هذه لفظة من الحق سبحانه وتعالى .. الى مهمة المرأة ومهمة الرجل في الحياة . فمهمة المرأة أن تكون سكنا لزوجها عندما يعود الى بيته . تذهب تعب وشقاءه . أما مهمة الرجل فهي العمل حتى يوفر الطعام والسكن لزوجته وأولاده . والعمل تعب وحركة .

وهكذا لفتنا الحق تبارك وتعالى إلى أن مهمة الرجل أن يكسح ويشقى . ثم يأتي الى أهله فتكون السكينة والراحة والاطمئنان .

اذا كانت هذه هي الحقيقة . فلماذا يأتي العالم ليغير هذا النظام ؟

نقول ان العالم هو الذي يتعب نفسه . ويتعب الدنيا . فعمل المرأة شقاء لها . فمهمتها هي البيت . وليس عندها وقت لأي شيء آخر . فاذا عملت فذلك على حساب أولادها وبيتها وزوجها . . ومن هنا ينشأ الشقاء في المجتمع . فيضيع الأولاد . ويهرب الزوج الى مكان فيه امرأة تعطيه السكن الذي يحتاج إليه . وينتهي المجتمع الى فوضى ..

وكان يجب على آدم أن ينتبه الى أن إبليس يعتبره السبب في طرده من رحمة الله . فلا يقبل منه نصيحة ولا كلاما ويحاط .. كيف أزل الشيطان آدم وزوجه ؟ لقد شرح الله سبحانه وتعالى لنا هذا ولكن ليس في سورة البقرة وإنما في آية أخرى .. فقال تعالى :

﴿ قَوْسَوْسَ هَٰذَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَٰكُمَا مَآوِيَ رَٰى عَنَهُمَا مِنْ سَوَءٍ تَبَوَّآ وَقَالَ بَٰئِنَهُمَا رُبُّكُمْ عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ ۖ ۙ إِنَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٢٠﴾

(سورة الاحزاب)

اذن فإبليس قال كاذبا أن من يأكل من هذه الشجرة يصبح ملكا . ويصبح خائدا لا يموت . . ووسوسة الشيطان تتم بكلام كاذب لتزيين المعصية ، والشيطان لا يمه أي معصية ارتكبت . وإنما يريدك عاصيا على أي وجه . ولكن النفس عندما توسوس

لك بالمعصية ، تريد شيئا بذاته . وهذا هو الفرق بين وسوسة الشيطان . وسوسة النفس . فالشيطان يريدك عاصيا بأى ذنب . فان امتنعت فى ناحية أنك من ناحية أخرى . فقد قال لآدم : هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ ولكن هذه المحاولة لم تفلح . فقال لها : « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » وفات على آدم أنه لو كان هذا صحيحا .. لاكل إبليس من الشجرة .. ولم يغلب من الحق سبحانه وتعالى ان يمهله الى يوم الدين ..

ما الذى اسقط آدم فى المعصية ؟ انها الغفلة أو النسيان . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ۝١١٥﴾

(سورة طه)

وهل النسيان معصية . حتى يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝١١٦﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

نعم النسيان كان معصية فى الأمم السابقة . لذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » (١)

ونسى وعصى . تؤدى معنى واحدا ..

وقوله تعالى :

﴿ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٢١﴾

(سورة الاعراف)

(١) (رواه الطبرانى عن ثوبان) .

هذا الهبوط هو بداية نزول الانسان الى الأرض لياشر مهمته في الدنيا . ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : « ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين » . فهي اذن حياة موقوتة على قدر وقتها ، وعلى قدر حجمها ..

والذين يقولون بأنه لا بد من وجود بشر نسميه مخلّصا . ليفدى العالم بصلبه أو بفير ذلك من الخطيئة التي ارتكبها آدم . نقول له : انك لم تفهم عن الله شيئا ، لأن القصة هي هنا خطأ قد حدث وصوب . وفرق بين الخطأ والخطيئة . فالخطأ بصوب . ولكن الخطيئة يعاقب عليها .

وآدم أخطأ وصوب الله له . وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه . اذن لا توجد خطيئة بعد أن علمه الله التوبة وتاب الى الله . ثم ماذا فعل آدم . حتى نقول نخلص العالم من خطيئة آدم . انه أكل من الشجرة . وهل غطايا العالم كلها أكل ؟ من الذي أوجد القتل وسفك الدماء ، والزنا والاعتصاب والنميمة والغيبة ؟

لو أن كلامهم صحيح لكان لا بد ألا توجد خطيئة على الأرض مادام قد وجد المخلص الذي فدى العالم من الخطيئة . ولكن الخطيئة باقية . ومن الذي قال ان الخطيئة تورث . حتى يرث العالم كله خطيئة آدم ؟ . والله سبحانه وتعالى يقول : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ..

وقول الحق سبحانه وتعالى « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو » العداوة هنا بين الشيطان والانسان . والعداوة أيضا بين شياطين الانس والمؤمنين ، هذه العداوة التي تؤدي بنا الى نشاط وتبته . فالمستشرقون يعادون الاسلام . ولكن معاداتهم هذه تعطينا نشاطا لكي نبحث ونطلع حتى نرد عليهم . وجنود الشيطان من الانس يعادون المؤمنين . وعداوتهم هذه تعطينا مناعة ألا نخطئ ولا نفشل . فانت مادام لك عدو .. فحاول أن تتفوق عليه بكل السبل .

ولعل الحضارة الانسانية لا ترتقى بسرعة قدر ارتفاعها وقت الحروب . ففيها يحاول كل خصم ان يتفلب على خصمه . ويجند كل القوى للتفوق علميا على الدول الاخرى . هذه الارتقاءات والاختراعات . قد تكون للتدمير والقتل . ولكن بعد أن تنتهي الحرب توجه الى ارتفاعات الانسان في الأرض . فتفتت الذرة وصلوا اليه في

الحروب . والصواريخ التي وصل الانسان بها الى القمر كانت نتيجة حرب ،
والارتقاءات العلمية المختلفة التي تمت في أمريكا والاتحاد السوفيتي كان اساسها عدا
كل معسكر للآخر .

وقوله تعالى « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » . . الهبوط قد يكون من مكان أعلى الى
مكان أسفل . وقد يكون الهبوط معنويا . بأن تقول هذا الانسان هبط في نظري منذ
فعل كذا . هو لم يهبط من مكان أعلى الى مكان أسفل .

ولكنه هبط في قيمته . والمسافات لا تعنى قريبا أو بعيدا . فقد يكون انسان يجلس
الى جوارك وأنت بعيد عنه لا تحس به . وقد يكون هناك انسان بعيد عنك بمئات
الأميال ولكنه قريب الى قلبك أكثر من ذلك الجالس الى جوارك . وسواء كان الهبوط
ماديا أو معنويا . فإنه حدث ليباشر آدم مهمته على الأرض . . والعداوة بين الايمان
والكفر مستمرة .

وهكذا بعد معصية آدم . هبط هو وحواء من الجنة ليأرسا حياتهما على الأرض . .
وقوله تعالى « اهبطوا » معناه أن آدم وحواء وابليس هبطوا الى الأرض بعد أن تمت
التجربة الايمانية .

لقد بين الله تعالى لأدم عمليا ان ابليس عدوله . لا يريد له الخير . وأنه كاذب
في كل ما يعبد به الانسان . وقد حدد الله الحياة الدنيا بأنها حياة موقوتة . قدراتها
محدودة . ومتاعها محدود . . في قوله تعالى :
« ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين » .

أى لا أحد سيقى في الأرض إلا بمقدار ماقدّر الله له من عمر ثم يموت . وبهذا
حذر الله آدم وذريته من أن يتخذوا من الحياة هدفاً لأن متاعها قليل ، وأمدّها
قصير .



﴿ فَلَنَقِيَّ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَمَا كُنْتَ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٢٧ ﴾

نزل آدم وسواه الى الارض ليبارسا مهمتها في الكون . وقبل أن يبدأ هذه المهمة . جعلها الله سبحانه وتعالى يمران بتجربة عملية بالنسبة لتطبيق المنهج وبالنسبة لاغواء الشيطان . وحذرهما بأن الشيطان عدو لهما .. كان لابد بعد أن وقعت المعصية أن يشرع الله تعالى التوبة ورحمة بعباده . ذلك أن تشريع التوبة ليس رحمة بالعاصي وحده ؛ ولكنه رحمة بالمجتمع كله . فالإنسان اذا عصى وعرف أنه .. لاتوبة له وأنه يحكم عليه بالخلود في النار . يتبادى في اجرامه . لأنه مادام لا أمل له في النجاة من عذاب الآخرة . فانه يتبادى في المعصية . لأنه لا أمل في الغفران أو التوبة ..

من الذى سيعان في هذه الحالة ؟ انه المجتمع الذى يعيش فيه ذلك العاصي . وسيكون المؤمنون أكثر الناس معاناة لأنهم أهل خير وتسامح . ولأن الله سبحانه وتعالى .. أمرهم بالغفر . والصفح . وقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا يَأْتِلْ أُولَؤُلَا الْفَضْلَ مِنْكَ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٦ ﴾

(سورة النور)

وقوله تعالى :

﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَحْسَبُوا الْفَضْلَ يَنْكَرُ﴾

(من الآية ٢٢٧ سورة البقرة)

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تحث المؤمنين على العفو . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها :

« أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية ، والقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عن ظلمي ، وأعطى من حرمي ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صمتي فكرا ونطقى ذكرا ، ونظري عبرا » (١)

فالتوبة لو لم تشرع لعانى المجتمع كله . وخاصة المؤمنين الذين أمروا أن يقابلوا العدوان بالصفح والظلم بالعفو . ولذلك كان تشريع التوبة من الله سبحانه وتعالى . رحمة بالناس كلهم .

والله جل جلاله شرع التوبة أولا . ثم بعد أن شرعها تاب العاصي . ثم بعد ذلك يقبل الله التوبة أو لا يقبلها تبعاً لشئته . وقرأ قوله تعالى :

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ آتِيَابُ الرَّحِيمِ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه . أتوجد خطيئة بعد توبة آدم وقبول الله سبحانه وتعالى هذه التوبة ؟ ان بعض الناس يقول ان آدم قد عصى وتاب الله عليه . وإبليس قد عصى فجعله الله خالداً في النار . نقول : انكم لم تفهموا ماذا فعل آدم ؟ أكل من الشجرة المحرمة . وعندما علم أنه أخطأ وعصى . لم يصر على المعصية . ولم يرد الأمر على الأمر . ولكنه قال يارب أمرك ومنهجهك حق . ولكنني لم

أقدر على نفسى فساعى .

اعترف آدم بذنبه . واعترف بضعمه . واعترف بأن المنهج حق . وطلب التوبة من الله سبحانه وتعالى . ولكن إبليس رد الأمر على الأمر . قال : « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » وقال « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » وقال : « فيعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » وقال : « لاحتكن ذريته الأقبالا » فأبليس هنا رد الأمر على الأمر . لم يعترف بذنبه . ويقول يارب غلبني ضعفى . وأنت الحق وقولك الحق . ولكنه رد الأمر على الله تعالى وعاند وقال سأفعل كذا وسأفعل كذا . وهذا كفر بالله .

إياك أن ترد الأمر على الله سبحانه وتعالى . فإذا كنت لا تصل . فلا تقل وما فائدة الصلاة . وإذا لم تكن تزكى . فلا تقل تشريع الزكاة ظلم للقادرين . وإذا كنت لا تطبق شرع الله . فلا تقل إن هذه الشريعة لم تعد تناسب العصر الحديث . فانك بذلك تكون قد كفرت والعياذ بالله . ولكن قل ياربى إن فرض الصلاة حق . وفرض الزكاة حق . وتطبيق الشريعة حق . ولكننى لا أقدر على نفسى . فأرحم ضعفى يارب العالمين . إن فعلت ذلك . تكن عاصيا فقط .

إن الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس . أن آدم اعترف بمعصيته وذنبه . ولكن إبليس رد الأمر على الأمر . فيكون آدم قد عصى ، وإبليس قد كفر والعياذ بالله . ويقول الحق سبحانه وتعالى : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » هذه الكلمات التى تلقاها آدم . أراد العلماء أن يحصروها . ما هذه الكلمات ؟ هل هي قول آدم كما جاء في قوله تعالى :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢٧)

(سورة الاحزاب)

هذه الآية الكريمة . دللتنا على أن ذنب آدم لم يكن من ذنوب الاستكبار . ولكن من ذنوب الغفلة . . بينما كان ذنب إبليس من ذنوب الاستكبار على أمر الله . ولكن آدم عندما عصى حدث منه انكسار .

فقال : ياربى امرك بالآ اقرب الشجرة حق . ولكنى لم أقدر على نفسى . فادم أقر بحق الله فى التشريع . بينا ابليس اعترض على هذا الأمر وقال :
« أسجد لمن خلقت طينا »

الكلمات التى تلقاها آدم من الله سبحانه وتعالى قد تكون : « ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » وقد تكون : . . اللهم لا اله الا أنت سبحانك ربى وبحمدك . ان ظلمت نفسى ظلما كثيرا فاغفر لى يا خير الغافرين . . أو اقبل توبى يا خير التوابين . . أو قال : سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله . . المهم أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى لآدم بكلمات يتقرب بها اليه . سواء كانت هذه الآية الكريمة أو كلمات أخرى .

لو نظرنا الى تعليم الله آدم لكلمات ليتوب عليه . لوجدنا مبدأ مهما فى حياة المجتمع . لأن الله سبحانه وتعالى كما قلنا . . لو لم يشرع التوبة ولو لم يشرنا بأنه سيقبلها . لكان الذى يذنب ذنبا واحدا لا يرجع عن المعصية أبدا . وكان العالم كله سيعانى . .

والله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين ولم يخلقنا مقهورين . القهر يثبت صفة القدرة لله ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد منا أن نأتى عن حب وليس عن قهر . ولذلك خلقنا مختارين . وجعل لنا طاقة تستطيع أن تعصى وأن تطيع . ومادام هناك اختيار.. فالإنسان يختار هذه أو تلك . .

إن الله لم يخلق بشرا يختارون الخير على طول الخط . وبشرا يختارون الشر فى كل وقت . فهناك من الخيرين من يقع فى الشر مرة ، وهناك من الشريرين من يعمل الخير مرة . فالعبد ليس مخلوقا أن يختار خيرا مطلقا . أو أن يختار شرا مطلقا . . ولذلك فأحيانا ننسى أو ننسوا . أو نعصى . ومادام العبد معرضا للخطيئة . قاله سبحانه وتعالى شرع التوبة . حتى لا يياس العبد من رحمة الله ، ويتوب ليرجع الى الله . وقد جاء فى الحكمة : « رب معصية أورث ذلا وانكسارا . خير من طاعة أورث عزاء واستكبارا » .

وهكذا عندما نزل آدم لياثر مهمته في الحياة . لم يكن يحمل أى خطيئة على كتفيه .. فقد أخطأ وعلمه الله تعالى كلمات التوبة . فتاب فقبل الله توبته ..

وقوله سبحانه وتعالى : « انه هو التواب الرحيم » .. كلمة تواب تدل على أن الله تعالى لا يأخذ عباده بذنب واحد . لأنه سبحانه وتعالى حتى لو تاب عن ذنب واحد لكل عبد من عباده كان توابا . والمبالغة في الصفة تأتي من ناحيتين . أولا أن الامر يتكرر عدة مرات من عدد قليل من الأشخاص . أو من شخص واحد . أو أن الأمر يقع مرة واحدة ولكن من اشخاص كثيرين ..

فإذا قلت مثلا : فلان أكل ، قد يكون أكلوا لانه يأكل كمية كبيرة من الطعام . فيسمى أكلوا .. إنه لا يتجاوز طعامه في عدد مراته وجبات الطعام العادي للانسان . ولكنه يأكل كمية كبيرة . فنسميه اكلوا . فيأكل مثلا عشرة أرغفة في الافطار ومثلها في الغداء ومثلها في العشاء .

وقد يكون الانسان اكلوا اذا تكرر الفعل نفسه .. كأن يأكل كميات الطعام العادية ولكنه يأكل في اليوم خمس عشرة مرة مثلا .. فאלله سبحانه وتعالى تواب لأن خلقه كثيرون . فلو اخطأ كل واحد منهم مرة . يكون عدد ذنوبهم التي سيتوب الله عليها كمية هائلة . فإذا وجد من يذنب عدة مرات في اليوم . فإن الله تعالى . يكون توابا عنه ايضا اذا تاب واتجه اليه ..

اذن مرة تأتي المبالغة . في الحدث وان كان الذي يقوم به شخص واحد . ومرة تأتي المبالغة في الحدث لأن من يقوم به أفراد متعددون ..

إذن فآدم أذنب ذنبا واحدا . يقتضى أن يكون الله تائباً . ولكن ذرية آدم من بعده سيكونون خلقا كثيرا .. فتأتى المبالغة من ناحية العدد ..

وقوله تعالى : « انه هو التواب الرحيم » سيدنا عمر جاءته امرأة تصيح وتصرخ لأن ابنها ضبط سارقا . وقالت لعمري سرق ابني الا هذه المرة . فقال لها عمر : الله ارحم بعبيد من أن يأخذ من أول مرة . لايد أنه سرق من قبل ..

وانا المحدثى أن يوجد مجرم يضبط من أول مرة .

كلمة تواب تدل على أنه يضبط بعد مرتين أو ثلاث ، فالله يستر عبده مرة ومرة .
ولكن اذا ازداد وتغاضى فى المعصية . يوقفه الله عند حده . وهذا هو معنى تواب .

والحق سبحانه وتعالى . تواب برحمته .. لأن هناك من يعفو ويظل بمن عليك
بالعفو . حتى أن المعفو عنه يقول : ليتك غافبتى ولم تمن على بالمعفو كل ساعة . لكن
الحق سبحانه وتعالى . تواب رحيم . يتوب على العبد . ويرحمه فيمحو عنه ذنوبه .



﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ٢٨ ﴿

يقول الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية : « قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا » وفي سورة طه يقول جل جلاله « قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا » عندما خاطب الله سبحانه وتعالى بصورة الجمع . كان الخطاب لكل ذرية آدم المظمورة في ظهوره . أمرهم جميعا بالمهبوط . آدم وحواء والذرية . لأن كل واحد منا . الى أن تقوم الساعة فيه جزئ من آدم . ولذلك لابد أن نلتفت الى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الاحراف)

نلاحظ هنا أن الخطاب بصيغة الجمع ، فلم يقل الحق سبحانه وتعالى . لقد خلقتك ثم صورتك ثم قلت للملائكة اسجدوا لآدم ، فكان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أنه ساعة الخلق كان كل ذرية آدم مطمورين في ظهوره . خلقهم جميعا ثم صورهم جميعا . ثم طلب من الملائكة السجود لآدم . فهل نحن كنا موجودين ؟ نعم كنا موجودين في آدم . ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول : « اهْبِطُوا » لنعرف أن هذا الخطاب موجه الى آدم وذريته جميعا الى يوم القيامة .

ومرة يقول « اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا » لأن هنا بداية تحمل المسؤولية بالنسبة لآدم . في هذه اللحظة وهي لحظة الهبوط في الأرض . سيبدأ منبج الله مهمته في الحياة . ومدام هناك منبج وتطبيق فردى . تكون المسؤولية فردية . ولا يأتى الجمع هنا .

فالحق سبحانه وتعالى يقول : « اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا » نلاحظ أن أمر الهبوط هنا

بالمثنى . ثم يقول تبارك وتعالى جميعا .. جمع .. نقول أنه مادامت بداية التكليف . فهناك طرفان سيواجه بعضهما البعض . الطرف الأول . هو آدم وزوجه . والطرف الثاني هو ابليس . فهم ثلاثة ولكنهم في معركة الايمان . فريقان فقط . آدم وحواء وذريتهما فريق . والشيطان فريق آخر . فكان الله تعالى يريد أن يلفتنا الى أن هذا الميوط يتعلق بالمنهج وتطبيقه في الأرض . وفي المنهج آدم وحواء حريصان على الطاعة . وابليس حريص على أن يقودهما الى المعصية .

وفي قوله تعالى : « فإما يأتينكم منى هدى » نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى بعد أن مر آدم بالتجربة ووقع في المعصية ، علمه الله تعالى كلمات التوبة . ونصحته أنه اذا غفل يتوب . والله سبحانه وتعالى .. سيقبل توبته ..

اذن فالحق سبحانه وتعالى يريد من آدم وحواء ان يسكنوا الأرض . ويبدأ مهمتهما في الحياة . والله يذلها على الخير . مصداقا لقوله تعالى : « فإما يأتينكم منى هدى » .. وهدى لها معنيان .. هي بمعنى الدلالة على الخير . أو الدلالة على الطريق الموصلة للخير . وهناك هدى وهو الاعانة على الايمان والزيادة فيه . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ ﴾ (١٧)

(سورة محمد)

الهدى هنا في الآية الكريمة .. بمعنى الدلالة على طريق الخير . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

ما هو الخوف وما هو الحزن ؟ الخوف أن تتوقع شرا مقبلا لا قدرة لك على دفعه فتخاف منه .. والحزن أن يفوتك شيء تحبه وتمناه .

والحق سبحانه وتعالى يقول في هذه الآية : من مشى في طريق الايمان الذى دلته عليه . وأنزله في منهجى . فلا خوف عليهم . أى أنه لا شيء سيوقعهم فيحزنوا عليه . لأن كل الخير في منهج الله . فالذى يتبع المنهج لا يخاف حدوث شيء أبدا .

وهذه تعطينا قضية مهمة في المجتمع . الذي لم يرتكب أية مخالفة .. هل يتأله خوف ؟ أبدا .. ولكن من يرتكب مخالفة تجده دائما خائفا خشية أن يتكشف أمره .. ويقابجا بشر لا قدرة له على دفعه .

إن الانسان المستقيم لا يعيش الخوف . لأن الخوف أمران . اما ذنب أنا سبب فيه . والساير على الطريق المستقيم لم يفعل شيئا يخاف انكشافه . واما أمر لا دخل لي فيه . يجبره على خالقي . وهذا لا بد أن يكون لحكمة . قد أدركها . وقد لا أدركها ولكنني اتقبلها . فالذي يتبع هدى الله . لا يخاف ولا يحزن . لأنه لم يذنب . ولم يخرق قانونا . ولم يخش بشرا . أو يخشى جريمة . فلا يخاف شيئا ، ولو قابله حدث مفاجيء ، قلبه مطمئن . والذين يتبعون الله . لا يخافون . ولا يخاف عليهم .. وقوله تعالى : « ولا هم يحزنون » لأن الذي يعيش طائعا لمنهج الله .. ليس هناك شيء يجعله يحزن . ذلك أن ارادته في هذه الحالة تخضع لارادة خالقه . فكل ما يحدث له من الله هو خير . حتى ولو كان يبدو على السطح غير ذلك . ملكاته منسجمة وهو في سلام مع الكون ومع نفسه . والكون لا يسمع منه الا التسبيح والطاعة والصلاة . وكلها رحمة . فهو في سلام مع نفسه . وفي سلام مع ربه . وفي سلام مع المجتمع .

إن المجتمع دائما يسعد بالانسان المؤمن الذي لا يفسد في الأرض . بل يفعل كل خير . فالمؤمن نفحة جمال تشع في الكون . ونعمة حسن ورضا مع كل الناس . ومادام الانسان كذلك . فلن يفقد ما يسره أبدا . فإن أصابته أحداث .. أجراها الله عليه .. لا يقابلها الا بالشكر . وان كان لا يعرف حكمتها .. وإياك أن تعترض على الله في حكم .

ولذلك يقول : احمدك رب على كل قضائك وجميع قدرك . حمد الرضا بحكمك واليقين بحكمتك ..

والانسان يتفعل للأحداث . ولكن هناك فرق بين الانفعال للأحداث وحدها وبين الانفعال للأحداث مع حكمة مجربها . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الدقة حينما قال : (إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول الا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون) (١)

(١) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه واحمد وهذا لفظ البخاري

انظروا الى الايمان وهو يستقبل الاحداث . . العين تدمع . ولا يكون القلب
قاسيا مثل الحجر ، لكن فيه حنان . والقلب يخشع لله . مقدرا حكمته وارادته . .

والله سبحانه وتعالى لا يريدنا أن نستقبل الاحداث بالحزن وحده . ولكن بالحزن
مع الايمان . قاله لا يمنعك أن تحزن . ولكن عليك ألا تفصل الحدث عن مجريه
وحكمته فيه . . ولذلك حين تذهب الى طبيب العظام .. فيكسر لك عظامك لكي
يصلحها . هل يفعل لك خيرا او شرا ؟ طبعا يفعل لك خيرا . وان كان ذلك
بؤلك .



﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

الحق سبحانه وتعالى بعد أن أعلمنا أن آدم حين يهبط إلى الأرض سيتلقى من الله منهجاً لحركة حياته . من اتبعه خرج من حياته الخوف والحزن . وأصبح آمناً في الدنيا والآخرة . أراد الله تعالى أن يعطينا الصورة للمقابلة . فالحكم في الآية السابقة كان عن الذين اهتدوا . والحكم في هذه الآية عن الذين كفروا . يقول الحق تبارك وتعالى . « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا » والكفر كما بينا هو محاولة ستر وجود الله واجب الوجود . ومحاولة ستر هذا الوجود هو اعلان بأن الله تعالى موجود . فانت لا تحاول أن تستر شيئاً الا اذا كان له وجود أولاً .

إن الشيء الذي لا وجود له لا يحتاج إلى ستر ؛ لأنه ليس موجوداً في عقولنا . وعقولنا لا تفهم ولا تسمع إلا ما هو موجود . توجد الصورة الذهنية أولاً . ثم بعد ذلك يوجد الاسم أو الصورة الكلامية . ولذلك إذا حدثك إنسان عن شيء ليس له وجود فانت لا تفهمه . ولا تستطيع أن تعيه إلا إذا شبه لك بوجود . كأن يقال لك : مثل هذا الجبل أو مثل هذه البحيرة . أو مثل قرص الشمس أو غير ذلك حتى تستطيع أن تفهم . فانت لا تفهم غير موجود إلا إذا شبه بوجود .

وكل شيء لابد أن يكون قد وجد أولاً . ثم بعد ذلك تجتمع مجامع اللغة في العالم لتبحث عن لفظ يعبر عنه بعد أن وجد في الصورة الذهنية . فلم يكن هناك اسم للصاروخ مثلاً قبل أن يوجد الصاروخ . ولا لسفينة الفضاء قبل أن تبتدع . ولا لاشعة الليزر قبل أن تكتشف . إذن فكل هذا وجد أولاً . ووضع له الاسم بعد ذلك .

الذين كفروا يحاولون ستر وجود الله . وستر وجود الله سبحانه وتعالى هو اثبات لوجوده . لأنك لا تستر شيئا غير موجود . وهكذا يكون الكفر ميثا للإيمان .

وعقلك لا يستطيع أن يفهم الاسم إلا إذا وجد المعنى في عقلك . وأنت لا تجد لغة من لغات العالم . ليس فيها اسم الله سبحانه وتعالى . بل إن الله جل جلاله . وهو غيب عنا . إذا ذكر اسمه فهمه الصغير والكبير . والجاهل والعالم . والذي طاف الدنيا . والذي لم يخرج من بيته . كل هؤلاء يفهمون الله بفطرة الإيمان التي وضعها في قلوبنا جميعا .

أذن الذين كفروا يحاولون ستر وجود الله سبحانه وتعالى . . وقوله تعالى : « وكذبوا بآياتنا » الآية هي الشيء العجيب اللافت . فهناك في الكون آيات كونية مثل الشمس والقمر والنجوم والأرض . والجبال والبحار وغير ذلك . هذه تسمى آيات . شيء فوق قدرة البشر خلقها الله سبحانه وتعالى لتكون آية في كونه وتحمد الانسان .

وهناك الآيات وهي المعجزات . عندما يرسل الله رسولا أو نبيا الى قومه فإنه سبحانه يخرق له قوانين الكون ليثبت لقومه أنه نبي مرسل من عند الله سبحانه وتعالى . وهذه الآيات مقصود بها من شهادتها . لأنها تأتي لتثبت المؤمنين بالرسول . وهم يبرون بأزمة يحتاجون فيها الى التثبيت . ودلالة على صدق رسالة النبي لقومه . . وتطلق الآيات على آيات القرآن الكريم . كلام الله المعجز الذي وضع فيه سبحانه وتعالى ما يثبت صدق الرسالة . الى يوم الدين .

يحدثنا الله سبحانه في آياته . عن كيفية خلق الانسان . وعن منهج السبيل للارض وغير ذلك .

والذين كذبوا بآيات الله . هم الكافرون . وهم المشركون . وهم الذين يرفضون الاسلام . ويحاربون الدين . هؤلاء جميعا . حدد لنا الله تعالى مصيرهم . ولكن هل التكذيب عدم قدرة على الفهم ؟ نقول أحيانا يكون التكذيب متعمدا مثلما حدث لآل فرعون عندما أصابهم الله بآفات وامراض وبالعلذاب الاصفر حتى يؤمنوا . ولكنهم رغم يقينهم بأن هذه الآيات من الله سبحانه وتعالى . لم يعترفوا

يها .. ويقول الحق جل جلاله .

﴿ وَهَمَّوْا بِهَا وَاسْتَفْتَنَّا أَنْفُسَهُمْ قُلُوبًا وَعُقُوبًا ﴾

(من الآية ١٤ سورة النمل)

والآيات في الكون كثيرة . لو أننا التفتنا إليها لأمنا .^٩ فهي ليست محتاجة الى فكر . بل ان الله تعالى ، رحمة بنا جعلها ظاهرة . ليدركها الناس . كل الناس . ولكن البعض رغم ذلك يكذب بآيات الله . وهؤلاء هم الذين يريدون أن يتبعوا هوى النفس . والحق سبحانه وتعالى جمع الكافرين والمكذبين بآيات الله في عقاب واحد .. وقال جل جلاله : « أولئك أصحاب النار » والصاحب هو الذي يألف صاحبه . ويجب أن يجلس معه . ويقضي أجمل أوقاته . فكان قوله تعالى: أصحاب النار . دليل على عشق النار لهم . فهي تفرح بهم ، عندما يدخلونها . كما يفرح الصديق بصديقه . ولا تريد أن تفارقهم أبداً .. ولذلك اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْشَلَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ٥٥ ﴾

(سورة ق)

وهكذا ترى مدى العشق ، بين النار والكافرين . ان النار تصاحبهم في كل مكان . وهي ليست مصاحبة كريمة بالنسبة للنار . ولكنها مصاحبة تجيها النار . فالنار حين تحرق كل كافر وأثم وفاق تكون سعيدة . لأنها تعاقب الذين كفروا بمنهج الله وكذبوا بآياته في الحياة الدنيا .. وكذلك الحال بالنسبة للجنة . فإن الجنة أيضا تحب مصاحبة كل من آمن بالله واخلص له العبادة وطبق منهجه .. وقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّكَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٥٦ ﴾

(سورة هود)

أى أن الجنة تصاحب المؤمنين . ونعيمهم وتلازمهم . مثلاً تصاحب النار الكافرين والمكذبين .. وكما أن النار تكون سعيدة وهى تحرق الكافر . فالجنة تكون سعيدة وهى تمتع المؤمن .. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « هم فيها خالدون » أى أن العذاب فيها دائم . لا يتغير ولا يفتّر . ولا يخفف . بل هو مستمر الى الأبد .. واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصَرُونَ ﴾ (٨١)

(سورة البقرة)

وهكذا نعرف ان الله سبحانه وتعالى قد انزل المنهج الى الارض مع آدم ، وأن آدم . نزل الى الأرض ومعه الهدى لطريق أول منهج للسما على الأرض . فكان الله سبحانه وتعالى لم يترك الانسان لحظة واحدة على الأرض دون أن يعطيه المنهج الذى يبين له طريق الهدى وطريق الضلال . ومع المنهج شرعت التوبة . وشرع قبول التوبة حتى لا يياس الانسان . ولا يحس أنه اذا أخطأ أو نسي أصبح مصيره جهنم . بل يحس ان أبواب السماء مفتوحة له دائماً . وان الله الذى خلقه رحيم به . اذا أخطأ فتح له أبواب التوبة وغفر له ذنوبه . حتى يحس كل انسان برعاية الله سبحانه وتعالى له وهو على الأرض . من أول بداية الحياة .

فالمنهج موجود لمن يريد أن يؤمن . والتوبة قائمة لكل من يخطئ .

وحذر الله سبحانه وتعالى آدم وذريته أنه من يطع ويؤمن يعيش الحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة . ومن يكفر ويكذب . فإن مصيره عذاب أبدي .

لقد عرف الله آدم بعدوه ابليس . وطلب منه أن يحذره . فإذا فعل بنو آدم ؟ هل استقبلوا منهج الله بالطاعة أو بالعصية ؟ وهل تمسكوا بتعاليم الله . أو تركوها وراء ظهورهم ؟



يَبْقَىٰ بِإِسْرَءِيلَ أَدْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ
وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَازِهِبُونَ ﴿٥٠﴾

بعد أن قص الله علينا قصة الخلق وكيف بدأت بآدم ، وعداوة إبليس لآدم وسببها . قص علينا التجربة الأولى للمنج في إحدى الجنات ، وكيف أن آدم تعرض للتجربة فأغواه الشيطان وعصى . ثم نزل إلى الأرض مسلحا بمنهج الله . وعصيا بالتوبة من أن يطفى . بدأت مهمة آدم على الأرض ..

إن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعرض علينا موكب الرسالات وكيف استقبل بنو آدم منهج الله بالكفر والعصيان . فاختار جبل جلاله قصة بني إسرائيل لأنها أكثر القصص معجزات ، وأنبياء بني إسرائيل من أكثر الأنبياء الذين أرسلوا لأمة واحدة وليس معنى هذا أنهم مفضلون . ولكن لأنهم كانوا أكثر الأمم عصيانا وأثاما فكانوا أكثرها أنبياء . كانوا كلهم خرجوا من معجزة انصرفوا . فتأتيهم معجزة أخرى . فيصرفون . وهكذا حكم الله عليهم لظلمهم أن يتفرقوا في الأرض ثم يتجمعوا مرة أخرى في مكان واحد . ليدوقوا العذاب والنكال جزاء لهم على معصيتهم وكفرهم . ولذلك أخذت قصة بني إسرائيل ذلك الحجم الضخم في كتاب الله . وفي تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فهو على السلام الذي أرسله الله إلى بني إسرائيل من أولى العزم من الرسل . ولذلك فإنك تجد فيه تربية أولا . وتربية ثانيا .. ولا بد أن نلفت إلى قول الحق سبحانه وتعالى : يا بني إسرائيل ، فالحق جبل جلاله . حين يريد أن ينادي البشر جميعا يقول : يا بني آدم ، وقرأ قوله تعالى :

﴿ يٰٓبَنِي آدَمُ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

وقوله سبحانه :

﴿يَبْنِيْ اٰدَمَ لَا يَفْتَنَنَّكَ الشَّيْطٰنُ﴾

(من الآية ١١ سورة الاعراف)

لماذا يخاطبنا الله تعالى بقوله : يا بني آدم ؟ لأنه يريد أن يذكرنا بنعمة علينا منذ بداية الخلق . لأن هذه النعم تخص آدم وفريته . فאלله تعالى خلق آدم بيديه . وأمر الملائكة أن تسجد له . وأعد له كونا مليئا بكل ما يضمن استمرار حياته . ليس بالضروريات فقط . ولكن بالكماليات . ثم دربه الحق على ما يستعرض له من اغواء الشيطان . وأفهمه أن الشيطان عدو له . ثم علمه كلمات التوبة . ليتوب عليه . وأمهده بنعم لا تعد ولا تحصى .

قاله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بكل ذلك حتى نخجل من أن نرتكب معصية بعد كل هذا التكريم للآسان . فإذا تذكرنا نعم الله علينا .. فإنا نخجل أن نقابل هذه النعم بالمعصية .

وقد علمنا الله سبحانه وتعالى علما ميزنا الله تعالى فيه عن ملائكته . لذا كان يجب أن نظل شاكرين عابدين طوال حياتنا في هذه الدنيا .

لكننا نلاحظ ان الحق سبحانه وتعالى بدأ هذه الآية الكريمة بقوله : يا بني اسرائيل ؟ لماذا ؟ ومن هو اسرائيل ؟

اسرائيل مأخوذه من كلمتين : اسر وإيل . (اسر) يعنى عبد مصطفى أو مختار . (وإيل) معناها الله في العبرانية . فيكون معنى الكلمة صفوة الله . والاصطفاء هنا ليعقوب وليس لذريته . .

فإذا نظرنا الى اسرائيل الذى هو يعقوب كيف أخذ هذا الاسم . نجد أنه أخذ الاسم لأنه ابتلى من الله بلاء كبيرا . استحق به أن يكون صغيا لله . وعندما يتادى الله تعالى قوم موسى بقوله : يا بني اسرائيل . فإنه يريد أن يذكرهم بمجزلة اسرائيل عند الله . ما واجهه من بلاء . وما تحمله في حياته . فاذكروا ما وصاكم به حين

حضرته الوفلة .. واقرا قوله تبارك وتعالى :

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالْآبَاءَ إِلَهًا كَمَا إِلَهُكَ وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاتِنَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

(سورة البقرة)

ثم يأتي بعد ذلك قول يعقوب .. واقرا قوله تعالى :

﴿يَتَّبِعِي إِنَّ اللَّهَ أَصْلَقُ نَكْرَ الَّذِينَ فَلَا تُخَوِّنْ وَلَا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

(من الآية ١٣٢ سورة البقرة)

تلك هي الوصية التي وصى بها يعقوب بنه .. فيها علم وفيها عظة . علم بأن الله اله واحد . لا شريك له . وأن الدين هو الاسلام . وعظة وتذكير بأن الله اختار لهم الدين . فليحرصوا عليه حتى الموت .

ولقد جاءت هذه الوصية حين حضر يعقوب الموت . وساعة الموت يكون الانسان صادقا مع نفسه . وصادقا مع ربه . وصادقا مع ذريته . فكانه سبحانه وتعالى حينها يقول : «يا بني اسرائيل » يريد أن يذكرهم باسرائيل وهو يعقوب وكيف تحمل وظل صابرا . ووصيته لهم ساعة الموت .

إن الله سبحانه وتعالى يذكر الأبناء بفضلهم على الآباء هلهم يتعظون أو ينجحون من المعصية تماما كما يكون هناك عبد صالح اسرف أبناؤه على أنفسهم .

فيقال لهم :

ألا تنجحون ؟ أنتم أبناء فلان الرجل الصالح . لا يصح أن ترتكبوا ما يغضب الله ... «يا بني اسرائيل »

اسرائيل هو يعقوب ابن اسحاق . واسحاق ابن ابراهيم . وابراهيم انجب اسحاق واسماعيل . . ورسولنا صلى الله عليه وسلم من ذرية اسماعيل . والله سبحانه وتعالى يقول : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » ولكن الله سبحانه وتعالى حين يخاطب المسلمين لا يقول اذكروا نعمة الله . وإنما يقول : « اذكروا الله » لأن بني اسرائيل ماديون ودنيويون .

فكان الحق سبحانه وتعالى يقول لهم : ما دمتم ماديين ودنيويين . فاذكروا نعمة الله المادية عليكم .

ولكننا نحن المسلمين أمة غير مادية .

وهناك فرق بين أن يكون الانسان مع النعمة . وأن يكون مع المنعم . الماديون يحبون النعمة . وغير الماديين يحبون المنعم . ويعيشون في معيته . ولذلك . فخطاب المسلمين : « اذكروا الله » لاتنا نحن مع المنعم . بينما خطابه سبحانه لبني اسرائيل : « اذكروا نعمة الله »

والحديث القدسي يقول : « أنا أهل أن اتقى فلا يجعل معي إله ، فمن اتقى أن يجعل معي إلها كان أهلاً أن أغفر له » (١)

فالله سبحانه وتعالى واجب العبادة . ولو لم يخلق الجنة والنار . . ولذلك فإن المؤمنين هم أهل الابتلاء من الله . لماذا ؟ لأن الابتلاء منه نعمة . والله سبحانه وتعالى يباهي بعباده ملائكته . ويقول : انهم يعبدونني لذات . فتقول الملائكة : بل يعبدونك لتعمتك عليهم . فيقول سبحانه لهم : سأقبضها عنهم ولا يزالون يحبونني . . ومن عبادي من أحب دعاءهم . فأنا أبتهلهم حتى يقولوا يارب . لأن أصواتهم يمجها الله سبحانه وتعالى . ولذلك إذا ابتل عبداً في صحته مثلاً . وسلب منه نعمة العافية . ترى الجاهل هو الذي ينظر الى هذا نظرة عدم الرضا . وأما المتعق فينظر الى قول الله في الحديث القدسي : أن الله عز وجل يقول يوم القيامة : « يا بن آدم مرضت فلم تعدني قال : يارب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتني

(١) روله الترمذی وابن ماجه من حديث الحباب ورواه النسائي .

عنده (٢) فلو فقد المؤمن نعمة العافية . . فلا ييأس فإن الله تعالى يريد أن يعيش مع المنعم . . وأنه طوال فترة مرضه في مية الله تعالى . ولذلك حين يقول الحق تبارك وتعالى : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم » معناها . ان لم تكونوا مؤمنين لذاك . فاستحيوا أن ترتكبوا المعصية بنعمتي التي أنعمت عليكم . ولقد جاءت النعمة هنا لأن بني اسرائيل يعبدون الله من أجل نعمه .

« اذكروا نعمتي » الذكر هو الحفظ من النسيان ، لأن روتين الحياة يجعلنا ننسى السبب للنعم . فالتشعر تطلع كل يوم . كم منا يتذكر أنها لا تطلع الا بإذن الله فيشكره . والمطر ينزل كل فترة . من منا يتذكر أن المطر ينزله الله . فيشكره . فالذكر يكون باللسان وبالقلب . والله سبحانه وتعالى غيب مستور عنا . وعظمته أنه مستور . ولكن نعم الله سبحانه تدلنا عليه . . فبالذكر يكون في بالنا دائما . وننعمه يكون ذكره وشكره دائما .

والحق سبحانه وتعالى طلب من بني اسرائيل أن يذكروا النعمة التي انعمها عليهم فقط . وكان يجب عليهم أن يطيعوا الله فيذكروا المنعم . لأن ذكر الله سبحانه وتعالى يجعلك في ركن ركين . لا يصل اليك مكروه ولا شر .

إن ذكر الله المنعم يعطينا حركة الحياة في كل شيء . فذكر الله يوجد في القلوب الخشوع . ويقلل من المعاصي ويتفع الناس كل الناس به ، ويجعل حركة الحياة مستقيمة . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى . « اذكروا نعمتي » معناها اذكروني حتى بالنعمة التي أنعمت عليكم . وقوله تعالى : « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم » العهد هو الميثاق . واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ عٰهَدْنٰٓا اٰدَمَ مِنْ قَبْلُ قَنَیْٓ وَوَعَدْنٰهُ عَزْمًا ۝۱۱۶ ﴾

(سورة طه)

اذن فالعهد أمر موثق بين العبد وربه . ما هو العهد الذي يريد الله من بني

اسرائيل أن يوفوا به لئلى الله بعهدهم هم ؟

نقول : اما أن يكون عهد الفطرة . وعهد الفطرة كما قلنا أن نؤمن بالله ونشكره على نعمه . وكما قلنا اذا هبط الانسان في مكان ليس فيه أحد . ثم نام وقام فوجد مائدة حافلة بالنعم امامه . ألا يسأل نفسه : من صنع هذا ؟ لو أنه فكر قليلا لعرف أنه لا بد أن يكون لها من صانع . خصوصا أن الخلق هنا فوق قدرات البشر . فاذا أرسل الله سبحانه وتعالى رسولا يقول إن الله هو الذى خلق وأوجد . ولم يوجد مدع ولا معارض نظرا لأن ايجاد هذه النعم فوق قدرة البشر . تكون القضية محسومة لله سبحانه وتعالى .

اذن فلذكر الله وشكره واجب بالفطرة السلمية ، لا يحتاج الى تعقيدات وفلسفات . والوفاء بعهد الله أن نعبدته ونشكره هو فطرة الايمان لما اعطاه لنا من نعم . على أن الحق سبحانه وتعالى تجلده يقول :

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾

(من الآية ٢٠ سورة البقرة)

وفى آية اخرى :

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة البقرة)

وفى آية ثالثة :

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

ما هي هذه القضية التى يريد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا اليها في هذه الآيات الكريمة ؟ الله سبحانه وتعالى يريد أن نعرف أنه قد وضع في يدنا مفتاح الجنة . ففى يد كل واحد منا مفتاح الطريق الذى يقوده الى الجنة او الى النار . ولذلك اذا وقفت بالمهد أوفى الله . واذا ذكرت الله ذكرك . واذا نصرت الله نصرك .

والحديث القدسي يقول : وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتانا يمشي أتبتة هرولة^(١)

هكذا يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبيننا أن المفتاح في يدنا نحن . فإذا بدأنا بالطاعة . فإن عطاء الله بلا حدود . وإذا تقربنا إلى الله تقرب إلينا . وإذا بعدنا عنه نادانا : هذا هو إيمان القطرة

هل هذا هو العهد المقصود من الله سبحانه في قوله : « أوفوا بعهدي أوف بعهدكم » أو هو العهد الذي أخذه الله على الأنبياء ليبذلوا أوقامهم بأنهم إذا جاء رسول مصدق لما معهم فلا بد أن يؤمنوا به وينصروه ؟ فالحق سبحانه وتعالى أخذ على الأنبياء جميعا العهد لرسول الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . أو هو العهد الذي أخذه الله بواسطة موسى عليه السلام على علياه بني إسرائيل الذين تلقوا التوراة ولقنوها وكتبوها وحفظوها . عهد بالآي يكتوموا منها شيئا . وأقرأ قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ كَمَّا قَلِيلًا فِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (سورة آل عمران)

والهدف من هذا العهد . ألا يكتوموا ما ورد عن الإسلام في التوراة . ولا يخفوا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم التي جاءت بها . والله سبحانه وتعالى قد أعطى صفات رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة وفي الإنجيل . . وأقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ حِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (سورة البقرة)

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد ورواه مسلم والنسائي .

ولقد جاء القرآن الكريم . مصدقا لما نزل من التوراة . وعرف بنو اسرائيل أنفسهم صدق ما نزل في القرآن . ولكنهم كفروا لأن رسول الله لم يكن من قومهم . . وقد كان أهل الكتاب من توراة وانجيل يعرفون أن رسالة رسول الله هي الرسالة الخاتمة . وأنه لا بد أن يؤمن به قوم كل نبي . هل هذا هو العهد الذي يجب على كافة الأمم الايمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ونصرته ان أدركوه . وان لم يدركوه فالسوية على أبنائهم واحفادهم أن ينصروه ويؤمنوا به متى أدركوه . ان كانت هي عهد ايمان الفطرة ، او كانت هي عهد الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم فكلاهما وارد .

وقوله تعالى : « أوف بهدكم » أى بما وعدتكم من جنة النعيم في الآخرة . فآله سبحانه وتعالى بعد نزول الاسلام اختص برحمته الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام . وكل من لم يؤمن بهذا الدين لا عهد له عند الله .

واقراؤه قوله تبارك وتعالى عندما أخذت الرجفة موسى وقومه وطلب موسى من الله سبحانه وتعالى الرحمة . قال تعالى :

﴿ وَاصْكُتْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِعَاتٍ مُّصِيبُهُمْ مِّنْ أَشَاءٍ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَاصْكُتْ لِلَّذِينَ يَقُولُونَ وَيُقُونَ الزُّكُوفَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَابَتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ أَلَيْسَ الَّذِي يَجْعَلُهُمُ مَّكُونًا عِنْدَهُمْ فِي السَّاعَةِ إِلَّا جِبِلٌّ مِّمَّنْهُمْ وَالْمَعْرُوفَ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ النَّسْكِ وَيَجْعَلُهُمُ الْفُلُجَاتِ وَيَحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْغَنَبَاتِ وَيَبْصَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧﴾

فالحق سبحانه وتعالى يذكر بني اسرائيل في هذه الآية الكريمة . بالعهد الذي اخذه عليهم . وينذرههم أن رحمته هي للمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم متى جاءت رسالته . .

وقوله تعالى : « وإياي فارهبون » أى أنه لا توجد قوة ولا قدرة في الكون الا قوة الله سبحانه وتعالى . ولذلك فاتقوا يوما ستلاقون فيه الله ويحاسبكم . وهو سبحانه وتعالى قهار جبار . ولا نجاة من عذابه لمن لم يؤمن .



﴿وَمَا تَرْوِیَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا
أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِمْ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَأَنقُوزُ ۝﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى بني اسرائيل بالعهد الذي قطعوها على انفسهم سواء بعدم التبديل والتغيير في التوراة . لإخفاء أشياء وإضافة أشياء . وذكرهم بعهدهم بالنسبة للإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ذكر الله سبحانه وتعالى أوصافه في التوراة . حتى أن الحزب اليهودي ابن سلام كان يقول لقومه في المدينة : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابني ومعرفتي لمحمد أشد . أي أنه كان يُذكر قومه . أن أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم الموجودة في التوراة . لا تجعلهم يخطئونه . قال الحق تبارك وتعالى : « وامنوا بما انزلت مصدقا لما معكم » . لأن القرآن مصدق للتوراة . والقصد هنا التوراة الحقيقية قبل أن يحرفوها . فالقرآن ليس موافقا لما معهم من المحرف أو المبدل من التوراة . بل هو موافق للتوراة التي لا زيف فيها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « ولا تكونوا أول كافر به » . . . ولقد قلنا ان اليهود لم يكونوا أول كافر بمحمد صلى الله عليه وسلم . وإنما كانت قريش قد كفرت به في مكة . المقصود في هذه الآية الكريمة أول كافر به من أهل الكتاب . لماذا ؟ لأن قريشا لا صلة لها بمنهج السماء . ولا هي تعرف شيئا عن الكتب السابقة . ولكن أحيار اليهود كانوا يعرفون صدق الرسالة . وكانوا يستفتحون برسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل المدينة ويقولون : « جاء زمن رسول سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم » . ولما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلا من أن يسارعوا بالإيمان به . كانوا أول كافر به .

والله سبحانه وتعالى لم يفاجئهم أهل الكتاب بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم . وإنما نههم إلى ذلك في التوراة والانجيل . ولذلك كان يجب أن يكونوا أول المؤمنين وليس أول الكافرين . لأن الذي جاء يعرفونه . .

وقوله تعالى : « ولا تشتروا بآياتنا ثمنا قليلا » : الحق سبحانه وتعالى حينما يتحدث عن الصفقة الامانية . يستخدم كلمة الشراء وكلمة البيع وكلمة التجارة . اقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ أَبْجَتْةٌ ۚ ﴾

(من الآية ١١١ سورة التوبة)

وفي آية أخرى يقول :

﴿ هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ يَجْرَةِ تُجِجِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۖ تَزْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ۖ ﴾

(من الايات ١٠ ، ١١ سورة الصف)

ان الحق سبحانه وتعالى .. استعمل كلمة الصفقة والشراء والبيع بعد ذلك في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

ونعلم أن التجارة هي وساطة بين المنتج والمستهلك . . المنتج يريد أن يبيع انتاجه . والمستهلك محتاج الى هذا الانتاج . والبيع عملية تطول فترة .. وتقصّر فترة مع عملية تحريك السلعة والاقبال عليها ان كان سريعا أو بطيئا . وعملية الاتجار استخدمها الله سبحانه وتعالى ليبين لنا أنها أقصر طريق الى النفع . فالتجارة تقوم على يد الانسان . يشتري السلعة ويبيعها . ولكنها مع الله سيأخذ منك بعضا من حرية نفسك . ليعطيك أخلاذ وأوسع منها .

وكما قلنا : لو قارنا بين الدنيا بعمرها المحدود - عمر كل واحد منا - كم سنة ؟ خمسين .. ستين .. سبعين !! نجد أن الدنيا مهما طالّت .. تنتهي . والانسان العاقل هو الذي يضحى بالفترة الموقوتة والنتيجة ليكون له حظ في الفترة الخالدة .

وبذلك تكون هذه الصفقة رابعة .

ان النعيم في الدنيا على قدر قدرات البشر . والنعيم في الآخرة على قدر قدرات الله سبحانه وتعالى . يأتى الانسان ليقول : لماذا أضيق على نفسي في الدنيا ؟ لماذا لا أتمتع ؟ نقول له : لا .. إن الذى مستأله من العذاب والعقاب في الآخرة لا يساوى ما أخذه من الدنيا .. اذن الصفقة خاسرة . أنت اشترت زائلا . ودفعته ثمننا لنعيم خالد ..

والله سبحانه وتعالى يقول لليهود : « ولا تشتروا بآيات ثمننا قليلا » أى لا تدفعوا الآيات الايمانية التى أعطيت لكم لتأخذوا مقابلها ثمننا قليلا .. وعندما يأخذ الانسان أقل مما يعطى .. فذلك قلب للصفقة . والقلب تأتى منه الخسارة دائما ..

وكان الآية تقول : تدفعون آيات الله التى تكون منهجه المتكامل لتأخذوا عرضا من أعراض الدنيا . قيمته قليلة ووقته قصير . هذا قلب للصفقة .

ولذلك جاء الأداء القرآن مقابلا لهذا القلب . ففي الصفقات .. الاثنان دائما تدفع والسلعة تؤخذ . ولكن في هذه الحالة التى نتحدث عنها الآية . في قوله تعالى « ولا تشتروا بآيات ثمننا قليلا » قد جعلت الثمن الذى يجب أن يكون مدفوعا جعلته مشترى وهذا هو الحق والخطأ .

الله يقول « ولا تشتروا بآيات ثمننا قليلا » أى لا تقبلوا الصفقة .. الشيء الذى كان يجب أن تضحوا به لا تفعلوه ثمننا . لأنك في هذه الحالة تكون قد جعلت الثمن سلعة . مادمت تشتري الآيات بالثمن .. فقد جعلت آيات الله ثمننا لتحصل على مكاسب دنيوية . ولبتك جعلتها ثمننا غاليا . بل جعلتها ثمننا رخيصا .

لقد تنكرت لمعهدك مع الله ليبقى لك مالك أو مركزك !! أما اذا ضحى الانسان بشئ من متع الدنيا .. ليأخذ متع الآخرة الباقية .. فتكون هذه هي الصفقة الراجعة . ذلك لأن الانسان في الدنيا ينعم على قدر تصوره للنعيم . ولكنه في الآخرة ينعم على قدر تصور الله سبحانه وتعالى في النعيم .

بعض الذين لا يريدون أن يحملوا أنفسهم على منح الله يستعملون مكاسب الصفقة . استعجالا أحق . انهم يريدون المتعة حراما أو حلالا .. نقول لكل واحد منهم : ان كنت مؤمنا بالآخرة : أو غير مؤمن فالصفقة خاسرة .. لأنك في كلتا الحالتين ستعذب في النار .. فكأنك اشتريت بإيمانك ودينك متعة زائلة . وجعلت الكفر ومعصية الله هما الثمن فقلبت الآية ، وجعلت الشيء الذي كان يجب أن يشتري بمنهج الله وهو نعيم الآخرة يباع . ويباع بماذا ؟ بنعيم زائل ! وعندما يأخذ الانسان أقل مما يعطى .. يكون هذا قلبا للصفقة .

فكان الآية تقول : انكم تدفعون آيات الله وما تعطيك من خَيْرِ الدنيا والآخرة لتأخذوا عرضا زائلا من أعراض الدنيا وثمنه قليل . والثمن يكون دائما من الأعيان كالذهب والفضة وغيرهما .. وهي ليست سلعة . فهب أن معك كنز قارون ذهباً . وأنت في مكان منعزل وجائع . ألا تعطى هذا الكنز لمن سيعطيك رغيفا .. حتى لا تموت من الجوع ؟ ولذلك يجب ألا يكون المال غاية أو سلعة . فإن جعلته غاية يكون معك المال الكثير .. ولا تشتري به شيئا لأن المال غايبك . فيفسد المجتمع .

إن المال عبد غلص . ولكنه سيد ردىء . هو عندك حين تنفقه . ولكن حين تحزنه وتتكالب عليه يشقيك ويعرضك . لأنك أصبحت له خادما .

والآية الكريمة .. تعطينا فكرة عن اليهود لأن محور حياتهم وحركتهم هو المال والذهب . فإلهه سبحانه وتعالى حرم الربا لأن المال في الربا يصبح سلعة . فإلانة تأخذ بمائة وخمسين مثلاً .. وهذا يفسد المجتمع ، لأنه من المقروض أن يزيد المال بالعمل . فلهذا أصبحت زيادة المال بدون عمل . ففسدت حركة الحياة . وزاد الفقير فقرا . وزاد الغنى غنى . وهذا ما نراه في العالم اليوم .

فالدول الفقيرة تزداد فقرا لأنها تقترض المال وتتراكم عليها فوائد حتى تكون الفائدة أكثر من الدين نفسه . وكلما مر الوقت . زادت الفوائد . فيضعاف الدين . ويستحيل التسديد . والدول الغنية تزداد غنى ، لأنها تدفع القرض وتسترد بأضعاف قيمته .

وإذا قال الله سبحانه وتعالى : « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » يجب ألا نفهم أنه

يمكن شراء آيات الله بضمن أعل .. لا . لأنه مهما ارتفع الثمن وعلا سيكون قليلا .
وقليلا جدا . لأنه يقابل آيات الله . وآيات الله لا تقدر بضمن . فالصفقة خاسرة
مهما كانت قيمتها .

وقول الحق تبارك وتعالى : « وإياى فأتقون » وفى الآية السابقة قال : « وإياى
فارهبون » وهى وعيد . ولكن « إياى فأتقون » واقع . فقوله تعالى : « وإياى
فارهبون » هى وعيد وتحذير لما سأتى فى الآخرة . ولكن « وإياى فأتقون » يعنى اتقوا
صفات الجلال من الله تعالى . وصفات الجلال هى التى تتعلق ببطش الله وعذابه .
ومن هذه الصفات الجبار والقهار والتكبر والقادر والمنتهى والمذل . وغيرها من صفات
الجلال .

الله سبحانه وتعالى يقول : « اتقوا الله » ويقول « اتقوا النار » كيف ؟ نقول إن
الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نجعل بيننا وبين النار - وهى أحد جنود العذاب لله
سبحانه وتعالى - وقاية . ويريدنا أن نجعل بيننا وبين عذاب النار وقاية . ويريدنا
أيضا .. أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال فى الله وقاية . فقوله تعالى : « وإياى
فأتقون » أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية . حتى لا يصيبكم
عذاب عظيم . وكيف نجعل بيننا وبين صفات الجلال فى الله وقاية ؟ أن تكون
أعمالنا فى الدنيا وفقا لمنهج الله سبحانه وتعالى . إذن فالتقوى مطلوبة فى الدنيا ..



﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَالْأَنَافِئِ غَافِلِينَ﴾

بعد أن حذر الحق سبحانه وتعالى اليهود من أن يبيعوا دينهم بثمن قليل وهو المال أو النفوذ الدنيوي . قال تعالى : « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » مادة تلبس . مأخوذة من اللباس الذي ترتديه . واللبس هو التغطية أو التعمية بأن نخفي الحق ولا نظهره . فاللباس تغليف للجسم يستره فلا يبين تفاصيله ..

والحق هو القضية الثابتة المقدرة التي لا تتغير . فلنفرض أننا شهدنا شيئاً يقع . ثم روى كل منا ما حدث . إذا كنا صادقين لن يكون حديثنا الا مطابقاً للحقيقة . ولكن إذا كان هناك من يحاول تغيير الحقيقة فيكون لكل منا رواية . وهكذا فالحق ثابت لا يتغير .

في التوراة آيات لم يحرفها اليهود .. وآيات محرفة . كل الآيات التي تتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفه .. وأنه النبي الخاتم .. حرفها اليهود . والآيات التي لا تتعلق برسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحرفوها .. فكأنهم خلطوا الحق بالباطل .. ما الذي جعلهم يدخلون الباطل ويحاولون إخفاء الحقائق ؟ المصلحة الأولى : ليشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً .. والباطل هو ما لا واقع له . ولذلك فإن أبواب الباطل متعددة .

وباب الحق واحد . قاله سبحانه وتعالى يريد أن يبلغنا أن اليهود قد وضعوا في التوراة باطلاً لم يأمر به الله . وكنتموا الحقيقة عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن هل فعلوا ذلك عن طريق الخطأ أو السهو أو النسيان ؟ لا بل فعلوه وهم

يعلمون . ثأى مثلا الى قول الحق تبارك وتعالى لليهود :

﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ حُبًّا وَقُولُوا حِطَّةً نَقَرْنَا لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَتَرْتُ بِذُنُوبِهِمْ﴾

(من الآية ٥٨ سورة البقرة)

وحطة أى حط عنا يارب ذنوبنا . يأتى اليهود وينيرون قول الله . فبدلا من أن يقولوا حطة . يقولوا حنطة . من يسمع هذا اللفظ قد لا يتنبه ويعتقد أنهم قالوا ما أمرهم الله به . مع أن الواقع أنهم حرفوه . ولذلك عندما كانوا يأتون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : راعنا ليا بألستهم . وكان المفروض أن يقولوا راعينا . . ولكنهم قالوا راعنا من الرعونة . . والله تعالى نبه المؤمنين برسوله صلى الله عليه وسلم ألا يقولوا مثلهم . فقال جل جلاله : « لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا » .

أى اتركوا هذه الكلمة نهائيا ، هذا ليس الحق بالباطل . اذن فاليهود البسوا الحق بالباطل . والانسان لا يلبس الحق بالباطل . . إلا اذا كان لا يستطيع مواجهة الحق . لأن عدم القدرة على مواجهة الحق ضعف نفوذته الى الباطل ، لأن الحق يتعب صاحبه . . والانسان لا يستطيع أن يحتمل نفسه على الحق .

وقوله تعالى : « وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » أى أنهم يفعلون ذلك عن عمد وليس عن جهل . فقد يكتم الانسان حقا وهو لا يعلم أنه الحق . ولكن اذا كنت تعلمه فتلك هى التكبى لأنك تحقيه عامدا متعمدا . أو وأنتم تعلمون . قد يكون معناها أن اليهود - وهم أهل كتاب - يعلمون ما سيصيبهم فى الآخرة من المذاب الأليم . . بسبب اخفائهم الحق . فهم لا يجهلون ماذا سيحدث فى الآخرة . ولكنهم يقدمون على عملهم مع علمهم أنه خطأ فيكون المذاب حقا .



﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾

اقامة الصلاة معروفة . وهي تبدأ بالتكبير وتختتم بالتسليم . بشرائطها من عناصر القيام والركوع والسجود . ولكن الحق يقول : « وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » إما انه يريد منهم أن ينضموا الى موكب الايمان الجماع لأن صلاتهم لم يكن فيها ركوع . اذن فهو يريد منهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . ولا يظنوا أن ايمانهم بموسى عليه السلام يعفيهم من أن يكونوا خاضعين لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . ويقولون ديننا كافينا . إنما جاء الاسلام لمن لا دين له وهم الكفار والمشركون . فيقول لهم : « اركعوا مع الراكعين » .

إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم الى أن صلاتهم لن تقبل منهم إلا أن يكون فيها ركوع . وصلاة اليهود ليس فيها ركوع . . وإن كان فيها سجد ، وفي كلتا الحالتين فإن الحق سبحانه وتعالى يلفتهم الى ضرورة الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحق سبحانه وتعالى حينما قال : (ولا تشتروا بآيائنا ثمنا قليلا) يريد أن يلفتهم الى أن العكس هو المطلوب وانهم كان يجب أن يشتروا الايمان ويشتاروا الصفة الرابعة . ولن يحدث ذلك الا اذا آمنوا بالرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم . . فهذا هو الطريق الوحيد لرضا الله سبحانه وتعالى .

الله سبحانه وتعالى يريد أن يهدم تكبرهم على الدين الجديد فأمرهم بالصلاة كما يصلي المسلمون . وبالزكاة كما يزكي المسلمون . فلا يعتقدون أن ايمانهم بموسى والتوراة سيقبل منهم بعد أن جاء الرسول الجديد الذي أمروا ان يؤمنوا به . بل ان ايمانهم بموسى والتوراة . لو كانوا مؤمنين بها حقا . . يستوجب هذا الايمان عليهم أن

يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم . لأن التوراة تأمرهم بذلك . فكان عدم إيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم كفر بالتوراة ونقض لتعاليمها .

والصلاة كما قلنا .. استحضار العبد وقفته بين يدي ربه . وحينما يقف العبد بين يدي الله .. لا بد أن يزول كل ما في نفسه من كبرياء . ويدخل بدلا منه الخشوع والخضوع والذلة لله . والمتكبر غافل عن رؤية ربه الذي يقف أمامه . إنما عدم إيمانهم بهذا النسي . والوقوف بين يدي الله للصلاة كما يجب أن تؤدي ، وكما فرضها الله تعالى من فوق سبع سموات . إنما هو رفض للخضوع لأوامر الله .

وبعد ذلك تأتي الزكاة . لأن العبد المؤمن . لا بد أن يوجه حركة حياته الى عمل نافع يتسع له ولمن لا يقدر على الحركة في الحياة . والله سبحانه وتعالى حينما يطالبنا بالسعي في الأرض لا يطالبنا أن يكون ذلك على قدر احتياجاتنا فقط ، بل يطالبنا أن يكون تحرركنا أكثر من حاجة حياتنا . حتى يتسع هذا التحرك ليشمل حياة غير القادر على حركة الحياة . فيتسع المجتمع للجميع . ويزول منه الحقد والحسد ، وتصفى النفوس ..



﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْإِثْمِ وَنَسْنَسُونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ لَكِنَّا قَدْ آمَنَّا بِاللَّهِ قُلْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ١١

بعد أن لفت الله انتظار اليهود . الى ان عدم ايمانهم بالاسلام هو كفر بالتوراة .. لان تعاليم التوراة تأمرهم أن يؤمنوا بالرسول الجديد . وقد أعطوا أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وزمته في التوراة . وأمرنا أن يؤمنوا به . قال تبارك وتعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْإِثْمِ وَنَسْنَسُونَ أَنْفُسَكُمْ » لقد كان اليهود يشرون بحجة رسول جديد . ويعلمون أنهم سيؤمنون به . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن من قومهم كفروا به . لأنهم كانوا يريدون أن تكون السطوة لهم . بأن يأتي الرسول الجديد منهم . فلما جاء من العرب .. عرفوا أن سطوتهم ستزول . وأن سيادتهم الاقتصادية تنتهي . فكفروا بالرسول ورسالته .

ولا بد أن تنبه الى أنه اذا كانت هذه الآيات قد نزلت في اليهود . فليس معناها أنها تنطبق عليهم وحدهم . بل هي تنطبق على أهل الكتاب جميعا . وغير المؤمنين . فالعبرة ليست بخصوص الموضوع . ولكن العبرة بعموم السبب .

ان الكلام منطبق هنا حتى على المسلمين الذين يشترن بآيات الله ثمنا قليلا وهؤلاء هم خطباء الفتنة الذين رأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . تقرض شفاهم بمقارض من نار . فسأل : من هؤلاء يا جبريل : فقال خطباء الفتنة . أنهم الذين يزينون لكل ظالم ظلمه . ويعملون دين الله في خدمة أهواء البشر . وكان الأصل أن تخضع أهواء البشر لدين الله . وهؤلاء هم الذين يحاولون - تحت شعار التجديد - أن يجعلوا للناس حجة في أن يتحللوا من منبج الله . فهم يريدون ما يقع . ولا يتدبرون حساب الآخرة .

إن علماء الدين الذين يحملون منهج الله ليس من عملهم تبرير ما يقع من غيرهم . ومنهج الله لا يمكن أن يخضع أبدا لأهواء البشر . وعمل الذين يفعلون ذلك أن يتوبوا ويرجعوا الى الله . ويعاولوا استدراك ما وقع منهم . لأن الرجوع الى الحق خير من التهاذي في الباطل .

وقول الحق سبحانه وتعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » يعطينا منهجا آخر . من مناهج الدعوة . لأن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعمل منهج الله .. يريد أن يخرج من لا يؤمن من حركة الباطل التي ألفها . وإخراج غير المؤمن من حركة الباطل أمر شاق على نفسه . لأنه خروج عن الذي اعتاده . وبعد عما ألفه . واعتراف أنه كان على باطل لذلك فهو يكون مفتوح العينين على من بين له طريق الايمان ليرى هل يطبق ذلك على نفسه أم لا ؟ أيطبق النامى عن المنكر ما يقوله ؟ فإذا طبقه عرف أنه صادق في الدعوة . وإذا لم يطبقه كان ذلك عنرا ليعود الى الباطل الذي كان يسيطر على حركة حياته .

إن الدين كلمة تقال . وسلوك يفعل . فإذا انفصلت الكلمة عن السلوك ضاعت الدعوة . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبِيرٌ مَقَامٌ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾

(سورة الصف)

لماذا .. ؟ لأن من بركت فعل ما تنهيه عنه يعرف أنك غادع وغشاش . وما لم ترضه أنت كسلوك لنفسك . لا يمكن أن تبشر به غيرك . لذلك تقرأ في القرآن الكريم :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝ ﴾

(سورة الاحزاب)

فمنهج الدين وحده لا يكفي .. الا بالتطبيق . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأمر أصحابه بأمر الا كان أسبقهم اليه ، فكان المسلمون يأخذون عنه القدوة قولاً وعملاً ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه . حين يريد أن يقتن أمراً في الاسلام يأتي بأهله وأقاربه ويقول لهم : لقد بدا لى أن أمر بكذا وكذا ، والذي نفسى بيده من خالف منكم لأجعله نكالا للمسلمين . وكان عمر بن الخطاب بهذا يقلل أبواب الفتنة ، لانه يعلم من أين تأتى ..

وفى الدعوة الاسلامية .. لا بد أن يكون العلماء قدوة لينتفع بهم الناس . ففى كل علوم الدنيا القدوة ليست مطلوبة . الا فى الدين . فانت اذا ذكر لك عالم كيمياء بارع . وقيل لك أنه يتناول الخمر . أو يفعل كذا . تقول ما لى وسلوكه . أنا أخذ عنه علم الكيمياء لانه بارع فى ذلك . ولكن لا شأن لى وسلوكه . وكذلك كل علماء الأرض . ماعدا عالم الدين . فاذا كان هناك عالم يبصرك بالطريق المستقيم . وتتلقى عنه علوم دينك ثم بعد ذلك تعرف أنه يشرب الخمر أو يسرق . أنتسمع له ؟ أبدا . انه يبط من نظرك فى الحال . ولا تحب أن تسمعه . ولا تجلس فى مجلسه . مهما كان علمه . فستقول له كفك ، دجلا ..

وهكذا فان عالم الدين لا بد أن يكون قدوة . فلا ينهى عن منكر ويفعله . أو يأمر بمعروف وهو لا يفعله . فالتاس كلهم مفتحة اعينهم لما يصنع . والاسلام قبل أن ينتشر بالمنهج العلمى .. انتشر بالمنهج السلوكى . وأكبر عدد من المسلمين اعتنق هذا الدين من أسوة سلوكية قادته اليه . فالذين نشروا الاسلام فى الصين .. كان أغلبهم من التجار الذين تخلقوا بأخلاق الاسلام . فنجذبوا حولهم الكثيرين . فاعتنقوا الاسلام . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى آفَةٍ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢٥)

(سورة فصلت)

فالشرط الأول هو الدعوة الى الله . والشرط الثانى العمل الصالح . وقوله : اننى من المسلمين ، لم ينسب الفضل لنفسه أو لذاته . ولكنه نسب الفضل الى الاسلام . ولكن قولوا لى : أى فائدة أن نقول أننا مسلمون ونعمل بعمل غير المسلمين ؟

اذن فقولہ تعالیٰ : « اتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسکم » يذكر اللہ بأن اليهود يقولون ما لا يفعلون . ولو كانوا يؤمنون حقاً بالتوراة لآمنوا برسول اللہ صل اللہ علیہ وسلم وبالإسلام . لأن ذلك أمر فی التوراة . ولكنهم نسوا أنفسهم . فهم أول مخالف للتوراة . لأنهم لم يتبعوها . . وهم يتلون کتابهم اللّٰذی يأمرهم بالإیمان الجدید .

ومع أنهم متأكدون من صدق رسالة رسول اللہ صل اللہ علیہ وسلم . إلا أنهم لا يؤمنون . ولو كان عندهم ذرة من العقل لآمنوا بما يعطيه منهم کتابهم اللّٰذی يتلونه . ولكنهم لا يفكرون بعقولهم ، وإنما يريدون علواً فی الأرض . والآية - كما قلنا - لا تنطبق علی اليهود وحدهم . بل علی کل من يسلك هذا السلوك . .



﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى أن الإيمان قدوة . وبعد أن لفطنا الى أن التوبة تطالب اليهود . بأن يؤمنوا بحمد عليه الصلاة والسلام . يطلب الله سبحانه وتعالى الاستعانة بالصبر والصلاة . ومعنى الاستعانة بالصبر أن هناك أحوالاً شاقة ستقع . وأن المسألة لن تكون سهلة . بل تحتاج الى جهد . فالصبر معناه حل النفس على أمر صعب . وهم ماداموا قد تعودوا على شراء آيات الله بشئ قليل .. لأنهم قلبوا الصفة . فجعلوا آيات الله ثمناً لفتح الدنيا . واشتروا بها متعهم وملذاتهم . وبعد أن تعودوا على الربا وغيره من وسائل الكسب الحرام . لابد أن يستعينوا بالصبر اذا أرادوا العودة الى طريق الإيمان .

وكما قلنا فإن المسألة ليست بخصوصية الموضوع ولكن بعموم السبب . فانها موجهة للجميع . فكل مؤمن يدخل مناجاة الإيمان يحتاج الى الاستعانة بالصبر ليحمل نفسه على مشقة المنهج وتكاليفه . وليمنع نفسه عن الشهوات التي حرمها الله سبحانه وتعالى .

والصبر في الآية الكريمة فسر بعض العلماء بأنه الصيام ، فكان الله تعالى يأمرهم أن يجوهوا ويصبروا على ألم الجوع . ومشقة الإيمان والصلاة كما قلنا خشوع وخضوع وذلة لله .. تنهى استكبارهم بأن يؤمنوا بدين لم يتزل على أحد من احبار اليهود . والحق سبحانه وتعالى يقول : « وإنا لكبيرة الا على الخاشعين »

ويطلب الحق في قوله : « واستعينوا بالصبر والصلاة » الاستعانة بشيئين هما الصبر

والصلاة . وكان سياق الآية يقتضى أن يقال : « وانها » لكن القرآن قال : « وانها كبيرة » فهل المقصود واحدة منهما . الصلاة فقط . أم الصبر ؟

نقول انه عندما يأتى أمران منضيان الى بعضهما لا نستقيم الامور الا بهما معا .. يكونان علاجاً واحداً .. وقرأ قوله تعالى :

﴿ يَخْلُقُونَ رِأْيَهُ لَكُمَّ لِيَرْضَوْكُمْ وَكَلَّمَ رَسُولَهُ أَهَقُ أَنْ يَرْضَوْهُ إِنَّ كُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣٧﴾

(سورة النور)

فقال يرضوه ولم يقل يرضوها . التفسير السابق نفسه نفهمه : ليس لله حق ورسوله حق . ولكن الله ورسوله يلتقيان على حق واحد . وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۝٤٠﴾

(من الآية ١١ سورة الجمعة)

وكان المقروض أن يقال اليهما . ولكن التجارة واللهو هما عمل واحد . هو شغل المؤمنين عن العبادة والذكر : « واستعينوا بالصبر والصلاة » لأن العلاج في الصبر مع الصلاة . والصبر كبير أن تتحمله النفس . وكذلك الصلاة . لأنها يأخذان من حركة حياة الانسان . والصبر هنا مطلوب ليصبروا على ما يمتنعون عنه من نعيم الدنيا وزخرفها . والصلاة تحارب الاستكبار في النفس . فكان الوصفة الائمانية لا تنجزاً . فلا يتم الصبر بلا صلاة ، ولا تنفع الصلاة الا بالصبر .

وقوله تعالى : (إلا على الخاشعين) .. ما معنى الخشوع ؟ الخشوع هو الخضوع لمن ترى أنه فوقك بلا منازع . فالتناس يتفاوتون في القيم والمواهب . وكل واحد يحاول أن يفاخر بعلومه ومواهبه . ويقول : أنا خير من فلان . أو أنت خير من فلان . إذن فمن الممكن أن يستكبر الانسان بما عنده . ولكن الانسان يخضع لمن كانت له حاجة عنده . لأنه لو تكبر عليه أتعبه في دنياه . ولذلك أعطى الله سبحانه وتعالى للناس المواهب على الشيع . والخشوع على الشيع . فكل انسان منا محتاج للآخر . هذا خشوع على الشيع . وكل انسان منا يميز بما لا يقدر عليه غيره . هذه مواهب

عل الشروع . هذا في البشر ، أما بالنسبة لله سبحانه فإنه خشوع لمن خلق وروعب وأوجد .

والخشوع يجعل الانسان يستحضر عظمة الحق سبحانه ويعرف ضالة قيمته أمام الحق سبحانه وتعالى ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون . ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به الله تعالى في لحظة . . . ذلك أننا نعيش في عالم الأغيار . ولذلك فلنخضع للذي لا يتغير . لأن كل ما يحصل عليه الانسان هو من الله وليس من ذاته . والذين يفترون بوجود الأسباب يقول لهم : اعبدوا واخشعوا لواهب الأسباب وخالفها . لأن الأسباب لا تعمل بذاتها . والله سبحانه وتعالى يجعل الأيام دولا . . . أى متداولة بين الناس . انسان يفاخر بقوته . يأتى من هو أقوى منه فيهزمه . انسان يفاخر بماله . يضع هذا المال في لحظة . . . وقرأ قوله تعالى :

﴿إِنْ يَسْكُرْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ

اللَّهُ الَّذِينَ هُمْزُوا وَيَخْلُذُوا مِنْكُمْ شُرَكَاءُ ۚ وَآلَهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١١٠﴾

(سورة آل عمران)

ولذلك لا بد أن نفهم . أن الانسان الذى يستعمل بالاسباب سيأتى وقت لا تعطيه الاسباب . فالانسان اذا بلغ في عينه وأعين الناس مرتبة الكمال . اغتر بنفسه . نقول له : لا تغتر بكمالات نفسك . فإن كانت موجودة الآن . فستغير غدا . . . فالحشوع لا يكون الا لله . والحق سبحانه وتعالى يقول : « وانها لكبيرة إلا على الخاشعين » من هم الخاشعون ؟ الخاشع هو الطائع لله . الممتنع عن المحرمات . الصابر على الأقدار . الذى يعلم يقينا داخل نفسه أن الأمر لله وحده . وليس لى قوة أخرى . . . فيخشع لمن خلقه وخلق هذا الكون له .



﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٦)

بعد ان أوضح لنا الحق سبحانه وتعالى ان الصبر والصلاة كبيرة إلا على كل من خشع قلبه لله . فهو يقبل عليها بحب وإيمان ورغبة . أراد ان يعرفنا من هم الحاشعون . فقال جل جلاله : (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) .

ما هو الظن ؟ سبق ان تحدثنا عن النسب . وقلنا هناك نسبة أنا جازم بها والواقع يصدقها . عندما أقول مثلاً : محمد مجتهد . فإذا كان هناك شخص اسمه محمد ومجتهد . أكون قد جزمت بواقع . فهذه نسبة مجزوم بها بشرط ان أستطيع أن أدلل على صدق ما أقول . فإذا كنت جازماً بالنسبة على صدق ما أقول .. فهذا تقليد . مثلاً يقول ابنك البالغ من العمر ست سنوات مثلاً : لا إله إلا الله محمد رسول الله . ولكن عقله الصغير لا يستطيع ان يدلل على ذلك . وإنما هو يقلد أباه أو مدرسه . .

فإذا كنت جازماً بالشيء وهو ليس له وجود في الواقع . فهذا هو الجهل . والجاهل شر من الأمل . لأن الجاهل مؤمن بقضية لا واقع لها . ويدافع عنها . أما الأمل .. فهو لا يعلم . ومتى علم فانه يؤمن . ولذلك لا بد بالنسبة للجاهل ان تخرج الباطل من قلبه أولاً . ليدخل الحق . وإذا كانت القضية غير مجزوم بها ومتساوية في النفي والوجود فإن ذلك يكون شكاً . فإن رجحت إحدى الكفتين على الأخرى يكون ذلك ظناً . والحق سبحانه وتعالى يقول : « الذين يظنون » ولم يقل : الذين تيقنوا انهم ملاقوا ربهم . . لماذا لم يستخدم الحق تعالى لفظ اليقين وأبدله بالظن ؟ لأن مجرد الظن انك ملاق الله سبحانه وتعالى .. كاف ان يجعلك تلتزم بالمنهج . فما بالك اذا كنت متيقناً . فمجرد الظن يكفي .

وإذا أردنا ان نضرب لذلك مثلاً - والله المثل الأعلى - نقول : هب انك سائر في طريق . وجاء شخص يخبرك ان هذا الطريق فيه لصوص وقطاع طرق . فمجرد

هذا الكلام يجعلك لا تمشي في هذا الطريق إلا إذا كنت مسلحاً ومعك شخص أو اثنان . فأنت تفعل ذلك للاحتياط . إذن فمجرد الظن دفعنا للاحتياط . . إذن فقولته تعالى : « يظنون أنهم ملقوا ربهم » فمجرد ان القضية راجعة . هذا يكفي لاتباع منهج الله . فتقن نفسك من عذاب عظيم .

ويقول المعري في آخر حياته :
 زعم النجم والطبيب كلاهما
 ان صح قولكما فلتت بخاسر
 لا تحشر الأجساد قلت اليكما
 او صح قولي فالحسار عليكما
 فكل مكلب بالآخرة خاسر . والنفس
 تعترف ان هناك حسرا وتعمل لللك .
 البشرية لا بد ان تحتاط للقاء الله . وان

والحق سبحانه وتعالى يقول : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » والرجوع الى الله سبحانه وتعالى أمر يقيني . فبلاست قد جئت الى الدنيا مخلوقا من الله فأت - لا محالة - سترجع اليه . وهذا اليوم يجب أن نحتاط له . لحظة كبرى . وإن نرتبه . لانه يوم عظيم .. والحق سبحانه يقول :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ۖ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّ تَدْهُلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَهُمْ لَا يُسْكَرُونَ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

(سورة الحج)

ويقول جل جلاله :

﴿لَكَيْفَ تَسْقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (١٧)

(سورة المزمل)

إذا كان هذا حالنا يوم القيامة ، فكيف لا يكفى مجرد الظن لأن نتمسك بمنهج الله . ونحن نحتاج لأحداث دنيوية لا تساوى شيئا بالنسبة لأحوال يوم القيامة . إن الظن هنا بأننا سنلاقي الله تعالى يكفى لأن نعمل له ألف حساب .

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ
عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ٤٧ ﴿

يَدْعِي بعض الناس ان هناك تكرارا . للآيات السبع التي سبق فيها تذكير
بني اسرائيل . نقول : لا لم تتكرر هذه الآيات .. وهي قوله تعالى :

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ
وَإِنِّي فَازِهِبٌ ۝ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِينَ
۝ وَلَا تَتَّبِعُوا بِقَائِي تَحْتًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتِقُونَ ۝ وَلَا تَتَّبِعُوا الْحَقَّ بِالنَّبِيلِ
وَتَكُونُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ الرَّاكِبِينَ
۝ أَنَا مُرُونَ النَّاسَ إِلَيَّ وَتَسْجُدُوا لَكُمْ وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ أَكْفَرًا تَعْلَمُونَ ۝ وَأَسْمِعُونَا
بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّا لَكَبِيرَةٌ ۝ لَا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝ الَّذِينَ يَطْلُونَ أَنْتُمْ مَلْفُوقُوا رَيْبِهِمْ
وَأَنْتُمْ إِلَيَّ رَاجِعُونَ ۝﴾

(سورة البقرة)

هذه الآيات السبع كلها تذكر بني اسرائيل . برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والذي جاء وصف صفاته وزمته في التوراة ولتذكيرهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم . هو نعمة اليهم والى الناس جميعا . واذا كان الله قد فضل بني اسرائيل بان ارسل اليهم رسلا . فليس معنى ذلك ان ينكروا نعمة الله عليهم بالرسول

الخاتم . وبما ان اوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرت في التوراة وطلب منهم ان يؤمنوا به وينصروه فان عدم ايمانهم به هو كفر بالتوراة . كما ان الانجيل بشر بمحمد صلى الله عليه وسلم وطلب منهم ان يؤمنوا به . فعدم ايمانهم به كفر بالانجيل .

وقوله تعالى : « اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » أي اذكروا انني جعلت في كتابكم ما يثبت صدق محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته . والمعنى اذكروا نعمتي باني فضلنكم على العالمين من عاصروكم وقت نزول رسالة موسى . وجعلت منكم الانبياء .

ومادام الحق سبحانه وتعالى .. قد فضلهم على العالمين .. فكيف بمن عليهم ؟ نقول لمن هنا لشدة النكاية بهم . فالحق سبحانه وتعالى . لشدة معصيتهم وكفرهم جعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْتُمْ هُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ٥٦ ﴾

(سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ٥٧ ﴾

(سورة المائدة)

فالحق سبحانه وتعالى يبين لنا كيف كفر بنوا اسرائيل بأنبيائهم وقتلوهم . رغم ان الله تعالى أعطاهم خيرا كثيرا .. لكنهم نكثوا العهد .. فاستحقوا العذاب . فهم لم

يحملوا نعمة الله عليهم سببا في اخلاصهم والايمان به سبحانه وتصديق منهجه .
وتصديق الرسول الخاتم الذي ذكر عندهم في التوراة . كان يجب ان يؤمنوا بالله وان
يذكروا نعمه الكثيرة التي تفصل بها عليهم .

والحق يريد ان يلفتنا الى انه مادام قد أنعم عليهم .. فلا يظنون انهم غير مطالبين
بالايمان بمحمد عليه الصلاة والسلام . انما كان لابد ان يفهموا ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم جاء ليصحح لهم كتابهم . ويوضح لهم الطريق الصحيح . فكان
يجب عليهم ان ينصروه . والنعمة لا يمكن ان تستمر مع الكفر بها . وحتى لا نظن
ان الله سبحانه وتعالى قد قسا عليهم بأن جعلهم اعمى متفرقة في الأرض كلها . ثم بعد
ذلك يجمعون في وطن واحد ليقتلوا .. وقرأ قوله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الاسراء)

أي أرض تلك التي طلب الله سبحانه وتعالى من بني اسرائيل ان يسكنوها ؟
مادام الحق سبحانه وتعالى قال : « اسكنوا الأرض » فهي الأرض كل الأرض .
وهل تكون الأرض كلها وطنا لليهود . طبعاً لا . ولكن الحق سبحانه كتب عليهم ان
يتفرقوا في الأرض . فلا تكون لهم دولة الا عندما يشاء الله ان يجمعهم في مكان
واحد . ثم يسلط عليهم عباداه المؤمنين . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَفَضَّلْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا
كَبِيرًا ۝ فَمَآذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَٰئِهَآ بِمَتَىٰ عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَٰئِ بَآئِسٌ شَدِيدٌ بَقَاؤُهُ
بِظُلَمِ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّقْصُورًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ
بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ ﴾

(سورة الاسراء)

هذه هي المرة الاولى التي انتصر فيها المسلمون عل اليهود . يقول الحق سبحانه

وتعالى . ثم ردنا لكم الكرة عليهم ، ومادام الحق سبحانه وتعالى قال عليهم فهي على المسلمين . لأنهم هم الذين انتصروا على اليهود . وقوله تعالى : « وأسندناكم بأموال وبنين ، معناها أنهم ينتصرون على المسلمين وهذا ما هو حادث الآن ، وما شاهدناه وما نشاهده في الفترة الأخيرة . أي أن المدد والقوة تأتيهم من الخارج وليس من ذاتهم .

ونحن نرى ان اسرائيل قائمة على جلب المهاجرين اليهود من الدول الأخرى . وجلب الأموال والمساعدات من الدول الأخرى ايضاً أي أن كل هذا يأتيهم بمدد من الخارج . واسرائيل لا تستطيع ان تعيش الا بالمهاجرين اليها . وبالمعونات التي تأتيها . فالمدد لا يد أن يأتي من الخارج . اذا كانت هناك معركة وطلب قائد المدد .. فمعناه أنه يريد رجالاً يأتيونه من خارج أرض المعركة ليصبحوا مدداً وقوة لهذا الجيش . وقوله تعالى : « وجعلناكم أكثر نفيراً » النفير هو الصوت العالي الذي يجلب الانتباه . ونحن نرى الآن ان اسرائيل تسيطر على وسائل الاعلام والدعاية في العالم . وان صوتها عال وسموع .. ويقول الحق سبحانه وتعالى : « فاذا جاء وعد الأخرى ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة » .. ومعنى هذا أن المسجد الأقصى سيضيق من المسلمين ويصبح تحت حكم اليهود فيأت المسلمون ويحاربونهم ويدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ويقول الله تعالى : « فاذا جاء وعد الأخرى جئنا بكم لفيقا » واللفيف هو الجمع غير المتجانس . الذي يتنافر مع نفسه ومع من حوله . وبما ان الله سبحانه وتعالى قد قضى ان يحدث قتال بين اليهود وبين المسلمين .. يستعيد فيه المسلمون المسجد الأقصى . فكان لا بد ان يجمعهم في مكان واحد . لأنهم لو بقوا كجاليات متفرقة في كل دول العالم ومعزولة عن المجتمعات التي يعيشون فيها لاقتضى ذلك ان يحارب المسلمون العالم كله . ولكن الله سبحانه وتعالى سيأتي بهم من كل دولة الى المكان الذي فيه بيت المقدس حتى يمكن ان يحاربهم المسلمون ، وان يدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة .

فالحق سبحانه وتعالى يذكر بني اسرائيل بنعمه عليهم . ويمعاصيهم وكفرهم حتى لا يقول أحد ان الله سبحانه كان قاسياً عليهم لأنهم هم الذين كفروا . وهم الذين عصوا وأفسدوا في الأرض . فاستحقوا هذا العقاب من الله سبحانه وتعالى .

﴿وَأَنْتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١٨)

قوله تعالى : « وانتقوا يوما » يذكرهم بهذا اليوم . وهو يوم القيامة الذي لا ينفع الانسان فيه إلا عمله . ويطلب الحق سبحانه وتعالى منهم ان يجعلوا بينهم وبين صفات الجلال لله تعالى في ذلك اليوم وقاية .

ان هناك آية أخرى تقول :

﴿وَأَنْتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١٩)

(سورة البقرة)

وهذه الآية وردت مرتين . وصدر الأيتين متفق . ولكن الآية الأولى تقول : « ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » والآية الثانية : « ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون » هل هذا تكرار ؟ نقول لا . والمسألة تحتاج الى فهم . فالأيتان متفقتان في مطلعتهما : في قوله تعالى : « وانتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا » .

وفي الآية الأولى قدم الشفاعة وقال : لا يقبل . والثانية أخر الشفاعة وقال لا تنفع . الشفاعة في الآية الأولى مقدمة . والعدل متأخر ، وفي الآية الثانية العدل مقدم والشفاعة مؤخر . وفي الآية الأولى لا يقبل منها شفاعة . وفي الآية الثانية .. لا تنفعها شفاعة . والمقصود بقوله تعالى : « انتقوا يوما » هو يوم القيامة الذي قال عنه سبحانه وتعالى :

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (١٥)

(سورة الانعام)

وقوله تعالى :

« لا تجزى نفس عن نفس شيئا » كم نفسا هنا ؟ انهما اثنان . نفس عن نفس .
هناك نفس أولى ونفس ثانية . فما هي النفس الأولى ؟ النفس الأولى هي الجزاية .
والنفس الثانية .. هي المجزى عنها .. ومادام هناك نفسان فقولوه تعالى : « لا تقبل
منها شفاعا » هل من النفس الأولى أو الثانية ؟

إذا نظرت الى المعنى فاللعنى انه سيأتى انسان صالح في يوم القيامة ويقول يارب أنا
سالمجزى عن فلان أو أغنى عن فلان أو أقضى حق فلان . النفس الأولى أى النفس
الجزاية تحاول ان تتحمل عن النفس المجزى عنها .

ولكى تقرب المعنى والله المثل الأعلى نفترض ان حاكما غضب على أحد من الناس
وقرر ان يتقم منه أبشع انتقام . يأتى صديق لهذا الحاكم ويحاول ان يجزى عن
المغضوب عليه . فيها لهذا الرجل من منزله عند الحاكم يحاول ان يشفع للطرف
الثالث . وفي هذه الحالة اما ان يقبل شفاعته أو لا يقبلها . فإذا لم يقبل شفاعته فانه
سيقول للحاكم أنا سأسدد ما عليه .. أى سيدفع عنه قديما ، ولا يتم ذلك إلا اذا
فسدت الشفاعا .

فإذا كانت المسألة وفي يوم القيامة ومع الله سبحانه وتعالى .. يأتى انسان صالح
ليشفع عند الله تبارك وتعالى لإنسان أسرف على نفسه . فلا بد أن يكون هذا الإنسان
المشفع من الصالحين حتى تقبل شفاعته عند الحق جل جلاله . وقرأ قوله سبحانه :

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَنْصَرُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادْنَاهُمْ وَمِنْ حَتَّىٰءَ مُشَقُّونَ ۝١٧﴾

(سورة الانبياء)

والانسان الصالح يحاول ان يشفع لمن أسرف على نفسه فلا تقبل شفاعته ولا يؤخذ منه عدل ولا يسمح لها بأى مساومة أخرى . اذن لا يتكلم عن العدل في الجزاء إلا اذا فشت الشفاعة .

هنا الضمير يعود الى النفس الجازية . أى التى تتقدم للشفاعة عند الله . فيقول الحق سبحانه وتعالى : « لا يقبل منها شفاعة » فلا يقبل منها أى مساومة أخرى . ويقول سبحانه : « ولا يؤخذ منها عدل » . وهذا ترتيب طبيعى للاحداث .

فى الآية الثانية يتحدث الله تبارك وتعالى عن النفس المجزى عنها قبل ان تستشفع بغيرها وتطلب منه ان يشفع لها . لا بد ان تكون قد ضاقت حيلها وعزت عليها . الأسباب . فيضطر ان يذهب لغيره . وفى هذا اعتراف بهجرته . فيقول يارب ماذا أفعل حتى أكفر عن ذنوبى فلا يقبل منه . فيذهب الى من تقبل منهم الشفاعة فلا تقبل شفاعتهم .

واذا أردنا ان نضرب لذلك مثلا من القرآن الكريم فافرقا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ رَأَىٰ إِذْ أَنصَرُونَا كُؤَارُهُمْ فِيكُمْ عَنِذَرْتُمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ

صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٧﴾

(سورة السجدة)

هؤلاء هم الذين يطلبون العدل من الله . بأن يعيدهم الى الدنيا ليكفروا عن سيئاتهم . ويعملوا عملا صالحا ينجيهم من العذاب . ذلك ان الحسنات يذهبن السيئات . .

فإذا كان رد الحق سبحانه وتعالى عليهم . قال جل جلاله :

﴿ قَدْ قُورُوا بِمَا سِمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَآءَا إِنَّا سِمْكُمْ وَذُقُوا عَذَابَ أَنُحْلِدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١١١ ﴾

(سورة السجدة)

فهم عرضوا ان يكفروا عن سيئاتهم . بأن طلبوا العودة الى الدنيا ليعملوا صالحا . فلم يقبل الله سبحانه وتعالى منهم هذا العرض . اقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَنَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدِّ فَعْمَلٍ غَيْرِ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ١١٢ ﴾

(سورة الاحراف)

لقد طلب هؤلاء الشفاعة أولا ولم تقبل . فدخلوا في حد آخر وهو العدل فلم يؤخذ بمصداق قوله تعالى : « لا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » . وهكذا نرى الاختلاف في الآيتين . فليس هناك تكرار في القرآن الكريم .

ولكن الآية التي نحن بصدها تتعلق بالنفس الجازية . أو التي تريد أن تشفع لمن أسرف على نفسه : « فلا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » . والآية الثانية : « لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة » . أي ان الضمير هنا عائد على النفس المجزى عنها . فهي تقدم العدل أولا : « ارجعنا نعمل صالحا » فلا يقبل منها ، فتبحث عن شفعاء فلا تجد ولا تنفعها شفاعة .

وهذه الآيات التي أوردناها من القرآن الكريم كلها تتعلق بيوم القيامة . على ان هناك مثلا آخر في قوله تعالى :

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ هَلَقَ عَنْكُمْ أَنْفُسُهُمْ سَاحِقًا إِنَّكُمْ كَذِبُونَ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

والآية الثانية في قوله سبحانه :

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَتَّىٰ هَلَكُوا عَنْكُمْ سَاحِقًا إِنَّكُمْ كَذِبُونَ﴾

(سورة الاسراء)

يقول بعض الناس ان « نرزقكم » في الآية الأولى « ونرزقهم » في الآية الثانية من جمال الأسلوب . نقول لا . قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من اطلاق » أى من فقر موجود . ومادام الفقر موجودا فالإنسان لا يريد أولادا ليزداد فقره . ولذلك قال له الحق سبحانه وتعالى : « نحن نرزقكم واباهم » . أى ان مجيء الأولاد لن يزيدكم فقرا . لان لكم رزقكم ولهم رزقهم . وليس معنى ان لهم رزقهم ان ذلك سيقص من رزقكم . فلاب رزق وللولد رزق . أما في الآية الثانية : « ولا تقتلوا أولادكم خشية اطلاق » فكان الفقر غير موجود . ولكنه يخشى ان رزق بأولاد ياتيه الفقر . يقول له الحق : « نحن نرزقهم واباهم » . أى ان رزقهم سيأتيهم قبل رزقكم .

فعندما تقرأ قول الله سبحانه وتعالى : « اتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا » مكررة في الآيتين لا تظن ان هذا تكرار . لان احدهما ختامها : « لا يقبل منها شفاعة » ولا يؤخذ منها عدل . والثانية : « لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة » . فالضمير مختلف في الحالتين . مرة يرجع الى النفس الجازية فقدم الشفاعة وأخر العدل . ولكن في النفس المجزى عنها يتقدم العدل وبعد ذلك الشفاعة . الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿يُنَائِيهَا النَّاسُ أَتَقْوَاهُ رِبْكَرًا وَخَشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ

وَالِدِهِ شَيْعًا﴾

(من الآية ٢٣ سورة لقمان)

أى ان الانسان لا يمكن ان يميز عن انسان مهما بلغت قرابته . . لا يميز الولد عن أمه أو أبيه . أو يميز الوالد عن أولاده . وأقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ^(٦٩) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ^(٧٠) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ^(٧١) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ^(٧٢) ﴾

(سورة صبر)

وقول الحق سبحانه وتعالى : « لا يقبل منها عدل » : « لا يؤخذ منها عدل » . العدل هو المقابل . كأن يقول المسرف على نفسه يارب فعلت كذا وأسرفت على نفسي فأعدنى الى الدنيا أعمل صالحا . وكلمة العدل مرة ثأى بكسر العين وهى مقابل الشيء من جنسه . أى ان يعدل القهاس قهاس مثله ويعدل الذهب ذهب مثله . وعدل يفتح العين مقابل الشيء ولكن من غير جنسه . والعدل معناه الحق والعدل لا يكون إلا بين خصمين . ومعناه الانصاف ومعناه الحق . والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير . وانك لا تتحيز لجهة على حساب جهة أخرى . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان يجلس مع أصحابه يوزع نظره الى كل الجالسين .. حتى لا يقال انه مهتم بواحد منهم عن الآخر .

ولابد ان نعرف ما هى النفس . كلمة النفس اذا وردت فى القرآن الكريم . فافهم ان لها علاقة بالروح . حينما تتصل الروح بالمادة وتعطيها الحياة توجد النفس . المادة وحدها قبل ان تتصل بها الروح تكون مقهورة ومنقادة مسبحة لله . فلا تقل الحياة الروحية والحياة المادية . لان الروح مسبحة والمادة مسبحة . ولكن عندما تلتقى الروح بالمادة وتبدأ الحياة وتحرك الشهوات يبدأ الخلل . والموت يترتب عليه خروج الروح من الجسد . الروح تذهب الى عالمها التسخيري . والمادة تذهب الى عالمها التسخيري . وذلك يجعلنا نفهم قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ نَسُفُ عَالَمَهُمُ الْاَسْنَمَ وَأَيُّدِيهِمْ وَأَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(١١) ﴾

(سورة الشورى)

لماذا تشهد ؟ لأنها لم تعد مسخرة للإنسان تتبع أوامره في الطاعة والمعصية .
فحواشك مسخرة لك بأمر الله في الحياة الدنيا وهي مسخرة لعبادة . فإذا أطاعتك في
معصية فإنها تلعنك لأنك أجبرتها على المعصية فتأتى يوم القيامة وتشهد عليك . والله
سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ ۝٥٠ ﴾

(سورة الشمس)

ولقد شاع عند الناس لفظ الحياة المادية والحياة الروحية . لأن الحياة الروحية
تختلف عن الروح التي في جسدك . وهي تطبق على الملائكة مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ تَزَلُّ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝٥١ ﴾

(سورة الشعراء)

وقوله جل جلاله :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ۝٥٢ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

هذه هي الروح التي فيها النقاء والصفاء . وقوله تعالى : « ولا هم ينصرون » .
أى أن الله سبحانه وتعالى إذا أقضى عليهم العذاب لا يستطيع أحد نصرهم أو وقف
عذابهم . لا يمكن أن يحدث هذا . لأن الأمر كله لله .



﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ
سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْبُونَ نِسَاءَكُمْ
وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ٤٩

بعد أن حذر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل من يوم لا تنفع فيه الشفاعة . أراد أن يذكرهم بفضلِهِ عليهم وينعمه . قوله تعالى : « إِذْ » هي ظرف لشيء . وسبق أن قلنا أن الظروف نوعان . لأن كل حدث من الأحداث يحتاج إلى زمان يقع فيه وإلى مكان يقع فيه . وعندما أقول لك إجلس مكانك . هذا الظرف يراد به المكان . وعندما يخاطب الله عز وجل عباده : أذكر اذ فعلت كذا . أي اذكر وقت أن فعلت كذا ظرف زمان . وقول الحق تبارك وتعالى : « وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ » أي اذكروا الوقت الذي نجاكم فيه من فرعون .

والآية التي نحن بصددھا وردت ثلاث مرات في القرآن الكريم . قوله تعالى

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْبُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ٥٠

(سورة البقرة)

﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْبُونَ نِسَاءَكُمْ﴾

(من الآية ٦١ سورة الاحزاب)

وقوله جل جلاله في سورة إبراهيم :

﴿إِذْ أَخْبَرْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ﴾

(من الآية ٦٠ سورة إبراهيم)

الاختلاف بين الأولى والثانية هو قوله تعالى في الآية الأولى : « يذبحون أبناءكم » . وفي الثانية : (يقتلون أبناءكم) . « ونجينا » في الآية الأولى : « وأنجينا » في الآية الثانية . ما الفرق بين نجينا وأنجينا ؟ هذا هو الخلاف الذي يستحق أن نتوقف عنده . . في سورة البقرة : « وإذ نجيناكم من آل فرعون » . . الكلام هنا من الله . أما في سورة إبراهيم فنجد « أذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم » . الكلام هنا كلام موسى عليه السلام . ما الفرق بين كلام الله سبحانه وتعالى وكلام موسى ؟ . .

إن كلام موسى يحكى عن كلام الله . إن الله سبحانه وتعالى حين يمتن على عباده يمتن عليهم بقمم النعمة ، ولا يمتن بالنعم الصغيرة . والله تبارك وتعالى حين امتن على بنى إسرائيل قال : « نجيناكم من آل فرعون يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » . ولم يتكلم عن العذاب الذي كان يلاقيه قوم موسى من آل فرعون . انهم كانوا يأخذونهم أجراء في الأرض ليحرقوا وفي الجبال لينحتوا الحجر وفي المنازل ليخدموا . ومن ليس له عمل يفرضون عليه الجزية . ولذلك كان اليهود يمحرون ويسبرون بملابس قديمة حتى يتهاون فرعون في أخذ الجزية منهم . وهذا معنى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

أى أنهم يتمسكون ويظهرون الدلة حتى لا يدفعوا الجزية . ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يمتن عليهم بأنه أنجاهم من كل هذا العذاب . بل يمتن عليهم بقمم النعمة . وهي نجاة الأبناء من الذبح واستحياء النساء . لأنهم في هذه الحالة يستتدل نساؤهم ورجالهم . فالمرأة لا تحب أن تحب رجلًا يجمعها وتتحرف .

كلمة نجى وكلمة أنجى بينهما فرق كبير . كلمة نجى تكون وقت نزول العذاب . وكلمة أنجى يمنع عنهم العذاب . الأول للتخليص من العذاب والثانية يبعد عنهم عذاب فرعون نهائيا . فضل الله عليهم كان على مرحلتين . مرحلة انهخلصهم من عذاب واقع عليهم . والمرحلة الثانية أنه أبعدهم عن آل فرعون فمنع عنهم العذاب .

قوله تعالى : « يسومونكم سوء العذاب » ما هو السوء ؟ انه المشتمل على الزمان شئ من العذاب كالجلد والسحرة والعمل بالاشغال الشاقة . ما معنى يسوم ؟ يقال سام فلان خصمه أى أذله وأعبته وأرهقه . وسام مأخوذة من سام الماشية تركها ترمى . لذلك سميت بالسام أى المتركة . وعندما يقال إن فرعون يسوم بنى اسرائيل سوء العذاب . معناها أن كل حياتهم ذل وعذاب . فتجد أن الله سبحانه وتعالى عندما يتكلم عن حكم مصر من الفراعنة يتكلم عن فراعنة قدماء كانوا في عهد عاد وعهد ثمود . وقرأ قوله تعالى :

﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَبَّاسٍ أَعْتَرِ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَالْأَيْمِ إِذَا يَتَر ۝٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّئِيْ جُمِرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِمْرَءَاتٍ آلِهَاطِ الْعِمَادِ ۝٧ إِنِّي لَخَلَّاقٌ مِّثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ ظَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢﴾

(سورة القمر)

أى أن الله تبارك وتعالى جاء بحضارة الفراعنة وقدماء المصريين بعد عاد وثمود . وهذا دليل على أن حضارة عاد وثمود قديمة . والله سبحانه وتعالى وصف عاد بأنها التي لم يخلق مثلها في البلاد . أى أنها حضارة أرقى من حضارة قدماء المصريين . قد يتساءل بعض الناس كيف يصف الله سبحانه وتعالى عاد بأنها التي لم يخلق مثلها في البلاد . مع أنه يوجد الآن حضارات متقدمة كثيرة .

نقول إن الله قد كشف لنا حضارة الفراعنة وآثارهم . ولكنه أخفى عنا حضارة

عاد . ولقد وجدنا في حضارة الفراعنة أشياء لم نصل إليها حتى الآن . مثل براعتهم في تخطيط الموت والحفاظ على الجثث . وبناء الأهرامات وغير ذلك . وبما أن حضارة عاد كانت أرقى من حضارة الفراعنة . فلها تكون قد وصلت إلى أسرار ما زالت خافية على العالم حتى الآن . ولكننا لا نعرف شيئاً عنها ، لأن الله لم يكشف لنا آثارها .

ولقد تحدث الحق تبارك وتعالى عن الفراعنة باسم فرعون . وتكلم عنهم في أيام موسى باسم آل فرعون . ولكن الزمن الذي كان بين عهدي يوسف وموسى لم يسم ملك مصر فرعون ، الماسماء العزيز الذي هو رئيس الوزراء ورئيسه الملك . وقال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُورَى بِهِ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة يوسف)

اذن فالحاكم أيام يوسف كان يسمى ملكاً ولم يسم فرعون . بينما حاكم مصر قبل يوسف وبعده كانوا يلقبون بفرعون . ذلك لأنه قبل عهد يوسف عليه السلام حكم مصر الهكسوس أهل بني إسرائيل . فقد أغاروا على مصر وانتصروا على الفراعنة . وحكموا مصر سنوات حتى تجمع الفراعنة وطردوهم منها .

والغريب أن هذه القصة لم تعرف إلا بعد اكتشاف حجر رشيد ، وفك رموز اللغة الهيروغليفية . وكان ملوك الهكسوس من الرعاة الذين استعمروا مصر فترة . ولذلك نرى في قصة يوسف عليه السلام قول الله سبحانه وتعالى : « وقال الملك أتورى به » .

وهكذا نعلم أن القرآن الكريم قد روى بدقة قصة كل حاكم في زمنه . وصف الفراعنة بأنهم الفراعنة . ثم جاء الهكسوس فلم يكن هناك فرعون ولكن كان هناك ملك . وعندما جاء موسى كان الفراعنة قد عادوا لحكم مصر . فإذا كان هذا الأمر لم نعرفه إلا في مطلع القرن الخامس . عندما اكتشف الفرنسيون حجر رشيد ، ولكن القرآن أروخ له التاريخ الصحيح منذ أربعة عشر قرناً . وهذه معجزة تنضم لمعجزات

كبيرة في القرآن الكريم عن شيء كان مجهولا وقت نزول القرآن وأصبح معلوما الآن . لنجد أن القرآن جاء به في وضعه الصحيح والسليم .

بعد أن تحدثنا عن الفرق بين نجيّناكم وأنجيّناكم . نتحدث عن الفرق بين « يذبحون أبناءكم » و « يقتلون أبناءكم » . الذبح غير القتل . الذبح لابد فيه من اراقة دماء . والذبح عادة يتم بقطع الشرايين عند الرقبة ، ولكن القتل قد يكون بالذبح أو بغيره كالخنق والإغراق . كل هذا قتل ليس شرطا فيه أن تسفك الدماء .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن فرعون حينما أراد أن يتنقم من ذرية بني اسرائيل انتقم منهم انتقامين . . انتقاما لأنهم كانوا حلفاء للهكسوس وساعدوهم على احتلال مصر . ولذلك فإن ملك الهكسوس اتخذ يوسف وزيرا . فكان الهكسوس كانوا مواليين لبني اسرائيل . وعندما انتصر الفرعون انتقموا من بني اسرائيل بكل وسائل الانتقام . قتلوهم وأحرقوا عليهم بيوتهم .

أما مسألة الذبح في قوله تعالى : « يذبحون أبناءكم » فلقد رأى فرعون نارا هبت من ناحية بيت المقدس فأحرقت كل المصريين ولم ينج منها غير بني اسرائيل . فلما طلب فرعون تأويل الرؤيا . قال له الكهان يخرج من ذرية اسرائيل ولد يكون على يده نهاية ملكك . فأمر القوابل (الدايات) بذبح كل مولود ذكر من ذرية بني اسرائيل . ولكن قوم فرعون الذين تعودوا السلعة قالوا لفرعون : ان بني اسرائيل يوشك أن ينفرضوا وهم يقومون بالخدمات لهم . فجعل الذبح ستة والستة الثانية يبقون على المواليد الذكور وهارون ولد في السنة التي لم يكن فيها ذبح فتجا . وموسى ولد في السنة التي فيها ذبح فحدث ما حدث .

اذن سبب الذبح هو خوف فرعون من ضياع ملكه . وفرض الذبح حتى يتأكد قوم فرعون من موت المولود . ولو فعلوه بأي طريقة أخرى كان القوم من فوق جبل أو ضربوه بحجر غليظ . أو طعنوه بسيف أو يرمح قد ينجو من الموت . ولكن الذبح يجعلهم يتأكدون من موته في الحال فلا ينجو أحد .

والحق يقول : « يسوءنكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » . كلمة الابن تطلق على الذكر ، ولكن الولد يطلق على الذكر والانثى . ولذلك كان

الذبح للذكور فقط . أما النساء فكانوا يتركونهن أحياء .

ولكن لماذا لم يقل الحق تبارك وتعالى يذبحون أبناءكم ويستحيون بناتكم بدلا من قوله يستحيون نساءكم . الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أن الفكرة من هذا هو ابقاء عنصر الأنوثة يتمتع بهن آل فرعون . لذلك لم يقل بنات ولكنه قال نساء . أى أنهم يريدون للمتعة وذلك للتكيل ببني اسرائيل . ولا يقتل رجولة الرجل الا انه يرى الفاحشة تصنع في نسائه .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » . ما هو البلاء ؟ بعض الناس يقول إن البلاء هو الشر . ولكن الله تبارك وتعالى يقول : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون »

اذن هناك بلاء بالخير وبلاء بالشر . والبلاء كلمة لا تخيف . أما الذى يخيف هو نتيجة هذا البلاء . لأن البلاء هو امتحان أو اختبار . إن أدبته ونجحت فيه كان خيرا لك . وإن لم تؤده كان وبالاً عليك . والحق سبحانه وتعالى يقول في خبطه ابراهيم :

﴿ وَإِذْ أَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فإبراهيم نجح في الامتحان ، والبلاء جاء لبني اسرائيل من جهتين . . بلاء الشر بتعذيبهم وتقتيلهم وذبح أبنائهم . وبلاء الخير بانجائهم من آل فرعون . ولقد نجح بنو اسرائيل في البلاء الأول . وصبروا على العذاب والفقر وكان بلاء عظيما . وفي البلاء الثانى فعلوا أشياء ستعرض لها في حينها .



﴿وَأَذَرْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَكُمْ
وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ لَا تَنْظُرُونَ﴾

مرة ثانية ثانٍ « وإذ » . ويأتى الانجاء وسيلة . هذه الوسيلة ذكرتها الآية الكريمة .
فقد خرج موسى وقومه وكانوا مستهانة ألف كما تقول الروايات . وعرف فرعون
بخروجهم فخرج وراءهم على رأس جيش من ألف ألف (مليون) . عندما رآهم
قوم موسى كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالُوا أَوْفَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ نَأْتِيَنَا مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وقال لهم موسى كما جاء فى الكتاب العزيز :

﴿ صَبِّحْ بِرَبِّكَ أَنْ يَهْلِكَ عَذُوكَ وَتَسْتَخِفُّكَ فِي الْأَرْضِ قَبْلَ أَنْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وعندما جاء قوم فرعون بعددهم الضخم يقاومون قوم موسى وترأى الجمع أن أى
انهم رأوهم رؤية العين قال قوم موسى « انا المذركون »

وهذا كلام منطقي . فإمامهم البحر ووراءهم فرعون وجنوده . ولكن حين تخرج
الأحداث من نطاق الأسباب الى قدرة المسبب فهى لا تخضع لأسباب الكون .
ولذلك قال لهم موسى بجله قومه :
« كلا ان معى ربى سيهدين » .

وبذلك نقل المسألة من الأسباب الى السبب تبارك وتعالى . فبمنطق الأحداث يكون فرعون وجنوده سيدركونهم . ولكن بمنطق الحق سبحانه وتعالى فانه سيهينهم طريق النجاة .

وأوحى الله سبحانه وتعالى الى موسى بان يضرب بعصاه البحر فانفرك . وهكذا توقف قانون الماء وهو الاستطراق والسيولة . وانفرك البحر وأصبح كل جزء منه كالجبل . ذرات الماء تماسكت مع بعضها البعض لتكون جبلين كبيرين بينهما يابس يمر منه بنو اسرائيل .

هذا هو معنى قوله تعالى : « واذ فرقنا بكم البحر » والفرق هو الفصل بين شيئين . . وإذا كان البحر قد انشق . . فآين ذهب الطين المثل في قاع البحر ؟ . . قالوا ان الله ارسل ريحا مرت عليه فجففته . ولذلك قال الحق جل جلاله : « طريقا في البحر ييسا »

ويقال انه حين كان موسى وقومه يعبرون البحر سألوا عن بقية اخوانهم . فقال لهم موسى انهم في طرق أخرى موازية لطريقنا . قالوا نريد أن نطمئن عليهم . فرفع موسى يده الى السماء وقال اللهم أعني على اخلاقهم السيئة . فأوحى الله الى موسى أن يضرب بعصاه الحواجز فانفتحت طاقة بين كل عمر . فكانوا يرون بعضهم بعضا .

وعندما رأى موسى عليه السلام فرعون وجيشه يتجهون الى البحر ليعبروه . اراد أن يضرب البحر ليعود الى السيولة . فلا يلحق بهم آل فرعون . ولكن الله أوحى اليه :

﴿ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّفْرَقُونَ ﴾ (١١)

(سورة القصص)

أي اترك البحر على ما هو عليه . حتى يتبعكم قوم فرعون . ظانين انهم قادرون

عل أن يسلكوا نفس الطريق ويمشوا فيه . وحينما يكون أولهم قريبا من شاطئكم واخرهم عند الشاطئ الآخر . اعيد الماء الى استطراقه . فأكون قد أنجيت واهلكت بالسبب الواحد . فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يمن على بني اسرائيل بأنه انجاهم من العذاب واهلك عدوهم . فكان العطاء عطاءين . عطاء ايجاب بأن انجاهم . وعطاء سلب بأن اهلك عدوهم .

وقوله تعالى : « وانتم تنظرون » في هذه الآية لم يتحدث الحق جل جلاله عن فرعون . وإنما حدث عن اغراق آل فرعون . لماذا ؟ لأن آل فرعون هم الذين أعتوه على جبروته ويطشه وطفياته . هم الأداة التي استخدمها لتعذيب بني اسرائيل .

والله سبحانه وتعالى أراد أن يرى بنو اسرائيل آل فرعون وهم يفرقون فوقفوا يشاهدونهم . وانت حين ترى مصرع عدوك . تشعر بالمرارة التي في قلبك تزول . « وانتم تنظرون » تحتل معنى آخر . أى ينظر بعضكم الى بعض وانتم غير مصدقين أنكم نجوتم من هذا البلاء العظيم . وفي نفس الوقت تطمثون وانتم تشاهدونهم . وهم يفرقون دون أن ينجمتهم أحد حتى لا يدخل في قلوبكم الشك . انه ربما نجى بعضهم وسيمردون بجيش ليجعوكم .



﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعَجَلَ
مِنْ بَعْدِهِ ۖ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ٥١

قول الحق سبحانه وتعالى وإذ وأعدنا موسى أربعين ليلة هذا الوعد كان لإعطاء موسى المنهج ، فحينئذ كلم الله سبحانه وتعالى موسى بجانب الطور . . كان هذا لإبلاغ موسى عليه السلام أنه رسول من رب العالمين - وأنه أرسله ليخلص بني اسرائيل من طغيان فرعون وعذابه . . وأنه سيمنه بآيات ومعجزات . . حتى يقتنع فرعون وقومه أن موسى رسول من الله تبارك وتعالى . . بعد تكليف موسى بالرسالة وذهابه الى فرعون . . وما حدث مع السحرة ثم نجاة موسى وقومه . . بأن شق الله جل جلاله لهم البحر . . هذا في وقت لم يكن المنهج قد نزل بعد . . ولذلك بمجرد أن نجى الله سبحانه وتعالى موسى وقومه وأغرق فرعون . . كان لا بد أن يتم ابلاغ موسى بالمنهج . وكان الوعد يشمل أربعين ليلة . . هذه الليالي الأربعون حددت كتلائين أولا . . ثم اتفها الحق سبحانه وتعالى بعشر أخرى . . واقرا قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ رَفِئَةٍ ۖ ثُمَّ مَيَّقَتْ رُبَّةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

وعندما يتكلم الدين عن الزمن يتكلم دائما بالليلة . . والسبب في ذلك أنك لا تستطيع أن تحدد الزمن بدقة بالنهار . . الشمس تشرق وتغرب ثم تعود لتشرق . . فإذا نظرت الى قرص الشمس . . لا يمكن أن تحدد في أى وقت من الشهر نحن . . هل في أوله أو في وسطه أو في آخره . . ولكن اذا جاء الليل بمجرد أن تنظر الى القمر تستطيع أن تحدد الزمن . فإذا كان القمر هلالا فنحن في أوائل

الشهر .. وإذا كان بدرا فنحن في وسطه وهكذا ..

إن هناك مقاييس دقيقة بالنسبة للقمر وقياس الزمن في عرف الناس ، الإنسان العادى يستطيع أن يحدد لك الزمن بالتقريب باليالى .. ويقول لك البدوى في الصحراء ، هذا القمر ابن كذا ليلة .

وفي منطق الدين نحسب كل شيء بدخول الليل .. فهذه ليلة الأول من شهر رمضان نصل فيها التراويح .. وليلة العيد لا تصل فيها التراويح .. وليلة النصف من شعبان .. وليلة الاسراء والمعراج ..

وفي كل مقاييس الدين الليل لا يتبع النهار إلا في شيء واحد هو يوم عرفه .. فلا نقول ليلة عرفه وإنما نقول يوم عرفه .. اذن الليلة هي ابتداء الزمن في الدين .. والزمن عند الله مدته اثنا عشر شهرا للعام الواحد .. السنة الميلادية تختلف عن السنة الهجرية .. والسبب في ذلك أن الله سبحانه وتعالى وزع رحمته على كونه .. فلو أن المواقيت الدينية سارت على مواقيت الشمس .. لجاء رمضان مثلا في شهر محدد لا يتغير .. يصومه الناس صيفا في مناطق محددة . وشتاء في مناطق محددة ولا يختلف أبدا .. فيظل رمضان يأتي في الصيف والحر دائما بالنسبة لبعض الناس .. وفي الشتاء والبرد دائما بالنسبة لبعض الناس ..

ولكن لأن السنة الهجرية تقوم على حساب الهلال .. فمعنى ذلك أن كل فحاشات الله في كونه تأتي في كل الفصول والازمان .. فتجد رمضان في الصيف والشتاء .. وكذلك وقفة عرفات وكذلك كل المناسبات الدينية الطيبة .. لأن السنة الهجرية تنقص أحد عشر يوما عن السنة الميلادية .. والفرق سنة كل ثلاث وثلاثين سنة .

والحق سبحانه يقول : **وَمِمَّا اخَذْتُمُ الْعَجَلُ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ .**

يريد أن يمحس بنى اسرائيل .. ويبين لنا كفرهم بنعم الله . فآله نجاهم من آل فرعون .. ولم يكادوا يعبرون البحر حتى رأوا قوما يعبدون الأصنام .. فقالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿يَسْأَلُونَ أَجَلَ لَنَا إِلَهُكَ كَأَسْمَاءِ هَذِهِ﴾

(من الآية ١٢٨ الاحراف)

حدث هذا بمجرد خروجهم من البحر سلمين .. موسى عليه السلام أخذ الثقباء وذهب لبيقات ربه . وترك أخاه هارون مع بني إسرائيل .. وبني إسرائيل عندما كانوا في مصر .. وكاتوا يخدعون نساء آل فرعون .. أخذوا منهن بعض الحلى والذهب غلسة .. ومع أن فرعون وقومه متمردون على الله تبارك وتعالى .. فإن هذا لا يبرر سرقة حلّى نسائهم .. فتحن لا تكافى من عصي الله فينا بأن نعصى الله فيه .. ونصبح متساوين معهم فى المعصية .. ولكن تكافى من عصي الله فينا بأن نطيع الله فيه ..

وأبو الدرداء رضى الله عنه حينما بلغه أن شخصا سبه .. بعث له كتابا قال فيه .. يا أخى لا تسرف فى شتمنا .. واجعل للصالح موصفا فإنا لا تكافى من عصي الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه .. بنو إسرائيل سرقوا بعض حلّى نساء آل فرعون .. فجعلها الله فتنة لإغوائهم .. وزين لهم الشيطان أن يعصموا منها عجلا يعبدونه .. صنعه لهم موسى السامرى الذى ربه جبريل .. فأخذ الحلّى وصهرها ليجعلها فى صورة عجل له خوار .. وقال لهم هذا الحكم واله موسى .

اتعرف لماذا فتنهم الله سبحانه وتعالى بالعجل ؟

لأن الذهب المصنوع منه العجل من أصل حرام .. وإلزام لا يأتى منه خير مطلقا .. ولابد أن نأخذ العبرة من هذه الواقعة .. وهى أن الحرام ينقلب على صاحبه شراً ووبالا ، إن كان طعناك حراما يدخل فى تكوين خلاياك ويصبح فى جسديك الحرام .. فإذا دخل الحرام الى الجسد يميل فكلك الى الحرام .. فالحرام يؤرق الجسد ويسوقه الى المعاصى ..

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى : «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا» وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله أن كنتم إياه تعبدون ، ثم ذكر ، الرجل يبطئ السفرة أشعث أغبر يمد يديه الى السقاء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك؟» (١) .

وقد حصل لبني اسرائيل الشيء نفسه وسرقوا ذهب آل فرعون فانقلب عليهم ظلماً ، وقال الله تعالى عنهم : « ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » .

وعد الله لموسى كما قال أهل العلم كان ثلاثين ليلة .. إتمام الثلاثين ليلة يؤتيه ما وعد .. وكلمة وعد هي الإخبار بشيء سار . والوعد هي الإخبار بشيء سيئ .. فإذا سمعت وعداً فاعرف أن ما سيحيى بعدها خير . وإذا سمعت وعيداً تعرف أن ما بعدها شر ، إلا آية واحدة وهي قوله سبحانه وتعالى :

﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الحج)

فهل الوعد هنا بخير أو المعنى يختلف ؟ .. نقول : إن كانت النار موعوداً فهي شر .. وإن كانت النار هي الموعودة والكفار هم الموعود بهم فهي خير للنار ! لأن النار تفرح بتعذيب الكافرين من عباد الله .. ونعرف هذا الفرح من قوله تعالى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾

(سورة ق)

ولا يستزيد الانسان إلا من شيء يجهل به .. والنار - ككل شيء مسخر - مسيخة لله. تكره العصاة .. ولكنها غير مأمورة بحرقهم في الدنيا .. ولكن في الآخرة تكون سعيدة وهي تحرق العصاة والكافرين .



﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ٥٢

الله سبحانه وتعالى يمن على بني اسرائيل مرة اخرى .. مع انهم ارتكبوا ذنبا من ذنوب القصة .. ومع ذلك عفا الله عنهم لأنه يريد أن يستبقى عنصر الخير للناس .. يريد أن يعلم خلقه أنه رب رحيم . يفتح ابواب التوبة للواحد بعد الآخر .. لتمحو خلايا الشر في النفس البشرية ..

إن الانسان حين يلذب ذنبا ينفلت من قضية الايمان .. ولو لم تشرع التوبة والعفو من الله لزد الناس في معاصيهم وغرقوا فيها .. لانه إذا لم تكن هناك توبة وكان الذنب الواحد يؤدي الى النار .. والمقاب سينال الانسان فإنه يتهادى في المعصية . وهذا ما لا يريده الله سبحانه وتعالى لعباده .. وفي الحديث الشريف :

لَلَّهِ أَفْرَحُ بِتُوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ اضْلَعَهُ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ (١)

معنى الحديث .. رجل معه بعير يحمل ماله وطعامه وشرابه وكل ما يملكه. هذا البعير تاه في صحراء جرداء .. بحث عنه صاحبه فلم يجده .. لقد فقدته وفقد معه كل مقومات حياته .. ثم ينظر فيراه أمامه .. كيف تكون فرحته ؟ .. طبعا بلا حدود . هكذا تكون فرحة الله تعالى بتوبة عبده المؤمن بل أشد من ذلك .

ان الله تبارك وتعالى حين يفتح باب التوبة . يريد لحركة العالم أن تسير .. هب ان نفسا غفلت مرة .. أو قادت شهورها مرة الى معصية . أو وسوس الشيطان لها كما حدث مع آدم وحواء . لو لم تكن هناك توبة ومغفرة .. لا نقلب

كل هؤلاء الى شياطين .. بل إن اعمال الخير تأتى من الذين أسرفوا على أنفسهم .. هؤلاء يحسنون كثيرا ويفعلون الخير كثيرا .. مصداقا لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُغْنِيَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلَّذِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة هود)

وقوله جل جلاله :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة التوبة)

إذن فكون الله سبحانه وتعالى يتوب على بنى اسرائيل مع أنهم كفروا بالقصة في عبادة العجل .. فذلك لأن الله يريد استبقاء الخير في كونه .. ولقد عبد بنو اسرائيل العجل قبل أن ينزل عليهم المنهج وهو التوراة .. ولكن هل بعد أن أنزل عليهم المنهج والتوراة تابوا وأصلحوا أو استمروا فى معصيتهم وعنادهم ؟



وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٢﴾

الحق سبحانه وتعالى يذكر بى اسرائيل هنا . . انه بعد أن اراهم من المعجزات الكثير . ونجاهم من آل فرعون وشق لهم البحر - كان لابد أن يؤمنوا إيماناً حقيقياً لا يشوبه أى نوع من التردد . . ذلك لأنهم رأوا وشهدوا . . وكانت شهادتهم عين يقين . أى شهدوا بأعينهم ماذا حدث . .

ولكن هل استطاعت هذه المشاهدة أن تحو من قلوبهم النفاق والكفر ؟ . . لا . . لقد ظلوا معاندين طوال تاريخهم . لم يأخذوا أى شيء بسهولة . .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر أمته من أن يكونوا كبنى إسرائيل ويكونوا قوما شددوا فشد الله عليهم . . وكان ذلك بالنسبة لقصة البقرة . . التى أمروا أن يذبحوها ليعرفوا من القاتل فى جريمة قتل كادت تثير حرباً بينهم . . فأخذوا يسألون ما هى وما لونها الى آخر ما استحدث عنه . . عندما نأت الى الآيات الكريمة الخاصة بهذه الواقعة . فلو ذبحوا أى بقرة لكفتهم . . لأنه يكفى أن يقول لهم الله سبحانه وتعالى إذبحوا بقرة فيذبحوا أى بقرة . وعدم التحديد يكون أسهل عليهم . . ولكنهم سألوا وظلوا يسألون فشد عليهم . . بتحديد بقرة معينة بذاتها . . ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (دُرُونِ مَا تَرَكْتُمْ فَمَاذَا هَلَكَ مِنْ قِبَلِكُمْ بِكَثْرَةِ سَوَالِهِمْ وَاختِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فإِذَا أَمَرْتَهُمْ بِشَيْءٍ قَاتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتَهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعَوْهُ) (١).

والله سبحانه وتعالى فى قوله : « وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ » . كان إتيان موسى الكتاب والفرقان . . نعمة يجب أن يذكرها قومه . . وأن يستقبلوا منهج الله

على أنه نعمة .. فلا يأخذ الإنسان التكليف الإلهي من زاوية ما يقيد حركته ولا ما يعطيه له .. ذلك أن الله حين حرم عليك السرقة .. حرم على الناس جميعاً أن يسرقوك .. فإذا أخذ منك حرمتك أن تسرق .. فقد أخذ من الناس كل الناس حرمتهم أن يسرقوا مالك .. وهذه حماية كبيرة لك .

ما هو الكتاب .. وما هو الفرقان ؟ .. الكتاب هو التوراة .. هو الذي يبين المنهج .. والفرقان هو الأشياء التي يفرق الله فيها بين الحق والباطل .. فكان الفرقان تطلق مرة على التوراة .. لأنها تفرق بين الحق والباطل . وتطلق أيضاً على كل ما يفرق بين الحق والباطل .. ولذلك سمى يوم بدر يوم الفرقان .. لأنه فرق بين الحق والباطل .. فكان منهج الله وكتابه يبين لنا أين الحق وأين الباطل ويفرق بينهما .



وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ إِنَّا كُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ
بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ
خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥١﴾

يذكر الله تبارك وتعالى بني إسرائيل بقصة عبادة العجل . وهي قصة مخالفة
خطيرة لمنهج الله ومخالفة في القصة . . عبادة الله وحده . والذي حدث ان موسى
عليه السلام ذهب ليقات الله ومعه نبيه قومه ليتلقى المنهج والوراثة . . وآخره
الله سبحانه وتعالى ان قومه قد ضلوا وعبدوا غير الله . . وعاد موسى وهو في قمة
الغضب . واسك بأخيه هارون يجره من رأسه ولحيته . . ويقول له لقد اخلفتك
عليهم لكيلا يضلوا ، فقال هارون عليه السلام :

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي
إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة طه)

فتنة عبادة العجل حدثت بسبب السامري . . والسامري اسمه موسى السامري
ولدت له أمه في الصحراء وماتت فكفله جبريل ورياه . . وكان جبريل عليه السلام
يأتيه على حصان . . يجعل له ما يحتاج إليه من طعام وشراب ، وكان موسى السامري
يرى حصان جبريل ، كلما مشى على الأرض وقع منه تراب فتخضر وتنبث الأرض
بعد هذا التراب . وإيقن ان في حافر الحصان سراً . . فأخذ قبضة من أثر الحصان
ووضعها في العجل المصنوع من الذهب . فأخذ يحدث خوارا كأنه حي . .

ولا تتعجب من أن صاحب الفتنة يجد معونة من الأسباب حتى يفتن بها
الناس . . لأن الله تبارك وتعالى يريد أن يمتحن خلقه . والذي يجعل دعوة الحق

لا بد أن يبيت الله سبحانه وتعالى تهيئة خاصة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينتقل إلى المدينة . . تعرض هو والمسلمون لابتلاءات كثيرة . . ولقد جاء حدث الأسراء والمعرّاج لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن تخلّت عنه أسباب الدنيا في مكة وذهب إلى الطائف يدعو أهلها فسلطوا عليه غلظتهم وسفهاءهم فقلّصوه بالحجارة حتى لدموا قدميه الشريفتين . . ورفع يديه إلى السماء بالدعاء المأثور :

«اللهم اليك اشكو ضعف قروى وقلة حيلتى وهوانى على الناس» . .

وليس هذا على الرسول وحده بل والمؤمنين معه . . حتى أن مصعب بن عمير فنى قرش المدلل . . الذى كان عنده من الملابس والأموال والعبيد ما لا يعد ولا يحصى رثى بعد إسلامه وهو يرتدى جلد حمار وذلك حتى يختبر الحق سبحانه وتعالى في قلب مصعب بن عمير حبه للإيمان . . هل يحب الدنيا أكثر أو يحب الله ورسوله أكثر . . حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان يقول للصحابية انظروا كيف فعل الإيمان بصاحبكم .

والله تبارك وتعالى لا بد أن يحصن ويختبر أولئك الذين سيحملون دعوته إلى الدنيا كلها . . لا بد أن يكونوا صابرين على البلاء . أقوياء أمام خصوم الدعوة . . مستعدين لتحمل المتاعب والآلام . . لأن هذا هو دليل الصلوق في الإيمان . .

ولذلك تمجد كل دعوة ضلال تأتى بالفائدة لأصحابها . . دعوة الشيوعية يستفيد منها أعضاء اللجنة المركزية . . أما الشعب فإنه يرتدى ملابس رخيصة . . ويسكن في بيوت ضيقة . أما السادة الذين يتفقون بلا حساب فهم أعضاء اللجنة المركزية . . هذه دعوة الباطل . . وعكس ذلك دعوة الحق . . صاحب الدعوة هو الذى يدفع أولاً ويضحي أولاً . لا يتنفع بما يقول بل على العكس يضحي في سبيل ما يقول . . إذن الباطل يأتى بالخير لصاحب الدعوة . فلذا رأيت دعوة تغدق على أتباعها فاعلم أنها دعوة باطل . . لولا أنها أعطت بسخاء ما تبعها أحد .

والآية الكرّمة التى نحن بصددها هي تفرّيع من موسى عليه السلام لقومه . . الذين نجاهم الله من آل فرعون وأهلك عدوهم فاتخذوا العجل إلها . . ومضى

حدث ذلك ؟ في الوقت الذي كان موسى فيه قد ذهب لميقات ربه ليأتي بالمنهج . .
والذين اتخذوا المعجل إلها . . هل ظلموا الله سبحانه وتعالى أو ظلموا
أنفسهم ؟ . . ظلموا أنفسهم لأنهم أوردوها مورد التهلكة دون أن يستفيدوا
شيئا . . والظالم على أنواع . . ظالم في شيء أعلى أي في القمة . . وظالم في مطلوب
القمة . . الظالم في القمة هو الذي يجعل الله شريكا ولذلك قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ أَشْرَكَ نَطَلَّمُ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

وعلاقة الشرك بالظلم أنك جئت بمن لم يخلق ومن لم يرزق شريكا لمن خلق
ورزق . . وذلك الذي جعلته إلها كيف يعبد ؟ . . العبادة طاعة العابد
للمعبود . . فإذا قال لكم هذا المعجل الذي عبدتموه من دون الله أن تفعلوا . .
لذلك فأنتم ظالمون ظلم القمة . . والظلم الآخر هو الظلم فيما شرعت القمة . .
بأن أخذتم حقوق الناس واستباحتوها . . في كلتا الحالتين لا يقع الظلم على الله
سبحانه وتعالى ولكن على نفسك . لماذا ؟ . . لأنك آمنت بالله أو لم تؤمن .
سبطل هو الله القوى القادر العزيز . لن ينقص إيمانك أو عدم إيمانك من ملكه
شيئا . ثم تأتي يوم القيامة فيعذبك . فكان الظلم وقع عليك . . وإذا أخذت
حقوق الناس فقد تتمتع بها أياما أو أسابيع أو سنوات ثم تموت وتركها وتأخذ
العذاب . فكانك ظلمت نفسك ولم تأخذ شيئا . . لذلك يقول الحق جل
جلاله :

﴿ وَمَا ظَلَمُوا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة البقرة)

وظلم الناس يعود على أنفسهم . . لأنه لا أحد من خلق الله يستطيع أن يظلم
الله سبحانه وتعالى . . وقوله سبحانه «فتوبوا إلى بارئكم» . . الحق تبارك وتعالى
قال في الآية السابقة «عفونا عنكم» ثم يقول في هذه الآية «فتوبوا إلى بارئكم» . .
لأن التوبة هي أصل المغفرة . أنت تتوب عن فعلك للذنوب وتعتزم ألا تعود لثلك
أبدا ويقبل الله توبتك ويعفو عنك . .

وقد كان من الممكن أن يأخذهم الله بهذا الذنب ويهلكهم كما حدث بالنسبة للآدم السابقة .. أما وقد شرع الله لهم أن يتوبوا . فهذا فضل من الله وعفو .. ثم يقول الحق تبارك وتعالى : «فاقتلوا أنفسكم» .. فانظروا الى دقة التكليف ودقة الحيثية في قوله تعالى : «فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم» الله سبحانه وتعالى يقول لهم .. أنا لم أغلب عليكم خالقاً خلقكم أو أخذكم منه .. ولكن أنا الذى خلقتكم . ولكن الخالق شيء والبارئ شيء آخر .. خلق أى أوجد الشيء من عدم .. والبارئ أى سَوَّاهُ على هيئة مستقيمة وعلى أحسن تقويم .. ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۖ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۖ﴾

(سورة الأمل)

ومن هنا نعرف أن الخلق شيء والتسوية شيء آخر .. بارئكم مأخوذة من برئء السهم .. ويرى السهم يحتاج الى دقة وبراعة .

وقوله تعالى : «فاقتلوا أنفسكم» لأن الذى خلقك وسواك كفرت به وعبدت سواه . فكانت في هذه الحالة لأبد أن تعيد له الحياة التى وهبها لك .. وعندما نزل حكم الله تبارك وتعالى .. يجعل موسى بنى اسرائيل يقفون صفواً . وقال لهم ان الذى لم يعبد العجل يقتل من عبده .. ولكنهم حين وقفوا للتنفيذ . كان الواحد منهم يمد ابن عمه وأخاه وذوى رحمه أمامه فيشتكى عليه للتنفيذ .. فرحمهم الله بأن بعث شهاباً يستريحهم حتى لا يجدوا مشقة في تنفيذ القتل .. وقبل أنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألفاً .

وعندما حدث ذلك استصرخ موسى وهارون ربهما .. وقالا البكية البكية . أى أبكوا عسى أن يعفو الله عنهم . ووقفوا يكون أمام حائط المبكى فرحمهم الله ..

وقوله تعالى : «فاقتلوا أنفسكم» لأن هذه الأنفس بشهوتها وعصيانها .. هى التى جعلتهم يتمرّدون على المنهج ..

إن التشريع هنا بالقتل هو كفارة الذنب . لأن الذى عبد العجل واتخذ لها آخر غير الله . كونه يقدم نفسه ليقول فهذا اعتراف منه بأن العجل الذى كان يعبد

باطل .. وهو بذلك يعيد نفسه التي تمردت على مبعي الله الى العبادة الصحيحة .. وهذا أفسى أنواع الكفارة .. وهو أن يقتل نفسه اثباتا لإيمانه .. بأنه لا إله إلا الله وتندما على ما فعل وأعلنا لذلك .. فكان القتل هنا شهادة صادقة للعودة الى الإيمان .

وقوله تعالى «ذلكم خير لكم عند بارئكم» .. أى أن هذه التوبة هي أصدق أنواع التوبة .. وهي خير لأنها تتجكم من عذاب الآخرة .. وقوله سبحانه «فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم» . التوبة الأولى أنه شرع لكم الكفارة .. والتوبة الثانية عندما تقبل منكم توبكم .. وعفا عنكم عفوا أبديا .



﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً
فَأَخَذْنَاكُم بِالصَّيْقَةِ وَأَنشَرْنَا نَظْرُونَ﴾

بعد أن تاب الله على قوم موسى بعد عبادتهم للعجل .. عادوا مرة أخرى إلى
عتادهم وماداتهم . فهم كانوا يريدون إلها ماديا .. إلها يرونه ولكن الإله من
عظمته أنه غيب لا تتركه الأبصار .. واقرأ قوله تعالى :

﴿لَا تَدْرِيكَ الْآبْصَرُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْآبْصَرَ وَهُوَ اللَّعِيفُ الْغَنِيُّ﴾

(سورة الأنعام)

فكون الله سبحانه وتعالى فوق إدراك البشر .. هذا من عظمته جل جلاله ..
ولكن اليهود الذين لا يؤمنون إلا بالشيء المادي المحس .. لا تتسع عقولهم
ولا قلوبهم إلى أن الله سبحانه تعالى فوق المادة وفوق الأبصار .. وهذه النظرة
المادية نظرة حمقاء .. والله تبارك وتعالى قد لفتنا إلى قضية رؤيته جهرا في
الدنيا .. بقوله تعالى :

﴿وَقِي أَنْفُسَكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

(سورة الذاريات)

أي أن الله جل جلاله وضع دليل القصة على وجود الله الذي لا تتركه
الأبصار . وضع هذا الدليل في نفس كل واحد منا . وهي الروح الموجودة في
الجسد .. والإنسان مخلوق من مادة نفخت فيها الروح فحدث فيها الحياة والحركة
والحس .. إذن كل ما في جسدك من حياة .. ليس راجعا إلى المادة التي تراها

أماك .. وإنما يرجع الى الروح التي لا تستطيع أن تدركها إلا بأثارها .. فإذا خرجت الروح ذهبت الحياة وأصبح الجسد رمة .

إذا كانت هذه الروح التي في جسدك .. والتي تعطيك الحياة لا تستطيع أن تدركها مع أنها موجودة داخلك .. فكيف تريد أن تدرك الله سبحانه وتعالى .. كان يجب أولاً أن تسأل الله أن يجعلك تدرك الروح التي في جسدك .. ولكن الله سبحانه وتعالى قال إنها من أمر الله .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ٥٥﴾

(سورة الاسراء)

إذا كانت هذه الروح هي مخلوقة لله لا تدركها .. فكيف نعلم أن ترى خالقها .. وانظر الى دقة الأداء القرآني في قوله سبحانه . «حتى نرى الله جهرة» .. فكلمة نرى تطلق ويراد بها العلم . مثلاً :

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوًى﴾

(من الآية ٤٣ سورة الفرقان)

أى أعلمت .. ولكن جاءت كلمة جهرة لتنفي العلم فقط وتطالب بالرؤية مجهرية واضحة يدركونها بحواسهم . وهذا دليل على أنهم متمسكون بالمادية التي هي قوام حياتهم .. نقول لهؤلاء إن سؤالكم يتسم بالغباء .. فأنتم حين تطلبون أن تروا الله جهرة . والمفروض أن الله تبارك وتعالى له مدلول عندكم .. ولذلك تطلبون رؤيته لتفانوا المدلول على الموجود .. ذلك لو كانت القضية أصلاً أن تعرفوا أن الله موجود أو غير موجود .. والذي شجعهم على أن يقولوا ما قالوا .. طلب موسى عليه السلام من الله سبحانه وتعالى أن يراه . واقرأ قوله تعالى :

﴿قَالَ رَبِّ ارْنِيْهُ فَقُلْ لَا تَنْزِيْهِ وَلَنْ يُخَالِفَ إِلَهُيْ إِلَىٰ إِلَهِكَ فَإِنْ أَتَيْتَ مَكَانَهُ فَقَوْفَ رَبِّنِيْ فَلَبِثَ لِحَبْلِ رَبِّهِ لِحْصَةً كَعَصَا وَتَرَوْهُم مِّنْ صَعْبٍ ٦٤﴾

(من الآية ٦٤ سورة الاحراف)

ولابد أن تعرف أن قضية رؤية الله في الدنيا محسومة .. وأنه لا سبيل الى ذلك والانسان في جسده البشري .. لأن هذا الجسد له قوانين في ادراكاته .. ولكن يوم القيامة تكون خلقة بقوانين تختلف .. ففي الدنيا لابد أن تخرج مخلقات الطعام من اجسادنا . وفي الآخرة لا مخلقات . وفي الدنيا يحكمنا الزمن .. وفي الآخرة لا زمن. إذ يظل الانسان شبابا دائما .. إذن فهناك تغيير ..

المقاييس هنا غير المقاييس يوم القيامة في الدنيا باعدادك وجسدك لا يمكن أن ترى الله . وفي الآخرة يسمح إعدادك وجسدك بأن يتجلى عليك الله سبحانه وتعالى .. وهذا قمة النعيم في الآخرة . أنت الآن تعيش في آثار قدرة الله .. وفي الآخرة تعيش عيشة الناظر الى الله تبارك وتعالى .. وفي ذلك يقول الحق جل جلاله :

﴿وَجُودُ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٧٧﴾﴾

(سورة القیامة)

والانسان في الدنيا قد اخترع آلات حكته من أن يرى ما لا يراه بعينه المجردة يرى الاشياء الدقيقة بواسطة الميكروسكوب . والاشياء البعيدة بواسطة التلسكوب .. فإذا كان عمل الانسان في الدنيا جعله يبصر ما لم يكن يبصره .. فما بالك بقدرة الله في الآخرة .. وإذا كان الانسان عندما يضعف نظره . يطلب منه الطبيب استعمال نظارة .. فإذا ذهب الى طبيب أمهر .. أجرى له عملية جراحية في عينه يستغنى بها عن النظارة ويرى بدونها .. فما بالكم بإعداد الحق للمخلوق وبقدرة الله التي لا حدود لها في أن يعيد خلق العين بحيث تستطيع أن تتمتع بوجهه الكريم .

ولقد حسم الله تبارك وتعالى المسألة مع موسى عليه السلام بأن أراه العجز البشري .. لأن الجبل بقوته وجبروته لم يستطع احتمال نور الله فجعله دكا .. وكان الله يريد أن يفهم موسى .. أن الله تبارك وتعالى حجب عنه رؤيته رحمة منه . لأنه إذا كان هذا قد حدث للجبل فإذا كان يمكن أن يحدث بالنسبة لموسى . إذا كان موسى قد صعد برؤية المتجلى عليه .. فكيف لو رأى المتجلى ؟ ..

والانسان حين يعجز عن إدراك شيء في الدنيا لأنه مخلوق بهذه الامكانيات

يكون العجز عن الادراك ادراكا لأن العجز عن الادراك هو في عظمة الله سبحانه
وتعالى . . . يقوم موسى حينها طلبوا منه أن يروا الله جبهة أخذتهم الصاعقة وهم
ينظرون . . . عندما اجتروا هذا الاجترأ على الله أخذتهم الصاعقة . . . والصاعقة
إما نار ثاق وإما عذاب ينزل . . . المهم أنه بلاء يعمهم . . . والصاعقة قد أم ابت
موسى .



﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٥)

فالخلق سبحانه وتعالى يكمل لنا قصة الذين قالوا وارنا الله سبحانه فاختلجهم الصاعقة . موسى عليه السلام أصيب بالصاعقة أيضا . . عندما طلب أن ينظر الى الله . ولكن هناك فرق بين الحالتين . . الله تبارك وتعالى يقول :

﴿وَتَرَى مُوسَى سَعِيًّا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(من الآية ١١٣ سورة الأعراف)

ولكن الأمر لم يكن كذلك مع قوم موسى . فمع موسى قال الله سبحانه وتعالى : ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ أى أن الصاعقة أصابته بنوع من الاغواء . . ولكن مع قوم موسى . قال : ﴿وَمِمَّنْ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ﴾ . . فكان قوم موسى ماتوا فعلا من الصاعقة . . فموسى أفاق من تلقاء نفسه . . أما أولئك الذين أصابهم الصاعقة من قومه . . فقد ماتوا ثم بعثوا لعلهم يشكرون .



﴿وَلَلْنَّاعَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَ وَالسَّلْوَىٰ
كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ٥٧

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يمتن على بني اسرائيل بنعمه ومعجزاته . . ويرينا أنه برغم كل هذه النعم عاش بنو اسرائيل في عنادهم وتمتعهم ، بعد أن طلب بنو اسرائيل أن يروا الله جهرة فقتلهم الصاعقة . . ثم بعثهم الله تبارك وتعالى لعلمهم يشكرون . . ذكر لنا الحق جبل جلاله نعمًا أخرى من نعمه على بني اسرائيل . . وقال اذكروا إذ كنتم في الصحراء وليس فيها ظل تحتمون به من حرارة الشمس القاسية . . وليس فيها مكان تستظلون فيه ، لأنه لا ماء ولا نبات في الصحراء . . فظلل الله سبحانه وتعالى عليكم بالغيام . . أي جاء الغمام رحمة من الله سبحانه وتعالى . . ثم بعد ذلك جاء المن والسلوى . .

والمن نفض حمراء تتجمع على أوراق الشجر بين الفجر وطلوع الشمس . وهي موجودة حتى الآن في العراق . . وفي الصباح الباكر يأتي الناس بالملاءات البيضاء ويغشونها تحت الشجر . . ثم يهزون الشجر بمنف فتسقط الفطرات الموجودة على ورق الشجر فوق الملاءات . . فيجمعونها وتصبح من اشهى أنواع الحلويات . فيها طعم القشة وحلاوة عسل النحل . . وهي نوع من الحلوى اللذيذة المغذية سهلة الهضم سريعة الامتصاص في الجسم . والله سبحانه وتعالى جعله بالنسبة لهم وقود حياتهم . . وهم في الصحراء يعطيهم الطاقة . أما السلوى فهي طير من الساء ويقال انه السنان . . يأتيهم في جماعات كبيرة لا يعرفون مصدرها . . ويبقى على الارض حتى يمسكوا به ويذبحوه ويأكلوه .

فالله تبارك وتعالى قد رزقهم بهذا الرزق الطيب من غيام يقيهم حرارة الشمس ، ومن يعطيهم وقود الحركة . وسلوى كغذاء لهم ، وكل هذا يأتيهم من

السَّاءِ دُونَ مَا تَعِبَ مِنْهُمْ .. وَلَكِنَّهُمْ لَمَعْدَمُ إِيْمَانِهِمْ بِالْغَيْبِيَّاتِ يَرِيدُونَ الْأَمْرَ الْمَادِي وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ يَنْقُطَعَ الْإِنُّ وَالسَّلْوَى عَنْهُمْ يَوْمَ مَا غِهَاذَا يَفْعَلُونَ ؟

لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ حَقًّا لَقَالُوا : إِنْ الَّذِي رَزَقَنَا بِالْإِنِّ وَالسَّلْوَى لَنْ يَضِيعَنَا .. وَلَكِنْ الْحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ يَنْزِلُ لَهُمْ طَعَامُهُمْ يَوْمَئِذٍ مِنَ السَّاءِ وَهُمْ بِدَلَا مِنْ أَنْ يَقَابِلُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ بِالشُّكْرِ قَابِلُوهُمَا بِالْجُحُودِ .

وَقَوْلُهُ نَعَالَى : «وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» فَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَتَحَدَّثُ لِلْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ عَنْ ظَلَمِ قَوْمِ مُوسَى .. فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى قَالَ «وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ» . وَفِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ قَالَ : «ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ» .. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ : «وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» ..

وَلَقَدْ سَبَقَ أَنْ قُلْتُ أَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَظْلِمَ اللَّهَ لِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَاقٍ بِقُدْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ .. لَا يَقْلِلُ مِنْهَا لَوْ كَفَرَ أَهْلُ الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلَا يَزِيدُ فِيهَا لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ . فَقُدْرَةُ اللَّهِ بَاقِيَةٌ وَكَلِمَتُهُ مَاضِيَةٌ .. وَلَكِنْ نَحْنُ الَّذِينَ نَظْلِمُ أَنْفُسَنَا .. بِأَنْ نُوْرِدَهَا مَوْرِدَ التَّهْلُكَةِ وَالْعَذَابِ الَّذِي لَا نَجَاةَ مِنْهُ دُونَ أَنْ نَعْمِيَهَا شَيْئًا ..

إِنْ الدُّنْيَا كَمَا قُلْنَا عَالَمُ أَغْيَارٍ . وَالنِّعْمَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا زَائِلَةٌ عَنْكَ . إِمَّا أَنْ تَتْرَكَهَا بِالْمَوْتِ أَوْ تَتْرَكَكَ هِيَ وَتَزُولَ عَنْكَ .. وَتَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا تَحْمِلُ أَعْمَالَكَ فَقَطْ .. كُلُّ شَيْءٍ زَالٍ وَيَقِيتُ ذُنُوبَكَ تَحْمِلُهَا إِلَى الْآخِرَةِ .. وَلِذَلِكَ فَإِنْ كَلَّ مِنْ عَصِي اللَّهِ وَتَمَرَّدَ عَلَى دِينِهِ قَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لِأَنَّهُ قَادَهَا إِلَى الْعَذَابِ الْأَبَدِيِّ طَمَعًا فِي نَفْوَذِ أَوْ مَالٍ زَالٍ بَعْدَ قِطْرَةٍ قَصِيرَةٍ وَلَمْ يَدُمْ .. فَكَأَنَّهُ ظَلَمَهَا بِأَنْ حَرَمَهَا مِنْ نَعِيمِ أَبَدِيٍّ وَاعْطَاهَا شَهْوَةً قَصِيرَةً عَاجِلَةً .



﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ
وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾

من هذه الآية الكريمة نعرف أن بنى اسرائيل رفضوا رزق السماء من المن والسلوى مع أنه كان رزقا عاليا .. عاليا في الجودة لأنه طعام حلونقى شهى ينزل لهم من السماء مباشرة ، وعاليا في الكثرة من أنه كان يأتيهم بلا عمل وبلا تعب وبكميات هائلة تكفيهم وتزيد .. وطلبوا من موسى طعام الأرض الذى يزرعونه بأيديهم ويرونه أمامهم كل يوم فقد كانوا يخافون أن يستنفذوا يوما فلا يجدون المن والسلوى . الحق سبحانه وتعالى يكمل لنا القصة في آية قادمة :

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ
الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَاقِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا أَلَا أَنْتَبِلُونَ أَلَّذِي هُوَ أَذِنُ
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمَا بِمَصْرًا فَمِنْ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

قالله سبحانه وتعالى مازال يمتن على بنى اسرائيل بنعمه وكيف قابلوها بالجحود .. فيذكرهم بإنجائهم من عذاب آل فرعون .. ويذكرهم بالبحر الذى انشق لهم فمشوا فيه ثم انقضى الماء بعد ذلك على آل فرعون فأغرقهم .. ويذكرهم كيف أنهم عبدوا العجل بعد ذلك .. وكان من الممكن أن يهلكهم الله بذنوبهم .. كما أهلك الأمم السابقة ولكنه عفا عنهم .. ثم يذكرهم بفضلهم عليهم بأن أعطاهم الكتاب الذى يفرق بين الحق والباطل .. ويذكرهم بأنهم طلبوا أن يروا الله جهرة .. فصعدوا وماتوا ثم بعثهم الله . ويذكرهم كيف ظللهم بالغمام

من حرارة الشمس المحرقة .. ورزقهم بالحن والسلوى .. ثم يذكرهم بأنهم طلبوا طعام الأرض فاستجاب لهم .

في هذه الآية يقول الحق تبارك وتعالى : « فكلوا منها حيث شئتم رغدا » . وفي آية أخرى يقول : « رغدا حيث شئتم » . الفرق في المعنى أن قوله تعالى : « حيث شئتم رغدا » تدل على أن هناك أصنافاً كثيرة من الطعام . و« رغداً حيث شئتم » يكون هناك صنف واحد والناس جاثعون فيقبلون على الطعام .. عندما يقول الحق جل جلاله : « كلوا رغداً يكون المخاطب هنا نوعين : إنسان غير جائع ولذلك تعد له ألواناً متعددة من الطعام لتفريه على الأكل .. فتقدم في هذه الحالة « حيث شئتم » فيقال : « فكلوا منها حيث شئتم رغداً .. فإذا كان الإنسان جوعان يرضى بأى طعام .. فيقال رغداً حيث شئتم » .

إن المسألة في القرآن الكريم ليست تقدماً وتأخيراً في الألفاظ .. ولكن المعنى لا يستقيم بدون هذا التغيير .. قوله تعالى « ادخلوا هذه القرية » .. والقرية هي هنا بيت المقدس أو فلسطين أو الأردن .. الحق تبارك وتعالى يقول : « وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين » ..

والحق جل جلاله حين خاطبهم بين لنا أنهم لم يكونوا في حالة جوع شديد بحيث يأكلون أى شيء فقال : « فكلوا منها حيث شئتم رغداً أى ستجدون فيها ألواناً كثيرة من الطعام تغريكم على الأكل ولو لم تكونوا جائعين .. وقوله تعالى : « وادخلوا الباب سجداً » .. أى ادخلوا الباب وأنتم في منتهى الخضوع .. « وقولوا حطة » أى حط عنا ذنوبنا يارب .. غير أنهم حتى في الأمر يغيرون مضمونه .. ويلبسون الحق بالباطل .. وهذه خاصية فيهم .. ولذلك دخلوا الباب وهم غير ساجدين .. دخلوه زاحقين على ظهورهم .. مع أن ما أمرهم الله به أقل مشقة مما فعلوه .. فكان المخالفة لم تأت من أن أوامر الله شاقة .. ولكنها أتت من الرغبة في مخالفة أمر الخالق وبدلاً من أن يقولوا حطة . أى حط عنا يارب ذنوبنا قالوا حطة والحطة هي القمع .. ليطوعوا اللفظ لأغراضهم .. فكان المسألة ليست عدم قدرة على الطاعة ولكن رغبة في المخالفة .

ومع ان الحق تبارك وتعالى وعدهم بالمغفرة والرحمة والزيادة للمحسنين ..

فإنهم خالفوا وعصوا . . وقوله تعالى : «وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» يأتي في الآية الكريمة :

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

(من الآية ٢٦ سورة يونس)

أي لهم اجر مثل ما فعلوا أضعافاً مضاعفة . . وما هي الزيادة ؟
أن يروا الله يوم القيامة . هذه هي الزيادة التي ليس لها نظير في الدنيا .



﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٨﴾﴾

الله سبحانه وتعالى يشرح لنا في هذه الآية الكريمة كيف أن اليهود قوم معصية رغم نعم الله عليهم .. فلما أن الله سبحانه وتعالى كلفهم تكليفا لم يستطيعوه ، لأنه شاق عليهم فربما كان لهم عذرهم .. ولكن الله تبارك وتعالى لا يكلف إلا بما هو في طاقة الانسان أو أقل منها .. فيقول جل جلاله :

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴿٢٨٦﴾﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

والله تبارك وتعالى لم يكلف بني اسرائيل بأن يدخلوا هذه القرية التي يقال: إنها القدس ويقال أنها قرية في فلسطين أو قرية في الاردن .. إلا بناء على طلبهم هم . فهم الذين طلبوا من موسى أن يدعو الله لهم أن يدخلوا واديا فيه زرع .. ليأكلوا مما تنتج الأرض ويعلمتوا على طعامهم .. لأنهم يخافون أن يأتي يوم .. لا ينزل عليهم المن والسلوى من السماء .. فلما استجاب الله لدعواهم وقال لهم ادخلوا الباب خاشعين . وقولوا يارب حط عنا ذنوبنا .. بدل بنو اسرائيل القول فبدلا من أن يقولوا حطوا حطوا .. وبدلوا طريقة الدخول فبدلا من أن يدخلوا ساجدين دخلوا على ظهورهم زاحفين .. وكان هذا رغبة في المخالفة .. فأصابهم الله بعداب من السماء بما كانوا يفسقون .. أى يتعتلون عن منيح الله ولا يطبقونه . رغبة في المخالفة وإصرارا على العناد .

﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۚ﴾ ﴿٦٠﴾

ومعناها : اذكر اذا استسقى موسى لقومه . . وهذه وردت كما بينا في عدة آيات في قوله تعالى :

﴿وَإِذْ أَخْبَرْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ أَنَّهُمْ يُسُوءُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ ۚ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الاعراف)

وقول سبحانه :

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ﴾

(من الآية ٥١ سورة البقرة)

وقوله جل جلاله :

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّ نُؤْمِنُ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً ۚ﴾

(من الآية ٥٥ سورة البقرة)

وقلنا ان هذه كلها نعم امتن الله بها على بنى اسرائيل وهو سبحانه وتعالى يذكرهم بها . إما مباشرة وإما على لسان موسى عليه السلام . والحق يريد أن يذكر بنى اسرائيل حينما تاهوا في الصحراء أنه أظلمهم بالغمام . . وسقاهم حين

طلبوا السقيا . . ولقد وصلت نذرة الماء عند بني اسرائيل لدرجة أنهم لم يجدوا ما يشربونه . . لأن الانسان يبدأ الجفاف عنده لعدم وجود ماء يسقى به زرعه . . ثم يقل الماء فلا يجد ما يسقى به أنعامه . . ثم يقل الماء فلا يجد ما يشربه . . وهذا هو قمة الجفاف أو الجذب . .

وموسى عليه السلام طلب السقيا من الله تبارك وتعالى . . ولا تطلب السقيا من الله إلا إذا كانت الأسباب قد نفذت . . وانتهت آخر نقطة من الماء عندهم ، فلما مصدر الحياة ينزله الله من السماء . . وينزله نقيا طاهرا صالحا للشرب والرى والزرع وسقيا الأنعام . .

والحق سبحانه وتعالى جعل ثلاثة أرباع الأرض ماء والربع يابسا . . حتى تكون مساحة سطح الماء المعرضة للتبخّر بواسطة اشعة الشمس كبيرة جدا فتسهل عملية البحر ، فانك اذا جثت بكوب ماء وتركته في حجرة مغلقة لمدة يومين أو ثلاثة . . ثم عدت تجدته ناقصا قيراطا أو قيراطين . . ولكن إذا أمسكت ما في الكوب من ماء وألقيته على أرض الحجرة . . فإنه يجف قبل أن تغادرها . . لماذا ؟ . . لأن مساحة سطح الماء هنا كبيرة . . ولذلك يتم البحر بسرعة ولا يستغرق وقتا .

هذه هي النظرية نفسها التي تتم في الكون . الله تبارك وتعالى جعل سطح الماء ثلاثة أرباع الأرض ليم البحر في سرعة وسهولة . . فيتكون السحاب وينزل المطر ناعداً من محتاج اليه ، والباقي يكون يتابع في الأرض ، مصداقاً لقوله تبارك وتعالى :

﴿ اَرْزَأْنَا اللهَ اَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَلَنُكْمِّرَ بَنِيَعٍ فِي الْاَرْضِ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الزمر)

هذه النيايح تذهب الى أماكن لا يصلها المطر . ليشرب منها الناس بما نُسَميه الأبار أو المياه الجوفية . . وتشرب منها انعامهم . . فإذا حدث جفاف يخرج الناس رجلاً ونساء وصبيانا وشيوخا . يتضرعون الى الله ليمطرهم بالماء . . ونحن اذا توسلنا بأطفالنا الرضع وبالفقهاء بمطرنا الله .

وبعض الناس يقولون ان المطر ينزل بقوانين علمية ثابتة .. يصعد البخار من البحار ويصبح سحباً في طبقات الجو العليا ثم ينزل مطراً .. تلك هي القوانين الثابتة لتزوله .

وأن السحاب لابد أن يكون ارتفاعه عدد كذا من الأمطار .. ليصل الى برودة الجو التي تجعله ينزل مطراً . ولا بد أن يكون السحاب ملقحاً .. نقول ان هذا كله مرتبط بتغيرات . فالرياح تهب أولاً تهب . وتحمل السحاب الى منطقة عالية باردة ولا تحمله وغير ذلك ..

إذن فكل ثابت معمول على متغير .. قد تعرف أنت القوانين الثابتة .. ولكن القوانين المتغيرة لا يمكن أن تتنبأ بما ستعمل ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَالرَّاسِخُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَا يَقِينُ لَهُمْ مَاءٌ غَدَقًا ۖ ﴾ (١٦)

(سورة الجن)

إذن فعوامل سقوط المطر لا تخضع لقوانين ثابتة . ولكن المتغير هو العامل الخامس . ليسوق السحاب الى المناطق الباردة والى الارتفاع المطلوب .. ولا بد أن ننته الى ان هناك قوانين ثابتة في الكون وقوانين تتغير .. وأن القانون المتغير هو الذي يحدث التغير .

وقوله تعالى : «وإذ استقى موسى لقومه» .. تدل على أن هناك مُستقى يفتح القاف وأن هناك مستقى بكسر القاف .. مستقى بكسر القاف أى صارع الى الله لينزل المطر .. أما المستقى يفتح القاف فهو الله سبحانه وتعالى الذي ينزل المطر ..

إن هذا الموقف خاص بالله تبارك وتعالى فلا توجد نماذج للمياه وليس هناك ماء في الأرض .. من أنهار أو آبار أو عيون ولا ملجأ إلا الله .. فلا بد من التوسل لله تبارك وتعالى :

عن أنس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه فقال : اللهم إنا كنا نتوسل اليك

بنينا صلى الله عليه وسلم فتسقين ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال :
فُسُقُونَ^(١)

بعض الناس يقولون هذا دليل على أن الميت لا يستعان به . . بدليل أن عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه لم يتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته ،
وإنما توسل بعم رسول الله . . نقول وبمن توسل عمر ؟ . . أتوسل بالعباس أم
بعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . . توسل بالرسول ، وبذلك أخذنا الحجة
أن الوسيلة ليست مقصورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وإنما تتعدى إلى
أقاربه . .

وهنا يأتي سؤال لماذا نقل الأمر من رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى عم
الرسول ؟ . . نقول لأن رسول الله قد انتقل ولا يتنفع الآن بالماء . . ولكن عمه
العباس هو الخى الذى يتنفع بالماء . . لذلك كان التوسل بعم رسول الله صلى الله
عليه وسلم . ولم يكن منطقياً أن يتوسلوا برسول الله عليه الصلاة والسلام وهو
ميت لا يحتاج إلى الماء . . والذين أرادوا أن يأخذوا التوسل بذوى الجاه . . نقول
لهم أن الحديث ضدكم وليس معكم . . لأنه أثبت أن التوسل جائز بمن يتنسب
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لا بد أن نتحدث كيف أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن قابل بنو إسرائيل النعمة
بالجود والكران فكيف يسفيهم ؟ . . نقول إنها النبوة الرحيمة التى كانت
السبب في تنزل الرحمة تلو الرحمة على بنى إسرائيل . . وكان طمع موسى في رحمة
الله بلا حدود . . ولذلك فإن الدعوات كانت تتوالى من موسى عليه السلام
لقومه . . وكانت الاستجابة من الله تأن .

كان من المفروض لاستكمال المعنى أن يقال وإذا استسقى موسى ربه لقومه فقال
يارب اسقهم . . ولكن هذه لم تأت حذف وجاء بعدها الإجابة : وإذا استسقى
موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر . . إذن قوله يارب اسق قومي
واستجابة الله له محدوفة لأنها مفهومة . . ولذلك جاء القرآن باللفظات الأساسية
وترك اللفظات المفهومة للكاه الناس . . تماماً كما جاء في سورة النمل: المهدهد ذهب
ورأى ملكة بلفيس وعرشها . وعاد إلى سليمان وأخبره . فطلب سليمان من المهدهد

أن يلقى الى ملكة سبأ وقومها كتابا وقال :

﴿ أَذَقَبَ يَكْتَنِي هَذَا فَأَقَهَ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ ١٥
بَنَائِبَا الْمَلَكُوتِ إِنَّ أَلْفَى إِلَى كَتَبَ كَرِيمُ ١٦ ﴿

(سورة النمل)

فلسطين أمر الهدهد أن يلقى كتابا الى بلقيس وقومها .. والآية التي بعدها جاءت بقوله تعالى : **قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ** كل التفاصيل حذفت من أن الهدهد أخذ الكتاب وطار الى ملكة سبأ وألقى الكتاب أمام عرشها .. والتفتت بلقيس ملكة سبأ الكتاب وقرأته .. ودعت قومها وبدأت تروى اليهم قصة الكتاب .. كل هذا حُذف لأنه مفهوم .

قال موسى يارب اسق قومي .. والله سبحانه وتعالى قال له: إن أردت الماء لقومك .. كل هذا محذوف .. وثاني الآية الكريمة : **وَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ** .

واضرب بعصاك الحجر لئلا معها وقفة .. الانسان حين يستسقى الله .. يطلب منه أن ينزل عليه مطرا من السماء ، والحق تبارك وتعالى كان قادرا على أن ينزل على بني اسرائيل مطرا من السماء . ولكن الله جل جلاله أراد المعجزة .. فقال **سَامِعْكُمْ بَعْدَ وَلَكِنْ مِنْ جَنَسٍ مَا مَنَعَكُمْ الْمَاءَ وَهُوَ الْحَجَرُ الْمَوْجُودُ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ ..** لن أعطيكم ماء من السماء .. ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يرى بني اسرائيل مدى الإعجاز .. فأعطاهم الماء من الحجر الذي تحت أرجلهم .

ولكن من الذي يتأثر بالضرب : الحجر أم العصا ؟ .. العصا هي التي تتأثر وتتحطم والحجر لا يحدث فيه شيء .. ولكن الله سبحانه وتعالى أراد بضربة واحدة من العصا أن ينفلق الحجر .. ولذلك يقول الشاعر :

أَيَا هَازِئًا مِنْ صَنُوفِ الْقَدَرِ

بِنَفْسِكَ تَعْنَفُ لَا بِالْقَدَرِ

وَيَا ضَارِبَا صَخْرَةً بِالعَصَا

ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الْحَجَرَ

إن انفجار الماء من ضربة العصا دليل على أن العصا أشارت فقط الى الصخرة فتفجر منها الماء .. وحتى لو كانت العصا من حديد .. هل تكون قادرة على ان تجعل الماء ينبع من الحجر ؟

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا الى أنه كان من الممكن أن ينزل الماء من السماء .. ولكن الله أرادها نعمة مركبة .. ليعلموا أنه يستطيع أن يأتى بالماء من الحجر الصلب .. وأن ينبع الماء من متعلقات «كن» .

هنا لابد أن ننظر الى تعنت بنى اسرائيل. قالوا لموسى هب أنا في مكان لا حجر فيه . من أين ينبع الماء ؟ .. لابد أن تأخذ معنا الحجر حتى اذا عطشنا نضرب الحجر بالعصا .. ونسوا أن هناك ما يتم بالأسباب وما يتم بكلمة «كن» .. ولذلك نحمد مثلاً كبار الأطباء يختارون في علاج مريض .. ثم يشفى على يد طبيب ناشئ حديث التخرج .. هل هذا الطبيب الناشئ يعرف أكثر من أساتذته الذين علموه ؟ .. الجواب طبعا لا .

إن التلميذ لا يتفوق على استاذة الذي علمه فليس العلاج بالأسباب وحدها ولكن بقدرة المسبب .. ولذلك جاء موعد الشفاء على يد هذا الطبيب الناشئ .. فكشف الله له الداء وألهمه الدواء .

يقول الحق سبحانه وتعالى : «فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا» لماذا اثنتا عشرة عينا . لأن اليهود كانوا يعيشون حياة انزاع . كل مجموعة منهم كانت تسمى «سبطا» لها شيخ مثل شيخ القبيلة .. والحق تبارك وتعالى يقول : «قد علم كل أناس مشربهم» أى كل سبط أو مجموعة ذهب لمشرب .. نبعث العيون من الحجر وامتدت متشعبة الى الأسباط جميعا كل في مكانه .. فإذا ما أخذوا حاجتهم ضرب موسى الحجر فيجف . ولذلك نعرف أن الحجر كان يعطيهم الماء على قدر الحاجة وكانت الجهة السفلى من الحجر الملاصقة للأرض .. والجهة العليا التي ضرب عليها بالعصا لم ينبع منها شيء ، أما باقى الجهات الأربع فقد ينبع منها كل منها ثلاثة ينابيع .

وهناك شيء في اللغة يسمونه اللفظ المشترك .. وهو الذى يستخدم في معانٍ متعددة .. فإذا قلت سفى القوم دوابهم من العين .. العين هنا عين الماء .. وإذا قلت أرسل الأمير عيونته في المدينة يعنى أرسل جنوده .. وإذا قلت اشتريته

يعين أى يذهب . . وإذا قلت نظر الى بعينه شذرا أى يبصره . . إذن كلمة عين تستخدم في أشياء متعددة . . ومعناها هنا عين الماء الجارية .

قوله تعالى : «قد علم كل أناس مشربهم» أى أن كل سبط عرف مكانه الذى يلزمه . . حتى لا يضيع من كل منهم الماء . . ولكن الانسان حينما يكون مضطرا يلزم بما يطلبه الله منه ويكون ملتزما بالاداء ، فإذا فرج الله كربته وعادت اليه النعمة يعود الى طغيانه . . ولذلك يقول الحق جل جلاله فيها : «كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين» أى لا يكون شكركم على النعمة بالافساد في الأرض . . واقرأ قوله تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَاءٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلٌّ مِنْ رَزْقِ رَبِّكَ
وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ بَلَدًا عَلَيْهِ رَزْبٌ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ
وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَفْجٍ وَاتِّلٍ وَشَقِئٌ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

(سورة نبا)

هنا نرى أن أهل سبأ رزقهم الله فأعرضوا عن شكره . . كانوا يتيهون بالسد الذى يحفظ لهم مياه الأمطار . . ويمدحهم بما يحتاجون إليه منها طوال العام ، وانخلوا يتفخرون بعلمهم ونسوا الله الذى علمهم . . فكان هذا السد هو النكبة أو الكارثة التى أهلكت زرعهم . . كذلك حدث لبني اسرائيل ، قيل لهم : «كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين» فانفسدوا في الأرض ونسوا نعمة الله فنزل بهم العذاب .



وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَّىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْمِرُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِي مِنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

هذه الآية الكريمة أيضا من آيات التذكير بنعم الله سبحانه وتعالى على موسى وعلى بني إسرائيل . . وكنا قد تعرضنا لمعنى طعام واحد عند ذكر المن والسلوى . . وقلنا أن تكرار نزول المن والسلوى كل يوم جعل الطعام لونا واحدا . . وكلمة واحد هي أول العدد . . فإذا انضم إليه مثله يصير اثنين . . وإذا انضم إليه مثله يصبح ثلاثة . . إذن فأصل العدد هو الواحد . . والواحد يدل على وحدة الفرد ولا يدل على وحدانية . . فإذا قلنا الله واحد فإن ذلك يعنى أنه ليس كمثله أحد . . ولكنه لا يعنى أنه ليس مكونا من أجزاء . . فأنت لست واحدا ولست أحدا لأنك مكون من أجزاء . . كما أن هناك من يشبهونك . . والشمس فى مجموعتنا واحدة ولكنها ليست أحدا لأنها مكونة من أجزاء وتتفاعل . . والله سبحانه وتعالى واحد ليس كمثله شيء . . وأحد ليس مكونا من أجزاء . . ولذلك من أسمائه الحسنى الواحد الأحد . . ولا نقول أن الاسم مكرور فهذه تعنى الفردية ، وهذه تنفى التجزئة .

وقوله تعالى : « لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ » . . نلاحظ هنا أن الطعام وُصف بأنه واحد رغم أنه مكون من صنفين هما المن والسلوى . . ولكنه واحد لرتابة نزوله . . الطعام كان يأتيهم من السماء . . ولكن تمنعهم مع الله جعلهم لا يصبرون عليه فقالوا ما يدرينا لعله لا يأتى . . نريد طعاما نزرعه بأيدينا ويكون طوال الوقت أمام عيوننا . . وكان هذه المعجزات كلها ليست كافية . . لنعطهم الثقة فى استمرار رزق الله . . إنهم يريدون أن يروا . . ألم يقولوا لموسى : « أرنا الله جهرة » . .

.. ماذا طلبوا ؟ .. قالوا : « فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض » .. « ادع لنا ربك » أى اطلب من الله .. ولأن الدعاء لون من الطلب فإنك حين تتوجه إلى الله طالباً أن يعطيك .. فإنك تدعو بذلك الداعي أمام عزة المدعو .. والطلب إن كان من أدنى إلى أعلى قبل دعاء .. ومن مساوٍ إلى مساوٍ قبل طلب .. ومن أعلى إلى أدنى قبل أمر ..

لقد طلب بنو إسرائيل من موسى أن يدعو الله سبحانه وتعالى أن يخرج لهم أطعمة مما تنبت الأرض .. وعددوا ألوان الأطعمة المطلوبة .. وقالوا : « ومن بقلها وقثائها وقومها وعدسها وبصلها » .. ولكنها كلها أصناف تدل على أن من يأكلها هم من صنف العبيد .. والمعروف أن آل فرعون إستعبدوا بنى إسرائيل .. ويبدو أن بنى إسرائيل أحبوا حياة العبودية واستطعموها ..

الحق تبارك وتعالى كان يريد أن يرفع قدرهم فتزل عليهم المن والسلوى .. ولكنهم فضلوا طعام العبيد .. والبقل ليس مقصوداً به البقول فحسب .. ولكنه كل نبات لا ساق له مثل الخس والفجل والكراث والجرجير .. والقثاء هو القثه صنف من الحيار .. والفوم هو القمح أو الثوم .. والعنبر والبصل معروفان .. والله سبحانه وتعالى قبل أن يبيهم أراد أن يؤنبهم : فقال « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » ..

عندما نسمع كلمة استبدال فاعلم أن الباء تدخل على المترك .. تقول إشتريت الثوب بدهم .. يكون معنى ذلك إنك أخذت الثوب وتركته الدهم ..

قوله تعالى : « الذى هو أدنى بالذى هو خير » .. أى انهم تركوا الذى هو خير وهو المن والسلوى .. وأدخلوا الذى هو أدنى .. والدنو هنا لا يعنى الدناءة .. لأن ما تنتجه الأرض من نعم الله لا يمكن أن يوصف بالدناءة .. ولكن الله تبارك وتعالى يخلق بالأسباب ويخلق بالأثر المباشر .. ما يخلق الله بالأمر المباشر منه بكلمة « كن » .. يكون خيراً مما جاء بالأسباب .. لأن الخلق المباشر لا صفة لك فيه .. عطاء خالص من الله .. أما الخلق بالأسباب فقد يكون لك دور فيه .. كان تحرث الأرض أو تذر البذور .. ما جاء خالصاً من الله بدون أسبابك يقترب

من عطاء الآخرة التي يعطي الله فيها بلا أسباب ولكن بكلمة « كن » . . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ إِنَّا مَآمِنَةٌ بِهِمْ أَزْوَاجَتُهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾

(سورة طه)

فالله تبارك وتعالى يصف رزق الدنيا بأنه فتنة . . ويصف رزق الآخرة بأنه خير منه . . مع أن رزق الدنيا والآخرة ، وكل رزق في هذا الوجود حتى الرزق الحرام هو من الله جل جلاله . . فلا رازق إلا الله ولكن الذي يجعل الرزق حراما هو استعجال الناس عليه فيأخذونه بطريق حرام . . ولو صبروا لجاءهم حلالا . . نقول إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يرزق . . ولكنه سمي رزقا فتنة وسمى رزقا خيرا منه . . ذلك أن الرزق من الله بدون أسباب أعمل وأفضل منزلة من الرزق الذي يتم بالأسباب . .

إذن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير » . . يكون المعنى أتستبدلون الذي هو رزق مباشر من الله تبارك وتعالى . . وهو المن والسلوى بأنبيكم « يكن » قريب من رزق الآخرة بما هو أقل منه درجة وهو رزق الأسباب في الدنيا . . ولم يجب بنو إسرائيل على هذا التأنيب . . وقال لهم الحق سبحانه وتعالى : « اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم » . . ولا يقال لهم ذلك إلا لأنهم أصرروا على الطلب برغم أن الحق جل جلاله بين لهم أن ما ينزلهم إليهم خير مما يطلبونه . .

نلاحظ هنا أن مصر جاءت منونة . . ولكن كلمة مصر حين ترد في القرآن الكريم لا ترد منونة . . ومن شرف مصر أنها ذكرت أكثر من مرة في القرآن الكريم . . نلاحظ أن مصر حينها يقصد بها وادي النيل لا تاق أبدا منونة وإقرأ قوله تعالى :

﴿ تَبَوَّءُوا لِقَوْمِكُمْ مِصْرَ يُونُسَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة يونس)

وقوله جل جلاله :

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾

(من الآية ٥١ سورة الزخرف)

وقوله سبحانه :

﴿ وَقَالَ آلِئِدَى اشْتَرْتَنِي مِن مِّصْرَ لَأَمْرَأَةٍ أَكْرِمِي مَثْوَنَهُ ﴾

(من الآية ٢١ سورة يوسف)

وقوله تبارك وتعالى :

﴿ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾

(من الآية ٩٩ سورة يوسف)

كلمة مصر ذكرت في الآيات الأربع السابقة بغير تنوين . . ولكن في الآية التي نحن بصدددها : « اهبطوا مصرا » بالتنوين . . هل مصر هذه هي مصر الواردة في الآيات المشار إليها ؟ . . نقول لا . . لأن الشيء المنوع من الصرف للعلمية والتأنيث . . إذا كان لبقعة أو مكان . . مرة تلحظ أنه بقعة فيبقى مؤنثا . . ومرة تلحظ أنه مكان فيكون مذكرا . . فإن كان بقعة فهو علم ممنوع من الصرف . . وإن كان مكانا تكون فيه علمية وليس فيه تأنيث . . ومرة تكون هناك علمية وأهمية ولكن الله صرفها في القرآن الكريم . . كلمات نوح ولوط وشعيب وعهد وهود . .

كل هذه الأسماء كان مقروضا أن تمنع من الصرف ولكنها صرفت . . فقبل في القرآن الكريم نوحا ولوطا وشعيبا وعهدا وهودا . . إذن فهل من الممكن أن تكون مصر التي جاءت في قوله تعالى : « اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم » هي مصر التي عاشوا فيها وسط حكم فرعون . . قوله تعالى : « اهبطوا مصرا » من

الممكن أن يكون المعنى أى مصر من الأمصار .. ومن الممكن أن تكون مصر التى عاش فيها فرعون .. وكلمة مصر تطلق على كل مكان له مفتى وأمير وقاض .. وهى مأخوذة من الانقطاع .. لأنه مكان يقطع إمتداد الأرض الحلاء .. ولكن الثابت فى القرآن الكريم .. ان مصر التى لم تنون هى علم على مصر التى نعيش فيها .. أما مصرًا التى خضعت للتونين فهى تعنى كل وادٍ فيه زرع ..

وقوله تعالى : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة » .. الذلة هى المشقة التى تؤدى إلى الإنكسار .. ويمكن أن ترفع عنك بأن تكون فى حمى غيرك فيعزك بأن يقول إنك فى حماه .. والله سبحانه وتعالى يقول عن بنى إسرائيل :

﴿ ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ أَيْنَ مَا تَفْقَهُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحُبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة آل عمران)

حبل من الله كما حدث عندما عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة .. وعاشوا فى حمى العهد .. إذن بحبل من الله أى على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو المؤمنين به .. وبحبل من الناس أى فى حماية دولة قوية كالولايات المتحدة الأمريكية .. إذا عاهدتهم عزوا وإن تركتهم ذلوا ..

وقوله تعالى : « وضربت عليهم الذلة » ضربت أى طبعت طبعة قوية بضربة قوية تجعل الكتابة بارزة على النقود .. ولذلك يقال ضربت فى مصر .. أى أعدت بضربة قوية أذلتهم وبقيت بارزة لا يستطيعون محوها .. أما المسكنة فهى إنكسار فى الهيئة .

أهل الكتاب كانوا يدفعون الجزية والجزية كانت تؤخذ من الأغنياء .. وكانوا يلبسون الملابس القذرة .. ويلقون فى موقف الذل والحزى حتى لا يدفعوا الجزية .

وقوله تعالى : « وباءوا بغضب من الله » .. أى غضب الله عليهم بذنوبهم وعصيانهم . حتى أصبح الغضب - من كثرة عصيانهم - كأنه سمة من سماتهم

لماذا ؟ : ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ، أى انهم كانوا يكفرون بالنعم ولا يشكرون . . ويكفرون بالآيات ويشترون بها ثمنا قليلا . . ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يقتلون أنبياء الله بغير حق . .

الأنبياء غير الرسل . . والأنبياء أسوة سلوكية ولكنهم لا يأتون بمنهج جديد . . أما الرسل فهم أنبياء بأنهم أسوة سلوكية ورسل لأنهم جاءوا بمنهج جديد . . ولذلك كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا . والله سبحانه وتعالى يعصم أنبياءه ورسله من الخطيئة . . ولكنه يعصم رسله من القتل فلا يقدر عليهم أعدائهم . . فمجيء الأنبياء ضرورة . . لأنهم نماذج سلوكية تسهل على الناس التزامهم بالمنهج ، وينو إسرائيل بعث الله لهم أنبياء ليقتلوا بهم فقتلوه . . لماذا ؟ . . لأنهم فضحوا كذبهم وفسقهم وعدم التزامهم بالمنهج . . ولذلك نجد الكافر والعاصي وغير الملتزم يغار ويكره الملتزم بمنهج الله . . ويحاول إزالته عن طريقه ولو بالقتل . . إذن فغضب الله عليهم من عصيانهم واعتدائهم على الأنبياء وما ارتكبه من آثام .



بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. أما في الآية التي في سورة الحج فقد زاد فيها : « المجوس والذين أشركوا » .. واختلف فيها الخبر .. فقال الله سبحانه وتعالى : « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » .

عندما خلق الله آدم وأنزله ليعمر الأرض أنزل معه الهدى .. وأقرأ قوله تعالى :

﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى لِّمَنِ آتَيْتُ هَذَا فَلَا يُضِلُّ وَلَا يَئِسْ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

مفروض أن آدم أبلغ النبي لأولاده .. وهؤلاء أبلغوه لأولادهم وهكذا .. وتشغل الناس الحياة وتطراً عليهم الغفلة .. ويصيبهم طمع الدنيا وجشعها ويتبعون شهواتهم .. فكان لابد من رحمة الله لخلقهم أن يأتي الرسل ليذكروا ويبلغوا ويشرحوا ..

الآية الكريمة تقول : « إن الذين آمنوا » .. أي إيمان الفطرة الذي نزل مع آدم إلى الأرض .. وبعد ذلك جاءت أديان كفر الناس بها فأبديوا من على الأرض .. كقوم نوح ولوط وفرعون وغيرهم .. وجاءت أديان لها أتباع حتى الآن كاليهودية والنصرانية والصابئة ، والله سبحانه وتعالى يريد أن يجمع كل ماسبق في رسالة عمده عليه الصلاة والسلام .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء لتصفية الوضع الإيماني في الأرض ..

إذن الذين آمنوا أولاً سواء مع آدم أو مع الرسل .. الذين جاءوا بعده لمعالجة الداءات التي وقعت .. ثم الذين تسموا باليهود والذين تسموا بالنصارى والذين تسموا بالصابئة .. فإله تبارك وتعالى يريد أن يبلغهم لقد انتهى كل هذا .. فمن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. فكان رسالته عليه الصلاة والسلام جاءت لتصفية كل الأديان السابقة .. وكل إنسان في الكون مطالب بأن يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام .. فقد دعى الناس كلهم إلى الإيمان برسالته .. ولم يبق إنسان من عهد آدم أو من عهد إدريس أو من

عهد نوح أو إبراهيم أو هود .. وأولئك الذين نسبوا إلى اليهودية وإلى النصرانية وإلى الصابئية .. كل هؤلاء مطالبون بالإيمان بمحمد صل الله عليه وسلم والتصديق بدين الاسلام .. فالاسلام يمسح العقائد السابقة في الأرض .. ويجعلها مركزة في دين واحد .. الذين آمنوا بهذا الدين : « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .. والذين لم يؤمنوا لهم خوف وعليهم حزن .. وهذا إعلان بوحدة دين جديد .. ينتظم فيه كل من في الأرض إلى أن تقوم الساعة .. أما أولئك الذين ظفروا على ما هم عليه .. ولم يؤمنوا بالدين الجديد .. لا يفصل الله بينهم إلا يوم القيامة .. ولذلك فإن الآية التي تضمنت الحساب والفصل يوم القيامة .. جاء فيها كل من لم يؤمن بدين محمد عليه الصلاة والسلام .. بما فيهم المجوس والذين أشركوا .

والحق تبارك وتعالى أراد أن يرفع الظن .. عن تبع دينا سبق الاسلام ويعني عليه بعد الاسلام .. وهو يظن أن هذا الدين نافعه .. نقول له أن الحق سبحانه وتعالى قد حسم هذه القضية في قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ظَنَّ يَقْبَلْ مِنْهُ ﴾

(من الآية ٨٥ سورة آل عمران)

وقوله جل جلاله :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾

(من الآية ١٩ سورة آل عمران)

إذن التصفية النهائية لمركب الإيمان والرسالات في الوجود حسمت .. فالذي آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام .. لا يخاف ولا يحزن يوم القيامة .. والذي لم يؤمن يقول الله تبارك وتعالى له « إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » .. إذن الذين آمنوا هم الذين ورثوا الإيمان من عهد آدم .. والذين هادوا هم أتباع موسى عليه السلام .. وجاء الإسم من قولهم : « إنا هدانا إليك » - أي هدانا إليك .. والنصارى جمع نصران وهم منسوبون إلى الناصرة البلدة التي ولد فيها عيسى عليه

السلام .. أو من قول الخواريين نحن أنصار الله في قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٥٦)

(سورة آل عمران)

أما الصابئة فقد اختلف العلماء فيهم .. قال بعضهم هم أتباع نوح ولكنهم غيروا بعده وعبدوا من دون الله الوسائط في الكون كالشمس والقمر والكواكب .. أو الصابئة هم الذين انتقلوا من الدين الذي كان يعاصرهم إلى الدين الجديد .. أو هم جماعة من العقلاء قالوا ما عليه قومنا لا يقنع العقل .. كيف نعيد هذه الأصنام ونحن نصنعها ونصلحها ؟ .. فامتنعوا عن عبادة أصنام العرب .. فقالوا عنهم إنهم صلبوا عن دين آبائهم .. أى تركوه وأمّنوا بالدين الجديد .. وأيا كان المراد بالصابئين فهم كل من مال عن دينه إلى دين آخر .

أنا نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى .. جاء بالصابئين في سورة البقرة متأخرة ومنصوبة .. وفي سورة المائدة متقدمة ومرفوعة .. نقول هذا الكلام، يدخل في قواعد النحو .. الآية تقول : « إن الذين آمنوا » .. نحن نعرف أن (إن) تنصب الاسم وترفع الخبر .. فالذين مبنى لأنه اسم موصول في محل نصب اسم لأن : « والذين هادوا » معطوف على الذين آمنوا يكون منصوباً أيضاً .. والنصارى معطوف أيضاً على اسم إن .. والصابئين معطوف أيضاً ومنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم ..

نأتى إلى قوله تعالى : « من آمن بالله واليوم الآخر » . هذه مستقيمة في سورة البقرة إعراباً وترتيباً .. والصابئين تأخرت عن النصارى لأنهم فرقة قليلة .. لا تمثل جبهة كثيرة كالنصارى .. ولكن في آية المائدة تقدمت الصابئون وبالرفع في قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا » .. الذين آمنوا اسم إن والذين هادوا معطوف .. وه الصابئون « كان القياس إعرابياً أن يقال والصابئين .. ويعدها النصارى معطوفة .. ولكن كلمة (الصابئون) توسعت بين اليهود وبين

النصارى .. وكسر إعرابها بشكل لا يقتضيه الظاهر .. وللمرب إذن مرهقة لغويا .. فمتى سمع الصابئين التي جاءت معطوفة على اسم إن تأتى بالرفع يلتفت لفئة قسرية ليعرف السبب ..

حين تولى أبا جعفر المنصور الخلافة .. وقف على المنبر ولحن لحنه أى أخطأ فى نطق كلمة .. وكان هناك إعرابى يجلس فأذنت أذنيه .. وأخطأ المنصور للمرة الثانية فحرك الإعرابى أذنيه باستغراب .. وعندما أخطأ للمرة الثالثة قام الإعرابى وقال .. أشهد أنك وليت هذا الأمر بقضاء وقدر .. أى أنك لا تستحق هذا .. هذا هو اللحن إذا سمعه العربى هز أذنيه .. فإذا جاء لفظ مرفوعا والمفروض أن يكون منصوبا .. فإن ذلك يجعله يتنبه أن الله له حكمة وعلة .. فما هى العلة ؟ ..

الذين آمنوا أمرهم مفهوم والذين هادوا أمرهم مفهوم والنصارى أمرهم مفهوم .. أما الصابئون فهؤلاء لم يكونوا تابعين لدين .. ولكنهم سلكوا طريقا مخالفا .. فجاءت هذه الآية لتلفتنا أن هذه التصفية تشمل الصابئين أيضا .. فقدمتها ورفعتها لتلفت إليها الأذان بقوة .. فانه سبحانه وتعالى يعطف الإيمان على العمل لذلك يقول تعالى : « آمن وعمل صالحا » .. لأن الإيمان إن لم يقترن بعمل فلا فائدة منه .. والله يريد الإيمان أن يسيطر على حركة الحياة بالعمل الصالح .. فيلمر كل مؤمن بصالح العمل وهؤلاء لا يخوف عليهم فى الدنيا ولا هم يجزونون فى الآخرة .



﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
مَاءَ آتَيْنَكُمْ بِقُوقٍ وَادُّرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ١٧٢

يَمُنُّ اللهُ سبحانه وتعالى مرة أخرى على بني إسرائيل بالنعم التي أنعم بها عليهم ويذكرهم بجحودهم بها .. ولكننا نلاحظ أن القرآن الكريم حينما يتكلم عن اليهود .. يتكلم عنهم بالحطاب المباشر .. فهل الذين عاصروا نزول القرآن وهم الذين أخذ الله تبارك وتعالى عليهم الميثاق .. هؤلاء غشطيون بمواد آبائهم وأجدادهم الذين عاصروا موسى عليه السلام .

نقول انه كان المطلوب من كل جد أو أب أن يبلغ ذريته ما انتهت إليه قضية الإيمان .. فحين يَمُنُّ اللهُ عليهم أنه أهلك أهل فرعون وأنقذهم .. يَمُنُّ عليهم لأنه أنقذ آبائهم من التذبيح .. ولولا أنه أنقذهم ما جاء هؤلاء اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. فهم كانوا مطمورين في ظهور آبائهم .. ولكي ينقذهم الله كان لا بد أن تستمر حلقة الحياة متصلة .. فمضى انتهت حياة الأب قبل أن يتزوج وينجب انتهت في اللحظة نفسها حياة ذريته .. الشيء نفسه ينطبق على قول الحق سبحانه وتعالى : « وَإِذَا اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ » .. إمتنان على اليهود المعاصرين لنزول القرآن .. لأنه سبحانه وتعالى لو لم ينقذ آبائهم من الموت عطشا لما توا بلا ذرية .

إذن كل إمتنان على اليهود في عهد موسى هو إمتنان على ذريته في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. والحق سبحانه وتعالى أخذ على اليهود الميثاق القديم .. ولولا هذا الميثاق ما آمنوا ولا آمنت ذريتهم .

وقوله تعالى : « وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ » .. أي إن الله تبارك وتعالى يذكرهم

بأنهم بعد أن نجوا وأغرق الله فرعون وقومه ذهب موسى ليلقات ربه ليتلقى عنه التوراة .. فعبد بنو إسرائيل العجل . وعندما عاد موسى بالتوراة وبالألواح .. وجدوا في تعاليمها مشقة عليهم .. وقالوا نحن لا نطبق هذا التكليف وفكروا ألا يلتزموا به . ألا يقبلوه .

التكليف هو من مكلف هو الله سبحانه وتعالى .. وهم يقولون إن الله كلّفهم ما لا يطيقون .. مع أن الله جل جلاله لا يكلف نفساً إلا وسعها .. هذا هو المبدأ الإيمان الذي وضعه الحق جل جلاله .. يظن بعض الناس أن معنى الآية الكريمة :

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

(من الآية ٢٨٦ . سورة قهقرة)

يظنون أننا نضع أنفسنا حكماً على تكليف الله .. فإن كنا نعتقد أننا نقدر على هذا التكليف نقلّاه من الله وإن كنا نعتقد أننا لا نقدر عليه بحكمتنا نحن .. نقلّ الله لم يكلفنا بهذا لأنه فوق طاقتنا .. ولكن الحكم الصحيح هل كلّفك الله بهذا الأمر أو لم يكلفك ؟ إن كان الله قد كلّفك فهو عليم بأن ذلك في وسعك ؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها .. ونحن نسمع الآن صيحات تقول أن العصر لم يعد يمتثل .. وإن ظروف الدنيا وسرعة الحركة فيها وسرعة الأحداث هي تبرير أنه ليس في وسعنا أن نؤدي بعض التكاليّف .. ربما كان هذا التكليف في الوسع في الماضي عندما كانت الحياة بسيطة وحركتها بطيئة ومشكلاتها محدودة .

نقول لمن يردّد هذا الكلام : إن الذي كلّفك قدماً هو الله سبحانه وتعالى-إنه يعلم أنه في وسعك أن تؤدي التكليف وقت نزوله .. وبعد آلاف السنين من نزوله وحتى قيام الساعة .. والدليل على ذلك أن هناك من يقوم بالتكليف ويتطوع بأكثر منه ليدخل في باب الإحسان ؛ فهناك من يصلي الفروض وهي التكليف .. وهناك من يزيد عليها السنن .. وهناك من يقوم الليل .. فيظل يتقرب إلى الله تبارك وتعالى بالتطوع من جنس ما فرض .. وهناك من يصوم رمضان ومن يتطوع ويصوم أوائل الشهور العربية .. أو كل اثنين وخميس على

مدار العام أو في شهرى رجب وشعبان .. وهناك من يحج مرة ومن يحج مرات .. وهناك من يلتزم بحدود الزكاة ومن يتصدق بأكثر منها .

إذن كل التكاليف التى كلفنا الله بها في وسعنا وأقل من وسعنا .. ولا يقال ان العصر قد اختلف ، فنحن الذين نعيش هذا العصر .. بكل ما فيه من متغيرات نقوم بالتكاليف ونزيد عليها دون أى مشقة . والله سبحانه وتعالى رفع فوق بنى إسرائيل الطور رحمة بهم .. فاما كما يحسك الطبيب المشروط ليزيل صديدا تكون داخل الجسد .. لأن الجسد لا يصح بغير هذا .

لذلك عندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يصيب بفضل ورحمة بنى إسرائيل رغم أنوفهم .. رفع فوقهم جبل الطور الموجود في سيناء .. وقال لهم تقبلوا التكليف أو ألق علىكم الجبل .. فاما كما أهلك الله تبارك وتعالى الذين كفروا ورفضوا الإيمان وقاوموا الرسل الذين من قبلهم .. قد يقول البعض إن الله سبحانه وتعالى أرغم اليهود على تكليف وهو القاتل :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

(من الآية ٢٥٦ سورة البقرة)

وقوله تعالى :

﴿مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

نقول إن الله جل جلاله لم يرغم أحدا على التكليف .. ولكنه رحمة منه خيرهم بين التكليف وبين عذاب يصيبهم فيهلكهم .. وهذا العذاب هو أن يطعن عليهم جبل الطور .. إذن المسألة ليس فيها إيجاب ولكن فيها تغيير .. وقد خبر الذين من قبلهم بين الإيمان والهلاك فلم يصدقوا حتى أصابهم الهلاك .. ولكن حينما رأى بنو إسرائيل الجبل فوقهم تحسروا ساجدين على الأرض .. وسجدوا لهم دليل

عل أنهم قبلوا المنهج .. ولكنهم كانوا وهم ساجدون ينظرون إلى الجبل فونهم خشية أن يطبق عليهم .. ولذلك نجد سجد اليهود حتى اليوم على جهة من الوجه .. بينما الجهة الأخرى تنظر إلى أعلى وكان ذلك خوفا من أن يتنقص الجبل عليهم .. ولوسالت يهوديا لماذا تسجد بهذه الطريقة يقول لك أحمل التوراة وصتر متفصلا .. نقول انهم اهتزوا ساعة أن رفع الله جبل الطور فوقهم .. فكانوا في كل صلاة يأخذون الوضع نفسه ، والذين شهدوهم من أولادهم وفريتهم .. اعتقدوا انها شرط من شروط السجود عندهم .. ولذلك أصبح سجدوهم على جانب من الوجه .. ونظرهم إلى شيء أعلاهم يخافون منه .. أي أن الصورة التي حدثت لهم ساعة رفع جبل الطور لازالوا باقين عليها حتى الآن .

في هذه الآية الكريمة يقول الحق تبارك وتعالى : « وإذ رفعنا فوقكم الطور .. » وفي آية أخرى يقول المولى جل جلاله في نفس ما حدث :

﴿ وَإِذْ نَفَقْنَا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ فُوقَهُمْ كَاهَنَ ظُلَّةٍ وَجِئُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٥١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

« نفقنا » كأن الجبل وتد في الأرض ونريد أن نخلعه .. فنحركه بينا ويسارا حتى يمكن أن يخرج من الأرض .. هذه الحركة والزحزحة والجذب هي التقي .. والجبل كالولد تماما يحتاج إلى هز وزعزعة وجذب حتى يخرج من مكانه .. وهذه الصورة عندما حدثت خشعوا وسجدوا وتقبلوا المنهج .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « خذوا ما آتيناكم بقوة » .. الأخذ عادة مقابل للمعطاء .. أنت تأخذ من معطي .. والتكليف أخذ من الله حتى تعطى به حركة صلاح في الكون .. إذن كل أخذ لايد أن يأتي منه عطاء ، فانت تأخذ من الجبل الذي سبقك وتعطى للجبل الذي يليك .. ولكنك لا تعطيه كما هو ، ولكن لايد أن تصيف عليه . وهذه الإضافة هي التي تصنع الحضارات .

وقوله تعالى : « بقوة » .. أي لا تأخذوا التكليف بتخاذل .. والإنسان عادة

يأخذ بقوة ما هو نافع له .. ولذلك فطبيعة مناهج الله أن تؤخذ بقوة وبيقين ..
لتعطى خيرا كثيرا بقوة وبيقين .. وإذا أخذت منهج الله بقوة فقد التمتت عليه
وان صدرك قد انشرح وتريد أن تأخذ أكثر .. لذلك نجد في القرآن الكريم
يسألونك عن كذا .. دليل على أنهم عشقوا التكليف وعلموا أنه نافع فهم
يريدون زيادة النفع .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قال : « خذوا ما آتيناكم بقوة » .. فقد عشقوا
التكليف ولم يعد شاقا على أنفسهم .

وقوله تعالى : « واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » .. إذكروا ما فيه أى ما فى
المنهج وأنه يعالج كل قضايا الحياة واعرفوا حكم هذه القضايا .. « لعلكم
تتقون » أى تطيعون الله وتتقون عقابه وعذابه يوم القيامة .



﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١١)

بعد أن بين الحق تبارك وتعالى لنا كيف أمر اليهود بأن يتذكروا المنهج ولا ينسوه .. وكان مجرد تذكيرهم للمنهج يجعلهم يؤمنون بالإسلام ويرسل الله صلى الله عليه وسلم لأنه مكتوب عندهم في التوراه ومذكورة أوصافه .. ماذا فعل اليهود ؟

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ .. أَيْ أَعْرَضْتُمْ عَنْ مَنَهِجِ اللَّهِ وَنَسِيتُمُوهُ وَلَمْ تَلْتَمِسُوهُ إِلَيْهِ .. ﴾ ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين » ما هو الفضل وماهى الرحمة ؟ الفضل هو الزيادة عما تستحق .. يقال لك هذا حقك وهذا فضل منى أى زيادة على حقك ..

عن عائشة رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (سَدُّوا قُورَابِرُوا وَأَبْشَرُوا فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفَرَةٍ وَرَحْمَةٍ) (١) .

فإذا تساءلت كيف يتم هذا ؟ وكيف أنه لا أحد يدخل الجنة بعمله ؟ نقول نعم لأن عمل الدنيا كله لا يساوى نعمة من نعم الله على خلقه ؟ فأنت تذكر العمل ولم تذكر الفضل .. وكل من يدخل الجنة فيفضل الله سبحانه وتعالى .. حتى الشهداء الذين أعطوا حياتهم وهى كل ما يملكون فى هذه الدنيا .. يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم :

(١) « رِوَاةُ الْبُخَارِيِّ وَسَلَمَ وَاحِدٌ وَابْنُ مَاجَةَ وَالدَّارِمِيُّ » .

﴿فَرَحِمْنَاهُمْ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاسْتَشِيرُوا بِالَّذِينَ تَرَىٰ تَحْقُقُوا حَقَّهُمْ
أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٧٩﴾﴾

(سورة آل عمران)

فإذا كان هؤلاء الشهداء وهم في أعلى مراتب الجنة قد دخلوا الجنة بفضل
الله .. فما بالك بمن هم أقل منهم أجرا .. والله سبحانه وتعالى له فضل على
عباده جميعا .. وإقرأ قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨٠﴾﴾

(من الآية ٢٤٣ سورة البقرة)

أما الرحمة فهي التي فتحت طريق التوبة لغفران الذنوب. والله سبحانه وتعالى
يريد أن يلفتنا إلى أنه لولا هذا الفضل لبني إسرائيل .. ولولا أنه فتح لهم باب
الرحمة والمغفرة ليعودوا مرة أخرى إلى ميثاقهم ومنهجهم .. لولا هذا لكانوا من
الخاسرين الذين أصابهم خسار بين في الدنيا والآخرة .. ولكن الله تبارك
وتعالى بفضل منه ورحمة قد قادهم إلى الدين الذي حفظه الله سبحانه وتعالى
بقدرته من أي تحريف .. فرفع عنهم عبء حفظ الكتاب .. وما ينتج عن ذلك
من حمل ثقل في الدنيا .. ورحمهم برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله
رحمة للعالمين .. مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٣٨١﴾﴾

(سورة الأنبياء)

وأعطاهم فضل هذا الدين الخاتم الذي حسم قضية الإيمان في هذا الكون ..
ومع هذه الرحمة وهذا الفضل .. بأن نزل إليهم في التوراة أوصاف رسول الله
صلى الله عليه وسلم وموعده بعثه .. فتح لهم بابا حتى لا يصحوا من
الخاسرين .. ولكنهم تركوا هذا الباب كما تولوا عن دينهم .

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ٦٥

بعد أن بين الله جل جلاله لنا كيف أنه فتح باب الفضل والرحمة لليهود فتركوه .. أراد أن يبين لنا بعض الذي فعلوه في مخالفة أوامر الله والتحابل عليها .. والله تبارك وتعالى له أوامر في الدين وأوامر تتعلق بشئون الدنيا .. وهو لا يحب أن نأخذ أى أمر له يتعلق بالدين أو بالدنيا مأخذ عدم الجدد .. أو نفضل أمراً على أمر .. ولذلك نجد في سورة الجمعة مثلاً قول الحق تبارك وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّى الصَّلَاةَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ
ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ١ ﴿إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا
مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾

(سورة الجمعة)

هذان أمران أحدهما في الدين والثاني يتعلق بالدنيا .. وكلاهما من منهج الله .. فالله لا يريدك أن تتأخر وتعمل وقت الصلاة .. ولا أن تترك عملك بلا داع وتبقى في المسجد بعد الصلاة .. إذا تودى للصلاة فإلى المسجد .. وإذا قضيت الصلاة فإلى السعي للرزق .. وهناك يومان في الأسبوع ذكرا في القرآن بالإسم وهما يوما الجمعة والسبت .. بيئنا أيام الأسبوع سبعة ، خمسة أيام منها لم تذكر في القرآن بالإسم .. وهى الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس .. الجمعة هى عيد المسلمين الذى شرع فيه اجتماعهم في المساجد وأداء صلاة الجماعة .. ونلاحظ أن يوم الجمعة لم يأخذ اشتقاقه من العدد .. فأيام الأسبوع

نسبت إلى الأعداد فيها عدا الجمعة والسبت . لذلك تجد الأحد منسوب إلى واحد
والإثنين منسوب إلى اثنين .. والثلاثاء منسوب إلى ثلاثة والأربعاء منسوب إلى
أربعة والخميس منسوب إلى خمسة ..

كان المفروض أن ينسب يوم الجمعة إلى ستة ولكنه لم ينسب .. لماذا ؟ لأنه
اليوم الذي اجتمع فيه للكون نظام وجوده .. فسهاه الله تبارك وتعالى الجمعة
وجعله لنا عيداً .. والعيد هو اجتماع كل الكون في هذا اليوم ، لإحتفاء نعمة الله
في إيجاد الكون وتماها في ذلك اليوم .. فالؤمنون بالله يجتمعون اجتماع حفاوة
بشام خلق الكون لهم .. والسبت .. الباء والتاء تغيد معنى القطع .. وسبت
وسبت سبنا إذا انقطع عمله .. ونلاحظ أن خلق السموات والأرض تم في ستة
أيام مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾

(من الآية ٤ سورة الحديد)

وكان تمام الخلق يوم الجمعة .. وفي اليوم السابع وهو يوم السبت .. كان كل
شيء قد استقر وفرغ من خلق الكون .. ولذلك له سبات أي أن هذا اليوم
يسمى سباتاً .. لأن فيه سكنون الحركة بعد تمام الخلق .. فلما أراد اليهود يوماً
للراحة أعطاهم الله يوم السبت وأراد الحق تبارك وتعالى أن يتلهم في هذا اليوم
والإبتلاء هو إمتحانهم فقد كانوا يعيشون على البحر وعملهم كان صيد
السمك .. وكان الإبتلاء في هذا اليوم حيث حرم الله عليهم فيه العمل وجعل
الجنان التي يصطادونها تأنى إليهم وقد بدت أشرعتها وكانوا يحشون عنها طوال
الأسبوع وربما لا يجدونها .. وفي يوم السبت جاءهم ظاهرة على سطح الماء تسمى
إليهم لغفتهم .. وإقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَسَلَّمْنَاهُمْ إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ

حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَءً وَيَوْمَ لَا يَسْتَوْنَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا

يَفْسُقُونَ ﴿١٧٧﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا يمثل سطح البحر بالأسماك والحيتان يوم السبت .. فإذا جاء صباح الأحد اختضت بعيدا وهم يريدون أن يجعلوا السبت عيدا لهم لا يفعلون فيه أى شيء .. ولكنهم في الوقت نفسه يريدون أن يحصلوا على هذه الأسماك والحيتان .. صنعوا شيئا اسمه الحياض العميقة ليحتالوا بها حل أمر الله بعدم العمل في هذا اليوم .. وفي الوقت نفسه يحصلون على الأسماك .. هذه الحياض يدخلها السمك بسهولة .. ولأنها عميقة لا يستطيع الخروج منها وتركونه بيت الليل وفي الصباح يصطادونه .. وكان هذا تحايلا منهم على مخالفة أمر الله .. والله سبحانه وتعالى لا يحب من يحتال في شيء من أوامره .

ويقول الله تعالى : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » .. وهذه قصة مشهورة عند اليهود ومتواترة .. يعلمها الأجداد للأباء والأبء للأحفاد .. وهي ليست جديدة عليهم وإن كان المخاطبون هم اليهود المعاصرين لرسول الله صل الله عليه وسلم .. ولذلك عندما نسبح : « ولقد علمتم » أى لقد عرفتم ومعنى ذلك أن القصة عندكم معروفة .. وكأنها من قصص التراث التي يتناقلونها ..

وقوله تعالى : « الذين اعتدوا منكم في السبت » .. المفعول هنا واحد هنا حيلة مذكورة انهم اعتدوا على أمر الله بالراحة يوم السبت .. هم حقيقة لم يصطادوا يوم السبت .. ولكنهم تحايلا على المنوع بتصب الفخاخ للحيتان والأسماك .. وكانوا في ذلك أغبياء .. وقد كان المنوع أن يأخذوا السمك في حيازتهم بالصيد يوم السبت .. ولكنهم أخذوه في حيازتهم بالخيالة والفخاخ .. وقوله تعالى : « اعتدوا » أى تجاوزوا حدود الله المرسومة لهم .. وعادة حين يحرم الله شيئا يأتي بعد التحريم قوله تعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ۚ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

لأنه يريد أن يمنعك من الإغراء .. حتى لا تقع في المعصية فيقول لك لا تقترب .. ولكن بنى إسرائيل اعتدوا على حكم الله متظاهرين بالطاعة وهم عاصون .. وحسبوا أنهم يستطيعون خداع الله بأنهم طائعون مع أنهم

عاصون .. وصدر حكم الله عليهم : « فقلنا لهم كونوا قردة خاشعين » .

وعادة أنك لا تأمر إنساناً أمراً إلا إذا كان في قدرته أن يفعله .. الأمر هنا أن يكونوا قردة .. فهل يستطيعون تنفيذه ؟ وأن يغيروا خلقتهم إلى قردة .. إنه أمر في مقدرة الله وحده فكيف يقول لهم كونوا قردة ؟

نقول إن الأمر نفسه هنا هو الذي يستطيع أن يجعلهم قردة .. وهذا الأمر يسمى أمراً تسخيراً ولم يقل لهم كونوا قردة ليكونوا هم بإرادتهم قردة .. ولكنه سبحانه بمجرد أن قال كونوا قردة كانوا .. وهذا يدلنا على انصياع المأمور للأمر وهو غير مختار .. ولو كان لا يريد ذلك ولا يلزم أن يكونوا قد سمعوا قول الله أو قال لهم .. لأنه لو كان المطلوب منهم تنفيذ ما سمعوه ربما كان ذلك لازماً .. ولكن بمجرد صدور الأمر وقيل أن يتنبهوا أو يعلموا شيئاً كانوا قردة .

ولقد اختلف العلماء كيف تحول هؤلاء اليهود إلى قردة ؟ كيف مسخوا ؟ قال بعضهم لقد تم المسخ وهم لا يدرون .. فلما وجدوا أنفسهم قد تحولوا إلى خلق أقل من الإنسان .. لم يأكلوا ولم يشربوا حتى ماتوا .. وقال بعض العلماء إن الإنسان إذا مسخ فإنه لا يتناسل ، ولذلك فبمجرد مسخهم لم يتناسلوا حتى انقرضوا .. ولذا لم يتناسلوا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَرَوْا زُرَّةً وَلَا زُرَّةً أُخْرَى ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

ولو أنهم تناسلوا .. لتحمل الأبناء وزر آبائهم .. وهذا مرفوض عند الله .. إذن فمن رحمة الله أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون .. ويبقون فترة ثم ينقرضون بالأمراض والأوبئة وهذا ما حدث لهم .

قد يقول بعض الناس لو أنهم مسخوا قردة .. فمن أين جاء اليهود الموجودون الآن ؟ نقول لهم أنه لم يكن كل اليهود عاصين .. ولكن كان منهم أقلية هي التي عصت ومسخت .. وبقيت الأكثرية ليصل نسلها إلينا اليوم .. وقد قال علماء

آخرون أن هناك آية في سورة المائدة تقول :

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثْوًى عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٥٠)

(سورة المائدة)

إذن هذه قضية قوم غضب الله عليهم ومسحهم قردة وخنزير وعبدة الطاغوت .. ولقد أخبرنا الله جل جلاله أن اليهود مسحوا قردة .. ولكنه لم يقل لنا أنهم مسحوا خنازير .. فهل مسحوا قردة ؟ ثم بعد ذلك إزداد غضب الله عليهم ومسحوا خنازير ؟ وهل نقلهم الله من إنسانية إلى بهيمة في القيم والإرادة والحلقة ؟

نقول علينا أولاً أن ننظر إلى البهيمية التي نقلهم الله إليها .. نجد أن القردة هي الحيوان الوحيد المفروح العورة دائماً .. وإن عورته لها لون مميز عن جسده .. وأنه لا يتأدب إلا بالعصا .. واليهود كذلك لم يقبلوا المنهج إلا عندما رفع فوقهم جبل الطور .. وما هم فيه الآن ليس مسح خلقه ولكن مسح خلق .. والخنزير لا يغارون على أنتاهم وهذه لازمة موجودة في اليهود .. وعبدة الطاغوت .. الطاغوت هو كل إنسان تجاوز الحد في البغي والظلم .. وعبدة الطاغوت هم الطائعون لكل نظام يعينونه على ظلمه وهم كذلك .

إذن فعملية المسح هذه سواء تمت مرة واحدة أو على مرتين مسألة شكلية .. ولكن الله سبحانه وتعالى أعطانا في الآية التي ذكرناها في سورة المائدة سيات اليهود الأخلاقية .. فكانهم مسحوا خلقه ومسحوا أخلاقاً .



﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

يريد الله تبارك وتعالى أن يلفتنا إلى أنه بعد أن جعل المسخة الخلفية والأخلاقية لليهود : « وجعلناها نكالاً لما بين يديها » أى ما معها : « وما خلفها » أى ما بعدها : « والنكال » هو العقوبة الشديدة . . والعقوبة لابد أن تنشأ عن تحريم أولاً . . هذا هو المبدأ الإسلامى والمبدأ القانونى . . فرجال القانون يقولون لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص . . قبل أن تعاقب لابد أن تقول إن هذا الفعل جريمة عقوبتها كذا وكذا . . وفى هذه الحالة عندما يرتكبها أى إنسان يكون مستحقاً للعقوبة . . ومادام هذا هو الموقف فلا بد من تشريع .

والتشريع ليس معناه إن الله شرع العقوبة . . ولكن معناه محاولة منع الجريمة بالتحذير حتى لا يفعلها أحد . . فإذا تمت الجريمة فلا بد من توقيع العقوبة . . لأن توقيعها عبرة للغير ومنع له من ارتكابها . . وهذا الزجر يسمى نكولاً ومنها النكول فى اليمين أى الرجوع فيه .

إذن قوله تعالى : « فجعلناها نكالاً » . . أى جعلناها زجراً وعقاباً قوياً . . حتى لا يعود أحد من بنى إسرائيل إلى مثل هذه المخالفة : « ونكالاً لما بين يديها » . . أى عقوبة حين يرونها الذين عاصروها تكفى لكيلا يفتربوا من هذه المعصية أبداً . . وتكون لهم موعظة لا ينسونها : « وما خلفها » يعنى جعلناها تتوارثها الأجيال من بنى إسرائيل جيلاً بعد جيل . . كما بيننا الأب يحكى لابنه حتى لا يعود أحد فى المستقبل إلى مثل هذا العمل من شدة العقوبة : « وموعظة للمتقين » . . أى موعظة لكل الناس الذين سيبلغهم الله تبارك وتعالى بما حدث من بنى إسرائيل وما عاقبهم به . . حتى يقوا أنفسهم شر العذاب يوم القيامة الذى

سيكون فيه ألوان أشد كثيرا من هذا العذاب . . على أننا لابد أن نلفت الإنتباه إلى أن مبدأ أنه لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص هو مبدأ إلهي . . ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبَيِّتَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

أي يأتي الرسول أولا لجرم هذه الأفعال . . فإن ارتكيبها أحد من خلق الله حقت عليه العقوبة . . ومن هنا فإن كل ما يقال عن قوانين بأثر رجعي يخالف لشريعة الله تبارك وتعالى وعدله . . فلا يوجد في عدالة السماء ما يقال عنه أثر رجعي .



﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتُمْ خَدَّائُنَا هُزُوا قَالَ أَتَوَدُّونَ أَنْ أَتُخَذَ لَكُمْ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

تعرضنا إلى هذه الآية الكريمة في بداية سورة البقرة .. لأن السورة سميت بهذا الاسم .. ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى أتى بحرف : « وإذ » .. يعنى واذكروا : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » .. ولم يقل لماذا أمرهم بأن يذبحوا البقرة .. ولابد أن نقرأ الآيات إلى آخر القصة لمعرفة السبب في قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرُءْهَا فِيهَا وَاللَّهُ مَخْرُجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢١﴾ قُلْنَا اضْرِبُوهُ بِعِصْيَا كَذَلِكَ يَحْيَى اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكَ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

(سورة البقرة)

والمفروض في كل الأمور أن الأمر تسبقه علته .. ولكن هذه عظمة القرآن الكريم .. لأن السؤال عن العلة أولاً معناه أن الأمر صادر من مسألك .. فإذا قال لك إنسان أفعل كذا .. تسأله لماذا حتى أطيع الأمر وأنفذه .. إذن الأمر من المساوى هو الذى نسال عن علته .. ولكن الأمر من غير المساوى .. كأمر الأب لابنه والطبيب لمرضيه والقائد لجنوده .. مثل هذا الأمر لا يسأل عن علته قبل تنفيذه .. لأن الذى أصدره أحكم من الذى صدر إليه الأمر .. ولو أن كل مكلف من الله أقبل على الأمر يسأل عن علته أولاً .. فيكون قد فعل الأمر بعلمته .. فكانه قد فعله من أجل العلة .. ومن هنا يزول الإيمان .. ويستوى أن يكون الإنسان مؤمناً أو غير مؤمن .. ويكون تنفيذ الأمر بلا ثواب من الله ..

إن الإيمان يجعل المؤمن يتلقى الأمر من الله طائعا .. عرف علته أو لم يعرف .. ويقوم بتنفيذه لأنه صادر من الله .. ولذلك فإن تنفيذ أى أمر إيمان يتم لأن الأمر صادر من الله .. وكل تكليف يأتى .. علة حدوثه هى الإيمان بالله .. ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يبدأ كل تكليف بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا .. أى يا من آمنتم بالله ربنا وإلها وخالقنا .. خذوا عن الله وأطيعوا لأنك آمنتم بمن أمرك ..

فى هذه الآيات التى نحن بصدد ما أراد الله تعالى أن يبين لنا ذلك .. فجاء بالأمر بذيبح البقرة أولا .. وبالعلة فى الآيات التى روت لنا علة القصة .. وأنت حين تعبد الله فكل ما تفعله هو طاعة لله سبحانه وتعالى .. سواء عرفت العلة أو لم تعرفها .. فانت تؤدى الصلاة لأن الله تبارك وتعالى أمرك بأن تفعل .. فلأردت الصلاة على أنها رياضة أو أنها وسيلة للاستيقاظ المبكر .. أو أنها حركات لازمة للبوقة المفصل فإن صلاتك تكون بلا ثواب ولا أجر .. إن أردت الرياضة فاذهب إلى أحد النوادى وليلدريك أحد المدربين لتكون الرياضة على أصولها .. وأن أردت اللياقة البدنية فهناك ألف طريقة لذلك .. وإن أردت عبادة الله كما أمرك الله فلتكن صلاتك التى فرضها الله عليك لأن الله فرضها .. وكذلك كل العبادات الأخرى ..

الصوم ليس شعورا بإحساس الجائع .. ولا هو طريقة لعمل الرجيم ولكنه عبادة .. إن لم تصم تنفيذا لأمر الله بالصوم فلا ثواب لك .. وإن جعلت للصيام أى سبب إلا العبادة فإنه صيام لا يقبله الله .. والله أغنى الشركاء عن الشرك .. فمن أشرك معه أحدا ترك الله عمله لمن أشركه .. وكذلك كل العبادات ..

هذا هو المفهوم الإيمان الذى أراد الله سبحانه وتعالى أن يلفتنا إليه فى قصة بقرة بنى إسرائيل .. ولذلك لم يأت بالعلة أو السبب أولا .. بل أتى بالقصة ثم أخبرنا سبحانه فى آخرها عن السبب .. وسواء أخبرنا الله عن السبب أو لم يخبرنا فهذا لا يغير فى إيماننا بحقيقة ما حدث .. وإن القصة لها حكمة وإن غفيت علينا فهي موجودة ..

قوله تعالى : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة .. أعطى الله تبارك وتعالى

الأمر أولا ليختبر قوة إيمان بني إسرائيل .. ومدى قيامهم بتنفيذ التكليف دون تلكؤ أو قهمل .. ولكنهم بدلا من أن يفعلوا ذلك أخذوا في المساومة والتباطؤ :
« وإذا قال موسى لقومه : .. كلمة قوم تطلق على الرجال فقط .. ولذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾

(من الآية ١١ سورة المجرات)

إذن قوم هم الرجال .. لأنهم يقومون على شئون أسرهم ونسائهم .. ولذلك يقول الشاعر العربي :

وما أدرى ولست أشال أدرى
أفروم آل حصنٍ أم نساء

فالقوامة للرجال .. والمرأة حياتها مبنية على الستر في بيتها .. والرجال يقومون لها بما تحتاج اليه من شئون .. والفروض أن المرأة سكن لزوجها وبيتها وأولادها وهي في هذا لها مهمة أكبر من مهمة الرجال .. قوله تعالى : « إن الله يأمركم : .. الأمر طلب فعل، وإذا كان الأمر أعلى من المأمور نسميه أمرا .. وإذا كان مساويا له نسميه إلتامسا .. وإذا كان إلى أعلى نسميه رجاء ودعاء .. على أننا لابد أن نلتفت إلى قوله تعالى على لسان زكريا :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة آل عمران)

هل هذا أمر من زكريا ؟ طبعاً لا . لأنه دعاء والدعاء رجاء من الأدنى إلى الأعلى .. قوله تعالى : « الله يأمركم » .. لو أن إنسانا يعقل أدنى عقل ثم يطلب منه أن يذبح بقرة .. أهذه تحتاج إلى إيضاح ؟ لو كانوا ذبحوا بقرة لكان كل شيء قد تم دون أى جهد .. فها دام الله قد طلب منهم أن يذبحوا بقرة .. فكل

ما عليهم هو التنفيذ ..

ولكن أنظر إلى الغباء حتى في السؤال .. إنهم يريدون أن يفعلوا أى شيء لإبطال التكليف .. لقد قالوا لموسى نبيهم إنك مهزأ بنا .. أى أنهم استكروا أن يكلفهم الله تبارك وتعالى بذبح بقرة على إطلاقها دون تحديد .. فاتهموا موسى أنه مهزأ بهم .. كأنهم يرون أن المسألة صعبة على الله سبحانه وتعالى .. لا يمكن أن تحمل بمجرد ذبح بقرة .. وعندما سمع موسى كلامهم ذهل .. فهل هناك نبي مهزأ بتكليف من تكليفات الله تبارك وتعالى .. أينقل نبي الله لهم أمرا من أوامر الله جل جلاله على سبيل المزول ؟

هنا عرف موسى أن هؤلاء اليهود هم جاهلون .. جاهلون بربهم ورسولهم وجاهلون بأمرتهم .. وأنهم يحاولون أن يأخذوا كل شيء بمقاييسهم وليس بمقاييس الله سبحانه وتعالى .. فاتجه إلى السماء يستعيز بالله من هؤلاء الجاهلين .. الذين يأثمهم السر فيريدونه عمرا . ويأثمهم السهل فيريدونه صعبا .. ويطلبون من الله أن يعتهم وأن يشدد عليهم وأن يجعل كل شيء في حياتهم صعبا وشاقا .



﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانُ بَيْنَكَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَوْمَرُونَ ﴾ ﴿٢٤﴾

وكان سؤالهم يبين نقص درجة الإيمان عندهم . . لم يقولوا ادع لنا ربنا . . بل قالوا ادع لنا ربك ، وكأنه رب موسى وحده . . ولقد تكررت هذه الطريقة في كلام بني إسرائيل عدة مرات . . حتى إنهم قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ فَأَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هُنَا قَتِلْدُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

ولقد استمر الحوار بينهم وبين موسى فترة طويلة . . يوجهون السؤال لموسى فيدعو الله فيأتيه الجواب من الله تبارك وتعالى . . فبدلاً من أن ينفذوا الأمر وتنتهي المسألة يوجهون سؤالاً آخر . . فيدعو موسى ربه فيأتيه الجواب ، ويؤدي الجواب إلى سؤال في غير محله منهم . . ثم يقطع الحق سبحانه وتعالى عليهم أسباب الجدال . . بأن يعطيهم أوصافاً لبقرة لا تنطبق إلا على بقرة واحدة فقط . . فكانهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم . .

نأتى إلى أسئلة بني إسرائيل . . يقول الحق سبحانه وتعالى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي » . . سؤال لا معنى له ولا محل . . لأن الله تبارك وتعالى قال لهم إنها بقرة . . ولم يقل مثلاً إنها حيوان على إطلاقه فلم يكن هناك محل للسؤال . . فجاء الحق تبارك وتعالى يقول لهم : « إنها بقرة لا فارض ولا بكر » . . الفارض في اللغة هو الواسع والمراد به بقرة غير مسنة . . ولكن ما العلاقة بين من البقرة وبين الواسع ؟ البقرة تتعرض للحمل كثيراً وأساساً هي اللبن وللإنجاب . . ومادامت قد تعرضت للحمل كثيراً يكون مكان اللبن فيها في

اتساع . . أى أن بطنها يزداد اتساعاً مع كل حمل جديد . . وعندما يكون بطن البقرة واسعاً يعرف عنها أنها مسنة وولدت كثيراً وصارت فارصاً .

وكلمة « بكر » لها معانٍ متعددة منها أنه لم يطأها فحل . . ومنها أنها بكر ولدت مرة واحدة . . ومنها أنها ولدت مرارا ولكن لم يظهر ذلك عليها لأنها صغيرة السن .

وقوله تعالى : « عوان بين ذلك » . . يعنى وسط بين هذه الأوصاف كلها . . الحق بعد ذلك يقرعهم فيقول : « فافعلوا ما تؤمرون » . . يعنى كفاكم مجادلة ونفدوا أمر الله واذبحوا البقرة . . ولكنهم لم يسكنوا انهم يريدون أن يجاوروا . . ولذلك غيروا صيغة السؤال .



﴿ قَالُوا أَدْعُنَا رَبَّكَ يَبْنَ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴾ ٦١

بحسبنا عن سؤال آخر: مالونها؟ كان الله تبارك وتعالى حين حديثهم عن السن فتحوا الأبواب ليسألوا مالونها؟ مع انه سبحانه وتعالى قال لهم: « فافعلوا ما تؤمرون » . فلم يفعلوا بل سألوا مالونها؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء، والصفرة لون من الألوان . ثم قال جل جلاله: « فاقع لونها » . يعني صفرة شديدة . ثم قال: « تسر الناظرين » . يعني أن كل من ينظر إليها يسر لنضارتها ونظافتها وحسن مظهرها وتناسق جسدتها .

وصف البقرة بأنها صفراء هذا لون معروف . وفي الألوان لا يمكن أن نحدد لونا إلا بقرينته . ولذلك فإن المحسّات في الألوان لا بد أن تسبق معرفتها وبعد ذلك تأتى باللون المطلوب . لذلك لا يقال صفراء فقط لأنك لا تستطيع تحديده ، لأن اللون الأصفر له درجات لا نهاية لها . ومزج الألوان يعطيك عدداً لا نهائياً من درجاتها . ولذلك فإن المشتغلين بدهان المنازل لا يستطيعون أن يقوموا بدهان شقة بلون إلا إذا قام بعمل مزيج اللون كله مرة واحدة . حتى يخرج الدهان كله بدرجة واحدة من اللون . ولكن إذا طلبت منه أن يدهن الشقة باللون نفسه . بشرط أن يدهن حجرة واحدة كل يوم فإنه لا يستطيع . فإذا سمعت صفراء تأتى اللون الأصفر إلى ذهنك . فإذا سمعت "فاقع" فكل لون من الألوان له وصف يناسبه يعطينا دقة اللون المطلوب . "فاقع" أى شديد الصفرة .

أظن أن المسألة قد أصبحت واضحة . إنها بقرة لونها أصفر فاقع تسر الناظرين . وكان من المفروض أن يكتفى بنو إسرائيل بذلك ولكنهم عادوا إلى السؤال مرة أخرى .

﴿قَالُوا اذْعُنَا رِيكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ اِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَانَا اِنْ شَاءَ اللّٰهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (٧)

يرغم أن ما قيل لبني إسرائيل .. واضح تمام الوضوح عن البقرة .. وعمروا
وسكثها ولونها ومنظرها .. فإن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤذيه فجعلهم
ينظرون إلى البقر .. وهذا يقول هذه هي والآخر يقول لا بل هي في مكان
كذا .. والثالث يقول لا بل هي في موقع كذا .. وعادوا إلى موسى يسألونه أن
يعود إلى ربه ليبين لهم لأن البقر تشابه عليهم .. وهنا ذكروا الله الذي نسوه ولم
ينفدوا أمره منذ أن قال لهم اذبحوا بقرة ثم قال لهم : « افعلوا ما تؤمرون » ..
فطلبوا منه الهداية بعد أن تاهوا وضاعوا بسبب عنادهم وجدهم .. وجاء الجواب
من الله سبحانه وتعالى .



﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي
الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا لَنْ نَجِدَ بِالْحَقِّ
فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧١)

«بقرة لا ذلول» .. البقرة الذلول هي البقرة المروضة المعرنة تؤدى مهمتها بلا تعب .. تماماً مثل الخيل المروضة التي لا تعب راكبيها لأنها تم ترويضها .. وسيدنا اسمايل هو أول من روض الخيل وصاسها .. وقال الله سبحانه وتعالى لهم أول وصف للبقرة أنها ليست مروضة .. لا أحد قادها ولا قامت بعمل .. إنها انطلقت على طبيعتها وعلى سجيتها في الحقول بدون قائد .. «تثير الأرض» أى لم تستخدم في حرارة الأرض أو فلاحتها .. «ولا تسقى الحرث» .. أى لم تستخدم في ادارة السواقي لسقى الزرع .. «مسلمة لا شية فيها» أى خالية من العيوب لا أذنبا مثقوبة .. ولا فيها أى علامة من العلامات التي يميز الناس أبقارهم بها .. ولا رجليها عرجاء ، خالية من البقع والألوان غير اللون الأصفر الفاقع .. وكلمة «لا شية فيها» .. أى لا شىء فيها ..

والتأمل في وصف البقرة كما جاء في الآيات يرى الصعوبة والتشدد في اختيار أوصافها .. كأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يجازيهم على أعمالهم .. ولم يجد بنو اسرائيل إلا بقرة واحدة تنطبق عليها هذه المواصفات فقالوا «الآن جئت بالحق» كأن ما قاله موسى قبل ذلك كان خارجاً عن نطاق الحق .. وذبحوا البقرة ولكن عن كره منهم .. لأنهم كانوا حريصين على ألا يذبحوها ، حرصهم على عدم تنفيذ المنهج .. هم يريدون أن يماطلوا الله سبحانه وتعالى .. والله يقول لنا أن سمة المؤمنين ان يسارعوا الى تنفيذ تكاليفه .. واقرأ قوله تعالى :

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَقْرِعَةِ رَبِّكُمْ وَحِجَّةَ عَرْضِهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ

لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢٢)

وهذه السرعة من المؤمنين في تنفيذ التكليف .. دليل على عشق التكليف .. لانك تسارع لتفعل ما يطلبه منك من تحبه .. وقوله تعالى : «وما كادوا يفعلون» .. يدلنا على أنهم حاولوا الإبطاء في التنفيذ والتلكؤ .

اتنا لا بد أن نلفت الى أن تباطؤ بني اسرائيل في التنفيذ خدم قضية إيمانية أخرى .. فالبقرة التي طلبها الله منهم بسبب عدم قيامهم بتنفيذ الأمر فور صدوره لهم بقرة نادرة لا تتكرر .. والمواصفات التي أعطيت لهم في النهاية .. لم تكن تنطبق إلا على بقرة واحدة ليحكم صاحبها في ثمنها ويبيعها بأغل الأسعار ..

والقصة أنه كان هناك في بني اسرائيل رجل صالح .. يتحرى الحلال في الرزق والصدق في القول والایمان الحقيقي بالله .. وعندما حضرته الوفاة كان عنده عجلة وكان له زوجة وابنتها الصغير .. ماذا يفعل وهو لا يملك سوى العجلة . انجبه الى الله وقال : اللهم إني استودعك هذه العجلة لولدي ، ثم أطلقها في المراعى .. لم يوصُ عليها أحداً ولكن استودعها الله . استودعها يد الله الأمانة على كل شيء .. ثم قال لأمرأته إني لا أملك إلا هذه العجلة ولا آمن عليها إلا الله .. ولقد أطلقته في المراعى ..

وعندما كبر الولد قالت له أمه: إن أباك قد ترك لك وديعة عند الله وهي عجلة .. فقال يا أمي وأين أجدها ؟ .. قالت كن كأيك هو توكل واستودع ، وأنت توكل واسترد .. فقال الولد: اللهم رب ابراهيم ورب موسى .. رد الى ما استودعه أبى عندك .. فإذا بالعجلة تأتي اليه وقد أصبحت بقرة فأخذها ليربها لأمه .. وبينما هو سائر رآه بنو اسرائيل . فقالوا ان هذه البقرة هي التي طلبها الرب .. وذهبوا الى صاحب البقرة وطلبوا شراءها فقال بكم .. قالوا بثلاثة دنانير .. فذهب ليستشير أمه فحافوا أن ترفض وعرضوا عليه ستة دنانير .. قالت أمه لا .. لا تباع .. فقال الابن لن أبيعها إلا بماء جلدتها ذهباً ، فدفعوا له ما أراد .. وهكذا نجد صلاح الأب يجعل الله حفيظاً على أولاده يرعاهم ويسر لهم أمورهم .



وَإِذْ قَبَلْتُمْ نَفْسًا قَادَرَةً تُثَمِّبُهَا
وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٤﴾

قصة القتل هي أن رجلا ثريا من بني اسرائيل لم يكن له ولد يرثه .. وكان له أقارب كل منهم يريد أن يستأثر بأموال هذا الرجل .. والمال والذهب هما حياة بني اسرائيل .. فتأمر على هذا الرجل الثرى ابن أخيه فقتله ليورثه ويستولى على أمواله .. ولكنه أراد أن يبعد التهمة عن نفسه فحمل الجثة وألقاها على باب قرية مجاورة لبيتهم أهلها يقتل الثرى .. وفي الصباح قام أهل القرية ووجدوا جثة الثرى أمام قريتهم .. ووجدوه غريبا عن القرية فسألوا من هو ؟ حتى وصلوا الى ابن أخيه .. فتجمع أهل القتل واتهموهم بقتله .. وكان أشدهم تمحسا في الاتهام القاتل ابن أخيه ..

وقوله تعالى «إدارأتم فيها الدراء هو الشيء حين يبيء اليك وكل واحد ينفيه عن نفسه .. إدارأتم أى ان كلا منكم يريد أن يدفع الجريمة عن نفسه فكل واحد يقول لست أنا ..

وليس من الضروري أن يتهم أحدا آخر غيره .. المهم أن يدفعها عن نفسه .

ولقد حاول أهل القريتين .. قرية القتل ، والقرية التي وجدت أمامها الجثة . أن يدفع كل منها شبهة الجريمة عن نفسه وربما يتهم بها الآخر .. ولم يكن هناك دليل دامع يرجح اتهاماً بعددا . بل كانت الادلة ضائعة ولذلك استحال توجيه اتهام لشخص دون آخر أو لقرية دون أخرى .

وكان التشريع في ذلك الوقت ينص على أنه إذا وجد قتيل على باب قرية ولم

يستدل على قاتله . . فإن قرية القتييل وأهله يأخذون حسين رجلا من أعيان القرية التي وجدت بجوارها الجثة . . فيلقوا اليمين بأنهم ما قتلوه . . ولا علموا قاتله . . وإذا كان الأعيان والأكابر أقل من حسين رجلا . . تكررت الأيمان حتى تصير حسين يمينا . . فيحلفون أنهم ما قتلوه ولا يعرفون قاتله . . عندها يتحمل بيت المال دية القتييل . .

ولكن الله كان يريد شيئا آخر . . يريد أن يرد بهله الجريمة على جحود بني اسرائيل باليوم الآخر . . ويجعل الميت يقف امامهم وينطق اسم قاتله . . ويجعلهم يرون البعث وهم احياء . . ولذلك قال سبحانه وتعالى : **وَاللّٰهُ خَرَجَ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُوْنَ** . . أى أن بني اسرائيل أو أولئك الذين ارتكبوا الجريمة دبروها على أن تبقى في طي الكتمان فلا يعلم احد عنها شيئا . . ولذلك جاء الشاب وقتل عمه دون أن يراه أحد . . ثم حمل الجثة خفية في ظلام الليل وخرج بها فلم يلتفت أحد اليه . . ثم ذهب الى قرية مجاورة وألقى بالجثة على باب القرية وأهلها نائمون وانصرف عائدا . .

كانت كل هذه الخطوات في رأيه مستجعل الجريمة غامضة لا تنكشف ابدا ولا يعرف سرها أحد . ولكن الله تبارك وتعالى أراد غير ذلك . . أراد أن يكشف الجريمة بطريقة لا تختمل الجدل ، وفي نفس الوقت يرد على جحود بني اسرائيل للبعث . . بأن يريهم البعث وهم احياء .



﴿ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ ﴾
وَرُبِّكُمْ ءَايَتُهُ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٢﴾

احتمد الحلاف بين بني اسرائيل وكادت تحدث فتنة كبيرة . . فقرروا أن يلجأوا الى موسى عليه السلام ليطلب من الله تبارك وتعالى أن يكشف لهم لغز هذه الجريمة ويدهم على القاتل . . وجاء الأمر من الله سبحانه وتعالى أن اذبحوا البقرة وذبحوا بقرة أية بقرة لانتهت المشكلة . . ولكنهم ظلوا يقولون ما لوئها وما شكلها الى آخر مارويناه . . حتى وصلوا الى البقرة التي كان قد استودعها الرجل الصالح عند الله حتى يكبر ابنه فاشتروها وذبحوها . . فأمرهم الله أن يضربوه ببعضها . . أي أن يضربوا القاتل بجزء من البقرة المذبوحة بعد أن سال دمها وماتت . .

وانظر الى العظمة في القصة . جزء من ميت يُضرب به ميت فيحيا . . اذن المسألة أعدها الحق بصورة لا تجعلهم يشكون أبدا . . فلو أن الله احياء بدون أن يضرب بجزء من البقرة . لقالوا لم يكن قد مات ، كانت فيه حياه ثم أفاق بعد اغيائه . ولكن الله أمرهم أن يذبحوا بقرة حتى تموت ليُعطيهم درساً ايمانياً بقدره الله وهم الماديون الذين لا يؤمنون إلا بالماديات . . وأن يأخذوا جزءاً أو أجزاء منها وأن يضربوا به القاتل فيحيا وينطق باسم قاتله ويمجته الله بعد ذلك . .

يقول الحق جل جلاله . . «كذلك يحى الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلوه» ليرى بنو اسرائيل وهم على قيد الحياة كيف يحى الله الموتى ويعرفوا أن الانسان لا يبقى حيا بأسباب الحياه . . ولكن بإرادة مسبب الحياه في أن يقول «كن فيكون» .



ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ
قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ
مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ
مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾

لماذا ذكر الحق سبحانه وتعالى القلب ووصفه بأنه يقسو ولم يقل نفوسكم . لأن القلب هو موضع الرقة والرحمة والعطف . . وإذا ما جعلنا القلب كثير الذكر لله فإنه يمتلئ برحمة وعطف . . والقلب هو العضو الذي يحسم مشاكل الحياة . . فإذا كان القلب يعمر باليقين والایمان . . فكل جارية تكون فيها خميرة الايمان .

وحتى نعرف قوة وقدرة وسعة القلب على الايمان واحتوائه أوضح الله تعالى هذا المعنى فى كتابه العزيز حيث يقول :

﴿ اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ لَأَن ذَكَرُوا اللَّهَ ۚ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ
وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة الزمر)

وهكذا نرى أن الجلود تقشعر من هول الوعيد بالنار . . ويجرد قراءة ما ذكره القرآن عنها . . وبعد ذلك تأتى الرحمة ، وفى هذه الحالة لا تلين الجلود فقط ولكن لابد أن تلين القلوب لأنها هى التى تمنحى اللمة الايمانية لكل جوارح الجسد . .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

والأوان فى الجسد مضغطة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد

الجسد كله ألا وهي القلب»^(١)

إذن فالقلب هو منبع اليقين ومصب الايمان ، وكما أن الايمان في القلب فإن القسوة والكفر في القلب . فالقلب حينما ينسى ذكر الله يقسو . لماذا ؟ . لأنه يعتقد أنه ليس هناك إلا الحياة الدنيا والا المادة فيحاول أن يحصل منها على أقصى ما يستطيع وبأي طريقة فلا تأن إلا بالظلم والطغيان وأخذ حقوق الضعفاء ، ثم لا يفرط فيها أبدا لأنها هي منتهى حياته فلا شيء بعدها .

انه يجد انسانا يموت امامه من الجوع ولا يعطيه رغيفا . . وإذا خرج الايمان من القلب خرجت منه الرحمة وخرج منه كل ايمان الجوارح . . فلمحة الايمان التي في اليد تخرج فتنتد اليد الى السرقة والحرام . . ولمحة الايمان التي في العين تخرج فتتظر العين الى كل ماحرم الله . ولمحة الايمان التي في القدم تخرج فلا تمشي القدم الى المسجد أبدا ولكنها تمشي الى الخيارة والى السرقة . . لأنه كما قلنا القلب مخزن الايمان في الجسم .

ويشبه الحق تبارك وتعالى قسوة قلوبهم فيقول : «فهي كالحجارة أو أشد قسوة» . . الحجارة هي الشيء القاسي الذي تدركه حواسنا ومألوف لنا ومألوف لبني اسرائيل ايضا . . لأن لهم مع الحجارة شوطا كبيرا عندما تاهوا في الصحراء . . وعندما عطشوا وكان موسى بضرب لهم الحجر بعصاه .

الله تبارك وتعالى لفتهم الى أن المفروض أن تكون قلوبهم لينة ورقيقة حتى ولو كانت في قسوة الحجارة . . ولكن قلوبهم تجاوزت هذه القسوة فلم تصبح في شدة الحجارة وقسوتها بل هي أشد .

ولكن كيف تكون القلوب أشد قسوة من الحجارة . . لا ننظر الى لبونة مادة القلوب ولكن انظر الى ادائها لمهمتها .

الجليل قسوته مطلوبة لأن هذه مهمته أن يكون وتداً للأرض صلباً قويا ، ولكن هذه القسوة ليست مطلوبة من القلب وليست مهمته . . أما قلوب بني اسرائيل فهي أشد قسوة من الجبل . . والمطلوب في القلوب اللين ، وفي الحجارة

(١) رواه البخاري ومسلم .

القوة .. فكل صفة مخلوقة لمخلوق ومطلوبة لهمة .. فالخطاف مثلا أعرج .. هذا العرج يجعله يؤدي مهمته على الوجه الأكمل .. فعوج الخطاف استقامة لهيمته .. وحين نفسد القلوب ونخرج عن مهمتها تكون أُنسى من الحجارة .. وتكون على العكس تماما من مهمتها ..

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَأَنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُوقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾

(من الآية ٧٤ سورة البقرة)

هنا يذكرهم الله لما راوه من الرحمة الموجودة في الحجارة .. عندما ضرب موسى الحجر بالعصا فانفجرت منه العيون .. وذلك مثل حصى شهوده .. يقول لهم الحق جل جلاله : ان الرحمة تصيب الحجارة فينفجر منها الانهار ويخرج منها الماء ويقول سبحانه : وان منها لما يبيط من خشية الله ..

اذن فالحجارة يصيبها اللين والرحمة فيخرج منها الماء .. ولكن قلوبكم اذا قست لا يصيبها لين ولا رحمة فلا تلين أبدا ولا تخشع أبدا .. والله سبحانه وتعالى نزل عليكم التوراة وأعطاكم من فضله ورحمته وسره ومغفرته الكثير .. كان المقروض أن تلين قلوبكم لذكر الله ..

ولكن ما الفرق بين تفجر الانهار من الحجارة وبين تشققها ليخرج منها الماء ؟ عندما تنفجر الحجارة يخرج منها الماء .. نحن نذهب الى مكان الماء لنأخذ حاجتنا .. ولكن عندما تنفجر منها الانهار فلما هو الذي يأتي الينا ونحن في أماكننا .. وفرق بين عطاء نذهب اليه وعطاء يأتي اليك .. أما هبوط الحجر من خشية الله فذلك حدث عندما تحمل الله للجبل فجعله دكا .. واقرأ قوله تعالى :

﴿قُلْنَا نَحْمِلُ هَٰذَا الْجَبَلَ فَجَعَلُوهُ دُكًّا وَتَرَكُوا مِثْلَ بَلَدٍ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

يذكرهم الحق سبحانه كيف أن الجبل حين تجل الله له هبط وانهار من خشية الله . وهكذا لا يعطيهم الأمثلة مما وقع لغيرهم ، ولكن يعطيهم الأمثلة مما وقع لهم .

وقوله تعالى : «وما الله بغافل عما تعملون» أي تذكروا أن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء وأن كل ما تعملونه يعرفه وأنكم ملاقونه يوم القيامة ويحتاجون إلى رحمته ومغفرته ، فلا تجعلوا قلوبكم نفوساً حتى لا يطردكم الله من رحمته كما خلت قلوبكم من ذكره .



﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ
مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ٧٥

يعطينا الحق تبارك وتعالى هنا الحكمة .. فيها رواه لنا عن بني إسرائيل وعن قصصهم . لأنهم سيكون لهم دور مع المسلمين في المدينة ، ثم في بيت المقدس ، ثم في المسجد الأقصى .. فهو يروى لنا كيف أتبعوا نبيهم وكيف عصوا ربهم . وكيف قابِلُوا النعمة بالمعصية والرحمة بالجحود . وإذا كان هذا موقفهم يا محمد مع الله ومع نبيهم .. فلا تطمع أن يؤمنوا لك ولا أن يدخلوا في الإسلام ، مع أنهم عندهم التوراة تدعوهم إلى الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ..

هذه الآيات تحمل أعظم تعزية للرسول الكريم . وتطالبه ألا يحزن على عدم إيمان اليهود به لأنه عليه البلاغ فقط ، ولكن حرص رسول الله صل الله عليه وسلم على أن يؤمن كل أهل الأرض بيهود ونصارى وكفاراً ، ليس معناه أنه لم يفهم مهمته ، ولكن معناه أنه أدرك حلاوة التكليف من ربه ، بحيث يريد أن يبدى كل خلق الله في الأرض .. فيطمئنه الله ويقول له لا تعتقد أنهم سيؤمنون لك . وليس معنى عدم إيمانهم أنك لست صادقاً .. فتكذيبهم لك لا ينبئ أن يؤثر فيك .. فلا تطمع يا محمد أن يؤمنوا لك ..

ما هو الطمع ؟ .. الطمع هو رغبة النفس في شيء غير حقها وإن كان محبوباً لها .. والأصل في الإنسان العاقل ألا يطمع إلا في حقه .. والإنسان أحياناً يريد أن يرفه حياته ويعيش مترفاً ولكن بحركة حياته كما هي . نقول له إذا أردت أن تتوسع في ترفك فلا بد أن تتوسع في حركة حياتك ، لأنك لو أترفت معتمداً على حركة حياة غيرك فسيُفسد ميزان حركة الحياة في الأرض ، أي إن كنت تريد أن تعيش حياة مترفة فعش على قدر حركة حياتك ، لأنك إن فعلت غير ذلك تسرق وتترش وتفسد . فإن كان عندك طمع فليكن فيما تقدر عليه ..

إذن فكلمة «انظلمعون» هنا تعهد أنه يجب ألا نطمع إلا فيما نقدر عليه . هؤلاء اليهود هل نقدر على أن نجعلهم يؤمنون ؟ يقول الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم .. هذا أمر زائد على ما كلمت به .. لأن عليك البلاغ ، وحتى لو كان عبيا إلى نفسك .. فإن مقدماتهم مع الله لا تعطيك الأمل في أنك ستصل إلى النتيجة التي ترجوها ..

وهذه الآية فيها تسرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما سيلقيه مع اليهود . وتعطيه الشحنة الإيمانية التي تجعله يقابل عدم إيمان هؤلاء بقوة وعزيمة .. لأنه كان يتوقعه فلا يحزن ولا تذهب نفسه حشرات ، لأن الله تبارك وتعالى قد وضع في نفسه التوقع لما سيحدث منهم .. فإذا جاء تصرفهم وفق ما سيحدث .. يكون ذلك أمرا محتملا من النفس ..

والحق سبحانه وتعالى يقول : «وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله انظر إلى الأمانة والدقة .. فريق منهم ليس كلهم .. هذا هو ما استنبط منه العالم نظرية صيانة الاحتيال .. وهي عدم التعميم بحيث تقول انهم جميعا كذا . لا بد أن تضع احتيالا في أن شخصا ما سيؤمن أو سيشذ أو سبخالف .. هنا فريق من أهل الكتاب عرفوا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوراة والانجيل .. وعندما بعث آمنوا به ، وهؤلاء لم يعرفوا كلام الله . لو أن القرآن جاء بالحكم عاما لتغيرت نظرة الكافرين للإسلام .. ولقالوا لقد قال عنا هذا الدين أننا حرفنا كتاب الله ولكننا لم نحرفه ونحن نتظر رسوله .. فكان هذا الحكم غير دقيق .. ولا بد أن شيئا ما خطأ .. لأن الله الذي نزل هذا القرآن لا يخفى عليه شيء ويعرف ما في قلوبنا جميعا .. ولكن لأن الآية الكريمة تقول ان فريقا منهم كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه .. الكلام بلا تعميم وينطبق بدقة على كل حال ..

والحق جل جلاله يقول : «ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون» .. هذه معصية مركبة سمعوا كلام الله وعقلوه وعرفوا العقوبة على المعصية ثم بعد ذلك حرفوه .. لقد قرأوه في التوراة وقرأوا وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انهم يعرفونه كابنائهم .. ثم حرفوا كلام الله وهم يعلمون .. ومعنى التحريف تغيير معنى الكلمة .. كانوا يقولون السَّام عليكم بدلا من السلام عليكم .. ولم يتوقف الأمر عند التحريف بل تعداه إلى أن جاءوا بكلام من عندهم وقالوا انه من التوراة .

﴿وَإِذَا لقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضْبُهُمْ
إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧﴾﴾

هذه صور من صور نفاق اليهود . والناس مقسمون إلى ثلاث : مؤمنون
وكافرون ومنافقون . . المؤمن انسجم مع نفسه ومع الكون الذى يعيش فيه . .
والكافر انسجم مع نفسه ولم ينسجم مع الكون ، والكون يلعنه . . والمنافق
لا انسجم مع نفسه ولا انسجم مع الكون ، والآية تعطينا صورة من صور النفاق
وكيف لا ينسجم المنافق مع نفسه ولا مع الكون . . فهو يقول ما لا يؤمن به . .
وفى داخل نفسه يؤمن بما لا يقول . والكون كله يلعنه ، وفى الآخرة هو فى الدرك
الأسفل من النار . وهذه الآية تشابه مع آية تحدثنا عنها فى أول هذه السورة .
وهى قوله تعالى :

﴿وَإِذَا لقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَيْنَا فَتَلَعَيْنَاهُمْ
مُتَّعِينَ ﴿١١﴾﴾

(سورة البقرة)

فى الآية الأولى كان الدور لليهود ، وكان هناك منافقون من غير اليهود
وشياطينهم من اليهود . . وهنا الدور من اليهود والمنافقين من اليهود . الحق
سبحانه وتعالى يقول : «وَإِذَا لقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَهَلِ الْإِيمَانُ كَلَامٌ ؟ . .
الْإِيمَانُ يَقِينٌ فى القلب وليس كلاما باللسان . . والاستدلال على الإيمان بالسلوك
فلا يوجد انسان يسلك سبيل المؤمنين نفاقا أو رياء . . يقول أمنت نفاقا ولكن
سلوكه لا يكون سلوك المؤمن . . ولذلك كان سلوكهم هو الذى يفضحهم .
يقول تعالى : «وَإِذَا خَلَا بِعَضْبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» . .

وفي سورة أخرى يقول الحق :

﴿وَإِذَا الْفُؤُكُورُ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَىٰ عِبْكَرِ الْأُنَامِلِ مِنَ الْغَيْظِ﴾

(من الآية ١١٩ سورة آل عمران)

وفي سورة المائدة يقول سبحانه :

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُ اللَّهِ قَالُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُكْفِرُ وَلَكِنْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾

(من الآية ٦١ سورة المائدة)

هنا أربع صور من صور المنافقين .. كلها فيها التظاهر بإيمان كاذب .. في الآية الأولى «وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم» وفي الآية الثانية : «إذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا اتخذوثم بما فتح الله عليكم» . وفي الآية الثالثة : «وعضوا عليكم الأنامل من الغيظ» . وفي الآية الرابعة : «وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به» .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما بعث كان اليهود يقولون للمؤمنين هذا هو نبيكم موجود عندنا في التوراة أوصافه كذا .. حيثئذ كان أحبار اليهود يتهوهم عن ذلك ويقولون لهم : «اتخذوثم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم» فكانهم علموا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم أرادوا أن يخفوها .. إن الغريب أنهم يقولون : «بما فتح الله عليكم» . وإذا كان هذا فتحا من الله فلا فضل لهم فيه .. ولو أراد الله لهم الفتح لأمت القلوب ..

قوله تعالى : «ليحاجوكم به عند ربكم» يدل على أن اليهود المنافقين والكفار وكل خلق الأرض يعلمون أنهم من خلق الله ، وإن الله هو الذى خلقهم .. وماداموا يعلمون ذلك فلماذا يكفرون بخالقهم ؟ «ليحاجوكم به» أى لتكون حجتهم عليكم قوية عند الله .. ولكنهم لم يقولوا عند الله بل قالوا «عند ربكم» والمحاجة معناها أن يلتقى فريقان لكل منهما وجهة نظر مختلفة . وتقام بينهما مناظرة

يدل فيها كل فريق بحجته . واقرأ قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِأَنَّهُ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذه هي المناظرة التي حدثت بين ابراهيم عليه السلام والتمرد الذي آتاه الله الملك .. ماذا قال ابراهيم ؟

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يَحْيِى وَيُمِيتُ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذه كانت حجة ابراهيم في الدعوة الى الله ، فرد عليه التمرد بحجة مزيفة . قال انا احى واميت .. ثم جاء بواحد من جنوده وقال خراسه اقتلوه .. فلما انهجوا اليه قال اتركوه .. ثم التفت الى ابراهيم :

﴿قَالَ أَنَا أَحْيِى وَأُمِيتُ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

جدل عقيم لان هذا الذى أمر التمرد بقتله . كان حيا وحياته من الله .. والتمرد حين قال اقتلوه لم يمته ولكنه أمر بقتله .. وفرق بين الموت والقتل .. القتل أن تهدم بنية الجسد فتخرج الروح منه لأنه لا يصلح لإقامتها .. والموت أن تخرج الروح من الجسد والبنية سليمة لم تهدم .. الذى يميت هو الله وحده ، ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَمْ يَكُنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنْفَلَيْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة آل عمران)

والتمرد لو قتل هذا الرجل ما كان يستطيع أن يعيده الى الحياة .. ولكن ابراهيم عليه السلام .. لم يكن يريد أن يدخل في مثل هذا الجدل العقيم ..

الذى فيه مقارعة الحجة . بالحجة يمكن فيه الجدال ولوزيفا . . ولذلك جاء بالحجة البالغة التى لا يستطيع النمرود ان يجادل فيها :

﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَلَنَ أَتَى اللَّهَ بِآثَمِ الْبَشَرِ مِنْ الشَّرِّ قُلْتُ وَمَا مِنَ الشَّرِّ قُلْتُ الَّذِى كَفَرُ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

هذا هو معنى الحاجة . . كل طرف يأتى بحجته ، وما داموا يحتاجونكم عند ربكم وهم يعتقدون أن القضية لن تمر أمام الله بسلام لأنه رب الجميع وسيصف المظلوم من الظالم . . اذا كانت هذه هى الحقيقة فهل أنتم تعملون لمصلحة انفسكم ؟ الجواب لا . . لو كنتم تعلمون الصواب ما كنتم وقعتم فى هذا الخطأ فهذا ليس فتحا . .

وقوله تعالى : « أفلا تعقلون » ختام منطقى للآية . . لأن من يتصرف تصرفهم ويقول كلامهم لا يكون عنده عقل . . الذى يقول « يحتاجوكم عند ربكم » يكون مؤمنا بأن له ربا ، ثم لا يؤمن بهذا الاله ولا يخافه لا يمكن أن يتصف بالعقل .



﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ٧٧

بين الله لنا بأنه يعلم امرهم وما يفعلون . لقد ظنوا أن الله غافل عندما خلا بعضهم إلى بعض وقالوا : « اتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم » .. الله علم وسمع .. وعندما يلاقى المتناقضون المؤمنون ويقولون آمنا .. وإذا خلوا حضوا عليكم الأنامل من الغيظة هذا انفعال حركي ليس فيه كلام يقال ولكن فيه واقع يرى .. ومع ذلك فهو ليس سرا .

ما هو السر وما هو العلن ؟ .. الأمر المعلن هو الذي يخرج منك الى من عنده آله السماع ليسمعك .. والأمر المعلن يخرج منك الى من عنده آله الرؤية ليراك .. فإن كان حركة بلا صوت فهذا عدته العين .. وإن كان بصوت فعدته الأذن .. هذه وسائل الإدراك الأصلية ..

وقوله تعالى « يعلم ما يسرون وما يعلنون » ألم يكن أولى أن يقول سبحانه يعلم ما يعلنون وما يسرون .. وإذا كان يعلم ما نسر أفلا يعلم ما نعلن ؟ .. لاشك انه يعلم .. ولكنها دقة في البلاغة القرآنية . ذلك أن المتكلم هو الله سبحانه .

ونحن نعلم أن الله غيب .. وغيب يعني مستور عن حواسنا .. ومادام الله غيبا فهو يعلم الغيب المستور .. ربما كان العلن الظاهر له قوانين أخرى .. فعلا إذا كان هناك شخص في المنزل ، ثم يقول وأنا أعلم ما في المنزل وما هو خارج المنزل .. لو قال أنا أعلم ما في المنزل لقلنا له أنت داخله فلا غربة في ذلك .. ولكنك مستور عما في الخارج فكيف تعلمه ؟

ومادام الله غيبا فقلوه ما يسيرون أقرب لغيره . وما يعلنون هي التي تحتاج وقفة . لا نعلم أن الله تبارك وتعالى لأنه غيب لا يعلم إلا ما هو مستور وخفي فقط . لا . لا . إنه يعلم المشهود والغائب . إذن فالمناسب لأن الله غيب عن ابصارنا وكوننا لا ندركه أن يقول ما يسيرون أولا . .

ما معنى ما يسيرون ؟ . . السر هو ما لم تهمس به إلى غيرك . . لأن همسك للغير بالشيء لم يعد سرا . . ولكن السر هو ما تسره في نفسك ولا تهمس به لأحد من الناس . . وإذا كان السر هو ما تسره في نفسك ، فالعلن هو ما تجاهر به . ويكون علنا مادام قد علمه اثنان . . والعلن عند الناس واضح والسر عندهم خفي . . والله سبحانه وتعالى حين يخبرنا أنه غيب . . فليس معنى ذلك أنه لا يعلم إلا غيبا . إنه يعلم السر والعلن . . والله جل جلاله يقول في القرآن الكريم :

﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾

(من الآية ٧ سورة طه)

لذا كان السر هو ما تخفيه في نفسك وله واقع داخلك . . وما هو أخفى هو أن الله يعلم أنك ستفعله قبل أن تفعله . ويعلم أنه سيحدث منك قبل أن يحدث منك .



﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانًا وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

الله سبحانه وتعالى لازال يتحدث عن أهل الكتاب .. فبعد أن بين لنا الذين يقولون : « الحمد لله بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم » .. انتقل سبحانه وتعالى الى طائفة أخرى وهم من أسماهم بالأميين .. وأصح قول في الأمي هو أنه كما ولدته أمه .. أي لم يعلم شيئا من ثقافة وعلم في الوجود منذ لحظة نزوله من بطن أمه . ولذلك فإن الأمي على إطلاقه هو الذي لا يكتب شيئا من ثقافة الوجود حوله ، بصرف النظر عن أن يقال كما ولدته أمه .. لأن الشائع في المجتمعات أن الذي يعلم هم الخاصة لا العامة .. وعلى أية حال فالمعاني كلها ملتقية في تعريف الأمي .

قوله تعالى : « ومنهم أميون » .. تلاحظ أن هناك معسكرات من الأميين واجهت الدعوة الإسلامية .. فالمعسكر الأول كان المشركون في مكة ، والمعسكر الثاني كان أهل الكتاب في المدينة . وأهل الكتاب تطلق على أتباع موسى وأتباع المسيح .. ولكن في الجزيرة العربية كان هناك عدد لا يذكر من النصارى .. وكان هناك مجتمع . والمقصود من قوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانا » هم اليهود الذين كان لهم مجتمع في المدينة .. وما دام الحق سبحانه وتعالى قال : « ومنهم أميون » .. معنى هذا أنه لابد أن يكون هناك منهم غير أميين .. وهؤلاء هم الذين سيأتى قول الله تعالى عنهم في الآية التالية :

﴿قَوْلًا لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾

(من الآية ٧٩ سورة البقرة)

هنا قسم الله تبارك وتعالى اليهود إلى أقسام .. منهم قسم أمي لا يعرفون

الكتاب وما يقوله لهم أحبارهم هو الذى يعرفونه فقط .. وهؤلاء ربما لو كانوا يعلمون ما فى التوراة .. من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمنوا به .. والكتاب هنا يقصد به التوراة .. والله سبحانه وتعالى لم ينف عنهم مطلق العلم .. ولكنه نفى خصوصية العلم ، لأنه قال لا يعلمون إلا أمانى .. فكان الأمان يعلمونها من الكتاب .

ولكن ما الأمانى ؟ .. إنها تطلق مرة بدون تشديد الياء ومرة بتشديد الياء .. فإن كانت بالتحفيف تكون جمع أمانة .. وإن كانت بالتشديد تكون جمع أمانة بالتشديد على الياء .. الأمانة تحدها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة النساء)

هذا بالنسبة للجمع . أما بالنسبة للمفرد .. فى قوله تعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيهِ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

ما هى الأمانة ؟ .. الأمانة هى الشيء الذى يجب الانسان أن يحدث ولكن حدوثه مستحيل .. إذن لن يحدث ولن يكون له وجود .. ولذلك قالوا إن من معانى التمنى اختلاق الأشياء .. الشاعر الذى قال :

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا

لَأُخْرِجُهُ بِمَا قَتَلَ الشَّيْبَ

هل الشباب يمكن أن يعود ؟ .. طبعاً مستحيل .. هذا شيء لن يحدث .. والشاعر الذى قال :

لَيْتَ الْكَوَاكِبَ تَذُنُّو لِي فَأَنْظِمَهَا
عُقُودَ مَلْحٍ فَمَا أَرْغَى لَكُمْ تَعْلِيمَ

هل النجوم مستزل من السماء وتأت إلى هذا الشاعر .. ينظمها أبيات شعر إلى
حييته .. إذن من معاني التمنى الكذب والاختلاق . ولقد فر بعض المستشرقين
قول الله تبارك وتعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى (أى
قرأ) : « ألقى الشيطان فى أمنيته » (أى فى قراءته) .. وطبعاً الشيطان لن يلقى
فى قراءة الرسول إلا كذباً وإفتراء وكفراً .. اقرأ قوله سبحانه :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ أَكَلَتْ وَالْعُرْوَى ۝ وَمَنْزِلَةُ الْأُنثَى ۝ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْآلُفُنَى ۝
۝ تِلْكَ إِذْ أَوَّيَّهُمْ سَبِيحَتِي ۝ ﴾

(سورة النجم)

قال أعداء الإسلام مادام قد ذكر فى القرآن أسماء الغرائق .. وهى الأصنام
التي كان يعبدونها الكفار .. ومنها اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى .. إذن
فشاعة هذه الأصنام ترمى فى الآخرة .. وهذا كلام لا ينسجم مع منطق الدين
كله الذى يدعو لعبادة الله وحده .. ونخرج المستشرقون من ذلك بأن الدين فعلاً
يدعو لعبادة الله وحده .. إذن فيكون الشيطان قد ألقى فى أمنيته فيما يقوله رسول
الله .. ثم أحكم الله سبحانه آياته فقال تعالى :

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۝^٤

(من الآية ٢٣ سورة النجم)

وهم يريدون بذلك أن يشككوا .. فى أنه من الممكن أن يلقى الشيطان بعض
أفكاره فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولكن الله سبحانه ينسخ
ما يلقى الشيطان ويحكم آياته .

إن الله جل جلاله لم يترك وحيه لعبث الشيطان .. ولذلك سنبعث الآية بعيداً
عن كل ما قبل .. نقول لو أنك انتهت إلى قول الله تعالى : (وما أرسلنا من
قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى) لو قلنا تمنى بمعنى قرأ ، ثم أن الله ينسخ
ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته .. إذن هو سبحانه لن يترك رسوله

ينقطع. . . وبذلك ضمنا أن كل ما ينتهي إليه الرسول صواب . . . وأن كل ما وصلنا عن الرسول محكم . . . فنعلم أن الله ليس هناك شيء يمكن أن يلقيه الشيطان في غنى الرسول ويصلنا دون أن ينسخ .

إذا قلنا : إن الله ينسخ ما يلقى الشيطان فما الذي جعلكم تعرفون ما ألفاه الشيطان مادام رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل لكم إلا المحكم . . . ثم من هو الرسول ؟ بشر أوحى إليه بمنهج من السماء وأمر بتبليغه . . . ومن هو النبي ؟ . . . بشر أوحى إليه بمنهج . . . ولم يؤمر بتبليغه . . . ومادام لم يؤمر بتبليغه يكون خاصا بهذا النبي . . . ويكون النبي قدوة سلوكية . . . لأنه يطبق منهج الرسول الذي قبله فهو لم يأت بجديد .

الآية الكريمة جاءت بكلمتي رسول أو نبي . . . إذا كان معنى أمانة الشيطان مستقيا بالنسبة للرسول فهو غير مستقيم بالنسبة للنبي . . . لأن النبي لا يقرأ شيئا ، ومادام النبي ذكر في الآية الكريمة فلا بد أن يكون للتعبير معنى آخر غير القراءة . . . لأن النبي لم يأت بكلام يقرؤه على الناس . . . فكانه سيقرا كلاما محكما ليس فيه أمانة الشيطان أي قرأته .

إن التعبير لا يأتي بمعنى قراءة الشيطان . . . وأمانة الرسول والنبي أن ينجحوا في مهنتهما . . . فالرسول كمبلغ لمنهج الله والنبي كأسوة سلوكية . . . المعنى هنا يختلف . . . الرسول أمنيته أن يبلغ منهج الله . . . والشيطان يحاول أن يتزع منهج من قلوب الناس . . . هذا هو المعنى . . . والله سبحانه وتعالى حين يحكم آياته ينصر الإيمان ليسود منهج الله في الأرض وتنظم حركة الناس . . . هذا هو المعنى .

وكلمة نحي في هذه الآية الكريمة بمعنى أن الرسول أو النبي يجب أن يسود منهجه الأرض . . . والشيطان يلقى العراقل والله يحكم آياته وينصر الحق . . . ويجب أن نفهم الآية على هذا المعنى . . . بهذا ينتهي تماما ما يدعيه المستشرقون من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان يقرأ ما يوحى إليه يستطيع الشيطان أن يتدخل ويضع كلاما في الوحي . . . مستحيل .

وقوله تعالى : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمان » . . . معناها أنه يأتي

قوم لا يعرفون شيئا عن الكتاب إلا ظنا .. فيصدقهم هؤلاء الأميون دون علم .. وكان الله سبحانه يريد أن يلفتنا إلى أن كثيرا من المذاهب الدينية في الأرض ينشأ عن المبلعين لها .. فهناك أناس يأتون آخرين ليقولوا لهم ما انتهت إليه الأحكام الدينية .. فيأتي الأمي أو غير المثقف يسأل علما عن حكم من الأحكام الشرعية .. ثم يأخذ منه الحكم ويطبقه دون أن يناقشه .. لأن علمه قد انتهى عند السؤال عن الفتوى .. والحق سبحانه وتعالى كما يقول :

﴿وَلَا تَرَوْا زُرَّةً وَزَرَ أُخْرَىٰ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

أي لا يحمل احدا ذنب احد يوم القيامة .. فيقول تعالى :

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَمِثْلِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحل)

بعض الناس يظن أن الأيتين بينهما تعارض .. نقول لا .. من يرتكب إثما يحاسب عليه .. ومن يضل غيره بفتوى غير صحيحة يحل له بها ما حرم الله .. فإنه يعمل معاصيه ومعاصي من أضل .. فيكون له وزر لأنه أضل. ووزر لأنه أضل غيره .. بل وأكثر من ذلك .. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)^(١) .

ولابد أن تنبه إلى خطورة الفتوى في الدين بغير علم .. الفتوى في الدنيا أقصى ما يمكن أن تؤدي إليه هو أن تجعلك تقصر صفقة .. لكن الفتوى في الدين مستودع عمرا طويلا ..

الحق تبارك وتعالى يقول : « إن هم إلا يظنون » .. والظن كما قلنا هو نسبة راجحة ولكن غير مؤكدة .. وإذا كان التمني كما ورد في اللغة هو القراءة .. فهؤلاء الآميون لا يعلمون الكتاب إلا قراءة لسان بلا فهم .. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى عن اليهود :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

وهكذا نرى أن هناك صنفا يحمل التوراة وهو لا يعرف عنها شيئا .. والله جل جلاله قال إن مثله كالحمار .. ولكن أقل من الحمار ، لأن الحمار مهمته أن يحمل الأنغال .. ولكن الإنسان ليست مهمته أن يعمل ما يجهل .. ولكن لا بد أن يقرأ الكتاب ويعلم المطلوب منه .



﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ بِأَيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُوبُونَ﴾ ٢٧

هذه الآية الكريمة جاءت في القسم الثاني من اليهود وهو المقابل للأمين . . وهم إما أميون لا يعلمون الكتاب . . وإما يعلمون ولكنهم يغيرون فيه ويكتبونه بأيديهم ويقولون هذا من عند الله . ولذلك توعدهم الله تبارك وتعالى فقال : ويل لهم ، وبدأ الآية بالوعيد بالجزاء مباشرة . نلاحظ أن كلمة ويل في اللغة تستعمل معها كلمتي وبع وويس . . وكلها تعني الهلاك والعذاب . . وتستعمل للتحسر على غفلة الإنسان عن العذاب . . وإقرأ قوله تعالى :

﴿يَوَيْلٌ لِلَّذِينَ هَذَا الْكِتَابُ لَا يَغَادِرُ مَسِيرَةً وَلَا كَيْبَرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾

(من الآية ٤٩ سورة الكهف)

وقوله جل جلاله :

﴿يَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ هَٰذَا كِتَابٌ غَفَلَةٌ مِّنْ هَٰذَا﴾

(من الآية ٩٧ سورة الأنبياء)

هذه الويلات تعني الحسرة وقت رؤية العذاب . . وقيل إن الويل واد في جهنم يحوى الإنسان فيه أربعين غريفا والعياذ بالله . . والحق تبارك وتعالى ينذر الذين يكتبون الكتاب بأيديهم أن عذابهم يوم القيامة سيكون مضاعفا . . لأن كل من ارتكب إثما نتيجة لتزييفهم للكتاب سيكونون شركاء وسيحملون عذابهم معهم يوم القيامة ، وسيكون عذابهم مضاعفا أضعافا كثيرة .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم .. ألم يكن يكفى أن يقول الحق فويل للذين يكتبون الكتاب ويكون المعنى مفهوما .. يكتبون الكتاب بماذا ؟ بأيديهم .. نقول لا .. لأن الفعل قد يتم بالأمر وقد يتم بالفعل .. رئيس الدولة مثلا يتصل بأحد وزرائه ويقول له ألم أكتب إليك كتابا بكذا فلماذا لم تنفذه ؟ هو لم يكتب هذا الكتاب بيده ولكنهم كتبه بأمره ، ورؤساء الدول نادرا ما يكتبون كتباً بأيديهم ..

إن الله سبحانه وتعالى يريد هنا أن يبين لنا مدى تعمد هؤلاء للإثم .. فهم لا يكتبون مثلاً بأن يقولوا لغيرهم إكتبوا .. ولكن لإهتمامهم بتزييف كلام الله سبحانه وتزييره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا بأن الأمر قد تم كما يريدون تماماً .. فليست المسألة نزوة عابرة .. ولكننا مع سبق الإصرار والترصد .. وهم يريدون بذلك أن يشتروا ثمنا قليلا ، هو المال أو ما يسمى بالسلطة الزمنية .. يحكمون ويكون لهم نفوذ وسلطان .

ولقد كان أهل الكتاب في الماضي إذا اختلفوا في شيء .. ذهبوا إلى الكهان والرهبان وغيرهم ليقضوا بينهم .. لماذا ؟ لأن الناس حين يختلفون يريدون أن يستروا وراء ما يحفظ كبرياءهم إن كانوا مخطئين .. معنى لا أنهزم امامه ولا ينهزم أمامي .. وإنما يقولون ارتضينا حكم فلان .. فإذا كنا سنلجأ إلى تشريع السوء ليحكم بنا .. لا يكون هناك غالب ومغلوب أو منتهزم ومتنصر .. ذلك حين أخضع أنا وأنت لحكم الله يكون كل منا راضيا بنتيجة هذا الحكم .

ولكن رجال الدين اليهودى والمسيحي أخذوا يصدرون فتاوى متناقضة .. كل منهم حسب مصلحته وهواه .. ولذلك تضاربت الأحكام في القضايا المشابهة .. لأنه لم يعد الحكم بالعدل .. بل أصبح الحكم خاضعا لأهواء ومصالح وقضايا البشر .. وحين يكتبون الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله .. إنما يريدون أن يخلعوا على المكتوب قداسة تجعل الإنسان يأخذه بلا مناقشة .. وبذلك يكونون هم المرعفين باسم الله ، ويكتبون ما يريدون ويسجلونه كتابة ، وحين أحس أهل الكتاب بتضارب حكم الدين بما أضافه الرهبان والأخبار ، بدأوا يطلبون تحرير الحكم من سلطة الكنيسة .

ولكن لماذا يكتب هؤلاء الناس الكتاب بأيديهم ويقولون هذا من عند الله ١٩ .. الحق سبحانه وتعالى يقول : « ليشترؤا به ثمنا قليلا » .. وقد قلنا إن الإنسان لا يشتري الثمن .. ولكنه يدفع الثمن ويشترى السلعة .. ولكنتك هنا تدفع لتأخذ ثمنا .. تدفع من منحه الله وحكم الله فتغيره وتبدله لتأخذ ثمنا موقوتا .. والله سبحانه وتعالى يعطيك في الآخرة الكثير ولكنتك تبعه بالقليل .. وكل ثمن مهما بلغ تأخذه مقابل منحه الله يعتبر ثمنا قليلا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « فويل لهم مما كتبت أيديهم » .. الآية الكريمة بدأت بقوله تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » .. ثم جاء قوله تعالى : « فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .. فساعة الكتابة لها ويل وعذاب .. وساعة بيع الصفقة لها ويل وعذاب .. والذي يكسبونه هو ويل وعذاب .

لقد انتشرت هذه المسألة في كتابة صكوك الغفران التي كانت تباع في الكنائس لمن يدفع أكثر . والحق سبحانه وتعالى يقول : « وويل لهم مما يكسبون » .. وكلمة كسب تدل على عمل من أعمال جوارحك يجلب لك خيرا أو نفعا .. وهناك كسب وهناك اكتسب .. كسب تأتي بالشيء النافع ، واكتسب تأتي بالشيء الضار .. ولكن في هذه الآية الكريمة الحق سبحانه وتعالى قال : « وويل لهم مما يكسبون » .. وفي آية ثانية قال : « يلى من كسب سيئة » .

فلماذا تم هذا الإستخدام ؟ نقول إن هذا ليس كسبا طيبعا ، إنما هو افعال في الكسب .. أى اكتساب .. ولابد أن نفهم إنه بالنسبة لجوارح الإنسان .. فإن هناك القول والفعل والعمل .. بعض الناس يعتقد إن هناك القول والعمل .. نقول لا .. هناك قول هو عمل اللسان .. وفعل هو عمل الجوارح الأخرى غير اللسان .. وعمل وهو أن يوافق القول الفعل .. لذلك فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ﴿١﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ

تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾

إذن هناك قول وفعل وعمل .. والإنسان إذا استخدم جوارحه استخداما سلبيا يفعل ما هو صالح له .. فإذا انتقل إلى ما هو غير صالح إلى ما يفتض الله فإن جوارحه لا تفعل ولكنها تفعل .. تصادم ملكاتها بعضها مع بعض والإنسان وهو يفتح الخزانة ليأخذ من ماله يكون مطمئناً لا يخاف شيئا .. والإنسان حين يفتح خزانة غيره يكون مضطرباً وتصرفاته كلها افتعال .. والإنسان مع زوجته منسجم في هيئة طبيعية ، بعكس ما يكون في وضع مخالف .. إنها حالة افتعال .. وكل من يكسب شيئا حراما افتعله .. ولذلك يقال عنه اكتسب .. إلا إذا تمرس وأصبح الحرام لا يهزه ، أو ممن نقول عنهم معتادو الإجرام .. في هذه الحالة يفعل الشيء بلا افتعال لأنه اعتاد عليه .. هؤلاء الذين وصلوا إلى الحد الذي يكتبون فيه بأيديهم ويقولون من عند الله .. أصبح الإثم لا يهزهم ، ولذلك توعدهم الله بالعذاب مرتين في آية واحدة .



﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَقْدُودَةً قُلْ
أَتُخَذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٨٠

هنا يكشف الله سبحانه وتعالى فكر هؤلاء الناس .. لقد زين لهم الشيطان
الباطل فجعلهم يعتقدون أنهم كسبوا فعلا وأنهم أخذوا المال والجاه الدنيوي
وفازوا به .. لأنهم لن يعذبوا في الآخرة إلا عذابا خفيفا قصيرا .. ولذلك يفضح
الله تبارك وتعالى مايقولونه بعضهم مع بعض .. ماذا قالوا ؟ : « قالوا لن تمسنا النار إلا
أياما معدودة »

المس يعني اللمس الخفيف أو اقتراب شيء من شيء .. ولكن لا يمس أحدهما
بالآخر إلا إحساسا خفيفا لا يكاد يذكر .. فإذا أتيت إلى إنسان ووضعت أنا يديك
على يده يقال مسست .. ولكنك لم تستطع بهذا المس أن تحس بحرارة يده أو
نعومة جلده .. ولكن اللمس يعطيك إحساسا بما تلمس : « قالوا لن تمسنا النار
إلا أياما معدودة » وهكذا أخذوا أقل الأقل في العذاب .. ثم أقل الأقل في الزمن
فقالوا أياما معدودة .. الشيء إذا قيل عن معدود فهو قليل .. أما الشيء الذي
لا يحصى فهو الكثير .. ولذلك حين يتحدث الله عن نعمه يقول سبحانه :

﴿وَلَنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَأَنْتُمْ نَحْوَهَا﴾

(من الآية ١٨ سورة النحل)

فمجرد الإقبال على العد معناه أن الشيء يمكن إحصاؤه .. فإن لم يكن ممكنا
لأنه لا يُقِيل أحد على عده ، ولا نرى من حاول عدّ حبات الرمال أو ذرات الماء
في البحار .. نعم الله سبحانه وتعالى ظاهرة وخفية لا يمكن أن تحصى ، ولذلك

لا يُقْبَلُ أَحَدٌ عَلَى إِحْصَائِهَا .. وَإِذَا سَمِعْتَ كَلِمَةً « أَيَّامًا مَعْدُودَةً » فَاعْلَمْ أَنَّهَا أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ .. وَلِذَلِكَ نَرَى فِي سُورَةِ يُوسُفَ قَوْلَ الْحَقِّ جَلَّ جَلَالُهُ :

﴿ وَشَرَّوهُ يُثَمِّنَ بَحْسَ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة يوسف)

قَوْمُهُمْ لَنْ تَمْسَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً .. دَلِيلٌ عَلَى غِبَائِهِمْ لِأَنَّ مَدَّةَ الْمَسِّ لَا تَكُونُ إِلَّا لَحْظَةً .. وَلَكِنَّا أَمَانِي وَضَعَهَا الشَّيْطَانُ فِي عَقُولِهِمْ لِأَيُّ الرَّدِّ مِنَ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ سَبِّحَانَهُ : « قُلِ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ » أَيْ إِذَا كَانَ ذَلِكَ وَعْدًا مِنَ اللَّهِ ، فَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ . وَاللَّهُ يَأْمُرُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ لَسْتُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ تَحْكُمُونَ وَتَقَرُّونَ مَاذَا سَيَفْعَلُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِكُمْ .. بَلْ هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ الَّذِي يَحْكُمُ .. فَإِنْ كَانَ قَدْ أَعْطَاكُمْ عَهْدًا فَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ .

وقوله تعالى : « أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .. هُنَا أَدَبُ الثَّبُوتِ وَالْحَلَقِ الْعَظِيمِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. فَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ اتَّفَقْتُمْ عَلَى اللَّهِ أَوْ اتَّكَذَّبْتُمْ عَلَى اللَّهِ .. أَوْ اتَّخَذْتُمْ عَلَى اللَّهِ مَا لَمْ يَقُلْهُ .. قَالَ : « أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » إِنْ الَّذِي يَخْتَلِقُ الْكَلَامَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَخْتَلِقُ .. إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ يَعْلَمُ كَذِبَ مَا يَقُولُ ، وَقَدْ يَكُونُ لَهُ حُجَّةٌ وَيَقْنَعُ مِنْ أَمَامِهِ فَيُصَدِّقُهُ ، وَلَكِنَّهُ يَظُنُّ يَعْلَمُ إِنْ مَا قَالَهُ يَخْتَلِقُ رَغْمَ أَنْهُمْ صَدَّقُوهُ .. وَلِذَلِكَ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ فَلْعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ لْيَرْكَبْهَا)^(١) .

إِذَنْ خَلَقَ الشَّيْءَ يَعْرِفُ إِنْ هَذَا الشَّيْءُ يَخْتَلِقُ . وَهَؤُلَاءِ الْيَهُودُ هُمُ الْأَوَّلُ مَنْ يَعْلَمُ إِنْ قَوْمُهُمْ .. « لَنْ تَمْسَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً » قَوْلُ يَخْتَلِقُ .. وَلَكِنْ لِمَنْ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا هُوَ إِفْتِرَاءٌ وَكَذِبٌ ؟ يَقُولُونَ لِلْأَمِينِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ الْكِتَابَ .

﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ
فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٨١)

أراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح كذبهم .. فجاء القرآن قائلا : « بل » وهي حرف جواب مثل نعم تماما .. ولكن « بل » حرف جواب في النفي .. بمعنى ينفي الذي قبله .. هم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ورسول الله سلمهم هل اتخذوا عند الله عهدا أو يقولون على الله ما لا يعلمون ، فجاء القرآن ليقول : « بل من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .. بداية الجواب ببلى تنفي ما قالوا .. لأن بلى تأتي بعد النفي .. ونعم تأتي بعد الإجابة .. فإذا قال إنسان ليس لك عندى شيء وقلت نعم ، فمعناها أنه صحيح أنك ليس لك عندى شيء .. أما إذا قلت بلى ، فمعنى ذلك أن لك عندى شيئا أو أشياء .. ولذلك بعد قولهم « لن تمسنا النار إلا أياما معدودة » .. لو جاء بعدها نعم ، لكان قولهم صحيحا ، ولكن بلى نفت .. وجاء الكلام بعدها مؤكدا النفي :

« من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » هم قالوا لن تمسنا النار .. قال لن تمسكم فقط بلى أنتم فيها خالدون .. وقوله تعالى : « أصحاب النار » .. الصحة تقتضى نوعا من الملازمة فيها تجاذب المتصاحين .. ومعنى ذلك أنه سيكون هناك تجاذب بينهم وبين النار ..

هنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : « بل من كسب سيئة » .. وكان السياق يقتضى أن يقال اكتسب .. ولكن لأنهم ظنوا أنهم كسبوا .. كما بينا في الآية السابقة .. وقوله تعالى : « وأحاطت به خطيئته » .. احاطة بحيث

لا يوجد منفذ للإفلات من الخطيئة لأنها محيطة به . وأنسب تفسير لقوله تعالى :
« كَسِبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ » .. أن المراد الشرك .. لأن الشرك هو الذي
يحيط بالإنسان ولا مغفرة فيه .. والله تعالى يقول :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

(من الآية ٤٨ سورة النساء)

ولذلك فهو لاء لم يكونوا عصاة فقط .. ولكنهم كانوا كافرين مشركين .
والدليل قوله تعالى : « هم فيها خالدون » .. وأصحاب الصفائر أو الكائثر
الذين يتوبون منها لا يخلدون في النار .. ولكن المشرك بالله والكافر به هم
الخالدون في النار .. وكل من لم يؤمن بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كافر ..
لأن الله سبحانه وتعالى قال ،

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

(سورة آل عمران)

ولذلك قلت هناك فرق بين .. الإنسان الذي يرتكب معصية لأنه لا يقدر على
نفسه فيندم ويتوب .. وبين إنسان يفرح بالمعصية .. ولذلك يقول الحق سبحانه
وتعالى :

﴿إِنَّمَا أَتُوبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾

(من الآية ١٧ سورة النساء)

وهناك من يندم على المعصية وهذا له توبة .. وهناك من يفرح بالمعصية وهذا
يزداد معصية .



﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

عندما يذكر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم .. العذاب والنار يأتي بالمقابل وهو النعيم والجنة .. ذلك أن المقابلة تربنا الفرق .. وتعطى للمؤمن إحساسا بالسعادة .. لأنه زخرح عن عذاب الآخرة ، وليس هذا فقط .. بل تدخل الجنة ليقيم عالدا في النعيم .. ولذلك يقول سبحانه :

﴿مَنْ زُحِرَحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

إذن الفوز في الآخرة ليس على درجة واحدة ولكن على درجتين .. أولى درجات الفوز أن يزحرح الإنسان عن النار ولو إلى الأعراف وهذا فوز عظيم .. يكفى انك تمر على الصراط المضروب فوق النار وترى ما فيها من ألوان العذاب ، ثم بعد ذلك تنجو من هذا الهول كله .. يكفى ذلك ليكون فوزا عظيما .. لأن الكافر في هذه اللحظة يتمنى لو كان ترابا حتى لا يدخل النار .. فمرور المؤمن فوق الصراط ورؤيته للنار نعمة لأنه يحس بما نجا منه .. فإذا تجاوز النار ودخل إلى الجنة لينعم فيها نعيما خالدا كان هذا فوزا آخر .. ولذلك حرص الله تبارك وتعالى أن يعطينا المرحلتين . فلم يقل : من زحرح عن النار فاز .. ولم يقل من أدخل الجنة فاز .. بل قال « مَنْ زُحِرَحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ » .. وجاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات العذاب لتعطينا المقارنة .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَا لَوْلَا إِلَهُي
إِخْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ
تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٢)

أخذ الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل ثمانية أشياء : الميثاق . . وهو العهد
الموثق المربوط ربطا دقيقا وهو عهد القطرة أو عهد الدر . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وهناك عهد آخر أخذه سبحانه وتعالى على رسله جميعا . . أن يشيروا برسالة
رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ويطلبوا من أتباعهم أن يؤمنوا به عند بعثته . .
أو ألا يكتموا ما في كتبهم ولا يغيروه . . والميثاق هو كل شيء فيه تكليف من
الله . . ذلك أنك تدخل في عقد إيمان مع الله سبحانه وتعالى بأن تفعل ما يأمر به
وتترك ما يحظره . . هذا هو الميثاق . . كلمة الميثاق وردت في القرآن الكريم
بوصف غليظ . . في علاقة الرجل بالمرأة . . قال سبحانه وتعالى :

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ
شَيْئًا أَنَاخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض
وَأَخْذَنَ مِنْكُمْ نِسْفًا غَلِيظًا﴾ (٨١)

(سورة النساء)

نقول نعم لأن هذا الميثاق سيحل للمرأة أشياء لا تكون إلا به . . أشياء لا تحمل
لأيها أو لأخيها أو أي إنسان عدا زوجها . . والرجل إذا دخل على ابنته وكانت
سافها مكشوفة تسارع بتغطيته . . فإذا دخل عليها زوجها فلا شيء عليها . . إذن
هو ميثاق غليظ لأنه دخل مناطق العورة وأباح العورة للزوج والزوجة . . ولذلك
يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ هُنَّ لِيَاسٍ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

إن كلا منهما يغطي ويغشى ويستر عورة الآخر . . والأب لا يفرج من انتقال
ولاية ابنته إلى غيره . . إلا انتقال هذه الولاية لزوجها . . ويشعر بالقلق عندما
تكبر الفتاة ولا تتزوج .

الحق يقول : « وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله » هذا الميثاق
شمل ثلاثة شروط : « لا تعبدون إلا الله » . . أي تعبدون الله وحده . . وتؤمنون
بالثورة ويعبوسى نبيا . . لماذا ؟ لأن عبادة الله وحده هي قمة الإيمان . . ولكن
لا تحدد أنت منتهى عبادته سبحانه . . بل الذي يحدد المنهج العبادة هو المعبود وليس
العابد . . لا بد أن تتخذ المنهج المنزل من الله وهو الثورة وتؤمن به . . ثم بعد
ذلك تؤمن بمجوسى نبيا . . لأنه هو الذى نزلت عليه الثورة . . وهو الذى سيدين
لك طريق العبادة الصحيحة . وبدون هذه الشروط الثلاثة لا تستقيم عبادة بني
إسرائيل . .

وقوله تعالى : « وبالوالذين إحسانا » لأنها السبب المباشر في وجودك . . ربيك
وأنت صغير ، وربيك ، وقوله تعالى : « إحسانا » معناه زيادة على المفروض .
لأنك قد تؤدي الشيء بالمقدر المفروض منك . . فالذى يؤدي الصلاة مثلا بقدر
الغرض يكون قد أدى . . أما الذى يصل التواضيل ويقوم الليل يكون قد دخل في
جمال الإحسان . . أى عطاؤه أكثر من المفروض . . والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنْ أَسْقَيْنَا فِي جَنَّتٍ وَعَبَّوْنَ ۖ أَخَذِينَ مَاءً أَنَّهُمْ رِبِهِمْ ۖ إِنَّمَا كَانُوا قَبْلَ

ذَٰلِكَ مَحْمُودٌ ۝ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا يَحْكُمُونَ ۝ وَإِلَّا لَأَخْلَاهُمْ يَسْتَفْرِقُونَ ۝
وَقَدْ أَوْفَيْنَاهُمْ حَقَّ نَسَائِلِهِمْ وَالْمَحْرُومِ ۝

(سورة النازعات)

وهكذا نرى أن الإحسان زيادة على المفروض في الصلاة والتسبيح والصدقة .
والله تبارك وتعالى يريد منك أن تعطى لوالديك أكثر من المفروض أو من الواجب
عليك ..

وقوله تعالى : « وذوي القربى » .. يحدد الله لنا فيها المرتبة الثانية بالنسبة
للإحسان .. فالله جل جلاله أوصانا أن نحسن لوالدينا ونرعى أقاربنا .. ولو أن
كل واحد منا قام بهذه العملية ما وجد محتاج أو فقير أو مسكين في المجتمع ..
والله يريد مجتمعاً لا فقر فيه ولا حقد .. وهذا لا يتأتى إلا بالتراحم والإحسان
لوالدين والأقارب .. فيكون لكل محتاج في المجتمع من يكفله ..

يقول الله سبحانه : « واليتيم » .. واليتيم هو من فقد أباه وهو طفل لم يبلغ
مبلغ الرجال .. هذا في الإنسان .. أما في الحيوان فإن اليتيم من فقد أمه ..
لأن الأمومة في الحيوان هي اللازمة للطفل ، ولأن الأب غير معروف في الحيوان
ولكن الأم معروفة .. اليتيم الذي فقد أباه فقد من يعوله ومن يسعى من أجله
ومن يدافع عنه .. والله سبحانه وتعالى جعل الأم هي التي تربي وترعى ..
والأب يكافح من أجل توفير إحتياجات الأسرة .. ولكن الحال إنقلب الآن
وللذلك يقول شوقي رحمه الله :

لَيْسَ الْيَتِيمُ مَنِ انْتَهَى أَبَوَاهُ بَيْنَ
مَسْمِ الْحَتَاةِ وَخَلْفَاءِ ذَلِيلَا
إِنَّ الْيَتِيمَ هُوَ الَّذِي تَلْقَى لَكَ
أُمًّا تَحْتَكَ أَوْ أَبَا مَسْغُولَا

إن اليتيم يكون منكراً لأنه فقد والده فأصبح لا نصير له .. فإذا رأينا في
المجتمع الإسلامي أن كل يتيم يرعاه رعاية الأب كل رجال المجتمع .. فذلك

يجعل الأب لا ينشئ أن يترك ابنه بعد وفاته .. إذن فرعاية المجتمع لليتيم تضمن أولا حماية حقّه ، لأنه إذا كان يتيمًا وله مال فإن الناس كلهم يطعمون في ماله ، لأنه لا يقدر أن يحميه .. هذه واحدة .. والثانية أن هذا التكافل يُذهب الحقد من المجتمع ويجعل كل إنسان مطمئنًا على أولاده ..

وقوله سبحانه وتعالى : « والمساكين » .. في الماضي كنا نقول إن المساكين هم الذين لا يملكون شيئًا على الإطلاق لقيموا به حياتهم .. إلى أن نزلت الآية الكريمة في سورة الكهف :

﴿أَمَّا السَّعِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الكهف)

فعرفنا أن المسكين قد يملك .. ولكنه لا يملك ما يكفيه .. وهذا نوع من التكافل الإجتماعي لابد أن يكون موجودًا في المجتمع .. حتى يتكافل المجتمع كله .. فانت إن كنت فقيرًا أو مسكينًا ويأتيك من رجل غنى ما يعينك على حياتك .. فإنك ستعني له الخير لأن هذا الخير يصيبك .. ولكن إذا كان هذا الغنى لا يعطيك شيئًا .. هو يزداد غنى وأنت تزداد فقرًا .. تكون النتيجة أن حقه يزداد عليك ..

ويقول الحق سبحانه وتعالى : « وقولوا للناس حسنًا » .. كلمة حسنة بضم الحاء ترد بمعنى حسن بفتح الحاء .. والحسن هو ما حسنه الشرع .. ذلك أن العلماء اختلفوا : هل الحسن هو ما حسنه الشرع أو ما حسنه العقل ؟ نقول : ما حسنه العقل مما لم يرد فيه نص من تحسين الشرع .. لأن العقل قد يختلف في الشيء الواحد .. هذا يعتبره حسنة وهذا يعتبره قبيحة .. والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْهُمْ رَأْيِي مِنْ أَحْسَنُ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النحل)

هذا هو معنى قوله تعالى : « وقولوا للناس حسنًا » .. ثم جاء قوله جل

جلاله : « وأقيموا الصلاة » وقد تكلمنا عن معنى إقامة الصلاة وما يجعلها مقبولة عند الله . وهناك فرق بين أن تقول صلوا .. وبين أن تقول أقيموا الصلاة .. أقيموا الصلاة معناها صل ولكن صلاة على مستواها الذي يطلب منك .. وإقامة الصلاة كما قلنا هي الركن الذي لا يسقط أبداً عن الإنسان ..

ويقول الحق : « وآتوا الزكاة » .. بالنسبة للزكاة عندما يقول الله سبحانه : « وذو القربى واليتامى والمساكين » .. نقول أن الأقارب واليتامى والمساكين لهم حق في الزكاة ماداموا فقراء .. لنحس جميعاً أننا نعيش في بيئة إيمانية متكاملة متكافلة .. يحاول كل منا أن يعاون الآخر .. فالزكاة في الأساس تعطى للفقير ولو لم يكن يتيماً أو قريباً .. فإن لكل فقير حقوقاً ووعاية .. فإذا كان هناك فقراء أقارب أو يتامى يصبح لهم حقان .. حق القريب وحق الفقير ..

وإن كان يتيماً فله حق اليتيم وحق الفقير .. بعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى عناصر الميثاق الثمانية .. قال : « ثم توليتهم » .. تولى يعني أعرض أو لم أطلع أو لم يستمع .. يقول الحق سبحانه : « ثم توليتهم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون » .. هذا هو واقع تاريخ بني إسرائيل .. لأن بعضهم تولى ولم يقطع الميثاق وبعضهم أطاع ..

إن القرآن لم يشن حملة على اليهود ، وإنما شن حملة على المخالفين منهم . ولذلك احترم الواقع وقال : « إلا قليلاً » .. وهذا يقال عنه بالنسبة للبشر قانون صيانة الاحتمال ..

إن الحق جل جلاله يتكلم بإنصاف الخالق للمخلوق .. لذلك لم يقل « ثم توليتهم » بل قال « إلا قليلاً » « توليتهم » يعني أعرضتم ، ولكن الله تبارك وتعالى يقول : « ثم توليتهم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون » نريد أن نأخذ الدقة الأدائية .. إذا أردنا أن نفسر تولى .. فمعناها أعرض أو رفض الأمر .. ولكن الدقة لو نظرنا للقرآن لوجدنا أنه حين يلتقي المؤمن بالكافر في معركة .. قاله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَنَّ يَوْمَهُ يَوْمَئِذٍ دُرُّهُ لَا مَتَّحِرًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَرِّمًا لِّئِنَّ فِتْنَةً قَدْ بَاءَ

يَقْضَىٰ مِنْ أَفْهِ ۝

(من الآية ١٦ سورة الأنفال)

إذن قالتولى هو الإعراض . . والحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة بين لنا أن الإعراض يتم بنوايا مختلفة . . المقاتل يوم الزحف يعرض أو يتولى ليس بنية الحرب من المعركة . . ولكن بنية أن يذهب ليقاتل في مكان آخر أو يعاون إخوانه الذين تكاثروا عليهم الأعداء . . هذا إعراض ولكن ليس بنية الحرب من المعركة . . ولكن بنية القتال بشكل أنسب للنصر . .

نفرض أن إنسانا مدين لك رأيه وهو قادم في الطريق فتوليت عنه . . أنت لم تعرض عنه كرها . . ولكن رحمة لأنك لا تريد المساس بكرامته . . إذن هناك تول أو إعراض ليس بنية الإعراض . والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن هؤلاء اليهود تولوا بنية الإعراض ، ولم يتولوا بأى نية أخرى . . أى أنهم أعرضوا وهم متعمدون أن يعرضوا . . وليس لهذا آخر .



﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ
أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَزْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

قلنا ساعة تسمع « إذ » فأعلم أن معناها أذكر .. وقلنا إن الميثاق هو العهد الموثق .. وقوله تعالى : « لا تسفكون دماءكم » .. والله تبارك وتعالى ذكر قبل ذلك في الميثاق عبادة الله وحده .. وبإلوالدين إحسانا وذو القربى واليتامى والمساكين .. وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة إلى آخر ما جاء في الآية الكريمة .. وكلها أوامر أى وكلها الفعل .. استكمالا للميثاق .. يقول الله في هذه الآية الكريمة ما لا تفعل .. فالعبادة كما قلنا هى إطاعة الأوامر والامتناع عن النواهى .. أو ما نهى عنه الميثاق :

« لا تسفكون دماءكم » ومعناها لا يسفك كل واحد منكم دم أخيه .. لا يسفك بعضهم دم بعض . ولكن لماذا قال الله : « دماءكم » ؟ لأنه بعد ذلك يقول : « ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » .. الحكم الإيماني بمخاطب الجماعة الإيمانية على أنها وحدة واحدة .. لذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم وترحمهم كمثل الجسد الواحد إذا شتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)^(١) .

فكان المجتمع الإيماني وحدة واحدة .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

ولكن إذا كنت أنا الداخل فكيف أسلم على نفسى ؟ كأن الله يخاطب المؤمنين على أساس أنهم رحلة واحدة .. وعمل هذا الأساس يقول سبحانه : « لا تصفكون دماءكم » .. أى لا تقتلوا أنفسكم .. السفك معناه حب الدم .. « ودعاءكم » هو السائل الموجود فى الجسم اللازم للحياة .. وقوله تعالى : « ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم » يعنى لا يخرج بعضكم بعضا من ديارهم .. ثم ربط المؤمنين من بنى إسرائيل بقوله تعالى : « ثم أقررتهم وأنتم تشهدون » .. أقررتهم أى اعترفتم : « وأنتم تشهدون » الشهادة هى الإخبار بمشاهد .. والقاضى يسأل الشهود لأنهم رأوا الحادث فيروون ما شاهدوا .. وأنت حين تروى ما شاهدت .. فكان الذين سمعوا أصبح ما وقع مشهودا وواقعا لديهم .. وشاهد الزور يغير المواقع .

الحق سبحانه وتعالى يخاطب اليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. ويذكرهم بما كان من آياتهم الأولين .. وموقفهم من أخذ الميثاق حين رفع فوقهم جبل الطور وهى مسألة معروفة .. والقرآن يريد أن يقول لهم إنكم غيرتم ويدلثم فيما تعرفون .. فالذى جاء على هواكم طبقتموه .. والذى لم يأت على هواكم لم تطبقوه .



ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسْرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ مَوْحُورٌ عَلَيْكُمْ إخراجُهُمْ أَفْتَوْمُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

يتخاطب الحق جل جلاله اليهود ليفضحهم لأنهم طبقوا من التوراة ما كان على
هوامهم .. ولم يطبقوا ما لم يعجبهم ويقول لهم : « أفتمنون ببعض الكتاب وتكفرون
ببعض » . إنه يذكرهم بأنهم وافقوا على الميثاق وأقروا .

ولقد نزلت هذه الآية عندما زنت امرأة يهودية وأرادوا ألا يقيموا عليها الحد
بالرجم .. فقالوا تذهب إلى محمد طائين أنه سيغيبهم من الحد الموجود في
كتابهم .. أو أنه لا يعلم ما في كتابهم .. فلما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال لهم هذا الحكم موجود عندكم في التوراة .. قالوا عندنا في التوراة أن
نلطيخ وجه الزان والزانية بالقدارة ونطوف به على الناس .. قال لهم رسول الله
لا .. عندكم آية الرجم موجودة في التوراة فانصرفوا .. فكانهم حين يحسبون أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم سيخفف حدا من حدود الله .. يذهبون إليه
ليستغفروه .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » .. أي بعد
أن أخذ عليكم الميثاق ألا تفعلوا .. تقتلون أنفسكم .. يقتل بعضهم بعضا ، أو
أن من قتل سيقتل . فكانه هو الذي قتل نفسه .. والحق سبحانه قال : « ثم أنتم
هؤلاء تقتلون أنفسكم » .. لماذا جاء بكلمة هؤلاء هذه ؟ لأنها إشارة للتنبيه لكي
نلتفت إلى الحكم .

وقوله تعالى : « وتخرجون فريقا منكم من ديارهم » وحلزمهم بقوله :
« ولا تخرجون أنفسكم من دياركم » .. وجاء هذا في الميثاق . ما هو الحكم الذي

يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا إليه ؟ نقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما هاجر إلى المدينة انتقل من دار شرك إلى دار إيمان .. ومعنى دار إيمان أن هناك مؤمنين سبقوا .. فهناك من آمن من أهل المدينة .. لقد هاجر المسلمون قبل ذلك إلى الحبشة ولكنها كانت هجرة إلى دار أمن وليست دار إيمان .. ولكن حين حدثت بيعة العقبة وجاء جماعة من المدينة وعاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمنوا به .. أرسل معهم الرسول مصعب بن عمير ليعلمهم دينهم .. وجاءت هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام على حبرة إيمانية موجودة .. لما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أفسد على اليهود خطة حياتهم .. فاليهود كانوا ممثلين في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة .. وكان هناك في المدينة الأوس والخزرج .. وبينهما حروب دائمة قبل أن يأتي الإسلام .. فاليهود قسموا أنفسهم إلى قوم مع الأوس وقوم مع الخزرج حتى يضمنا استمرار العداءة .. فكلما هدأ القتال أمحاءوا أسد المسكرين على الآخر ليعود القتال من جديد .. وهم كذلك حتى الآن وهذه طبيعتهم .

إن الذي صنع الشيوعية يهودي ، والذي صنع الرأسمالية يهودي .. والذي يحرك العداءة بين المسكرين يهودي .. وكان بنو النضير وبني قينقاع مع الخزرج وبني قريظة مع الأوس .. فإذا اشتبك الأوس والخزرج كان مع كل منهم حلفاؤه من اليهود . عندما تنتهي المعركة ماذا كان يحدث ؟ إن المسورين من بني النضير وبني قينقاع يقوم بنو قريظة بالمساعدة في فك أسرهم .. مع أنهم هم المسيبون في هذا الأسر .. فإذا انتصرت الأوس وأخذوا أسرى من الخزرج ومن حلفائهم اليهود .. يأتي اليهود ويعملون على إطلاق سراح الأسرى اليهود .. لأن عندهم نصا أنه إذا وجد أسير من بني إسرائيل فلا بد من فك أسره .

والحق سبحانه وتعالى يقول لهم إن أمهالكم في أن يحارب بعضكم بعضا وأن تسفكوا دماءكم .. لا تنفق مع الميثاق الذي أخذه الله عليكم بل هي مصالح دنيوية .. تقتلون أنفسكم والله نهاكم عن هذا : « وتخرجون فريفا منكم من ديارهم » والله نهاكم عن هذا : « تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوك أسارى تغادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » .. وهذا ما كان يحدث في المدينة في الحروب بين الأوس والخزرج كما بينا .. والأسارى جمع أسير وهي على غير قياسها ، لأن القياس فيها أسرى .. ولذلك نرى في آية أخرى أنه يأتي قول الله

سبحانه وتعالى :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْجِرَ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الأنفال)

ولكن القرآن أن بها أسارى .. واللغة أحيانا تأل على غير ما يقتضيه قياسها لتلفتك إلى معنى من المعاني .. فكسلان تجمع كسالى . والكسلان هو هابط الحركة .. الأسير أيضا أنت قيدت حركته .. فكان جمع أسير على أسارى إشارة إلى تقييد الحركة .. القرآن الكريم جاء بأسارى وأسرى .. ولكنه حين استخدم أسارى أراد أن يلفتنا إلى تقييد الحركة مثل كسالى .. ومعنى وجود الأسرى أن حربا وقعت .. لحرب تقتضى الالتقاء والالتحام .. ويكون كل واحد منهم يريد أن يقتل عدوه .

كلمة الأسر هذه أخذت من أجل تهذئة سعار اللغاة .. فكان الله أراد أن يجمي القوم من شراسة نفوسهم وقت الحرب فقال لهم إستأسروهم .. لا تقتلوهم إلا إذا كنتم مضطرين للقتل .. ولكن خذوهم أسرى وفي هذا مصلحة لكم لأنكم ستأخذون منهم الفدية .. وهذا تشريع من ضمن تشريعات الرحمة .. لأنه لو لم يكن الأسر مباحا .. لكان لابد إذا انتهى مقاتلان أن يقتل أحدهما الآخر .. لذلك يقال خذ أسيرا إلا إذا كان وجوده خطراً على حياتك .

وقول الحق تبارك وتعالى : « وإن يأتوكم أسارى فتادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » .. كانت كل طائفة من اليهود مع حليفها من الأوس أو الخزرج .. وكانت تخرج المغلوب من دياره وتأخذ الديار .. وبعد أن تنتهى الحرب يتادوهم .. أى يأخذون منهم الفدية ليعيدوا إليهم ديارهم وأولادهم . لماذا يقسم اليهود أنفسهم هذه القسمة .. إنها ليست تقسيمة إيمانية ولكنها تقسيمة مصلحة دينوية .. لماذا ؟ لأنه ليس من المعقول وأنتم أهل كتاب .. ثم تقسمون أنفسكم قسما مع الأوس وقسما مع الخزرج .. ويكون بينكم إثم وعدوان .

وقوله تعالى : « تظاهروا عليهم بالإثم والعدوان » .. تظاهرون عليهم أى

تعاونون عليهم وأنتم أهل دين واحد : « بالإثم » .. والإثم هو الشيء الخبيث الذى يستحق منه الناس : « والعدوان » .. أى التعدى بشراسة .. وقوله تعالى : « وأن يأتوكم أسارى فتادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم » .. أى تخرجوهم من ديارهم وتأخذوا الفدية لترجعوها إليهم .

ثم يقول الله تبارك وتعالى : « أفؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » .. أى تأخذون القضية على أساس المصلحة الدنيوية .. وتقسمون أنفسكم مع الأوس أو الخزرج .. تفعلون ذلك وأنتم مؤمنون بآله ورسول وكتاب .. مستحيل أن يكون دينكم أو نبيكم قد امركم بهذا .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي فى الحياة الدنيا » أى إنكم فعلتم ذلك وخالفتم لتصلوا إلى مجد دنيوى ولكنكم لم تصلوا إليه .. سيحكم الله بخزى فى الدنيا .. أى أن الجزاء لن يتأخر إلى الآخرة بل سيأتيكم خزى وهو الهوان والذل فى الدنيا .. وماذا فى الآخرة ؟ يقول الله تعالى : « ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب » الخزى فى الدنيا أصابهم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .. وأخرج بنو قينقاع من ديارهم فى المدينة .. كذلك ذبح بنو قريظة بعد أن خانوا العهد وخانوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين .. وهكذا لا يؤخر الله سبحانه وتعالى جزاء بعض الذنوب إلى الآخرة .. وجزاء الظلم فى الدنيا لا يؤجل إلى الآخرة ، لأن المظلوم لابد أن يرى مصرع ظالميه حتى يعتدل نظام الكون .. ويعرف الناس أن الله موجود وأنه سبحانه لكل ظالم بالمرصاد .. اليهود أتاهم خزى الدنيا سريعا : « يوم القيامة يردون إلى أشد العذاب » .

قد يتساءل الناس ألا يكفهم الخزى فى الدنيا عن عذاب الآخرة ؟ نقول لا .. لأن الخزى لم ينلهم فى الدنيا حدا .. ولم يكن نتيجة إقامة حدود الله عليهم .. فالخزى حين ينال الإنسان كمحد من حدود الله يعفيه من عذاب الآخرة .. فالذى سرق وقطعت يده والذى زنا ورجم .. هؤلاء نالهم عذاب من حدود الله فلا يحاسبون فى الآخرة .. أما الظالمون فالأمر يختلف .. لذلك فإننا نجد أناسا من الذين ارتكبوا إثما فى الدنيا يلحون على إقامة الحد عليهم لينجوا من عذاب الآخرة .. مع أنه لم يرههم أحد أو يعلم بهم أحد أو يشهد عليهم أحد ..

حتى لا يأت واحد ليقول : لماذا لا يعفى الظالمون الذين أصابهم خزي في الدنيا من عذاب الآخرة ؟ نقول إنهم في خزي الدنيا لم يحاسبوا عن جرائمهم .. أصابهم ضر وعذاب .. ولكن أشد العذاب ينتظرهم في الآخرة .. وما أهون عذاب الدنيا الذي هو بقدرة البشر بالنسبة لعذاب الآخرة الذي هو بقدرة الله سبحانه وتعالى ، كما أن هذه الدنيا تنتهي فيها حياة الإنسان بالموت ، أما الآخرة فلا موت فيها بل خلود في العذاب .

ثم يقول الحق جل جلاله : « وما الله بغافل عما تعملون » .. أى لا تحسب أن الله سبحانه وتعالى يغفل عن شيء في كونه فهو لا تأخذه سنة نوم .. وهو بكل شيء محيط .



﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْقُقُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ٨٦

ويذكر لنا الله سبحانه وتعالى سبب خيبة هؤلاء وضلالهم لأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة .. جعلوا الآخرة ثمنًا لتزواتهم وتفوذهم في الدنيا .. هم نظروا إلى الدنيا فقط .. ونظرة الإنسان إلى الدنيا ومقارنتها بالآخرة تجعلك تطلب في كل ما تفعله ثواب الآخرة .. فالدنيا عمرك فيها محدود .. ولا تقل عمر الدنيا مليون أو مليونان أو ثلاثة ملايين سنة .. عمر الدنيا بالنسبة لك هو مدة بقائك فيها .. فإذا خرجت من الدنيا انتهت بالنسبة لك .. والخروج من الدنيا بالموت .. والموت لا أسباب له ولذلك فإن الإسلام لا يجعل الدنيا هدفاً لأن عمرنا فيها مظلون .. هناك من يموت في بطن أمه .. ومن يعيش ساعة أو ساعات ، ومن يعيش إلى أرذل العمر .. إذن فالخيار إلى الآخرة ، ففيها النعيم الدائم والحياة بلا موت والمتعة على قدرات الله .. ولكن خيبة هؤلاء أنهم اشتروا الدنيا بالآخرة .. ولذلك يقول الحق عنهم : « فلا يحقق عنهم العذاب ولا هم ينصرون » .. لا يخفف عنهم العذاب أي يجب ألا يأمنوا أن العذاب في الآخرة سيخفف عنهم .. أو ستقل درجته أو تنقص مدته .. أو سيأتي يوماً ولا يأتي يوماً وقوله : « ولا هم ينصرون » .. النصرة تأتي على معنيين .. تأتي بمعنى أنه لا يغلب .. وتأتي بمعنى أن هناك قوة تتصر له أي تنصره .. كونه يغلب .. الله سبحانه وتعالى غالب على أمره فلا أحد يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .. ولكن الله يملك النفع والضرر لكل خلقه .. وملك تبارك وتعالى أن يقهر خلقه على ما يشاء .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾

أما مسألة أن ينصره أحد .. فمن الذى يستطيع أن ينصر أحدا من الله ..
وأفرا قوله سبحانه وتعالى عن نوح عليه السلام :

﴿وَيَقَوْمَ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾

(من الآية ٣٠ سورة هود)

يقول الحق سبحانه وتعالى : « فلا يخفف عنهم العذاب » .. أمر لم يقع بعد
بل سيقع مستقبلا .. يتحدث الله سبحانه وتعالى عنه بلهجة المضارع .. نقول
إن كل أحداث الكون وما سيقع منها هو عند الله تم وانتهى وقضى فيه .. لذلك
نجد في القرآن الكريم قوله سبحانه :

﴿أَنْ أَمُرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

أنى فعل ماض .. ولا تستعجلوه مستقبل .. كيف يقول الله سبحانه وتعالى
أنى ثم يقول لا تستعجلوه ؟ إنه مستقبل بالنسبة لنا .. أما بالنسبة لله تبارك وتعالى
فها دم قد قال أنى .. فمعنى ذلك أنه حدث .. فلا أحد يملك أن يمنع أمرا من
أمور الله من الحدوث .. فالعذاب ؟ ت لهم آت .. ولا يخفف عنهم لأن أحدا
لا يملك تخفيفه .



﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ
بِالرُّسُلِ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ
بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى
أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا
تَقْتُلُونَ﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى لنا ما فعله اليهود مع نبيهم موسى عليه السلام ..
أراد أن يبين لنا ما فعله بنو إسرائيل بعد نبيهم موسى .. وأراد أن يبين لنا موقفهم من
رسول جاءهم منهم .. ولقد جاء لبني إسرائيل رسل كثيرون لأن مخالفتهم للمسيح
كانت كثيرة .. ولكن الآية الكرمة ذكرت عيسى عليه السلام .. لأن الديانتين
الكبيرتين اللتين سبقتا الإسلام هما اليهودية والنصرانية .. ولكن لابد أن نعرف أنه
قبل مجيء عيسى .. وبين رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام رسل كثيرون ..
منهم داود وسليمان وزكريا ويحيى وغيرهم .. فكانه في كل فترة كان بنو إسرائيل
يبتعدون عن الدين .. ويرتكبون المخالفات وتنتشر بينهم المعصية .. فبرسل الله
رسولا يعمل ميزان حركة حياتهم .. ومع ذلك يعودون مرة أخرى إلى معصيتهم
وقسوتهم .. فبيعت الله رسولا جديداً .. ليزيل الباطل وهوى النفس من المجتمع
ويطبق شرع الله .. ولكنهم بعده يعودون مرة أخرى إلى المعصية والكفر .

وقال الله سبحانه وتعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب » والفائل هو الله جل
جلاله .. والكتاب هو التوراة : « وقفينا من بعده بالرسول » .. والله تبارك وتعالى
بين لنا موقف بني إسرائيل من موسى .. وموقفهم من رسول الله صلى الله عليه
وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين .. ولكنه لم يبين لنا موقفهم من الرسل الذين جاءوا
بعد موسى حتى عيسى ابن مريم .

الحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا .. إلى أنه لم يترك الأمر لبني إسرائيل بعد
موسى .. أن يعملوا بالكتاب الذي أرسل معه فقط .. ولكنه أتبع ذلك بالرسول ..
حين تسمع « قفينا » .. أي اتبعنا بعضهم بعضاً .. كل يخلف الذي سبقه « وقفينا »

مشقة من قفا . . وقفا الشيء خلفه . . وتقول قفوت فلاناً أى سرت خلفه قريباً منه .

إن الحق يريد أن تلثفت إلى أن رسالة موسى لم تقف عند موسى وكتابه . . ولكنه سبحانه أرسل رسلاً وأنبياءً لذكروا ونبهوا . . ولقد قلنا إن كثرة الأنبياء لبنى إسرائيل ليست شهادة لهم ولكنها شهادة عليهم . . إنهم يتفخرون أنهم أكثر الأمم أنبياء . . ويعتبرون ذلك ميزة لهم ولكنهم لم يفهموا . . فكثرة الأنبياء والرسل دلالة على كثرة فساد الأمة ، لأن الرسل إنما يجيئون لتخليص البشرية من فساد وأمراض وإنقاذها من الشقاء . . وكلما كثرت الرسل والأنبياء دل ذلك على أن القوم قد انحرفوا بمجرد ذهاب الرسول عنهم ، ولذلك كان لا بد من رسول جديد . . فحما كما يكون المريض في حالة خطيرة فيكثر أطباؤه بلا فائدة . . وليقطع الله سبحانه وتعالى عليهم الحجة يوم القيامة . . لم يترك لهم فترة من غفلة . . بل كانت الرسل تأتيهم واحداً بعد الآخر على فترات قريبة .

وإذا نظرنا إلى يوشع وأشمويه وشمعون . وداود وصليمان وشعيب وأرميا . وحزقييل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى . . نرى موكباً طويلاً جاء بعد موسى . . حتى إنه لم تمر فترة ليس فيها نبي أو رسول . . وحتى نفرق بين النبي والرسول . . نقول النبي مرسل والرسول مرسل . . كلاهما مرسل من الله . . ولكن النبي لا يأتي بشريع جديد . . وإنما هو مرسل على منهج الرسول الذي سبقه . . وإقرأ قوله سبحانه :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الحج)

إذن فالنبي مرسل أيضاً . . ولكنه أسوة سلوكية لتطبيق منهج الرسول الذي سبقه .

وهل الله سبحانه وتعالى قص علينا قصص كل الرسل والأنبياء الذين أرسلهم ؟
إقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا نَقَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ وَكَأَنَّمْ
 اللَّهُ مُؤَمِّنٌ تَكْلِيمًا ١١٥﴾

(سورة النساء)

إذن هنالك رسل وأنبياء أرسلوا إلى بني إسرائيل لم تعرفهم .. لأن الله لم يقصص علينا نبأهم .. ولكن الآية الكريمة التي نحن بصددھا لم تذكر إلا عيسى عليه السلام .. باعتباره من أكثر الرسل أتباعا .. والله تبارك وتعالى حينما أرسل عيسى إليه بالآيات والبينات التي تثبت صدق بلاغه عن الله .. ولذلك قال جل جلاله : « وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » .. وعيسى ابن مريم عليه السلام جاء ليرد على المادية التي سيطرت على بني إسرائيل .. وجعلتهم لا يعترفون إلا بالشيء المادى المحسوس .. فعقولهم وقلوبهم أغلقت من ناحية الغيب .. حتى إنهم قالوا لموسى : « أرنا الله جهرة » .. وحين جاءهم المن والسلوى رزقا من الله .. خافوا أن ينقطع عنهم لأنه رزق غيبى فطلبوا نبات الأرض .. لذلك كان لا بد أن يأتى رسول كل حياته ومعجزاته أمور غيبية .. مولده أمر غيبى ، وموته أمر غيبى ورفع أمر غيبى ومعجزاته أمور غيبية حتى ينقلهم من طغيان المادية إلى صفاء الروحانية .

لقد كان أول أمره أن يأتى عن غير طريق التكاثر المادى .. أى الذى يتم بين الناس عن طريق رجل وأنثى وحيوان متوى .. والله سبحانه وتعالى أراد أن يخلع من أذهان بني إسرائيل إن الأسباب المادية تحكمه .. وإنما هو الذى يحكم السبب . هو الذى يخلق الأسباب متى قال : « كن » كان .. بصرف النظر عن المادية المألوفة فى الكون .. وفى قضية الخلق أراد الله جل جلاله للمقول أن تفهم أن مشيئة هي السبب وهي الفاعلة .. وإقرأ قوله سبحانه :

﴿قَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَلْقٍ مَائِسًا ١١٦ يَبْ لِمَنْ يَسَاءُ إِنَّنَا وَيَبْ لِمَنْ يَسَاءُ ١١٧ أَوْ يَزُوجَهُمْ ذُرَّانَا وَلِنَظُرَ يَسَاءُ خِيَامًا ١١٨

إِنَّمْ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ١١٩﴾

(سورة الشعراء)

فكان الله سبحانه وتعالى جعل الذكورة والأنوثة هما السبب في الإنجاب .. ولكنه جعل طلاقة القدرة مهيمنة على الأسباب .. فبات رجل وامرأة ويتزوجان ولكنها لا يتنجبان .. فكان الأسباب نفسها عاجزة عن أن تفعل شيئاً إلا بإرادة المسبب .

والله سبحانه وتعالى يقول : « وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » .. لماذا قال الحق تبارك وتعالى : « وأيدناه بروح القدس » .. ألم يكن باقى الرسل والأنبياء مؤيدين بروح القدس ؟

نقول : لقد ذكر هنا تأييد عيسى بروح القدس لأن الروح مستشع في كل امر له .. ميلاداً ومعجزة وموتاً .. والروح القدس هو جبريل عليه السلام لم يكن يفارقه أبداً .. لقد جاء عيسى عليه السلام على غير مألوف الناس وطبيعة البشر مما جعله معرضاً دائماً للمهجوم .. ولذلك لابد أن يكون الوحي في صحبته لا يفارقه .. ليجعل من مهابته على القوم ما يرد الناس عنه .. وعندما يتحدث القرآن أنه رفع إلى السماء .. اختلف العلماء هل رفع إلى السماء حياً ؟ أو مات ثم رفع إلى السماء ؟ نقول : لو أننا عرفنا أنه رفع حياً أو مات فما الذى يثير في مناجنا ؟ لاشء .. وعندما يقال إنه شيء عجيب أن يرفع إنسان إلى السماء ، ويظل هذه الفترة ثم يموت .. نقول إن عيسى ابن مريم لم يتراً من الوفاة .. إنه سيَبُقى كما يَبُقى سائر البشر .. ولكن هل كان ميلاده طبيعياً ؟ الاجابة لا .. إذن فلماذا تتعجب إذا كانت وفاته غير طبيعية ؟ لقد خلق من أم بدون أب .. فلماذا حدث أنه رفع إلى السماء حياً وسينزل إلى الأرض فما العجب في ذلك ؟ ألم يصعد رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى السماء حياً ؟ ثم نزل لنا بعد ذلك إلى الأرض حياً ؟ لقد حدث هذا لمحمد عليه الصلاة والسلام .. إذن فالبدء موجود .. فلماذا تستبعد صعود عيسى ثم نزوله في آخر الزمان ؟ والفرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى هو أن محمداً لم يمكث طويلاً في السماء ، بينما عيسى بقى .. والحلاف على الفترة لا ينقض المبدأ .

عن ابن المسيب أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل ليكم ابن مريم صلى الله عليه وسلم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفرض المال حتى لا يقبله أحد) (١) .

(١) رواه البخارى في الظالم ومسلم في الإيمان وأبو داود في الملاحم والترمذى في الفتن وابن ماجه في الفتن ورواه أحمد في المسند .

وهذا الحديث موجود في صحيح البخارى .. فقد جعله الله مثلا لى اسرائيل .. وإقرأ قوله سبحانه :

﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ اتَّعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۝٥٦ ﴾

(سورة الزخرف)

قوله تعالى : « وأتينا عيسى ابن مريم البينات » .. البينات هى المعجزات مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموت بإذن الله وغير ذلك من المعجزات .. وهى الأمور البينة الواضحة على صدق رساله .

لكننا إذا تأملنا فى هذه المعجزات .. نجد أن بعضها نسبت لقدرة الله لإحياء الموتى جاء بعدها بإذن الله .. وبعضها نسبها إلى معجزته كرسول .. ومعروف انه كرسول يؤيده الله بمعجزات تحرق قوانين الكون .. ولكن هناك فرق بين معجزة تعطى كشفا للرسول .. وبين معجزة لا بد أن تتم كل مرة من الله مباشرة .. وإقرأ الآية الكريمة :

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّلَاحِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ لِيَكُونَ لَكُمْ بِلَإِذْنِ اللَّهِ وَابْرَأُ الْأَحْمَـةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِىَ الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَتَّبِعْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْعُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝٥٧ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نرى فى الآية الكريمة أنه بينما كان إخبار عيسى لما يأكل الناس وما يدعرون فى بيوتهم كشفاً من الله .. كان إحياء الموت فى كل مرة بإذن الله .. وليس كشفا ولا معجزة ذاتية لميسى عليه السلام .. إن كل رسول كان مؤيداً بروح القدس وهو جبريل عليه السلام .. ولكن الله أيد عيسى بروح القدس دائماً معه .. وهذا معنى قوله تعالى : « وأيدناه بروح القدس » .. وأيدناه مشقة من القوة ومعناها قوته

بروح القدس في كل أمر من الأمور .. وكلمة روح تأن على معينين .. المعنى الأول ما يدخل الجسم فيعطيه الحركة والحياة .. وهناك روح أخرى هي روح القيم تجعل الحركة نافعة ومفيدة .. ولذلك سمي الحق سبحانه وتعالى القرآن بالروح .. وإقرأ قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

والقرآن روح .. من لا يعمل به تكون حركة حياته بلا قيم .. إذن كل ما يتصل بالمنهج فهو روح .. والقدس هذه الكلمة تأن مرة بضم القاف وتسكين الدال .. ومرة بضم القاف وضم الدال .. وكلا اللفظين صحيح وهى نفيذ الطهر والتزهر عن كل ما يعيب ويشين .. والقدس يعنى المظهر عن كل شائبة .

قوله تبارك وتعالى : أفكلنا جاءكم رسولٌ بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم « قوله تعالى : « أفكلنا » .. هناك عطف وهناك استفهام ، وهى تمنى أكفرتم ، وكلنا جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم .. أى إن اليهود جعلوا أنفسهم مشرعين من دون الله .. وهم يريدون أن يشرعوا لرسولهم .. فإذا جاء الرسول بما يخالف هواهم كذبوه أو قتلوه .

وقوله تعالى : « بما لا تهوى أنفسكم » .. هناك هَوَى بالفتحة على الواو وهَوَى بالكسرة على الواو .. هَوَى بالفتحة على الواو بمعنى سقط إلى أسفل .. وهَوَى بالكسرة على الواو معناه أحب وأشتهى .. اللفظان ملتقيان .. الأول معناه الهبوط ، والثانى حب الشهوة والهوى يؤدى إلى الهبوط .. ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى حينما يشرع يقول (تَعَالَوْا) ومعناها ارفعوا من موقعكم الهابط .. إذن فالمنهج جاء ليخلصنا من السقوط .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم .. يعطينا هذا المعنى ، وكيف ان الدين يخلصنا من أن نهوى ونسقط في جهنم يقول :

(إنما مثل ومثل أمي كمثل رجل استوقد نارًا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأتانا أخذ بحجزكم وأنتم موحون فيه)^(١) .

(١) رواه مسلم في الزهد ، وابن ماجه في الزهد . ورواه أحمد :

ومعنى أخذ بحجزكم أى أخذ بكم .. وكأنا نقبل على النار ونحن نشتهيها
باتباعنا شهوتنا .. ورسول الله يمنح الله يحاول أن ينفذنا منها .. ولكن رب نفس
عشت مصرعها .. والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ أَتَكْبِرُ ثُمَّ قَرِيحًا كَذِبُكُمْ وَفَرِيحًا تَقْتُلُونَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة البقرة)

معنى استكبرتم أى أعطيتم لأنفسكم كبرا لستم أهلا له .. إدعيتم أنكم كبار
ولستم كبارا .. ولكن هل المشرع مساو لك حتى تتكبر على منهجه ؟ طبعاً لا ..
قوله تعالى : « ففريقا كذبتم » .. والكذب كلام يخالف الواقع .. أى أنكم أهميتم
الرميل بأنهم يقولون كلاما يخالف الواقع .. لأنه يخالف ما تشهيه أنفسكم .. وقوله
تعالى : « وفريقا تقتلون » .. التكذيب مسألة منكرة .. ولكن القتل أمر بشع ..
وحين ترى إنسانا يتخلص من خصمه بالقتل فاعلم أنها شهادة بضعفه أمام
خصمه .. وإن طاقته وحياته لا تطيق وجود الخصم .. ولو أنه رجل مكتمل
الرجولة لما تأثر بوجود خصمه .. ولكن لأنه ضعيف أمامه قتله ..

قوله تعالى : « وفريقا تقتلون » .. مثل نبي الله يحيى ونبي الله زكريا .. وهناك
قصص وروايات تناولت قصة سالومي .. وهي قصة راقصة جميلة أرادت إغواء
يحيى عليه السلام فرفض أن يخضع لإغرائها .. فجعلت مهرها أن يأتوها برأسه ..
وفعلوا قتلوه وجاءوها برأسه على صينية من الفضة .



﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾

الله سبحانه وتعالى يذكر لنا كيف برز بنو إسرائيل عدم إيمانهم وقتلهم الأنبياء وكل ما حدث منهم .. فماذا قالوا ؟ لقد قالوا « قلوبنا غلف » والغلف مأخوذ من الغلاف والتغليف .. وهناك غُلف يسكون اللام ، وغُلف بضم اللام .. مثل كتاب وكتب « قلوبنا غلف » أى مغلفة وفيها من العلم ما يكفيها ويزيد ، فكانهم يقولون إننا لسنا في حاجة إلى كلام الرسل .. أو « قلوبنا غلف » أى مغلفة ومطبوع عليها .. أى إن الله طبع على قلوبهم وختم عليها حتى لا يتفقد إليها شعاع من الهدى .. ولا يخرج منها شعاع من الكفر .

إذا كان الله سبحانه وتعالى قد فعل هذا .. ألم تسألوا أنفسكم لماذا ؟ ما هو السبب ؟ والحق تبارك وتعالى يرد عليهم فيقول : « بل لعنهم الله بكفرهم فقليلًا ما يؤمنون » : لفظ « بل » يؤكد لنا أن كلامهم غير صحيح .. فهم ليس عندهم كفاية من العلم بحيث لا يحتاجون إلى منجى الرسل .. ولكنهم ملعونون ومطرودون من رحمة الله .. فلا تنفذ إشعاعات النور ولا الهداية إلى قلوبهم .. ولكن ذلك ليس لأن الله ختم عليها بلا سبب .. ولكنه جزاء على أنهم جاءهم النور والهدى .. فصدوه بالكفر أولاً .. ولذلك فإنهم أصبحوا مطرودين من رحمة الله .. لأن من يصد الإيمان بالكفر يطرد من رحمة الله ، ولا يتفقد إلى قلبه شعاع من أشعة الإيمان .

وهنا يجب أن نتنبه إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يبدأهم باللعنة . وبعض الناس الذين يريدون أن يهربوا من مسئولية الكفر — عليها تنجيهم من العذاب يوم القيامة — يقولون إن الله سبحانه وتعالى قال :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (من الآية ٨ سورة فاطر)

تلك هي حجة الكافرين الذين يظنون انها ستنجيهم من العذاب يوم القيامة ..
إنهم يريدون أن يقولوا إن الله يضل من يشاء .. وما دام الله قد شاء أن يضلني فما
ذنبى أنا ؟ وهل أستطيع أن أمتنع مشيئة الله .. نقول له : إن الله إذا قيد أمرا من
الأمر المطلقة فيجب أن نلجأ إلى التقييد .. والله تبارك وتعالى يقول :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾

(من الآية ٣٧ سورة التوبة)

ويقول سبحانه :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

(من الآية ١٩ سورة التوبة)

ويقول جل جلاله :

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

(من الآية ٢٤ سورة التوبة)

والحق سبحانه وتعالى أخبرنا أنه منع إعانته للهداية عن ثلاثة أنواع من الناس ..
الكافرين والظالمين والفاسين .. ولكن هل هو سبحانه وتعالى منع معونة الهداية
أولا ؟ أم أنهم هم الذين ارتكبوا من الضلال ما جعلهم لا يستحقون هداية الله ؟ !
إنسان واجه الله بالكفر .. كفر بالله .. رفض أن يستمع لأيات الله ورسله ..
ورفض أن يتأمل في كون الله .. ورفض أن يتأمل في خلقه هو نفسه ومن الذي
خلقه .. ورفض أن يتأمل في خلق السموات والأرض .. كل هذا رفضه تماما ..
ومضى يصنع لنفسه طريق الضلال ويشرع لنفسه الكفر .. لأنه فعل ذلك أولا ..
ولأنه بدأ بالكفر برغم أن الله سبحانه وتعالى وضع له في الكون وفي نفسه آيات تجعله
يؤمن بالله ، وبرغم ذلك رفض . هو الذي بدأ والله سبحانه وتعالى ختم على قلبه .

الإنسان الظالم يظلم الناس ولا ينجس الله .. يذكرونه بقدرة الله وقوة الله فلا يلفتت .. ينجس الله على قلبه .. كذلك الإنسان الفاسق الذي لا يترك منكراً إلا فعله .. ولا إله إلا ارتكبه .. ولا معصية إلا أسرع إليها .. لا يهديه الله .. أكننت تريد أن يبدأ هؤلاء الناس بالكفر والظلم والفسوق ويصرون عليه ثم يهديهم الله ؟ يهديهم قهراً أو قسراً ، والله سبحانه وتعالى خلقنا مختارين ؟ طبعاً لا .. ذلك يضيع الاختيار البشري في أن يطيع الإنسان أو يعصى ..

والحق تبارك وتعالى أثبت طلاقة قدرته فيما نحن مقهورون فيه .. في أجسادنا التي تعمل أعضاؤها الداخلية بقهر من الله سبحانه وتعالى وليس بإرادة منا كالقلب والتنفس والدورة الدموية .. والمعدة والأمعاء والكبد .. كل هذا وغيره مقهور لله جل جلاله .. لا نستطيع أن نأمره ليفعل ليفعل .. وأن نأمره ألا يفعل فلا يفعل .. وأثبت الله سبحانه وتعالى طلاقته قدرته فيما يقع علينا من أحداث في الكون .. فهذا يمرض ، وهذا تدممه سيارة ، وهذا يقع عليه حجر .. وهذا يسقط ، وهذا يعتدى عليه إنسان .. كل الأشياء التي تقع عليك لا تدخل لك فيها ولا تستطيع أن تمنعها .. يبقى ذلك الذي يقع منك وأمره تطبيق منهج الله في الفعل ولا تفعل .. هذا لك اختيار فيه ..

إن الله سبحانه وتعالى أوجد لك هذا الاختيار حتى يكون الحساب في الآخرة عدلاً .. فإذا اخترت الكفر لا يجرئك الله على الإيمان .. وإذا اخترت الظلم لا يجرئك الله على العدل .. وإذا اخترت الفسوق لا يجرئك الله على الطاعة .. إنه يجرم اختيارك لأنه أعطاك هذا الاختيار ليحاسبك عليه يوم القيامة ..

لقد أثبت الله لنفسه طلاقة القدرة بأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء .. ولكنه سبحانه قال إنه لا يهدي القوم الكافرين ولا القوم الظالمين ولا القوم الفاسقين .. فمن يرد أن يخرج من هداية الله فليكفر أو يظلم أو يفسق .. ويكون في هذه الحالة هو الذي اختار فحق عليه عقاب الله .. لذلك فقد قال الكافرون من بني إسرائيل إن الله ختم على قلوبهم فهم لا يتدنون ، ولكنهم هم الذين اختاروا هذا الطريق ومشوا فيه .. فاختاروا عدم الهداية ..

لقد أثارت هذه القضية جدلاً كبيراً بين العلماء ولكنها في الحقيقة لا تستحق هذا

الجدل .. فانه سبحانه وتعالى قال : « بل لعنهم الله بكفرهم » .. واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله .. ويتم ذلك بقدرة الله سبحانه وتعالى .. لأن الطرد يتناسب مع قوة الطارد .

فمثلا .. إنك الصغير تطرد حجرا أمامه تكون قوة الطرد متناسبة مع سنه وقوته .. والأكبر أشد فأشد .. فإذا كان الطارد هو الله سبحانه وتعالى فلا يكون هناك مقدار لقوة اللعن والطرد يعرفه العقل البشرى .

قوله تعالى : « بل لعنهم الله بكفرهم » .. أى طردهم الله بسبب كفرهم .. والله تبارك وتعالى لا يتوعد للناس لكى يؤمنوا .. ولا يريد للرسول أن يتبعوا أنفسهم فى حمل الناس على الإيمان .. إنما وظيفة الرسول هى البلاغ حتى يكون الحساب حقا وعدلا .. وإقرأ قوله جل جلاله :

﴿ لَعَلَّكَ بَمِيعِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِن لَّسَأْنُكَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَلَأَةِ ۝ فَكَفَّكَ عَنْهُمْ مَا أَخَذَ مِنْ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

أى انهم لا يستطيعون ألا يؤمنوا إذا أردناهم مؤمنين قهرا .. ولكننا نريدهم مؤمنين اختيارا .. وإيمان العبد هو الذى يتضع به .. فانه لا يتضع بإيمان البشر .. وقولنا لا إله إلا الله لا يسند عرش الله .. قلناها أو لم نقلها فلا إله إلا الله .. ولكننا نقولها لنشهد علينا يوم القيامة .. نقولها لتنجينا من أهوال يوم القيامة ومن غضب الله ..

وقوله تعالى : « بكفرهم » يعطينا قضية مهمة هى : أنه تبارك وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك . فمن يشرك معه أحدا فهو لمن أشرك .. لذلك يقول الحق جل جلاله فى الحديث القدسى :

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه) (١) .

وشهادة الله سبحانه وتعالى لنفسه بالالوهية .. هي شهادة الذات للذات ..
وذلك في قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

فالله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق خلقا يشهدون أنه لا إله إلا الله .. شهد لنفسه
بالالوهية .. ولتقرأ الآية الكريمة :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة آل عمران)

والله سبحانه وتعالى شهد لنفسه شهادة الذات للذات . والملائكة شهدوا
بالمشاهدة .. وأولو العلم بالدليل .. والحق تبارك وتعالى يقول : « فقليلًا
ما يؤمنون » .. عندما تقول قليلًا ما يحدث كذا ، فإنك تقصد به هنا صيانة
الإحتيال ، لأنه من الممكن أن يتوب واحد منهم إلى رشده ويؤمن .. فيبقى الله
الباب مفتوحا لحؤلاء . ولذلك نجد الذين أسرفوا على أنفسهم في شبابههم قد يأتون في
آخر عمرهم ويتوبون .. في ظاهر الأمر انهم أسرفوا على أنفسهم .. ولكنهم عندما
تابوا واعترفوا بخطاياهم وعادوا إلى طريق الحق تقبل الله إيمانهم .. لذلك يقول الله
جل جلاله : « فقليلًا ما يؤمنون » أي أن الأغلبية تظل على كفرها .. والغلة هي
التي تعود إلى الإيمان .



﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ٨١

بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى .. أن بني إسرائيل قالوا إن قلوبهم غلف لا يدخلها شعاع من الهدى أو الإيمان .. أراد تبارك وتعالى أن يعطينا صورة أخرى لكفرهم بأنه أنزل كتابا مصدقا لما معهم ومع ذلك كفروا به .. ولو كان هذا الكتاب مختلفا عن الذى معهم لقلنا إن المسألة فيها خلاف .. ولكنهم كانوا قبل أن يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل عليه القرآن كانوا يؤمنون بالرسول والكتاب الذى ذكر عندهم في التوراة .. وكانوا يقولون لأهل المدينة .. أقل زمن رسول ستؤمن به وتنبه ونقتلكم قتل عاد وإرم .

ولقد كان اليهود يعيشون في المدينة .. وكان معهم الأوس والخزرج وعندما تحدث بينهم خصومات كانوا يهددونهم بالرسول القادم .. فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم كفروا به وبما أنزل عليه من القرآن .

واليهود في كفرهم كانوا أحد أسباب نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأن الأوس والخزرج عندما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام قالوا هذا النبي الذى وعدنا به اليهود وأسرعوا بإياعونه .. فكان اليهود سخرهم الله لنصرة الإسلام وهم لا يشعرون .

والرسول عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى الناس في الطائف .. ويتنظر القبائل عند قدومها إلى مكة في موسم الحج ليعرض عليهم الدعوة فيصدونه ويضطهدونه .. وعندما شاء الله أن تنتشر دعوة الإسلام جاء الناس إلى مكة ومعهم الأوس والخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يذهب هو إليهم ،

وأعلنوا مبايعته والإيمان برسالته ونشر دعوته .. دون أن يطلب عليه الصلاة والسلام منهم ذلك .. ثم دعوه ليعيش بينهم في دار الإيمان .. كل هذا تم عندما شاء الله أن ينصر الإسلام بالهجرة إلى المدينة وينصره بمن إتبعوه .

ويقول الحق تبارك وتعالى : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » .. أى أنهم قبل أن يأتي رسول الله صل الله عليه وسلم كانوا يستفتحون بأنه قد أطل زمن رسول سنؤمن به ونتبعه .. فلما جاء الرسول كذبوه وكفروا برسالته .

وقوله تعالى : « على الذين كفروا » .. أى كفار المدينة من الأوس والخزرج الذين لم يكونوا أسلموا بعد .. لأن الرسول لم يأت .. الحق سبحانه وتعالى يعطينا تمام الصورة في قوله تعالى : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

وهكذا نرى أن بنى إسرائيل فيهم جحود مركب جاءهم الرسول الذي انتظروه ويशروا به .. ولكن أخذهم الكبر رغم أنهم موقنون بمجيء الرسول الجديد وأوصافه موجودة عندهم في التوراة إلا أنهم رفضوا أن يؤمنوا فاستحقوا بذلك لعنة الله .. واللعنة كما قلنا هي الطرد من رحمة الله .



﴿يُسْكِمَا آسْتَرَايَهُ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ
 اللَّهُ بَقِيًّا أَنْ يُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 فَبَاءٌ وَيَغْضِبُ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٠﴾﴾

عندما رفض اليهود الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وطردهم الله من
 رحمة .. بين لنا أنهم : « بسما اشترؤا به أنفسهم » .. وكلمة اشترى سبق
 الحديث عنها وقلنا إننا عادة ندفع الثمن ونأخذ السلعة التي نريدها .. ولكن
 الكافرين قلبوا هذا رأسا على عقب وجعلوا الثمن سلعة .. هل أننا لابد أن
 نتحدث أولا عن الفرق بين شري واشترى .. شَرَى بمعنى باع .. وإقرأ قوله عز
 وجل :

﴿وَشَرَّوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿١٦﴾﴾

(سورة يوسف)

ومعنى الآية الكريمة أنهم باعوه بثمن قليل .. واشترى بمعنى ابتاع .. ولكن
 اشترى قد تأتى بمعنى شرى .. لأنك في بعض الأحيان تكون محتاجا إلى سلعة
 ومالك مال .. وتذهب وتشتري السلعة بمالك وهذا هو الوضع السليم .. ولكن
 لنفرض أنك احتجت لسلعة ضرورية كاللواء مثلا .. وليس عندك المال ولكن
 عندك سلعة أخرى كأن يكون عندك ساعة أو قلم فاخر .. فتذهب إلى الصيدلية
 وتعطى الرجل سلعة مقابل سلعة .. أصبح الثمن في هذه الحالة مشترى .. إذن
 فمرة يكون البيع مشترى ومرة يكون مبيعا ..

والحق تبارك وتعالى يقول : « بسما اشترؤا به أنفسهم » .. وكأنما يعبرهم
 بأنهم يدعون الذكاء والقلطنة .. ويؤمنون بالمادية وأساسها البيع والشراء .. لو
 كانوا حقيقين يتقنون هذا لعرفوا أنهم قد أغوا صفقة خاسرة .. الصفقة الرباحية

كانت أن يشتروا أنفسهم مقابل التصديق بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم .. ولكنهم باعوا أنفسهم واشتروا الكفر فحسروا الصفقة لأنهم أخذوا الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة .. والله سبحانه وتعالى يجعل بعض العذاب في الدنيا ليستقيم ميزان الأمور حتى عند من لم يؤمن بالآخرة .. فعندما يرى ذلك من لا يؤمن بالآخرة عذابا دنيويا يقع على ظالم .. يخاف من الظلم ويتعد عنه حتى لا يصيبه عذاب الدنيا ويعرف أن في الدنيا مقاييس في الثواب والعقاب .. وحتى لا ينتشر في الأرض فساد من لا يؤمن بالله ولا بالآخرة .. وضع الحق تبارك وتعالى قصاصا في الدنيا .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٦٦)

(سورة البقرة)

والله سبحانه وتعالى في قصاصه يلفت المؤمن وغير المؤمن إلى عقوبة الحياة الدنيا .. فيأتي للمراب الذي يمتص دماء الناس ويصيبه بكارثة لا يجد بعدها ما ينقذه .. ولذلك نحن نقول يارب إن القوم غرهم حلمك واستطأوا آخرتك فخذهم ببعض ذنوبهم أخذ عزيز مقتدر حتى يعتدل الميزان .

والله تبارك وتعالى جعل مصارع الظالمين والباغين والمنجبرين في الدنيا .. جعلها الله عبرة لمن لا يعتبر بمنهج الله . فتجد إنسانا ابتعد عن دينه وأثقلت عليه الدنيا بتعظيمها ومجدها وشهرتها ثم تجده في آخر أيامه يعيش على صدقات المحسنين .. وتجد امرأة غرها المال فانطلقت تجمعه من كل مكان حاللا أو حراما وأعطتها الدنيا بسخاء .. وفي آخر أيامها تزول عنها الدنيا فلا تجد ثمن الدواء .. وتوفت فيجمع لها الناس مصاريف جنازتها .. كل هذه الأحداث وغيرها عبرة للناس .. ولذلك فهي تحدث على رؤوس الأشهاد .. يعرفها عدد كبير من الناس .. إما لأنها تنشر في الصحف وإما أنها تداع بين أهل الحي فيتناقلونها .. المهم أنها تكون مشهورة .

وتجد مثلا أن اليهود الذين كانوا زعماء المدينة تجار الحرب والسلاح .. ينتهي بهم الحال أن يطردوا من ديارهم وتؤخذ أموالهم وتسمى نساؤهم .. أليس هذا خزيًا ؟

قوله تعالى : « أن يكفروا بما أنزل الله بغيا » .. البغي تجاوز الحد ، والله جعل لكل شيء حداً مَنْ تجاوزَه بَغَى .. والحدود التي وضعها الله سبحانه هي أحكام .. ومرة تكون أوامر ومرة تكون نواهي . ولذلك يقول الحق بالنسبة للأوامر :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُواهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

ويقول تعالى بالنسبة للنواهي :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

ولكن ما سبب بغيتهم ؟ .. بغيتهم حسد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تأتي إليه الرسالة .. وعلى العرب أن يكون الرسول منهم .. واليهود اعتقدوا لكثرة أنبيائهم أنهم الذين ورثوا رسالات الله إلى الأرض .. وعندما جاءت التوراة والإنجيل يشران برسول خاتم قالوا إنه منا .. الرسالة والنبوة لن تخرج عنا فنحن شعب الله المختار .. ولذلك كانوا يعلنون أنهم سيتبعون النبي القادم وينصرونه .. ولكنهم فوجئوا بأنه ليس منهم .. حيثئذ ملأهم الكبر والحسد وقالوا ما دام ليس منا فلن نتبعه بل سنحاربه .. لقد خلعت منهم الرسالات لأنهم ليسوا أملاها .. وكان لابد أن يعاقبهم الله على كفرهم ومعصيتهم ويجعل الرسالة في أمة غيرهم .. والله تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنْ يَسْأَلُكَ الْجَنَّةُ وَبَايَ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝ ﴾

(سورة فاطر)

لقد اعتبرهم الله في رسالات متعددة ولكنهم كما قرأنا في الآيات السابقة .. كذبوا فريقاً من الأنبياء . ومن لم يكذبوه قتلوه .. لذلك كان لابد أن ينزع الله منهم هذه الرسالات ويجعلها في أمة غيرهم .. لتكون أمة العرب فيها ختام رسالات السماء إلى الأرض .. ولذلك بقوا .

وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . ومن هنا نعرف أن الرسالات واختيار الرسل .. فضل من الله يختص به من يشاء .. والله سبحانه حين يطلق أيدينا ويمسكنا الأسباب .. فإننا لا نخرج عن مشيئة بل نخضع لها .. ونعرف أنه لا ذاتية في هذا الكون .. وذلك حتى لا يفتر الإنسان بنفسه .. فإن بطل العالم في لعبة معينة هو قمة الكيالات البشرية في هذه اللعبة .. ولكن هذه الكيالات ليست ذاتية فيه لأن غيره يمكن أن يتغلب عليه .. ولأنه قد يصيبه أي عائق يجعله لا يصلح للبطولة .. وعلى كل حال فإن بطولته لا تدوم .. لأنها ليست ذاتية فيه ومَنْ وهبها له وهو الله سيهبها لغيره متى شاء .. ولذلك لا بد أن يعلم الإنسان أن الكمال البشري متغير لا يدوم لأحد .. وأن كل من يبلغ القمة ينحدر بعد ذلك لأننا في عالم أغيار .. ولا بد لكل من علا أن ينزل .. فالكمال لله وحده .. والله سبحانه يحرس كماله بذاته .

إذن اليهود حسدوا رسول الله .. حسدوا نزول القرآن على العرب .. والحق سبحانه يقول : « قَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ » .. والله جل جلاله يخبرنا أنه غضب عليهم مرتين .

الغضب الأول أنهم لم يفلحوا ما جاء في التوراة فغضب الله عليهم .. والغضب الثاني حين جاءهم رسول مذكور عندهم في التوراة ومطلوب منهم أن يؤمنوا به فكفروا به .. وكان المقروض أن يؤمنوا حتى يرضى الله عنهم .. ولذلك غضب الله عليهم مرة أخرى عندما كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وقوله تعالى : « وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ » .. العذاب في القرآن الكريم وُصِفَ بأنه أليم .. وُوصِفَ بأنه عظيم وُوصِفَ بأنه مهين .. أليم أي شديد الألم يصيب من يعذب بألم شديد .. ولكن لنفرض أن الذي يعذب يتجلد .. ويجاول ألا يظهر الألم حتى لا يشمت فيه الناس .. يأتيه الله بعذاب عظيم لا يقدر على احتياله .. ذلك أن عظمة العذاب تجعله لا يستطيع أن يحتمل .. فإذا كان الإنسان من الذين تزعموا الكفر في الدنيا .. ووقفوا أمام دين الله مجاريبونه وتزعموا قومهم .. يأتيهم الله تبارك وتعالى بعذاب مهين .. ويكون هذا أكثر إيلافاً للنفس من الألم .. تماماً كما تأل لرجل هو أقوى مَنْ في المنطقة يخافه الناس جميعاً ثم تضربه بيدك وتسقطه على الأرض .. تكون في هذه الحالة قد أهنته أمام

الناس . . فلا يستطيع بعد ذلك أن يتجبر أو يتكبر على واحد منهم . . ويكون هذا أشد إيلاما للنفس من ألم العذاب نفسه ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ١٧١ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوَّلُكُمْ بِهَا صِلِيًّا ١٧٢﴾

(سورة مريم)

وقوله جل جلاله :

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ١٧٣﴾

(سورة النحل)

ذلك هو العذاب المهين .



﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ قَالُوا نَزَّلَهُ اللَّهُ وَإِنَّا لَهُ كَافِرُونَ﴾
 أَنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا
 لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾

يبين لنا الحق سبحانه وتعالى موقف اليهود . . من عدم الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مع أنهم أومروا بذلك في التوراة . . فيقول جل جلاله : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ قَالُوا نَزَّلَهُ اللَّهُ وَإِنَّا لَهُ كَافِرُونَ » أي إذا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا بالإسلام وأن يؤمنوا بالقرآن رفضوا ذلك « وَقَالُوا نَزَّلَهُ اللَّهُ وَإِنَّا لَهُ كَافِرُونَ » أي نؤمن بالتوراة ونكفر بما وراءه ، أي بما نزل بعده .

ونحن نعرف أن الكفر هو الستر . . ولو أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء يناقض ما عندهم ربما قالوا : جاء ليهدم ديننا ولذلك نكفر به . . ولكنه جاء بالحق مصدقا لما معهم .

إذن حين يكفرون بالقرآن يكفرون أيضا بالتوراة . . لأن القرآن يصدق ما جاء في التوراة .

وهنا يقيم الله تبارك وتعالى عليهم الحجة البالغة . . إن كفركم هذا وسلوككم ضد كل نبي جاءكم . . ولو أنكم تستقبلون الإيمان حقيقة بصدر رحب . . فقولوا لنا لم قتلتم أنبياء الله ؟ . . ولذلك يقول الحق : « فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ » . . هل هناك في كتابكم التوراة أن تقتلوا أولياء الله . . كان الحق سبحانه وتعالى قد أخذ الحجة من قلوبهم : « نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه » . . إذا كان هذا صحيحا وأنكم تؤمنون بما أنزل عليكم فهاتوا لنا بما أنزل إليكم وهي التوراة ما يبيح لكم قتل الأنبياء إن كنتم مؤمنين بالتوراة . . وطبعاً لم يستطيعوا رداً لأنهم كفروا بما أنزل عليهم . . فهم كاذبون في قلوبهم يؤمن بما أنزل

علينا .. لأن ما ينزل عليهم لم يأمرهم بقتل الأنبياء .. فكانهم كفروا بما أنزل عليهم .. وكفروا بما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام .

والقرآن يأتينا بالحجة البالغة التي تحرس أفواه الكافرين وتؤكد أنهم عاجزون غير قادرين على الحجة في المناقشة .. وهنا لابد أن ننبه الى قوله تعالى : « فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ » .. قوله تعالى : « مِنْ قَبْلُ » طمأنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن قتلهم الأنبياء انتهى ، وفي الوقت نفسه قضاء على آمال اليهود في أن يقتلوا محمدا عليه الصلاة والسلام .. والله يريد نزع الخوف من قلوب المؤمنين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ما جرى للرسل السابقين من بني إسرائيل لن يجرى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وبذلك قطع القرآن خط الرجعة على كل من يريد أذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. لأن ذلك كان عهدا وانتهى .. وأنهم لو تأمروا على قتله عليه الصلاة والسلام فلن يفلحوا ولن يصلوا إلى هدفهم .

واليهود بعد نزول هذه الآية الكريمة لم يتراجعوا عن تأمرهم ولن يكفوا عن بغيهم في قتل الرسل والأنبياء .. فحاولوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة .. مرة وهو في حبيم ألقوا فوقه حجرا ولكن جبريل عليه السلام أنذره فتحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانه قبل إلقاء الحجر .. ومرة دسوا له السم ، ومحاولات أخرى فشلت كلها .

إذن فقولته تعالى « مِنْ قَبْلُ » معناها .. إن كنتم تفكرون في التخلص من محمد صلى الله عليه وسلم بقتله كما فعلتم في أنبيائكم نقل لكم : إنكم لن تستطيعوا أن تقتلوه .

ولقد كانت هذه الآية كافية لإلقاء اليأس في نفوسهم حتى يكفوا عن أسلوبهم في قتل الأنبياء ولكنهم ظلوا في محاولاتهم ، وفي الوقت نفسه كانت الآية تنبأ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين . بأن اليهود مهما تأمروا فلن يمكنهم الله من شيء .. وقوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .. أى بما أنزل إليكم .

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ٢٨

بعد أن بين لنا الله سبحانه وتعالى رفضهم للإيمان بما أنزل على رسول الله صل الله عليه وسلم . . بحجة أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم فقط . . أوضح لنا أن هذه الحجة كاذبة وأنهم في طبيعتهم الكفر والإلحاد . . فقال سبحانه : « ولقد جاءكم موسى بالبينات » . . أى أن موسى عليه السلام أبداه الله بينات ومعجزات كثيرة كانت تكفى لتسلأ قلوبكم بالإيمان وتعملكم لا تعبدون إلا الله . . فلقد شق لكم البحر ومررت فيه وأنتم تنظرون وترون . . أى أن المعجزة لم تكن غيبا عنكم بل حدث أمامكم ورأيتموها . . ولكنكم بمجرد أن تجاوزتم البحر وذهب موسى للقاء الله . . بمجرد أن حدث ذلك اتخذتم العجل إلها من دون الله وعبدتموه . . فكيف تدعون انكم آمنتم بما أنزل إليكم . . لو كنتم قد آمنتم به ما كنتم اتخذتم العجل إلها .

والحق تبارك وتعالى يريد أن ينقش حجتهم في أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم . . ويرينا أنهم ما آمنوا حتى بما أنزل إليهم . . فجاء بحكاية قتل الأنبياء . . ولو أنهم كانوا مؤمنين حقا بما أنزل إليهم فليأتوا بما يبيح لهم قتل أنبيائهم ولكنهم كاذبون . . أما الحجة الثانية فهي إن كنتم تؤمنون بما أنزل إليكم . . فقولوا لنا كيف وقد جاءكم موسى بالآيات الواضحة من العصا التى تحولت إلى حية واليد البيضاء من غير سوء والبحر الذى شققناه لكم لتنجوا من قوم فرعون . . والقتيل الذى أحياه الله أمامكم بعد أن ضربتموه ببعض البقرة التى ذبحتوها . . آيات كثيرة ولكن بمجرد أن ترككم موسى وذهب للقاء ربه عبدتم العجل .

إذن فقولكم تؤمن بما أنزل إلينا غير صحيح . . فلا أنتم مؤمنون بما أنزل إليكم ولا أنتم مؤمنون بما أنزل من بعدكم . . وكل هذه حجج المهدف منها عدم الإيمان أصلا .

وقوله تعالى : « ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » .. واتخاذ العجل في ذاته ليس معصية إذا اتخذته للحرث أو للذبيح لتأكل لحمه .. ولكن المعصية هي اتخاذ العجل معبودا .. وقوله تعالى : « اتخذتم العجل » .. أى أن ذلك أمر مشهود لم تعبدوا العجل سرا بل عبدتموه جهرا ، ولذلك فهو أمر ليس محتاجا إلى شهود ولا إلى شهادة لأنه حدث علنا وأمام الناس كلهم .. وذكر حكاية العجل هذه ليشرحوا بذنبهم في حق الله .. كأن يرتكب الإنسان خطأ ثم يمر عليه وقت .. وكلها أردنا أن نؤنبه ذكرناه بما فعل .. وقوله تعالى : « وأنتم ظالمون » .. أى ظالمون في إيمانكم .. ظالمون في حق الله بكفركم به .



﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
مَاءَ آيَاتِكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا آفَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا
وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ
يَسْمَاءُ يَا مَرْكُومَ يَدِي إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾﴾

بعد أن ذكّرهم الله سبحانه وتعالى بكفرهم بعبادتهم للعجل . . وكان هذا نوعا من التائب الشديد والتذكير بالكفر . . أراد أن يؤنبهم مرة أخرى وأن يذكّرهم أنهم آمنوا خوفا من وقوع جبل الطور عليهم . . ولم يكن الجبل سيقع عليهم . . لأن الله لا يقهر أحدا على الإيمان . . ولكنهم بمجرد أن رأوا جبل الطور فوقهم آمنوا . . مثلهم كالطفل الذي وصف له الطبيب دواء مراً الشفي . . ولذلك فإن رفع الله سبحانه وتعالى لجبل الطور فوقهم ليأخذوا الميثاق والمنهج . . لا يقال إنه فعل ذلك إرغاماً لكي يؤمنوا . . إنه إرغام المحب . . يريد الله من خلقه ألا يعيشوا بلا منهج سبيل سوى فرقع فوقهم جبل الطور إظهاراً لقوته وقدرته تبارك وتعالى حتى إذا استشعروا هذه القوة الهائلة وما يمكن أن تفعله لهم وبهم آمنوا . . فكأنهم حين أحسوا بقدرة الله آمنوا . . غمما كالطفل الصغير يفتح فمه لتناول الدواء المر وهو كاره . . ولكن هل أعطيته الدواء كرها فيه أو أعطيته له قعة في الحب والاشفاق عليه ؟

الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى أنه لم يترك حيلة من الحيل حتى يتلقى بنو إسرائيل منهج الله الصحيح . . نقول إنه لم يترك حيلة إلا فعلها . . لكن غريزة الاستكبار والعناد منعتهم أن يستمعوا على الإيمان . . غمما كما يقال للآب إن الدواء مر لم يحق الشفاء وطفلك مريض . . فيقول وماذا أفعل أكثر من ذلك أرغمت على شرب الدواء المر ولكنه لم يشف .

وقول الله تعالى : « ميثاقكم » . هل الميثاق منهم أو هو ميثاق الله ؟ . طبعاً هو ميثاق الله . . ولكن الله جل جلاله خاطبهم بقوله : « ميثاقكم » لأنهم أصبحوا طرفاً في العقد . . وماداموا قد أصبحوا طرفاً أصبح ميثاقهم . . ولا بد أن يؤمن أن رفع

جبل الطور فوق اليهود لم يكن لإجبارهم لأخذ الميثاق منهم حتى لا يقال أنهم أجبروا على ذلك .. هم اتبعوا موسى قبل أن يرفع فوقهم جبل الطور .. فلا بد أنهم أخذوا منهجه باختيارهم وطبقوه باختيارهم لأن الله سبحانه وتعالى لم يبق الطور مرفوعاً فوق رؤوسهم أبناً كانوا طوال حياتهم حتى يقال أنهم أجبروا .. فلو أنهم أجبروا لحققت وجود جبل الطور فوقهم .. لأنهم بعد أن انتهت هذه المعجزة لم يكن هناك ما يجبرهم على تطبيق المنهج .. ولكن المسألة أن الله تبارك وتعالى .. حينما يرى من عباده مخالفة فإنه قد يغيثهم .. وقد يأخذهم بالعذاب الأصغر عليهم يعودون إلى إيمانهم .. وهذا يأتي من حب الله لعباده لأنه يريدهم مؤمنين ..

ولكن اليهود قوم ماديون لا يؤمنون إلا بالمادة والله تبارك وتعالى أراد أن يريهم آية مادية على قلوبهم تخشع وتعود إلى ذكر الله .. وليس في هذا إجبار لأنه كما قلنا إنه عندما انتهت المعجزة كان يمكنهم أن يعودوا إلى المعصية .. ولكنها آية تدفع إلى الإيمان .. وقوله تعالى : (خذوا ما آتيناكم بقوة) لأن ما يؤخذ بقوة يعطى بقوة .. والأخذ بقوة يدل على عشق الأخذ للمأخوذ .. وما دام المؤمن بعشق المنهج فإنه سيؤدى مطلوباته بقوة .. فالإنسان دائماً عندما يأخذ شيئاً لا يجبه فإنه يأخذ بفتور وتهاون ..

قوله تعالى : « واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا » .. القول هو عمل اللسان والفعل للجوارح كلها ما عدا اللسان .. هناك قول وفعل وعمل .. القول أن تتلقى بلسانك والفعل أن تقوم بجوارحك بالتنفيذ .. والعمل أن يطابق القول الفعل .. هم : « قالوا سمعنا وعصينا » هم سمعوا ما قاله لهم الله سبحانه وتعالى وعصوه .. ولكن (عصينا) على أى شيء معطوفة ؟ .. إنها ليست معطوفة على « سمعنا » .. ولكنها معطوفة على (قالوا) .. قالوا سمعنا في القول وفي الفعل عصينا .. وليس معنى ذلك أنهم قالوا بلسانهم عصينا في الفعل .. فالمشكلة جاءت من عطف عصينا على سمعنا .. فتحسب أنهم قالوا الكلمتين .. لا .. هم قالوا سمعنا ولكمهم لم ينفذوا فلم يفعلوا والله سبحانه وتعالى يريدهم أن يسمعوا سماع طاعة لا سماع مجرد أى مجرد سماع .. ولكمهم سمعوا ولم يفعلوا شيئاً فكان عدم فعلهم معصية ..

قوله تعالى : « وأشربوا في قلوبهم العجل » .. الحق تبارك وتعالى يريد أن يصور لنا ماديتهم .. فالحب أمر معنوي وليس أمراً مادياً لأنه غير محسوس .. وكان التعبير

يقضى أن يقال وأشربوا حب العجل .. ولكن الذى يتكلم هو الله .. يريد أن يعطينا الصورة الواضحة الكاملة فى أهم أشربوا العجل ذاته أى دخل العجل إلى قلوبهم .

لكن كيف يمكن أن يدخل العجل فى هذا الحيز الضيق وهو القلب .. الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى الشيوع فى كل شىء بكلمة أشربوا .. لأنها وصف لشرب الماء والماء يتغلغل فى كل الجسم .. والصورة تعرب عن تغلغل المادية فى قلوب بنى إسرائيل حتى كان العجل دخل فى قلوبهم وتغلغل كما يدخل الماء فى الجسم مع أن القلب لا تدخله الماديات .

ويقول الحق جل جلاله : « وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم » .. كان الكفر هو الذى أسقامهم العجل .. هم كفروا أولا .. ويكفرهم دخل العجل إلى قلوبهم وختم عليها .. وقوله تعالى : « قل بسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين » .. هم قالوا نؤمن بما أنزل علينا ولا نؤمن بما جاء بعده .. قل هل إيمانكم يأمركم بهذا ؟ .. وهذا أسلوب تهكم من القرآن الكريم عليهم .. مثل قوله تعالى :

﴿ أَتُخْرِجُونَ آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكَ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة النمل)

هل الطهر والطهارة مبرر لإخراج آل لوط من القرية ؟ .. طبعاً لا .. ولكنه أسلوب تهكم واستتكار .. والحق أن إيمانهم لا يأمركم بهذا بل يأمركم بالإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .. وإقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَاصْطَبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِعَدَاتٍ أُصِيبُ بِهِ مَنَ أَشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فَاصْطَبْنَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَابِدَتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ الرَّسُولُ أَنبَىٰ إِلَهِى الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي السُّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ

عَلَيْهِمْ أَتْلَيْتَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَاَلَّذِينَ
ءَامَنُوا بِهِ مَوَّزُونَ وَفَضَرُوا وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦٩﴾

(سورة الأعراف)

هذا هو ما يأمرهم به إيمانهم .. أن يؤمنوا بالنبى الأمى محمد عليه الصلاة والسلام .. والله تبارك وتعالى يعلم ما يأمرهم به الإيمان لأنه منه جل جلاله .. ولذلك عندما يحاولون خداع الله .. يتهكم الله سبحانه وتعالى عليهم ويقول لهم : « بشيا يأمركم به . إيمانكم إن كنتم مؤمنين » .

وقوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » دليل على أنهم ليسوا مؤمنين .. ولكن لازال في قلوبهم الشرك والكفر أو العجل الذى عبده .



﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٦

والله سبحانه وتعالى يريد أن يفضح اليهود . . ويبين إن إيمانهم غير صحيح وأنهم عدلوا وبدلوا واشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا . . وهو سبحانه يريدنا أن نعرف إن هؤلاء اليهود . . لم يفعلوا ذلك عن جهل ولا هم خدعوا بل هم يعلمون أنهم غيروا وبدلوا . . ويعرفون أنهم جاءوا بكلام ونسبوه إلى الله سبحانه وتعالى زورًا وهتانًا . . ولذلك يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفضحهم أمام الناس ويبين كذبهم بالدليل القاطع . . فيقول : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة » : « قل » موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى قل لهم يا محمد . . ولا يقال هذا الكلام إلا إذا كان اليهود قد قالوا إن لهم : « الدار الآخرة عند الله خالصة » .

الشيء الخالص هو الصافي بلا معكر أو شريك . أى الشيء الذى لك بمفردك لا يشاركك فيه أحد ولا ينازعك فيه أحد . . فالحق سبحانه وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : إن كانت الآخرة لهم وحدهم عند الله لا يشاركهم فيها أحد . . فكان الواجب عليهم أن يتمنوا الموت ليذهبوا إلى نعيم خالد . . فبادرت لهم الدار الآخرة وما داموا موقنين من دخول الجنة وحدهم . . فما الذى يجعلهم يقولون فى الدنيا . . ألا يتمنون الموت كما تمنى المسلمون الشهادة ليدخلوا الجنة . . وليست هذه هى الافتراءات الوحيدة من اليهود على الله سبحانه وتعالى . . وإقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾

(من الآية ١١١ سورة البقرة)

من الذى قال ؟ اليهود قالوا عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ،

والتنصاري قالوا عن أنفسهم لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا .. كل منهم قال عن نفسه إن الجنة خاصة به . ولقد شكل قولهم هذا لنا لغزا في العقائد .. من الذي سيدخل الجنة وحده .. اليهود أم التنصاري ؟ نقول : إن الله سبحانه وتعالى أجاب عن هذا السؤال بقوله جل جلاله :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

وهذا أصدق قول قاله اليهود وقالته التنصاري بعضهم لبعض . فاليهود ليسوا على شيء . والتنصاري ليسوا على شيء .. وكلاهما صادق في مقوله عن الآخر .. في الآية الكرمة التي نحن بصدها .. اليهود قالوا إن الدار الآخرة خالصة لهم .. سنصدقهم ونقول لهم لماذا لا يتعجلون ويتمنون الموت .. فافترض أنهم يشتاقون للآخرة مادامت خالصة لهم .. ولذلك قال الله تبارك وتعالى : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .. ولكنها أمان كاذبة عند اليهود وعند التنصاري .. واقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّثْلُ خَلْقٍ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ٥٨ ﴾

(سورة المائدة)

إذن هم يتوهمون أنهم مهما فعلوا من ذنوب فإن الله لن يعذبهم يوم القيامة .. ولكن عدل الله يأتى ذلك .. كيف يعذب بشرا بذنوبهم ثم لا يعذب اليهود بما اقترفوا من ذنوب .. بل يدخلهم الجنة في الآخرة .. وكيف يجعل الله سبحانه وتعالى الجنة في الآخرة لليهود وحدهم .. وهو قد كتب رحمة لأتباع محمد صل الله عليه وسلم والمؤمنين برسالة الإسلام .. وأبلغ اليهود والتنصاري بذلك في كتبهم .. وإقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَكَتَبْنَا فِي هَذِهِ الْكِتَابِ مَا يُخَوِّفُ الْفَاسِقِينَ ﴿١٥٦﴾ إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٥٧﴾ وَمَنْ يَتَّبِعْهُ يَكُنْ مِنَ الْغَالِبِينَ ﴿١٥٨﴾ وَمَنْ يَتَّبِعْ الْفَاسِقِينَ يَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

(الآية ١٥٦ ومن الآية ١٥٧ سورة الاحزاب)

إذا كانت هذه هي الحقيقة الموجودة في كتبهم . . والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥٨﴾﴾

(سورة آل عمران)

فكيف يدعى اليهود أن الدار الآخرة خالصة لهم يوم القيامة ؟ ولكن الحق جل جلاله يفضح كذبهم ويؤكد لنا أن ما يقولونه هم أول من يعرف أنه كذب .



﴿وَلَنْ يَسْمَنُوهُ أَبَدًا ۖ قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ١٥

إنهم لن يتمنوا الموت أبدا بل يخافوه.. والله تبارك وتعالى حين أنزل هذه الآية.. وضع قضية الإيمان كله في يد اليهود.. بحيث يستطيعون إن أرادوا أن يشككوا في هذا الدين.. كيف؟ ألم يكن من الممكن عندما نزلت هذه الآية أن يأتي عدد من اليهود ويقولوا ليتنا نموت.. نحن نتمنى الموت يا محمد.. فإدع لنا ربك بميتا.. ألم يكن من الممكن أن يقولوا هذا؟ ولو نفاقا.. ولو رياء ليهدموا هذا الدين.. ولكن حتى هذه لم يقولوها ولم تخاطر على بالهم.. أنظر إلى الإعجاز القرآني في قوله سبحانه: «ولن يتمنوه».

لقد حكم الله سبحانه حكما نهائيا في أمر إختياري لعدو يعادي الإسلام.. وقال إن هذا العدو وهم اليهود لن يتمنوا الموت.. وكان من الممكن أن يفتنوا لهذا التحدي.. ويقولوا بل نحن نتمنى الموت ونطلبه من الله.. ولكن حتى هذه لم تخاطر على بالهم؛ لأن الله تبارك وتعالى إذا حكم في أمر إختياري فهو يسلب من أعداء الدين تلك الخواطر التي يمكن أن يستخدموها في حزم الدين.. فلا تخاطر على بالهم أبدا مثليا لمخادهم الله سبحانه من قبل في قوله تعالى:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ أَنَّى كَانُوا عَلَيْهَا﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

ولقد نزلت هذه الآية الكريمة قبل أن يقولوا.. بدليل إستخدام حرف السين في قوله: «سَيَقُولُ».. ووصفهم الله جل جلاله بالسفهاء.. ومع ذلك فقد قالوا.. ولو أن عقولهم تنبته لسكتوا ولم يقولوا شيئا.. وكان في ذلك تحذير للقرآن

الكريم .. كانوا سيقولون لقد قال الله سبحانه وتعالى : « سيقول السفهاء من الناس » .. ولكن أحدا لم يقل شيئا فإين هم هؤلاء السفهاء ولماذا لم يقولوا ؟ وكان هذا يعتبر تحديا للقرآن الكريم في أمر يملكون فيه حرية الاختيار .. ولكن لأن الله هو القائل والله هو الفاعل .. لم يخطر ذلك على بالهم أبدا ، وقالوا بالفعل .

في الآية الكريمة التي نحن بصددھا .. تحذاهم القرآن أن يتمنوا الموت ولم يتمنوه .. وكان الكلام المنطقي مادامت الدار الآخرة خالصة لهم .. والله تحذاهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين لتمنوه .. ليذهبوا إلى نعيم أبدى .. ولكن الحق حكم مسبقا ان ذلك لن يحدث منهم .. لماذا ؟ لأنهم كاذبون ويعلمون أنهم كاذبون .. لذلك فهم يهربون من الموت ولا يتمنونه .

إنظروا مثلا إلى العشرة المبشرين بالجنة .. عمار بن ياسر في الحرب في حنين .. كان يشد وهو يستشهد .. الآن أنقى الأحبة عمدا وصحبه .. كان سعيدا لأنه أصيب وكان يعرف وهو يستشهد انه ذاهب إلى الجنة عند محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته .. هكذا تكون الثقة في الجزاء والبشرى بالجنة .. وعبدالله بن رواحه كان مجارب وهو يشد ويقول :

يا حبيذا الجنة واقترابها طيبة ويسارد شراها

والإمام علي رضي الله عنه يدخل معركة حنين ويرتدى غلالة ليس لها دروع .. لا ترد سها ولا طعنة رمح .. حتى إن إته الحسن يقول له : يا أبي ليست هذه لباس حرب .. فيرد علي كرم الله وجهه : يا بني إن أبأك لا يبالي أسقط على الموت أم سقط الموت عليه .. وسيدنا حذيفة بن اليمان يشد وهو يحتضر .. حبيب جاء على ناقة لا ربح من ندم .. إذن الذين يثقون بأخرتهم يحبون الموت .

وفي غزوة بدر سأل أحد الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يا رسول الله أليس بيني وبين الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلوني .. فيجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم .. وكان في يد الصحابي ثمرات يمضغها .. فيستطلي أن يبقى بعيدا عن الجنة حتى يأكل الثمرات فيلقبها من يده ويدخل المعركة ويستشهد .

هؤلاء هم الذين يثقون بما عند الله في الآخرة .. ولكن اليهود عندما تحذاهم

القرآن الكريم بقوله لهم : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .. سكتوا ولم يجيبوا .. ولو تمنوا الموت لأنقطع نفس الواحد منهم وهو يبلغ ريقه فيأتوا جميعا .. قد يقول قائل وهل التمني باللسان ؟ ربما تمنوا بالقلب .. نقول ما هو التمني ؟ نقول إن التمني هو أن تقول لشيء محبوب عندك لئله يحدث . فهو قول .. وهب انه عمل قلبي فلو أنهم تمنوا بقلوبهم لأطلع الله عليها وأمانهم في الحال .. ولكن مادام الحق تبارك وتعالى قال : « ولن يتمنوه أبدا » .. فهم لن يتمنوه سواء كان باللسان أو بالقلب .. لأن الادعاء منهم بأن هم الجنة عند الله خالصة أشبه بقولهم الذي يرويه لنا القرآن في قوله سبحانه :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نَحْمَسَ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلِ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة)

(سورة البقرة)

وقوله تعالى : « بما قدمت أيديهم » .. أى ان أعمالهم السيئة تجعلهم يخافون الموت .. أما صاحب الأعمال الصالحة فهو يسعد بالموت .. ولذلك نسلم ان فلانا حين مات كان وجهه أشبه بالبدر لأن عمله صالح .. ساعة الموت يعرف فيها الإنسان يقينا انه ميت .. فالإنسان إذا مرض يأمل في الشفاء ويستبعد الموت .. ولكن ساعة الفرجة يتأكد الإنسان انه ميت ويستعرض حياته في شريط عاجل .. فإن كان عمله صالحا تنبسط أساريه ويفرح لأنه سينعم في الآخرة نعيما خالدا .. لأنه في هذه الساعة والروح تغادر الجسد يعرف الإنسان مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار .. وتسلمه إما ملائكة الرحمة وإما ملائكة العذاب .. فالذي أطاع الله يستبشر بملائكة الرحمة .. والذي عصي وفعل ما يفضي الله يستعرض شريط أعماله .. فيجده شريط سوء وهو مقبل على الله .. وليست هناك فرصة للتوبة أو لتغيير أعماله .. عندما يرى مصيره إلى النار تنقبض أساريه وتنقبض روحه على هذه الهيئة .. فيقال فلان مات وهو أسود الوجه منقبض الأساريه .

إذن فالذي أساء في دنياه لا يتمنى الموت أبدا .. أما صاحب العمل الصالح فإنه يستبشر بلقاء الله .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عن تمنى الموت إقبال :

(لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُو بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ وُثِّقَ بِعَمَلِهِ)^(١) .

نقول إن تمنى الموت المنهى عنه هو تمنى اليأس وتمنى الاحتجاج على المصائب . .
يعنى يتمنى الموت لأنه لا يستطيع أن يتحمل قدر الله في مصيبة حدثت له . . أو يتمناه احتجاجاً على أقدار الله في حياته . . هذا هو تمنى الموت المنهى عنه . . أما صاحب العمل الصالح فمستحب له أن يتمنى لقاء الله . . وإقرأ قوله تعالى في آخر سورة يوسف :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ الْدُنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

(سورة يوسف)

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أى لا تمنوا الموت جزعاً مما يصيبكم من قدر الله . . ولكن إصبروا على قدر الله . . وقوله تعالى : « وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » . . لأن الله عليم بظلمهم ومعصيتهم . . هذا الظلم والمعصية هو الذى يجعلهم يخافون الموت ولا يتمنونه .



﴿ وَلَنَجْذِثَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ مِنَ الَّذِينَ
أَشْرَكُوا يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحَّزٍ بِهِ
مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ ١١

الحق سبحانه وتعالى بعد أن فصح كلهم .. في انهم لا يمكن أن يتمنوا الموت
لانهم ظالمون .. وماداموا ظالمين فالموت أمر خفيف بالنسبة لهم .. وهم أحرص
الناس على الحياة .. حتى إن حرصهم يفوق حرص الذين أشركوا .. فاللشرك
حرص على الحياة لأنه يعتقد ان الدنيا هي الغاية .. واليهود أشد حرصا على
الحياة من المشركين لانهم يخافون الموت لسوء أعمالهم السابقة .. لذلك كلما طال
حياتهم ظنوا انهم بعيدون عن عذاب الآخرة .. الحياة لا تجعلهم يواجهون
العذاب ولذلك فهم يفرحون بها .

إن اليهود لا يبالغون أن يعيشوا في ذلة أو في مسكنة .. أو أي نوع من أنواع
الحياة .. المهم انهم يعيشون أي حياة .. ولكن لماذا هم حريصون على الحياة أكثر
من المشركين ؟ لأن المشرك لا آخرة له فالدنيا هي كل شيء وكل حياته .. لذلك
يتنمى أن تطول حياته بأي ثمن وبأي شكل .. لأنه يعتقد ان بعد ذلك
لا شيء .. ولا يعرف ان بعد ذلك العذاب .. واليهود أحرص من المشركين على
حياتهم .

وقوله تعالى : « يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ » .. الود هو الحب .. أي
انهم يحبون أن يعيشوا ألف سنة أو أكثر .. ولكن هب انه عاش ألف سنة أو حتى
أكثر من ذلك .. أيزحزحه هذا عن العذاب ؟ لا .. طول العمر لا يغير
النهاية .

فدامت النهاية هي الموت . يتساوى من عاش سنوات قليلة ومن عاش ألوف

السنين .. قوله تعالى : « يعمر » يفتح العين وتشديد الميم يقال عنها إنها مبنية للمجهول دائماً .. ولا ينفع أن يقال يعمر بكسر الميم .. فالعمر ليس بيد أحد ولكنه بيد الله .. قاله هو الذي يعطى العمر وهو الذي ينيه .. وبما أن العمر ليس ملكاً للإنسان فهو مبنى للمجهول ..

والعمر هو السن الذي يقطعه الإنسان بين ميلاده ووفاته .. ومادة الكلمة مأخوذة من العمار لأن الجسد تعمره الحياة . وعندما تنتهي يصبح الجسد أشلاء وخرباً .. قوله تعالى : « ألف سنة » .. لماذا ذكرت الألف ؟ لأنها هي نهاية ما كان العرب يعرفونه من الحساب . ولذلك فإن الرجل الذي أسر في الحرب أخذت كسرى فقالت كم تأخذ وتركني ؟ قال ألف درهم .. قالوا له بكم فديتها ؟ قال بألف .. قالوا لو طلبت أكثر من ألف لكانوا أعطوك .. قال والله لو عرفت شيئاً فوق الألف لقلت .. فالألف كانت نهاية العدد عند العرب .. ولذلك كانوا يقولون ألف ألف ولم يقولوا مليوناً ..

وقوله تعالى : « وما هو بمنزلة من العذاب أن يعمر » .. معناها أنه لو عاش ألف سنة أو أكثر فلن يهرب من العذاب . وقوله تعالى : « والله بصير بما يعملون » .. أي يعرف ما يعملونه وسيعذبهم به سواء عاشوا ألف سنة أو أكثر أو أقل .



ويروى أن سيدنا عمر بن الخطاب كان له أرض في أعلى المدينة . . وكان حين يذهب إليها يمر على مدارس اليهود ويجلس إليهم . . وظن اليهود أن مجلس عمر معهم إنما يمر عن حبه لهم . . فقالوا له إننا نحبك ونحترمك ونطمع فيك . . ففهم عمر مرادهم فقال والله ما جالسكم حبا فيكم . . ولكني أحببت أن أزداد تصورا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلم عنه ما في كتابكم . . فقالوا له ومن يجتر محمدا بأخبارنا وأسرارنا ؟ فقال عمر إنه جبريل ينزل عليه من السماء بأخباركم . . قالوا هو عدونا . . فقال عمر كيف منزله من الله ؟ قالوا إنه يجلس عن يمين الله وميكائيل يجلس عن يسار الله . . فقال عمر مادام الأمر كما قلتم فليس أحدهما عدواً للآخر لأنها عند الله في منزلة واحدة . . فمن كان عدواً لأحدهما فهو عدو لله . . فلن تشفع لكم عداوتكم لجبريل وعبتكم لميكائيل لأن منزلتهما عند الله عالية .

إن عداوتهم لجبريل عليه السلام تؤكد ما دبتهم . . فهم يقيسون الأمر على البشر . . إن الذي يجلس على يمين السيد ومن يجلس على يساره يتنافسان على المنزلة عنده . . ولكن هذا في دنيا البشر . . ولكن عند الملائكة لا شيء من هذا . . الله عنده ما يجعله يعطى لمن يريد المنزلة العالية دون أن ينقص من الآخر . . ثم إن الله سبحانه وتعالى اسمه الحق . . وما ينزل به جبريل حق وما ينزل به ميكائيل حق . . والحق لا يخاصم الحق . . وقال لهم عمر أنتم أشد كفرا من الحمير . . ثم ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكذ الرسول براء حتى قال له وافقك ربك يا عمر . . وتنزل قول الله تبارك وتعالى : « قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » فقال عمر يا رسول الله . . إن بعد ذلك في إيمان لأصلب من الجبل .

إذن فقولهم ميكائيل حبيبا وجبريل عدونا من الماديات ، والله تبارك وتعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم . . إنهم يُعَادُونَ جبريل لأنه نزل على قلبك بإذن الله . . ومادام نزل من عند الله على قلبك . . فلا شأن لهم بهذا . . وهو مصدق لما بين يديهم من التوراة . . وهو هدى وبشرى للمؤمنين . . فأى عنصر من هذه العناصر تنكرونه على جبريل . . إن عداوتكم لجبريل عداوة لله سبحانه وتعالى .

﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾

وهكذا أعطى الله سبحانه وتعالى الحُكْمَ .. فقال إن العداوة للرسول .. مثل العداوة للملائكة .. مثل العداوة لجبريل وميكائيل .. مثل العداوة لله. ولقد جاء الحق سبحانه وتعالى بالملائكة ككل .. ثم ذكر جبريل وميكائيل بالاسم .

إن المسألة ليست مجرد قضية واحدة .. فمن كان عدواً للملائكة وجبريل وميكائيل ورسول الله .. فهو أولاً وأخيراً عدو لله .. لأنه لا انقسام بينهم فكلمهم دائرون حول الحق .. والحق الواحد لا عدوان فيه .. وإنما العدوان ينشأ من تصادم الأهواء والشهوات. وهذا يحدث في أمور الدنيا .

والآية الكريمة أثبتت وحدة الحق بين الله وملائكته ورسوله وجبريل وميكائيل .. ومن يعادى واحداً من هؤلاء يعادى جميعاً وهو عدو لله سبحانه .. واليهود أعداء الله لأنهم كفروا به .. وأعداء الرسول لأنهم كذبوه وقتلوا بعضهم .

وهكذا فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى وحدة الحق في الدين .. مصدره هو الله جل جلاله .. ورسوله من الملائكة هو جبريل .. ورسله من البشر هم الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله .. وميكائيل ينزل بالخير والخصب لأن الإيمان أصل وجود الحياة .. فمن كان عدواً للملائكة والرسول وجبريل وميكائيل فهو كافر .. لأن الآية لم تقل إن العداوة لمؤلاً من مجرد عداوة .. وإنما حكّم الله عليهم بأنهم كفارون .. الله سبحانه وتعالى لم يخبر محمداً صل الله عليه وسلم بهذا الحكم فقط ، وإنما أمره بأن يعلنه حتى يعرفه الناس جميعاً ويعرفوا أن اليهود كفارون .

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾

إنقل الله سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى تأكيد صدق رسالة محمد عليه الصلاة والسلام .. وان الآيات فيها واضحة بحيث إن كل إنسان يعقل ويريد الإيمان يؤمن بها .. ولكن الذين يريدون الفسق والفجور .. هم هؤلاء الذين لا يؤمنون .. ما معنى الآيات البينات ؟ إن الآية هي الأمر العجيب .. وهو عجيب لأنه معجز .. والآيات معجزات للرسول تدل على صدق بلاغه عن الله .. وهي كذلك الآيات في القرآن الكريم .. وبنات معناها أنها أمور واضحة لا يختلف عليها ولا تحتاج إلى بيان : « وما يكفر بها إلا الفاسقون » .. والفسق هو الخروج عن الطاعة وهي مأخوذة من الرطبة .. البلح قبل أن يصبح رطباً لا نستطيع أن نتزع قشرته ولكن عندما يصبح رطبة تجد أن القشرة تبعد عن الثمرة فيقال فسقت الرطبة .. ولذلك من يخرج عن منهج الله يقال له فاسق .

والمعنى ان الآيات التي أبدىها الله سبحانه وتعالى محمدًا عليه الصلاة والسلام ظاهرة أمام الكفار ليست محتاجة إلى دليل .. فرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لم يقرأ كلمة في حياته .. يأتي بهذا القرآن المعجز لفظاً ومعنى .. هذه معجزة ظاهره لا تحتاج إلى دليل .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا تغريه الدنيا كلها .. لترك هذا الدين مهما أعطوه .. دليل على أنه صاحب مبدأ ورسالة من السماء .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يخبر بقرآن موحى من السماء عن نتيجة حرب ستقع بعد تسع سنوات .. ويخبر الكفار والمنافقين بما في قلوبهم ويفضحهم .. ويتنبأ بأحداث قادمة وبقوانين الكون .. وغير ذلك مما احتواه القرآن المعجز من كل أنواع الإعجاز علمياً وفلكياً وكونياً .. كل هذه آيات بينات يتحدى القرآن بها الكفار .. كلها آيات واضحة لا يمكن أن

يكفر بها إلا الذي يريد أن يخرج عن منهج الله ، ويفعل ما تنهوا عنه نفسه ..

إن الإعجاز في الكون وفي القرآن وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كل هذا لا يحتاج إلا لمجرد فكر محايد .. لنعرف أن هذا القرآن هو من عند الله ملء بالمعجزات لغة وعلم .. وأنه سيظل معجزة لكل جيل له عطاء جديد .



﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾

بعد أن بين الحق سبحانه وتعالى أن الدين الاسلامي ، وكتابه القرآن فيه من الآيات الواضحة ما يجعل الإيمان به لا يحتاج إلا إلى وقفة مع العقل مما يجعل موقف العداء الذي يقفه اليهود من الاسلام منافيا لكل المعهود التي أخذت عليهم ، منافيا للإيمان الفطري ، ومنافيا لأهم عاهدوا الله ألا يكتموا مجاء في التوراة عن رسول الله صلى الله عليه ومنافيا لعهدهم أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنافيا لما طلب منهم موسى أن يؤمنوا بالإسلام عندما يأتي الرسول ، مصداقا لقوله تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿١٠١﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف أن موسى عليه السلام الذي أخذ عليه الميثاق قد أبلغه إلى بني إسرائيل ، وأن بني إسرائيل كانوا يعرفون هذا الميثاق جيدا عند بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت عندهم أوصاف دقيقة للرسول عليه الصلاة والسلام . . ولكنهم نقضوه كما نقضوا كثيرا من المواثيق . . منها عهدهم بعدم العمل في السبت ، وكيف تحالوا على أمر الله بأن صنعوا مصابيد للأسماك تدخل فيها ولا تستطيع الخروج وهذا تحاليل على أمر الله ، ثم كان ميثاقهم في الإيمان بالله (لها واحداً أحداً ، ثم عبدوا

المجبل... وكان قولهم لموسى عليه السلام بعد أن أمرهم الله بدخول واد فيه زرع .. لانهم أرادوا أن يأكلوا من نبات الأرض بدلا من المن والسلوى التي كانت تأتيهم من السماء .. قالوا لموسى : « فاذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون » .. وغير ذلك الكثير من المواقف بالنسبة للحرب والأسرى والعبادة ، حتى عندما رفع الله تبارك وتعالى جبل الطور فوقهم ودخل في قلوبهم الرعب وظنوا أنه واقع عليهم ، ولم يكن هذا إلا ظنا وليس حقيقة .. لأن الله تبارك وتعالى يقول : « وظنوا أنه واقع بهم » .. ويمجرد ابتعادهم عن جبل الطور نقضوا الميثاق .

ثم نقضوا عهدهم وميثاقهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة وذلك في غزوة الخندق .. وعندما أرادوا أن يفتحوا طريقا للكفار ليضربوا جيوش المؤمنين من الخلف .

قوله تعالى « نبذ فريق منهم » قلنا إن هذا يسمى قانون صيانة الاحتيال .. لأن منهم من صان المواقف .. ومنهم من صدق ما عاهد الله عليه .. ومنهم مثلا من كان يريد أن يعتنق الدين الجديد ويؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام .

إذاً فليسوا كلهم حتى لا يقال هذا على مطلق اليهود .. لأن فيهم أناسا لم ينقضوا العهد .. ويريد الله تبارك وتعالى أن يفتح الباب أمام أولئك الذين يريدون الإيمان ، حتى لا يقولوا لقد حكم الله علينا حكما مطلقا ونحن نريد أن نؤمن ونحافظ على العهد ، ولكن هؤلاء الذين حافظوا على العهد كانوا قلة .. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : « بل أكثرهم لا يؤمنون » .. أى أن الفريق الناقض للعهد .. الناقض للإيمان هم الأكثرية من بنى إسرائيل .



﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى عن اليهود الذين نقضوا المواثيق الخاصة بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ونقضوها وهم يعلمون . . قال الله سبحانه : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم » . . أى أن ما جاء في القرآن مصدق لما جاء في التوراة . . لأن القرآن من عند الله والتوراة من عند الله . . ولكن التوراة حرقوها وكتبوا بعضها وغيروا وبدلوا فيها فأخفوا ما يريدون إخفائه . . لذلك جاء القرآن الكريم ليظهر ما أخفوه ويؤكد ما لم يخفوه ولم يتلاعبوا فيه .

وقوله تعالى : « نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم » . . قلنا إن هناك كتابا نبذوه أولا وهو التوراة . . ولما جاءهم الكتاب الحاتم وهو القرآن الكريم نبذوه هو الآخر وراء ظهورهم . . ما معنى نبذ ؟ . . المعنى طرحه بعيدا عنه . . إذن ما في كتابهم من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم نبذوه بعيدا . . ومن التبشير بمجيء رسول الله عليه الصلاة والسلام نبذوه هو الآخر . . لأنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا ويقولون أئى زمن نرى ستمؤمن به وتفتلكم قتل عاد وأدم .

وقوله تعالى : « نبذ فريق » . . يعنى نبذ جماعة وبقيت جماعة أخرى لم تنبذ الكتاب . . بدليل أن ابن سلام وهو أحد أحيار اليهود صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به . . وكتب الأحبار تخريف أسلم . . فلو أن القرآن عمم ولم يقل فريق لقبل إنه غير منصف لهؤلاء الذين آمنوا .

وقوله تعالى : « وراء ظهورهم » . . النبذ قد يكون أمامك . . وكونه أمامك

فأنت تراه دائماً ، وربما يفريك بالإقبال عليه ، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم أى جعلوه وراءهم حتى ينسوه تماماً ولا يلتفتوا إليه .

وقوله تعالى : « كأنهم لا يعلمون » .. أى يتظاهرون بأنهم لا يعلمون بيشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصافه .. وقوله تعالى : « كأنهم » .. دليل على أنهم يعلمون ذلك علم يقين .. لأنهم لو كانوا لا يعلمون .. لقال الحق سبحانه : « نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم » وهم لا يعلمون .. إذن هم يعلمون يقيناً ولكنهم تظاهروا بعدم العلم .. ولا بد أن تنبيه إلى أن نبذ يمكن أن يأتي مقابلها فتقول نبذ كذا واتبع كذا .. وهم نبذوا كتاب الله ولكن ماذا اتبعوا ؟



﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِ هَارُوتَ وَمَرْوُتَ ۚ وَمَا يُلِيمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا عَجْزٌ وَفِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۚ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَئِنَّ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾



يخبرنا الحق تبارك وتعالى أن فريقاً من اليهود نذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلو الشياطين .. لأن النذ يقابله الإتياع .. واتبعوا يعني اقتدوا وجعلوا طريقهم في الاهتداء هو ما تتلوه الشياطين على ملك سليمان .. وكان السياق يقتضي أن يقال ما تتله الشياطين على ملك سليمان .. ولكن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن هذا الاتباع مستمر حتى الآن كأنهم لم يجددوا المسألة بزمان معين .

إنه حتى هذه اللحظة هناك من اليهود من يتبع ما تتله الشياطين على ملك سليمان ، ونظروا لأن المعاصرين من اليهود قد رضوا وأخذوا من فعل أسلافهم الذين اتبعوا الشياطين فكانهم فعلوا .

الحق سبحانه يقول : « واتبعوا ما تتلو الشياطين » ولكن الشياطين تلت وانتهت .. واستحضار اليهود لما كانت تتلوه الشياطين حتى الآن دليل على أنهم يؤمنون به ويصدقونه .. الشياطين هم العصاة من الجن .. والجن فيهم العصاة والطائعون والمؤمنون .. وإقرأ قوله تعالى :

﴿وَأَنَّا إِنَّا الْغَافِلُونَ وَمِثْلَ دُونِ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ۝﴾

وقوله سبحانه عن الجن :

﴿وَأَنَّا مِنَ الْمُلْكُوتِ وَمِنَّا الْقَاسُوتُ﴾

(من الآية ١٤ سورة الجن)

إذن الجن فيهم المؤمن والكافر .. والمؤمنون من الجن فيهم الطائع والمعاصي ..
والشياطين هم مرءة الجن المتمردون على منيح الله .. وكل متمرد على منيح الله
نسميه شيطانا .. سواء كان من الجن أو من الإنس .. ولذلك يقول الحق سبحانه
وتعالى :

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُرْسِي بَعْضُهُمْ لِبَئْسَ
فِتْنَىٰ زُتْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾

(من الآية ١١٢ سورة الانعام)

إذن فالشياطين هم المتمردون على منيح الله .. قوله تعالى : « واتبعوا ما تتلو
الشياطين على ملك سليمان » .. يعنى ما كانت تتلو الشياطين أيام ملك سليمان ..

ولكن ما هى قصة ملك سليمان والشياطين ؟ .. الشياطين كانوا قبل مجىء رسول
الله صل الله عليه وسلم كان الله قد مكنتهم من قدرة الاستيعاب إلى أوامر السماء وهى
نازلة إلى الأرض .. وكانوا يستمعون للأوامر تلقى من الملائكة وينقلونها إلى أئمة
الكفر ويزيدون عليها بعض الأكاذيب والخرافات .. فبعضها يكون على حق والأكثر
على باطل .. ولذلك قال الله تبارك وتعالى :

﴿وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ كَايُودٌ إِلَىٰ أُولِيَائِهِمْ يُوْحِدُونَ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الانعام)

وكان الشياطين قبل نزول القرآن يسترقون السمع ، ولكن عند بعث رسول الله
صل الله عليه وسلم امتنع ذلك كله ، حتى لا يضح الشياطين خرافاتهم في منيح

سليمان ويثبتها لكل من اتبع الشياطين فقال جل جلاله : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » .

إذن الشياطين هم الذين نشروا الكفر .. وكيف كفر الشياطين؟ وماذا أغروا أتباعهم بالكفر؟ .. يقول الله سبحانه وتعالى : « ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق » .

مافصة كل هذا ؟ .. اليهود نبذوا عهد الله واتبعوا ما تتلو الشياطين أيلم سليمان ، وأرادوا أن ينسبوا كل شيء في عهد سليمان على أنه سحر وعمل شياطين ، وهكذا أراد اليهود أن يوهمو الناس أن منيع سليمان هو من السحر ومن الشياطين . والحق سبحانه وتعالى أراد أن يبرىء سليمان من هذه الكذبة .. سليمان عليه السلام حين جاءته النبوة طلب من الله سبحانه وتعالى أن يعطيه ملكا لا يعطيه لأحد من بعده .. وإقرأ قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٥٥﴾ فَفَسَّرْنَا لَهُ أَلَّا يَحْمِلَ رَأْسَهُ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ ﴿٥٦﴾ وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَارِصَ ﴿٥٧﴾ وَءَانْعِينَ مَّقْرَنَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة ص)

وهكذا أعطى سليمان الملك على الإنس والجن ومخلوقات الله كالريح والطير وغير ذلك .. حين أعز الله سليمان الملك كان الشياطين يملأون الأرض كفرا بالسحر وكتبه . فأعز الله سليمان كل كتب السحر وقيل أنه دفنها تحت عرشه .. وحين مات سليمان وعثرت الشياطين على غيبا كتب السحر أخرجنها وأذاعتها بين الناس .. وقال أولياؤهم من أحبار اليهود إن هذه الكتب من السحر هي التي كان سليمان يسطر بها على الإنس والجن ، وأنها كانت منهجه ، وأشاعوها بين الناس .. فأراد الله سبحانه

وتعالى أن يرى سليمان من هذه التهمة ومن أنه حكم بالسر ونشر الكفر .. قال
جل جلاله : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » .

ما هو السحر ؟ .. الكلمة مشتقة من سحر وهو آخر ساعات الليل وأول طلوع
النهار .. حيث يختلط الظلام بالضوء ويصبح كل شيء غير واضح .. هكذا السحر
شيء يجبل إليك أنه واقع وهو ليس بواقع .. إنه قائم على شيئين .. سحر العين
لترى ما ليس واقعا على أنه حقيقة .. ولكنه لا يغير طبيعة الأشياء .. ولذلك قال
الله تبارك وتعالى في سحرة فرعون :

﴿ تَحْضُرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأعراف)

إذن فالساحر يسيطر على عين المسحور ليرى ما ليس واقعا وما ليس حقيقة ..
وتصبح عين المسحور خاضعة لإرادة الساحر .. ولذلك فالسحر تخيل وليس
حقيقة .. وإقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ بَلْ أُلْقُوا إِذَا حَبَّائِهِمْ وَعَصِيهِمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ يَحِرِهِمْ أَنَّهُمْ أَنَّهُمْ ﴾ ١٦

(سورة طه)

إذن ما دام الله سبحانه وتعالى قال : « يجبل إليه » .. فهي لا تسعى .. إذن
فالسحر تخيل .. وما الدليل على أن السحر تخيل ؟ .. الدليل هو المواجهة التي
حدثت بين موسى وسحرة فرعون .. ذلك أن الساحر يسحر أعين الناس ولكن عينه
لا يسحرها أحد .. حينها جاء السحرة وموسى .. إقرأ قوله سبحانه :

﴿ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ١٧ ﴾ قَالَ بَلْ أُلْقُوا إِذَا
حَبَّائِهِمْ وَعَصِيهِمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ يَحِرِهِمْ أَنَّهُمْ أَنَّهُمْ ١٦

(سورة طه)

عندما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم خُيل للموجودين إنها حيات تسمى .. ولكن هل خيل للسحرة إنها حيات ؟ طبعاً لا .. لأن أحدا لم يسحر أعين السحرة .. ولذلك ظل ما ألقوه في أعينهم حبالاً وعصياً .. حين ألقى موسى عصاه وأقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَفَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَبْتُ أَيُّ ۝ قَالَ السَّحَرَةُ مُجْذِبًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ۝﴾

(سورة طه)

هنا نظهر حقيقة السحر .. لماذا سجد السحرة ؟ لأن حبالهم وعصيهم ظلت كما هي حبالاً وعصياً .. ذلك ان أحدا لم يسحر أعينهم .. ولكن عندما ألقى موسى عصاه تحولت إلى حية حقيقية .. فعرفوا ان هذا ليس سحراً ولكنها معجزة من الله سبحانه وتعالى .. لماذا ؟ لأن السحر لا يغير طبيعة الأشياء ، وهم تأكدوا أن عصا موسى قد تحولت إلى حية .. ولكن حبالهم وعصيهم ظلت كما هي وإن كان قد خيل إلى الناس أنها تحولت إلى حيات .

إذن فالسحر تخيل والساحر يرى الشيء على حقيقته لذلك فإنه لا يخاف .. بينما المسحورون الذين هم الناس يتخيلون ان الشيء قد تغيرت طبيعته .. ولذلك سجد السحرة لأنهم عرفوا أن معجزة موسى ليست سحراً .. ولكنها شيء فوق طاقة البشر .

السحر إذن تخيل والشياطين لهم قدرة التشكل بأي صورة من الصور ، ونحن لا نستطيع أن ندرك الشيطان على صورته الحقيقية ، ولكنه إذا تشكل نستطيع أن نراه في صورة مادية .. فإذا تشكل في صورة إنسان رأيناه إنساناً ، وإذا تشكل في صورة حيوان رأيناه حيواناً ، وفي هذه الحالة تحكمه الصورة .. فإذا تشكل كإنسان وأطلقت عليه الرصاص مات ، وإذا تشكل في صورة حيوان ودهمت بسيارتك مات ، ذلك لأن الصورة تحكمه بقانونها .. وهذا هو السر في أنه لا يبقى في تشكله إلا لمحة ثم يختفي في ثوان .. لماذا ؟ لأنه يخشى من يراه في هذه الصورة أن يقتله خصوصاً أن قانون التشكل يحكمه .. ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تشكل له الشيطان في صورة إنسان قال :

(ولقد هممت أن أربطه في سارية المسجد ليتفرج عليه صبيان المدينة ولكنني تذكرت قول أخى سليمان : « رب هب لي مملكاً لا يبنى لأحد من بعدى » . فتركته) الحديث لم يُفْرَج .

ومن رحمة الله بنا انه اذا تشكل الشيطان فإن الصورة تحكمه . . وإلا لكانوا فزعونا وجعلوا حياتنا جحيماً . . فالله سبحانه وتعالى جعل الكون يقوم على التوازن حتى لا يطفى أحد على أحد . . بمعنى أننا لو كنا في قرية وكلنا لا نملك سلاحاً وجد التوازن . . فإذا ملك أحدنا سلاحاً وادعى انه يفعل ذلك ليدافع عن أهل القرية ، ثم بعد ذلك استغل السلاح ليسيّط على أهل القرية ويفرض عليهم إتاوات وغير ذلك ، يكون التوازن قد اختل وهذا مالا يقبله الله .

السحر يؤدي لاختلال التوازن في الكون . . لأن الساحر يستعين بقوة أعلى في عنصرها من الإنسان وهو الشيطان وهو مخلوق من نار خفيف الحركة قادر على التشكل وغير ذلك . . الإنسان عندما يطلب ويتعلم كيف يسخر الجن . . يدعى أنه يفعل ذلك ليشير الخير في الكون ، ولكنها ليست حقيقة . . لأن هذا يفريه على الطغيان . . والذي يحل بأمن العالم هو عدم التكافؤ بين الناس . . إنسان يستطيع أن يطفى فإذا لم يقف أمامه المجتمع كله إختل التوازن في المجتمع . والله سبحانه وتعالى يريد تكافؤ الفرص ليحفظ أمن وسلامة الكون . . ولذلك يقول لنا لا تطغوا وتستعينوا بالشیاطين في الطغيان حتى لا تفسدوا أمن الكون .

ولكن الله جل جلاله شاءت حكمته أن يضع في الكون ما يجعل كل مخلوق لا يغتر بذاتيه . . ولا يحسب انه هو الذي حقق لنفسه العلو في الأرض . . ولقد كانت معصية إبليس في انه رفض أن يسجد لآدم- إنه قال :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

إذن فقد أخذ عنصر الخلق ليدخل الكبر إلى نفسه فيعصى ، ولذلك أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلم البشر من القوانين ، ما يجعل هذا الأهل في العنصر - وهو الشيطان - يخضع للأدنى وهو الإنسان ، حتى يعرف كل خلق الله أنه إن ميزهم الله في عنصر من العناصر ، فإن هذا ليس بإرادتهم ولا ميزة لهم . . ولكنه بمشيئة الله

سبحانه وتعالى . . فأرسل الملكين بيبابل هاروت وماروت ليعلميا الناس السحر .
الذي يفضح الأمل عنصراً للأذى .

واقرا قوله سبحانه : « وما كفر سليمان » ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفروا . . فآله تبارك وتعالى أرسل الملكين هاروت وماروت ليعلميا الناس السحر . . ولقد روي عن هذين الملكين قصص كثيرة . . ولكن مادام الله سبحانه وتعالى قد أرسل ملكين ليعلميا الناس السحر . . فمعنى ذلك أن السحر علم يستعين فيه الإنسان بالشياطين . . وقيل إن الملائكة قالوا عن خلق آدم كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالُوا أَتَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

حينئذ طلب الحق جل جلاله من الملائكة . . أن يختاروا ملكين ليهبطا إلى الأرض لينظروا ماذا يفعلان ؟ فاختاروا هاروت وماروت . . وعندما نزلا إلى الأرض فنتهما امرأة فارتكبا الكثير . هذه القصة برغم وجودها في بعض كتب التفسير ليست صحيحة . . لأن الملائكة يحكم خلقهم لا يعصون الله . . ولأنه من تمام الإيمان أن يؤدي المخلوق كل ما تكلف به من الله جل جلاله . . وهذان الملكان كلفا بأن يعلميا الناس السحر . . وأن يحذرا بأن السحر فتنه تؤدي إلى الكفر وقد فعلا ذلك . . والفتنة هي الإمتحان . . ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : « وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفروا فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » . . إذن فهذان الملكان حذرا الناس من أن ما يعلمانه من السحر فتنه تؤدي إلى الكفر . . وإنما لا تنفع إلا في الشر وفي التفريق بين الزوج وزوجه . . وإن ضررها لا يقع إلا بإذن الله . . فليس هناك أي قوى في هذا الكون خارجة عن مشيئة الله سبحانه وتعالى . .

ثم يأتي قول الحق تبارك وتعالى : « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبس ما شربوا به أنفسهم لو كانوا

يعلمون . . ان الله سبحانه وتعالى يخبرنا أن تعلم السحر يضر ولا ينفع . . فهو لا يجلب نفعا أبدا حتى لمن يشتغل به . فتجد من يشتغل بالسحر يعتمد في رزقه على غيره من البشر فهم أفضل منه . . وهو يظل طوال اليوم يبحث عن إنسان يخبره بأنه يستطيع أن يفعل له أشياء ليأخذ منه مالا ، ونجد شكله غير طيبعي وحياته غير مستقرة وأولاده منحرفين . وكل من يعمل بالسحر يموت فقيرا لا يملك شيئا وتصيبه الأمراض المستعصية ، ويصبح عبرة في آخر حياته .

إذن فالسحر لا يأتي إلا بالضرر ثم بالفقر ثم بلعنة الله في آخر حياة الساحر . . والذي يشتغل بالسحر يموت كافرا ولا يكون له في الآخرة إلا النار . . ولذلك قد اشتروا أنفسهم بأسوأ الأشياء لو كانوا يعلمون ذلك . . لأنهم لم يأخذوا شيئا إلا الضرر . . ولم يفعلوا شيئا إلا التفريق بين الناس . . وهم لا يستطيعون أن يضروا أحدا إلا بإذن الله .

والله سبحانه وتعالى إذا كانت حكمته قد اقتضت أن يكون السحر من فتن الدنيا وابتلاءاتها . . فإنه سبحانه قد حكم على كل من يعمل بالسحر بأنه كافر . . ولذلك لا يجب أن يتعلم الإنسان السحر أو يقرأ عنه . . لأنه وقت تعلمه قد يقول سأفعل الخير ثم يستخدمه في الشر . . كما أن الشياطين التي يستعين بها الساحر غالبا ما تنقلب عليه لتذيقه وبال أمره وتكون شرا عليه وعلى أولاده . . وقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝﴾

(سورة الجن)

أي أن الذي يستعين بالجن ينقلب عليه ويذيقه ألوانا من العذاب . .



﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَقَوْا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْكَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (١٧٠)

يفتح الله جل جلاله أمام عباده أبواب التوبة والرحمة . . لقد بين لهم أن السحر كفر ، وأن من يقوم به يبعث كافرا يوم القيامة ويخلد في النار . . وقال لهم سبحانه وتعالى لو أنهم امتنعوا عن تعلم السحر ليمتازوا به على من سواهم امتيازاً في الضرر والإيذاء . . لكان ذلك خيراً لهم عند الله تبارك وتعالى . . لأن الملكين اللذين نزلوا لتعليم السحر قال الله سبحانه عنهما : « وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر » .

إذن فممارسة السحر كفر . فلو أنهم آمنوا بهذه القضية وبأنهم يدخلون في الكفر ، واتقوا الله لكان ذلك ثواباً لهم عند الله وخيراً في الدنيا والآخرة . . ولكن ما هي المثوبة ؟ هي الثواب على العمل الصالح . . يقابلها العقوبة وهي العقاب على العمل السيئ . . وهي مشتقة من ثاب أي رجع . . ولذلك يسمى المبلغ عن الإمام في الصلاة المثوب . . لأن الإمام يقول الله أكبر فيردها المبلغ عن الإمام بصوت عال حتى يسمعها المصلون الذين لا يصلهم صوت الإمام . . وهذا إسمه الثوب . . أي إعادة ما يقوله الإمام لتزداد فرصة الدين لم يسمعوا ما قاله الإمام . . وكما قلنا فهي مأخوذة من ثاب أي رجع . . لأن الإنسان عندما يعمل صالحاً يرجع عليه عمله الصالح بالخير . . فلا تعتقد أن العمل الصالح يخرج منك ولا يعود . . ولكنه لا بد أن يعود عليك بالخير .

وإذا نظرنا إلى دقة التعبير القرآني : « لمثوبة من عند الله خير » . نجد أن كلمة مثوبة مأخوذة من نفس معنى كلمة ثوب وجمعه ثياب . . وكان الناس قديماً يأخذون أصواف الأغنام ليصنعوا منها ملابسهم . . فيأتي الرجل بما عنده من غنم ويخرج صوفها

ثم يعطيه لآخر ليغزله وينسجه ثوبا ويعيده إلى صاحبه .. فكان ما أرسله من الصوف رد إليه كتوب .. ولذلك سميت مثوبة لأن الخير يعود إليك لتستفع به نفعاً عالياً .. وكذلك الثواب عن العمل الصالح يرتد إليك بالنفع العالى .

إذن فكلمة ثوب جاء منها الثواب ، والله سبحانه وتعالى علمنا أن الثوب لستر العورة .. والعمل الصالح يستر الأمراض المعنوية والنفسية في الإنسان .. وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَدْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ لِبَاسًا بَوَارِي سُوَّةَ تَبَرُّكِ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

فكان هناك لباسين أحدهما لستر العورة .. والثانى لستر الإنسان من العذاب .. ولياس التقوى خير من لباس ستر العورة .. قوله تعالى : « لمثوبة من عند الله خير » .. انظر إلى المثوبة التي تأتي من عند الله .. إذا كان الثوب يأتيك من عند من صنعه جيلا مزركشا وله ألوان مبهجة .. إذا كان هذا ما يصنعه لك بشر فما بالك بالثواب الذي يأتيك من عند الله .. إنه قمة الجمال .. فالله هو القادر على أن يرد الثواب بقدراته سبحانه فيكون الرد عالياً وعالياً جداً ، بحيث يضاعف الثواب مرات ومرات .. على أننا لا بد أن نتنبه الى قول الله تعالى : « ولو أهم أنسوا واتقوا » قلنا معنى اتقوا أنهم جعلوا بينهم وبين صفات الجلال في الله وقاية .. ولذلك قلنا إن بعض الناس يتساءل .. كيف يقول الله تبارك وتعالى : « اتقوا الله » .. ويقول جل جلاله : « اتقوا النار » .. نقول إن معنى اتقوا الله أى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال في الله وقاية : « واتقوا النار » .. أى اجعلوا بينكم وبين عذاب النار وقاية .. لأن النار من متعلقات صفات الجلال .. لذلك فإن قوله : « اتقوا الله » .. تساوى : « اتقوا النار » .. والحق تبارك وتعالى حينما قال : « اتقوا » أطلقها عامة .. والحذف هنا المراد به التعميم .. والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن السحرة لو آمنوا بأن تعلم السحر فتنة تؤدى إلى الكفر .. واتقوا الله وخافوا عذابه في الآخرة لكان ذلك خيراً لهم .. لذلك قال جل جلاله : « لمثوبة من عند الله خير » ..

ومساعة تسمع كلمة خير تأتي إلى الذهن كلمة شر .. لأن الخير يقابله الشر .. ولكن في بعض الأحيان كلمة خير لا يقابلها شر .. ولكن يقابلها خير أقل .. وكلمة

خير هي الوحيدة في اللغة العربية التي يساوى الاسم فيها أفعال التفضيل . . فأنت تقول هذا فاضل وهذا مفضل عليه . . كلمة خير اسم تفضيل فيقال ذلك خير من كذا . . أى واحد منها يعطى أكثر من الآخر . . وكلمة خير إذا لم يأت مقابله أى خير من كذا يكون مقابله شر . . فإذا قلت فلان خير من فلان . . فكلاهما إشترك في الخير ولكن بدرجة مختلفة . . والخير هو ما يأتى لك بالنفع . . ولكن مقياس النفع يختلف باختلاف الناس . . واحد ينظر إلى النفع العاجل وآخر ينظر إلى النفع الأجل . . وفي ظاهر الأمر كل منهما أراد خيرا .

وإذا أردنا أن نقرب ذلك إلى الأذهان فلنقل إن هناك أخوين أحدهما يستيقظ مبكرا ليذهب إلى مدرسته والثاني ينام حتى الضحى ، ويخرج من البيت ليجلس على المقهى . . الأول يحب الخير لنفسه والثاني يحب الخير لنفسه والخلاف في تقييم الخير . . الكسول يحب الخير العاجل فيعطى نفسه حظها من النوم والترفيه وعدم العمل . . والمجتهد يحب الخير الأجل لنفسه لذلك يتعب ويشقى سنوات الدراسة حتى يرتاح بعد ذلك ويحقق مستقبلا مرموقا .

الفلاح الذى يزرع ويلعب إلى حقله في الصباح الباكر ويروى ويبنى الحب ويشقى ، يأتيه في آخر العام محصول وافر وخير كثير . . والفلاح الذى يجلس على المقهى طول النهار أعطى نفسه خير الراحة ، ولكن ساعة الحصاد يحصد الندم .

إذن كل الناس يحبون الخير ولكن نظرتهم ومقاييسهم تختلف . . فبعضهم يريد متعة اليوم ، ومنهم من يعمل لأجل متعة الغد . . والله تبارك وتعالى حين يأمرنا بالخير . . قد يكون الخير متعبا للجسد والنفس . . ولكن النهاية متاع أبدى في جنة الخلد . إذن فالخير الحقيقي هو ما جاء به الشرع . . لماذا ؟ لأن الخير هو ما ليس بعده بعد . . فأنت تولد ثم تكبر ثم تخرج في الجامعة . . ثم تصحب في أهل المناصب ثم تموت ثم تبحث ثم تدخل الجنة . . وبعدها لا شيء إلا الخلود في النعيم .

قوله تعالى : « لو كانوا يعلمون » . . الله ينفى عنهم العلم بينها في الآية السابقة أثبت لهم العلم في قوله تعالى : « ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق » . . نقول إن العلم الذى لا يخضع حركة الإنسان له فكانه لم يعلم شيئا . .

لأن هذا العلم سيكون حجة على صاحبه يوم القيامة وليته لم يعلمه .. واقرأ قول الشاعر :

رَزَقُوا وَمَا رَزَقُوا سَاحَ يَدٍ
فَكَأَنَّهُمْ رَزَقُوا وَمَا رَزَقُوا
خَلِفُوا وَمَا خَلِفُوا لَكَ رِثَةً
فَكَأَنَّهُمْ خَلِفُوا وَمَا خَلِفُوا

فكان العلم لم يثبت لك لأنك لم تستع به .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦ سورة الروم)

(يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ..) وهكذا نفى الله عن الناس العلم الحقيقي .. وأثبت لهم العلم الدنيوي الظاهر .. وقوله جل جلاله :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمْلِ بِحِمْلِ صَفَرٍ خَالٍ مِمَّنْ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ

كَذَّبُوا بِعَاقِبَةِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥٠ ﴾

(سورة الجمعة)

أى أنهم حملوا التوراة عليها ولكنهم لم يحملوها منها وعملوا .. وهؤلاء السحرة علموا أن من يمارس السحر يكفر .. ومع ذلك لم يعملوا بما عملوا .



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٠٤)

هذا نداء للمؤمنين .. لأن الآية الكريمة تبدأ : « يا أيها الذين آمنوا » .. وعندما ينادى الحق المؤمنين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » .. نعرف أن الإيمان هنا هو سبب التكليف .. فالحق لا يكلف كافراً أو غير مؤمن .. ولا يأمر بتكليف إلا لمن آمنوا .. فهدام العبد قد آمن فقد أصبحت مسئولة حركته في الحياة عنده .. ولذلك يوحى إليه بمنهج الحياة .. أما الكافر فلا يكلفه الله بشيء .

إذن قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » .. أمر لمن آمن بالله ورضى به إلها ومشروعاً .. قوله : « يا أيها الذين آمنوا » .. نداء للمؤمنين وقوله : « لا تقولوا راعنا » .. هي .. وكان راعنا كانت مقولة عندهم يريد الله أن ينهأهم عنها .. والإيمان يلزمهم أن يستمعوا إلى هي الله .

ما معنى راعنا ؟ نحن نقول في لغتنا الدارجة (راعينا) .. يعنى احفظنا وراقبنا وحذ يدنا وكلها مأخوذة من مادة الرعاية والراعى . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته).^(١)

وأصل المادة مأخوذة من راعى الغنم .. لأن راعى الغنم لابد أن يتجه بها إلى الأماكن التي فيها العشب والماء .. أى إلى أماكن الرعى .. وأن يكون حارساً عليها حتى لا تشرذم واحدة أو تفصل فضتك بها ذئاب الصحارى .. وأن يوفر لها الراحة حتى

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى عن ابن عمر .

لا تعب وتنق في الطريق .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كنت أرى الغنم على قراريط لأهل مكة)^(١)

ولكن لماذا استبدل الحق سبحانه وتعالى كلمة راعنا بكلمة انظرنا ؟ إن عند اليهود في العبرانية والسريانية كلمة راعنا ومعناها الرعونة .. ولذلك كانوا إذا سمعوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة راعنا .. اتخذوها وسيلة للسباب بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. والمسلمون لا يدرون شيئاً .. لذلك أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتركوا هذه الكلمة .. حتى لا يخذ اليهود وسيلة لستر سبابهم ، وأمرهم بأن يقولوا: انظرنا .

ثم قال الحق سبحانه وتعالى : « واسمعوا » .. والله هنا يشير إلى الفرق بين اليهود والمؤمنين .. فاليهود قالوا سمعنا وعصينا ، ولكن الله يقول للمؤمنين إسمعوا سماع طاعة وسامع تنفيذ .

سعد بن معاذ سمع واحداً من اليهود يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم - راعنا - وسعد كان من أحبار اليهود ويعرف لغتهم - فلما سمع ما قاله فهم مراده . فذهب إلى اليهودي وقال له لو سمعتها منك مرة أخرى لضربت عتقك .. وقال اليهودي أو لستم تقولونها لنبيكم ؟ أمي حرام علينا وحلال لكم ؟ فنزلت الآية الكريمة تقول : « لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا » .. ولونأملنا كلمة (راعنا) وكلمة (انظرنا) لوجدنا المعنى واحداً .. ولكن (انظرنا) تؤدي المعنى وليس لها نظير في لغة اليهود التي تعني الإساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقوله تعالى : « وللكافرين عذاب أليم » .. أى من يقولون راعنا إساءة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لهم عذاب أليم .



﴿ مَا يَوْذُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
 أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْلُصُ
 بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١٠٩)

ثم كشف الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين العداوة التي يكنها لهم أهل الكتاب من اليهود والمشركين .. الذين كفروا لأنهم رفضوا الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام .. فبلغتهم إلى أن اليهود والمشركين يكرهون الخير للمؤمنين .. فشككوا في كل أمر يأتي منهم ، وأعلموا أنهم لا يريدون لكم خيرا .. قوله تعالى : « ما يوذو .. أي ما يحب ، والود معناه ميل القلب إلى من يحبه .. والود يختلف عن المعروف .. أنت تصنع معروفا فيمن تحب ومن لا تحب .. ولكنك لا تود إلا من تحب .. لذلك قال الله تبارك وتعالى :

﴿ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا
 آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة المجادلة)

ثم بعد ذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى ليقول عن الوالدين :

﴿ وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَنْ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ بِكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُكُمْ فِي الدُّنْيَا
 مَعْرُوفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

يقول بعض المستشرقين إن هناك تناقضا بين الآيتين .. كيف أن الله سبحانه وتعالى يقول : لا توادوا من يحارب الله ورسوله .. ثم يأتي ويقول إذا حاول أبواك أن

بجعلك تشرك بالله فصاحبها في الدنيا معروف . . وطبعا الوالدان اللذان يحاولان دفع ابنتها إلى الكفر إنما يحاربان الله ورسوله . . كيف يتم هذا التناقض ؟

نقول إنكم لم تفهموا المعنى . . إن الإنسان يصنع المعروف فيمن يحب ومن لا يحب كما قلنا . . فقد نجد إنسانا في ضيق وتعطيه مبلغا من المال كمعروف . . دون أن يكون بينك وبينه أى صلة . . أما الود فلا يكون إلا مع من تحب .

إذن : « ما يود » معناها حب القلب . . أى أن قلوب اليهود والنصارى والمشركين لا تحب لكم الخير . . إنهم يكرهون أن ينزل عليكم خير من ربكم . . بل هم في الحقيقة لا يريدون أن ينزل عليكم من ربكم أى شيء مما يسمى خيرا . . والخير هو وحى الله ومنهجه ونبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : « من خير » . . أى من أى شيء مما يسمى خيرا . . فأنت حين تذهب إلى إنسان وتطلب منه مالا يقول لك ما عندى مال . . أى لا أملك مالا ، ولكنه قد يملك جنيتها أو جنيته . . ولا يعتبر هذا مالا يمكن أن يوفى بما تريده . . وتذهب إلى رجل آخر لنفس الغرض تقول أريد مالا . . يقول لك ما عندى من مال . . أى ليس عندى ولا قرش واحد ، ما عندى أى مبلغ مما يقال له مال حتى ولو كان عدة قروش . والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن أهل الكتاب والكفار والمشركين . . مشتركون في كراهيتهم للمؤمنين . . حتى إنهم لا يريدون أن ينزل عليكم أى شيء من ربكم مما يطلق عليه خير .

وقوله تعالى : « من ربكم » . . تدل على المصدر الذى يأتي منه الخير من الله . . فكأنهم لا يحبون أن ينزل على المؤمنين خير من الله . . وهو المنهج والرسالة . ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « والله يختص برحمته من يشاء » . . أى أن الخير لا يخضع لرغبة الكافرين وأمانهم . . والله ينزل الخير لمن يشاء . . والله قد قسم بين الناس أمور حياتهم الدنيوية . . فكيف يطلب الكافرون أن يخضع الله منهجه لإرادتهم ؟ واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا زَكَّاهُ هَذَا الْفَرَقَ أَنْ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٌ ٥١ أَلَمْ يَقْسِمُوا رَبُّكَ

رَحْمَتَ رَبِّكَ لَمَنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَوَعَدْنَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ

بَعْضُ دُجَنَّتْ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حُرِّيًّا وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٥﴾

(سورة الزخرف)

اعترض الكفار على نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا لو نزل على رجل من القرين عظيم .. فإرد عليهم الله سبحانه وتعالى .. أنتم لا تقسمون رحمة الله ولكن الله يقسم بينكم حياتكم في الدنيا .

الحق تبارك وتعالى في الآية التي نحن بصددتها يقول : « والله يختص برحمته من يشاء » .. ساعة نقرأ كلمة يختص نفهم أن شيئاً خصص لشيء دون غيره .. بمعنى أنني خصصت فلاناً بهذا الشيء : « والله يختص برحمته من يشاء » .. أي يعطى الرحمة لمن يشاء لكي يؤدي مهمته أو ينزل رحمته على من يشاء ، فليس هؤلاء الكفار أن يتحكموا في مشيئة الله ، وحسبهم وكرهاتهم للمؤمنين لا يعطيهما حق التحكم في رحمة الله .. ولذلك أراد الله أن يرد عليهم بأن هذا الدين سيكثر ويزداد المؤمنون به .. وسيفتح الله به أقطاراً ودولاً .. سيدخل الناس فيه أفواجا وسيظهره على الدين كله .

ولو تأملنا أسباب انتصار أي عدو على من يعاديه لوجدنا إنها إما أسباب ظاهرة واضحة وإما مكر وخداع .. بحيث يظهر العدو لعدوه أنه يحبه ويكيد له في الخفاء حتى يتمكن منه فيقتله .. ولقد هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سرا .. لماذا ؟ لأن الله أراد أن يقول لقريش لن تقدروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولولا المكر والخداع والتبصير .. هم يتوهمون الفتنه ليقتلوه .. وجاءوا من كل قبيلة يفتي ليضيع دمه بين القبائل .. وخرج صلى الله عليه وسلم ووضع التراب على رءوس الفتنه .. الله أرادهم أن يعرفوا أنهم لن يقدروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكر والتبصير والخداع ولا بالعداء الظاهر .

قوله تعالى : « والله ذو الفضل العظيم » .. الفضل هو الأمر الزائد عن حاجتك الضرورية .. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كان معه فضل ظهر فليَنُذِرْ به على من لا ظهر له ومن كان معه فضل زاد فليعده به على من لا زاد له)^(١) .

(١) رواه مسلم في اللغة وأبو داود في الزكاة . وأحمد في السنن .

وفضل مال أى مال زائد على حاجته . هذا عن الفضل بالنسبة للبشر . أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فإن كل ما فى كون الله الآن وفى الآخرة هو فضل لله لأنه زائد على حاجته ؛ فالله غير محتاج لخلقه ولا لكل نعمه التى سبقت والتى ستأتى . ولذلك قال : « والله ذو الفضل العظيم » . . أى ذو الفضل المائل الزائد على حاجته ؛ لأنه ربما يكون عندى فضل ، ولكننى أبقيه لأننى سأحتاج إليه مستقبلا . والفضل الحقيقى هو الذى من عند الله . لذلك فإن الله سبحانه وتعالى هو ذو الفضل العظيم ؛ لأنه غير محتاج إلى كل خلقه أو كونه ؛ لأن الله سبحانه كان قبل أن يوجد شىء ، وسيكون بعد ألا يوجد شىء . وهذا ما يسمى بالفضل العظيم .



﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٦)

ولكن ماهو السبب ؟ السبب أن أهل الكتاب والمشركون لا يريدون خيرا للمؤمنين في دينهم ؛ لأنهم أحسوا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم في زمنه خير مما جاء به موسى وبقي إلى زمن محمد صلى الله عليه وسلم . . وخير مما جاء به عيسى في زمن محمد صلى الله عليه وسلم . وليس معنى ذلك أننا نحاول أن نقصص ما جاء به الرسل السابقين . . لكننا نؤكد أن الرسل السابقين جاءوا في أزمانهم بخير ما أُجِد في هذه الأزمان . . فكل رسالة من الرسالات التي سبقت رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . جاءت لقوم محددين ولزمن محدد . . ثم جاء نبي جديد لينسخ ما في الرسالة السابقة لقوم محددين وزمن محدد . . وقرأ قول عيسى عليه السلام حينما بعث إلى بني إسرائيل كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ لَكُم بَعْضُ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ (٥٠)

(سورة آل عمران)

فكان عيسى عليه السلام جاء لينسخ بعض أحكام التوراة . . ويحل لبني إسرائيل بعض ما حرّمه الله عليهم . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الرسول الخاتم أعطى الخير كله ؛ لأن دينه للعالمين وبقى إلى يوم القيامة .

وهكذا نرى أن المؤمنين بالرسل كلما جاء رسول جديد كانوا ينتقلون من خير إلى خير . . وفيما تنفق فيه الرسالات كانوا ينتقلون إلى مثل هذا الخير . . وذلك فيما

يتعلق بالمعتقد ، وإلى زيادة في الخبر فيها يتعلق بمحتج الحياة . . هناك في رسالات السماء كلها أمور مشتركة لا فرق فيها بين رسول ورسول وهي قضية الإيمان بالله واحد أحد له الكمال المطلق . . سبحانه في ذاته ، وسبحانه في صفاته ، وسبحانه في أفعاله . . كل ذلك قدر الرسالات فيه مشترك . . ولكن الحياة في تطورها توجد فيها قضايا لم تكن موجودة ولا مواجهة في العصر الذي سبق . . فإذا قلنا إن رسالة بقيمتها العقائدية تبقى . . فإنها لا تستطيع أن تواجه قضايا الحياة التي ستأتي بها العصور التي بعدها فيها عدا الإسلام . . لأنه جاء دينا دائما لا يتغير ولا يتبدل إلى يوم القيامة . . على أننا نجد من يقول وماذا عن قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (١٦)

(سورة الشورى)

نقول إن هذا يأتي في شيء واحد . . يتعلق بالأمر الثابت في رسالات السماء وهو قضية قمة العقيدة والإيمان بالله الواحد . . أما فيها يتعلق بقضايا الحياة فإننا نجد أحكاما في هذه الحركة حسب ما طرأ عليها من توسعات . . ولذلك عندما جاء محمد صلى الله عليه وسلم أعطى أشياء يعالج بها قضايا لم تكن موجودة في عهد الرسل السابقين .

يقول الله تبارك وتعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها » . . كلمة نسخ معناها نزيل آية كانت موجودة ونأتى بآية أخرى بدلا منها . . كما يقال نسخت الشمس الظل . . أى أن الظل كان موجودا وجاءت الشمس فمحته وحلت هي مكانه . . ويقال نسخت الكتاب أى نقلته إلى صور متعددة ، ونسخ الشيب الشباب أى أصبح الشاب شيخا . .

وقوله تعالى « ننسها » لها معان متعددة . . قد يعنى ذلك أن الله يجعل الإنسان سهو ويغفل عنها . . فتضيع من ذاكرته أو يتركها إلى غيرها . . والعلماء اختلفوا في

هذه المسألة . . وكان هذا الاختلاف لأن أحدهم يلحظ ملحظا وغيره يلحظ ملحظا آخر وكلاهما يريد الحق . .

ثاني للنسخ في القرآن الكريم . . قوم قالوا لا نسخ في القرآن أبدا . . لماذا ؟ لأن النسخ بداء على الله . . ما معنى البداء ؟ هو أن تأتي بحكم ثم يأتي التطبيق فيثبت قصور الحكم عن مواجهة القضية فيعدل الحكم . . وهذا محال بالنسبة لله سبحانه وتعالى . . نقول لهم طبعاً هذا المعنى مرفوض ومحال أن يطلق على الله تبارك وتعالى . . ولكننا نقول إن النسخ ليس بداء ، وإنما هو إزالة الحكم والمجيء بحكم آخر . . ونقول لهم ساعة حكم الله الحكم أولا فهو سبحانه يعلم أن هذا الحكم له وقت محدود ينتهي فيه ثم يحل مكانه حكم جديد . . ولكن الظرف والمعالجة يقتضيان أن يحدث ذلك بالتدريج . . وليس معنى ذلك أن الله سبحانه قد حكم بشيء ثم جاء واقع آخر أثبت أن الحكم قاصر فعُدل الله عن الحكم . . إن هذا غير صحيح .

لماذا . . لأنه ساعة حكم الله أولا كان يعلم أن الحكم له زمن أو يطبق لفترة . . ثم بعد ذلك ينسخ أو يعدل بحكم آخر . . إذن فالمرجع الذي وضع هذا الحكم وضعه على أساس أنه سيمتد وسيحل محله حكم جديد . .

وليس هذا كواقع البشر . . فأحكام البشر وقوانينهم تعدل لأن واقع التطبيق يثبت قصور الحكم عن مواجهة قضايا الواقع . . لأنه ساعة وضع الناس الحكم علموا أشياء وخفيت عنهم أشياء . . فجاء الواقع ليظهر ما خفى وأصبح الحكم لا بد أن ينسخ أو يعدل . . ولكن الأمر مع الله سبحانه وتعالى ليس كذلك . . أمر الله جعل الحكم موقوتا ساعة جاء الحكم الأول .

مثلاً حين وجه الله المسلمين إلى بيت المقدس . . أكانت القضية عند الله أن القبلة ستبقى إلى بيت المقدس طالما وجد الإسلام وإلى يوم القيامة ؟ ثم بدا له سبحانه وتعالى أن يوجه المسلمين إلى الكعبة ؟ لا . . لم تكن هذه هي الصورة . . ولكن كان في شرع الله أن يتوجه المسلمون أولاً إلى بيت المقدس فترة ثم بعد ذلك يتوجهون إلى الكعبة إلى يوم القيامة .

إذن فالواقع لم يضطر المشرع إلى أن يعدل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة . .

وإنما كان في علمه وفي شرعه أنه سيغير القبلة بعد فترة إلى الكعبة . . ولعل لذلك هدفا إيمانيا في أن العلة في الأمور هي أنها من الله ، فالانحياز إلى بيت المقدس أو الانحياز إلى الكعبة لا يكلف المؤمنين جهدا إيمانيا إضافيا . . ولا يضع عليهم تكاليف جديدة . فالجهد نفسه الذي أبدله للانحياز إلى الشرق أبدله للانحياز إلى الغرب . ولكن الاختيار الإيماني أن تكون علة الأمر أنه صادر من الله . . فإذا قال الله اتجه إلى بيت المقدس إتجهنا . . فإذا قال اتجه إلى الكعبة إتجهنا . . ولا قدسية لشيء في ذاته . . ولكن القدسية لأمر الله فيه .

والله تبارك وتعالى حين أمر الملائكة أن يسجدوا لأدم لم يسجدوا لذات أدم ولكنهم سجدوا لأمر الله بالسجود لأدم . والله سبحانه وتعالى اختار الكعبة المشرقة بيتا ومسجدا له في الأرض . . واتخذت الكعبة مقامها العالي عند المسلمين ليس لأنها بقعة في مكان ما جاءها إبراهيم والأنبياء وحج إليها الناس ، ولكن مقامها جاء من أنها هي بيت الله باختيار الله لها . . وكل مساجد الأرض هي بيوت الله باختيار خلق الله . . ولكن المسجد الوحيد الذي هو بيت الله باختيار الله هو الكعبة . . ولذلك كان لأبد لكل المساجد التي هي باختيار خلق الله . . أن تتجه إلى المسجد الذي هو باختيار الله . . ولكن العلة الإيمانية الكبرى هي أن نؤمن أن صدور الأمر من الله هو الحثية لاتباع هذا الأمر دون أن نبحث عن أسبابه الدنيوية .

فإذا قال الله سبحانه وتعالى الصلاة خمس مرات في اليوم . . فدون أن نبحث عن السبب أو نقول لماذا خمسة ؟ فلتنقص منها . . دون أن نفعل ذلك نصل خمس مرات في اليوم والسبب أن الله قال ، وهكذا الزكاة ، وهكذا الصوم وهكذا الحج . . كلها تتم طاعة الله . . وهكذا تغيير القبلة تم اختياراً للطاعة الإيمانية لله . . فالله موجود في كل مكان . . فلا يأتي أحد ليقول لماذا الكعبة ؟ وهل الله ليس موجوداً إلا في الكعبة ؟ نقول لا إنه موجود في كل مكان . . ولكنه أمرنا أن نتجه إلى الكعبة . . ونحن لا نتجه إليها لأننا نعتقد أن الله تبارك وتعالى موجود في هذا المكان فقط . . ولكن طاعة لأمر الله الذي أمرنا أن تكون قبلتنا إلى الكعبة .

ولعل تغيير القبلة يعطينا فلسفة نسخ الآيات . . لماذا ؟ لأنه لم توجد أية ظروف أو تحد وقائع ، أو تظهر أشياء كانت خفية تجعل الانحياز إلى بيت المقدس صعبا أو محوطا بالمشاكل أو غير ذلك ، ولكن تغيير القبلة جاء هنا لأن الله سبحانه وتعالى شاء أن يتوجه المسلمون إلى بيت المقدس فترة ثم يتوجهوا إلى الكعبة إلى يوم القيامة .

إذن فكل آية نسخت كان في علم الله سبحانه وتعالى أنها ستطبق لفترة معينة ثم بعد ذلك ستعدل .. وكان كل من الحكم الذي سينسخ ، والوقت الذي سيستغرقه ، والحكم الذي سيأتي بعده معلوما عند الله تبارك وتعالى ومقررا منذ الأزل وقبل بداية الكون .. وأيضا فإن الله أراد أن يلتفتا بالتوجه إلى بيت المقدس أولا .. لأن الاسلام دين يشمل كل الأديان ، وأن بيت المقدس سيصبح من مقدسات الاسلام .. وأنه لا يمكن لأحد أن يدعى ان المسلمين لن يكون لهم شأن في بيت المقدس ، لذلك أسرى الله سبحانه وتعالى برسوله صل الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس .. ليثبت ان لبيت المقدس قداسة في الإسلام وأنه من المقدسات عند الله .. ومن هنا كان التوجه إلى بيت المقدس كقبلة أولى ، ثم نسخ الله القبلة إلى الكعبة .. فالحق جل جلاله يقول : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » .. أى أن النسخ يكون إما أن يأتي الله سبحانه وتعالى بخير من هذه الآية أو بأن يحلها .. وهل الآية المنسوخة كان هناك خير منها ولم ينزله الله ؟ نقول لا .. المعنى ان الآية المنسوخة كانت خيراً في زمانها .. والحكم الثاني كان زيادة في الخير بعد فترة من الزمن .. كلاهما خير في زمت وفي أحكامه .. والله تبارك وتعالى أنزل الآية الكريمة :

﴿ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تَقٰۤاَتِهٖٓ وَلَا تَمُوْنُوْا اِلَّا وَاَنْتُمْ مُّسْلِمُوْنَ ١١٠ ﴾

(سورة آل عمران)

ولكن من يستطيع أن يتق الله حق تقاته .. ذلك صعب على المسلمين .. ولذلك عندما نزلت الآية قالوا ليس منا من يستطيع أن يتق الله حق تقاته .. فنزلت الآية الكريمة :

﴿ فَاَتَقُواْ اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاٰصْبَعُوْا وَاٰطِيعُوْا وَاَنْفِقُوْا غَيْرَ اِلَّا نَفْسِكُمْ وَمِنْ يُّوقِ

نَحْمُ نَفْسِهٖٓ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ ١١١ ﴾

(سورة التافان)

الذى يتق الله حق تقاته خير ، أم الذى يتق الله ما استطاع ؟ طبعاً حق تقاته خير من قدر الاستطاعة .. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : « نأت بخير منها » ..

نقول إنك لم تفهم عن الله . . « اتقوا الله حق تقاته » في الآية الأولى أو « فاتقوا الله ما استطعتم » في الآية الثانية . . أى الحاليتين أحسن ؟ نقول إن العبرة بالنتيجة . . عندما تريد أن تقيم شيئاً لابد أن تبحث عن نتيجة أولاً .

ولتقرب المعنى للأذهان سنضرب مثلاً والله المثل الأعلى . . نفرض ان هناك تاجراً يبيع السلع بربح خمسين في المائة . . ثم جاء تاجر آخر يبيع نفس السلع بربح خمسة عشر في المائة . . ماذا يحدث ؟ سيقبل الناس طبعاً على ذلك الذى يبيع السلع بربح خمسة عشر في المائة ويشترّون منه كل ما يريدون ، والتاجر الذى يبيع السلع بربح خمسين في المائة يحقق ربحاً أكبر . . ولكن الذى يبيع بربح خمسة عشر في المائة يحقق ربحاً أقل ولكن بزيادة الكمية المباعة . . يكون الربح في النهاية أكبر .

والذى يطبق الآية الكريمة : « اتقوا الله حق تقاته » يحقق خيراً أكبر في عمله . . ولكنه لا يستطيع أن يتقى الله حق تقاته إلا في أعمال محدودة جداً .

إذن الخير هنا أكبر ولكن العمل الذى تنطبق عليه الآية محدود .

أما قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » فإنه قد حدد التقوى بقدر الاستطاعة . . ولذلك تكون الأعمال المقبولة كثيرة وإن كان الأجر عليها أقل .

عندما نأتى إلى النتيجة العامة . . أعمال أجورها أعلى ولكنها قليلة ومحدودة جداً . . وأعمال أجورها أقل ولكنها كثيرة . . أيها فيه الخير ؟ طبعاً الأعمال الكثيرة ذات الأجر الأقل في مجموعها تفوق الأعمال القليلة ذات الأجر المرتفع .

إذن فقد نسخت هذه الآية بما هو خير منها . . ورغم أن الظاهر لا يبدو كذلك ، لأن اتقاء الله حق تقاته خير من اتقاء الله قدر الاستطاعة . . ولكن في المحصلة العامة الخير في الآية التى نصت على الاستطاعة . .

نأتى بعد ذلك إلى قوله تعالى : « أو مثيلها » . . هنا تروق بعض العلماء : قد يكون مفهوماً أن ينسخ الله آية بخير منها ، ولكن ما هى الحكمة فى ان ينسخها بمثلها ؟ إذا كانت الآية التى نسخت مثل الآية التى جاءت . . فلماذا تم النسخ ؟

نقول إننا إذا ضربنا مثلاً لذلك فهو مثل تغيير القبلة . . ان الله تبارك وتعالى حين أمر المسلمين بالتوجه إلى الكعبة بدلاً من بيت المقدس نسخ آية يمثلها . . لأن التوجه إلى الكعبة لا يكلف المؤمن أية مشقة أو زيادة في التكليف . . فالإنسان يتوجه ناحية اليمين أو إلى اليسار أو إلى الإمام أو إلى الخلف وهو نفس الجهد . . والله سبحانه وتعالى كما قلنا موجود . . وهنا تبرز الطاعة الإيمانية التي نحددنا عنها وأن هناك أفعالا تقوم بها لأن الله قال . . وهذه ثأتى في العبادات لأن العبادة هي طاعة عابد لأمر معبود . . والله تبارك وتعالى يريد أن تثبت العبودية له عن حب واختيار . . فإن قال افعلوا كذا فعلنا . . وإن قال لا تفعلوا لا نفعل . . والعلة في هذا أننا نريد اختياراً أن نجعل مرادنا في الكون خاضعة لمرادات الله سبحانه وتعالى . . إذن مثلها لم تأت بلا حكمة بل جاءت لحكمة عالية .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « أو أنسيها » ما معنى ننسها ؟ قال بعض العلماء إن النسخ والنسيان شيء واحد . . ولكن ساعة قال الله الحكم الأول كان في إرادته ومشيئته وعلمه أن يأتي حكم آخر بعد مدة . . ساعة جاء الحكم الأول ترك الحكم الثاني في مشيئته قدراً من الزمن حتى يأتي موعد نزوله .

إذن فساعة يأتي الحكم الأول . . يكون الحكم مرجأ ولكنه في علم الله . ينتظر انقضاء وقت الحكم الأول : « ما ننسخ من آية » هي الآية المنسوخة أو التي سيتم عدم العمل بها : « أو ننسها » . . أى لا يبلغها الله للرسول والمؤمنين عن طريق الوحي مع أنها موجودة في علمه سبحانه . . ويجب أن تنبه إلى أن النسخ لا يحدث في شيئين :

الأول: أمور العقائد فلا تنسخ آية آية أخرى في أمر العقيدة . . فالعقائد ثابتة لا تتغير منذ عهد آدم حتى يوم القيامة . . فالله سبحانه واحد أحد لا يتغير ولا تبدل ، والغيب قائم ، والأخرة قادمة والملائكة يقومون بهمهم . . وكل ما يتعلق بأمور العقيدة لا ينسخ أبداً . .

والثاني: الإخبار من الله عندما يعطينا الله تبارك وتعالى آية فيها خبر لا ينسخها بآية جديدة . . لأن الإخبار هو الإبلاغ بشيء واقع . . والحق سبحانه وتعالى إخباره لنا بما حدث لا ينسخ لأنه بلاغ صدق من الله . . فلا تروى لنا حادثة الفيل ثم تنسخ

بعد ذلك وتروى بفاصل أخرى لأنها أبلغت كما وقعت .. إذن لا نسخ في العقائد والإخبار عن الله .. ولكن النسخ يكون في التكليف .. مثل قول الحق تبارك وتعالى :

﴿بَنَاتِيَا إِنِّي حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَنْتُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ٥٧﴾
(سورة الأنفال)

كان المقياس ساعة نزول هذه الآية أن الواحد من المؤمنين يقابل عشرة من الكفار ويغلبهم .. ولكن كانت هذه عملية شاقة على المؤمنين .. ولذلك نسخها الله ليعطينا على قدر طاقتنا .. فنزلت الآية الكريمة :

﴿الْفَتْنُ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ٥٨﴾
(سورة الأنفال)

والحق سبحانه وتعالى علم أن المؤمنين فيهم ضعف .. لذلك لن يستطيع الواحد منهم أن يقابل عشرة ويغلبهم .. فنقلها إلى خير يسير يقدر عليه المؤمنون بحيث يقبل المؤمن الواحد اثنين من الكفار .. وهذا حكم لا يدخل في العقيدة ولا في الإخبار .. وفي أول نزول القرآن كانت المرأة إذا زنت وشهد عليها أربعة بمسكونها في البيت لا تخرج منه حتى تموت .. وقرأ قوله تعالى :

﴿وَالَّذِي يَأْتِيَنَّكَ الْفِتْنَةُ مِنْ إِبْطَارِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَلْيَسْكُنَّ فِي بُيُوتٍ حَتَّى يَذْهَبَ إِلَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ٥٩﴾
(سورة النساء)

وبعد أن شاع الإسلام وامتلات النفوس بالإيمان . . نزل تشريع جديد هو الرجم أو الجلد . . ساعة نزل الحكم الأول بحبسهن كان الحكم الثاني في علم الله . . وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « أو يجعل الله لهن سبيلا » . . وقوله سبحانه :

﴿ قَاتِلُوا وَأَصْلَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة البقرة)

وقوله تعالى حتى يأتى الله بأمره . . كان هناك حكما أو أمرا في علم الله سيأتى ليعدل الحكم الموجود . . إذن الله حين أبلغنا بالحكم الأول أعطانا فكرة . . ان هذا الحكم ليس نهائيا وأن حكما جديدا سينزل . . بعد أن تتدرب النفوس على مراد الله من الحكم الأول . . ومن عظمة الله أن مشيته اقتضت في الميراث أن يعطى الوالدين اللذين بلغا أرذل العمر فقال جل جلاله :

﴿ كَتَبَ عَلَيْكَ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ

وَالْمَعْرُوفُ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ١٥١ ﴾

(سورة البقرة)

وهكذا جعلها في أول الأمر وصية ولم تكن ميراثا . . لماذا ؟ لأن الإنسان إن مات فهو الحلقة الموصولة بأبيه . . أما أبنائه فحلقة أخرى . . ولما استقرت الأحكام في النفوس وأقبلت على تنفيذ ما أمر به الله . . جعل سبحانه المسألة فرضا . . فيستوفى الحكم . . ويقول جل جلاله :

﴿ يَرْسِلُكُمْ اللَّهُ فِي تَوَالِدِكُمْ لِلدَّكْرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ ۖ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ

فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِلَّذِينَ تَرَكَ زَوْجُهُنَّ مِنْ أَوْلَادٍ

الَّذِينَ تَرَكَ لَهَا وَلَدًا فَإِن تَرَكَ ابْنًا وَوَرَثَةً مِنْ آبَائِهِ فَلِلْأُمِّ الْفُلَّةِ

فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّ الْفُلَّةِ النِّصْفُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دِينَ

ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾

(سورة النساء)

وهكذا بعد أن كان نصيب الوالدين في تركة الإبن وصية .. إن شاء أوصى بها وإن شاء لم يوصَ أصبحت فرضاً .. وقوله تعالى : « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » .. أى كل شيء يدخل في إرادة الله وقدرته سبحانه .. إذا قلنا إذا جاء الله بحكم لعصر فهذا هو قمة الخير .. لأنه إذا عدل الحكم بعد أن أدى مهمته في عصره ، فإن الحكم الجديد الذى يأتي هو قمة الخير أيضا .. لأن الله على كل شيء قدير ، يواجه كل عصر بقمة الخير للموجودين فيه .. ولذلك فمن عظمة الله أنه لم يأت بالحكم خيراً من عنده ولكنه أشرك فيه المخاطب .. فلم يقل سبحانه « إن الله على كل شيء قدير » .. ولكنه قال : « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » .. لأنه واثق أن كل من يسمع سيقول نعم .. وهذا ما يعرف بالاستفهام الإنكارى أو التقريرى .



﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (١٧)

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى لنا أن هناك آيات نسخت في القرآن .. أراد أن يوضح لنا أنه سبحانه له طلاقة القدرة في كونه يفعل ما يشاء .. ولذلك بدأ الآية الكريمة : « أَلَمْ تَعْلَمْ » .. وهذا التعبير يسمى الاستفهام الاستكراري أو التقريري .. لأن السامع لا يجيد إلا جواباً واحداً بأنه يقر بما قاله الله تبارك وتعالى .. ويقول نعم يا رب أنت الحق وقولك الحق .

قوله تعالى : « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .. الملك يقتضي مالكا ويقتضي مملوكا .. ويقتضي قدرة على استمرار هذا الملك وعدم زواله .. فكان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه يقدر ويملك المقدرة .. والإنسان ليست له قدرة التملك ولا المقدرة على استبقاء ما يملكه .. والإنسان لا يملك الفعل في الكون .. إن أراد مثلاً أن يبقى عبارة قد لا يجيد الأرض .. فإن وجد الأرض قد لا يجيد العامل الذي يبقى .. فإن يجده قد لا يجيد مواد البناء .. فإن وجد هذا كله قد تأنى الحكومة أو الدولة وتفتح البناء على هذه الأرض .. أو أن تكون الأرض ملكاً لإنسان آخر فتقام القضايا ولا يتم البناء .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .. أي أن كل شيء في الوجود هو ملك لله وهو يتصرف بقدرته فيما يملك .. ولذلك عندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .. كان اليهود يملكون المال وهم معرفة ببعض العلم الدنيوي لذلك سادوا المدينة .. وبدأوا يمتكرون برسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين .. والله تبارك وتعالى طمان رسوله بأن طلاقة القدرة في الكون هي لله وحده .. وأنه إذا كان لهم ملك فإنه لا يدوم لأن الله ينزع الملك عن

يشاء ويعطيه لمن يشاء .. ولذلك حينما يأتي يوم القيامة ويملك الله الأرض ومن عليها .. يقول سبحانه :

﴿لَيَنَّ الْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ويرد جل جلاله بشهادة الذات للذات فيقول :

﴿لَهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

ومادام الله هو المالك وحده .. فإنه يستطيع أن يتزع من اليهود وغيرهم ومن الدنيا كلها ما يملكونه .. ويحدثنا العلماء أن العسس وهم الجنود الذين يسرون ليلاً لتفقد أحوال الناس وجدوا شخصاً يسير ليلاً .. فلما تقدموا منه جرى فجروا وراءه إلى أن وصل إلى مكان خرب ليستريح فيه .. تقدم العسس وأمسكوا به وإذا بهم يجدون جثة قتيل في المكان .. فقالوا له أنت القاتل لأنك جرّيت حين رأيتنا ولأنك موجود الآن في المكان الذي فيه جثة القتيل .. فأخذوه ليحاكموه فقال لهم أمهلوني لأصل ركعتين لله .. فأمهلوه فصل ثم رفع يديه إلى السماء وقال اللهم إنك تعلم أنه لا شاهد على براءتي إلا أنت .. وأنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة فأسألك ذلك في نفسك .. فبينما هم كذلك إذ أقبل رجل فقال .. أنا قاتل هذا القتيل وأنا أقر بجريمتي .. فتعجب الناس وقالوا لماذا تقر بجريمتك ولم يرك أحد ولم ينهك أحد .. فقال لهم والله ما أقررت إنما جاء هاتف فأجرى لساني بما قلت .. فلما أقر القاتل بما فعل وقام ولي المقتول وهو أبوه فقال .. اللهم إني أشهدك إني قد أعفيت قاتل ابني من دينه وقصاصه .

انظر إلى طلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى .. القاتل أراد أن يخنثى ولكن أنظر إلى دقة السؤال من السائل أو المتهم البريء .. وقد صل ركعتين لله .. لأن رسول الله صل الله عليه وسلم علمنا أنه إذا حزبنا أمر قمنا إلى الصلاة فليس أماناً إلا هذا الباب .. وبعد أن صل سأل الله أنت أمرتنا ألا نكتم الشهادة ولا يشهد ببرائتي أحد إلا أنت فأسألك ذلك في نفسك وبعد ذلك كان ما كان .

وهذه القصة تدلنا على أننا في قبضة الله .. أردنا أو لم نرد .. بأسباب أو بغير أسباب .. لماذا ؟ .. لأن الله له ملك السموات والأرض وهو على كل شيء قدير .. وقوله تعالى : « وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » .. الولي هو من يواليك ويحبك .. والنصير هو الذي عنده القدرة على أن ينصرك وقد يكون النصير غير الولي .. الحق تبارك وتعالى يقول أنا لكم وليٌ ونصير أي محب وأنصركم على من يعاديكم .



﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ
مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ الْإِيمَانِ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝﴾

ثم ينقل الحق جل جلاله المسلمين بعد أن بين لهم أنه وليهم ونصيرهم . . ينقلهم
إلى سلوك أهل الكتاب من اليهود مع رسولهم حتى يتفادوا مثل هذا السلوك فيقول
جل جلاله : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل » . . الحق
يقول للمؤمنين أم تريدون أن تسألوا رسول الله كما سأل اليهود موسى . . ولم يشأ
الحق أن يشبه المسلمين باليهود فقال : « كما سئل موسى من قبل » . . وكان من
الممكن أن يقول أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل اليهود موسى . . ولكن الله لم
يرد أن يشبه اليهود بالمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم . . وهذا تكريم من الله
للمؤمنين بأن يزههم أن يتشبهوا باليهود . . وقد سأل اليهود موسى عليه السلام
وقالوا كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿بِسْمِكَ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ
مِنْ ذَلِكَ قَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ بِأَنفُسِهِمْ ۖ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ
مَاجَاءَتِهِمُ الْبَيْتَ فَمَقُونَا عَنْ ذَلِكَ ۖ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ۝﴾

(سورة النساء)

وقد سأل أهل الكتاب والكفار رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يروى لنا
القرآن الكريم :

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ نَبِيًّا ۝﴾

(سورة الإسراء)

﴿أَرْسَلْنَا السَّمَاءَ كَاذِبَةً عَلَيْنَا كَسَفَا أَوْ تَأَنَّى بِاللهِ وَالْمَلَكِ قَبْلًا ۝
أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُتُرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ بِرُفْقِكَ حَتَّى تَتَرَدَّى
عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝﴾

(سورة الإسراء)

الله تبارك وتعالى يهيب بالمؤمنين أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . كما
سأله أهل الكتاب والكفار ويقول لهم إن اليهود قد سألوا موسى أكبر من ذلك . .
فيعد أن رأوا المعجزات وشق الله البحر لهم . . وعبروا البحر وهم يشاهدون المعجزة
فلم تكن خافية عنهم . . بل كانت ظاهرة لهم واضحة . . دالة دلالة دامغة على
وجود الله سبحانه وتعالى وعمل عظيم قدراته . . ورغم هذا فإن اليهود قالوا لموسى لن
نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . . أى لم تكفهم هذه المعجزات . . وكأننا كانوا
بماديتهم يريدون أن يروا في حياتهم الدنيوية من لا تتركه الأبصار . . ويمجدون أن
عبروا البحر أرادوا أن يجعل لهم موسى صنبا يعبدونه وعبدوا العجل رغم كل الآيات
التي شاهدوها .

وقوله تعالى : « ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » . . قلنا إن
الباء في قوله تعالى : « بالإيمان » تدخل دائما على المتروك . . كأن تقول اشتريت هذا
بكذا درهم . . معنى تركت الدراهم وأخذت البضاعة . . ومعناها أن الكفر مأخوذ
والإيمان متروك . . فقد أخذ اليهود الكفر وتركوا الإيمان حين قالوا لموسى : « أرنا الله
جهرة » . . وقوله سبحانه : « فقد ضل سواء السبيل » .

ما هو الضلال ؟ . . هو أن تسلك سبيلا لا يؤدي بك إلى غايتك . . « وسواء
السبيل » . . سواء هو الوسط . . « وسواء السبيل » . . هو وسط الطريق . . والله
تبارك وتعالى يقول :

﴿ فَأَطْلِعْ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝﴾

(سورة الصافات)

أى فى وسط الجحيم . . أى أنه يكون بعيدا عن الخافتين بعدًا متساويًا . . وسواء الطريق هو وسطه . . والسبيل أو الطريق كان قبل استخدام التكنولوجيا الحديثة تكون أطرافه وعرة من جنبى الأرض قبل أن تمهد . . أى لا تصلح للسير . . ولذلك فإن السير فى وسط الطريق يبعدك عن المتاعب والصعوبات، ويريد الله من المؤمنين به أن يسيروا فى الطريق الممهّد أو فى وسط الطريق لأنه أكثر أمانًا لهم . . فهم فيه لن يضلوا يمينًا ولا يسارا بل يسبروا على منحى الله والإيمان . . وطريق الإيمان دائمًا ممد لا يقودهم إلى الكفر .



وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِّنْ بَعْدِ
إِيمَانِكُمْ كَمَا رَآحُسًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ
لَهُمُ الْحَقُّ فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨﴾

هذه الآية الكريمة تتناول أحداثاً وقعت بعد غزوة أحد .. وفي غزوة أحد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم .. من الرماة ألا يقاتلوا مواضعهم عند سفح الجبل سواء انتصر المسلمون أو انهزموا .. فلما بدأت برادر النصر طمع الرماة في الغنائم .. فقاتلوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فهزمهم الله .. ولكن الكفار لم يحققوا نصراً لأن النصر هو أن تحتل أرضاً وتبقى .

هؤلاء الكفار بعد المعركة انطلقوا عائدين إلى مكة .. حتى أن المسلمين عندما خرجوا للقتالهم في اليوم التالي لم يجدوا أحداً .. يهود المدينة استغلوا هذا الحدث .. وعندما التقوا بحذيفة بن البيان وطارق وغيرهما .. قالوا لهم إن كنتم مؤمنين حقاً لماذا انهزمت فارجعوا إلى ديننا واتركوا دين محمد .. فقال لهم حذيفة ماذا يقول دينكم في نقض العهد ؟ .. يقصد ما تقوله التوراة في نقض اليهود ولعهودهم مع الله ومع موسى .. ثم قال أنا لن أنقض عهدي مع محمد ما حييت .. أما عمار فقال .. لقد آمنت بالله وراي وأمنت بمحمد رسولا وأمنت بالكتاب إماما وأمنت بالكعبة قبله وأمنت بالمؤمنين إخوة وسأظل على هذا ما حييت .

ويبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قاله حذيفة وطارق بن ياسر فسر بذلك ولكن اليهود كانوا يستغلون ما حدث في أحد ليهزوا العقيدة الإيمانية في قلوب المسلمين كما استغلوا تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليهزوا الإيمان في القلوب وقالوا إذا كانت القبلة تجاه بيت المقدس باطلة فلماذا اتجهتم إليها ، وإذا كانت صحيحة فلماذا تركتموها ، فنزل قول الله تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم » .

انظر إلى دقة التعبير القرآن في قوله تعالى : « من أهل الكتاب » .. فكان بعضهم فقط هم الذين كانوا يحاولون رد المؤمنين عن دينهم .. ولكن كانت هناك قلة تفكر في الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام .. ولو أن الله جل جلاله حكم على كل أهل الكتاب لسد الطريق أمام هذه القلة أن يؤمنوا .. أي أن أهل الكتاب من اليهود يحبون أن يردوكم عن دينكم وهؤلاء هم الكثرة .. لأن الله تعالى قال : « ود كثير من أهل الكتاب » .

وقوله تعالى : « من بعد إيمانكم كفاراً » .. كفاراً بماذا ؟ .. بما أمتهم به أو بما يطلبه منكم دينكم .. وهم لا يفعلون ذلك عن مبدأ أو عقيدة أو لصالحكم ولكن : « حسداً من عند أنفسهم » .. فدينهم يأمرهم بعكس ذلك .. يأمرهم أن يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .. ولذلك فهم لا يتفقدون ماتأمرهم به التوراة حينما يرفضون الإيمان بالإسلام .. والذي يدعوهم إلى أن يحاولوا ردكم عن دينكم هو الحسد .. والحسد هو غنى زوال النعمة عن تكبره .. وقوله تعالى : « حسداً من عند أنفسهم » .. أي هذه المسألة من ذواتهم لأنهم يحسدون المسلمين على نعمة الإيمان .. ويتحنون زوال هذه النعمة .. التي جعلت من المسلمين إخواناً متحابين متكاتفين متراپطين .. بينما هم شيع وأحزاب .. وهناك حسد يكون من منطلق الدين وهذا مباح .. ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فقلط على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس » (١) .

فكان الحسد حرام في غير هاتين الحالتين .. فكان هؤلاء اليهود يحسدون المسلمين على دينهم .. وهذا الحسد من عند أنفسهم لا تفره التوراة ولا كتبهم .. وقوله سبحانه : « من بعد ما تبين لهم أنه الحق » .. أي بعد ما تأكدوا من التوراة من شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه النبي الخاتم .

وقوله تعالى : « فاعفوا واصفحوا حتى يأذن الله بأمره » .. ما هو العفو وما هو الصفح ؟ .. يقال عفت الريح الأثر أي مسحته وأزالته .. فالإنسان حين

(١) رواه البخاري في العلم ومسلم في قصر الصلاة ولين ماجة في الزكاة وأحمد في مسنده .

يمشي على الرمال تترك قدمه أثرا فتأثر الريح وتعفو الأثر أي تزيله . . ولذلك فإن
 العفو أن تمحو من نفسك أثر أي إساءة وكأنه لم يحدث شيء . . والصفح يعني طي
 صفحات هذا الموضوع لا تجعله في بالك ولا تجعله يشغلك . . وقوله تعالى : « حتى
 يأتي الله بأمره » . . أن هذا الوضع بالنسبة لليهود وما يفعلونه في المؤمنين لن يستمر
 لأن الله سبحانه قد أعد لهم أمرا ولكن هذا الأمر لم يأت وقته ولا أوانه . . وعندما
 يأتي سيتغير كل شيء . . لذلك يقول الله للمؤمنين لن تظنوا هكذا . . بل يوم
 تأخذونهم فيه يجزأهم ولن يكون هذا اليوم بعيدا . . عندما يقول الله سبحانه :
 « حتى يأتي الله بأمره » . . فلا بد أن أمر الله آت . . لأن هذه قضية تتعلق بجوهر
 الإيمان كله . . فلا يقال أبدا حتى يأتي الله بأمره ثم لا يبيء هذا الأمر . . بل أمر الله
 بلاشك نافذ وسينصركم عليهم . . وقوله تعالى : « إن الله على كل شيء قدير » . .
 أن الله له طلاقة القدرة في ملكه . . ولذلك إذا قال أنه سيأتى بأمر فيستحق هذا
 الأمر حتما وسيتم . . ولا توجد قدرة في هذا الكون إلا قدرة الله سبحانه . . ولا قوة
 إلا قوته جل جلاله . . ولا فعل إلا ما أَرَادَ .



﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١١٠)

بعدئذ بين الله سبحانه وتعالى أن أقصى أمان أهل الكتاب أن يردونا كفارا ، وأن هذا حسدا منهم . أراد الله تبارك وتعالى أن يبين لنا ما الذي يكرهه أهل الكتاب . . وقال إن الذي يتعجبهم ميزان العدل والحق الذي نتيجه . . منتهج الله سبحانه وتعالى . . ولذلك يأمر الله المؤمنين أن يشتروا ويمسكوا بالإيمان ، وأن يقبلوا على التكليف فهذا أحسن رد عليهم . . والتكاليف التي جاء بها الإسلام منها تكاليف لا تتطلب إلا وقتا من الزمن وقليلًا من الفعل كشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

إن شهادة لا إله إلا الله تعالى مرة في العمر . . والزكاة والصوم مرة كل عام . . والحج للمستطيع مرة في العمر . . ولكن هناك من العبادات ما يتكرر كل يوم ليعطي المؤمن شحنة اليقين والإيمان ويأخذه من دنياه بالله أكبر خمس مرات في اليوم . . وهذه هي العبادة التي لا تسقط أبدا . . والإنسان سليم والإنسان مريض . . فالمؤمن يستطيع أن يصل واقفا وأن يصل جالسا وأن يصل راقدًا . . وأن يجري مراسم الصلاة على قلبه . . لذلك كانت هذه أول عبادة تذكر في قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة » أي والتفتوا إلى نداءات ربكم للصلاة . . وعندما يرتفع صوت المؤذن بقوله الله أكبر فهذه دعوة للإقبال على الله . . إقبال في ساعة معلومة لتفتقوا أمامه سبحانه وتعالى وتكونوا في حضرته يعطيكم الله المدد . . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا حزبه أمر صلى) (١) .

ومعنى حزبه أمر . . أي ضاقت به أسبابه فلم يجد مخرجا ولا طريقا إلا أن يلجأ

(١) رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة بن الرواية : كان إذا حزبه أمر فرغ إلى الصلاة .

إلى الله .. إذا حدث هذا يتوضأ الإنسان ويصل ركعتين غير الفريضة .. ثم يدعو ما يشاء فيفرج الله كربته .. إذن : « فأتيموا الصلاة » هي الرد المناسب على كل عا ولائهم ليسلبوكم دينكم .. ذلك أن هذا التكليف المقرر لإعلان الولاء للإيمان الله كل يوم خمس مرات .. ترك كل ما في الدنيا ونتجه إلى الله بالصلاة .. إنها عماد الدين وأساسه .

وقوله تعالى : « وأتوا الزكاة » .. ابتاء الزكاة لا يحدث إلا إذا كان لديهم ما هو زائد عن حاجتك .. فكان الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نضرب في الأرض لنكسب حاجتنا وحاجة من نعول ونزيد .. وبذلك يخرج المسلمون من سيطرة اليهود الإقتصادية التي يستذلون بها المسلمون .

فالؤمن حين يأتي الزكاة معناه أن حركته اتسعت لتشمل حاجته وحاجة غيره .. ولذلك حتى الفقير يجد في الزائد في أموال المسلمين ما يكفي حاجته .. فلا يذهب إلى اليهودي ليقترض بالربا .. ولذلك فالله سبحانه وتعالى يريد أن يتكامل المسلمون .. بحيث تكفى أموالهم غنيهم وفقيرهم والقادر على العمل منهم وغير القادر. والله تبارك وتعالى يزيد أموال المسلمين بأكثر مما يخرج منها من زكاة .. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعة الله)^(١) .

وقد سميت « الزكاة » لأنها في ظاهرها نقص وفي حقيقتها زيادة .. والربا ظاهرها زيادة وحقيقتها نقص .. وفي ذلك يقول الله جل جلاله :

﴿ يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصِّلَافَ ﴾

(من الآية ٢٧٦ سورة البقرة)

ثم يقول الحق سبحانه : وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله .. إذن لابد أن يطمئن المؤمن لأن حركة حياته هي ثواب وأجر عند الله تبارك وتعالى .. فإذا

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة .

صل فله أجر وإذا زكى فله أجر ، وإذا تصدق فله أجر ، وإذا صام فله أجر ، وإذا حج فله أجر ، كل ما يفعله من منج الله له أجر ، وليس اجرا بقدر العمل بل أضعاف العمل .. وإقرأ قوله تعالى :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٦﴾﴾

(سورة البقرة)

وهكذا نعرف أن كل حركة في منج الله ليس فقط لها أجر عند الله سبحانه وتعالى .. ولكنه أجر مضاعف أضعافا مضاعفة .. وهو أجر ليس بقدرات البشر ولكنه بقدرة الله سبحانه .. ولذلك فهو ليس مضاعفا فقط في عدد المرات ولكنه مضاعف في القدرة أيضا .. فكان كل إنسان غير مؤمن لا أجر له في الآخرة .. وإذا أعطى في الدنيا يعطى عطاء المثل .. ولكن المؤمن وحده له عطاء الآخرة أضعافا مضاعفة .. وهو عطاء ليس زائلا كعطاء الدنيا ولكنه باقى وخالد .

والخير الذي تفعله لن تدخره عندك أو عند من قد ينكركه .. ويقول لا شيء لك عندى. ولكن الله سيدخره لك .. فانظر إلى الإطمتنان والعمل في يد الله الأمانة ، وفى مشيئته التى لا يفشل عنها شيء ، وفى قدرته التى تضاعف أضعافا مضاعفة .. ونحمده فى الوقت الذى نكون فى أحوال اللحظات إليه وهو وقت الحساب .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « والله بما تعملون بصير » .. أى لا تعتقد أن هناك شيئا يخفى على الله ، أو أن أحدا يستطيع أن يخدع الله ، فالله سبحانه وتعالى بصير بكل شيء .. ليس بالظاهر منك فقط .. ولكن بما تخفيه في نفسك ولا تطلع عليه أحدا من خلق الله ، إنه يعلم كل شيء وإقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿وَرَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُخْفِي عَلَيْنَا وَلِلَّهِ الْغَيْبُ وَالنَّهْيُ وَالْأَرْضُ ﴿٦٧﴾﴾

(سورة إبراهيم)

وهكذا نطمئن إلى أن الله بصير بكل شيء ، وانظر إلى قوله جل جلاله : « يعملون » لتفهم أهمية العمل .

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى﴾

تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴿١١٣﴾

بعد أن بين الحق تبارك وتعالى كيف أن كل عمل في منحج الله له اجر ، وأجر باق وثابت ومضاعف عند الله وبحفوظ بقدرة الله سبحانه . . أراد أن يرد على ادعاءات اليهود والنصارى الذين يحاولون أن يثيروا اليأس في قلوب المؤمنين بالكذب والإحباط عليهم ينصرفون عن الإسلام . . لذلك فقد أبلغنا الله سبحانه بما اهترؤه .

وإقرأ قوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » . وفي هذه الآية الكريمة يظهر التناقض بين أقوال اليهود والنصارى . . ولقد أوردنا كيف أن اليهود قد قالوا « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا » . . وقالت النصارى : « لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا » . . والله سبحانه وتعالى يفضح التناقض في آية ستأتي في قوله تبارك وتعالى :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

ومعنى ذلك أنهم تناقضوا في أقوالهم ، فقالت النصارى: إنهم سيدخلون الجنة وحدهم ، وقالت اليهود القول نفسه . ثم قالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا أو نصرانيا . . ثم قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء .

ويقول الناس إذا كنت كذوبيا فكُنْ ذكورا ، ذلك أن الذي يكذب تتناقض أقواله لأنه ينسى مادام قد قال غير الحقيقة ، ولذلك تجد أن المحقق أو القاضي يظل يسأل

المنهم أسئلة مختلفة .. حتى تتناقض أقواله فيعرف أنه يكذب .. فأتت إذا رويت الواقعة كما حدث فإنك ترويا مرة دون أى خلاف فى التفاصيل. ولكنك إذا كذبت تتناقض مع نفسك .. والله سبحانه وتعالى يقول : « تلك أمانيتهم » .. ما هى الأمان ؟ .. هى أن تعلق نفسك بأمنية وليس لهذه الأمانة سند من الواقع يوصلك إلى تحقيق هذه الأمانة .. ولكن إذا كان التمنى قاتما على عمل يوصلك إلى تحقيق الأمانة فهذا شيء آخر .

بعض الناس يقول التمنى وإن لم يتحقق فإنه يروح عن النفس .. فقد ترتاح النفس عندما تتعلق بأمل كاذب وتعيش أياما فى نوع من السعادة وإن كانت سعادة وهمية .. نقول إن الصدمة التى ستلحق بالإنسان بعد ذلك ستدمره .. ولذلك لا يكون فى الكذب أبدا راحة .. فأحلام اليقظة لا تتحقق لأنها لا تقوم على أرضية من الواقع وهى لا تعطى الإنسان إلا نوعا من بعد عن الحقيقة .. ولذلك يقول الشاعر :

مَنْ إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ الْمُنَى وَلَا فَقدَ عِشًّا بِهَا زَمْنَا رَغْدًا

يعنى الأمان لو كانت حقيقة أو تستند إلى الحقيقة فإنها أحسن الأمان لأنها تعيش معك .. فإن لم تكن حقيقة يقول الشاعر :

فقد عشنا بها زمنا رغدا

أمان من ليل حسان كأنما سقتنا بها ليل على ظمأ بردا

وقوله تعالى : « تلك أمانيتهم » تبين لنا أن الأمان هى مطامع الحمقى لأنها لا تتحقق .. والحق سبحانه يقول : « قل هاتوا برهانكم » .. ما هو البرهان ؟ .. البرهان هو الدليل .. ولا تطلب البرهان إلا من إنسان وقعت معه فى جدال واختلفت وجهات النظر بينك وبينه .. ولا تطلب البرهان إلا إذا كنت متأكدا أن محدثك كاذب .. وأنه لن يجد الدليل على ما يدعيه .

هب أن شخصا ادعى أن عليك مالا له .. وطلب منك أن تعيده إليه وأنت لم تأخذ منه مالا .. فى هذه الحالة تطلب منه تقديم الدليل .. (فالكمبيالة) التى

كتبتها له أو الشيك أو إيصال الأمانة .. وأضعف الإيمان أن تطلب منه شهودا على أنك أخذت منه المال .. ولكن قبل أن تطالبه بالدليل .. يجب أن تكون واثقا من نفسك وأنه فعلا يكذب وأنت لم تأخذ منه شيئا .

إذن فقول الحق سبحانه : « هاتوا برهانكم » .. كلام من الله يؤكد أنهم كاذبون .. وأنهم لو أرادوا أن يأتوا بالدليل .. فلن يمدوا في كتب الله ولا في كلام رسله ما يؤكد ما يدعونه ، وإن أضافوه يكن هذا افتراء على الله ويمكن هناك الدليل الدامغ على أن هذا ليس من كلام الله ولكنه من افتراءاتهم .

إذن فليس هناك برهان على ما يقولونه .. ولو كان هناك برهان ولو كان في هذا الكلام ولو جزءا من الحقيقة .. ما كان الله سبحانه وتعالى يطالبهم بالدليل .

إذن لا تقول هاتوا برهانكم إلا إذا كنت واثقا أنه لا برهان على ما يقولون ؛ لأنك رددت الأمر إليه فيما يدعيه .. وهو يجب أن يشته ويفعل كل شيء في سبيل الحصول على برهان .. ولا يمكن أن يقول الله : « هاتوا برهانكم » .. إلا وهو سبحانه يعلم أنهم يكذبون .. ولذلك قال : « إن كنتم صادقين » .. أي إن كنتم واثقين من أن ما تقولونه صحيح ؛ لأن الله يعرف يقينا انكم تكذبون .



﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ
عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١١٣)

بعد أن بين لنا الله تبارك وتعالى كذب اليهود وطالبيهم بالدليل على ما قالوه من أنه لن يدخل الجنة إلا اليهود والنصارى جاء بحقيقة القضية ليخبرنا جل جلاله من الذي سيدخل الجنة .. فقال : « بل » .. وعندما تقرأ : « بل » اعلم أنها حرف جواب ولا بد أن يسبقها كلام ونفى .. فساعة يقول لك إنسان ليس لي عليك دين .. إذا قلت له نعم فقد صدقت أنه ليس عليه دين .. ولكن إذا قلت بل فذلك يعني أن عليه ديناً وأنه كاذب فيما قاله .. إذن بل تأتي جواباً لتثبت نفى ما تقدم .

هم قالوا « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » .. عندما يقول الله لهم بل فمعنى ذلك أن هذا الكلام غير صحيح .. وأنه سيدخلها غير هؤلاء .. وليس معنى أنه سيدخلها غير اليهود والنصارى .. أن كل يهودي وكل نصراني سيدخل الجنة .. لأن الله سبحانه وتعالى قد حكم حينما جاء الإسلام بأن الذي لا يسلم لا يدخل الجنة .. واقرأ قوله جل جلاله :

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (١٠٨)

(سورة آل عمران)

لماذا لم يقل الله سبحانه وتعالى .. أنه لن يدخلها اليهود ولا النصارى .. لأن القرآن أزل .. ما معنى أزل ؟ .. أي أنه يعالج القضايا منذ بداية الخلق وحتى يوم القيامة .. فالقرآن كلام الله تبارك وتعالى .. فلو أنه قال لن يدخل الجنة إلا من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لكان في هذا تجاوز .. لأن هناك من آمن بموسى وقت رسالته وعاصره واتباعه وحسن دينه ومات قبل أن يدرك محمداً عليه الصلاة

والسلام .. فهل هذا لا يدخل الجنة ويجازى بحسن عمله .. وهناك من النصارى من آمن بعيسى وقت حياته .. وعاصره ونفذ تعاليمه ومنهجه ثم مات قبل أن يثبت محمد عليه الصلاة والسلام .. أهذا لن يدخل الجنة ؟ .. لا .. يدخل وتكون منزلته حسب عمله ويجازى بأحسن الجزاء .. ولكن بعد أن بعث محمد صل الله عليه وسلم وجاء الإسلام ونزل القرآن ، فكل من لم يؤمن برسول الله صل الله عليه وسلم لن يدخل الجنة .. بل ولن يراها .. ولذلك جاء كلام الله دقيقا لم يظلم أحدا من خلقه .

إذن فقولته تعالى : « بل من أسلم وجهه لله وهو محسن » .. أى لا يدخل الجنة إلا من أسلم وجهه لله وهو محسن .. فقد يسلم واحد وجهه لله ويكون متافقا يظهر غير ما يظن .. نقول إن المتأقين لم يكونوا محسنين ولكنهم كانوا مسيئين .. لأن لهم شخصيتين شخصية مؤمنة أمام الناس وشخصية كافرة فى الحقيقة أو فى قلوبهم .

قوله تعالى : « من أسلم وجهه لله » تدلنا على أن كل شيء أسلم لله لأن الوجه هو أشرف شيء فى الإنسان .. فيه التمييز وفيه السمة وفيه الشخص وهو أعلى ما فى الجسم .. وحينما عرفوا الإنسان قالوا حيوان ناطق أى حيوان مفكر .. وقال بعضهم حيوان مستوى القامة يعنى قامته مرفوعة .. والقامة المرفوعة على بقية الجسم هى الوجه .. والإنسان مرفوع على بقية أجناس الأرض .. إذن هو مرفوع على بقية الأجناس ووجهه مرفوع عليه .. فإذا أسلم وجهه لله يكون قد أسلم أشرف شيء فيه لله .. ولذلك قيل .. أقرب ما يكون العبد لربه وهو ساجد .. لماذا ؟ .. لأنه جاء بالوجه الذى رفعه الله به وكرمه .. وجعله مساويا لتقديمه لىستوى أكمل شيء فيه بأدنى شيء .. فلم يبق عنده شيء يحتال به على الله .

الحق سبحانه وتعالى يقول : « فله أجره عند ربه » .. كلمة أجره عند ربه .. دلت على أن الله لم يجعلنا مقهورين .. ولكنه كلفنا وجعلنا مختارين أن نفعل أو لا نفعل .. فإن فعلنا فلنا أجر .. ولأن التكليف من الله سبحانه وتعالى فلمنتطقى أن يكون الأجر عند الله .. وألا يوجد خوف أو حزن .. لأن الخوف يكون من شيء سيئ .. والحزن يأتى على شيء قد وقع .. ولا هذه ولا تلك تحدث عندما يكون أجرنا عند الله .

ان الإنسان حين يكون له حق عند مساويه .. فربما يخاف أن ينكر المساوى هذا الحق أو يطمع فيه ، أو يحتاج إليه فيدعى عدم أحقيته فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى غنى عن العالمين .. ولذلك فهو لا يطمع فيها في أيدينا من خير لأنه من عنده .. ولا يطمع فيها معنا من مال لأن عنده خزائن السموات والأرض .

الله سبحانه لا ينكر حقاً من حقوقنا لأنه يعطينا من فضله ويزيدنا .. ولذلك فإن ما عند الله لا خوف عليه بل هو يضاعف ويزداد .. وما عند الله لا حزن عليه .. لأن الإنسان يحزن إذا فاتته خير .. ولكن ما عند الله باق لا يفوتك ولا تفوته .. فلا يوجد شيء عند الله سبحانه وتعالى تحزن عليه لأنه فات .. ولذلك كان قول الحق سبحانه وتعالى : « ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .. أدق ما يمكن أن يقال عن حالة المؤمنين في الآخرة .. أنهم يكونون فرحين بما عند الله لا خوف عندهم ولا حزن .



﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ ۖ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ
لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ۖ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ كَذَلِكَ قَالَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

نقول إن أصح ما قاله اليهود والنصارى .. هو أن كل طائفة منهم اتهمت
الأخرى بأنها ليست على شيء .. فقال اليهود ليست النصارى على شيء وقالت
النصارى ليست اليهود على شيء .. والمجيب إن الطائفتين أهل كتاب .. اليهود
أهل كتاب والنصارى أهل كتاب .. ومع ذلك كل منهما يتهم الآخر بأنه لا إيمان
له وبذلك تساوى مع المشركين .

الذين يقولون إن أهل الكتاب ليسوا على شيء .. أى ان المشركين يقولون
اليهود ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء .. واليهود يقولون المشركون
ليسوا على شيء والنصارى ليسوا على شيء .. ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :
« كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » .. وبذلك أصبح لدينا ثلاث طوائف
يواجهون الدعوة الإسلامية .. طائفة لا تؤمن بمنهج مسأوى ولا برسالة إلهية
وهؤلاء هم المشركون .. وطائفتان لهم إيمان ورسول وكتب هم اليهود
والنصارى .. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : « كذلك قال الذين لا يعلمون
مثل قولهم » .. أى الذين لا يعلمون ديناً ولا يعلمون إلهاً ولا يعلمون أى شيء
عن منهج السماء .. اتحدوا في القول مع اليهود والنصارى وأصبح قولهم واحداً .

وكان المفروض أن يتميز أهل الكتاب الذين لهم صلة بالسماء وكتب نزلت من
الله ورسول جاءتهم للهداية .. كان من المفروض أن يتميزوا عن المشركين ..
ولكن تساوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .. وهذا معنى قوله تعالى :
« كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » .. ومادامت الطوائف الثلاث قالوا
على بعضهم نفس القول .. يكون حجم الخلاف بينهم كبيراً وليس صغيراً ..
لأن كل واحد منهم يتهم الآخر أنه لا دين له .

هذا الخلاف الكبير من الذى يحكم فيه ؟ لا يحكم فيه إلا الله . . فهو الذى يعلم كل شيء . . وهو سبحانه القادر على أن يفصل بينهم بالحق . . متى يكون موعد هذا الفصل أو الحكم ؟ أهو فى الدنيا ؟ لا . . فالدنيا دار اعتبار وليست دار حساب ولا محاسبة ولا فصل فى قضايا الإيمان . . ولذلك فإن الحكم بينهم يتم يوم القيامة وعلى مشهد من خلق الله جميعا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « فالحق يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . . ومعنى الحكم هنا ليس هو بيان المخطئ من المصيب فالطوائف الثلاث خطئة . . والطوائف الثلاث فى إنكارها للإسلام قد خرجت عن إطار الإيمان . . وبأن الحكم يوم القيامة ليبين ذلك ويواجه المخالفين بالعذاب .



ورسول الله صل الله عليه وسلم يقول :

(أعطيْتُ حسنا لم يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي . نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةً شَهْرًا ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ وَأَجَلْتُ لِي الْقَنَائِمَ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْتَصَمُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيُعْتَصَمُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً) (١) .

ولكن لماذا خص الله أمة محمد بهذه النعمة ؟ لأن الإسلام جاء على موعد مع ارتقاءات العقل وطموحات الدنيا .. كلما ارتقى العقل في علوم الدنيا كشف قوانين وتغلب على عقبات .. وجاء مبتكرات وغترعات تفتن عقول الناس .. وتحلجهم بعيدا عن الدين فيعبدون الأسباب بدلا من خالق الأسباب .

يريد الحق تبارك وتعالى أن يجعل عبادتهم له مسيرة دائية حتى يعصمهم من هذه الفتنة .. وهو جل جلاله يريدنا حين نرى التلفزيون مثلا ينقل الأحداث من أقصى الأرض إلى أقصاها ومن القمر إلى الأرض في نفس لحظة حدوثها .. أن نسجد لله على نعمه التي كشف لنا عنها في أي مكان نكون فيه .. فخصائص الغلاف الجوي موجودة في الكون منذ خلق الله السموات والأرض .. لم يضعها أحد من خلق الله في كون هذه الأيام .. ولكنها خلقت مع خلق الكون .. وشاء الله ألا ندرك وجودها ونستخدمها إلا هذه الأيام .. فلا بد أن نسجد لله شكرا على نعمه التي كشفت لنا أسرارها في الكون لم تكن نعرفها .. وهذه الأسرار تبين لنا دقة الخلق وتقربنا إلى قضايا الغيب .

فلذا قيل لنا أن يوم القيامة سيكشف خلق الله جميعا وهم يشاهدون الحساب .. وإن كل واحد منهم سيرى الحساب لحظة حدوثه .. لا تتعجب ونقول هذا مستحيل .. لأن أحداث العالم الهامة تراها الآن كلها لحظة حدوثها ونحن في منتهى الراحة .. ونحن جالسون في منازلنا أمام التلفزيون .. أي أننا نراها جميعا في وقت واحد دون جهد .. فلذا كانت هذه هي قدرات البشر للبشر .. فكيف بقدرات خالق البشر للبشر ؟ .

عندما نرى أسرار قوانين الله في كونه . . لا يد أن نسجد لعظمة الخالق سبحانه وتعالى ، الذي وضع كل هذا العلم والإعجاز في الكون . . وهذا السجود يقتضي أن تكون الأرض كلها مساجد حتى يمشى في مكانك وأنت في مكانك أن تسجد لله شكرا . . ولا تضطر للذهاب إلى مكان آخر قد يكون بعيدا أو الطريق إليه شاقا فينسبك هذا شكر الله والسجود له . . قاله سبحانه وتعالى شاء أن يوسع على المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم دائرة الالتقاء بهم . . لأن هناك أشياء ستأتي الرسالة المحمدية في موعد كشفها خلق الله . . وكلما انكشف سر من أسرار الوجود أغتر الإنسان بنفسه . . ومادام الغرور قد دخل إلى النفس البشرية . . فلا بد أن يجعل الله في الكون ما يعدل هذا الغرور .

لقد كانت الأمور عكس ذلك قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم . . كانت الأمور فطرية فإذا امتنعت الأمطار ونضبت العيون والآبار . . لم يكن أمامهم إلا أن يتوجهوا إلى السماء بصلاة الامتناء . . وكذلك في كل أمر يصعب عليهم مواجهته . . ولكن الآن بعد أن كشف الله خلفه عن بعض أسرار كونه . . أصبحت هناك أكثر من وسيلة يواجه بها الإنسان عددا من أزمات الكون . . هذه الوسائل قد جعلت البشر يعتقدون أنهم قادرون على حل مشكلاتهم . . بعيدا عن الله سبحانه وتعالى وبجهودهم الخاصة . . فبدأ الاعتماد على الخلق بدلا من الاعتماد على الحق . . ولذلك نزل قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ ۚ كَمَشْكَلَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ لِّلْمِصْبَاحِ فِي زُجَاجَةٍ
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ
يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ۖ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ ۖ مَن نَّشَأْ
وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ۖ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ فِي يَوْمٍ إِذْ قَالَ اللَّهُ أَن تَرْفَعِ
وَيَذْكُرْ فِيهَا أَسْمُهُ ۖ ﴾

ما هي هذه البيوت التي يرى فيها الناس نور الله تبارك وتعالى ؟ هي المساجد .. فَعُمَارُ المساجد وزوارها الدائمون على الصلاة فيها هم الذين يرون نور الله .. فإذا أتى قوم يجترئون عليها ويمنعون أن يذكر اسم الله فيها .. فمعنى ذلك أن المؤمنين القائمين على هذه المساجد ضِعْفَاءُ الإيمان ضِعْفَاءُ الدين تجرأ عليهم أعداؤهم .. لأنهم لو كانوا أقوياء ما كان يجرؤ عدوهم على أن يمنع ذكر اسم الله في مساجد الله .. أو أن يسمي إلى خرابها فتهدم ولا تقام فيها صلاة الجمعة .. ولكن ساعة يوجد من يخرب بيتا من بيوت الله .. ييب الناس لمنعه والضرب على يده يكون الإيمان قويا .. فإن تركوه فقد هان المؤمنون على عدوهم .. لماذا ؟ لأن الكافر الذي يريد أن يطفىء مكان إشعاع نور الله لخلقته .. يعيش في حركة الشر في الوجود التي تقوى وتشتد كلما استطاع غير المؤمنين أن يمتنعوا ذكر اسم الله في بيته وأن يخربوه .

وقول الحق سبحانه وتعالى : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » .. أى أن هؤلاء الكفار ما كان يصح لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين أن يفتك بهم المؤمنون من أصحاب المسجد والمصلين فيه .. فإذا كانوا قد دخلوا غير خائفين .. فمعنى ذلك أن وازع الإيمان في نفوس المؤمنين قد ضعف .

قوله تعالى : « ومن أظلم » .. معناه أنه لا يوجد أحد أظلم من ذلك الذي يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه .. أى أن هذا هو الظلم العظيم .. ظلم القصة .. وقوله تعالى : « وسعى في خرابها » .. أى في إزالتها أو بقائها غير صالحة لأداء العبادة .. والسعى في خراب المسجد هو هدمه .

ويحتم الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله : « لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم » .. أى لن يتركهم الله في الدنيا ولا في الآخرة .. بل يصيبهم في الدنيا خزي .. والخزي هو الشيء القبيح الذي تكره أن يراك عليه الناس .. وقوله تعالى : « لهم في الدنيا خزي » .. هذا مظهر غيرة الله على بيوته .. وانظر إلى ما أذاقهم الله في الدنيا بالنسبة ليهود المدينة الذين كانوا يسعون في خراب مساجد الله .. لقد أخذت أموالهم وطردوا من ديارهم .. هذا حدث .. وهذا معنى قوله تعالى الخزي في الدنيا .. أما في الآخرة فإن أعداء الله سيحاسبون

حسابا عسيرا لتناولهم على مساجد الله سبحانه ، ولكن في الوقت نفسه فإن المؤمنين الذين سكتوا على هذا وتحاذلوا عن نصرة دين الله والدفاع عن بيوت الله .. سيكون لهم أيضا عذاب أليم .

انني أحذر كل مؤمن أن يتخاذل أو يضعف أمام أولئك الذين يحاولون أن يمنعوا ذكر الله في مساجده .. لأنه في هذه الحالة يكون مرتكباً لذنبهم نفسه وربما أكثر .. ولا يتركه الله يوم القيامة بل يسوقه إلى النار .



﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَانْتُمْ وَجْهُ اللَّهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى جزاء الذين يخربون مساجد الله ويهدمونها .. ويعتصمون أن يذكر فيها اسمه والعذاب الذي ينتظرهم في الآخرة أراد أن يذكرنا بأن تنفيذ هذا على مستوى تام وكامل عملية مستحيلة لأن الأرض كلها مساجد .. وتخربها معناه أن تخرب الأرض كلها .. ولأن الله تبارك وتعالى موجود في كل مكان فأينما كنتم تستجدون الله مقبلا عليكم بالتجليات .

وقوله تعالى : « فثم وجه الله » .. أى هناك وجه الله .. وقوله تعالى : « والله واسع عليم » .. أى لا تضيقوا بمكان التقاءكم بربكم ، لأن الله واسع موجود في كل مكان في هذا الكون وفي كل مكان خارج هذا الكون .. ولكن إذا قال الله سبحانه وتعالى : « وله المشرق والمغرب » لا يعنى تحديد جهة الشرق أو جهة الغرب فقط .. ولكنه يتعداها إلى كل الجهات شرقها وغربها .. شمالها وجنوبها والشمال الشرقي والجنوب الغربي وكل جهة تفكر فيها .

ولكن لماذا ذكرت الآية الشرق والغرب فقط ؟ لأن بعد ذلك كل الجهات تحدد بشروق الشمس وغروبها .. فهناك شمال شرقي وجنوب شرقي وشمال غربي وجنوب غربي .. كما إن الشرق والغرب معروف بالفطرة عند الناس .. فلا أحد يجهل من أين تشرق الشمس ولا إلى أين تغرب . فأنت كل يوم ترى شروفا وترى غروبها .

الله سبحانه وتعالى حين يقول : « وله المشرق والمغرب » فليس معناها حصر الملكية لهاتين الجهتين ولكنه ما يعرف بالاختصاص بالتقديم .. كما نقول بالقلم

كتب وبالسيرة أثبت .. أى ان الكتابة هي خصوص القلم والأتان خصوص السيرة .. وهذا ما يعرف بالاختصاص .. فهذا مختص بكذا وليس لغيره شيء فيه .. ولذلك فإن معنى : « والله المشرق والمغرب » .. ان الملكية لله سبحانه وتعالى لا يشاركه فيها أحد .. وتغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ليس معناه ان الله تبارك وتعالى في بيت المقدس والاتجاه بعد ذلك إلى الكعبة ليس معناه ان الله جل جلاله في الكعبة .

إن توحيد القبلة ليس معناه أكثر من أن يكون للمسلمين اتجاه واحد في الصلاة .. وذلك دليل على وحدة الهدف .. فيجب أن تفرق بين اتجاه في الصلاة واتجاه في غير الصلاة .. اتجاه في الصلاة تكون جميعا متجهين إلى مكان محدد اختاره الله لنا لتوجه إليه في الصلاة .. والناس تصل في جميع أنحاء العالم متجهة إلى الكعبة .. الكعبة مكانها واحد لا يتغير .. ولكن اتجاهنا إليها من بقاع الأرض هو الذى يتغير .. فواحد يتجه شمالا وواحد يتجه جنوبا وواحد يتجه شرقا وواحد يتجه غربا .. كل منا يتجه اتجاهها مختلفا حسب البقعة التى يوجد عليها من الأرض .. ولكننا جميعا نتجه إلى الكعبة رغم اختلاف وجهاتنا إلا أننا نلتقى في اتجاهنا إلى مكان واحد .

الله جل جلاله يريدنا أن نعرف أننا إذا قلنا : « ولله المشرق » فلا ننظر ان المشرق اتجاه واحد بل ان المشرق يختلف باختلاف المكان .. فكل مكان في الأرض له مشرق وله مغرب .. فإذا أشرقت الشمس في مكان فلإنها في نفس الوقت تغرب في مكان آخر .. تشرق عندى وتغرب عند غيرى .. وبعد دقيقة تشرق عند قوم وتغرب عند آخرين .. فإذا نظرت إلى الشرق وإلى الغرب بالنسبة لشرق الشمس الظاهرى وغروبها .. تجد ان المشرق والمغرب لا يتجهان من على سطح الأرض .. في كل دقيقة شروق وغروب .

وقوله تعالى : « إن الله واسع عليم » .. أى يتسع لكل ملكه لا يشغله شيء عن شيء .. ولذلك عندما سئل الإمام على كرم الله وجهه .. كيف يحاسب الله الناس جميعا في وقت واحد ؟ قال كما برزقهم جميعا في وقت واحد ..

إذن فالله لا يشغله شيء عن شيء .. ولا يحتاج في عمله إلى شيء .. إنما عمله « كن فيكون » .

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانُونَ ﴿١٣﴾﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن له كل شيء في الكون لا يشغله شيء عن شيء .. أراد أن يرد على الذين حاولوا أن يجعلوا لله معينا في ملكه .. الذين قالوا اتخذ الله ولداً .. الله تبارك وتعالى رد عليهم أنه لماذا يتخذ ولدا وله ما في السموات والأرض كل له قانتون .. وجاء الرد مركزا في ثلاث نقاط .. قوله تعالى : « سبحانه » أى تتره وتعالى أن يكون له ولد .. وقوله تعالى : « له ما في السموات والأرض » .. فإذا كان هذا ملكه وإذا كان الكون كله من خلقه وخاضعا له فما حاجته للولد ؟

وقوله سبحانه : « كل له قانتون » .. أى كل من في السموات والأرض عابدون لله جل جلاله مقرون بالوحيته .

قضية إن لله سبحانه وتعالى ولدا جاءت في القرآن الكريم تسع عشرة مرة ومعها الرد عليها .. ولأنها قضية في قمة العقيدة فقد تكررت وتكرر الرد عليها مرة بعد أخرى .. وإذا نظرت للذين قالوا ذلك تجد أن هناك أقوالا متعددة .. هناك قول قاله المشركون .. واقرأ القرآن الكريم :

﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ آبَائِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢﴾ أَصْطَلَى الْبَنَاتُ عَلَى الْبَنِينَ ﴿٣﴾﴾

وقول اليهود كما يروى لنا القرآن :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزْرًا ابْنُ اللَّهِ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

وقول النصارى :

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾

(من الآية ٣٠ سورة التوبة)

ثم في قصة خلق عيسى عليه السلام من مريم بدون رجل . . الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْعًا إِذَا ۝ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝ أَنْ دَعَوَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ ۝ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ﴾

(سورة مريم)

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف إن هذا إدعاء خطير مستطع مستنكر ومغفوت . . لقد حابلت سورة مريم المسألة علاجاً واسعاً . . علاجاً اشترك فيه انفعال كل أجناس الكون غير الإنسان . . انفعال السموات والأرض والجبال وغيرها من خلق الله التي تلحن كل من قال ذلك . . بل وتكاد شعوراً منها بفداحة الجريمة أن تضطر النساء أي تسقط قطعاً صغيرة . . وتنشق الأرض أي تتمزق . . وتخمر الجبال أي تسقط كتراب . . كل هذا من هول ما قيل ومن كذب ما قيل . . لأن هذا الادعاء افتراء على الله . ولقد جاءت كل هذه الآيات في سورة مريم التي أعطينا معجزة خلق عيسى . . كما وردت القضية في عدة سور أخرى .

والسؤال هنا ما هي الشبهة التي جعلتهم يقولون ولد الله ؟ ما الذي جعلهم يلجأون إلى هذا الافتراء ؟ القرآن يقول عن عيسى بن مريم .. كلمة الله ألقاها إلى مريم .. تقول لهم كلنا كلمة « كن » .

لماذا فتنتم في عيسى ابن مريم هذه الفتنة ؟ والله سبحانه وتعالى يشرح المسألة فيقول :

﴿ إِنْ مَثَلٌ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ ﴾

(سورة آل عمران)

قوله كمثال آدم لمجرد عبارة الخصم .. ولكن المعجزة في آدم أقوى منها في عيسى عليه السلام .. أنتم فتنتم في عيسى لأن عنصر الأبوة مختص .. وآدم امتنع فيه عنصر الأبوة والأمومة .. إذن فالمعجزة أقوى .. وكان الأولى أن تفتنوا بآدم بدل أن تفتنوا بعيسى .. ومن العجيب انكم لم تذكروا الفتنة في آدم وذكرتم الفتنة فيها فيه عنصر غائب من عنصرين غائبين في آدم .. وكان من الواجب أن تنسبوا هذه القضية إلى آدم ولكنكم لم تفعلوا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم .. قال له الله إن القضية ليست قضية إنكار ولكنها قضية كاذبة .. واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالِدِينَ ۝ ﴾

(سورة الزخرف)

أى لن يضير الله سبحانه وتعالى أن يكون له ولد .. ولكنه جل جلاله لم يشذ ولدا .. فلا يمكن أن يعبد الناس شيئا لم يكن لله .. وإنما ابتدعوه واختلقوه ..

الله جل جلاله يقول : « وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السموات والأرض » .. قوله تعالى : « بل له ما في السموات والأرض » تعطي الله سبحانه وتعالى الملكية لكل ما في الكون .. والملكية تناق الولدية .. لماذا ؟ لأن الملكية معناها أن كل ما في الكون من خلق الله .. كل شيء هو خالقه بدون معارض ..

ومادام هو خالقه وموجده .. فلا يمكن أن يكون هذا الشيء جزءاً منه .. لأن الذي يخلق شيئاً يكون فاعلاً .. والفاعل له مفعول .. والمفعول لا يكون منه أبداً .. هل رأيت واحداً صنع صنعة منه ؟ الذي يصنع سيارة مثلاً .. هل صنعها من لحمه أو من لحم البشر ؟ وكذلك الطائرة والكرسي والساعة والتليفزيون .. هل هذه المصنوعات من جنس الذي صنعها ؟ طبعاً لا .

إذن مادام ملكية .. فلا يقال إنها من نفس جنس صانعها .. ولا يقال إن الفاعل أوجد من جنسه .. لأن الفاعل لا يوجد من جنسه أبداً .. كل فاعل يوجد شيئاً أقل منه .. فقول الله : « سبحانه » .. أى تنزيهه له تبارك وتعالى .. لماذا ؟ لأن الولد يتخذ لاستيقاظ حياة والده التى لا يضمناها له واقع الكون .. فهو يحمل اسمه بعد أن يموت ويرث أملاكه .. إذن هو من أجل بقاء نوعه .. والذي يريد بقاء النوع لا يكفيهِ أن يكون له ولد واحد .

لو فرضنا جدلاً إن له ولداً واحداً فالمفروض أن هذا الولد يكون له .. ولكنتنا لم نر أولاداً لمن زعموا أنه ابن الله .. وعندما وقبلها يوجد الولد ماذا كان الله سبحانه وتعالى يفعل وهو بدون ولد ؟ وماذا استجد على الله وعلى كونه بعد أن اتحد ولداً كما يزعمون .. لم يتغير شيء في الوجود .. إذن إن وجود ولد بالنسبة للإله لم يعطه مظهراً من مظاهر القوة .. لأن الكون قبل أن يوجد الولد المزعوم وبعده لم يتغير فيه شيء .

إذن فما سبب اتخاذ الولد ؟ معونة ؟ الله لا تضعف قوته .. ضمان للحياة ؟ الله حياته أزلية .. هو الذى خلق الحياة وهو الذى يهبها وهو حى لا يموت .. فما هى حاجته لأى ضمان للحياة ؟ الحق سبحانه وتعالى تتفعل له الأشياء .. أى أنه قادر على إبراز الشيء بمقتضى حكمه .. وهو جل جلاله له كمال الصفات أزلاً .. وبكمال صفاته خلق هذا الكون وأوجده .. لذلك فهو ليس فى حاجة إلى أحد من خلقه .. لأنه ساعاً خلق كانت له كل صفات القدرة على الخلق .. بل قبل أن يخلق كانت له كل صفات الخلق وبهذه الصفات خلق .. والله سبحانه وتعالى كان خالقاً قبل أن يخلق أحداً من خلقه .. وكان رزاقاً قبل أن يوجد من يرزقه .. وكان قهاراً قبل أن يوجد من يقهره .. وكان ثواباً قبل أن يوجد من يتوب عليه .. وبهذه الصفات أوجد وخلق ورزق وقهر وتاب على خلقه .

إذن كل هذا الكون لم يصف صفة من صفات الكمال إلى الله . . بل إن الله بكمال صفاته هو الذى أوجد. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى في حديث قديم :

(يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئا إلا كما ينقص المحيط إذا غمس في البحر ..)^(١) .

ثم إذا كان الله سبحانه وتعالى زوجة وولد . . فمن الذى وجد أولا ؟ . . إذا كان الله سبحانه وتعالى قد وجد أولا . . ثم بعد ذلك أوجد الزوجة والولد فهو خالق وهما مخلوقان . . وإن كان كل منهم قد أوجد نفسه فهم ثلاثة آلهة وليسوا إلهًا واحدًا . . إذن فالولد إما أن يكون مخلوقًا أو يكون إلهًا . . والكمال الأول لله لم يزد الولد شيئًا . . ومن هنا يصبح وجوده لا قيمة له . . ونحن معرض الحق تبارك وتعالى هذه القضية بعرضها عرضًا واسعًا في كثير من سور القرآن الكريم وأولها سورة مريم في قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾

(سورة مريم)

إنه سبحانه منزّه عن التماثل مع خلقه . . لا بالذات ولا بالصفات ولا بالأفعال . . كل شيء تراه في الوجود . . الله منزّه عنه . . وكل شيء يتغير على بالك فاته غير ذلك . . قوله تعالى : « له ما في السموات والأرض » . . فتلك قضية تناقض اتخاذ الولد لأن كل ما في السموات والأرض خاضع لله . .

قوله تعالى : « كل له قانتون » . . أي خاضعون ، وهذا يؤكد لنا أن كون الله في قبضة الله خاضع مستجيب اختيارًا أو قهراً لأمر الله .

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

بعد أن بين الله تبارك وتعالى .. أن قوهم اتخذ الله ولدا هو افتراء على الله .. أراد الحق أن يلفتنا إلى بعض من قدراته .. فقال جل جلاله : « بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .. أى خلق السموات والأرض وكل ما فيها من خلق على غير مثال سابق .. أى لم يكن هناك سواه أو أرض أو ملائكة أو جن أو إنسان .. ثم جاء الله سبحانه وتعالى وأوجد متشابهها لهم في شكل أو حجم أو قدرة .. أى أنه سبحانه لم يلجأ إلى ما نسميه نحن بالقالب .

إن الذى يصنع كوب الماء يصنع أولا قالباً يصب فيه خام الزجاج المنصهر .. فتخرج في النهاية أكواب متشابهة .. وكل صناعة لغير الله تتم على أساس صنع القالب أولاً ثم بعد ذلك يبدأ الإنتاج .. ولذلك فإن التكلفة الحقيقية هي في إعداد القالب الجيد الذى يعطينا صورة لما نريد .. والذى يجيز رغبنا مثلاً قد لا يستخدم قالباً ولكنه يقلد شيئاً سبق .. فشكل الرغبة وخامته سبق أن تم وهو يقوم بتقليدهما في كل مرة .. ولكنه لا يستطيع أن يعطى التماثل في الميزان أو الشكل أو الاستدارة .. بل هناك اختلاف في التقليد ولا يوجد كمال في الصناعة .

وحين خلق الله جل جلاله الخلق من آدم إلى أن تقوم الساعة .. جعل الخلق متشابهين في كل شيء .. في تكوين الجسم وفي شكله في الرأس والقدمين واليدين والعينين .. وغير ذلك من أعضاء الجسم .. تماثلاً دقيقاً في الشكل وفي الوظائف .. بحيث يؤدي كل عضو مهمته في الحياة .. ولكن هذا التماثل لم يتم على قالب وإنما تم بكلمة كن .. ورغم التشابه في الخلق فكل منا مختلف عن الآخر اختلافاً يجعلك قادراً على تمييزه بالعلم والعين .. فبالعلم كل منا له بصمة أصبع وبصمة صوت يمكن

أن يميزها خبراء التسجيل .. وبصمة رائحة قد لا تميزها نحن ولكن تميزها الكلاب المدربة .. فتشم الشيء ثم تسرع فتدنا على صاحبه ولو كان بين ألف من البشر .. وبصمة شفرة تجعل الجسد يعرف بعضه بعضا .. فإن جثت بخلية من جسد آخر لفطها . وإن جثت بخلية من الجسد نفسه المجد معها وعالج جراحها .

وإذا كان هذا بعض ما وصل إليه العلم .. فإن هناك الكثير مما قد نصل إليه ليؤكد لنا أنه رغم تشابه بلايين الأشخاص .. فإن لكل واحد ما يميزه وحده ولا يتكرر مع خلق الله كلهم .. وهذا هو الإعجاز في الخلق ودليل على طلاقة قدرة الله في كونه .

والله سبحانه وتعالى يعطينا المعنى العام في القرآن الكريم بأن هذا من آياته وأنه لم يحدث مصادقة ولم يأت بطريق غير مخطط بل هو معد بقدرة الله سبحانه .. فيقول جل جلاله :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ اللَّسَانِ وَالْوَرِكِ فِي ذَلِكَ لَا تَتْلُوا لِعِلْمٍ ۝ ١٧﴾

(سورة الروم)

هذا الاختلاف يمثل لنا طلاقة قدرة الله سبحانه في الخلق على غير مثال .. فكل مخلوق يختلف عن قبله وعن بعده وعن حوله .. مع أنهم في الشكل العام متماثلون .. ولو أنك جمعت الناس كلهم منذ عهد آدم إلى يوم القيامة تجدهم في صورة واحدة .. وكل واحد منهم يختلف عن الآخر .. فلا يوجد بشران من خلق الله كل منهما طبق الأصل من الآخر .. هذه دقة الصنع وهذا ما نفهمه من قوله تعالى : « بدیع » .. والدقة تعطي الحكمة .. والإبراز في صور متعددة يعطي القدرة .. ولذلك بعد أن نموت وتتبعثر عناصرنا في التراب يجمعنا الله يوم القيامة .. والإعجاز في هذا الجمع هو أن كل إنسان سيبحث من عناصره نفسها ومصورته نفسها وهيته نفسها التي كان عليها في الدنيا . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ۝ ١٨﴾

(سورة في)

إذن الله سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته في الإيجاد قد خلقنا .. وبطلاقة قدرته في إعادة الخلق مجيئاً بعد الموت .. بشكلنا ولحمنا وصفاتنا وكل ذرة فينا .. هل هناك دقة بعد ذلك ؟ .

لو أننا أتينا بأفق الصناعات وأمهرهم وقلنا له : اصنع لنا شيئاً نجيده . فلما صنعه قلنا له : اصنع مثله . إنه لا يمكن أن يصنع نموذجاً مثله بالمواصفات نفسها ؛ لأنه يفقد المقاييس الدقيقة التي تمده بالمواصفات نفسها التي صنعها . إنه يستطيع أن يعطينا نموذجاً متشابهاً ولكن ليس مثل ما صنع تماماً . لكن الله سبحانه وتعالى يتوفى خلقه وساعة القيامة أو ساعة بعثهم يعيدهم بمكوناتهم نفسها التي كانوا عليها دون زيادة أو نقص . وذلك لأنه الله جل جلاله لا يخلق وفق قوالب معينة ، وإنما يقول للشيء : كن فيكون .

تقول الآية الكريمة « بديع السموات والأرض إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » .

« وكن » وردت كثيراً في القرآن الكريم .. وفي اللغة شيء يسمى المشترك .. اللفظ يكون واحداً ومعانيه تختلف حسب السياق .. فمثلاً كلمة قضى لها معاني متعددة ولها معنى يجمع كل معانيها .. مرة بأن بها الحق بمعنى فرغ أو انتهى .. في قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾

(من الآية ٢٠٠ سورة البقرة)

ومعناها إذا انتهيتُم من مناسك الحج .. ومرة يقول سبحانه :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ قَانِصًا إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٧٢ سورة طه)

والعنى إن فعل ما تريد .. وفي آية أخرى يقول الله تعالى :

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الاحزاب)

والمعنى هنا أنه إذا قال الله شيئا لا يترك للمؤمنين حق الاختيار . . ومرة بصور الله جل جلاله الكفار في الآخرة وهم في النار يريدون أن يستريحوا من العذاب بالموت .

واقرا قوله سبحانه :

﴿وَنَادُوا يَمْظِرُّكَ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْتُومُونَ﴾

(سورة الزخرف)

ليَقْضِيَ علينا هنا معناها يميتنا . . ومعنى آخر في قوله تعالى :

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾

(من الآية ٢٢ سورة ابراهيم)

أى لما انتهى الأمر ووقع الجزاء . . وفي موقع آخر قوله سبحانه :

﴿قَلْبًا قُضِيَ مَوْسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾

(من الآية ٢٩ سورة القصص)

قضى الاجل هنا بمعنى أتم الاجل وفي قوله تعالى :

﴿وَنُفِخَ فِيهِمْ بِالْقِطِّ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

(من الآية ٥٤ سورة يونس)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِيلًا
آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ
تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾



الحق سبحانه وتعالى حين قال : « الذين لا يعلمون » .. أى لا يعلمون عن
كتاب الله شيئا لأنهم كفار .. وهؤلاء سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن
يكلمهم الله .. ومعنى أن يكلمهم الله أن يسمعوا كلاما من الله سبحانه .. كما
سمع موسى كلام الله .

وماذا كانوا يريدون من كلام الله تبارك وتعالى .. أكانوا يريدون أن يقول لهم الله
إنه أرسل محمدا رسولا ليبلغهم بفتح السماء .. وكان كل المعجزات التي أبد الله بها
رسوله صلى الله عليه وسلم - وعمل رأسها القرآن الكريم - لم تكن كافية لاقناعهم ..
مع أن القرآن كلام معجز وقد أتى به رسول أمي .. سألوه عن أشياء حدثت فأوحى
الله بها إليه بالتفصيل .. جاء القرآن ليتحدى في أحداث المستقبل وفي أسرار النفس
البشرية .. وكان ذلك يكفيهم لو أنهم استخدموا عقولهم ولكنهم أرادوا العناد كلها
جاءهم آية كذبوا بها وطلبوا آية أخرى .. والله سبحانه وتعالى قد أبلغنا أنه لا يمكن
لطبيعة البشر أن تتلقى عن الله مباشرة .. واقرأ قوله سبحانه :

﴿وَمَا كَانَ لِدَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يَرْسِلَ رَسُولًا قَبِيحًا
بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾

إذن فالبشر حتى المصطفى من الله والمؤهل للتلقى عن الله .. لا يكلمه الله إلا وحيًا أو إلهامًا خاطئًا أو من وراء حجاب كما كلم موسى .. أو يرسل رسولًا مبلغًا للناس بالمنهج الله .. أما الاتصال المباشر فهو أمر نمنعه بشريعة الخلق .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « أو ثانيًا آية » .. والآيات التي يطلبها الكفار ويأتى بها الله سبحانه وتعالى ويحققها لهم .. لا يؤمنون بها بل يزدادون كفرًا وعنادًا .. والله جل جلاله يقول :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا عُودَ النَّاقَةِ مُبِصْرَةً فَلَمَّا رَأَوْهَا ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

إذن فالآيات التي يطلبها الكفار ليؤمنوا لا تجعلهم يؤمنون .. ولكن يزدادون كفرًا حتى ولو علموا يقينًا أن هذه الآيات من عند الله سبحانه وتعالى كما حدث لأك فرعون .. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ وَيَسْتَعْجِلُوهَا وَأَسْتَفِيتُنَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظْمًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝ ١١ ﴾

(سورة النمل)

وهكذا فإن طلبهم أن يكلمهم الله أو ثانيهم آية كان من باب العناد والكفر .. والحق سبحانه يقول : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قومهم » .. فبنو إسرائيل قالوا لموسى أرنا الله جهرة .. الذين لا يعلمون قالوا لولا يكلمنا الله .. ولكن الذين قالوا أرنا الله جهرة كانوا يعلمون لأنهم كانوا يؤمنون بالتوراة .. فتساوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .. لذلك قال الله تبارك وتعالى : « تشابه قلوبهم » .. أى قلوب أولئك الذين كانوا خاضعين للمنهج والذين لا يخضعون لمنهج قد تشابهت بمنطق واحد .

ولو أن الذين لا يعلمون قالوا ولم يقل الذين يعلمون لأن الأمر .. وقلنا جهلهم هو الذي أوحى إليهم بما قالوا .. ولكن ما عذر الذين علموا وعندهم كتاب أن يقولوا أننا الله جهرة .. إذن فهناك شيء مشترك بينهم تشابه قلوبهم في الهوى .. إن مصدر كل حركة سلوكية أو حركة جارحة إنما هو القلب الذي تصدر عنه دوافع الحركة .. ومادام القلب غير خالص لله فيستوى الذي يعلم والذي لا يعلم ..

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : « قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .. ما هو اليقين ؟ هو استقرار القضية في القلب استقرارا لا يحتمل شكاً ولا زلزلة .. ولا يمكن أن تخرج القضية مرة أخرى إلى العقل .. لتناقش من جديد لأنه أصبح يقيناً .. واليقين يأتي من إخبار من تثق به وتصبح أخباره يقيناً .. فإذا قال الله قال اليقين .. وإذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم فكلامه حق .. ولذلك من مصداقية الإيمان أن سيدنا أبا بكر رضى الله عنه .. عندما قيل له إن صاحبك يقول إنه سجد به إلى السماء السابعة وذهب إلى بيت المقدس في ليلة واحدة .. قال إن كان قد قال فقد صدق ..

إن اليقين عندنا نشأ من إخبار من يتق فيه وهذا نسبه علم يقين . . وقد يرتقى الأمر ليصير عين يقين . . عندما ترى الشيء بعينك بعد أن حدثت عن رؤية غيرك له . . ثم تدخل في حقيقة الشيء فيصبح حق يقين . . إذن اليقين علم إذا جاء عن إخبار من تتق به . . وعين يقين إذا كان الأمر قد شوهد مشاهدة العين . . وحق يقين هو أن تدخل في حقيقة الشيء . . والله سبحانه وتعالى يشرح هذا في قوله تعالى :

﴿الْمُذَكَّرُ الْفَكَارُ﴾ ① حَقٌّ زُرْمٌ الْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْمَلُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْمَلُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْمَلُونَ عَلَى الْبَلْقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⑥ ﴿

(مسورة الشكر)

هذه هي المرحلة الأولى أن يأتيها علم اليقين من الله سبحانه وتعالى . . ثم تأتي المرحلة الثانية في قوله تبارك وتعالى :

﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا بَيْنَ الْيَقِينِ﴾ (٧)

(سورة التكاثر)

أى أنتم ستشاهدون جهنم بأعينكم يوم القيامة .. هذا علم يقين وعين يقين ..
يأتى بعد ذلك حق اليقين فى قوله تعالى :

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الْغَائِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَتُرَلَّى مِنْ حَيْسِرٍ ﴿٧٧﴾ وَتَصْلِيَةً جَحِيمٍ ﴿٧٨﴾
إِنَّ هَذَا لَحُوقٌ بِالْيَقِينِ ﴿٧٩﴾﴾

(سورة الواقعة)

والمؤمن عافاه الله من أن يعاين النار كحق يقين .. إنه سيراهما وهو بحر على
الصراط .. ولكن الكافر هو الذى سيصلاها حقيقة يقين .. ولقد قال أهل الكتاب
لأنبيائهم ما يوافق قول غير المؤمنين .. فاليهود قالوا لموسى : « لن نؤمن لك حتى
نرى الله جهرة » .. والمسيحيون قالوا لعيسى : « هل يستطيع ربك أن ينزل علينا
مائدة من السماء » قال : « اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » .. وهكذا شجع المؤمنون
بالكتاب غير المؤمنين بأن يطلبوا رؤية الله وطلبوا المعجزات المادية .



﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (١١٩)

هنا لابد أن نلتفت إلى أن الله سبحانه وتعالى حينما يغيرنا عن قضية من فعله . يأتي دائما بنون العظمة التي نسميها نون التكلم . . ونلاحظ أن نون العظمة يستخدمها رؤساء الدول والملوك ويقولون نحن فلان أمرنا بما هو آت . . فكان العظمة في الإنسان سخرت المواهب المختلفة لتنفيذ القرار الذي يصدره رئيس الدولة . . فيشارك في تنفيذه الشرطة والقضاء والدولة والقوات المسلحة إذا كان قرار حرب . . تشارك مواهب متعددة من جماعات مختلفة تتكاتف لتنفيذ القرار . . والله تبارك وتعالى عنده الكمال المطلق . . كل ما هو لازم للتنفيذ من صفات الله سبحانه وتعالى . . فإذا تحدث الله جل جلاله عن فعل يحتاج إلى كمال المواهب من الله تبارك وتعالى وتعالى يقول « إنا » :

﴿إِنَّا نَحْنُ تَرَلْنَا اللَّهُكَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافُونَ﴾ (١٢٠)

(سورة الحج)

ولكن حين يتكلم الله عن ألوهيته وحده وعن عبادته وحده يستخدم ضمير المفرد . . مثل قوله سبحانه :

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (١٣٠)

(سورة طه)

ولا يقول فاعبدنا .. إذن ففى كل فعل يأتى الله سبحانه بنون العظمة .. وفى كل أمر يتعلق بالعبادة والتوحيد يأتى بالمفرد .. وذلك حتى نفهم أن الفعل من الله ليس وليد قدرته وحدها .. ولا علمه وحده ولا حكمته وحدها ولا رحمته وحدها .. وإنما كل فعل من أفعال الله تكاملت فيه صفات الكمال المطلق لله .

إن نون العظمة تأتى لتلفتنا إلى هذه الحقيقة لتبرز للعقل تكامل الصفات فى الله .. لأنك قد تقدر ولا تعلم .. وقد تعلم ولا تقدر ، وقد تعلم ونغيب عنك الحكمة . إذن فتكامل الصفات مطلوب .

قوله تعالى : « إنا أرسلناك بالحق » يعنى بعثناك بالحق رسولا .. والحق هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ولا يتناقض .. فإذا رأيت حدثا أمامك ثم طلب منك أن تحكى ما رأيت رويت ما حدث .. فإذا طلب منك بعد فترة أن ترويه مرة أخرى فلأنك ترويه بنفس التفاصيل .. أما إذا كنت تكذب فتتناقض فى أقوالك .. ولذلك قيل إن كنت كذوبا فكأن ذكورا .

إن الحق لا يتناقض ولا يتغير .. ومادم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أرسل بالحق .. فإن عليه أن يبلغه للناس وسيبقى الحق حقا إلى يوم القيامة .

وقوله تعالى : « بشيرا ونذيرا » .. البشارة هى إخبار بشيء يسرك زمنه قادم .. والإنذار هو الإخبار بشيء يسوءك زمنه قادم ربما استطعت أن تتلافاه .. بشير بماذا ؟ ونذير بماذا ؟ يشر من آمن بنعيم الجنة وينذر الكافر بعذاب النار .. والبشرى والإنذار يقتضيان منهجا يبلغ .. من آمن به كان بشارته له ومن لا يؤمن كان إنذارا له .

ثم يقول الحق جل جلاله : « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » .. أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس مسئولاً عن الذين سيلقون بأنفسهم فى النار والعذاب . إنه ليس مسئولا عن هدايتهم وإنما عليه البلاغ .. وقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَمَّا كَبُحَ نَفْسُكَ عَلَى أَنْ تُبَدِّلَهُمْ إِنَّ لَكَ يَوْمَئِذٍ هَلَكَةً ﴾

ويقول جل جلاله :

﴿لَمَّا كَانَ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۖ ﴿١﴾ إِنَّ لَنَا نُزْلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً
فَقَالَتْ أَعْتَقْتُهُمْ لَهَا خَصِيصِينَ ۖ ﴿٢﴾﴾

(سورة الشعراء)

فإن الله سبحانه وتعالى لو أرادنا أن نؤمن قسراً وقهراً .. ما استطاع واحد من الخلق أن يكفر .. ولكنه تبارك وتعالى يريد أن تأتيه بقلوب محبة وليس بقلوب مقهورة على الإيمان .. إن الله سبحانه وتعالى خلق الناس مختارين أن يؤمنوا أو لا يؤمنوا .. وليس لرسول أن يرغم الناس على الإيمان بالقهر .. لأن الله لو أراد لقهر كل خلقه .. أما أصحاب الجحيم فهم أهل النار .. والجحيم مأخوذة من الجموح .. وجمحت النار بمعنى اضطربت ، وعندما ترى النار متأججة يقال جمحت النار .. أى أصبح هيبتها مضاعفا بحيث يلتهم كل ما يصل إليها فلا تحمد أبداً .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يعظم من رسوله صل الله عليه وسلم .. أنه لا يجب أن ينشغل قلبه بالذين كفروا لأنه قد أنزلهم .. وهذا ما عليه ، وهذه مهمته التي كلفه الله بها .



﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لِي وَلَا لِمَنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

كان اليهود يدخلون حل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدخل لزم وكيد فيقولون هادنا ، أى قل لنا ما فى كتابنا حتى ننظر إذا كنا نتبعك أم لا . . يريد الله تبارك وتعالى أن يقطع على اليهود سبيل الكيد والمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم . . بأنه لا اليهود ولا النصارى سيتبعون ملتك . . وإنما هم يريدون أن تتبع أنت ملتهم . . أنت تريد أن يكونوا معك وهم يطعمون أن تكون معهم . . فقال الله سبحانه : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » . .

فلاحظ هنا تكرار النفي وذلك حتى نفهم أن رضا اليهود غير رضا النصارى . . ولو قال الحق تبارك وتعالى ، ولن ترضى عنك اليهود والنصارى بدون لا . . لكان معنى ذلك أنهم مجتمعون على رضا واحد أو متفقون . . ولكنهم يختلفون بدليل أن الله تعالى قال :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَبِستِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَبِستِ الْيَهُودَ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾

(من الآية ١١٣ سورة البقرة)

إذن فلا يصح أن يقال فلن ترضى عنك اليهود والنصارى . . والله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لن ترضى عنك اليهود ولن ترضى عنك النصارى . . وإنك لو صادفت رضا اليهود فلن ترضى عنك النصارى . . وإن صادفت رضا النصارى فلن ترضى عنك اليهود . .

ثم يقول الحق سبحانه : « حتى تتبع ملتهم » .. والملة هي الدين وسُميت بالملة لأنك تميل إليها حتى ولو كانت باطلا .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۖ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۚ لَكُمْ دِينُكَ وَلِيَ دِينِ ۝﴾

(سورة الكافرون)

فجعل لهم دينا وهم كافرون ومشركون .. ولكن ما الذي يعصمنا من أن نتبع ملة اليهود أو ملة النصارى .. الحق جل جلاله يقول :

﴿قُلْ إِنْ أَهْدَىٰ اللَّهُ يَهْدِي اللَّهُ ۖ﴾

(من الآية ٧٣ سورة آل عمران)

فاليهود حرفوا في ملتهم والنصارى حرفوا فيها .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم معه هدى الله .. والهدى هو ما يوصلك إلى الغاية من أقصر طريق .. أو هو الطريق المستقيم باعتباره أقصر الطرق إلى الغاية .. وهدى الله طريق واحد ، أما هدى البشر فكل واحد له هدى يتبع من هواه .

ومن هنا فإنها طرق متشعبة ومتعددة توصلك إلى الضلال .. ولكن الهدى الذى يوصل للحق هو هدى واحد .. هدى الله عز وجل .

وقوله تعالى : « ولئن اتبعت أهواءهم » إشارة من الله سبحانه وتعالى إلى أن ملة اليهود وملة النصارى أهواء بشرية .. والأهواء جمع هوى .. والهوى هو ما تريد النفس باطلا بعيدا عن الحق .. لذلك يقول الله جل جلاله : « ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مآلئك من الله من ولى ولا نصير » ..

والله تبارك وتعالى يقول لرسوله لو اتبعت الطريق المعوج المالى بالشهوات بغير حق .. سواء كان طريق اليهود أو طريق النصارى بعدما جاءك من الله من الهدى فليس لك من الله من ولى يتولى أمرك ويحفظك ولا نصير ينصرك .

وهذا الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يجب أن نقف معه وقفة لتأمل كيف يخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم الذي اصطفاه .. فإله حين يوجه هذا الخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام .. فالمراد به أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أتباع رسول الله الذين سيأتون من بعده .. وهم الذين يمكن أن تميل قلوبهم إلى اليهود والنصارى .. أما الرسول فقد عصمه الله من أن يتبعهم .

والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم يقينا أن ما لم يقبله من رسوله عليه الصلاة والسلام .. لا يمكن أن يقبله من أحد من أمته مهما علا شأنه .. وذلك حتى لا يأتي بعد رسول الله من يدعى العلم .. ويقول تتبع ملة اليهود أو النصارى لتجذبهم إلينا .. فنقول له لا ما لم يقبله الله من حبيبه ورسوله لا يقبله من أحد .

إن ضرب المثل هنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقصود به أن أتباع ملة اليهود أو النصارى مرفوض تماما تحت أى ظرف من الظروف ، لقد ضرب الله سبحانه المثل برسوله حتى يقطع على المفرضين أى طريق للعبث بهذا الدين بحجة التقارب مع اليهود والنصارى .



﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِهِمْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَهُمْ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ يُؤْتُونَ زَكَاةً وَأُوتُوا الْوَيْدَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى قد حرفوا كتبهم ، أراد أن يبين أن هناك من اليهود والنصارى من لم يحرفوا في كتبهم . . وأن هؤلاء يؤمنون بحمد عليه الصلاة والسلام وبرسالته . . لأنهم يعرفونه من التوراة والإنجيل .

ولو أن الله سبحانه لم يذكر هذه الآية لقال الذين يقرأون التوراة والإنجيل على حقيقتيهما . . ويفكرون في الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لقالوا كيف تكون هذه الحملة على كل اليهود وكل النصارى ونحن نعتزم الإيمان بالإسلام . . وهذا ما يقال عنه قانون الاحتمال . . أى أن هناك عددا مهما قل من اليهود أو النصارى يفكرون في اعتناق الإسلام باعتباره دين الحق . . وقد كان هناك جماعة من اليهود عددهم أربعون قادمون من سيناء مع جعفر بن أبى طالب ليشهدوا أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قرأوا التوراة غير المحرفة وآمنوا برسالته . . وأراد الله أن يكرمهم ويكرم كل من سيؤمن من أهل الكتاب . . فقال جل جلاله :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِهِمْ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَهُمْ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾

(من الآية ١٢١ سورة البقرة)

أى يتلونه كما أنزل بغير تحريف ولا تبديل . . فيعرفون الحقائق صافية غير مخلوطة بهوى البشر . . ولا بالتحريف الذى هو نقل شيء من حق إلى باطل .

يقول الله تبارك وتعالى : « أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم
الخاسرون » .. وتلاحظ أن القرآن الكريم يأتي دائما بالمقارنة .. ليكرم المؤمنين
ويلقي الحسرة في نفوس المكذبين .. لأن المقارنة دائما تظهر الفارق بين الشيعين .

إن الله سبحانه يريد أن يعلم الذين آتاهم الله الكتاب فلم يعرفوه وآمنوا به ..
ليصلوا إلى النعمة التي مستفودهم إلى النعم الأبدي .. وهي نعمة الإسلام
والإيمان .. مقابل الذين يعرفون النوراة والإنجيل فمسيرهم الحسرة المين والخلود
في النار .



﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ
عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ١٢٢

لورجعنا إلى ما قلناه عندما تعرضنا للآية (٤٠) من سورة البقرة . . وقوله تعالى : « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وألقوا بهمدى أوفى بهمذكروا وإياي فارهبون » . . فالحق سبحانه وتعالى لم يته الجولة مع بني إسرائيل قبل أن يذكرهم بما بدأهم به . . إنه سبحانه لا ينهي الكلام معهم في هذه الجولة . . إلا بعد أن يذكرهم تذكيرا نهائيا بنعمه عليهم وتفضيله لهم على كثير من خلقه . . ومن أكبر مظاهر هذا التفضيل . . الآية الموجودة في التوراة تبشر بمحمد عليه الصلاة والسلام وذلك تفضيل كبير .

التذكير بالنعمة هنا ، بالفضل هو تفريع لبني إسرائيل أنهم لم يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنه مذكور عندهم في التوراة . . وكان يجب أن يأخذوا هذا الذكر بقوة ويسارعوا للإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه تفضيل كبير من الله سبحانه وتعالى لهم . . والله جل جلاله قال حين أخذت اليهود الرجفة . . وطلب موسى عليه السلام من ربه الرحمة . . قال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿وَاصْنَبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا مُلْكُ قَالِ عَنَّا أَصِيبُ بِهِ
مَنْ أَشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَكَأَنَّهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ
هُمْ بِعَاقِبَتِنَا يَوْمُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ

فِي الثَّورَةِ وَالْإِنْبِيلِ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ
عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا
بِهِ وَعَزَّوْهُ وَنَسَرُوهُ وَأَتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٦٧﴾

(سورة الأعراف)



﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

هذه الآية الكريمة تشابهت مع الآية ٤٨ من سورة البقرة . . التي يقول فيها الله تبارك وتعالى :

« واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » .

نقول إن هذا التشابه ظاهري . . ولكن كل آية تؤدي معنى مستقلا . . ففي الآية ٤٨ قال الحق سبحانه : « لا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل » . . وفي الآية التي نحن بصددنا قال : « لا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة » . . لماذا ؟ لأن قوله تعالى « لا تجزي نفس عن نفس شيئا » . . لو أردنا النفس الأولى فالسياق يناسبها في الآية الأولى . . ولو أردنا النفس الثانية فالسياق يناسبها في الآية الثانية التي نحن بصددنا . . فكان معنا نفسين إحداهما جازية والثانية مجزى عنها . . الجازية هي التي تشفع . . فأول شيء يقبل منها هو الشفاعة . . فإن لم تقبل شفاعتها تقول أنا أنحمل العمدل . . أي أخذ الفدية أو ما يقابل الذنب . . ولكن النفس المجزى عنها أول ما تقدم هو العمدل أو الفداء . . فإذا لم يقبل منها تبحث عن شفيع . . ولقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل عند تعرضنا للآية ٤٨ من سورة البقرة .

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

يأتى الحق سبحانه وتعالى إلى قصة إبراهيم عليه السلام .. ليصفى الجدل والتشكيك الذى أحدثه اليهود عند تغيير القبلة .. وانتهاء المسلمين إلى التوبة المشرقة بدلا من بيت المقدس .. كذلك الجدل الذى أثاره اليهود بأنهم شعب الله المختار وأنه لا يأتى نبي إلا منهم .

يريد الله تبارك وتعالى أن يبين صلة العرب بإبراهيم وصلتهم بالبيت .. فيقول الحق جل جلاله : « وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ » .. ومعناها اذكر إذا ابتلى الله إبراهيم .. واذ هنا ظرف وهناك فرق بينها وبين إذا الشرطية في قوله تعالى :

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾

(سورة النصر)

إذا هنا ظرف ولكنه يدل على الشرط .. أما إذ فهي ظرف فقط .. وقوله تعالى : « وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ » .. معناها اذكر وقت أن ابتلى الله إبراهيم بكلمات .

ما معنى الابتلاء ؟ الناس يظنون أنه شر ولكنه في الحقيقة ليس كذلك .. لأن الابتلاء هو امتحان إن نجحنا فيه فهو خير وإن رسبنا فيه فهو شر .. فالابتلاء ليس شرا ولكنه مقياس لاختبار الخير والشر . الذى ابتلى هو الله سبحانه .. هو

الرب . . والرب معناه المرئى الذى يأخذ من يريه بأساليب تؤهله إلى الكمال المطلوب منه . . ومن أساس التربية أن يمتحن المرئى من يريه ليعلم هل نجح فى التربية أم لا ؟ والابتلاء هنا بكلمات والكلمات جمع كلمة . . والكلمة قد تطلق على الجملة مثل قوله تعالى :

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَلَأْمٌ بِهِ مِنْ عِلْمِهِ وَلَا لِإِبْرَاهِيمَ كِبَرٌ مِّنْهُ ۚ يَحْجُجُ مِنَ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝﴾

(سورة الكهف)

إذن فالكلمة قد تطلق على الجملة وقد تطلق على المفرد . . كأن تقول مثلاً محمد وتسكت . . وفى هذه الحالة لا تكون جملة مفيدة . . والكلمة المرادة فى هذه الآية هى التكليف من الله .

قوله سبحانه إفعل ولا تفعل . . فكان التكليف من الله مجرد كلمة وأنت تؤدى مطلوبها أو لا تؤديه . . وقد اختلف العلماء حول الكلمات التى تلقاها إبراهيم من ربه . . تقول لهم ان هذه الكلمات لايد أن تناسب مقام إبراهيم أبى الأنبياء . . إنها ابتلاء يجعله أهلاً لحمل الرسالة . . أى لايد أن يكون الابتلاء كبيراً . . ولقد قال العلماء إن الابتلاءات كانت عشرة وقالوا أربعين منها عشرة فى سورة التوبة وهى قوله تعالى :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ صُلُوحَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ صُلُوحَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ صُلُوحَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۚ

(من الآية ١١٢ سورة التوبة)

وهذه رواية عبدالله بن عباس . . وعشرة ثانية فى سورة المؤمنون . فى قوله سبحانه :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ غَاشُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ الْفُرْجِ مَرْضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ بِرُكُوتٍ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ لَمَنْ أَتَىٰ بَعْثَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتَنِهِمْ وَعَهْبِهِمْ رِعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ ﴾

(سورة الزُّمَرُ)

ويعد ذلك قال : « أولئك هم الوارثون » .

وفي سورة الأحزاب يذكر منهم قوله جل جلاله :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِغِينَ وَالصَّابِغَاتِ وَالْحَنِيفِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَنَفَاتِ وَالَّذِينَ أَنَّهُمْ كَثِيرًا وَكَثِيرًا ① أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ② ﴾

(سورة الأحزاب)

وفي سورة الماعز يقول :

﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ① الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ② وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ③ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ④ وَالَّذِينَ يُصَبِّحُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ ⑤ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابٍ

رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَنفُسِهِمْ
 حَافِظُونَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٥٩﴾
 لَقَدْ أَتَيْنَاكَ بِكَافِرِينَ فَتَقَالُوا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ
 وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِبْتِهَادِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٦٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ
 يُحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾

(سورة المارج)

نخرج من هذا الجدل ، بأن نقول إن الله ابتلي إبراهيم بكلمات تكليفية افعل كذا
 ولا تفعل كذا .. وابتلاه بأن ألقي في النار وهو حي فلم يمزق ولم يتراجع ولم يتجه
 إلا لله وكانت قمة الابتلاء أن يذبح ابنه .

وكون إبراهيم أدى جميع التكليفات بعشق وحب وزاد عليه من جنسها .. وكونه
 يلقي في النار ولا يبالي يأتيه جبريل فيقول أنك حاجة فبرد إبراهيم أما إليك فلا ..
 وأما إلى الله فعلمه بحال يغنيه عن سؤال .. وكونه وهو شيخ كبير يبذل ببلع ابنه
 الوحيد فيطعم بنفس مقلقة ورضا بقدر الله .. يقول الحق :

﴿أَمْ لَرَبِّكَ عِندَ فِي حُجُبٍ مُّوَسَّسٍ ﴿٦٤﴾ وَإِلَهِمَّ الَّذِي وَفَىٰ ﴿٦٥﴾﴾

(سورة النجم)

أي وفى كل ما طلب منه وأداء بعشق للمنهج ولا ابتلاءات الله .. لقد نجح
 إبراهيم عليه السلام في كل ما ابتلي به أو اختبر به .. والله كان أعز عليه من أهله
 ومن نفسه ومن ولده .. ماذا كافأه الله به ؟ قال :

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ فَتْنًا لِّأُمَمٍ ﴿٦٦﴾﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى أن الحق تبارك وتعالى أثمنه أن يكون إماما للبشر . . والله سبحانه كان يعلم وفاء إبراهيم ولكنه اختبره لمعرفة نحن البشر كيف يصطفى الله تعالى عباده المقربين وكيف يكونون أئمة يتولون قيادة الأمور . . استقبل إبراهيم هذه البشرى من الله وقال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

ما هي الذرية ؟ هي النسل الذي يأتي والولد الذي يحيى . . لأنه يجب استعراق الخبر على أولاده وأحفاده وهذه طبيعة البشر ، فهم يعطون ثمرة حركتهم وعملهم في الحياة لأولادهم وأحفادهم وهم مسؤولون . . ولذلك أراد إبراهيم أن ينقل الإمامية إلى أولاده وأحفاده . . حتى لا يحرّموا من القيم الإيمانية تحرس حياتهم وتؤدي بهم إلى نعم لا يزول . . ولكن الله سبحانه وتعالى يرد على إبراهيم بقضية إيمانية أيضا هي تفريع لليهود . . الذين تركوا القيم وعبدوا المادة فيقول جل جلاله :

﴿ لَا يَتَّالِ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فكان إبراهيم بأعماله قد وصل إلى الإمامية . . ولكن هذا لا يتغل إلا للمصالحين من عباده العابدين المسبحين .

وقول الحق سبحانه : « لا يتال عهدي الظالمين » مقصود به اليهود الذين باعوا قيمهم الإيمانية بالمادة ، وهو استقراء للغيب أنه سيأت من ذرية إبراهيم من سيفسق ويظلم .

ومن المجانب أن موسى وهارون عليها السلام كانا رسولين . . الرسول الأصيل موسى وهارون جاء ليشد أزره لأنه فصيح اللسان . . وشاءت إرادة الله سبحانه أن تستمر الرسالة في ذرية هارون وليس في ذرية موسى . . والرسالة ليست ميراثا . .

وقوله تعالى « لا ينال عهدي الظالمين » .. فكان عهد الله هو الذي يجلب صاحبه
أى هو الفاعل .. نأتى بعد ذلك إلى مسألة الجنس والدم واللون .. بنوة الأنبياء غير
بنوة الناس كلهم فالأنبياء اصطفاهم الله وأبناؤهم هم الذين يأخذون منهم
هذه القيم وليسوا الذين يأخذون الجنس والدم واللون .. ولورجعنا إلى قصة نوح
عليه السلام حين غرق ابنه .. رفع يديه إلى السماء وقال :

﴿ رَبِّ إِنِّي مِّنْ أَهْلِ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة هود)

فرد عليه الحق سبحانه وتعالى فقال :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنِّ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

إن أهل النبوة هم الذين يأخذون القيم عن الأنبياء .. ولولا أن الحق سبحانه قال
لنا « إنه عمل غير صالح » .. لاعتقدنا أنه ربما جاء من رجل آخر أو غير ذلك ..
ولكن الله يريدنا أن نعرف أن عدم نسبة ابن نوح إلى أبيه بسبب « إنه عمل غير
صالح » .



﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانْخَبِذْ أَمِّنْ مَّقَامِ
إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ
طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَدِّفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (١٢٥)

وَصَحَّتْ لَنَا الْآيَةُ الَّتِي سَبَقَتْ أَنَّ الْيَهُودَ قَدْ انْتَفَتِ صَلَاتُهُمْ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ . . بَعْدَ أَنْ تَرَكُوا الْقِيَمَ وَالْدِينَ وَانْجَبَهُوا إِلَىٰ مَادِيَاتِ الْحَيَاةِ . . أَنْتُمْ تَدْعُونَ
أَنْتُمْ أَفْضَلَ شُعُوبِ الْأَرْضِ لِأَنَّكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ وَالْعَرَبُ لَهُمْ هَذِهِ
الْأَفْضَلِيَّةُ وَالشَّرَفُ لِأَنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ . . إِذْنًا فَانْتُمْ غَيْرُ مُفْضَلِينَ
عَلَيْهِمْ . . فَلِذَا انْتَقَلْنَا إِلَىٰ قِصَّةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَنَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ إِلَىٰ الْكَعْبَةِ . . نَقُولُ إِنَّ
ذَلِكَ مَكْتُوبٌ مِنْذُ بَدَايَةِ الْخَلْقِ أَنَّ تَكُونَ الْكَعْبَةُ قِبْلَةً كُلِّ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ .

الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا » . . نَأْمَلُ
كَلِمَةَ الْبَيْتِ وَكَلِمَةَ مَثَابَةٍ . . بَيْتٌ مَّاخُذٌ مِنَ الْبَيْتِوتَةِ وَهُوَ الْمَأْوَى الَّذِي تَأْوِي إِلَيْهِ
وَتَسْكُنُ فِيهِ وَتَسْتَرِيحُ وَتَكُونُ فِيهِ زَوْجَتُكَ وَأَوْلَادُكَ . . وَلِذَلِكَ سَمِيَتْ الْكَعْبَةُ بَيْتًا لِأَنَّهَا
هِيَ الْمَكَانُ الَّذِي يَسْتَرِيحُ إِلَيْهِ كُلُّ خَلْقٍ لِلَّهِ . . وَمَثَابَةٍ بِمَعْنَى مَرْجَعًا تَذْهَبُ إِلَيْهِ
وَتَعُودُ . . وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الَّذِي يَذْهَبُ إِلَىٰ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ مَرَّةً يَجِبُ أَنْ يَرْجِعَ مَرَاتٍ
وَمَرَاتٍ . . إِذْنًا فَهُوَ مَثَابَةٌ لَهُ لِأَنَّهُ ذَائِقُ حَلَاوَةِ وَجُودِهِ فِي بَيْتِ رَبِّهِ . . وَأَتَعَدَّى أَنْ يَوْجِدَ
شَخْصًا فِي بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ يَشْغُلُ ذَهَنَهُ غَيْرَ ذِكْرِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ وَقُرْآنِهِ وَصَلَاتِهِ . . تَنْظُرُ
إِلَى الْكَعْبَةِ فَيَذْهَبُ كُلُّ مَا فِي صَدْرِكَ مِنْ ضَيْقٍ وَهَمٍّ وَحُزْنٍ وَلَا تَنْتَذِرُ أَوْلَادَكَ
وَلَا شَتُونَ دِيْنَكَ وَلَوْ ظَلْتَ جَاذِبِيَّةَ بَيْتِ اللَّهِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ مُسْتَمِرَّةً لَتَرَكُوا كُلَّ شَتُونِ
دِيْنَاهُمْ لِيَقِفُوا بِجَوَارِ الْبَيْتِ . . وَلِذَلِكَ كَانَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ حَرِيصًا عَلَىٰ أَنْ يَعُودَ
النَّاسُ إِلَىٰ أَوْطَانِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ بَعْدَ انْتِهَاءِ مَنَاسِكَ الْحَجِّ مُبَاشَرَةً . .

وَمِنْ رَحْمَةِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ أَنَّ الدُّنْيَا تَخْتَفِي مِنْ عَقْلِ الْحَاجِّ وَقَلْبِهِ . . لِأَنَّ الْجَمِيعَ فِي

بيت ربهم .. وكلما كربهم شيء أو همهم شيء توجهوا إلى ربهم وهم في بيته فيذهب عنهم الهم والكرب .. ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مَنْ أَنَاسٍ تَهْوَى إِلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

أفتدة وليست أجساما وتهوى أى يلقون أنفسهم إلى البيت .. والحق هو الركن الوحيد الذى يجتال الناس ليؤدوه .. حتى غير المستطيع يشق على نفسه ليؤدى الغريضة .. والذى يؤديه مرة ويسقط عنه التكليف يريد أن يؤديه مرة أخرى ومرة .

إن من الخير أن تترك الناس بشؤون إلى بيت الله .. ليمحو الله سبحانه ما في صدورهم من ضيق وهموم ومشكلات الحياة .

وقوله تعالى : « مثابة للناس وأمنا » .. أمنا يعنى يؤمن الناس فيه .. العرب حتى بعد أن تحللوا من دين إسماعيل وعبدوا الأصنام كانوا يؤمنون حجاج بيت الله الحرام .. يلقى أحدهم قاتل أبيه في بيت الله فلا يتعرض له إلا عندما يخرج .

والله سبحانه وتعالى يضع من التشريعات ما يريح الناس من تقائلهم ويحفظ لهم كبرياءهم فيأتى إلى مكان ويجعله أمنا .. ويأتى إلى شهر ويجعله أمنا لا قتال فيه لعلمهم حين يذوقون السلام والصفاء يتمتعون من القتال .

والكلام عن هذه الآية يسوقنا إلى توضيح الفرق بين أن يجبرنا الله أن البيت آمن وأن يطلب منا جعله أمنا .. إنه سبحانه لا يجبرنا بأن البيت آمن ولكن يطلب منا أن نؤمن من فيه .. الذى يطيع ربه يؤمن من في البيت والذى لا يطيعه لا يؤمنه .. عندما يحدث هياج من جماعة في الحرم اتخذته سارا لتحقيق أهدافها .. هل يتعارض هذا مع قوله تعالى : « مثابة للناس وأمنا » .. نقول لا ..

إن الله لم يعط لنا هذا كخبر ولكن كشرع .. إن أطعنا الله نفذنا هذا التشريع وإن لم نطعه لا ننفذه .

وقوله تعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصل » .. وهنا نفث قليلا فهناك مقام يفتح الميم ومُقام يضم الميم .. قوله تعالى :

﴿ يَتَأَمَّلَ يَتَرَبَّ لَا مَقَامَ لَكَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الأحزاب)

مقام يفتح الميم إسم لكان من قام .. ومُقام يضم الميم إسم لكان من أقام .. فإذا نظرت إلى الإقامة فقل مُقام يضم الميم .. وإذا نظرت إلى مكان القيام فقل مقام يفتح الميم .. إذن فقوله تعالى : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصل » يفتح الميم إسم المكان الذي قام إبراهيم فيه ليرفع القواعد من البيت ويوجد فيه الحجر الذي وقف إبراهيم عليه وهو يرفع القواعد .

ولكن لماذا أمرنا الله بأن نتخذ من مقام إبراهيم مصل ؟ لأنهم كانوا يتخرجون عن الصلاة فيه .. فالذي يصلي خلف المقام يكون الحجر بينه وبين الكعبة .. وكان المسلمون يتخرجون أن يكون بينهم وبين الكعبة شيء فيخلون من الصلاة ذلك المكان الذي فيه مقام إبراهيم .. ولذلك قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصل ؟ وسؤال عمر ينبع من الحرص على عدم الصلاة بينه وبين الكعبة عائق وهم لا يريدون ذلك .. ولما رأى عمر مكانا في البيت ليس فيه صلاة يصنع فجوة بين المصلين أراد أن تعم الصلاة كل البيت .. فنزلت الآية الكريمة : « واتخذوا من مقام إبراهيم مصل » .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أمرنا أن نتخذ من مقام إبراهيم مصل .. فكانه جل جلاله أقر وجود مكان إبراهيم في مكانه فاصلا بين المصلين خلفه وبين الكعبة .. وذلك لأن مقام إبراهيم له قصة تتصل بالعبادة وإقامتها على الوجه الأكمل ، والمقام سيعطينا حثية الإمام لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

إذن هناك آيات واضحة يريدنا الله سبحانه أن نراها ونفهمها . . فمقام إبراهيم هو مكان قيامه عندما أمره الله برفع القواعد من البيت . . والترتيب الزمني للأحداث هو أن البيت وُجد أولا . . ثم بعد ذلك رفعت القواعد ووضع الحجر الأسود في موقعه وقد وضعه إبراهيم عليه السلام .

إن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يعطينا التاريخ بقدر ما يريد أن يعطينا العبرة . قصة بناء البيت وقع فيها خلاف بين العلماء . . متى بنى البيت ؟ بعض العلماء جعلوا بداية البناء أيام إبراهيم وبعضهم يرى أنه من عهد آدم وفريق ثالث يقول إنه من قبل آدم . . وإذا حكمنا المنطق والعقل وقرأنا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿وَلِإِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَهُنَاقَ وَنُوحَ وَشَارَ وَدَاقَ وَكَانَ إِبْرَاهِيمَ نَذِيرًا لِّلْعَالَمِينَ﴾

الْعَلِيمُ

(سورة البقرة)

نسأل ما الرفع أولا ؟ هو الصعود والاعلاء ، فكل بناء له طول وله عرض وله ارتفاع . . وماذا كانت مهمة إبراهيم هي رفع القواعد فكان هناك طولاً وعرضاً للبيت . وإن إبراهيم سيحدد البعد الثالث وهو الارتفاع . . إن البيت كان موجوداً قبل إبراهيم . . ثم جاء الطوفان الذي غمر الأرض في عهد نوح فأخفى معالته . . فأراد الله سبحانه وتعالى أن يظهره ويبين مكانه للناس .

والكعبة ليست هي البيت ولكنها هي المكين الذي يدلنا على مكان البيت . . إذن فالذين فهموا من قوله تعالى : ﴿وَلِإِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَهُنَاقَ وَنُوحَ وَشَارَ وَدَاقَ وَكَانَ إِبْرَاهِيمَ نَذِيرًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ بمعنى أن إبراهيم هو الذي بنى البيت . . نقول لهم أن البيت كان موجوداً قبل إبراهيم وأن مهمة إبراهيم اقتضت على رفع القواعد لإظهار مكان البيت للناس . . ودليلنا على ذلك أنه الآن وقد ارتفع البناء حول الكعبة . . من يصل على السطح لا يسجد للكعبة ولكنه يسجد لجو الكعبة . . ومن يصل في الدور الأسفل يصل أيضاً للكعبة لأن المكان غير المكين .

ولعل أكبر دليل على ذلك من القرآن الكريم . . أن إبراهيم حين أخذ هاجر وابنه

إسماعيل وتركها في بيت الله الحرام ولم يكن قد بنى الكعبة في ذلك الوقت . . ذكر البيت واقرأ قول الحق تبارك وتعالى في دعاء إبراهيم وهو يترك هاجر وطفلهما الرضيع :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

يعنى أن البيت كان موجودا وإسماعيل طفل رضيع . . ولكن القواعد من البيت قد أقيمت بعد أن أصبح إسماعيل شابا يافعا يستطيع أن يعاون أباه في بناء الكعبة . . إذن فمكان بيت الله الحرام كان موجودا قبل أن يبنى إبراهيم عليه السلام الكعبة . . ولكن مكان البيت لم يكن ظاهرا للناس ، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى لإبراهيم مكان البيت حتى يضع له العلامة التي تدل الناس عليه . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحج)

إن كثيرا من المفسرين يخفى عليهم حقيقة ما جاء في القرآن . والمفروض أننا حين نتعرض لقضية بناء البيت لا بد أن نستعرض جميع الآيات التي وردت في القرآن الكريم حول هذه القصة . . ومنها قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾

(سورة آل عمران)

والكلام هنا عن البيت والقول إنه وُضع للناس . والناس هم آدم وفريته حتى تقوم الساعة . . وعلى ذلك لا بد أن نفهم أن البيت مادام وُضع للناس فالناس لم يضعوه . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي وضعه وحده ، وعدل الله يأيي إلا أن يوجد البيت قبل أن يخلق آدم . ولذلك فإن الملائكة هم الذين وضعوه بأمر الله وحيث أراد الله لبيته أن يوضع . . والله مع نزول آدم إلى الأرض شرع التوبة وأعد هذا البيت ليتوب الناس فيه إلى ربهم وليقيموا الصلاة ويعبدوا فيه .

وعندما أراد إبراهيم أن يقيم القواعد من البيت كان يكفي أن يقيمها على قدر طول قامته ولكنه أتى بالحجر ليزيد القواعد بمقدار ارتفاع الحجر .. ويريد الله سبحانه وتعالى بمقام إبراهيم واتخاذ مصل أن يلفتنا إلى أن الإنسان المؤمن لا بد أن يعيش التكليف .. فلا يؤديه شكلا ولكن يؤديه بحب ويتحایل ليزيد تطوعا من جنس ما فرض الله عليه .

إن الحجر الموجود في مقام إبراهيم إنما هو دليل على عشقه عليه السلام لتكاليف ربه ومحاولة أن يزيد عليها . وإن الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم به سفر على شكل قدميه .. وهما بين قائل أن الحجر لأن تحت قدمي إبراهيم من خشية الله .. وبين قائل إن إبراهيم هو الذي قام بحفر مكان في الحجر على هيئة قدميه .. حتى إذا وقف عليه ورفع يده إلى أعلى ما يمكن ليعل القواعد من البيت كان توازنه محفوظا .

وقوله تعالى : « طهرا بيتي » دليل على أن البيت زالت معالمه تماما وأصبح مثل سائر الأرض فذهبت فيه الذبائح والقيت المخلفات ، فأمر الله سبحانه وتعالى أن يظهر هو وإسماعيل البيت من كل هذا الدنس ويجعله مكانا لثلاث طوائف : « الطائفتين » وهذه مأخوذة من الطواف وهو الدوران حول الشيء .. ولذلك يسمون شرملة الحراسة بالليل طوافا لأنهم يطوفون في الشوارع في أثناء الليل . والله جل جلاله يقول :

﴿ قَطَّافٌ عَلَيْهَا طَافٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ فَأَسْبَحَتْ كَالْفَرَسِ ﴿١٥﴾

(سورة القلم)

وهذه هي قصة الحديقة التي منع أولاد الرجل الصالح بعد وفاته حتى الفقراء والمساكين فيها فأرسل الله سبحانه من طاف بها .. أي مشى في كل جزء منها فأحرق أشجارها .. فالطائف هو الذي يطوف .. « والعاكفين » هم المقيمون « والركع السجود » هم المصلون فتطهير البيت للطواف به والإقامة والصلاة فيه .. وهو مطهر أيضا لأنه سيكون قبلة للمسلمين لكل راكع أو ساجد في الأرض حتى قيام الساعة .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ
الْأَرْضِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ
قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمانا .. ومادام
الله قد جعله أمانا فيها هي جدوى دعوة إبراهيم أن تكون مكة بلدا آمنا .. نقول إذا
رأيت طلبا للوجود فاعلم أن القصد منه هو دوام بقاء ذلك الموجود .. فكان إبراهيم
يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يديم نعمة الأمن في البيت .. ذلك لأنك عندما
تقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ءَلِكُنَّ لِلّٰهِ تَزَلَّ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَلِكُنَّ
لِلّٰهِ تُزَلُّ مِنْ قَبْلِ وَمَنْ يَعْكُفِرْ بِاللّٰهِ وَلِلّٰهِ كُنْهٌ وَدُسُيْهٌ وَالْهُجُومُ
الْأَيْمِرُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

هو مخاطبهم بلفظ الإيمان ثم طلب منهم أن يؤمنوا .. كيف ؟ نقول إن الله
سبحانه يأمرهم أن يستمروا ويدوموا على الإيمان .. ولذلك فإن كل مطلوب للوجود
هو طلب لا استمرار هذا الموجود .

وقول إبراهيم : « رب اجعل هذا بلدا آمنا » .. أى يارب إذا كنت قد جعلت
هذا البيت آمنا من قبل فامنه حتى قيام الساعة .. ليكون كل من يدخل إليه آمنا لانه

موجود في واد غير ذي زرع .. وكانت الناس في الماضي تخاف أن تذهب إليه لعدم وجود الأمان في الطريق .. أو أمنا أي أن يديم الله على كل من يدخله نعمة الإيمان .

وقوله تعالى : « اجعل هذا بلدا آمنا » تكررت في آية أخرى تقول : « اجعل هذا البلد آمنا » .. فمرة جاء بها نكرة ومرة جاء بها معرفة .. نقول إن إبراهيم حين قال : « رب اجعل هذا البلد آمنا » .. طلب من الله شيئا .. أن يجعل هذا المكان بلدا وإن يجعله آمنا .

ما معنى أن يجعله بلدا ؟ هناك أساء تؤخذ من المحسات .. فكلمة غصب تعني سلخ الجلد عن الشاة وكان من يأخذ شيئا من إنسان غصبا كأنه يسلمه منه بينما هو متمسك به .

كلمة بلد حين تسمعها تنصرف إلى المدينة .. والبلد هو البقعة تنشا في الجلد فتميزه عن باقي الجلد كأن تكون هناك بقعة بيضاء في الوجه أو الذراعين فتكون البقعة التي ظهرت مميزة ببياض اللون .. والمكان إذا لم يكن فيه مساكن ومبان فيكون مستويا بالأرض لا تستطيع أن تميزه بسهولة .. فإذا أقيمت فيه مبان جعلت فيه علامة تميزه عن باقي الأرض المحيطة به .

وقوله تعالى : « وارزق أهله من الثمرات » .. هذه من مستلزمات الأمن لأنه مادام هناك رزق وثمرات تكون مقومات الحياة موجودة فيبقى الناس في هذا البلد .. ولكن إبراهيم قال : « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم » فكانه طلب الرزق للمؤمنين وحدهم .. لماذا ؟ لأنه حينما قال له الله :

﴿إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

قال إبراهيم :

﴿وَمِنْ قُرْبَىٰ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

قال الله سبحانه :

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

فخشى إبراهيم وهو يطلب لمن سيفيمون في مكة أن تكون إستجابة الله سبحانه كالاستجابة السابقة .. كأن يقال له لا ينال رزق الله الظالمون . فاستدرك إبراهيم وقال : « وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم » .. ولكن الله سبحانه أراد أن يلفت إبراهيم إلى أن عطاء الألوهية ليس كعطاء الربوبية .. فإمامة الناس عطاء ألوهية لا يناله إلا المؤمن ، أما الرزق فهو عطاء ربوبية يناله المؤمن والكافر . لأن الله هو الذي استدعانا جميعا إلى الحياة وكفل لنا جميعا رزقنا .. وكان الحق سبحانه حين قال : « لا ينال عهدي الظالمين » .. كان يتحدث عن قيم المنهج التي لا تعطى إلا للمؤمن ولكن الرزق يعطى للمؤمن والكافر .. لذلك قال الله سبحانه : « ومن كفر » .. وفي هذا تصحيح مفاهيم بالنسبة لإبراهيم ليحرف أن كل من استدعاه الله تعالى للحياة له رزقه مؤمنا كان أو كافرا . والخبر في الدنيا على الشيوع . فإدام الله قد استدعاك فإنه ضمن لك رزقك .

إن الله لم يقل للشمس أشرقى على أولي المؤمنين فقط ، ولم يقل للهواء لا يتنفس ظالم وإنما أعطى نعمة استيقاظ الحياة واستمرارها لكل من خلق آمن أو كفر .. ولكن من كفر قال عنه الله سبحانه وتعالى : « ومن كفر فأمته قليلا » .. التمتع هو شيء يحبه الإنسان ويتمنى دوامه وتكراره .

وقوله تعالى : « فامته » دليل على دوام متعته ، أي له المتعة في الدنيا . ولكل نعمة متعة ، فالطعام له متعة والشراب له متعة والجنس له متعة .. إذن التمتع في الدنيا بأشياء متعددة . ولكن الله تبارك وتعالى وصفه بأنه قليل .. لأن المتعة في الدنيا مهما بلغت وتعددت ألوانها فهي قليلة .

واقرا قوله تعالى : « ثم اضطره إلى عذاب النار » . . ومعنى اضطره أنه لا اختيار له في الآخرة ، فكان الإنسان له اختيار في الحياة الدنيا يأخذ هذا ويترك هذا ولكن في الآخرة ليس له اختيار . . فلا يستطيع وهو من أهل النار مثلاً أن يختار الجنة بل إن أعضائه المسخرة لخدمته في الحياة الدنيا والتي يأمرها بالعصية فتضل ، لا ولاية له عليها في الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١١)

(سورة النور)

أى أن الجوارح التي كانت تطيع الكافر في المعاصي في الدنيا لا تطيعه يوم القيامة ، فاللسان الذي كان ينطق كلمة الكفر والعياذ بالله يأتي يوم القيامة يشهد على صاحبه . . والقدم التي كانت تمشي إلى أماكن الخمر واللغو والفسوق تشهد على صاحبا ، واليد التي كانت تقتل وتسرق تشهد على صاحبها . وقوله : « اضطره » معناه إن الإنسان يفقد اختياره في الآخرة ثم ينتهى إلى النار وإلى العذاب الشديد مصداقاً لقوله تعالى : « ثم اضطره إلى عذاب النار وبش المصير » . . أى أن الله سبحانه وتعالى يحذر الكافرين بأن لهم النار والعذاب في الآخرة ليس على اختيار منهم ولكن وهم مقهورون .



﴿وَإِذْ رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر عندما كان إبراهيم يرفع القواعد من البيت .. وجاءت « يرفع » هنا فعلا مضارعا لتصوير الحدث الآن وفي المستقبل .

ولكن هل يرفع إبراهيم القواعد من البيت الآن ؟ أم انه رفع وانتهى ؟ طبعاً هو رفع وانتهى ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يستحضر حالة إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت .. والله يريد من المؤمنين أن يتصوروا عملية الرفع ، فلم يكن إبراهيم يملك سلماً حتى يرفعه ويقف فوقه ، ولم يكن يملك « سفالة » .. ولكن غياب هذه النعم لم يمنع إبراهيم من أن يتحایل ويأتى بالحجر .

إن الله يريد منا ألا ننسى هذه العملية ، وإبراهيم وابنه إسماعيل يذهبان للبحث عن حجر ، ولا بد أن يكون الحجر خفيف الوزن ليستطيعا أن يحملاه إلى مكان البناء .. ثم يقف إبراهيم على الحجر وإسماعيل يناوله الأحجار الأخرى التي سيتم بها رفع القواعد من البيت . ورغم المشقة التي يتحملها الإثنين .. هما سعيدان .. وكل ما يطلبانه من الله هو أن يتقبل منهما . والقبول والمقابلة والاستقبال كلها من مادة مواجهة .. أى أنهما يسألان الله في موقف المعرض عن عمله ، إنهما لا يريدان إلا الثواب : « تقبل منا » أى اعطنا الثواب عما نعمله لأجلك وتنفذا لأمرك .

وقوله تعالى : « إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .. أى أنت يارب السميع الذي تسمع دعاءنا وتسمع ما نقول .. « والعليم » .. العليم يتقنا ومدى إخلاصنا

لك . . وإنا نفعل هذا العمل ابتغاء لوجهك ولا نقصد غيرك . . ذلك أن الأعمال بالنيات ، وقد يعمل رجلان عملاً واحداً أحدهما يثاب لأنه يعمل لإرضاء الله وتقرباً منه والآخر لا يثاب لأنه يفعله من أجل الدنيا .

والله سبحانه وتعالى علیم بالنية فإن كان العمل خالصاً لله تقبله ، وإذا لم يكن خالصاً لوجهه لا يتقبله . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينجسها فهجرته إلى ما هاجر إليه)^(١) . إذن فالعمل إن لم يكن خالصاً لله فلا ثواب عليه .



(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأبو نعيم في الحلية والدارقطني بإسناد مختلف .

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ
وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

هناك فرق بين أن تُكَلَّفَ بشيء فتفعله بحب ، وأن تفعل شكلية التكليف وتخرج من عملك خروج الذي ألقى عن كاهله عبء التكليف . . في هذه الآية الكريمة دعاء إبراهيم وابنه إسمائيل وكانا يقولان يا رب أنت أمرتنا أن نرفع القواعد من البيت وقد فعلنا ما أمرتنا . . وليس معنى ذلك أننا اكتفينا بتكليفك لنا لأننا نريد أن ندقق حلالة التكليف منك مرات ومرات . . « ربنا واجعلنا مسلمين لك » نسلم كل أمورنا إليك .

إن الإنسان لا يمكن أن ينتهي من تكليف ليطلب تكليفا غيره إلا إذا كان قد عشق حلالة التكليف ووجد فيه استمتاعا . . ولا يجد الإنسان استمتاعا في التكليف إلا إذا استحضر الجزاء عليه . . كلما عمل شيئا استحضر النعيم الذي ينتظره على هذا العمل فطلب المزيد .

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بمجرد أن فرغا من رفع القواعد من البيت قالوا : « ربنا واجعلنا مسلمين لك » ولم يكتفيا بذلك بل أرادا امتداد حلالة التكليف إلى ذريتهما من بعدهما . . فيقولان : « وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً » . . ليتصل أمد منيح الله في الأرض ويستمر التكليف من ذرية إلى ذرية إلى يوم القيامة . . ثم يقولان : « وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا » . . أي بين لنا يا رب ما نريده منا . بين لنا كيف نعبدك وكيف نتقرب إليك . . والمناسك هي الأمور التي يريد الله سبحانه وتعالى أن نعبده بها .

وقوله : « وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا » ترونا أن إبراهيم يرغب في فتح أبواب التكليف على

نفسه ، لأنه لا يرى في كل تكليف إلا تطهيراً للنفس وخيراً للذرية ونعيماً في الآخرة .. ولذلك يقول كما يروى لنا الحق : « وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » .. وتب علينا ليس ضرورياً أن نفهمها على أنها توبة من المعصية .. وأن إبراهيم وإسماعيل وقعا في المعصية فبريدان التوبة إلى الله .. وإنما لأنها علياً أن من سيأتى بعدهما سيقع في الذنب فطلباً للتوبة لذريتهما .. ومن أين علياً ؟ عندما قال الله سبحانه وتعالى لإبراهيم : « ومن كفر فأمته قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » ..

لقد طلباً من الله تبارك وتعالى التوبة والرحمة لذريتهما .. والله يحب التوبة من عباده وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده المؤمن من احداكم وقع على بعيره وقد أضله في فلاة .. لأن المعصية عندما تأخذ الإنسان من منبج الله لتعطيه نفعاً عاجلاً فإن حلاوة الإيمان - إن كان مؤمناً - ستجذبه مرة أخرى إلى الإيمان بعيداً عن المعاصي .. ولذلك قيل إن انتفعت بالتوبة وتدمت على ما فعلت فإن الله لا يغفر لك ذنوبك فقط ولكن يبدل سيئاتك حسنات .. وقلنا إن تشريع التوبة كان وقاية للمجتمع كله من أذى وشر كبير .. لأنه لو كان الذنب الواحد يجعلك خالداً في النار ولا توبة بعده لتجبر العصاة وازدادوا شراً .. ولأصيب المجتمع كله بشروهم ولَيُسْئِلَ الناس من آخرتهم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(كل بقى آدم خطاء وغير الخطائين التوابون)^(١) .

لذلك فمن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة لبرحمتنا من شرامة الأذى والمعصية .



(١) أخرجه الترمذى وابن ماجه والدارمى في سننه والحاكم في مستدركه .

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣٦﴾

دعا إبراهيم عليه السلام الله سبحانه وتعالى ليتم نعمته على ذريته ويزيد رحته على عباده .. بأن يرسل لهم رسولا يبلغهم منج الساء حتى لا تحدث فترة ظلام في الأرض تنتشر فيها المعصية والفساد والكفر ويعد الناس فيها الأضنام كما حدث قبل إبراهيم .

كلمة «رسولا منهم» ترد على اليهود الذين أحزنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من العرب ، وأن الرسالة كان يجب أن تكون فيهم .. ونحن نقول لهم ان جدنا وجدكم إبراهيم وأنتم من ذرية يعقوب بن اسحق وعهد صل الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وأخ لإسحاق .. ولا حجة لما تدعونه من أن الله فضلكم واختاركم على سائر الشعوب .. إنما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يسلب منكم النبوة لأنكم ظلمتم في الأرض وعهد الله لا يناله الظالمون .

أراد الحق تبارك وتعالى أن يقول لهم ان هذا النبي من نسل إبراهيم وأنه ينتمى إلى إسماعيل بن إبراهيم عليها السلام .

قوله تعالى : « يتلو عليهم آياتك » .. أى آيات القرآن الكريم .

وقوله تعالى : « ويعلمهم الكتاب والحكمة » .. يجب أن نعرف أن هناك فرقا بين التلاوة وبين التعليم . فالتلاوة هي أن تقرأ القرآن ، أما التعليم فهو أن تعرف معناها وما جاءت به لتطبقه وتعرف من أين جاءت .. وإذا كان الكتاب هو القرآن الكريم

فإن الحكمة هي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي قال الحق سبحانه وتعالى فيها في خطابه لزوجات النبی :

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَشْنِئُ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ أَبْنَتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الأحزاب)

وقوله تعالى : « ويزكهم » أى ويطهرهم ويقودهم إلى طريق الخير وقام الإيمان .

وقوله جل جلاله : « إنك أنت العزيز الحكيم » . . أى العزيز الذى لا يقلب لغيره ولا يسأله أحد . . « والحكيم » الذى لا يصدر منه شيء إلا بحكمة بالغة .



﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ
اصْطَقَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٦)

مسألة إبراهيم ؟ إنها عبادة الله وحده لا شريك له وعشق التكليف ؛
فإبراهيم وثق كل ما كلفه به الله وزاد عليه . . وقابل الابتلاء بالطاعة والصبر . .
فعلما ابتلاء الله ببلع ابنه الوحيد لم يتردد وكان يؤدي التكليف بعشق ومحاوّل أن
يستقي المنهج السليم في ذريته .

قوله تعالى : « ومن يرغب » يعني يعرض ويرفض . ويقال يرغب في كذا أي أحبه
وأراده . ورغب عن كذا أي صد عنه وأعرض . . والذين يصدّون عن ملة إبراهيم
ويرفضونها هؤلاء هم السفهاء الجاهلة ، لذلك قال عنهم الله سبحانه وتعالى :
« إلا من سفه نفسه » . . دليل على ضعف الرأي وعدم التفرقة بين النافع والضار . .
فعلما يكون هناك من ورثوا مالا وهم غير ناضجين العقل لا يتفق عقولهم مع منهم
نسيمهم السفهاء . . والسفيه هو من لم ينضج رأيه ولذلك تنقل قوامته على ماله إلى
ولى أو وصى ؛ لأنه يسفه غير قادر على أن يتفق المال فيما ينفع . .

والقرآن الكريم يعالج هذه المسألة علاجاً دقيقاً فيقول :

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْسُّفَهَاءَ أَمْ لَكُمْ بِأَلْسِنَتِكُمْ أَهْلٌ لَكُمْ فَتَتَّبِعُونَهُمْ بِأَعْيُنِكُمْ وَأَسْمِعُوهُمْ قَوْلًا
لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (١٦)

نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى سمي أموال السفهاء بأموال الولي ولم يعتبرها مال السفه لأنه ليس أهلا للقيام عليها .. وجعل هذه الأموال تحت إشراف شخص آخر أكثر نضجا وحكمة .

وقوله تعالى : « أموالكم » ليكون الولي أو الوصي حريصا عليها كماله أو أكثر ولكن هو قيم فقط .. فإذا بلغ الإنسان سن الرشد أو شفى السفه من سفاهته يرد إليه ماله ليتصرف فيه .

ونحن نرى عددا من الأبناء يرفعون قضايا على آبائهم وأمهاتهم يتهمونهم فيها بالسفه لأنهم لا يحسنون التصرف في أموالهم .. ثم يأخذون هذه الأموال ويبيعونها هم .. والذي يجب أن يعلمه كل من يقوم بهذه العملية أنه لا حق له في إنفاق المال وتبذيره لحسابه الخاص ، ولكن هناك حكمين : إما أن يكون الشخص فقيرا فله أن يأكل بالمعروف .. وإما أن يكون غنيا فيجعل عمله في الولاية لله لا يتقاضى عنه شيئا .. أما أن يأخذ المال ويبيعه على نفسه وشهوته وعلى زوجته وأولاده فهذا مفروض ومحاسب عليه .. والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعِفٍّ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إذن الذي يعرض عن ملة إبراهيم هو سفيه لا يملك عقلا يميز بين الضار والنافع .

ويقول الله سبحانه وتعالى : « ولقد اصطفيناك في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين » .. اصطفاه في الدنيا بالنبج وبأن جعله إماما وبالإبلاء .. وكثير من الناس يظن أن ارتفاع مقامات بعضهم في أمور الدنيا هو اصطفاه من الله لهم بأن أعطاهم زخرف الحياة الدنيا ويكون هذا مبررا لأن يعتقدوا أن لهم منزلة عالية في الآخرة .. نقول لا ، فمنازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة . ولذلك قال الله تبارك وتعالى : « ولقد اصطفيناك في الدنيا » .. وأضاف : « وإنه في الآخرة لمن الصالحين » .. لتعلم أن إبراهيم عليه السلام له منزلة عالية في الدنيا ونعيم في الآخرة أي الاثنين معا .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ ۖ قَالَ أَسْلَمْتَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه قال لإبراهيم أسلم فقال أسلمت . . إذن فمطلوب الحق سبحانه وتعالى من عبده أن يسلم إليه . . ولم يقل الحق أسلم إلى لأنها مفهومة . ولم يقل أسلم لربك لأن الإسلام لا يكون إلا لله . لأنه هو سبحانه المأمون علينا . . على أن إبراهيم عليه السلام قال في رده : « أسلمت لرب العالمين » .

ومعنى ذلك أنه لن يكون وحده في الكون . لأنه إذا أسلم لله الذي سخر له ما في السموات والأرض . . يكون قد انسجم مع الكون المخلوق من الله للإنسان . . ومن أكثر تضجعا في العقل عن يسلم وجهه لله سبحانه . . لأنه يكون بذلك قد أسلمه إلى عزيز حكيم قوى لا يقهر ، قادر لا تنتهى قدرته . . غالب لا يغلب ، رزاق لا يأتى الرزق إلا منه . فكانه أسلم وجهه للخير كله .

والذين عند الله سبحانه وتعالى منذ عهد آدم إلى يوم القيامة هو إسلام الوجه لله ، ولماذا الوجه ؟ لأن الوجه أشرف شيء في الإنسان يعتر به ويعتبره سمة من سمات كرامته وعزته . . ولذلك فنحن حين نريد منتهى الخضوع لله في الصلاة نضع جباهنا ووجوهنا على الأرض . . وهذا منتهى الخشوع والخضوع أن نضع أشرف ما فيك وهو وجهك على الأرض إعلانا لخضوعك لله سبحانه وتعالى .

والله جل جلاله يريد من الإنسان أن يسلم قيادته لله . . بأن يجعل اختياراته في الدنيا لما يريد الله تبارك وتعالى . . فإذا تحدث لا يكذب ، لأن الله يحب الصدق ،

وإذا كلف بشيء بفعله لأن التكليف في صالحنا ولا يستفيد الله منه شيئا . . وإذا قال الله تعالى تصدق بمالك أسرع تصدق بماله ليرد له أضعافا مضاعفة في الآخرة ويقدره الله .

وهكذا نرى أن الخير كله للإنسان هو أن يجعل مراداته في الحياة الدنيا طبقا لما أَرادَه الله . . وفي هذه الحالة يكون قد انسجم مع الكون كله ونحمد أن الكون يخدمه ويعطيه وهو سعيد .

أما من يسلم وجهه لغير الله فقد اعتمد على قوى يمكن أن يضعف ، وعلى غنى يمكن أن يفترق . . وعلى موجود يمكن أن يموت ويصبح لا وجود له . ولذلك فهو في هذه الحالة يتصرف بالسفاهة لأنه اعتمد على الضار وترك النافع .



﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٢٢)

عندما نقرأ كلمة وصى فاعلم أن الوصية تأتي لحمل الإنسان على شيء نافع في آخر وقت لك في الدنيا . . لأن آخر ساعات الإنسان في الدنيا إن كان قد عاش فيها يعيش الناس جميعا فساعة يختصر لا يعيش نفسه أبدا ولا يعيش أحدا من الناس لماذا ؟ لأنه يحس إنه مقبل على الله سبحانه فيقول كلمة الحق .

النصح أو الوصية هي عظة تحب أن يستمك بها من تنصحه وتقولها له خلاصا في آخر لحظة من لحظات حياته . . ولذلك سيأتي الله سبحانه وتعالى ليبين لنا ذلك في قوله :

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾

(من الآية ١٢٣ سورة البقرة)

وهكذا يريد الله سبحانه أن يبين لنا أن الوصية دائما تكون لمن تحب . . وأن حب الإنسان لأولاده أكيد سواء أكان هذا الإنسان مؤمنا أم كافرا . . ونحن لا نتمنى أن يكون في الدنيا من هو أحسن منا إلا أبنائنا ونعمل على ذلك ليكون لهم الخير كله .

وصى إبراهيم بنيه، ويعقوب وصى بنيه . . وكانت الوصية « يا بني إن الله اصطفى لكم الدين » إذن فالوصية لم تكن أمرا من عند إبراهيم ولا أمرا من عند يعقوب، ولكن كانت أمرا اختاره الله للناس فلم يجد إبراهيم ولا يعقوب أن يوصيا

أولادهما إلا بما اختاره الله .. فكان إبراهيم اتّمن الله على نفسه فنذ التكليف واتّمنه على أولاده فأراد منهم أن يتمسكوا بما اختاره لهم الله .

قوله تعالى : « ووصى بها إبراهيم بنه ويعقوب » .. إبراهيم هو الأب الكبير وابنه اسحق وابن اسحق يعقوب .. ويعقوب هو الأب المباشر لليهود .. ويعقوب وصاهم كما يروى لنا القرآن الكريم : « يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .

أنت لا تنهى إنسانا عن أمر إلا إذا كان في إمكانه أن يتجنبه ولا تأمره به إلا إذا كان في إمكانه أن ينفذه .. فهل يملك أولاد يعقوب أن يموتوا وهم مسلمون ؟ والموت لا يملكه أحد .. إنه يأتي في أي وقت فجأة .. ولكن مادام يعقوب قد وصى بنه : « لا تموتن إلا وأنتم مسلمون » فالعنى لا تفارقوا الإسلام لحظة حتى لا يفاجئكم الموت إلا وأنتم مسلمون .

والله سبحانه وتعالى أخفى موعد الموت ومكانه وصيه .. ليكون هذا إعلاما به ويتوقعه الناس في أي سن وفي أي مكان وفي أي زمان .. ولذلك قد نلتبس العافية في أشياء يكون الموت فيها .. والشاعر يقول :

إن نام عنك فكل طب نافع
أو لم ينم فسلطب من أسبابه

أي إن لم يكن قد جاء الأجل ، فالطب ينفعك ويكون من أسباب الشفاء .. أما إذا جاء الأجل فيكون الطب سببا في الموت ، كأن تذهب لإجراء عملية جراحية فتكون سبب موتك .. فالإنسان لا يد أن يتمسك بالإسلام وبالمنهج ولا يففل عنه أبدا .. حتى لا يأتيه الموت في غفلته فيموت غير مسلم .. والعياذ بالله .



﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ
لِإِسْمَاعِيلَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ
وَإِلَهَ آبَائِكَ وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا
وَجِدَادَ الَّذَيْنِ لَهُ، مُسْلِمُونَ﴾

هذا خطاب من يعقوب ينطبق ويمس اليهود المعاصرين لنزول القرآن الكريم ..
يعقوب قال لأبنائه ماذا تعبدون من بعدى : « قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم
وإسماعيل وإسحاق إلهنا واحدا ونحن له مسلمون » ..

هذا إقرار من الأسباط أبناء يعقوب بأنهم مسلمون وأن آباءهم مسلمون ..
وتأمل دقة الأداء القرآن في قوله تعالى : « نعبد إلهك وإله آبائك » .. فكانه لم يحدث
بعد موت إبراهيم وحين كان يعقوب يموت لم يحدث أن تغير المعبود وهو الله سبحانه
وتعالى الواحد .. ولذلك قالوا كما يروى لنا القرآن الكريم : « إلهنا واحدا » ..
وستأخذ من هذه الآية لفظة تفيدنا في أشياء كثيرة لأن القرآن سيتعرض في قصة
إبراهيم أنه تحدث مع أبيه في شئون العقيدة .. فقال كما يروى لنا القرآن الكريم :

﴿وإذ قال إبراهيمُ لأبيهَ أَزْرَأُ أَخِيذُ أَتُتْلَىٰ عَلَيْنَا الْهَيَاتُ إِنِّي أَنَا نَكَتُ فِي سَبَلِ
مُجْتَبِئٍ﴾

(سورة الانعام)

ونحن نعلم أن رسول الله صل الله عليه وسلم من سلالة إسماعيل
ابن إبراهيم .. والرسول عليه الصلاة والسلام قال :

(أنا سيد ولد آدم) (١).

فإذا كان آزر أبو إبراهيم كافراً وعابداً للأصنام .. فكيف تصح سلسلة النسب الشريف ؟ نقول إنه لو أن القرآن قال : « وإذ قال إبراهيم لأبيه » وسكت لكان المعنى أن المخاطب هو أبو إبراهيم .. ولكن قول الله : « لأبيه آزر » .. جاءت الحكمة . لأنه ساعة يذكر اسم الأب يكون ليس هو الأب ولكن العم .. فانت إذا دخلت منزلاً وقابلت أحد الأطفال تقول له هل أبوك موجود ولا تقول أبوك فلان لأنه معروف بحيث لن يخطئ الطفل فيه .. ولكن إذا كنت تقصد العم فإنت تسأل الطفل هل أبوك فلان موجود ؟ فانت في هذه الحالة تقصد العم ولا تقصد الأب .. لأن العم في منزلة الأب خصوصاً إذا كان الأب متوفياً .

إذن قول الحق سبحانه وتعالى : « لأبيه آزر » بذكر الاسم فمعناه لعمه آزر .. فإذا قال إنسان هل هناك دليل على ذلك ؟ نقول نعم هناك دليل من القرآن في هذه الآية الكريمة : « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك » .. والآباء جمع أب ، ثم حدد الله تبارك وتعالى الآباء ، إبراهيم وهو الجد يطلق عليه أب .. وإسماعيل وهو العم يطلق عليه أب واسحق وهو أبو يعقوب وجاء إسماعيل قبل إسحق .

إذن ففي هذه الآية جمع أب من ثلاثة هم إبراهيم وإسماعيل وإسحق .. ويعقوب الذي حضره الموت هو ابن إسحق ، ولكن أولاد يعقوب لما خاطبوا آباهم قالوا آبائك ثم جاءوا بأسمائهم بالتحديد .. وهم إبراهيم الجد وإسماعيل العم وإسحق . ويعقوب وأطلقوا عليهم جميعاً لقب الأب .. فكان إسماعيل أطلق عليه الأب وهو العم وإبراهيم أطلق عليه الأب وهو الجد وإسحق أطلق عليه الأب وهو الأب .. فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(أنا أشرف الناس حباً ولا فخر) (٢) .

(١) أخرجه الإمام مسلم .

(٢) أخرجه الديلمى في مسند القردوس .

يقول بعض الناس كيف ذلك ووالد إبراهيم كان غير مسلم . . ورسول الله صل الله عليه وسلم قال :

(أنا سيد ولد آدم) (١) .

فإذا قال أحدهم كيف هذا وأبو إبراهيم عليه السلام كان مشركا عابدا للأصنام . . نقول له لم يكن آزر أباً لإبراهيم وإنما كان عمه ، ولذلك قال القرآن الكريم « لأبيه آزر » وجاء بالاسم يريد به الأيوة غير الحقيقية . . فأبوة إبراهيم وأبوة إسحق معلومة لأولاد يعقوب . . ولكن إسماعيل كان مقيماً في مكة بعيداً عنهم ، فلماذا جاء اسمه بين إبراهيم وإسحق ؟ نقول جاء بالترتيب الزمني لأن إسماعيل أكبر من إسحق بأربعة عشر عاماً . .

وكونه وصف الثلاثة بأنهم آباء . . إشارة لنا من الله سبحانه وتعالى أن لفظ الأب يطلق على العم . .

والله تبارك وتعالى يريدنا أن نتبه لمعنى كلمة آزر . . ويريد أن يلفتنا أيضاً إلى أن تعدد البلاغ عن الله لا يعنى تعدد الآلة . . لذلك قال سبحانه : « وإله واحد » . .



﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ
مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْشَئُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

وقوله تعالى : « خلت » أى انقضت . وخلا فلان بفلان أى انقضى به . . وخلا
المكان من نزله أى أصبح المكان منفردا ، والنزيل منفردا ولا علاقة لأحدهما
بالآخر . . الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا خَلَاوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة البقرة)

أى إنفردوا هم وشياطينهم ولم يعد فى المكان غيرهم ، ولقد قلنا إن كل حدث
لا بد أن يكون له محدث ، ولا حدث يوجد بذاته ، وكل حدث يحتاج إلى زمان
ويحتاج إلى مكان . . فإذا قال الحق تبارك وتعالى : « تلك أمة قد خلت » فمعناه إنه
انقضى زمانها وإنقضى عن زمانكم

والمقصود بقوله تعالى : « تلك أمة قد خلت » أى انتهى زمانها . . وتلك إسم
إشارة لمؤثر غاطب وأمة هى المشار إليه والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولعامة
المسلمين . . والله سبحانه وتعالى حين يقول : « تلك أمة » فكأنها مميزة بوحدة
عقيدتها ووحدة إيمانها حتى أصبحت شيئا واحدا . . ولذلك لا بد أن يخطبها
بالوحدة . . وإقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّةُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾

(سورة التوبة)

وتلك هنا إشارة لأمة إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب . . هم جماعة كثيرة لهم عقيدة واحدة .

وقوله تعالى : « ما كسبت ولكم ما كسبتم » .. أى تلك جماعة على دين واحد تناسب عما فعلته كما ستحاسبون أنتم على ما فعلتم .. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾

(من الآية ١٣٠ سورة النحل)

وإبراهيم فرد وليس جماعة ؟ نقول نعم إن إبراهيم فرد ولكن اجتمعت فيه من خصال الخير ومواهب الكمال ما لا يجتمع إلا في أمة .

وقوله تعالى : « قد خلت » يراد بها إقحام اليهود ألا ينسبوا أنفسهم إلى إبراهيم نسبا كاذبا لأن نسب الأنبياء ليس نسا دمويا أو جنسيا أو انتسابا .. وإنما نسب منهج واتباع .. فكان الحق يقول لليهود لن تضعكم أن تكونوا من سلالة إبراهيم ولا اسحق ولا يعقوب .. لأن نسب النبوة هو نسب إيمان فيه اتباع للمنهج والعقيدة .. ولا يشفع هذا النسب يوم القيامة لأن لكل واحد عمله .

قوله تعالى : « ولما ما كسبت ولكم ما كسبتم » .. الكسب يؤخذ على الخير والاكساب يؤخذ في الشر لأن الشر فيه افعال .

إننا لا بد أن نلتفت وننتبه إلى آيات القرآن الكريم حتى نستطيع أن نرد على أولئك الذين يحاولون الطعن في القرآن . . فلا يوجد معنى لأية تهدمها آية أخرى ولكن يوجد عدم فهم .

يأتى بعض المستشرقين ليقول هناك آية في القرآن تؤكد أن الله سبحانه وتعالى يعطي بالإنسانه وذلك في قوله جل جلاله :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ

عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴿٦٠﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

الأبناء مؤمنون ، وقوله تعالى : « أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » كلمة أَلْحَقْنَا تأتي عندما تلحق ناقصا بكامل .. فإذا كان الاثنان مؤمنين فكأنك تزيد درجة الأبناء إكراما لأبائهم المؤمنين .. نقول إن الإيمان شيء والعمل بمقتضى الإيمان شيء آخر .. الأب والذرية مؤمنون ولكن الآباء تفتأوا في العمل والأبناء ربما قصرُوا قليلا .. ولكن هنا رفع درجة بالنسبة للمؤمنين أى لا بد أن يكون الأب والذرية مؤمنين .. ولكن غير المؤمنين مبعدون ليس لهم علاقة بأبائهم انقطعت الصلة بينهم بسبب الإيمان والكفر .. فالآباء لهم أعمال حسنة كثيرة .. والأبناء لهم أعمال حسنة أقل .. ينزل الله الأبناء في الجنة مع آبائهم لأن الإيمان واحد .

وقوله تعالى : « وما آتاهم » أى أنقصناهم من عملهم من شيء .. إذن فالآباء والذرية مأخوذون بإيمانهم ، والله يفضلهم يلحق الأبناء بالآباء .

قوله تعالى : « لها ما كسبت ولكم ما كسبتم » .. هذه عملية الإيمان في العقيدة .. قد يقول البعض إن الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾

(من الآية ٢١ سورة الطور)

ويقول سبحانه :

﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾

(سورة النجم)

فكيف يأخذ الأبناء جزاء بدون سعى ؟ نقول افهموا التصور جيدا . قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » تحدد العدل ولكنها لا تحدد الفضل الذي يعطيه الله سبحانه لمن شاء من عباده ، وهذا يعطى بلا حساب .. ثم من الذى قال

إن هذا ليس من سعيهم ؟ إن إلحاق الأبناء المؤمنين بالمنزلة العالية لأبائهم تكريم لعمل الآباء وليس زيادة لعمل الآباء .

ولقد روى لنا العلماء أن ولدا كان مؤمنا طائعا عابدا وأبوه كان مسرفا حل نفسه .. فلما مات الأب حزن عليه ابنه ولكنه رأى أن آباءه جالس فوق رأسه ومعه واحدة من الحور العين تؤنس .. فتعجب الابن كيف ينال أبوه هذه المكافأة وقد كان مسرفا على نفسه فسأله : كيف وصلت لهذه المنزلة ؟ فقال الأب أي منزلة .. قال الابن أن تكون معك واحدة من الحور العين .. فقال الأب وهل فهمت أنها نعيم لي .. قال الابن نعم .. فقال الأب: لاء أنا عقوبة لها .. الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ ۖ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (١)

(سورة يونس)

إذن أنت في الآخرة ستفرح بفضل الله ورحمته أكثر من فرحك بعملك الصالح .. مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يُمْنِلَ الجنةَ أحداً عَمَلُهُ ، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتخلفن الله منه برحمته) (١) .

ربما يأتي أحد ويقول الصلاة على الميت ما هو القصد الشرعي منها .. إن كانت تفيده فستكون الفائدة زيادة على عمله .. وإن لم تكن تعطيه أكثر من عمله فما فائدتها ؟

تقول مادام الشرع كلّفنا بها فلها فائدة . وهل نظن أن الصلاة على الميت ليست من عمله ؟ هي داخلة في عمله لأنه مؤمن وإيمانه هو الذي دفعك للصلاة عليه .. والذي تدعوه بالخير وبالرحمة والمغفرة وتقبلها الله .. أيقال أنه أخذ غير عمله ؟ لاء إنك لم تدع له إلا بعد أن أصابك الخير منه .. ولكنك لا تدعو مثلا

لإنسان أخذ بيده إلى حمارة أو إلى فاحشة أو إلى منكر . . بل تدعوا لمن أعطاك خيرا
فإن استجاب الله لك فهو من عمله .

الله سبحانه وتعالى يقول إن ما كان يعمل من سبقكم من الأمم لا تسألون
عنه . . وإن كنتم تدعون أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا نقل لكم أنتم لن تسألوا
عما كان يعمل إبراهيم ولكن عليكم أنفسكم . . السؤال يكون عن عملكم .



﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ

مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

عندما تأتي - قالوا - فمعناها إن الذين قالوا جماعة .. الذين قالوا هم اليهود والنصارى.. ولكن كلا منهم قال قولاً مختلفاً عن الآخر .. قالت اليهود كونوا هودا.. وقالت النصارى كونوا نصارى ..

ونحن عندنا عناصر ثلاثة : اليهود والنصارى والمشركون. ويقابل كل هؤلاء المؤمنين .. « وقالوا كونوا » من المقصود بالخطاب ؟ المؤمنين .. أو قد يكون المعنى وقالت اليهود للمؤمنين والمشركين والنصارى كونوا هودا .. وقالت النصارى لليهود والمشركين والمؤمنين كونوا نصارى .. لأن كل واحد منها لا يرى الخير إلا في نفسه .. ولكن الإسلام جاء وأخذ من اليهودية موسى وتوراته الصحيحة، وأخذ من المسيحية عيسى وإنجيله الصحيح .. وكل ما جاء به محمد صل الله عليه وسلم .

ومعنى ذلك أن الإسلام أخذ وحدة الصفقة الإيمانية المعقودة بين الله سبحانه وبين كل مؤمن .. ولذلك تجد في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿لَا تَفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ﴾

(من الآية ٢٨٥ سورة البقرة)

ونلاحظ أن المشركين لم يدخلوا في القول لأنهم ليسوا أهل كتاب .

قوله تعالى : « بل ملة إبراهيم حنيفا » .. أى رد عليهم ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأننى سأكون تابعا لدين إبراهيم وهو الحنيفة .. وهم لا يمكن أن يخالفوا فى إبراهيم فاليهود اعتبروه نبيا من أنبيائهم .. والنصارى اعتبروه نبيا من أنبيائهم ولم يغفوا عنه النبوة ولكن كلاً منهم أراد أن ينسبه لنفسه .

ما معنى حنيفا ؟ إن الاشتقاقات اللفظية لا بد أن يكون لها علاقة بالمعنى اللغوى .. الحنف ميل فى القدمين أن تميل قدم إلى أخرى .. هو تقوس فى القدمين فتميل القدم اليمنى إلى اليسار أو اليسرى إلى اليمين هذا هو الحنف .. ولكن كيف يؤق بلفظ يدل على العوج ويجعله رمزا للصرط المستقيم ؟

لقد قلنا إن الرسل لا يأتون إلا عندما تعم الغفلة منيح الله .. لأنه مادام وجد من اتباع الرسول من يدعو إلى منهجه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يكون هناك خير .

النفس البشرية لها ألوان .. فهناك النفس اللوامة تصنع شرا مرة فبأن من داخل النفس ما يستنكر هذا الشر فتعود إلى الخير .. ولكن هناك النفس الأمارة بالسوء وهى التى لا تعيش إلا فى الشر تأمر به وتغرى الآخرين بفعله .. إذا فسد المجتمع وأصبحت النفوس أماراة بالسوء ينطبق عليها قول الحق سبحانه :

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة المائدة)

تدخل الساء برسول يعالج اعوجاج المجتمع .. ولكن الله تبارك وتعالى وضع عنصر الحرية فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة .

قال تعالى :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فقد اثنى الله تبارك وتعالى أمة محمد على المنهج .. ومادام فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فلن يأتي رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

نعود إلى قوله تعالى حنيفاً .. قلنا إن الحنف هو الاعوجاج .. ونقول إن الاعوجاج عن المعوج اعتدال .. والرسول لا يأتون إلا بعد اعوجاج كامل في المجتمع .. ليصرفوا الناس عن الاعوجاج القائم فيميلون إلى الاعتدال .. لأن مخالفة الاعوجاج اعتدال ..

وقوله تعالى : « حنيفاً » تذكرنا بنعمة الله على الوجود كله لأنه يصحح غفلة البشر عن منهج الله ويأخذ الناس من الاعوجاج الموجود إلى الاعتدال .. والهداية عند اليهود والنصارى مفهومها تحقيق شهوات نفوسهم لأن بشراً يهذى بشراً .. والله سبحانه وتعالى قال :

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة البقرة)

ولقد تعايش رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة مع اليهود ولكنهم حاربوه ولم يرضوا عنه .. وإبراهيم عليه السلام كان مؤمناً حقاً ولم يكن مشركاً ..



﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَّاءَ إِبْرَاهِيمَ
وِإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى
وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

هذه الآية الكريمة تعطينا تفسيراً لقوله تعالى : « ملة إبراهيم » . . إيمان بالله وحده لا شريك له . . إيمان بما أنزل إلينا وهو القرآن وما أنزل لإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى أى التوراة وما أوتى عيسى أى الإنجيل وما أوتى النبيون بالإجمال . . فالبلاغ الصحيح عن الله منذ عهد آدم حتى الآن هو وحدة العقيدة بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . ووحدة الكون بأن الله هو الخالق وهو المدير وكل شيء يخرج عن الألوهية لله الواحد الأحد . . وأن كل شيء يخرج عن ذلك يكون من تحريف الديانات السابقة هو افتراء على الله سبحانه لا نفيه .

قوله تعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا » وهو القرآن الكريم . ولا يمكن أن يعطف عليه ما يصطدم معه . . ولذلك فإن ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط هذه ملة إبراهيم . . وهذا يؤكد لنا أن ملة إبراهيم من وحى الله إليه . . والرسالات كلها كما قلنا تدعو لعبادة الله الواحد الأحد الذى لا شريك له .

وقوله تعالى : « ونحن له مسلمون » . . أى إن إبراهيم كان مسلماً وكل الأنبياء كانوا مسلمين وكل ما يخالف ذلك من صنع البشر . . ومعنى الإسلام أن هناك مسلماً ومسلماً إليه وهو الله عز وجل . ونحن نسلم له فى العبودية - سبحانه - وفى اتباع

منهجه . . والإنسان لا يسلم وجهه إلا لمن هو أقدر منه وأعلم منه وأقوى منه ولن لا هوى له . . فإن تشككت في أحد العناصر فإسلامك ليس حقيقة وإنما تخيل . . وأنت لا تسلم زمامك لله سبحانه وتعالى إلا وأنت متأكد أن قدراته سبحانه فوق قدرات المخلوقين جميعا ، وأنه سبحانه غنى عن العالمين ، ولذلك فإنه غير محتاج إلى ما في يدك بل هو يعطيك جل جلاله من الخير والنعم ولا يوجد إلا الوجود الأعلى لتسلم وجهك له .



﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا
وَأِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ
اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

تقول إن السؤال الذي يطرح نفسه بالنسبة لهذه الآية .. هل لما آمننا به مثل حتى يؤمنوا به ؟ إنك لكي تؤمن لا بد أن تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله .. فهل إذا قالها أحد بعدك يكون قال ما قلته أم مثل ما قلته ؟ يكون قال مثل ما قلت. أي إنني حين أعلن إيماني وأخذ الشهادة التي قلتها أنت أكون قد قلت مثلها لأن ما نطقته به لا يفارقك أنت .. ولكني إذا صنعت شيئا وقلت لغيري أصنع مثله، هو سيصنع شيئا جديدا ولن يصنع ما صنعته أنا .

الشيء نفسه حين تقول لي : تصدق بمثل ما تصدق به فلان . لن تكون الصدقة هي المال نفسه بل تكون مثله . نقول لمن يردد هذا الكلام : إنك لم تفهم المعنى إيمانهم أن يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله وإيمان غيرهم أن يقولوا مثل هذه العبارة أي أن يعلنوا إيمانهم مثلنا بالله ورسوله .. فالمثل هنا يرتبط بالشهادة وكل من آمن بالإسلام نطق بالشهادتين مثل من سبقوه في الإيمان . فالمثلية هنا في العبارة وإيمانهم هو أن يقولوا مثل ما قلنا .

يقول الحق تبارك وتعالى : « فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا » أي اهتدوا إلى الحق .. « وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ » وتولوا يعني أعرضوا . وشقاق يعني خلافا معكم وخلافا مع بعضهم البعض ؛ فلكل منهم وجهة نظر يدعيها، وهذا بداية اختراعها .. حتى إذا اتفقا في الكفر فلن يلتقوا في أسباب الكفر كل واحد اتخذ سببا ولذلك اختلفوا .. والشقاق من المشقة والتزاع والمشاجرة ، والشق هو الفرقة بين شيئين .

وقوله تعالى : « فسيفكيهم الله » أى لا تلتفت إلى معاركهم ولا إلى حوارهم فانه ينفك بك كل الوسائل عن سواه وإقرأ قوله سبحانه :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

مِنْ هَادٍ ﴿٥٨﴾

(سورة الزمر)

الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم إذا حاول اليهود والنصارى والمنافقون أن يكدوا لك ويؤذوك والمؤمنين ، فإله سبحانه وتعالى ينفك لك لأنه عليم سميع بصير لا يخفى عليه شيء . . . ولقد حاول اليهود قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة وحاولوا إيذامه بالسحر فأبطل الله كيدهم وأظهر ما خفى منه وأطلع رسوله عليه . . فمهما استخدموا من وسائل ظاهرة أو خفية فسيفك الله شرها ولذلك قال تعالى : « فسيفكيهم الله وهو السميع العليم » . . أى سميع بما يقال ، عليم بما يدبرونه . بل يعلم ما فى صدورهم قبل أن ينطقوا به . . فلا تعتقد أن شيئا يفوت على الله سبحانه أو يفوت منه . إن كل حركة قبل أن تحدث يعلمها سبحانه ، وكل كيد قبل أن يتم هو محبب . فإذا كان الله سبحانه وتعالى معك فماذا تخشى ؟ ومن تخاف ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يصل إليك ؟ . وأنت معك غالت هذا الكون ومدبره الذى لا يخفى عليه شيء فى السموات ولا فى الأرض . . عليم بكل ما سيحدث حتى يوم القيامة وبعد يوم القيامة . . ومادام معك القوى الذى لا يضعف أبدا والذى لا يموت أبدا والعليم بكل شيء فلا تخش أحدا لأنك فى أمان الله سبحانه .



وَصِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً
وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴿١٧٨﴾

ما هي الصبغة ؟ الصبغة هي إدخال لون على شيء بحيث يغيره بلون آخر . .
تصبغ الشيء أحمر أو أزرق أو أى لون تختاره . والصبغ ينفذ في المصبوغ خاصة إذا
كان المصبوغ له شعيرات مسام كالقطن أو الصوف . . ولذلك فإن الألياف الصناعية
لا يمكن أن تصبغ لماذا ؟ لأن شعرة القطن أو الصوف أشبه بالأنبوبة في تركيبها .

وإذا جئنا بتعديل من الزيت ووضعنا فيه فتيلة من القطن بحيث يكون رأس
الفتيل في الزيت ثم تشعله من أعلاه نجد أن الزيت يسرى في الأنابيب ويشعل
الفتيل . . فإذا جربنا هذا في الألياف الصناعية فلا يمكن أن يسرى فيها الزيت وإنما
النار تأكل الألياف لأنه ليس فيها أنابيب شعرية كالقطن والصوف . . ولذلك نجد
الألياف الصناعية سهلة في الغسيل لأن العرق لا يدخل في مسامها بينما الملابس
القطنية تحتاج لجهد كبير لأن مسامها مشبعة بالعرق والتراب .

إذن الصبغة لابد أن تتدخل مادتها في مسام القماش . . أما الطلاء فهو مختلف .
إنه طبقة خارجية تستطيع أن تزيئها . . ولذلك فإن الذين يفتون في طلاء الأظافر
بالنسبة للسيدات ويقولون إنه مثل الحناء نقول لهم لا . . الحناء صبغة تتخلل المادة
الحية وتبقى حتى يذهب الجلد بها أى لا تستطيع أن تزيئها عندما تريد . . ولكن
الطلاء يمكن أن تزيئه في أى وقت ولوبعد إتمامه بلحظت . . إذن فطلاء الأظافر
ليس صبغة .

قوله سبحانه : « صبغة الله » فكان الإيمان بالله وملة إبراهيم وما أنزل الله على

رسله هي الصبغة الإلهية التي تتغلغل في الجسد البشري .. ولماذا كلمة صبغة ؟ حتى نعرف أن الإيمان يتخلل جسدك كله .. إنه ليس صبغة من خارج جسمك ولكنها صبغة جعلها الله في خلايا القلب موجودة فيه ساعة الخلق .. ولذلك فإن رسول الله صل الله عليه وسلم يقول :

(كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)^(١) .

فكان الإيمان صبغة موجودة بالفطرة .. إنها صبغة الله .. فإن كان أبواه مسلمين ظل على الفطرة. وإن كان أبواه من اليهود أو النصارى يهودانه أو ينصرانه أى يأخذانه ويضعانه في ماء ويقولون صبغناه بماء المعمودية .. هذا هو معنى صبغة الله .

ويريد الحق سبحانه أن يبين لنا ذلك بأن يجعل من آيات قدرته اختلاف ألواننا .. هذا الاختلاف في اللون من صبغة الله .. اختلاف ألوان البشر ليس ظلام وإلما في ذات التكوين . فيكون هذا أبيض وهذا أسمر وهذا أصفر وهذا أحمر ، هذه هي صبغة الله .. وما يفعلونه من تعمد للطفل لا يعطى صبغة. لأن الإيمان والدين لا يأتي من خارج الإنسان وإنما يأتي من داخله .. ولذلك فإن الإيمان يزر كل أعضاء الجسد البشري. واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشِرُ عَنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِنَّ ذِكْرَ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِهٖ مَن يَشَآءُ وَنَّ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن حَافٍ ۝٦٧﴾

(سورة الزمر)

هذا هو التأثير الذي يضعه الله في القلوب .. أمر داخل وليس خارجيا .. أما إيمان غير المسلمين فهو ظلام خارجي وليس صبغة لأنهم تركوا صبغة الله .. ونقول لهم : لا هذا الظلام من عندهم أنتم ، أما ديننا فهو صبغة الله ..

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والطبراني في الكبير والبيهقي في سننه .

وقوله تعالى : « ومن أحسن من الله صبغة » . . استفهام لا يمكن أن يكذبه
ولكن الجواب يأتي عل وفق ما يريده السائل سبحانه من أنه لا يوجد من هو أحسن
من الله صبغة .

وقوله تعالى : « ونحن له عابدون » أى مطيعون لأوامره والعابد هو من يطيع أوامر
الله ويحسب ما بهى عنه .

والأوامر داتها تأتي بأمر فيه مشقة يطلب منك أن تفعله والنهى يأتي عن أمر محيب
إلى نفسك هناك مشقة أن تتركه . . ذلك ان الإنسان يريد النفع العاجل ، النفع
السطحي ، والله سبحانه وتعالى يوجهنا إلى النفع الحقيقي . . النفع العاجل يعطيك
لذة عاجلة ويمنعك نعيمها داتها في الآخرة وتمتعاً بقدرات الله سبحانه وتعالى . .

وانت حين تسمح المؤذن ولا تقوم للصلاة لأنها ثقيلة على نفسك قد أعطيت نفسك
لذة عاجلة كان تشغل نفسك بالحديث مع شخص أو بلعب الطاولة أو بغير ذلك . .
وتترك ذلك النفع الحقيقي الذى يقودك إلى الجنة . . ولذلك قال الله سبحانه :

﴿ إِنَّمَا لِكَيْدِهِ إِلَّا عَلَى الْغَنِيِّينَ ۚ وَالَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾

(من الأئين ١٥ - ٤٦ سورة البقرة)

إذن العبادة أمر ونهى . . أمر يشق على نفسك فتستقله ، ونهى عن شىء محبب
إلى نفسك يعطيك لذة عاجلة ولذلك تريد أن تفعله . .

إذن فقله تعالى : « ونحن له عابدون » . . أى مطيعون لأوامره لأننا آمننا بالأمر
إلها وربا يعبد . . فإذا آمنت حبب الله إليك فعل الأشياء التى كنت تستقلها وسهل
عليك الامتناع عن الأشياء التى تحبها لأنها تعطيك لذة عاجلة . . هذه هى صبغة الله
التي تعطينا العبادة . . وقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا فِىكُمْ رَسُولٌ مِّنْ اللَّهِ لَوِ يَظْعِكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ

إِلَّا الْبُكَرُ الْإِيمَنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَّا الْبُكَرُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ
أُولَئِكَ هُمُ الرُّشِدُونَ ﴿٦١﴾

(سورة الحجرات)

وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى بصيغة الإيمان يجب إلينا الخير ويجعلنا نبتغى
الشر .. لا عن رياء ونفاق خارج النفس كالطلاء ولكن كالصبغة التي تتخلل الشيء
وتصبح هي وهو شيئا واحدا لا يفرقان ..



﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَنَا
أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ [١٦]

تحديد الأمر بقُلْ إيقاظ لمهمة التكليف عند رسول الله صل الله عليه وسلم . .
والله سبحانه وتعالى حين يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام - قل - كان يكفي أن
يقول ما يريد سبحانه . . فانت إذا قلت لابنك اذهب إلى أخيك وقل له أبوك يأمرك
بكذا فيذهب الولد ويقول هذا الكلام دون أن يقول كلمة قل . . ولكن خطاب الله
لرسوله صل الله عليه وسلم بكلمة قل تلفتتا إلى أن هذا الأمر ليس من عنده ولكنه
من عند الله سبحانه ، ومهمة الرسول هي البلاغ .

إن تكرار كلمة « قل » في الآيات هي نسبة الكلام المقول إلى عظمة فائله الأول
وهو الله تبارك وتعالى . . فالكلام ليس من عند رسول الله ولكن فائله هو الله جل
جلاله .

قوله تعالى : « قل أتعاجوننا في الله وهو ربنا وربكم » . . الحاجة معناها حوار
بالحجة ، كل من المتحاورين يأتي بالحجة التي تؤيد رأيه أو وجهة نظره . . وإذا قرأت
قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ سَاحَّ بِرَبِّهِمْ فِي رَبِّهِ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

أي قال كل منها حجته . . ولابد أن يكونا خصمين كل منهما يعاند رأيه الرأي

الأخر وكل يحاول أن يأتي بالحجة التي تثبت صدق كلامه فيرد عليه خصمه بالحجة التي تهدم هذا الكلام وهكذا .

قوله تعالى : « اتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم » .. ومادام الله رب الجميع كان من المنطق أن نلتقي لأنه ربى وربكم حفظنا منه سواء .. ولكن مادامت قد قامت الحجة بيننا فأخذنا على باطل .. واقرأ قوله سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يَحْتَجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ نَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جُمُوعٌ مُقْتَضِيَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَنْهُمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝ ﴾

(سورة الشورى)

والمحاجة لا يمكن أن تقوم بين حق وحق وإنما تقوم بين حق وباطل وبين باطل وباطل .. لأن هناك حقا واحدا ولكن هناك مائة طريق إلى الباطل .. فمادامت المحاجة قد قامت بيننا وبينكم ونحن على حق فلا بد أنكم على باطل .. وليحسم الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة ويمنع الجدل والجدال قال سبحانه : « ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون » .. أى لا تريد جدلا لأن الجدل لن يفيد شيئا .. نحن لنا أعمالنا وأنتم لكم أعمالكم وكل عمل سيجازى صاحبه عليه بمدى إخلاصه لله .. ونحن أخلصنا العبادة لله وحده وأنتم التجهتم بعبادتكم إلى ما تحبه أهواؤكم .

إن الله سبحانه وتعالى الذى هو ربنا وربكم لا يفضل أحدا على أحد إلا بالعمل الصالح المخلص لوجه الله .. ولذلك فنحن نضع الإخلاص أولا وقد يكون العمل واحدا أمام الناس .. هذا يأخذ به ثوابا وذلك يأخذ به وزرا وعذابا فالله هو أن يكون العمل خالصا لله .

قد يقول إنسان إن الإخلاص فى العمل والعمل مكانه القلب .. ومادام الإنسان لا يؤذى أحدا ولا يفعل منكرا فليس من الضرورى أن يصل مادامت النية خالصة .. نقول إن المسألة ليست نيات فقط ولكنها أعمال ونيات .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(إنما الأعمال بالنيات^(١)) .

فلا بد من عمل بعد النية .. لأن النية تنتفع بها وحدك والعمل يعود على الناس .. فإذا كان في نيتك أن تصدق وتصدق انتفع الفقراء بمالك .. ولكن إذا لم يكن في نيتك فعل الخير وفعلته لتحصل على سمعة أو لترضى بشرا انتفع الفقراء بمالك ولن تنتفع أنت بثواب هذا المال .. والله سبحانه وتعالى يريد أن يقرن عملك بنية الإخلاص لله .. والعمل حركة في الحياة والنية هي التي تعطى الثواب لصاحبه أو تمنع عنه الثواب ولذلك يقول الله جل جلاله :

﴿إِنْ تَبَدَّلُوا الْمَسَدَقَاتِ فَيَعْبَاهِىَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُؤْتَوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

(سورة البقرة)

فإنه سبحانه وتعالى يريدنا أن نتصدق .. والفقير سيتنفع بالصدقة سواء كانت نيتك أن يقال عنك رجل الخير المتصدق .. أو أن يقال عنك رجل البر والتقوى أو أن تخفى صدقتك .. فالعمل يفعل فينتفع به الناس سواء أردت أم لم ترد . أنت إذا قررت أن تبني عمارة ، النية هنا هي التملك . ولكن انتفع ألوف الناس بهذا العمل ابتداء من الذى باع لك قطعة الأرض الذى أعد لك الرسم الهندسى وعمال الحفر والذى وضع الأساس ومن قام بالبناء وغيرهم وغيرهم .. هؤلاء انتفعوا من عملك برزق لهم .. سواء أكان في مالك الله أم لم يكن في مالك الله فقد انتفعوا .

إذن فكل عمل فيه نفع للناس أردت أو لم ترد .. ولكن الله لا يجزى على الأعمال باطلاقها وإنما يجزى على النيات باخلاصها .. فإن كان عملك خالصا لله جزاك الله عليه .. وإن كان عملك لهدف آخر فلا جزاء لك عند الله لأنه سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك .

إن الذين يتعجبون من أن إنسانا كافرا قدم كشفاً هاماً للبشرية ولكنه لم يكن مؤمناً بالله .. يتعجبون أيعذب في النار؟ نقول نعم لأنه عمل وليس في قلبه الله .. ولذلك يجازى في الحياة الدنيا ، فنقام له التائبين ويطلق اسمه على الميادين ويحذف اسمه في الدنيا التي عمل من أجلها .. ولكن مادام ليس في نية الله فلا جزاء له عند الله .

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأبو نعيم في الحلية والدارقطني بإسناد مختلف .

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ
قُلْ أَتَنْتَهُمُ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ
شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿١١٠﴾

اليهود والنصارى ادعوا أن الأنبياء السابقين موسى وعيسى كانوا يهودا أو نصارى. فاليهود ادعوا أنهم كانوا يهودا. والنصارى ادعوا أنهم كانوا نصارى، الله سبحانه وتعالى يرد عليهم بقوله: **وَقُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ** . . .

والسؤال هنا لا يوجد له إلا رد واحد لأنهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أعلم من الله .. وقلنا إنه إذا طرح سؤال في القرآن الكريم فلا بد أن يكون جوابه مؤيذا بما يريد الحق سبحانه وتعالى ولا يوجد له إلا جواب واحد .. ولذلك فإن قوله تعالى : « أنتم أعلم أم الله » .. والله لأشك أعلم وهذا واقع .

إذن فكان الله بالسؤال قد أعبر عن القضية .. ولكن يلاحظ في هذه الآية الكرمة
ذكر إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط .. وفي ذكر إسماعيل دائماً مع
اسحق ويعقوب يدل على وحدة البلاغ الإيماني عن الله ، لأن إسماعيل كان في أمة
العرب واسحق ويعقوب كانا في بني إسرائيل .

والحق سبحانه وتعالى يتحدث عن وحدة المصدر الإيماني لحلقه ، لأنه لا علاقة أن يكون إسماعيل للعرب واسحق لقبر العرب بوحدة المنهج الإلهي. ولذلك تقرأ قول الحق تعالى :

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهُكَ وَإِنَّكَ عَبْدُ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَنَعْبُدُ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَكَ

مُتَّبِعُونَ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة البقرة)

والله الذي بعث إسماعيل هو الله الذي بعث اسحق إله واحد أحد . . وما دام الإله واحداً فالمنهج الإيمانى لابد أن يكون واحداً . . فإذا حدث خلاف فالحلاف من البشر الذين يعرفون المنهج ليحققوا شهوات ومكاسب لهم . . وكل نفس لها ما كسبت فلن ينفعكم نسبكم إليهم ولن يضيف إليكم شيئا في الآخرة . . إن كانوا مؤمنين فلن ينفعكم أن تكفروا وأن تقولوا نحن ننسب إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق . . وإن كانوا غير ذلك فلا يضركم شيئا .



﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ
وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١١)

بعض الناس يقول إن هذه الآية مكررة فقد تقدمتها آية تقول :

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّهُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١١١)

(سورة البقرة)

بعض السطحين يقولون إن في هاتين الآيتين تكرارا . . نقول إنك لم تفهم المعنى . . الآية الأولى تقول لليهود إن نسبكم إلى إبراهيم واسحق لن يشفع لكم عند الله بما حرمتموه وغيرتموه في التوراة . . وبما تفعلونه من غير ما شرع الله . فاعلموا أن عملكم هو الذي ستحاسبون عليه وليس نسبكم .

أما في الآية التي نحن بصدها فقد قالوا إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق كانوا هودا أو نصارى . . الله تبارك وتعالى لا يجادلهم وإنما يقول لهم لغرض . وهذا فرض غير

صحيح - إن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى فهذا لن يكون عذرا لكم . . لأن لهم ما كتبوا ولكم ما كتبتم ، فلا تأخذوا ذلك حجة على الله يوم القيامة . . ولا تقولوا إنما كنا نحسب أن إبراهيم وإسماعيل واسحق كانوا هودا أو نصارى أى كانوا على غير دين الإسلام لأن هذه حجة غير مقبولة . . وهل أنتم أعلم أم الله سبحانه الذى يشهد بأنهم كانوا مسلمين .

إياك أن تقول إن هناك تكراراً . . فإن السياق فى الآية الأولى يقول لا شفاعة لكم يوم القيامة فى نسيكم إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق . . والى السياق فى الآية الثانية يقول لا حجة لكم يوم القيامة فى قولكم إنهم كانوا هودا أو نصارى . . فلن ينفعكم نسيكم إليهم ولن يقبل الله حجبتكم . . وهكذا فإن المعنى مختلف تماماً بمس موقعين مختلفين يوم القيامة .



سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الْقَوْلُ
عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ

ولكن لأنهم سفهاء فعلا .. والسفه جهل وحق وطيش قالوها .. فكانوا وهم الكافرون بالقرآن الذين يريدون هدم هذا الدين من الميثيق للإيمان الذين تشهد أعماهم بصدق القرآن. لأن الله سبحانه قال : « سيقول السفهاء » وهم قالوا فعلا .. ولقد قال كفار مكة عن الكعبة إنها بيتنا وبيت آبائنا وليست بيت الله .. فصرف الله رسوله في أول الإسلام ووجهه إلى بيت المقدس .. وعندئذ قال اليهود: يسفه ديننا ويتبع قبلتنا .. والله سبحانه وتعالى أراد أن يمتري الإسلام كل دين قبله فتكون القداسة للكل .. ولذلك أسرى برسوله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس .. حتى يدخل بيت المقدس في مقدسات الإسلام لأنه أصبح عتري في الإسلام .

ولم يشأ الله أن يجعل القبلة إلى الكعبة أول الأمر لأنهم كانوا يقدسونها على أنها بيت العرب وكانوا يضعون فيها أصنامهم .. ووضع الأصنام في الكعبة شهادة بأن لها قداسة في ذاتها .. فالقداسة لم تأت بأصنامهم بل هم أرادوا أن يعمروا هذه الأصنام فوضعوها في الكعبة .. لماذا لم يضعوها في مكان آخر ؟ لأن الكعبة مقدسة بدون أصنام .

والله سبحانه وتعالى حين قال : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها » .. ولأه معنى حرفه ورده .. والقبلة التي كانوا عليها هي بيت المقدس .. وهنا يأتي الحق برد جامع هو أن أوامر الله الإيمانية لا ترتبط بالعلة .. إنما علة التنفيذ فيها يأمرنا الله سبحانه به جل جلاله أن الله هو الأمر .. ولو أن الحق تبارك وتعالى بين لنا السبب أو العلة في تغيير القبلة لما كان الأمر امتحانا للإيمان في القلوب .. لأن الإيمان والعبادة هي طاعة معبود فيها يأمر وما ينهى .. يقول لك الله عظم هذا الحجر وهو الحجر الأسود الموجود في الكعبة وتعظمه بالاستسلام والتقبل .. ويقول لك : ارجع هذا الحجر الذي يرمز إلى إبليس فترجعه بالحصى ، ولا يقول الله سبحانه لماذا ؟ لأنه لو قال لماذا ضاع الإيمان هنا وأصبح الأمر مسألة التنازع واقتناع .

فأنا حين أقول لك لا تأكل هذا لأنه مر وكل هذا لأنه حلوا يكون السبب واضحا .. ولكن الله تبارك وتعالى يقول لك كل هذا ولا تأكل هذا .. فإن أكلت مما حرمه تكون أثما. وإن امتنعت تكون طائعا وثواب ..

إذن العلة الإيمانية هي أن الأمر صادر من الله سبحانه .. ولو أنك إمتنعت عن

شرب الخمر لأنها ضارة بالصحة أو تفسد الكبد فلا ثواب لك ، ولو امتنعت عن أكل لحم الخنزير لأن فيه كمية كبيرة من الكولسترول وله مضار كثيرة فلا ثواب لك . . ولكنك لو امتنعت عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير لأن الله حرمهما . . فهذه هي العبادة وهذا هو الثواب .

الله سبحانه وتعالى أراد أن يرد على هؤلاء السفهاء فقال : وقل لله المشرق والمغرب يدي من يشاء إلى صراط مستقيم . . أي أنك إذا اتجهت إلى بيت المقدس أو اتجهت إلى الكعبة أو اتجهت إلى أي مكان في هذا الكون فإله موجود فيه . . فبيت المقدس ليس له خصوصية بذاته ، والكعبة ليس لها خصوصية بذاتها . . ولكن أمر الله تبارك وتعالى هو الذي يعطيها هذه الخصوصية . . فإذا اتجهنا إلى بيت المقدس فنحن نتجه إليه طاعة لأمر الله . . فإذا قال الله سبحانه اتجهوا إلى الكعبة اتجهنا إليها طاعة لأمر الله .

قوله تعالى : وبيدي من يشاء إلى صراط مستقيم . . الصراط هو الطريق المستقيم لا التواء فيه بحيث يكون أقرب المسافات إلى الهدف . والله سبحانه وجهنا لبيت المقدس فهو صراط مستقيم نتبعه . . وجهنا إلى الكعبة فهو صراط مستقيم نتبعه . . فالأمر الله .



﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا
الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ
مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ إِنَّ
اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

ساعة ترى كذلك فهناك تشبيه . . الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نتنبه إلى نعمته
في أنه جعلنا أمة وسطا . . فكل ما يشرعه الله يدخل في باب النعم على المؤمنين . .
وإذا كان الاتجاه إلى الكعبة هو اختبار لليقين الإيمان في نفوس المسلمين . . فإنه
سبحانه جعلنا أمة وسطا نعمة منه ، ومادنا وسطا فلا بد أن هناك أطرافا حتى يتحدد
الوسط . . هذا طرف ثم الوسط ثم طرف آخر . . ووسط الشيء منتصفه أو ما بين
الطرفين .

ولكن ما معنى أمة وسطا ؟ وسط في الإيمان والعقيدة. فهناك من أنكروا وجود الإله
الحق . . وهناك من أسرفوا فعددوا الألهة . . هذا الطرف غطىء . وهذا الطرف
غطىء . . أما نحن المسلمين فقلنا لا إله إلا الله وحده لا شريك له واحد أحد . .
وهذه بدينية من بدينيات هذا الكون . . لأن الله تبارك وتعالى خلق الكون وخلق كل
ما فيه وقال سبحانه إنه خلق . . ولم يأت ولن يأت من يدعى الخلق . . إذن فالدعوى
خاصة لله تبارك وتعالى . . ولو كان في هذا الكون ألهة متعددة لادعى كل واحد منهم
الخلق . . ولذلك فإن الله جل جلاله يقول :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَدْعَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّ

بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٩١ سورة المؤمنون)

أى لتنازع الخلق ولاضطرب الكون .. فالإسلام دين وسط بين الإلحاد وتعدد الآلهة .. على أن هناك أناسا يسرفون في المادية ويحملون القيم الروحية .. وأناسا يحملون المادة ويؤمنون بالقيم الروحية وحدها .

واقع الحياة أن الماديين يفتنون الروحانيين لأن عندهم المال والقوة .. الإسلام جاء وسطا فيه المادة والروح .. وإياك أن تقول أن الروح أحسن من المادة أو المادة أحسن من الروح .. فالمادة وحدها والروح وحدها مسخرة وعابدة ومسبحة لله تعالى .. لكن حين تختلط المادة بالروح فإنه توجد النفس ، والنفس هى التى لها اختيار تطيع أو تمعص .. تعبد أو تكفر والعبادة بالله .

الله سبحانه يريد من المؤمنين أن يعيشوا مادية الحياة بقيم السماء .. وهذه وسطية الإسلام ، لم يأخذ الروح وحدها ولا المادة وحدها .. وإنما أوجد مادية الحياة محروسة بقيم السماء .. فحين يخبرنا الله سبحانه أنه سيجعلنا أمة وسطا تجمع غير الطرفين نعرف أن الدين جاء ليصمم البشر من أهواء البشر .

الله تبارك وتعالى يريدنا أن نبحث في ماديات الكون بما يخلق التقدم والرفاهية والقوة للبشرية .. فما هو مادى معمل لا يختلف البشر فيه .. لكن ما يدخل فيه أهواء البشر ستضع السماء لكم قانونه .. فلذا عشتم بالأهواء ستشقون .. وإذا عشتم بنظريات السماء ستسعدون .

قد يتساءل البعض هل الشيوعية التى جاءت منذ أكثر من نصف قرن ارتقت بشعوبها أم لا ؟ نقول انظروا إليها الآن لقد بنت ما ادعت من ارتفاعات على الكذب والزيف .. ثم تراجعت ثم انهارت تماما .. وكما انهارت الشيوعية ستهار الرأسالية لأنها طرفان متناقضان إنما نحن أمة وسطا .. ولذلك أعطانا الله سبحانه خيرى الدنيا والأخرة .

الحق سبحانه يقول : « لتكونوا شهداء على الناس » .. أى أن الحججة ستكون لكم في المستقبل .. وسيضطر العالم إلى الرجوع إلى ما يقتنه دينكم .. والله تبارك وتعالى قال : « أمة وسطا » ولم يقل الوسط بكسر الواو أى المتصنف حتى لا يقال إن هؤلاء الرأساليين والشيوعيين سيتراجعون إلى الحق تماما .. ولكن بعضهم سيميل

قليلاً إلى هذه الناحية أو تلك بحيث يتم اللقاء .. ولذلك عندما يقولون نأخذ أموال الأغنياء ونوزعها على الفقراء .. نقول لهم وعندما يأتي فقير في المستقبل .. من أين تعطيه بعد أن قضيت على الأغنياء؟

وقد سمعت من شخص له تجربة في السياسة والحكم .. قال إن الذي كان يعمل معي وأضاع ماله كله على الخمر والقمار والنساء كان أحسن مني .. لأنني احتفظت بأموالي ونميتها فقالوا إنك إقطاعي وصادروها .. بينما ذلك الذي أسرف لم يفعلوا به شيئاً .. قلت إن الله سبحانه وتعالى يريد منك أن تنمي مالك .. لأنك إن لم تنمه ودفعت عنه زكاة ٢/٢٪ فالمال يفتنى خلال أربعين سنة .. ولكن إذا نميت مالك وجاءوا إلى ناتج عملك وأخذوه بدعوى أنك إقطاعي فإنهم يقضون على العمل في المجتمع .. لأنه إذا كنت ستأخذ ناتج عمله بدون حق فلماذا يعمل؟ إن الإسلام جاء ليزيد مجال حركة الحياة ويضمن مال المتحرك .. ليأخذ من ماله زكاة ويعين غير القادر حتى لا ينفد على المجتمع .. هذا وسط .

وقوله تعالى : « لتكونوا شهداء على الناس » .. فكأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه ستحدث في الكون معركة لن يفصل فيها إلا شهادة هذه الأمة .. فاليمين أو الرأسالية على خطأ ، والشيعوية على خطأ .. أما منهج الله الذي وضع الموازين القسط للكون والحياة الإنسان فهو الصواب .. ثم يخبرنا الحق تبارك وتعالى إن الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون شهيداً علينا .. هل كان عملنا وتحركنا مطابقاً لما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم وبلغه الرسول عليه الصلاة والسلام لنا ؟ أم أننا اتبعنا أهواءنا وانحرفنا عن المنهج .

الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون شهيداً علينا في هذه النقطة .. تلك الآية وإن كانت قد بشرت الأمة الوسط بأن العالم سيعود إلى حكمها، فذلك لا يمكن أن يحدث .. إلا إذا سادت شهادة الحق والعدل فيها :

وقوله تعالى : « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » .. هذه عودة إلى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة .. الله تبارك وتعالى لا يفضل اتجاهاً على اتجاه .. ولذلك فإن الذين يتجهون إلى الكعبة ستختلف اتجاهاتهم حسب موقع بلادهم من الكعبة .. هذا يتجه إلى الشرق وهذا يتجه إلى الشمال الشرقي .. وهذا يتجه إلى الجنوب الغربي .

إنه ليس هناك عند الله انجاء مفضل على انجاء .. ولكن تغيير القبلة جعله الله سبحانه اختيارا إيمانيا ليس علم معرفة ولكن علم مشهد .. لأن الله سبحانه وتعالى يعلم .. ولكنه جل جلاله يريد أن يكون الإنسان شهيدا على نفسه يوم القيامة .. ولكنه اختبار إيماني ليعلم الله مدى إيمانكم ومن يستطيع الرسول فيا جاءه من الله ومن سينقلب على عقبه .. فكان أمر تحويل القبلة سيحدث هزة إيمانية عنيفة في المسلمين أنفسهم .. فيعلم الله من يستمر في إيمانه واتباعه لرسول الله .. ومن سيرفض ويتحول عن دين الإسلام .

وقوله تعالى : « وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » .. والله يريد هنا العلم الذي سيكون شهيدا على الناس يوم القيامة .. وعملية الابتلاء أو الاختبار في تغيير القبلة عملية شاقة .. إلا على المؤمنين الذين يرجون بكل تكليف .. لأنهم يعرفون أن الإيمان هو الطاعة ولا ينظرون إلى علة الأشياء .

ولكن الكفار والمنافقين واليهود لم يتركوا عملية تحويل القبلة تمر هكذا فقالوا : إن كانت القبلة هي الكعبة فقد ضاعت صلاتكم أيام اتجهتم إلى بيت المقدس .. وإن كانت القبلة هي بيت المقدس فستضيع صلاتكم وأنتم متجهون إلى الكعبة .

نقول لهم لا تعزلوا الحكم عن زمنه .. قبله بيت المقدس كانت في زمنها والكعبة تأتي في زمنها .. لا هذه اعتدت على هذه ولا هذه اعتدت على هذه .. ولقد مات أناس من المؤمنين وهم يصلون إلى بيت المقدس فقام المشككون وقالوا صلاتهم غير مقبولة .. ورد الله سبحانه بقوله : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » .. لأن الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس كانوا مطيعين لله مؤمنين به فلا يضيع الله إيمانهم .

وقوله تعالى : « إن الله بالناس لرءوف رحيم » .. أي تذكروا انكم تؤمنون برب رءوف لا يريد بكم مشقة .. رحيم يمنح البلاء عنكم .



﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

نحن نعلم أن « قد » للتحقيق .. و « نرى » .. فعل مضارع مما يدل على أن الحدث في زمن التكلم .. الحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. أنه يجب ويشاق أن يتجه إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس .. وكان عليه الصلاة والسلام قد اعتاد أن يأتيه الوحي من علو .. فكانه صلى الله عليه وسلم كان يتجه بصره إلى السماء مكان إتياء الوحي .. ولا يتأتى ذلك إلا إذا كان قلبه متعلقا بأن يأتيه الوحي بتغير القبلة .. فكان هذا أمر شغله .

إن الله سبحانه يحيط برسوله صلى الله عليه وسلم بأنه قد رأى تقلب وجه رسوله الكريم في السماء وأجاب ليتجه إلى القبلة التي يرضاها .. فهل معنى ذلك أن القبلة التي كان عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وهي بيت المقدس لم يكن راضيا عنها ؟ نقول لا .. وإنما الرضا دائما يتعلق بالعاطفة ، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل .. ولذلك لا يقول أحد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن راضيا عن قبلة بيت المقدس .. وإنما كان يتجه إلى بيت المقدس وفي قلبه عاطفة تتجه إلى الكعبة .. هذا يدل على الطاعة والالتزام

الله يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام : « فلنولينك قبلة ترضاها » أي تحبها بعاطفتك .. ورسول الله عليه الصلاة والسلام كان يتطلع إلى هذا التغيير فكان عواطفه صلى الله عليه وسلم اتجهت لتضع مقدمات التحويل .

قال الله تعالى : « قول وجهك شطر المسجد الحرام » .. والمراد بالوجه هو الذات كلها وكلمة شطر معناها الجهة ، والشطر معناه النصف .. وكلا المعنيين صحيح لأنه حين يوجد الإنسان في مكان يصبح مركزاً للدائرة ينتهي بشيء اسمه الأفق وهو مدى البصر .. وما يجيل إليك عنده أن السماء انطبقت على الأرض .

إن كل إنسان منا له دائرة على حسب نظره فإذا ارتفع الإنسان اتسع الدائرة .. وإذا كان بصره ضعيفاً يكون أفقه أقل ، ويكون هو في وسط دائرة نصفها أمامه ونصفها خلفه .

إذن الذي يقول الشطر هو النصف صحيح والذي يقول إن الشطر هو الجهة صحيح .

وقوله تعالى : « قول وجهك شطر المسجد الحرام » .. أي اجعل وجهك جهة المسجد الحرام . أو اجعل المسجد الحرام في نصف الدائرة التي أمامك .. وفي الزمن الماضي كانت العبادات تتم في أماكن خاصة .. إلى أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الله له الأرض كلها مسجداً .

إن المسجد هو مكان السجود ونظراً لأن السجود هو متتهى الخضوع لله فسمى المكان الذي تصل فيه مسجداً .. ولكن هناك فرق بين مكان تسجد فيه ومكان تجعله مقصوداً على الصلاة لله ولا تزاول فيه شيئاً آخر . المسجد مخصص للصلاة والعبادة .. أما المكان الذي تسجد فيه وتزاول حركة حياتك فلا يسمى مسجداً إلا ساعة تسجد فيه .. والكعبة بيت الله . باختيار الله . وجميع مساجد الأرض بيوت الله باختيار خلق الله .. ولذلك كان بيت الله باختيار الله قبله لبيوت الله باختيار خلق الله .

وقوله تعالى : « وحيثاً كنتم » يعني أينما كنتم .. « قولوا وجوهكم شطره » .. لأن الآية نزلت وهم في مسجد بني سلمة بالمدينة فتحول المسلمون إلى المسجد الحرام .. وحتى لا يعتقد أحد أن التحويل في هذا المسجد فقط وفي الوقت الذي نزلت فيه الآية فقط قال تعالى : « وحيثاً كنتم قولوا وجوهكم شطره » ..

وقوله جل جلاله : « وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله

بغافل عما يعملون » . . أى أن الذين أوتوا الكتاب ويحاولون التشكيك في اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . يعلمون أن رسول الله هو الرسول الخاتم ويعرفون أوصافه التي ذكرت في التوراة والإنجيل . . ويعلمون أنه صاحب القبلتين . . ولو لم يتجه الرسول صلى الله عليه وسلم من بيت المقدس إلى الكعبة . . لقالوا إن التوراة والإنجيل تقولان إن الرسول الخاتم عمداً صلى الله عليه وسلم يصل إلى قبلتين فلماذا لم تتحقق ؟ ولكن هذا أدعى إلى التشكيك .

إذن فالذين أوتوا الكتاب يعلمون أنه الحق من ربهم . . لأنه في التوراة أن الرسول الذي سيحيى وستنجه إلى بيت المقدس ثم يتجه إلى البيت الحرام . . فكان هذا التحويل بالنسبة لأهل الكتاب تثبيت لإيمانهم بالرسول عليه الصلاة والسلام وليس سبباً في زعزعة اليقين .

وقوله تعالى : « وما الله بغافل عما يعملون » . . يريد الحق تبارك وتعالى أن يطمئن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تشكيكهم لا يقدم ولا يؤخر . . فموقفهم ليس لطلب الحجة ولكن للمكابرة . . فهم لا يريدون حجة ولا دليلاً إيمانياً . . ولكنهم يريدون المكابرة .



﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ أَلِيمٍ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الْفَاطِلِينَ ﴾



اتباع القبلة مظهر إيمان في الدين ، فهاهنا آمنت بدينك فاتبع قبلك .. لا تؤمن بدينك لا أتبع قبلك .

وقوله تعالى : « ولئن أتيت « ساعة تسمع » ولئن « وارولام وإن .. هذا قسم . فكان الحق تبارك وتعالى أقسم أنه لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب بكل آية ما آمنوا بدينه ولا اتبعوا قبلكه .. لماذا ؟ لأنهم لا يبحثون عن دليل ولا يريدون الاقتناع بصحة الدين الجديد .. ولو كانوا يريدون دليلاً أو اقتناعاً لوجدوه في كتبهم التي أنبأهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه النبي الخاتم وأعطتهم أوصافه .. فكان الدليل عندهم ولكنهم يأخذون الأمر سفهاً واعتاداً ومكابرة .

وقوله تعالى : « وما أنت بتابع قبيلتهم » .. فكانه حين جاءت الآية بتغيير القبلة أعلمنا الله أن المسلمين لن يعودوا مرة أخرى إلى الانتماء نحو بيت المقدس ولن يحولهم الله إلى جهة ثالثة .. ولكي يعلمنا الله سبحانه وتعالى أن اليهود والنصارى سيكونون في جانب ونحن ستكون في جانب آخر .. وأنه ليس هناك التقاء بيننا وبينهم . قال سبحانه : « وما بعضهم بتابع قبلة بعض » .. فالخلاف في القبلة مستمر إلى يوم القيامة .

وقول الحق : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين » .. حين يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله وحبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه الآية .. وهو يعلم أن محمداً الرسول المعصوم لا يمكن أن يتبع أهواءهم .. نقول إن المقصود بهذه الآية هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

إن الله يخاطب أمته في شخصه قائلاً : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين » .. ما هي أهواء أهل الكتاب ؟ هي أن يهادنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يقول إن ما حرفوه في كتبهم أنزله الله .. وهكذا يجعل هوى نفوسهم أمراً متبعاً .. فكان الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفت أمة محمد عليه الصلاة والسلام .. إلى أن كل من يتبع أهواء أهل الكتاب وما حرفوه سيكون من الظالمين مهما كانت درجته من الإيمان .. وإذا كان الله تبارك وتعالى لن يقلل هذا من رسوله وحبيه فكيف يقله من أى فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

إن الخطأ هنا ليس قمة من قمم الإيمان التي تفسد العقيدة كلها .. والله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعرف أنه لا يتسامح فيها ولا يقبلها حتى لو حدثت من رسوله ولو أنها لن تحدث .. ولكن لنعرف أنها مرفوضة تماماً من الله على أى مستوى من مستويات الإيمان حتى في مستوى القمة فتبتعد أمة محمد عن مثل هذا الفعل تماماً .



﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٦٦)

الله تبارك وتعالى يقول إن الذين جاءهم الكتاب قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفونه . . يعرفون ماذا ؟ هل يعرفون أمر تحويل القبلة ؟ أم يعرفون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثه رسالته التي يحاولون أن يشككوا فيها ؟ الله سبحانه وتعالى يشرح لنا ذلك في قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكْفُرُوا بِهِمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١٦٧)

(سورة البقرة)

فكان اليهود والنصارى يعرفون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم . . ومكتوب في التوراة والإنجيل أنه الحق ومطلوب منهم أن يؤمنوا به . . إن كعب الأحبار كان جالسا وعمر بن الخطاب رضى الله عنه كان موجودا فسأله عمر أكنتم تعرفونه يا كعب ؟ أى أكنتم تعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم ورسالته وأوصافه ؟ فقال كعب وهو من أحبار اليهود . . أعرفه كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لمحمد أشد . . فلما سأله لماذا ؟ قال لأن ابنى أخاف أن تكون امرأتى خائنتى فيه إما محمد (صلى الله عليه وسلم) فأوصافه المذكورة بالدقة في التوراة بحيث لا نخطئه .

إذن فأهل الكتاب يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرفون زمنه ورسالته . . والذين أسلموا منهم وأمنوا فعلوا ذلك عن اقتناع ، أما الذين لم يؤمنوا

وكفروا بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفوا ولكنهم كنتم ما تعرفونه ..
ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى عنهم : « وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم
يعلمون » .. وساعة تقول كنتم الشيء فكأن الشيء بطبيعته كان يجب أن يبرز
ويتشر .. والحق بطبيعته لا بد أن يبرز ويتشر ولكن إنكار الحق وكنتم يمتنع إلى
مجهود .

إن الذين يحققون في القضايا الدقيقة يحاولون أن يمنعوا القوة أن تكتم الحق ..
فيجعلون من يحققون معه لا يتم حتى تنهار قواه فينتقل بالحقيقة .. لأن التعلق بالحق
لا يحتاج إلى مجهود ، أما كنتم الحق فهو الذي يحتاج إلى مجهود وقوة ، وعدم التعلق
بالحق عملية شاقة .. ولكن الله سبحانه وتعالى يقول : « ليكتمون الحق وهم
يعلمون » .. أي أنهم ليسوا جاهلين ولكنهم على علم بالحقيقة .. والحق من الله
فهل يستطيع هؤلاء كتمانهم ؟ طبعاً لا ، لا بد أن يظهر .. فإذا انتشر الكذب والباطل
فهو كالآل الذي يحدث في الجسد .. الناس تكره الألم ولكن الألم من جنود الشفاء
لأنه يجعلك تحس أن هناك شيئاً أصابه مرض فتتجه إليه بأسباب العافية .

إن أخطر الأمراض هي التي لا يصاحبها ألم ولا تحس بها إلا بعد أن يكون قد فات
وقت العلاج .. والحق دائماً غالب على أمره ولذلك لا توجد معركة بين حقين .. أما
الباطل فتوجد معركة بين باطل وباطل ، وبين حق وباطل . لأنه لا يوجد إلا حق واحد
أما الباطل فكثير ..

والمعارك بين الحق والباطل تنتهي بهزيمة الباطل بسرعة .. ولكن الذي يطول هو
معركة بين باطلين .. ولذلك فإن معارك العصر الحديث تطول وتتعبد الدنيا ..
فمعارك الحرب العالمية الثانية مثلاً لازالت آثارها ممتدة حتى الآن في الحرب الباردة
وغير ذلك من الحروب الصغرى .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)^(١)

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

الحق من الله سبحانه وتعالى .. وما دام من الله فلا تكونن من الذين يشكون في أن الحق سيتصر .. ولكن الحق لا بد من قوة تحميه .. وكما يقول الشاعر :

السيف إن يزهى بجوهره

وليس يعمل إلا في يدي بطل

فما فائدة أن يكون معك سيف بتر .. دون أن توجد اليد القوية التي ستضرب به .. ونحن غالباً نكون مضطحين للحق لأننا لا نوفر له القوة التي يتصر بها .

وقوله تعالى : « فلا تكونن من الممترين » .. الممتري هو الذي يشك في حدوث الشيء .. والشك معناه أنه ليست هناك نسبة تغلب على نسبة .. أي أن الاحتمالين متساويان .. ولكن الحق من الله ولا توجد نسبة تقابله .. ولذلك لا يجب أن نشك ولا ندخل في جدل عقيم حول انتصار الحق .



﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا ۖ فَاسْتَخِروا الْخَيْرَاتِ إِنَّمَا تَكُونُوا
يَآئِدُ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا ۖ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

شاء الله سبحانه أن يجعل الإنسان مختاراً .. ومن هنا فإن له الاختيار في أن يؤمن أو لا يؤمن .. أن ينصر الحق أو ينصر الباطل .. أن يفعل الخير أو يفعل الشر .. كل هذه اختيارات شاء الله أن يعطيها للإنسان في الدنيا بحيث يستطيع أن يفعل أو لا يفعل .. ولكن هذا لن يبقى إلى الأبد - إن هذا الاختيار موجود في الحياة الدنيا .

ولكن بشرية الإنسان تنتهي ساعة الاحتضار فعند مواجهة الموت ونهاية العمر يصبح الإنسان مقهوراً وليس مختاراً .. فهو لا يملك شيئاً لنفسه ولا يستطيع أن يقول لن أموت الآن .. انتهت بشرته وسيطرته على نفسه حتى أعضاؤه تشهد عليه .. ففي الحياة الدنيا كل واحد يختار الوجهة التي يتجه إليها ، هذا يختار الكفر وهذا يختار الإيمان .. هذا يختار الطاعة وهذا يختار المعصية ، فإدام للإنسان اختيار فكل واحد له وجهة مختلفة عن الآخر .. والذي يهديه الله يتجه إلى الخيرات وكأنه يتسابق إليها .. لماذا ؟ لأنه لا يعرف متى يموت ولذلك كلما تسابق إلى خير كان ذلك حسنة أضافها لرصيده .

إن المطلوب من المؤمنين في الحياة الدنيا أن يتسابقوا إلى الخيرات قبل أن يأتيهم الأجل ولا يحسب واحد منهم أنه سيفلت من الله .. لأنه كما يقول عز وجل : « أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا » .. أى أنه ليس هناك مكان تستطيعون أن تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالى بل هو يعرف أماكنكم جميعاً واحداً واحداً وسيأتى بكم جميعاً مصداقاً لقوله تعالى :

﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْأَحْيَاءَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾

(سورة الكهف)

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ١١٩

لا بد أن تأمل كم مرة أكد القرآن الكريم قضية تحويل القبلة .. أكدها ثلاث مرات متتالية .. لأن تحويل القبلة أحدث هزة عنيفة في نفوس المؤمنين .. والحق سبحانه وتعالى يريد أن يذهب هذا الأثر ويؤكد تحويل القبلة تأكيداً إيمانياً .

لقد جاء بثلاث آيات التي هي أقل الجمع .. واحدة للمتجه إلى الكعبة وهو داخل المسجد .. والثانية للمتجه وهو خارج المسجد .. والثالثة للمتجه من الجهات جميعاً .

قوله تعالى : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام » .. هو رد على المنافقين واليهود والنصارى الذين حاولوا التشكيك في الإسلام .. بأن واجهوا المسلمين بقضية تغيير القبلة .. على أساس أنها قضية ما كان يجب أن تتم لأنه ليس فيها زيادة في التكليف ولا مشقة زائدة تزيد ثواب المؤمن .. فالجهد الذي يبذله المؤمن في الاتجاه إلى المسجد الأقصى هو نفس الجهد الذي يبذله في الاتجاه إلى البيت الحرام .. فأنت إذا اتجهت في صلاتك يمينا أو شمالاً أو شرقاً أو غرباً فإن ذلك لا يضيف إليك مشقة، فما هو سبب التغيير؟ .

نقول لهم إن هذه ليست حجة للتشكيك في تحويل القبلة لأن الاتجاه إلى المسجد الحرام هو طاعة لأمر الله .. ومادام الله سبحانه وتعالى قد قال فعلينا أن نطيع طاعة إيمانية .. يقول المولى جل جلاله : « وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون » .. أي أن ما فعلتموه من تحويل القبلة هو حق جاءكم من الله تبارك وتعالى .. والله عز وجل ليس غافلاً عن عملكم بحيث تكونون قد انجهمتم إلى البيت الحرام . بل الله يعلم ما تريدون وما تكتُمون .. فاطمئنوا انكم على الحق وولوا وجوهكم تجاه المسجد الحرام .. واعلموا أن الله سبحانه يحيط بكم في كل ما تعملون .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوِّلْ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ، لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا
تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأَتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

الحق تبارك وتعالى يؤكد لرسوله صل الله عليه وسلم أن يتوجه هو والمسلمون إلى المسجد الحرام .. سواء كانوا في المدينة أو في خارج المدينة أو في أي مكان على الأرض .. وتلك هي قبلتهم في كل صلاة بصرف النظر عن المكان الذي يصلون فيه .

وقوله تعالى : « لئلا يكون للناس عليكم حجة » .. الناس هنا المقصود بهم المنافقون واليهود والنصارى .. حجة في ماذا ؟ لأن المسلمين كانوا يتجهون إلى بيت المقدس فانتهبوا إلى المسجد الحرام .. وليس لبيت المقدس قدسية في ذاته ولا للمسجد الحرام قدسية في ذاته كما قلنا .. ولكن نحن نطيع الأمر من الأمر الأعلى وهو الله .. إن الله تبارك وتعالى أطلق على المنافقين واليهود والنصارى كلمة (ظلموا) ووصفهم بأنهم الذين ظلموا .. فمن هو الظالم ؟ الظالم هو من ينكر الحق أو يغير وجهته، أو ينقل الحق إلى باطل والباطل إلى حق .. والظلم هو تجاوز الحد وكأنه سبحانه وصفهم بأنهم قد تجاوزوا الحق وأنكروه بقول سبحانه : « فلا تخشَوْهم » أي لا تخشوا الذين ظلموا : « واتخشون ولأتُم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون » .. أي أن الخشية لله وحده والمؤمن لا يخشى بشراً .. لأنه يعلم أن القوة لله جميعاً .. ولذلك فإنه يقدم على كل عمل بقلب لا يهاب أحداً إلا الحق .

وقوله سبحانه : « ولأتُم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون » .. تمام النعمة هو

الإيمان. ونعم النعمة هو تنفيذ مطلوبات الإيمان . . فإذا هدانا الله للإيمان فهذا من نعم الله علينا . ولكي يكون الإيمان صحيحاً ومقبولاً فلا بد أن أؤدي مطالبه والمداومة على تنفيذ تكليفات الله لنا ، فلا نجعل التكليف يتقطع . لأن التكليف نعمة بتبنيها لا تصلح حياتنا ولا تتوالى نعم التكليف من الله سبحانه وتعالى إلا إذا أقبلنا على منهج الله بعشق . . وأنت حينما تأتى إلى المنهج قد يكون شاقاً ، ولكن إذا تذكرت ثواب كل طاعة فإنك ستخشع وتعشق التكليف . . لأنك تعرف العمل الصالح بثوابه والعمل في المعصية بعقابه . . ولذلك قال الله تبارك وتعالى :

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿١٢﴾﴾

(سورة البقرة)

إذن الخاشعون هم الذين يقرنون الطاعة بالثواب والمعصية بالعقاب والعذاب ، لأن الذي يتصرف عن الطاعة لشغفها عزل الطاعة عن الثواب فأصبحت ثقيلة ، والذي يذهب إلى المعصية عزل المعصية عن العقاب فأصبحت سهلة . . فمن قام النعمة أن يديم الله علينا فعل مطلوبات الإيمان . . ولذلك في حجة الوداع نزلت على رسول الله صل الله عليه وسلم الآية الكريمة :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

(من الآية ٣ صورة المائدة)

وكان ذلك اعتبارا بتمام رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الأحكام التكليفية قد انتهت . . ولكن الذين يستقلون التكليف تجهدهم يقولون لك لقد عم الفساد والله لا يكلف نفسا إلا وسعها . . كأنه يحكم بأن هذا في وسعه وهذا ليس في وسعه وعلى ضوئه يأخذ التكليف . . نقول له أكلّف الله أم لم يكلف ، إن كان قد كلف فيكون التكليف في وسعه . . لأنه سبحانه حين يمجّد مشقة يأمر بالتخفيف مثل إباحة قصر الصلاة للمسافر وإباحة الإفطار في رمضان للمريض والمسافر فهو سبحانه قد حدد ما في وسعه .

قوله تعالى : « ولعلكم تهتدون » .. الغداية هي الطريق المستقيم الموصل إلى الغاية وهو أقصر الطرق ، وغاية هذه الحياة هي أن تصل إلى نعيم الآخرة .. الله أعطاك في الدنيا الأسباب لتحكم حركة حياتك ولكن هذه ليست غاية الحياة .. بل الغاية أن نذهب إلى حياة بلا أسباب وهذه هي عظمة قدرة الله سبحانه وتعالى .. والله جل جلاله يأن ليعلما في الآخرة انه خلقنا لنعيش في الدنيا بالأسباب وفي الآخرة لنعيش في كنفه بلا أسباب .

إذن قوله تعالى : « ولعلكم تهتدون » .. أي لعلكم تتبهيون وتعرفون الغاية المطلوبة منكم .. ولا يظن أحدكم أن الحياة الدنيا هي الغاية أو هي النهاية أو هي الغداف .. فيعمل من أجل الدنيا فيأخذ منها ما يستطيع حلالا أو حراما باعتبارها المتعة الوحيدة المخلوقة له .. نقول لا ، إنه في هذه الحالة يكون قد ضل ولم يبتد لأنه لو اهتدى لعرف أن الحياة الحقيقية للإنسان هي في الآخرة . ولعرف أن نعيم الآخرة الذي لا يفوته ولا يفوتك .. يجب أن يكون هدفنا في الحياة الدنيا فنعمل ما نستطيع لتصل إلى النعيم بلا أسباب في الجنة .



﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ
ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (١٦١)

الله جل جلاله بعد أن حدثنا عن الهداية إلى منهجه وإلى طريقته . حدثنا عن
نعمته علينا بإرسال رسول يتلو علينا آيات الله . ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو
الذي سنأتى على يديه قمة النعم وهو القرآن والدين الحاتم .

قوله تعالى : « رسولا منكم » أى ليس من جنس آخر . ولكنه صلى الله عليه وسلم
رسول منكم تعرفونه قبل أن يكلف بالرسالة وقبل أن يأتى بالحجة . . لماذا ؟ لأنه
معروف بالخلق العظيم وبالقول الكريم والأمانة وبكل ما يزيد الإنسان رفعة وعلاوا
واحتراما . . إن أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم هم أولئك الذين
يعرفونه أكثر من غيرهم . . كأبى بكر الصديق وزوجته صلى الله عليه وسلم السيدة
خديجة وابن عمه على بن أبى طالب . . هؤلاء آمنوا دون أن يطلبوا دليلا لأنهم أخذوا
الإيمان من معرفتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلف بالرسالة . . فهم
لم يعرفوا عنه كذبا قط . فقالوا إن الذى لا يكذب على الناس لا يمكن أن يكذب على
الله فآمنوا . . فالحمد سبحانه وتعالى من رحمته أنه أرسل إليهم رسولا منهم أميا ليعلمه
ربه . . ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكَ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكَ عَلَيْهِ مَأَنِيَّتٌ حَرِيصٌ عَلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴾ (١٦٢)

الحق سبحانه يقول : « ينلو عليكم آياتنا ويزكيكم » .. الآيات هي القرآن الكريم والتزكية هي التطهير ولا بد أن يكون هناك درس ليظهرهم منه .. فظهرهم من عبادة الأصنام ومن وآد البنات والحمر والميسر والربا .. ومعنى التزكية أيضا سلب الضار فكأنه جاءهم بالنفع وسلب منهم الضر .

وقوله تعالى : « ويعلمكم الكتاب والحكمة » .. الكتاب على إطلاقه ينصرف إلى القرآن الكريم . والحكمة هي وضع الشيء في موضعه .. والكتاب يعطيك التكليف إما أن بأمرك بشيء وإما أن ينهاك عن شيء .

إذن فهي دائرة بين الفعل والترك .. والحكمة أن تفعل الفعل الذي يحقق لك خيرا ويمنع عنك الشر . وهي مأخوذة من الحكمة أو الحديدة التي توضع في فم الجواد لتحكم حركته في السير والوقوف ، وتصبح كل حركة تؤدي الغرض منها والحكمة أيضا هي أحاديث رسول الله صل الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَأَذِّنْ مَابَيْنَ فِ يَوْمَيْنِ مِّنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾

(من الآية ٣٤ سورة الاحزاب)

وقوله سبحانه : « ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » لأنكم أمة أمية . فإن بهرتكم الدنيا بحضارتها فستبهرونها بالإشعاعات الإيمانية التي تجعلكم متفوقين عليهم .. فكل ما يأتيكم من السماء هو فوق كل حضارات الأرض .. لذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما عمر لولا الإسلام .



﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾

قوله تعالى : « فاذكروني » أي كل هذه النعم والفضل عليكم يجب ألا تنسوها . .
أن تعيشوا دائماً في ذكر من أنعم عليكم . . فالحمد سبحانه وتعالى يريد من عباده الذكر
وهم كلما ذكروه سبحانه وشكروه وشكروهم وزادهم . . والله سبحانه وتعالى يقول في
حديث قديمي :

[أنا عند حسن ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في
نفسي ، وإن ذكرني في ملا ذكرته في ملا غير منه ، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه
ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة]^(١) .

هذه هي رغبة الكريم في أن يعطى بشرط أن تكون أهلاً للمعطاء لأنه يريد أن يعطيك
أكثر وأكثر . . فقوله تعالى : « اذكروني » أي اذكروا الله في كل شيء . في نعمه . في
عطائه . في ستره . في رحمته . في توبته . يقول بعض الصالحين : سمعت فيمن سمع عن
حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنك إذا ما أقبلت على شرب الماء قسمه ثلاثاً . .
أول جرعة قل باسم الله واشربها ، ثم قل الحمد لله وأبدأ شرب الجرعة الثانية وقل باسم الله
وبعد الانتهاء منها قل الحمد لله . . ثم قل باسم الله واشرب الجرعة الثالثة واختتمها بقولك
الحمد لله . فمادام هذا الماء في جوفك فلن تحدثك ذرة من جسدي بمصيبة الله . جربها يوماً
في نفسك وقل باسم الله واشرب ، وقل الحمد لله وكررها ثلاث مرات فإنك تكون قد
استقبلت النعمة بذكر المنعم وأبعدت عن نفسك حولك وقوتك ، وأهبطت النعمة بحمد
الله . ولكن لماذا الماء ؟ لأن الماء في الجوف أشبع من أي شيء آخر .

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه واحد في مستله بألفاظ مختلفة .

قوله تعالى : « وأشكروا لى ولا تكفرون » الشكر على النعمة يجعل الله سبحانه وتعالى يزيدك منها. واقرا قوله تبارك وتعالى :

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

وشكر الله يذهب الغرور عن نفسك فلا تفتك الأسباب وتقول أوتيته على علم منى . « ولا تكفرون » أى لا تستروا نعم الله بل اجعلوها دائما على ألسنتكم . . فإن كل نعمة من نعم الله لو استقبلت بقولك « ماشاء الله لا قوة إلا بالله » لا ترى فى النعمة مكروها أبدا لأنك حصنت النعمة بسياج المنعم . . أعطيت لله حقه فى نعمته فإن لم تفعل وتركتها كأنها منك وأنت موجدتها ونسيت المنعم وهو الله سبحانه وتعالى فإن النعمة تتركك .



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

الله سبحانه وتعالى يطالبنا أن نستعين بالصبر والصلاة . . على ماذا ؟ على كل ما يطلبه منا الله . . على تكليفاته ومنهجه نستعين على ذلك بالصبر والصلاة . . ولكن لماذا الصبر ؟ لأن الصبر هو منع النفس من الجزع من أى شيء يحدث وهو يأخذ ألوأنا شتى حسب تسمى الناس في العبادة .

فمثلا سئل الإمام على رضى الله عنه عن حق الجار ؟ قال : تعلمون أنك لا تؤذيه ؟ قالوا نعم . . قال وأن تصبر على أذاه . . فكانه ليس مطلوباً منك فقط ألا تؤذى جارك بل تصبر على أذاه . . والصبر هو الذى يعينك على أن تفعل ما أمرك الله به ولا تفعل ما نهاك الله عنه .

إن الله منعك من أشياء هي من شهوات النفس وأمرك بأشياء فيها مشقة وهذه عناية إلى الصبر . . وأنت أن أخذت منهج الله تعبدت ستأخذ فيها بعد عادة . يقول أحد الصالحين في دعائه : اللهم إن أسألك ألا تكلنى إلى نفسى لأنى أخشى يارب ألا تثيبنى على الطاعة لأنى أصبحت أشتتها فسبحانك أمرتنا أن نحارب شهواتنا . . أنظر إلى الطاعة من كثرة حب الله أصبحت مرغوبة محبة إلى النفس . . رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول ليلاً ساعة الأذان :

(أرحنا بها يا بلال) .

ولم يقل كما يقول بعض الناس والعباذ بالله أرحنا منها ؛ ذلك أن هناك من يقول

لك أن الصلاة تكون على كفى مثل الجبل وأرتاح ، نقول له أنت ترتاح بها ولا ترتاح منها . لأنك وقفت بين يدي الله المكلف ، ومادام الإنسان واقفا أمام ربه فكل أمر شاق يصبح سهلا .

يقول أحد العابدين : أنا لا أواجه الله بعبوديتي ولكن أواجهه بربوبيته فأرتاح لأنه ربي ورب العالمين . . الذي له أب يعينه لا يعمل هما فيالك بالذي له رب يعينه وينصره .

قول الحق سبحانه : « إن الله مع الصابرين » أي أنه يطلب منك أن تواجه الحياة في معية الله ، فأنت لو واجهت المشكلات في معية من تتق في قوته تواجه الأمور بشجاعة فيها لك إذا كنت في معية الله وكل شيء في الوجود خاضع لله ، أيحوز شيء أن يقف أمامك وأنت مع الله ؟

إن الأحداث لا تملأ الخلق بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من حضنة ربه . . وإنما من يعيش في حضنة ربه لا يحوز عليه الشيطان فالشيطان خناس . . ما معنى خناس ؟ إذا سهوت عن الله اجتراً عليك وإذا ذكرت الله خنس وضعف فهو لا قوة له . . وهو لا يدخل مع الله سبحانه وتعالى في معركة ، وإنما يدخل مع خلق الله الذين ينسون الله ويتعدون عنه يقول القرآن الكريم :

﴿ قَالَ قِيمْزُكَ لَأَعْرِيتَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾

(سورة ص)

ومادام الله سبحانه وتعالى مع الصابرين فلا بد أن نعشق الصبر . . وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا ؟ يقول الحق جل جلاله في الحديث القدسي :

[يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال : يارب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبادي فلاتاً مرض فلم تعدهم ؟ أما علمت أنك لو عدتني لوجدتني عنده] (١) ؟ يقول بعض الصالحين : اللهم إني أستحي أن أسألك الشفاء والعافية

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه .

حتى لا يكون ذلك زهدا في معيى لك .. إذن لابد أن نعتق الصبر لأنه يجعلنا دائما
في معية الله .

الله سبحانه وتعالى يقول : « إن الله مع الصابرين » .. ونحن نريد أن يكون الله
سبحانه معنا دائما .. إن هذه الآية لا تجعل الإنسان ييأس منها لقي في حركة حياته
من المشقة .



﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

الحق جل جلاله يعلم أن أحداث الإيمان وخصوم الإيمان سيواجهون المسلمين بمشقة عنيفة . . لا تهددهم في أموالهم فقط ولكن تهددهم في نفوسهم ، فأراد الله عز وجل أن يعطي المؤمنين مناعة ضد هذه الأحداث . . وأوصاهم بالصبر والصلاة يواجهون بها كل حدث يزههم يعنف . . قال لهم إن المسألة قد تصل إلى القتل . . إلى الاستشهاد في سبيل الله. وأراد أن يطمئنتهم بأن الشهادة هي أعلى مرتبة إيمانية يستطيع الإنسان المؤمن أن يصل إليها في الدنيا فقال سبحانه : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات » .

إن القتل هو أشد ما يمكن أن يقع على الإنسان . . فانت تصاب في مالك أو في ولدك أو في رزقك أو في صحتك ، أما أن تصاب في نفسك فتقتل فهذه هي المصيبة الكبرى . . والله سبحانه وتعالى سَمَّى الموت مصيبة . واقرأ قوله تعالى :

﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَصِبْتُمْ مِصْبَةَ الْمَوْتِ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة المائدة)

الله تبارك وتعالى أراد أن يفهم المؤمنون أن الذي يقتل في سبيل الله لا يموت . . وإنما يعطيه الله لونا جديدا من الحياة فيه من النعم ما لا يعد ولا يحصى . يقول جل جلاله : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » .

ما هو مظهر الحياة التي يعيشونها ؟ الحياة عندنا مظهرها الحركة ، والذي قتل في سبيل الله ما هي حركته بالنسبة لغير المؤمنين خصوص الإسلام والإيمان بأنه لن يسلب منه الحياة .. لأنه سيذهب إلى حياة أسعد والموت ينقله إلى غير ما هو فيه .. فإذا كان الكفار قد قتلوه فهم لم يسلبوه شيئا وإنما نقلوه إلى نعمة أكبر مما كان يعيش فيها .. أما بالنسبة للمؤمنين فإنه سيحمي لهم منهج الله ليصل إليهم إلى أن تقوم الساعة .

إن كل المعارك التي يستشهد فيها المؤمنون إنما هي سلسلة متصلة لحياة حركة الإيمان في الوجود .. وعظمة الحياة ليست في أن أتحرك أنا ولكن أن أجعل من بعدي يتحرك .. والمؤمن حين يستشهد يبقى أثره في الوجود لكل حركة من متحرك بعده .. فكل حركة لحياة الإيمان تستشهد به وبما فعله وتأخذ من سلوكه الإيمان دافعا لقتال وتستشهد فكان الحركة متصلة والعملية متصلة .. أما الكافر فإن الحياة تنتهي عنده بالموت ولكن تنتظره حياة أخرى حينما يبعث الله الناس جميعا ثم يأل بالموت فيموت .. وحين يموت الموت تصبح الحياة بلاموت إما في الجنة وإما في النار .

الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نعلم أن من يقتل في سبيل الله هو حي عند ربه ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة مباشرة .. ولا يكتب عليه الموت في حياة البرزخ حتى يوم القيامة مثل من يموت ميتة طبيعية ولا يموت شهيدا .. ولأن هذه الحياة حياة الشهداء أخفى الله سبحانه عنا تفاصيلها لأنها من حياة الآخرة .. وهي غيب عنا قال تبارك وتعالى : « ولكن لا تشعرون » .. ومادمت لا تشعريها فلا بد أن تكون حياة أهل من حياتنا الدنيوية .

الذي استشهد في عرف الناس سلب نفسه الحياة ولكنه في عرف الله أخذ حياة جديدة .. ونحن حين نفتح قبر أحد الشهداء نجد جسده كما هو فنقول إنه ميت أمانا .. لا بد أن تنتبه إنك لحظة فتحت عليه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة والله سبحانه قال : « أحياء عند ربهم » ولم يقل أحياء في عالم الشهادة .. فهو حي مادام في عالم الغيب ولكن أن نفتح وتكشف نجهده جسدا في قبره لأنه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة .. أما كيف ؟ قلنا إن الغيب ليس فيه كيف .. لذلك لن نعرف وليس مطلوبا منك أن تعرف .

إننا حين نجرى عملية جراحية لمريض يعطيه الطبيب (البنج) لكي يفقده الوعي والحس ولكن لا يعطيه له ليموت ثم يبدأ بجرى العملية فلا يشعر المريض بشيء من الألم .

فاللادة لا تحس لأنها هي التي أجريت عليها العملية والجسد لازال فيه الحياة من نبض وتنفس ولكنه لا يحس . . ولكن النفس الواعية التي غابت هي التي تحس بالألم .

أنت عندما يكون هناك ألم في جسدك وتنام ينقطع الإحساس بالألم فكان الألم ليس مسألة عضوية ولكنه مرتبط بالوعي . . فعند النوم تنتقل إلى عالم آخر قوانينه مختلفة . . والعلماء فحصوا مخ الإنسان وهو نائم فوجدوا أنه لا يستطيع أن يعمل أكثر من سبع ثوان يرى فيها رؤيا يظل يحكيها ساعات . . فإذا قال الحق تبارك وتعالى : « إنهم أحياء عند ربهم » . . فلا بد أن نأخذ هذه الحياة على أنها بقدرات الله ومن عنده . . والله عز وجل أراد أن يقرب لنا مسألة البعث والقيامة مثل مسألة النوم .

واقرا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الزمر)

فكان الحق جل جلاله يعطي الشهداء حياة دائمة خالدة لأنهم ماتوا في سبيله . . ومادام تعالى قال : « لا تشعرون » فلا تحاول أن تدركها بشعورك وحسك لأنك لن تدركها على أن الشهيد لابد أن يقتل في سبيل الله وليس لأى غرض دنيوى . . وإنما لتكون كلمة الله هي العليا .

